كون كوغلن

صدّام: الحياة السرية

ترجمة: مسلم الطعان

منشورات الجمل

كون كوغلن: صحافي بريطاني يكتب عن الشرق الاوسط منذ عشرين عاماً. تابع الحرب العراقية ـ الإيرانية وحرب الخليج مراسلاً صحافياً، ويعدّ واحداً من أبرز الصحافيين البريطانيين. وكان من أوائل الصحافيين الذين دخلوا الكويت بعد تحريرها! لديه العديد من المؤلفات التي حظيت بالترجمة إلى العديد من اللغات العالمية. من أبرز كتبه: **الرهائن**، ١٩٩٢، الذي أحدث حين صدوره أزمة سياسية، وقد تناول في كتابه المذكور قضية الرهائن الغربيين في لبنان. وهو الآن يقيم في لندن ويعمل محرراً في «الصانداي تلغراف».

* ولد **مسلم الطعان** في مدينة الناصرية في عام ١٩٥٥. حصل على شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي من جامعة بغداد -كلية الآداب عام ١٩٨٦. درّس الأدب واللغة الإنجليزية في عدة جامعات: البصرة، صنعاء، والفاتح (ليبيا). صدر له العديد من الأعمال الأدبية والترجمات عن الإنجليزية.

كون كوغلن: **صدّام، الحياة السرية**، ترجمة: مسلم الطعان، الطبعة الأولى

إلى ذكرى خوان ـ كارلوس غوميتشيو (١٩٥٠ ـ ٢٠٠٢)

المحتويات

مقدّمة

إن كتابة سيرة صدام حسين تشبه محاولة التحشيد لإقامة دعوى ضد رجل عصابات مجرم وسيئ السمعة. فمعظم الشهود الرئيسيين غالبا ما يتم اغتيالهم، أو أنهم خائفون جدا من الكلام. وحتى أولئك الرفاق القدامى لصدام والذين لم يروه لأكثر من عقدين يعيشون في خوف دائم من أنهم لو خالفوه الرأي علنا سيتلقون زيارة لواحدة من فرق الاغتيال أو أن أقاربهم الأحياء في العراق قد يعاقبون بسبب طيبتهم. ومع ذلك، في غضون السنوات التي أمضيتها في البحوث لإعداد هذا الكتاب، وافق عدد من رفاق صدام القدامى الباقين على قيد الحياة على مقابلتهم. وأولئك الذين كانوا مستعدين لأن تُذكر أسماؤهم تم التعرف إليهم فقط، وفي أغلب الحالات كان ذلك مستحيلا. وبالمثل هناك أعداد كبيرة من موظفي الحكومة، دبلوماسيين، ورجال أمن، من المستمرين في الخدمة ومن المتقاعدين، في الولايات المتحدة، وأوربا والشرق الأوسط من الذين دعموا هذا المشروع طلبوا بأن تحجب أسماؤهم. ولجميع أولئك الذين ساهموا في إنضاج هذا المشروع أتقدم بأخلص آيات الشكر. ومن الطبيعي أن أتحمل المسؤولية الكاملة للتوضيحات والاستنتاجات التي توصلت إليها في مسار كتابة هذا الكتاب.

أود أن أعبر عن امتناني للبندا بيدفورد وأمناء المكتبات في المعهد الملكي للشؤون العالمية في لندن للمساعدة المختصة الكافية على إيجاد المصادر المهمة، وإلى هيئة موظفي مكتبة التلغراف لمساعدتهم في إيجاد المقالات الصحفية المبهمة، وإلى جولز آميس لمساندتها الطيبة التي لا تكل. كذلك أنا مدين لزملائي وأصدقائي وعائلتي لتشجيعهم ومساندتهم.

تمهيد

طريد العدالة

بفترة قصيرة سبقت سلسلة الهجمات الإرهابية المنسقة بعناية والتي دمرت الساحل الشرقي للولايات المتحدة تدميرا شديدا في صبيحة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وضع الرئيس العراقي صدام حسين جنوده في «إنذار ج»، وهي أعلى حالات الاستعداد العسكري التي شهدها الجنود العراقيون منذ حرب الخليج في عام ١٩٩١ وذهب صدام نفسه إلى واحد من المآوي المحصنة بقوة في إقطاعية العائلة في تكريت في شمال بغداد. وزوجتاه ساجدة وسميرة، امرأتان تحاشت كل واحدة منهما رفقة الأخرى في الظروف العادية وأُخذت كلاهما إلى مأوى سري آخر من مآوي صدام. والسبب كما يبدو هو أن صدام الذي آوى إلى تكريت في وقت مبكر من شهر سبتمبر ٢٠٠١ كان لديه إنذار مسبق بهجمات الحادي عشر من سبتمبر التي اختطفت فيها مجموعات انتحارية من إرهابيّ القاعدة طائرات محملة تماما بالمدنيين لترتطم بمركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن لتقتل الآلاف من الأبرياء العاملين في المكاتب المدنية والموظفين العسكريين. وقد حاول فريق رابع من الإرهابيين الإسلاميين أن يطيروا بطائرتهم المختطفة نحو البيت الأبيض، لكن بطولة بعض المسافرين الذين قاوموا المختطفين منعتهم من تحقيق ذلك وأدى ذلك إلى تحطم الطائرة في حقل جنوب بيتسبورغ Pittsburgh، وقد قُتل جميع الذين كانوا على متنها.

في أيام الفوضى التي أعقبت أسوأ عمل وحشي إرهابي في العالم، أصبح عراق صدام حسين على الفور واحداً من أبرز الأهداف المحتملة في عملية الانتقام. فالسرية التامة وإجراءات الأمن المكثفة التي أحاطت كل تحرك لصدام كانت تعني انه من المستحيل القول لماذا وضع الزعيم العراقي بلده في حالة إنذار قصوى وأوى إلى ملجأ حصين مضاد للقنابل، بيد أنّ التوقيت وحده كان كافيا لزرع الشكوك. وبالرغم من أنه

لم يكن هناك برهان محدد بأنّ صدام كان متورطا بشكل مباشر في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، الاّ أنّ نفور واشنطن التقليدي والراسخ تجاه الدكتاتور العراقي كان من النوع الذي وجد به الرئيس جورج بوش نفسه، في الأيام التي أعقبت ذلك العمل الوحشي مباشرة، ملزما بكبح جماح رفاقه من الصقور الأكثر تشددا. كان بوش يريد أن يجعل التركيز المباشر لاستجابته على القاعدة، المجموعة الإرهابية الإسلامية التي قادها وموّلها المنشق السعودي أسامة بن لادن. إذ إن كل الأدلة المتوافرة كانت تشير إلى ارتباط الخاطفين مباشرة بابن لادن وفي الخطاب الذي وجهه الرئيس الأمريكي إلى الكونغرس في العشرين من سبتمبر، لم يرد ذكر العراق. فقد تحدث بشكل عام عن خوض «الحرب على الإرهاب»، وكان مطلبه الرئيس هو أن يسلم نظام طالبان في أفغانستان بن لادن ومساعديه في القاعدة أو يواجه العواقب.

وبالرغم من أنّ التأكيد الأساسي لخطاب الرئيس بوش كان منصبا على القاعدة، فإنّ قصاصات استخباراتية، مثل تلك المتعلقة بمكان صدام في الحادي عشر من سبتمبر، بدأت تتغلغل في المجتمع الاستخباراتي الغربي. والتقرير الأكثر إثارة كان ذلك الذي صدر عن وزارة الداخلية في جمهورية التشيك، وهو عن محمد عطا، أحد قادة العصابات المنفذة لتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، الذي التقى بضابط استخبارات عراقي قبل خمسة أشهر سبقت تنفيذ الهجمات. وكان عطا قد حاول الدخول إلى براغ في صيف ٢٠٠٠ لكنه منع من ذلك لأنّه لم تكن لديه تأشيرة صالحة. وبعد حصوله على وثيقة السفر المناسبة عاد عطا إلى براغ في نيسان ٢٠٠١، حيث قابل أحمد العاني، موظف المخابرات العراقي الذي كان على وشك أن يُطرد من قبل السلطات التشيكية. والعاني الذي عمل كقنصل ثان في السفارة العراقية في براغ، كان مشتبها «باشتراكه في نشاطات خارج واجباته الدبلوماسية»، والتعبير الملطّف كان يدل على التجسس. وبالرغم من انّه لم يكن هناك أي شيء يربط العميل العراقي بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنه من الواضح أنّ جهاز الاستخبارات الهائل الذي يسيطر عليه أسوأ دكتاتور في العالم كان على اتصال مع أعتى منظمة إرهابية في العالم وكان ذلك يعني أنّ صدام وجد نفسه وبسرعة في دائرة نظر مخططي البنتاغون العسكريين.

إنّ اتهام صدام بالتورط في الأعمال الوحشية التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر لم يأت كمفاجأة لأولئك المتخصصين في مكافحة الإرهاب والذين كانوا يحققون في علاقات الدكتاتور بالإرهاب الدولي منذ أوائل السبعينيات. وفي الماضي

كان صدام متورطا مع إرهابيين غير مشهورين مثل «أبو نضال» قائد المجموعة الفلسطينية المتطرفة والتي تتحمل مسؤولية، من بين الأعمال الوحشية الأخرى، الاعتداءات على مطارات كل من فيّنا وروما في عام ١٩٨٥، والفنزويلي الأسطوري «أليك راميرز سانشيز»، أو كارلوس ابن آوى كما كان يُعرف كثيرا.

وصدام الذي يحتسي الويسكي لم يكن بطبعه مسلما ورعا أو ميّالا لاتخاذ موقف ودّي تجاه قوى الإسلام الراديكالي، وبين ١٩٨٠ و١٩٨٨ خاض حربا شرسة ضد النظام الإسلامي المتشدد الذي أسسه في طهران آية اللّه الخميني. وخلال التسعينيات، بالرغم من ذلك، وعندما كانت المجموعات المتطرفة كحزب الله في لبنان والقاعدة في أفغانستان ناجحة في مهاجمة أهداف غربية في الشرق الأوسط أو أماكن أخرى، بدأت تقارير الاستخبارات تتناقلها الألسن بأنّ قوات صدام الأمنية كانت تساعد في تدريب وتمويل وتسليح الإرهابيين الإسلاميين. وكشف اثنان من المنشقين على مستوى رفيع، تم استجوابهما من قبل الاستخبارات الغربية بأن صدام أقام معسكر تدريب إرهابي في قاعدة سلمان باك العسكرية في جنوب بغداد، والتي كانت عبارة عن معسكر تدريب جنود المشاة المستجدين، اسمها معسكر النهروان، ولا يُسمح لأحد بالاقتراب من المعسكر المسيج بإحكام، الذي استضاف مجموعات من المقاتلين الإسلاميين من السعودية واليمن ومصر. ويضم المعسكر طائرة بوينغ ٧٠٧ عاطلة تستخدم لتدريب المتطوعين على اختطاف طائرة باستخدام الأيدي أو السكاكين، وهي تقنيات مشابهة لتلك التي تم تنفيذها من قبل المختطفين في الحادي عشرمن سبتمبر.[1] وبالرغم من أنّ المنشقَّيْن لم يؤكدا القول بأن المتطوعين المتدربين في سلمان باك ينتمون إلى القاعدة، والواقع أنّ الأكثرية جاؤوا من العربية السعودية وكانوا من طائفة بن لادن الوهابية المتشددة وذلك كان كافيا لإثارة الشكوك لدى كل من واشنطن ولندن.

إنّ العلاقة الأكثر مباشرة بين صدام وبن لادن ارتبطت بالنشاطات الإرهابية التي انطلقت في منتصف التسعينيات من السودان، البلد الذي أدار عدة معسكرات إرهابية اسلامية. وأوصل صدام الأموال عبر السودان لمساندة العصيان الإسلامي في الجزائر ومناطق أخرى من الشرق الأوسط. وفي نهاية التسعينيات ظهرت تفاصيل حول خطة وضعها صدام تتعاون فيها كتيبة اختيرت خصيصا من شبكته الأمنية وهي الوحدة ٩٩٩ مع القاعدة من أجل تنفيذ عدد من الهجمات في أوروبا والشرق الأوسط ضد أهداف محددة. وبتحالفه مع رجال بن لادن، كان صدام يأمل في إزالة أي شك حول تورط

العراق في الإرهاب. ونتيجة لذلك التعاون اغتيل العديد من المعارضين العراقيين في الأردن ووضعت خطط لتدمير إذاعة أوروبا الحرة التي تأسست في براغ.[٢] وفي نيسان من عام ١٩٩٨ أرسل بن لادن وفدا من مقاتلي القاعدة لحضور احتفالات مولد الابن الأكبر لصدام، عدي، الذي استجاب لتلك الالتفاتة الكريمة بالموافقة على تدريب عدد من متطوعي القاعدة في العراق.

ثمة دليل آخر على محاولات صدام لتطوير علاقاته بالقاعدة برز في أغسطس (آب ٢٠٠٢) عندما كشف النقاب عن صبري البنا الذي يدعى أبا نضال والذي يرتبط إلى حد بعيد مع صدام خلال السبعينيات والثمانينيات، بأنه قد مات في ظروف غامضة في بغداد. في البداية ادعى العراقيون بأنّ أبا نضال قد انتحر عندما قام ضباط مخابرات عراقيون بزيارته من أجل استجوابه حول تورطه المزعوم في مؤامرة للإطاحة بصدام. في الواقع أنّ صدام قد أمر وكلاءه بقتل أبي نضال بعد أن رفض الإرهابيّ المحنّك، الذي دعي إلى بغداد ليخضع لعلاج طبي لسرطان الجلد، طلب القائد العراقي لتدريب عدد من مقاتلي القاعدة الذين التجأوا إلى شرق العراق بعد انهيار نظام طالبان في أفغانستان. وأراد صدام أيضاً أن يستفيد من مشكلة أبي نضال الإرهابية في الشرق الأوسط وذلك لتنفيذ عمليات نيابة عن القاعدة. إن أبا نضال، الذي قيل بأنه يسعى إلى عملية مصالحة مع التيار الرئيس في القيادة الفلسطينية، اعتذر عن قبول الطلب معتقدا بأنّ تكوين أي حلف مع القاعدة سينهي طموحاته السياسية. ورد فعل صدام كان بقتله.[٣]

إنّ المعلومات التي تربط صدام شخصيا بابن لادن والقاعدة، كيفما كانت، بقيت ناقصة. وفي العقود الثلاثة التي حكم بها العراق فعلا، بنى صدام واحدة من أقوى المنشآت الأمنية وأكثرها انتشارا في التاريخ الحديث، جاعلا من مهمة انتزاع المعلومات الحقيقية حول نشاطات صدام الخاصة تحديا هاما لوكالات الاستخبارات الغربية. وبالنتيجة فإنّ العديد من الادعاءات التي تضخمت حول نشاطات صدام اتضحت في نهاية الأمر بأنها غير حقيقية. وفي شهر أكتوبر من عام ٢٠٠١، على سبيل المثال، كانت هناك مزاعم بأنّ صدام كان وراء الظهور المفاجئ للجمرة الخبيثة التي وقعت في فلوريدا ونيويورك مباشرة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الفظيعة. إنّ تلك التقارير وتقارير أخرى تتعلق بنشاطات صدام أدت بالرئيس بوش إلى الوقوع تحت ضغط مكثف من عدد من الصقور رفيعي المستوى في الإدارة ليقوم بفعل ضد صدام. والبارز من أولئك كان نائب الرئيس ديك تشيني، والذي كان في الجيل السابق وزيرا

للدفاع في عهد بوش الأب، الرئيس جورج هيربرت ووكر بوش، الذي قاد التحالف العسكري الدولي الذي دحر قوات صدام بعد غزوه للكويت في عام ١٩٩٠ والآخرون الذين كانوا يفضلون القيام بعمل عسكري ضد صدام هم وزير الدفاع رونالد رامسفيلد، المحارب القديم في الإدارات السابقة للرئيسين ريغان وبوش، وباول ولفوفيتز، نائب وزير الدفاع. وبالرغم من أنّ الأسبقية الأساسية لأولئك المحاربين القدماء للإدارات الجمهورية السابقة كانت لتؤكد بأنّ الولايات المتحدة وحلفاءها كانوا في حماية تامة ضد المجموعات الإرهابية الإسلامية، وأنهم لم ينسوا أنّ صدام قد حاول اغتيال الرئيس جورج بوش الأب خلال زيارته للكويت في عام ١٩٩٣ والعضو الأقدم الوحيد للإدارة المنهمك في السياسة الخارجية والذي حث على الاحتراس كان وزير الخارجية كولن باول، الذي كان رئيس الأركان الأعلى رتبة خلال حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١.

إنّ تناقض المشاعر لدى الرئيس جورج بوش حول اتخاذ صدام هدفا كرد فعل على هجمات الحادي عشر من سبتمبر بدأ يتغير فقط منذ نهاية أكتوبر ٢٠٠١ عندما استلمت الاستخبارات الأمريكية إنذارات عن مسلحين إسلاميين كانوا يخططون أيضا لهجوم على الولايات المتحدة أكثر إثارة من تلك التي وقعت في سبتمبر، ذلك الهجوم، وحسب كلمات كونداليزا رايس، مستشارة بوش للأمن القومي «سيجعل من الذي وقع في الحادي عشر من سبتمبر يبدو كلعب أطفال باستخدام سلاح مرعب».(٤) وأشارت الاستخبارات إلى أنّ رفاق بن لادن كانوا يخططون لاستخدام «القنبلة الذرية»، حيث تستخدم متفجرات تقليدية تؤدي إلى فيض من المواد الإشعاعية الفعالة. وجهاز واحد باستطاعته تدمير مساحة بحجم مانهاتن جاعلا منها غير قابلة للسكن لسنوات. إنّ ترتيبات أمن الطوارئ وضعت لتؤكد بأنّ بوش وتشيني لم يكونا مع بعضهما، وأرسلت اشعارات خاصة إلى شرطة واشنطن ولجان الاستخبارات في الكونغرس تنذر بتهديد جديد.

لم يتحقق الهجوم، لكنّ الخوف ترك انطباعا عميقا لدى الرئيس الأمريكي. كان الأمر جليا لديه بأنّ القاعدة كانت تبحث وبعنف عن أسلحة الدمار الشامل، وكان من الواضح لدى من يهمهم الأمر بأنّ البلد الوحيد الذي يستهويه صنع مثل تلك الأسلحة ويجعل منها تحت تصرف المجموعات الإرهابية كان عراق صدام حسين. ومنذ السبعينيات وعندما برز صدام أولا «كرجل بغداد القوي»، ركز العراق على الموارد الضخمة من أجل الحصول على الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية. فضلا عن

ذلك، ولما كان مثل تلك الأسلحة تطوّر في الغرب كأسلحة رادعة، ظهر أنّ صدام كانت لديه الرغبة في استخدامها بقدرة هجومية ضد أعدائه، وخاصة عندما استخدم الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين الأبرياء في كردستان في عام ١٩٨٨ إنّ رغبة صدام في استخدام أسلحته غير التقليدية، مقرونة بيأس القاعدة من الحصول على مثل تلك الأسلحة، أقنعت الرئيس الأمريكي بأن العمل الفعال يجب أن يتخذ من أجل إزالة التهديد الذي خلقه صدام.

والعامل الآخر الذي ساعد على تركيز عقول إدارة بوش في خريف ٢٠٠١ هو ظهور دليل جديد يشير إلى التورط العراقي في تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك في عام ١٩٩٣من قبل متطرفين إسلاميين.(٥) وقد أوضحت كونداليزا رايس مؤخرا ما تطور من أفكار لدى الرئيس بوش بقوله «إنّه ليس لأنكم تملكون سلسلة من الدلائل التي تقول بأن العراق قد يعطي سلاحا إلى القاعدة. بل لأنّ العراق هو أحد تلك الأماكن المعادية لنا، وبصراحة، انّه غير مسؤول وقاسٍ إلى الحد الذي يجعل ذلك متوفرا».(٦)

إنّ تهديد الغرب الذي وضعته قوى الإرهاب الإسلامي المتشدد أجبر الولايات المتحدة على أن تشرع بإعادة تقييمها الجوهري لنظام أمنها القومي. وخلال الحرب الباردة اعتمدت الولايات المتحدة وحلفاؤها في الناتو على التهديد بالانتقام الشامل لردع الهجمات من البلدان المعادية. ولكن عندما جاءت لتتعامل مع عدو لا تنطبق عليه القواعد الاعتيادية للحرب، وبالنسبة له كانت فكرة الاستشهاد مرتبطة بشكل معقد بنجاح أي نشاط منظم، وكان جليا أنّ الحرب ضد الإسلام المسلح يحتاج خوضها إلى مجموعة مختلفة من القواعد. إنّ ادارة بوش أصبحت مقتنعة «بالحرب على الإرهاب» كما أطلق عليها بوش، وعلى الولايات المتحدة أن ترد بها أولا على أعدائها. وكما أخبر بوش مؤخرا مجموعة من الطلبة العسكريين المتخرجين في أكاديمية وست بوينت العسكرية في ربيع ٢٠٠٢ قائلا «لو أننا ننتظر تحقق التهديدات، علينا أن ننتظر طويلا». إن محاربي الحرب الباردة القدماء مثل تشيني ورامسفيلد اعتبروا أيضا الصراع مع صدام عملا متبقيا من عهد القوى العظمى. إنّ موقف صدام تجاه الغرب، إلى حد ما، كان مشروطا بالمساعدة العسكرية والدبلوماسية، التي حصل عليها من الاتحاد السوفيتي. وبعدم وجود الاتحاد السوفيتي أصبح عراق صدام مفارقة تاريخية خطيرة.

وللأشهر التسعة الأولى من رئاسة جورج بوش، لم يبرز العراق كقضية بشكل واضح جدا. ولكن ومنذ انهيار البرنامج الذي رعته الأمم المتحدة والخاص بنزع

أسلحة الدمار الشامل لدى صدام في نهاية ١٩٩٨ والذي أدى بالرئيس بل كلينتون أن يشن سلسلة من الضربات الجوية غير الناجعة على العراق، دخلت السياسة الغربية في بغداد في حالة نسيان. إنّ المبدأ الموّجه لما تبقى من سياسة الحلفاء تجاه العراق هو «الاحتواء»، والذي تم تحديده جوهريا بعقوبات الأمم المتحدة الواسعة النطاق التي فرضها مباشرة نتيجة غزو صدام للكويت في عام ١٩٩٠ ثمة جهود فاترة بذلت لتجبر أطراف المعارضة العراقية لتسوية خلافاتها وإقامة جبهة موحّدة ضد صدام، لكن تلك الجهود وبلا استثناء انتهت بالفشل. واستمرت الطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية في دورياتها في مناطق حظر الطيران في شمال وجنوب العراق والتي شرعت بعملها في بداية التسعينيات لحماية الشيعة والأكراد في العراق، وكانت هناك مناوشات عرضية عند مضايقة أنظمة الصواريخ العراقية المضادة لطائرات التحالف. وفي صيف ٢٠٠١ أُعلن أن العراق قد طوّر أنظمة دفاعاته الجوية، وأظهر قدراته الجديدة بإطلاق النار على طائرة التجسس الأمريكية U2 وكان على وشك إسقاطها. ولكن بالرغم من تلك الأعمال العرضية والاستفزازية، لم يكن الرئيس بوش في عجلة من أمره لصياغة سياسته تجاه العراق. وفي الوقت الذي وقعت فيه هجمات الحادي عشر من سبتمبر، كانت إعادة نظر الرئيس بوش في سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق تفتر حماستها في ركود أو كساد بسبب قلة اهتمام الرئيس الواضحة في القضية.

ونظرا إلى تاريخ التوتر الطويل ما بين واشنطن وبغداد، لم يعزز صدام قضيته بشكل صحيح خلال الأسابيع العصيبة في أواخر ٢٠٠١ عندما كانت إدارة بوش تخطط لمواصلة الحرب على الارهاب. وفي نهاية أكتوبر نشر صدام «رسالة مفتوحة» مضطربة موجّهة إلى الشعب الأمريكي، أدانت العمل العسكري في أفغانستان ضد طالبان، زاعما بأنّ السياسة الخارجية الأمريكية تقودها «الصهيونية»، ولمّح بأن أرض الولايات المتحدة ستتعرض إلى هجمات إرهابية أخرى. وفي نوفمبر اقترحت الأمم المتحدة تخفيف العقوبات المفروضة على العراق إذا ما وافق صدام على السماح لفرق تفتيش الأسلحة التابعة للأمم المتحدة بالعودة إلى بغداد، غير أنّ صدام رفض ذلك العرض دون تردد. وليزيد الطين بلّة، وباستطلاع مفوّض من الحكومة العراقية في نهاية العام أعلن فيه أنّ أسامة بن لادن هو «رجل عام ٢٠٠١» في العراق، ومنح لقب الشرف وذلك لإخلاصه في تحدي الولايات المتحدة ونصرة الإسلام. وعرض تلفزيون الحكومة العراقية زعيم قبيلة عراقي وهو يتلو قصيدة كتبها لصدام في احتفال بأحداث الحادي عشر من سبتمبر:

من داخل أمريكا، كيف حلقت أربع طائرات
ما وقعت مثل تلك الحادثة في الماضي!
ولا شبيه لها سيحدث في المستقبل.
ستة آلاف ملحد ماتوا.
لم يفعلها بن لادن، وانما حظ الرئيس صدام.[٧]

واستمر صدام بإزعاج واشنطن في ربيع ٢٠٠٢ عندما أمر رجال الأمن لديه بتوفير الدعم لعوائل الانتحاريين الفلسطينيين.

وحينما شكلت إدارة بوش رؤيتها بأنّ «الحرب على الإرهاب» يجب توسيعها لتشمل صدام حسين، واصل العديد من حلفاء واشنطن التعبير عن تحفظاتهم القوية حول مهاجمة العراق، خاصة وأنه لم يظهر أي دليل قاطع يثبت ارتباط صدام بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. وكان توني بلير، رئيس وزراء بريطانيا، الوحيد من بين القادة الأوروبيين في مساندته لموقف الولايات المتحدة. وقد ألقى خطابا مؤثرا في مجلس العموم في الرابع عشر من سبتمبر أخذ به عهدا على نفسه بإبداء المساندة التامة للولايات المتحدة في محاربتها للإرهاب. ولكن في الخريف الماضي كان العديد من القادة الأوروبيين يعبرون علنا عن قلقهم حول تجدد حالات العداء تجاه صدام. وبقي بلير، مع ذلك، مساندا بالرغم من أنّ الاستخبارات البريطانية التي عملت بإمعان مع الولايات المتحدة في تصيّد المفاتيح التي تربط صدام بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، كانت قادرة فقط على إعطاء بلير بعض «الفتات القليل» الذي يظهر عمل العراق مع القاعدة، ولكن ليس هناك شيء يرتبط مباشرة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر.[٨]

وبالرغم من التحفظات التي أبداها حلفاؤه الأوروبيون، كان الرئيس بوش عازما، في نهاية ٢٠٠١، على توسيع الحرب على الإرهاب لتشمل صدام. ولمّا بدا نجاح القوات الأمريكية في دحر نظام طالبان مؤكدا، أعطى الرئيس بوش إشارة قوية على أنّ صدام سيكون هدف أمريكا القادم. «صدام هو الشر»، صرّح بوش بحدة. «أعتقد بأنّ لديه أسلحة دمار شامل، وأعتقد بأنّ عليه أن يفتح بلده لنا للتفتيش».[٩]

وكانت نوايا بوش تجاه صدام ثابتة بعد شهرين من إلقائه خطاب دولة الاتحاد في نهاية ٢٠٠٢ وأوجز في خطابه هدفين هامين جدا يتحكمان بخوض أمريكا «الحرب على الإرهاب». الأول أن تغلق المعسكرات الإرهابية التي دربت المقاتلين

الإسلاميين، وأن تعطّل خطط المنظمات الإرهابية ويمثل أفرادها للعدالة. والثاني وسّع بشكل جوهري مصطلحات ذكر «الحرب على الإرهاب» كما تم تحديدها في خطابه الموّجه إلى الكونغرس في العشرين من سبتمبر. وصرّح بوش، من الآن فصاعدا، ستكرس سياسة الولايات المتحدة لمنع «الإرهابيين والأنظمة التي تبحث عن أسلحة كيماوية وبيولوجية ونووية»، من تهديد أمريكا والعالم. وترك الرئيس الأمريكي جمهوره دون أدنى شك بمعرفة هوية الأنظمة التي في باله. وبإشارته إلى كوريا الشمالية، إيران والعراق «كمحور للشر»، خصّص بوش نقده الأكثر صرامة لعراق صدام حسين.

وقال بوش إنّ «العراق مستمر بالتباهي بعدائه لأمريكا وبمساندته للإرهاب» وأضاف: «انّ النظام العراقي يخطط لتطوير الجمرة الخبيثة، وغاز الأعصاب، والأسلحة النووية خلال عشرة سنوات. وقد استخدم هذا النظام سابقا الغازات السامة لقتل الآلاف من مواطنيه، تاركا أجساد الأمهات متكورة على أطفالهن الميتين. هذا نظام وافق على التفتيش، ثم طرد المفتشين. هذا نظام يمتلك شيئا يريد أن يخفيه عن العالم الخارجي. دول مثل تلك، وحلفاؤها الإرهابيون، تكوّن محور الشر، وتتسلح من أجل تهديد السلام في العالم. ومن خلال سعيها إلى الحصول على أسلحة الدمار الشامل، تخلق تلك الأنظمة خطرا متناميا وسيئا. فهذه الأنظمة تستطيع أن تزود الإرهابيين بالأسلحة وتمنحهم الوسائل لإذكاء كراهيتهم. باستطاعتهم أن يهاجموا حلفاءنا أو يحاولوا ابتزاز الولايات المتحدة. وفي أية واحدة من تلك الحالات، سيكون ثمن عدم الاكتراث فاجعا».

كان ذلك، إذن، تبرير الرئيس بوش لتوسيع مصطلحات ذكر الحرب على الإرهاب من واحد قاتل ضد أولئك المسؤولين مباشرة عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى صراع أوسع ضد أي نظام قدّم المأوى للإرهابيين، أو زوّدهم بالوسائل من أجل تنفيذ مهمتهم. وصدام مؤهل لإدراجه في تعريف بوش لاعتبارين: الأول، كان هناك دليل على أنّه قد موّل الإرهابيين الإسلاميين وزوّدهم بمعدات التدريب، والثاني، هو حصول صدام على كمية ضخمة من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية. وبالرغم من أنّه ليس هناك دليل مكشوف يشير إلى أنّ صدام قد منح مجموعات الإرهاب فرصة استعمال مجموعة أسلحته غير التقليدية، كانت هناك دائماً إمكانية لعمل ذلك في وقت ما في المستقبل. وقد أظهر من قبل نيته في استخدام مثل تلك الأسلحة في الماضي، وقد أثني عن نشرها فقط في حرب الخليج بعدما هددته الولايات

المتحدة بضربات نووية انتقامية. وحسب إدارة بوش، كان للولايات المتحدة الحق الشرعي باستئناف حربها ضد صدام لأنّه نكث العهد الذي التزم به في نهاية حرب الخليج كجزء من اتفاقية وقف إطلاق النار، بتدميره لأسلحة الدمار الشامل. ومن وجهة نظر بوش فإنّ التهديد الذي خلقه صدام للعالم المتحضر، هو التهديد الذي لا يمكن أن يحتمل أكثر من ذلك.

غير أنّ استراتيجية بوش حيال صدام لم تجذب الدعم العالمي، والكثير من حلفاء أمريكا في أوروبا، والذين كانوا متسرعين جدا في إدانة هجمات الحادي عشر من سبتمبر، كان يتملكهم شعور بالقلق الخطير حول قرار الرئيس في توسيع دائرة الحرب على الإرهاب. ووصف هوبرت فيدرين، وزير الخارجية الفرنسي، تعليق بوش على «محور الشر» بأنه تفسير «في غاية البساطة». وقال وزير الخارجية الألماني، يوشكا فيشر، متذمرا بأنّ الولايات المتحدة كانت تعامل حلفاءها الأوروبيين «كأقمار صناعية». واتهم كريس باتين، المفوّض الأوروبي للشؤون الخارجية، أسلوب بوش المؤيد للاستبداد والتسرّع الأحاديّ الجانب. وكانت الاستجابة نابذة للفكرة من حلفاء أمريكا من العرب التقليديين على حد سواء. فالعربية السعودية التي تكافح من أجل تقبّل الحقيقة بأنّ معظم الخاطفين في الحادي عشر من سبتمبر كانوا مواطنين سعوديين، أشارت إلى عدم رغبتها في السماح باستخدام القواعد السعودية لهجمات متجددة ضد بغداد، كما فعلت معظم دول الخليج.

وبتبنّي طريقة سلبية في فهم موضوع خطاب دولة الاتحاد للرئيس بوش الابن، فإنّ أولئك الحلفاء قد أساؤوا فهم أحد المبادئ الرئيسة الأخرى والتي ارتكزت عليها سياسة واشنطن الخارجية لما بعد الحادي عشر من سبتمبر. وبخطابه الموجّه إلى الكونغرس في العشرين من سبتمبر، أوضح الرئيس بشكل جلي بأنّ الولايات المتحدة عزمت على أن تواصل الحرب على الإرهاب حتى النهاية. «كل شعب، في كل بلد، لديه قرار ليتخذه»، كما صرّح بوش. «أما أن تكونوا معنا أو تكونوا ضدنا». لم يكن لدى الإدارة الأمريكية أجندة أحادية الجانب، ولكن إذا لم يكن حلفاؤها جاهزين للمساعدة فإنّ واشنطن تكون مستعدة تماما للمضي فيها لوحدها.

والحليف الوحيد الذي ساند قرار بوش تماما باستهداف صدام حسين هو توني بلير رئيس وزراء بريطانيا. ومع أنّ القائد العمالي كان قد عبّر في خريف ٢٠٠١ عن تحفظاته حول ضرب صدام، إلاّ أنّه في ربيع ٢٠٠٢ ظهر بأنه أصبح مستعدا للتحول ضد قضية صدام. وعند مخاطبته للمؤتمر الصحفي لقمة دول الكومنويلث المنعقد في

استراليا في شهر مارس حملت مناقشات بلير لمواجهة صدام تشابها غريبا مع ما طرحه بوش في خطاب دولة الاتحاد في شهر يناير الماضي. وفيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل لدى صدام صرّح بلير قائلا «إذا وقعت تلك الأسلحة في أيدي الإرهابيين، ونحن نعلم بأنّ لديهم القدرة والنية لاستعمالها، فعندما أعتقد بأنّ علينا أن نتصرف لأنّه، إذا لم نفعل، قد نكتشف متأخرين جدا إمكانات التدمير».(١٠) حتى لو استعيرت حجج بلير من واشنطن، مع ذلك، فإنّها تحمل معنى واضحا لبريطانيا لدعم الولايات المتحدة. وبشكل اعتيادي ما زالت المقاتلات البريطانية تقوم بطلعات مشتركة مع نظيراتها الأمريكية لفرض القانون بالقوة في مناطق حظر الطيران في شمال وجنوب العراق. وحصل قرار بلير أيضا على موافقة مدويّة من السيدة تاتشر، رئيسة الوزراء السابقة والتي لعبت دورا مركزيا في تشكيل التحالف الذي واجه صدام في عام ١٩٩٠ بعد غزو العراق للكويت. «على صدام أن يرحل»، أعلنت ذلك بطريقتها القوية. «إنّ بقاءه المستمر بعد خسارته لحرب الخليج على نحو شامل قد سبب دمارا لا يمكن تصوره لموقف الغرب في المنطقة حيث إنّ الخطيئة التي لا تغتفر لوحدها تكون ضعفاً. إنّ تباهيه بالمفردات التي توقفت عندها الحرب جعلت من المجتمع الدولي أضحوكة».(١١)

وبقدر ما كان الأمر يتعلق بواشنطن ولندن، فإنّ النرد قد رمي. غدا صدام حسين طريد عدالة عالمية، فإما أن يوافق على نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية ويعلن تخليه عن مساندة الإرهاب الدولي، وإلاّ فإنّ الولايات المتحدة، وبمساندة بريطانيا، ستقوم فعلا «بتغيير النظام» في بغداد، ولو تطلّب الأمر إزاحة صدام بالقوة.

الفصل الأول

اليتيم

عاش صدام في صغره طفولة قاسية وفقيرة. والرجل الذي أصبح أحد أقوى القادة العرب في الزمن المعاصر جاء من قرية فقيرة تقع على ضفتي نهر دجلة في ضواحي مدينة تكريت. ولد في أسرة فقيرة في إحدى أقسى المناطق في البلد.

وكان صدام يتيما في عمر مبكر وأرسل للعيش مع أقاربه الذين أشرفوا على تربيته وتعليمه. ولا يتطلّب الأمر معرفة عميقة بعلم النفس لتقدير تأثير تلك الظروف على طفولته. وكما هو الأمر مع هتلر وستالين، الطاغيتين الكبيرين في القرن العشرين، فكلاهما قد تجاوز طالعهما الذي يبشر بنجاح أقل في بدايات الحياة مما حدا بهما أن يبسطا سيطرتهما المطلقة على شعبيهما، وكان على صدام أن يرتقي على مساوئ طفولته، ليصبح سيد العراق الذي لا جدال عليه. إنّ خجله من أصوله المتواضعة أصبح قوة دافعة لطموحه، بينما نما لديه الشعور العميق بعدم الاستقرار كنتيجة لطفولته المتنقلة من مكان إلى مكان مما تركه وبشكل غير معقول عاجزاً في حياته فيما بعد عن أن يثق بأيّ أحد - بما في ذلك عائلته القريبة. وبالأخذ بنظر الاعتبار مساوئ طفولته، فإنّ صدام يحتاج إلى رصيد لتجاوز العقبات الاجتماعية الصعبة على ما يبدو ليصل إلى قمة الهرم السياسي في العراق.

ولد صدام في قرية العوجة والتي تعني المنعطفة أو المائلة، وتسمية «العوجة»، بلهجة تكريت والموصل، تعني الزقاق، ويقابلها في الجنوب «الدربونة». وقد سميت بهذا الاسم لموقعها على منعطف حاد في نهر دجلة بثمانية كيلومترات جنوب تكريت، في شمال-وسط العراق. وكانت القرية مجموعة من أكواخ الطين والبيوت وعاش سكانها في ظروف فقر مدقع. ولم تكن هناك مرافق مثل شبكات الماء والكهرباء والطرق المعبدة، وبالرغم من أنّ هناك عددا من مالكي الأرض الأثرياء في المنطقة،

كانت القرية نفسها قاحلة. وكان عدد وفيات الأطفال مرتفعا والبقاء على قيد الحياة هو الشغل الشاغل للكثيرين. وكانت الضيعات الكبيرة في الوادي الخصيب تنتج محاصيل متنوعة كالرز والحنطة والخضروات والتمور والأعناب، ومالكي تلك الضيعات الذين يسكنون إما في تكريت القريبة أو بغداد العاصمة القديمة، كانوا يحظون بالتبجيل والتقدير في المجتمع العراقي. وفي المجتمع الذي كان إقطاعيا في واقع الأمر، كانت وظيفة سكان العوجة الفقراء هي توفير المال من العمل بأجر رخيص كفلاحين في الضيعات أو كخدم في منازل تكريت. فالآباء الأكثر ثراء يرسلون أطفالهم إلى المدرسة في تكريت، لكن الأكثرية لا يستطيعون تحمّل ذلك، وكان أطفالهم الحفاة يتركون لوسائلهم الخاصة.

وبينما معظم السكان يكسبون المال بالعمل في تلك الأشغال العادية كان هناك بعض منهم يفضلون كسب قوتهم بنشاطات غير مشروعة كالسرقة والقرصنة والتهريب. وعرفت العوجة تاريخيا كملاذ لقطّاع الطرق الذين يكسبون عيشهم عن طريق نهب «الدوبة» وهي عبارة عن مراكب نهرية صغيرة مسطحة القاع لنقل البضائع بين الموصل وبغداد عن طريق دجلة، وهو واحد من أهم شرايين التجارة في العراق. وكان القراصنة ينشطون في فصل الصيف بشكل خاص حينما يتسنى لهم مواصلة عملهم بسهولة من موقعهم الممتاز في منعطف النهر حيث مرور القوارب يكون بطيئا، وحيث تصبح الدوبة في بعض الأحيان ملتصقة بالضفاف الضحلة. وكانت السرقة نشاطا شعبيا آخر، وبعض القرويين لم يشعروا بالندم عندما يأخذون دون استئذان الدجاج والمحصول الزراعي الطازج من الضيعات المجاورة.

ورسميا ولد صدام في الثامن والعشرين من شهر نيسان في عام ١٩٣٧، وليعطي التاريخ موثوقية، جعل صدام من تاريخ ميلاده عيدا وطنيا في عام ١٩٨٠ ولو أخذنا بالاعتبار الطبيعة البدائية للمجتمع العراقي في أيام ولادته، يكون ربما، ومن غير المحتمل، الأمر مفاجئا بأنّ ذلك التاريخ اعترض عليه في مناسبات عديدة، من بعض معاصريه الذين لديهم الحجة بأنّه ولد قبل ذلك بسنتين، أي في عام ١٩٣٥، بينما زعم آخرون بأنه ولد في أواخر عام ١٩٣٩ وفي الحقيقة أنّ ذلك قد يوضح بأنّ العملية الكاملة لتسجيل الولادات والزواج والوفيات كانت بدائية جدا. وقد اضطرت السلطات، المسؤولة عن عملية التعداد العام للسكان، أن تمنح جميع أطفال الفلاحين تاريخ ولادة رمزي هو (الأول من تموز)، وكانت تلك السنة هي الأنسب. وهذا يوضح بشكل مؤكد السبب الذي قدمته إحدى الوثائق في أوراق السيرة الخاصة

بصدام[1] والتي تعطي (١ تموز ١٩٣٩) تاريخا لولادته. في الحقيقة أنّ صدام حصل على تاريخ ميلاده الرسمي من صديقه والمتآمر مستقبلا، عبد الكريم الشيخلي، المنحدر من عائلة بغدادية عريقة، فانتهز فرصة امتلاكه لتاريخ ميلاد جديد. «كان صدام يشعر دائما بالغيرة من عبد الكريم لمعرفته بتاريخ ميلاده. ولذلك استنسخه صدام لنفسه ببساطة».[2] وبعدم الاقتناع بسرقة تاريخ ميلاد شخص آخر، اتفق الآن وبصورة عامة على أنّ صدام غيّر سنة ميلاده ليصوّر نفسه أكبر مما كان عليه في الواقع خلال صعوده السريع في صفوف حزب البعث. ويتضح ذلك من خلال ارتباطه بزوجته الأولى، ساجدة، المولودة في عام ١٩٣٧ إنّه لأمر مستهجن في الوطن العربي أن يتزوج الرجل من امرأة تكبره سنا، ويبدو أنّ صدام قد عدّل سنة ميلاده ليطابق ميلاد زوجته. وحقيقة أنّ صدام لا يقدر أن يكون واضحا حتى في تاريخ مِيلاده الدقيق تعبّر عن شيء في باطن نفسيته.

وبالرغم من أنّ تاريخ الميلاد قد يكون موضع نقاش، غير أنّ المكان ليس كذلك. ولد صدام في كوخ طيني تعود ملكيته لخاله من ناحية أمه خير الله طلفاح، المتعاطف مع النازية والذي تم سجنه لخمس سنوات لمساندته الثورة العراقية المناوئة لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية. ولد في عشيرة البيجات المسلمة السنية، وهي جزء من قبيلة آل بو ناصر، البارزة في منطقة تكريت. ولعبت الولاءات العشائرية دورا مهما في صعود صدام إلى السلطة. في الثمانينيات كان هناك على الأقل نصف الأعضاء من قبيلة آل بو ناصر- بما فيهم الرئيس صدام-يحتلون المواقع الرئيسة في الحكومة. وفي الثلاثينيات، كانت تعرف تلك العشيرة، بالدرجة الأولى، بالفقر والمزاج العنيف. وكان قادتها يتفاخرون كثيرا بإزالتهم لأعدائهم بسبب إساءة عديمة الأذى. وكمسلم سني، ولد الطفل في أكثرية متمسكة بمذهب التقاليد الإسلامية القديمة، بالرغم من أنّ السنّة هم طائفة أقلية في العراق: واحد من خمسة عراقيين فقط يكون سنيّا. سميّ الطفل صدام والذي يعني حرفيا «المرء الذي يواجه»، ولو أُخذت مآثر حياته المتأخرة بنظر الاعتبار، لم يكن الاسم مناسبا جدا.

ومع ذلك، فإنّ الجدال المحتدم لا يتعلق كثيرا بتاريخ ولادة صدام مثلما يتعلق بمكانة أبيه، حسين المجيد، الفلاح الفقير الذي لا يملك أرضا وهو نموذج لسكان العوجة. وبغض النظر عن التفاصيل التي تحتويها التقارير الرسمية الخاصة بحياة صدام، فإنّ معظم كتب السيرة واللمحات الخاصة بحياته التي نشرت سابقا تلمّح بأنّه كان طفلا غير شرعي. وتبين السجلات العراقية أنّ صدام ولد من ارتباط بين صبحة

طلفاح، المرأة الفلاحة وشقيقة خير الله المساند للنازية، وحسين المجيد. ومع ذلك فإنّ قلة المعلومات المعروفة عن حسين، جعلت حتى تلك الحقيقة البسيطة موضوعا لجدل كثير. وقد زاد تجار الإشاعات من الواقعة التي تقول: بينما كان صدام يؤسس ضريحا ضخما إحياء لذكرى والدته بعد موتها في عام ١٩٨٢، لم يكن مثل ذلك الضريح لوالده، ولم يكن هناك أي سجل لوفاته أو أين دفن.

وبالنتيجة تشير معظم التقارير الخاصة بحياة صدام إلى أنّ أباه إما ترك بيت الأسرة قبل ولادة الطفل أو رحل بعد ذلك بوقت قصير. وقدمت أفكار متنوعة لتفسير ذلك الغياب، مثل التلميح إلى أنّه مات لأسباب طبيعية، لم تكن بذاتها حادثة غير مألوفة في أوساط مثل ذلك المجتمع الفقير. انّ التقرير العراقي الذي يعتقد به بشكل واسع حول مصير حسين المجيد بأنه قتل على أيدي قطاع الطرق، كذلك لم تكن نهاية غير محتملة. كانت هناك اختلافات عديدة حول تلك الفكرة، بما في ذلك النظرية التي تقول بأنّه قُتل في عمل من أعمال قطاع الطرق ارتكبه هو نفسه. ثمة أسئلة قليلة تطرح عن مالكي أراض أو تجار ارتكبوا جرائم كبيرة دفاعا عن ممتلكاتهم. ورواية أخرى تقول بأنه هجر بيت العائلة هروبا من صبحة المسيطرة والتي تطلب الكثير. وزعم خبير عربي بصدام بأنّ حسين قد عمل خادما لدى رئيس وزراء عراقي سابق خلال العهد الملكي[٣]، بينما فنّد آخرون هذا الزعم، بالقول بأنه إما كان عاملا عاطلا أو أنّه اشترك في قرصنة غير مشروعة وسرقة بسببها ساءت سمعة سكان العوجة. وهناك تقرير آخر يشير إلى إنه قتل على أيدي أقارب صبحة انتقاما لحمله منه خارج نطاق الزوجية، وهذه نظرية مقبولة لأنها تأخذ بنظر الاعتبار نزعة عشيرته لحزازات الدم والقتل من أجل الشرف. وأكثر الافتراضات التي لا تتسم بالاحترام هي تلك التي تشير إلى أنّ حسين لم يكن موجودا على الاطلاق وأنّ صدام ما هو إلاّ نتاج ممارسات أمه كعاهرة في القرية. وكان الزعم الأخير ولأسباب يمكن فهمها، رائجا في دوائر الاعلام الغربية إبان حرب الخليج، وإذا ما تم تكرار ذلك عن طريق الخطأ في الدوائر العراقية فعقوبته الموت. وبعد أن أصبح صدام رئيسا للعراق، أسرّ ضابط عراقي كبير لعشيقته بأنه نام مع أم صدام. ولسوء طالع ذلك الضابط، تم تسجيل حديثه على شريط مسجل من قبل شرطة الأمن العراقية، وسلّمت نسخة منه إلى صدام على النحو المطلوب. وقد تم إعدام كل من الضابط وابنه وعشيقته.[٤] وبالرغم من تلك التهديدات الوخيمة بالعقاب، كانت صبحة نفسها موضوعا لكثير من القصص المثيرة. ويشير أحد التقارير إلى أنّها كانت ذاهلة جدا في توقعها بأن تكون أما وحيدة

وفي إحدى المرات وخلال حملها حاولت أن تلقي بنفسها تحت حافلة، وهي تصيح بانفعال: «أنا ألد شيطانا».

وبينما يبقى مصير والد صدام شيئا من الغموض، فإنّ السؤال الحساس حول شرعية صدام يمكن الإجابة عليه بالحقيقة البسيطة التي تقول بأنّ لديه أختاً صغرى اسمها سهام وسهام التي تحاشت أن تسلط عليها الأضواء في العراق بالرغم من نجاح أخيها، ولدت بعد صدام بسنة أو سنتين من الوالدين نفسيهما وفي القرية نفسها. وقد تزوجت من أحد القضاة في المنطقة ورزقت بطفلين. والمرة الوحيدة التي برزت بها أسرتها للعيان في العراق كانت في أقسى الفترات في الحرب العراقية - الإيرانية في منتصف الثمانينيات عندما رفض زوجها دعوة صدام لجميع العراقيين من الذكور للتطوّع في الخدمة العسكرية. وضعت العائلة ولفترة قصيرة تحت رهن الاعتقال المنزلي وطرد زوج سهام من عمله. بعد أشهر قليلة، تصالح صدام مع أخته وأعيد زوجها إلى موقعه.

وفي الحقيقة، وبالرغم من ذلك، انّ أخت صدام لا تشبه جميع أقربائه المقرّبين، حيث إنّها لم تحصل على شهرة واسعة في العراق، ولا بدّ أنّ ذلك الأمر قد طرّح علامات استفهام إذا ما كانت سهام تربطها صلة مباشرة بصدام أم لا.

أما ما يتعلق بمصير والد صدام، فمعظم الذي يمكن أن يقال هو إما أنّه مات في وقت ما بعد ولادة سهام، أو أنّه هجر بيت العائلة تماما. وقد بيّن التكريتيون المعاصرون لصدام بأنّ حسين المجيد ترك صبحة وارتبط بامرأة أخرى وعاش لسنوات عديدة بعد ولادة صدام، إلا أنّ العلاقات بين طرفي العائلة، دون غرابة، كانت مسمومة.[٥] ومهما كانت حقيقة الأمر، فالواقع الذي كان على صدام أن يتحمل فيه غياب والده الفطري في معظم فترات طفولته كان سبب ألمه الكبير، حتى لو كان حضور الأخت الصغرى يعني أنّه يستطيع أن يدافع عن نفسه ضد مزاعم اللاشرعية.

رغم أنّ الأمر يبدو صعبا لتثبيت التسلسل الزمني لطفولة صدام المبكرة، إلا أنّه من الممكن استنتاج المخطط التقريبي لوقائع المكان الذي كان فيه. وبعد مغادرة حسين المجيد لبيت العائلة كانت أم صدام، صبحة، فقيرة جدا ولا تستطيع تربية الرضيع بمفردها. وعمل صبحة الوحيد الذي عرفت به كان الاستبصار. يقول المقيمون في تكريت سابقا بأنهم يتذكرونها دائما وهي ترتدي الملابس السوداء، تملأ جيوبها بالأصداف والقوقع التي تستعملها لتساعدها في نبوآتها. وتقول بعض التقارير بأنها حصلت على دعم مادي من أخيها خير الله، الذي عاش في تكريت القرية، بينما تشير

تقارير أخرى إلى أنّ الطفل الصغير سلّم حالا وكإجراء مؤقت، إلى رعاية خير الله. وتكريت مدينة النسيج المهمة سابقا أصبحت موضعا ريفيا خلفيا منعزلا في الثلاثينيات. وتاريخيا كانت تمتلك حق الشهرة لأنها مسقط رأس صلاح الدين، في عام ١١٣٨، القائد الأسطوري المسلم (كردي الأصل، من منطقة خارج تكريت العربية) الذي هزم الصليبيين في فلسطين. وفي عام ١٣٩٤ قامت بزيارتها الحشود التترية لتيمورلنك، سليل جنكيزخان خلال حملتها على بلاد الرافدين، وقد توقفت تلك الحشود لتبني هرما صُنع بالكامل من جماجم ضحاياها المهزومين.

وخير الله طلفاح، الذي كان معلما، ثم دعي لخدمة الضباط الاحتياط في حرب فلسطين، وخدم بعد ذلك كضابط في الجيش في تكريت. وكان قوميا عربيا متحمسا مما شكل أحد أهم التأثيرات المكوّنة لصدام الشاب. إنّ الدليل على العلاقة العميقة التي تطورت ما بين الخال وابن الأخت هو أنّ صدام بعدما أصبح رئيسا، كافأ خير الله بتعيينه محافظا لبغداد. وبإجماع الآراء فإنّ خير الله شخص محب للخصام وسيئ الطبع، ومع ذلك نجح في أن يلهم صدام عمق الاحترام الذي يقارب عبادة البطل. وليس من الصعب أن نتصور البصمات التي تركتها شخصية هذا الأب على الولد خلال سنواته التكوينية، ذلك المناصر القوي لأدولف هتلر وروح الشعب النازي. ومن المؤكد أنّ حماسة خير الله للنازيين أدت به في عام ١٩٤١، إلى أن يطرد من الجيش ويسجن لمدة خمس سنوات، وقيل إنّ صدام قد افتقده كثيرا جدا. وبعد سنوات، وفي لقاء موسع مع فؤاد مطر، أحد كتاب سيرته الرسميين، قال صدام بخصوص سجن خاله «كان خالي قوميا وضابطا في الجيش العراقي. أمضى خمسة أعوام في السجن. "هو في السجن"، كان ذلك هو الجواب الثابت لأمي عندما كنت أسألها عن خالي. وكان دائما يلهمنا بالشعور القومي الكبير».[٦] لقد غرس خير الله في الفتى كراهية شديدة للأسرة الملكية العراقية، التي حكمت العراق، ومناصريها من الأجانب، أي البريطانيين. وفي الحقيقة، انّ هذا الأحساس بالخوف من الأجانب كان طاغيا بشدة بحيث إنّ صدام نفسه كتب، بفترة قصيرة بعد تسنّمه الرئاسة «وجب على أبنائنا أن يتوّخوا الحذر تجاه كل شيء أجنبي وألا يفشوا بأسرار أية دولة أو حزب إلى الأجانب. لأنّ الأجانب جواسيس لبلدانهم».[٧]

إنّ سجن خير الله جعل من صدام يعود للعيش مع والدته. وفي وقت عودة صدام إلى بيت أمه في العوجة، كانت قد وجدت زوجا جديدا لها. وبأخذ ابن العم الثاني لزوجها الأول، اتخذت صبحة من زوجها الثاني ابن عم أول. وكان الزواج المختلط

من هذا النوع شائعا في العراق. إذ إن قلة الحركة الاجتماعية، إضافة إلى التزامات الولاء العشائري كان يعني بأنّ مثل تلك الزيجات كانت تشجع فعليا، واعتبر الزواج المختلط ضروريا جدا لتقوية وصيانة أواصر القربى. إنّ صبحة، التي تظهر بصور متنوعة لدى الكتاب الرسميين لسيرة صدام كامرأة قوية الإرادة، لم تكن تلك المرأة التي أرادت أن تعيش بمفردها. وكانت هناك إشارة إلى أنّها عاشرت زوجا آخر بين الزوج الرسمي الأول والثاني بالرغم من عدم تقديم دليل دامغ على ذلك. وكان زوجها الثاني يدعى إبراهيم الحسن. كانت صبحة، وكما أشيع، كانت قد أقنعت الحسن بأن يترك زوجته من أجل متع فراشها الزوجي الخاص. وطبقا لأحد المعاصرين لصدام في تكريت، يعد زواج صبحة الثاني انحدارا خطيرا في موقف الأسرة الاجتماعي، حتى في المعايير الفقيرة في العوجة. «إنّ سمعة المجيد سيئة، لكن سمعة آل ابراهيم أسوأ. فآل مجيد سيّئون جدا، وكانوا لصوصا ومجرمين، لكنّ آل ابراهيم كانوا أحطّ المنحطين. كان الجميع يكرهونهم في المنطقة».[٨] وعرفت عشيرة آل ابراهيم بأنهم لصوص محليين. وكان إبراهيم الحسن نفسه مسكينا، فلاحا بمهنة مهينة حيث إنّ وظيفته المعروفة كانت العمل كفرّاش في مدرسة محلية في تكريت. وعلى عكس خير الله الذي يدّعي، من خلال رتبته العسكرية، بأنّه على درجة من المكانة الاجتماعية، فإنّ الحسن (زوج صبحة) قد تجذّر بقوة في أسفل السلّم الاجتماعي. ومع ذلك فإنّ ارتباطه بصبحة كان ناجحا على ما يبدو وأنجب الزوجان ثلاثة إخوة غير أشقاء لصدام ـ برزان، وطبان، وسبعاوي ـ وعدد من البنات.

وتوطدت عائلة صبحة الجديدة في الوقت الذي عاد فيه صدام إلى كوخهم الطينيّ في العوجة بعد سجن خير الله. وكان صدام لم يزل طفلا ـ عمره بين الثانية والسابعة ـ ومع ذلك فإنّه لم يحظ باستقبال كثير. ويبدو إنّه قد أُهمل في البيت إلى حد كبير، باستثناء الاهتمام القاسي لزوج الأم الذي كان إذا ما استيقظ من كسله الفطري يستمتع بضرب الولد الصغير بعصا مغطى رأسها بالقير، ويجبره على الرقص في الوحل ليتجنب الضرب. وبقيت الظروف في القرية قاسية للغاية. لا يوجد في بيت الأسرة ماء جار أو كهرباء والسكن يأوي إليه الأطفال والمواشي والدواجن. في الليل تنام العائلة على السطح الطيني متكوّرين بعضهم مع بعض من أجل الدفء. وحسب رواية أحد كتّاب السيرة الخاصة بصدام، وهو الكاتب أمير أسكندر، فإن صدام لم يكن تحت تأثير الأوهام بخصوص مظاهر الحرمان التي نشأ عليها. وقد أسرّ صدام بأنّه لم يكن طفلا صغيرا أبدا، بل كان طفلا كئيبا يتحاشى رفقة الآخرين. كان هناك رثاء أكيد في تعليقه

بأنّ مولده «ليس بمناسبة سعيدة ولم تزيّن مهده الورود أو النباتات عطرية الرائحة». (١٠)

وفضلا عن تحمّله لتلك الظروف القاسية، كان على صدام الصغير أن يكافح التأثير الفاسد لزوج الأم بوضوح. وكان زوج صبحة يُعرف بـ «إبراهيم الكذّاب» لأنه ادعّى بأنّه أدى فريضة الحج إلى مكة، وهي أحد أركان الإسلام السبعة المذكورة في القرآن، بينما هو في حقيقة الأمر لم يكن في أي مكان قريب من العربية السعودية، فما بالك بمكة. لكن ما ينقص إبراهيم من الأمان جعله يتصالح مع المواقف الضعيفة في الحياة. ولم تكن لديه أية وظيفة أخرى بعد عمله القصير كفرّاش مدرسة، لكنه عوّض عن عطالته باستغلال أبناء زوجته إلى أقصى حد. بينما كان إبراهيم يقضي أيامه بالقيل والقال مع أصدقائه في المقهى، حُرم صدام من فرصة الالتحاق بالمدرسة المحلية، وكُلّف بالقيام بأعمال تافهة قريبا من الدار. وقد أرسل صدام ليسرق الدجاج والبيض من الحقول المجاورة، وكان صدام قد أمضى فترة قصيرة في مركز اعتقال الأحداث نتيجة لذلك. وقد زعم وزير عراقي سابق بأنّ صبحة كانت شديدة الاهتمام بتشجيع أفعال صدام في السرقة. «انّهم يسرقون ويقتسمون الغنائم في الليلة ذاتها. واعتادت أم صدام أن تترأس تقسيم الغنيمة، من قمح وأغنام وربما قطع قليلة من الذهب والفضة». (١١) وتعرض صدام للشتائم الجنسية من قبل إبراهيم الحسن، والتي كانت وبالتأكيد تجربة غير مألوفة لواحد بموقع صدام. إنّ القول بأنّه ليس هناك مودّة مفقودة ما بين صدام وزوج أمه هو شيء من التصريح المكبوح. ويتذكر القرويون صراخ إبراهيم على صدام في مناسبات عديدة: «لا أريده ابن الكلب».

إذا كانت الحياة صعبة في البيت، فإنّها لن تتحسن عندما كان صدام قادرا على تجنب الأعمال غير المرغوب فيها. وبصورة عامة كان يعتقد في القرية بأنّ الولد من دون أب، وأنّ إبراهيم لن يعمل الاّ القليل لتفنيد تلك السمعة. ونتيجة لذلك كان الأطفال الآخرون يضايقون صدام بلا رحمة ويهاجمونه كثيرا. وفي الحقيقة، كان يُعتدى عليه بقوة فأخذ يتعوّد على حمل قضيب حديدي ليدافع به عن نفسه عندما كان يجازف بالخروج خارج منزل الأسرة. (١٢) وتقول إحدى الأساطير بأنّ صدام كان غالبا ما يسلّي نفسه بوضع ذلك القضيب على النار، وذات مرة جعلته الحرارة يحمرّ، فطعن به حيوانا عابرا في بطنه وشقّه إلى نصفين. (١٣) ونظرا لافتتان صدام المتأخر بالأفعال الفظيعة المنفذة في أوكار التعذيب التابعة له، تمتلك القصة قدرا من المصداقية. وكان صدام وحيدا والمخلوق الوحيد الذي كان يوليه الاهتمام هو حصانه. كان صدام متعلقا جدا بذلك الحصان، ولما نفق، ادعّى بأنّ يده قد شلت لأكثر من أسبوع.

ومن الممكن تقدير رؤية صدام الخاصة بطفولته من خلال كتّاب سيرته الرسميين. وتقريبا أنّ أي ذكر لإبراهيم الحسن، والذي شأنه شأن زوج صبحة الأول، قد مسح تماما من المخطوطة. والإشارات الوحيدة التي ذكرها عن إبراهيم كانت ازدرائية، مثل زعمه بأنّ زوج أمه كان يوقظه في الفجر وهو يصرخ «انهض يا ابن العاهرة، اذهب وارع الغنم». وكان صدام في غاية الصراحة في حديثه عن الفقر الفظيع الذي عانى منه في شبابه. وقد بيّن ببساطة لأحد كتّاب سيرته قائلا «نحن عشنا في بيت بسيط». وفي السبعينيات، وعندما كان صدام يحاول أن يبني قاعدة سلطته في العراق، كان الأمر مناسبا ليؤكد على أصوله المتواضعة حيث كان يأمل في توسيع مناشدته للعراقيين البسطاء. وفي حزيران ١٩٩٠، عشية حرب الخليج، كان يتحدث في مقابلة موسعة أجرتها معه ديانا سوير لتلفزيون ABC، حيث قال «كانت الحياة صعبة جدا في كل مكان من العراق. عدد قليل من الناس لديهم أحذية وفي حالات عديدة كانوا يلبسونها في مناسبات خاصة فقط. وبعض الفلاحين كانوا لا يلبسون أحذيتهم حتى يصلوا إلى المكان المقصود لكي تبدو أنيقة».

وإذا ما كانت ذكريات صدام عن زوج أمه وحياته المنزلية حقيقية، فلا يمكن قول الشيء نفسه عن ذكرياته عن والدته. وكمعظم الأبناء، أحبّ صدام أمه بإفراط، كما ظهر ذلك في التكريم الكبير لها وذلك ببناء ضريح ضخم لها في تكريت بعد وفاتها - ولا بد من القول - أنّه أنجز بأموال الدولة. وكتب على شاهدة القبر بأنها «أم المناضلين»، وفي ملاحظة شخصية أكد صدام على حميمية العلاقة معها عندما أسرّ لكاتب السيرة بأنه كان يزورها في أغلب الأحيان. ونظرا للصعوبات التي كان يعاني منها خلال المدة التي عاشها مع صبحة، كان إخلاص صدام لأمه مثيرا للاهتمام. وصورها تظهر لنا بأنّها امرأة بدينة وقصيرة ومقطبة الجبين ترتدي الرداء الأسود الطويل المميز للفلاحات العربيات. وجهها موشوم بدوائر سود صغيرة، ولم تبتسم في أية صورة من الصور الباقية. ويتذكر معاصرو صدام من الذين التقوا بها في الستينيات أنّها امرأة سيئة الطبع تحشو حديثها بكلمات تجديفية، حتى لو كانت تتحدث إلى أناس غرباء. غير أنّ صدام كان لا يبصر هفواتها ويقي مخلصا لذكراها.

وبالمثل احتفظ صدام بعلاقات طيبة مع إخوته غير الأشقاء، بالرغم من أنّ علاقته بهم كانت صعبة في الطفولة دون أدنى شك. وقد كوفئ كلّ من برزان وسبعاوي ووطبان بمراكز رسمية مهمة عندما حقق صدام طموحه وأصبح رئيسا للعراق، ولعدة سنوات حصل أنّ برزان كان يعتبر نفسه وريثا لصدام دون منازع. وكان على طفولة

صدام أن تمتلك الاتجاه الكبير الذي نظم نفسه عليه في الحياة العامة، خاصة بعدما أنجز مواقع السلطة الحقيقية. وعلّمته نشأته أن لا يثق بأحد، وأهمية الاعتماد على الذات، وقيمة استعمال القوة القاسية لبث الرعب في نفس أي واحد يقف في طريقه، بقضيب حديد أو سواه. وتعلم أنّه مهما كانت العائلة مختلة وظيفيا، فإنّ أولئك الناس هم وحدهم الذين يثق بهم لمساعدته على البقاء في السلطة.

ومهما صوّر صدام كثيرا ذكرى أمه بطريقة رومانسية، فإنّ هناك شكا قليلا في أنّ اللحظة الأكثر إثارة في طفولته جاءت عندما أطلق أخيرا سراح خير الله من السجن، إما في ١٩٤٦ أو ١٩٤٧، وأصبح صدام قادرا على التخلص من بؤس وفقر وكبت العيش مع صبحة وإبراهيم والإخوة غير الأشقاء والإقبال على إمكانيات الحياة مع قريبه العاشق للنازية.

وإذا كانت تجربة صدام مع زوج أمه قد ساعدته في تكوين شخصيته، فإنّ الفترة التي عاش فيها مع خاله في تكريت وبغداد ساهمت ومن دون شك في موقفه السياسي. وكان خير الله ليس أكثر من لاعب في النضال الأوسع بين أوساط الشعب العراقي من أجل تقرير المصير، إلا أن مشاركته الفعالة في التيارات القومية الكبرى تركت علامة لا تمحى على الشاب صدام، خاصة لأنّ نشاطات خير الله حرمته من صحبة خاله لخمس سنوات حرجة في طفولته.

إنّ القضية التي التزم بها خير الله بحماس لها جذورها في تكوين العراق الحديث في الكارثة الفوضوية للحرب العالمية الاولى. ولأربعمائة سنة من الحكم العثماني تقريبا، كانت المنطقة التي تعرف بالعراق الحديث واحدة من أكثر أقطار الامبراطورية تخلفا ورجعية. وتحت حكم الأتراك العثمانيين كان العراق الحالي عبارة عن ثلاث ولايات منفصلة قامت على مراكز التجارة الرئيسة في الموصل وبغداد والبصرة. وانتهت السيطرة العثمانية على المنطقة عن طريق الثورة العربية التي دعمها الإنجليز والتي توّجت بالاستيلاء على بغداد في ١٩١٧ إنّ الحملة من أجل تحطيم السيطرة العثمانية على منطقة الشرق الأوسط، والتي تذكر بالدرجة الأولى مع مغامرات لورنس العرب ذائعة الصيت، لم تكن بلا حوادث. أرسلت إلى البصرة، في رأس الخليج، في بداية الحرب في عام ١٩١٤، قوة بريطانية استكشافية كإجراء وقائي ضد الأتراك الذين ناصروا الألمان. وبالاستيلاء على البصرة بسهولة في عام ١٩١٥، قرر القادة البريطانيون المسرفون في الثقة أن يتقدموا صوب بغداد. وبالرغم من التجهيز السيئ للحملة في الظروف المنهكة لجنوب العراق، توغلت القوة البريطانية لمسافة خمسة

وعشرين ميلا من بغداد قبل أن تُسحق تماما على يد قوات الأتراك المعززة. وتراجعت بقايا القوة البريطانية نحو الكوت، المدينة التي تفوح منها رائحة الشر والتي تقع على منعطف في نهر دجلة، حيث حاصرهم الأتراك لمائة وستة وأربعين يوما. وفي النهاية تم التفاوض على الاستسلام، ولكن ليس قبل أن يموت معظم الجنود من الجوع والمرض. وفقد عشرة آلاف جندي بريطاني حياتهم وأصيب ثلاثة وعشرون ألفا على وجه العموم.

ولذلك فإنّ الفتح البريطاني لبلاد الرافدين، وفلسطين وسوريا خلال الحرب العالمية الأولى تم تحقيقه بثمن باهظ وبعد الحرب، وكواحدة من القوى المنتصرة، عزمت بريطانيا على صياغة تسوية في الشرق الأوسط إما بوضع المناطق الاستراتيجية الرئيسة، مثل فلسطين، تحت السيطرة البريطانية المباشرة، أو تحت الحماية البريطانية، كما كان عليه الحال في ممالك ما وراء الأردن المتكونة حديثا (الأردن الحديث)، العراق، ودول الخليج، بما فيها الكويت. إنّ عملية اتخاذ قرار تسوية ما بعد الحرب في الشرق الأوسط والتي بدأت في مفاوضات فرساي، التي اختتمها مؤخرا ونستون تشرشل في القاهرة عام ١٩٢٢، كانت معقدة للغاية نتيجة للصفقة الخفية التي عقدتها بريطانيا مع فرنسا في عام ١٩١٦ إنّ اتفاقية سايكس بيكو، كما هو معروف، أعطت لبنان وسوريا إلى الفرنسيين، الذين أصبحوا مهتمين بطموحات بريطانيا الاستعمارية بعد الحرب، بينما أحرزت بريطانيا السيطرة على العراق وفلسطين. والخطأ الأساسي في هذا التقسيم الدافئ والمريح لأقاليم الدولة العثمانية السابقة كان في التغاضي عن الوعود الموثقة جيدا والتي قطعها الإنجليز للقادة العرب المحليين في منحهم الاستقلال إذا ما وافقوا على دعم البريطانيين في الحرب على الأتراك.

إنّ الخاسر الرئيس في صفقة سايكس بيكو كان الشريف حسين في مكة، القائد العربي في إقليم الحجاز (ما يُعرف بالعربية السعودية في الوقت الحاضر) والذي قاتل رجاله مع لورنس. وفي المفاوضات المطوّلة التي أعقبت ذلك، حاول البريطانيون إرضاءه بتنصيب أبنائه كملوك متعاقبين لممالك ما وراء الأردن المكوّنة حديثا، وهي سوريا والعراق. وبينما رفض الملك العجوز أن يوقع على اتفاقية تشرشل لإقامة بنية الشرق الأوسط الجديد، لم يساور أبناءه مثل تلك الشكوك في تسلّم مناصبهم الجديدة. وكان ذلك يعني في بغداد بأنّ فيصل، الابن الثالث للحسين، أصبح الملك الأول للعراق.

وبالرغم من أن إقامة الملكية في بغداد كانت تناسب البريطانيين غير أنّ الأمر لم

يكن محبذاً من المواطنين العراقيين المحررين حديثا، حيث كان معظمهم معارضين حتى لتأسيس الدولة الجديدة. وعندما قدمت كمشروع لأول مرة، في عام ١٩١٩، بأن ترتبط ولايات الموصل وبغداد والبصرة بعضها مع بعض لتكوّن شعبا واحدا، وحتى الإداريون البريطانيون المحليون قدموا الحجة على أنّ ذلك المقترح كان مدعاة للسخرية. وقال آرنولد ولسون، مدير بغداد المدني، بأنّ ذلك كان إجراء كارثيا لأنه يعني محاولة إجبار ثلاث مجموعات مختلفة - الشيعة، السنّة، والأكراد - لتعمل معا، مع أنّ المتعارف عليه جيدا بأنّهم يبغضون بعضهم.(١٤) وكانت التوترات بين القبائل المختلفة في ذلك الوقت كبيرة جدا حيث عانى البلد الكثير في تموز ١٩٢٠ من أكبر ثورة في تاريخه. وسببت الثورة مجموعة من العوامل، غير أنّ فشل بريطانيا في تحقيق وعدها الذي قطعته في الحرب بإعطاء القادة العرب حق تقرير المصير كان العامل المهم. وكما قال أحد القادة العرب لجيرترود بيل، الكاتب البريطاني، في عشية الثورة: «منذ أخذتم بغداد، وأنتم تتحدثون عن حكومة عربية، ولكن ثلاثة أعوام أو أكثر، قد انقضت ولم يتحقق أيّ شيء».(١٥)

وأخمدت الثورة التي استمرت حتى عام ١٩٢١، ولكن ليس قبل أن تأتي على كتيبة كاملة من فوج مانشستر حيث أبادها جنود حرب العصابات الشيعة وقتل على الأقل عشرة آلاف من الشعب في تلك الثورة إذا لم يكن شيء آخر مما أقنع البريطانيين بأنه كان من الأفضل بكثير أن يقيموا نظاماً طيعاً يدير لهم البلد على أن يثقلوا كاهلهم بتكاليف باهظة في الرجال والأمور المطلوبة لإخضاع العشائر الثائرة وبينما كانت الجهود تبذل من قبل القادة العسكريين المتنافسين في البصرة وبغداد لتسوية خلافاتهم ويقدموا البريطانيين بقيادة محلية قابلة للنجاح قرر البريطانيون ومن خلال تعلقهم العاطفي بالشريف حسين في الدرجة الاولى بأن أحد أبنائه يجب إن ينصّب ملكاً. وكان سيد طالب القائد المحلي المبجل في البصرة السياسي الوحيد الذي يمتلك حق المطالبة المقنعة لقيادة البلد وقد حصل على دعم واسع النطاق من شيوخ العشائر عندما طاف البلد بحملة تحت شعار: «العراق للعراقيين». ولما كان هدف بريطانيا أن تفضي الشرعية على تسنم الملك فيصل عن طريق الاستفتاء العام فإن ظهور متنافس علماني صادق بث الذعر لدى الحكومة البريطانية. وقد حلت الأزمة مع ذلك على يد الداهية سير بيرسي كوكس المقيم في بغداد والذي وجّه دعوة إلى طالب لاحتساء الشاي عصراً في مقر الإقامة البريطانية لمناقشة خططه وعندما وصل السيد طالب إلى مقر الإقامة، لم يظهر له سير بيرسي ولذلك استضافته السيدة كوكس. وعندما غادر مقر الإقامة بعد

حفلة الشاي، تم اعتقال طالب على يد أحد الضيوف الآخرين تنفيذاً لأوامر سير بيرسي. بعد ذلك تم ترحيل السيد طالب إلى جزيرة سيلان (حاليا سيريلانكا) في المحيط الهندي، تاركا فيصل حرا لاعتلاء العرش، وتم تتويجه ملكا في بغداد في الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٢ [١٦]

وبالتالي فإنّ إقامة الملكية في العراق، لم تنعم بما هو مرجوّ من نقاط الانطلاق، وحصل البريطانيون على سمعة حسنة بين مواطني البلد الجديد بسبب النفاق. كان فيصل ملكا ضعيفا خدمه عدد من الحكومات الضعيفة التي لم تؤسس مؤهلاتها الوطنية بشكل جيد. فالبريطانيون أبدوا اهتماما كبيرا بحقول النفط المكتشفة حديثا قرب الموصل، أكثر من اهتمامهم بالسياسة الداخلية لدولتهم المتكوّنة توا، وأسسوا سربي طائرات القوة الجوية الملكية على أطراف بغداد والبصرة كقوة رادعة لثورات العشائر في المستقبل. وكانت المجالس الاستشارية للملك فيصل تعجّ بالضباط العثمانيين السابقين من الذين قاتلوا مع البريطانيين في الحرب. وبالرغم من أنّ عضوية المجلس كانت تتغير باستمرار في محاولة لتهدئة شكاوى القوميين العراقيين، فإنّ استشراف الحكومة للأشياء بقي كما هو.

إنّ فرصة القوميين لتنفيذ التغييرات التي كانت ممنوعة عليهم في تقرير ١٩٢٢ لم تظهر حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. مات فيصل في عام ١٩٣٣، وأعقبه ابنه غازي، الشاذ المتعلم في ساندهيرست، والذي بالرغم من إحداثه ضجة شعبية، كان عاجزاً عن تجريد البريطانيين من مواقع نفوذهم، للسخط والإحباط الكبيرين لدى الطبقات الحكومية البارزة في العراق. في عام ١٩٤١، وبعد أن تغلب هتلر على معظم غرب أوروبا، قررت مجموعة من العراقيين يقودها رئيس الوزراء المؤيد للنازية رشيد عالي، الذي كان يدعمه أربعة من الزعماء يطلق عليهم المربع الذهبي، أن تتحدى النفوذ البريطاني في القطر وذلك بمهاجمة قواعد القوة الجوية الملكية في ضواحي بغداد. وبتعهده بطرد البريطانيين من العراق، ناشد الألمان لمساعدته. إلاّ أنّ الألمان كانت استجابتهم بطيئة، فاستطاع الإنجليز أن يسحقوا الثورة بسهولة. استطاع رشيد عالي وبعض أنصاره أن يهربوا من البلد، لكن المشاركين الآخرين، بمن فيهم خال صدام، خير الله طلفاح، جمعوا في مكان واحد وعوقبوا. تم شنق الزعماء الأربعة الذين ساندوا عالي وبقيت أجسادهم بادية للعيان خارج مبنى وزارة الدفاع إضافة إلى بعض زعماء الثورة الآخرين. سجن الآخرون وطردوا من القوات المسلحة. وجرّد خير الله الذي كان مستعدا للمشاركة في الثورة، من رتبته العسكرية وسجن لخمس سنوات.

وتغيّر كلّ من ابن الأخت والخال إلى حد كبير في ذلك الوقت حيث عاد صدام وخير الله ليجتمعا مرة ثانية في تكريت. كان خير الله يشعر بالمرارة والنقمة بعد المعاملة التي تلقّاها من البريطانيين. وفضلا عن عقوبة السجن، فقد خير الله مكانته الاجتماعية التي ذهبت مع رتبته كضابط في القوات المسلحة العراقية. وبعد إطلاق سراحه من السجن، وجد خير الله المطرود من وظيفته لنفسه موقعا تدريسيا في مدرسة محلية خاصة حيث كان، بلا ريب، قادرا على أن ينشر أفكاره القومية المتصلبة والمعادية للبريطانيين والسريعة التأثير في أوساط العقليات الشابة من طلاّبه. ويستذكر أحد الطلاب العراقيين السابقين والذي التحق بالمدرسة التي كان يديرها خير الله بأنه كان «رجلا فظّا للغاية، نازيا وفاشستيا، وجميع الطلاب كانوا يرهبونه بسبب سجلّه في مقاتلة البريطانيين وبسبب آرائه السياسية».[١٧]

وكانت مغامرات الخال البطولية في عام ١٩٤١ تبعث على الهيبة في نفس صدام الصغير، وانّ موقع خير الله الجديد كمدير مدرسة أضاف إلى جاذبية انتقاله للعمل في تكريت. وخلال غياب خاله المفروض بالقوة، كان صدام قد تخرج بدرجات شرف في فن صلابة الشارع، إلاّ أنّه وبسبب تقلبات زوج أمه، كان الولد أميّا تماما. وبالنسبة لمعظم الأولاد الذين هم بمنزلة صدام الاجتماعية المتدنية لم يكن تعلّم القراءة والكتابة على رأس قائمة الأولويات متى ما استطاعوا أن يسلّوا أنفسهم بشكل أفضل عن طريق سرقة جيرانهم أو ضرب وترويع أولئك الذين يسيؤون إليهم. كان صدام سيواصل وبسعادة العيش في حياة البلطجية العشوائية لو لم تكن لديه الرغبة في محاكاة خاله البطل وأن يقاتل من أجل تحرير وطنه من الطغاة الأجانب.

وكانت الخدمة في القوات المسلحة تقريبا السبيل الوحيد المفتوح لشخص ما مثل صدام وذلك لتحسين مكانتهم الاجتماعية، ليس لأنهم فلاحون فقراء من المحافظات، بل لأنهم أيضا كانوا مسلمين سنّة، والذين يعتبرون في العراق الجديد طائفة أقلية، مقارنة بالشيعة والأكراد الأكثر تعداداً ونفوذا. إنّ طموح أي شاب عراقي له تطلعات عسكرية كان في التسجيل في أكاديمية بغداد العسكرية، التي أسسها الإنجليز لتصنع كادرا مخلصا ومدربا تدريبا جيدا من الضباط.

إنّ تقليد الشباب التكريتيين الملتحقين بالقوات المسلحة يمكن أن يعود إلى مولود مخلص، المولود في تكريت والذي صنع لنفسه اسما إبّان الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. وبعد تأسيس العراق أصبح مخلص صديقا مؤتمنا وحميما للملك فيصل الأول ونائبا لرئيس مجلس الأعيان في الحكم الملكي،

واستخدم نفوذه الكبير في تعيين شباب تكريتيين في مراتب عالية في القوات المسلحة والشرطة، تلك الممارسة التي استمر بها الأشخاص الذين كانوا تحت حمايته، ولذلك تمكن أن يخلق في أواخر الخمسينيات زمرة قوية في قلب المؤسسة الأمنية والعسكرية العراقية. وكان صدام، الذي اكتسب توا بعض السمات العدوانية الضرورية لمهنة تكرّس لفن صنع الحرب، يطمح في الانضمام إلى النخبة في أكاديمية بغداد العسكرية. ولسوء حظه، لم يكن يمتلك المؤهلات الرسمية المطلوبة والإمكانيات الواقعية للحصول عليها طالما فترت همّته في العوجة.

الواقع أنّ مجيء ابن الأخت الشاب والطموح ليتحد ثانية بخاله المنغّص والسيئ في تكريت كان حادثة أخرى في حياة الشاب صدام والذي أصبح مليئا وبشكل فوضوي بمجموعة بديعة من الحكايات الشعبية الخيالية والعجيبة للغاية. والتفسير السليم لذلك هو أنّ خير الله الذي كان، برغم كل شيء، الأب المرّبي للولد، أبدى استعداده لمساعدته على تحصيل التعليم المناسب. وأخته صبحة التي انقطع عملها ببساطة لإعالة أسرتها المتنامية فوق مستوى المعيشة، قبلت ذلك العرض بحماس لينقص أحد الأفواه الواجب إطعامها. وإبراهيم الحسن، ربما كان آسفا على فقدان العمل الرخيص للفتى الذي كان يدير مهماته اللامهذبة، غير أنّه لا بدّ أن يكون مرتاحا لإزاحة هذا الوقواق الخاص من عش العائلة.

وخلال مسيرة حياته كان صدام واعيا للأهمية الكبرى للدعاية وعبادة الشخصية. وعليه فإنّ الأمر قلّما يكون مدهشا، بأنّ التقارير الرسمية عن حياة صدام توفر وصفا مليئا بالتفاصيل الدقيقة على العموم حول الطريقة التي غادر بها منزل العائلة ليتحد ثانية مع خير الله. إنّ الرواية التي ذكرها فؤاد مطر (على سبيل المثال) في سيرته المرخّصة رسميا مليئة بالدراما.

وحسب مطر (الذي كان، مع ذلك، يكرر فقط ما قاله صدام نفسه) فإن عائلة صدام كانت تريد منه أن يكون مزارعا وكانت تعتقد بأنّه لا توجد لديه الرغبة في تلقّي التعليم الرسمي. بيد أنّ صدام أصبح مهتما بفكرة الذهاب إلى المدرسة عندما التقى بابن خاله الذي يصغره سنّا (عدنان) ابن خير الله، الذي أخبره كيف كان يتعلم القراءة والكتابة والرسم. وعدنان هو ابن خير الله من زواجه الأول وله شقيقة اسمها ساجدة أصبحت زوجة صدام الأولى. وخلال فترة سجنه أصبح خير الله بعيدا عن زوجته التي انتقلت مع طفليها إلى بيت والديها في بغداد. وبعد إطلاق سراحه من السجن تزوج خير الله ثانية وعاد عدنان وساجدة إلى تكريت. وأصبح عدنان صديق الطفولة الأقرب

إلى صدام، وفيما بعد أصبح وزير دفاع العراق، المنصب الذي احتفظ به حتى موته في ظروف غامضة في تحطم طائرة مروحية. وفي عام ١٩٤٧ كان صدام متأثرا بما أخبره ابن خاله الشاب بأنه قرر أن يسافر معه إلى تكريت للالتحاق بمدرسة القرية. وكان ذلك، طبقا للسيرة الرسمية، «فعل التمرد الأول» لصدام، وبقيت عائلته على قناعة بأنّ التعليم سيكون مضيعة للوقت بالنسبة لولدهم القاسي.

«عندما كان الجميع نائمين، غادر صدام البيت ومشى في الظلام حتى وصل إلى مكان يعمل فيه بعض أقاربه الآخرين. كانوا مندهشين جدا لظهوره المفاجئ، بيد أنهم أدركوا الأمر لما أوضح لهم بأنه كان يريد الالتحاق بالمدرسة في تكريت ضد زغبات عائلته. وشجع أولئك الأقارب صدام كثيرا. فأعطوه مسدسا وأرسلوه بسيارة إلى تكريت وتم الترحيب به هناك من قبل أعضاء آخرين من عائلته، وأثنوا على قراره. وبعد أن أكمل سنته الأولى في المدرسة، انتقل إلى بغداد مع خاله، خير الله طلفاح، الذي أولاه رعايته لأن والده قد مات قبيل ولادته. وقد أكمل تعليمه الابتدائي في مدارس بغداد ودخل المرحلة الثانوية». (١٨)

وحتى في مجتمع بلا قانون كالمجتمع الريفي في العراق في الأربعينيات تبدو فكرة إعطاء ولد في العاشرة أو ما شابه بندقية للتأكيد على أنه يشق طريقه الخاص أكثر من أن تكون بعيدة عن العقل قليلا. إنّ التعديلات على تلك الرواية، بالمناسبة، قد زينت صفحات الصحافة العراقية التابعة للحكومة، فالتعديل الرئيس للرواية هو أن صدام مشى حافي القدمين إلى تكريت، بدلا من تأجيره لسيارة تاكسي، الزخرفة التي صممت لتصوير بطولته في مظهر أكثر رومانسية أيضا. ويقينا أن الانتقال إلى تكريت يجب ألا يستخف به من ناحية احترام الذات لدى صدام. بصورة عامة يأخذ الناس في ريف العراق لقبهم مسقط الرأس، لذا من الناحية الفنية يجب أن يكون اسمه صدام حسين العوجة، بينما يصرّ هو إلى هذا اليوم على أنه يُعرف بصدام التكريتي، إنها تسمية عالمية (كوسموبوليتية) بكل ما في الكلمة من معنى.

لم يكن تعليم صدام تجربة مستساغة، في البداية على الأقل. لم تكن ممتعة جدا لطفل الشارع الفظ، الوحشي تقريبا، القادم من قرية معدمة جدا، والذي كان لا يعرف حتى أن يتهجى حروف اسمه، ليضاف إلى مجموعة عمر الواحد منها خمسة أعوام وكانوا متعلمين بشكل أفضل. والأكثر ترجيحاً أن صدام قد نال الكثير من الجروح ذات الأثر النفسي بسبب السخرية والاعتداء اللذين عانى منهما في المدرسة، ومن المحتمل، بالرغم من كل ذلك، أنه كان متأهبا بقدر عال للتعامل مع الاعتداء. وحتما

أنه دخل في عراكات مع بعض الأولاد الآخرين. وبعض من جراحات الطفولة عميقة الأثر لأنه في حياة الرشد وكما قيل كان عليه أن يعود إلى تكريت ليأخذ بثأره عنوة من مضطهديه.

وصوّرته بعض الروايات كولد جريء حاول أن يسحر زملاءه الأفضل تعلما منه بعمل نكات واقعية على المعلمين، مثل معانقة المعلم العجوز لمادة القرآن بعناق ودي مخادع وبعد ذلك يدخل أفعى تحت ردائه. والنادرة الأكثر تميزا حول سلوك صدام في المدرسة رواها صراحة أحد المعاصرين له قائلا: «أخبرني مدير مدرستنا بأنه أراد أن يطرد صدام من المدرسة. وعندما سمع صدام بذلك القرار، جاء إلى غرفة المدير وهدده بالموت. قال بالحرف الواحد: "سأقتلك إذالم تسحب تهديدك ضدي بطردي من المدرسة". »(١٩) تم إلغاء التهديد بالطرد بهدوء.

وقد حصل صدام على المزيد من التشجيع من خير الله ومن ابن خاله الأصغر منه بثلاث سنوات من أجل إكمال دراسته. وبعد بداية صعبة يبدو أنّ صدام قد تعوّد على إيقاع العملية التعليمية. والصور التي أخذت لصدام في ذلك الوقت تظهره صبيا عابسا مربّع الحنك بعينين ثاقبتين، صبيا قادرا على الاهتمام بنفسه بشكل جيد. وعلى صدام أن يتغلب على الكثير من المعوّقات ببساطة من أجل الالتحاق بالمدرسة، ولم يكن الطالب النجم، بالرغم من امتلاكه لذاكرة ممتازة وقدرة تصويرية لتذّكر التفاصيل تقريبا. ويزعم الكاتب الفلسطيني سعيد أبو ريش، أحد المدافعين عنه بأنّ «صدام كان طفلا ذكيا على نحو استثنائي، يتعلم بسرعة سريعا ويحسب بروية وكان نظاميا من البداية». (٢٠) ومع ذلك فإنّ هذا التقييم لطالب المدرسة صدام كان ضعيفا جدا لأن صدام في واقع الأمر كان عاجزا عن اجتياز المتطلبات الاساسية لأمتحان الدخول إلى أكاديمية بغداد العسكرية. وليس هناك المزيد من الشك في أن صدام كان متلهفا للغاية للانضمام إلى تلك الأكاديمية. لكن رفضه جرح شعوره بشدة، وفي عام ١٩٧٦، وبعدما ثبت نفسه بقوة في الحكم عيّن نفسه فريق أول ركن، وبعد أن أصبح رئيسا عيّن نفسه مهيب ركن. كإجراء مناسب أعدم رميا بالرصاص ابن مولود مخلص، الضابط التكريتي الأسطوري المسؤول عن وضع أقاربه في مراكز مؤثرة في القوات المسلحة العراقية.

وعلى الرغم من ذلك نجح صدام في إكمال دراسته الابتدائية، وعلى هذا النحو تخرج في عام ١٩٥٥في تكريت وانتقل هو وبن خاله عدنان إلى بغداد مع خير الله حيث سجّل الولدين في مدرسة الكرخ العالية. إنّ الانتقال من تكريت إلى بغداد كان له

تأثيره المهم على تطور صدام كما فعل انتقاله من العوجة في عام ١٩٤٧ وكانت بغداد في الخمسينيات خلية للمنافسة والنشاط السياسي الكثيف. وفي تلك الفترة شجع الموقف العربي القومي خصوصا عند انسحاب بريطانيا من امبراطورية ما بعد الحرب العالمية الثانية الاعتقاد بأن اللحظة أصبحت مؤاتية أخيرا لنبذ القيود الاستعمارية ظاهريا التي فرضت بعد الحرب العالمية الأولى. وأفضل ناطق لحركة الاستقلال في مصر كان القائد ساحر الجماهير جمال عبد الناصر. إنّ إصراره على تحرير القاهرة من منطقة النفوذ البريطاني المقيّدة للحريات ساعد على خلق أزمة السويس في عام ١٩٥٦ والتي برهنت على أنها المسمار الأخير في نعش المزاعم الامبريالية البريطانية. إنّ نجاح ناصر الدبلوماسي في السويس دوّى في الشرق الأوسط وشجع كثيرا التجمعات القومية الأخرى خصوصا في العراق حيث إنّ الملكية التي صنعتها بريطانيا في ١٩٢٢ لم تزل في مكانها ولم تزل غير مقبولة لدى الجمهور إلى حد كبير. والملك غازي هو الملك الوحيد الذي كان يحظى بدعم شعبي حقيقي وهو الذي عكّر صفو أسياده البريطانيين وقُتل نتيجة لذلك في حادث تحطم سيارة غامض في عام ١٩٣٩ فالبريطانيون وحلفاؤهم في الحكومة العراقية كانوا ملامين بحق أو بغير حق بسبب موته. وكان عُمْر خليفته فيصل الثاني أربع سنوات عند اعتلائه العرش وكان يدير البلد بصورة فعلية عمه عبد الإله والسياسي العراقي المحنّك نوري سعيد وكلاهما يناصران البريطانيين بإخلاص شديد. ولكن بعد بروز ناصر كبطل قومي في معركة السويس، أخذت مشاعر تأييد البريطانيين لدى كل من نوري السعيد وعبد الإله تدخل في نزاع متزايد مع تنامي الموقف القومي في العراق، وظهرت أحزاب سياسية عديدة في بغداد، كانت دعامة منصات حملتها هي الإطاحة بالملكية.

والعامل الديناميكي الجيوسياسي الحاسم الذي له علاقة مع علم السياسة في بغداد الخمسينيات كان بروز الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى. ولم يكن السوفيت حريصين على تصدير أيديولوجيتهم إلى الشرق الأوسط فحسب، بل كانوا متلهفين لكسر ما اعتبروه سيطرة احتكارية غربية على ثروة النفط الهائلة في المنطقة. فالخطر الشيوعي اعتبر كتهديد حقيقي كبير في كل من واشنطن، والتي بعد تدخل الرئيس الأمريكي آيزنهاور في السويس، زاد تورطها في الشرق الأوسط، وفي لندن، التي ما زالت تحاول أن تحتفظ بأثر للسيطرة. في عام ١٩٥٥ كان للحكومة العراقية دور فعال في تأسيس حلف بغداد، تلك المنظمة الدفاعية الإقليمية التي تتألف من تحالف مستبعد الوقوع لكل من بريطانيا، تركيا، إيران والباكستان. وسبب وجود الحلف كان لمواجهة

التهديد السوفيتي، رغم أن نوري السعيد تمنى سرا أن يزوّد الفكر العربي نقطة تجمع بديلة عن الناصرية. إن استجابة ناصر تجاه الحلف كانت في توقيع صفقة أسلحة ضخمة مع الاتحاد السوفيتي وفي تأميم قناة السويس في السنة التالية. وفضلا عن جعل ناصر بطل القومية العربية بلا جدال، جعل الحلف الحكومة العراقية تظهر كأداة للمصالح الغربية.

كواحد من محاربي - وفي نظر صدام، أحد أبطال - الثورة في عام ١٩٤١، كان خير الله منغمسا بشدة في التيارات السياسية في ذلك الوقت. وانتقلت عائلة خير الله إلى محلة الكرخ في بغداد، وهي منطقة سكنية متعبة وخربة في الضواحي الغربية للمدينة. والكرخ محلة مختلطة من السنّة والشيعة، وكانت هناك عدة حالات لاندلاع العنف تكررت بين الطرفين. وأثناء عمله كمعلم مدرسة، كان خير الله شديد الاهتمام في الاهتياج السياسي، وليس من المفاجأة، أن تنزع اتصالاته السياسية إلى أن تكون من بين تلك الخاصة بطبقته وخلفيته. وأحد رفاق خير الله في ذلك الوقت كان أحمد حسن البكر، ضابط تكريتي في الجيش ورئيس العراق مستقبلا الذي لعب دورا مركزيا في صعود صدام إلى السلطة. وكان البكر منارا قياديا في حزب البعث المتشكل حديثا (ويعني النهضة)، وهو حركة قومية عربية تشكلت في سوريا في أواخر الأربعينيات. هو حزب راديكالي وعلماني، وأهدافه الرئيسة كانت خلق دولة عربية موحّدة تستغني عن الحدود الاستعمارية التعسفية التي فرضت على الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، والتوزيع العادل لثروة النفط الهائلة والتي شرعت في تحويل اقتصاديات المنطقة تحويلا تاما. ونظرة البعثيين قومية ووطنية، وعداؤهم سافر للشيوعيين الذين يدعمهم السوفيت، وكانوا يشكون في أن الشيوعيين يريدون أن يستبدلوا شكل الاستعمار بشكل آخر، والاختلاف الوحيد هو أنّ أحدهما انبثق من لندن والآخر يملك جذوره في موسكو.

إنّ ذكريات صدام عن السنوات التكوينية في تطوره السياسي قلّما تكون عميقة. فقد أخبر صدام أحد كتّاب سيرته بأن اهتمام خاله الرئيس كان في «المقاومة والنضال» ضد النخبة الحاكمة التي تحيط بالحكم الملكي وأنصارهم البريطانيين[٢١]، بينما قال لآخر بأن خاله «تكلم بعبارات قومية وليس بعبارات شيوعية».[٢٢] وتقدم المعرفة العميقة الأكثر إضاءة في التطور السياسي لخاله في كراس كتبه خير الله نفسه تحت عنوان «ثلاثة كان على الله أن لا يخلقهم: الفرس واليهود والذباب». وبالرغم من أنّه نشر في عام ١٩٨١ بعد أن أصبح صدام رئيساً فإنه يشير إلى عمليات الفكر الابتدائي

التي يمكن توقعها من مدافع شديد الاهتمام بالنازيين. فالفرس كانوا «حيوانات خلقها الله بهيئة بشر» بينما كان اليهود «مزيجاً من القذارة وما تبقى من طعام أناس متباينين». أما الذباب، فعلى العكس، فهو عبارة عن مخلوقات مسكينة، أسيء فهمها «تلك التي لا نفهم هدف الله من خلقها». (٢٣) غير أن هذه المحاولة العراقية لمحاكاة Mein Kampf كان لها علاقة بصنع السياسة المستقبلية لصدام.

وكرئيس للعراق، كانت سياسة صدام الخارجية تحددها كراهيته للفرس أو الإيرانيين كما يعرفون الآن، والإسرائيليين. في عام ١٩٨٠ حرّض على حرب الثماني سنوات المشؤومة مع إيران والتي كلفت حياة ما يقدر بمليون عراقي وإيراني، بينما ذروة ذلك بالنسبة لصدام في حرب الخليج في عام ١٩٩١جاءت عندما أطلق سلسلة من صواريخ سكود على تل أبيب. ولترسيخه أفكاره في ذهن صدام كوفئ خير الله بتعيينه محافظا لبغداد، ذلك الموقع الذي استغله بأخذ الرشاوى الضخمة وفي الثمانينيات أرغم صدام على إزاحته من عمله، وأغلق سبع عشرة شركة عائدة له واعتقل مدراءها.

ثمة قليل من الشك في أن تأثير خير الله على صدام كان ضارا كتأثير زوج أمه عليه، وليست بفترة طويلة قبل أن يدير صدام عصابة الشارع الخاصة به في الكرخ، كان يروع خصومه السياسيين، كابن بار لتكريت، أو أي شخص آخر يسبب له الإساءة. بطوله الذي بلغ ستة أقدام وإنشين، وذلك طول غير اعتيادي بالنسبة للعربي، وله بنية عضلية تناسبه. وكان يتحدث بنبرة فلاحية غليظة، وكان كلامه مليئا بالتعابير العامة السوقية في تكريت، وكثيرا ما يسلي البغداديين ذوي الخبرة بالحياة والذي بدأ يرتبط معهم. ولم يفقد صدام أبدا نبرته الريفية أو لهجته، حتى بعد أن أصبح رئيسا. وكانت خطاباته العامة غير نحوية، وكذلك أحاديثه الخاصة، والتي سببت إحراجا للمترجمين الرسميين. وإن عجزه عن أن يتحدث بمصطلحات مساوية لما يتحدث به الأعضاء الآخرون من النخبة الحاكمة في العراق عزز لديه شعوره الراسخ بعدم وجود الأمان.

في بغداد وفي نهاية الخمسينيات كان صدام مرتبطا بالفتوة، وهي منظمة شبابيه شبه عسكرية على نموذج الشباب الهتلري، وتأسست في عهد الملك المسرف غازي في الثلاثينيات. وكانت الفتوة ترمي إلى توحيد العرب بالاسلوب نفسه الذي وحّد به البروسيون الألمان، وأنّ فكرهم جاء متعاشقا بإحكام مع فكر البعثيين. وبتشجيع من خير الله كان صدام عادة ما يتواجد في مقدمة التظاهرات المعارضة للحكومة أو في

الشغب. وفي بيئة عدم الاستقرار والعنف الدائم تلك، كانت مسألة وقت قبيل أن يشرع صدام بقتل أحدهم بكل بساطة.

وبتعلق الأمر بكثير من تاريخ صدام الأول، تكون هناك درجة من الشك حول الهوية الدقيقة لأولى ضحاياه. وبالرغم من إقامته الرئيسة في بغداد، كان صدام يسافر دائما إلى تكريت حيث أصبح فيها منشغلا بالمحيط السياسي، وينظم بصورة رئيسة لعنف الشوارع. لم يتوقع سكان تكريت أي شيء حتى لو كان قليلا من شخص مثل صدام، حيث إنّ أهل المدينة كان لديهم قول فحواه:

عندما يأتي القرويون من العوجة للتجوال في المدينة، على المحلات أن تغلق أبوابها. وإحدى تلك الروايات تذكر أنّ أول إساءة كبرى لصدام وقعت عندما قام بقتل أحد أبناء عمه كان يسيء بحماقة إلى زوج أمه إبراهيم الحسن. ومع أنّه لم يوجد هناك أي دليل دامغ يدعم ذلك الادعاء، كانت حوادث قتل مثل تلك شائعة بأنه ليس أمرا لا يمكن تصديقه بأن إبراهيم طلب من ابن زوجته الفظ أن يطبق مهاراته المكتسبة حديثا لإسكات الجدل المحلي. وحينما يكون هناك الدليل الدافع لتورط صدام في ارتكاب جريمة قتل فإن الأمر يتعلق بقضية سعدون التكريتي، عضو الحزب الشيوعي، والذي عمل كمسؤول محلي للحزب وقتل في أكتوبر من عام ١٩٥٨ وكان البعثيون أعداء ألداء للشيوعيين، وخير الله الذي كان أحد ممثلي حزب البعث في تكريت، كان يحتج كثيرا على ذلك الشيوعي الذي يمسك بمركز السلطة في المدينة. ومع ذلك، فإن الدافع الحقيقي للاغتيال هو أن سعدون التكريتي كان مطلّعا وبشكل جيد على خلفية خير الله السيئة أخلاقيا. وفي صيف عام ١٩٥٨ نجح خير الله في إقناع الحكومة بتعيينه كمدير للتربية في بغداد. ولما سمع الشيوعي التكريتي بتعيين خير الله أخبر السلطات عن ماضي خير الله، ونتيجة لذلك وبعد شهور قليلة طرد خير الله من الوظيفة الجديدة.[٢٤]

وقد أثار ذلك سخط خير الله وكان رد فعله بالطريقة الوحيدة التي كان يعرفها. وبادعائه بأن التكريتي قد بلّغ عنه لأسباب سياسية أكثر مما هي شخصية، أمر خير الله بن أخته بأخذ الثار. وقد نفذ صدام أوامر خاله دون تردد. وقع القتل في تكريت، عندما عاد التكريتي ماشيا إلى بيته بعدما أمضى المساء مع بعض الأصدقاء في مقهى محلي. وكان بيته يقع في طريق غير مضاءة وحينما وصل إلى بوابة البيت خرج صدام مسرعا من وراء شجيرة وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا بإطلاقة واحدة صوّبت إلى الرأس من مسدس أخذه من خير الله.

وبعد الحادث مباشرة ألقي القبض على صدام وخير الله وسُجنا لمدة ستة أشهر، وفي آخر الأمر تم إطلاق سراحهما لعدم وجود الدليل. لم يكن هناك أي شهود على إطلاق النار ويبدو أنه ليس هناك أي أحد في تكريت كان متهما بحادث اغتيال ذلك الشيوعي. وتمتع صدام الدموي الآن بدرجة من الشهرة بين الثوريين الشباب في العراق، وقد شق طريقه عائدا إلى بغداد حيث استأنف نشاطاته كداعية سياسي بينما كان يحصل على عيشه المتواضع من عمله كمحصل في الباص.

ثمة لقطة مختصرة لكل من صدام وخير الله إبّان سجنهما ذكرها هاني الفكيكي، مسؤول سابق في حزب البعث، والذي تقاسم زنزانة السجن مع الرجلين في تكريت. يقول الفكيكي «ما بقي عالقا في ذهني أكثر من أي شيء آخر هو كيف أن صدام وخاله التزما بالانزواء وحدهما في السجن. فاختارا زاوية بعيدة، بعيدة عن بقية الرفاق. وبالرغم من صغر حجم الزنزانة التي وضعنا بها، كلاهما لم يعطيانا أيه فرصة للدخول في حديث معهما. وفي محاولة لكسر الحاجز الذي بيننا، أرسلت عضوا في حزب البعث سجينا هو الآخر ليحاول التقرب إليهما ويكشف تفاصيل سجنهما». غير أن عرض المفاتحة كان مرفوضا.(٢٥)

وانطوى التعليق الرسمي الوحيد لصدام على تلك الأحداث على أنه قد وضع في قالب الاغتيال. «اغتيل مسؤول في تكريت: اتهمته السلطات بقتله وأودعته السجن»، حسب ما كتبه أحد كتاب سيرته.(٢٦) ومع ذلك فإنّ مسوّدات وثائق المحكمة المتعلقة بقضية أخرى، اطلّع عليها المؤلف، أكدت بأنّ التكريتي تم اغتياله على يد صدام لأنّه عارض خير الله. وخلال محاكمة عبد السلام عارف في ١٩٥٩ - ذلك الذي أصبح مؤخرا أحد رؤساء العراق بعد الثورة - في محكمة عسكرية خاصة، أعطى شقيق التكريتي، دليلا يدعم عارف، وبالمناسبة، أورد رواية مفصلة عن حادث الاغتيال. وبعد ذلك نزّل إلى رتبة مفتش بسبب تدخل التكريتي. وفي بيان شهادته صرّح شقيق التكريتي بقسوة قائلا: «وفقا لذلك أرسل خير الله ابن شقيقته صدام في الرابع والعشرين من اكتوبر. . ليطلق النار على أخي ويرديه قتيلا».(٢٧) وإشارة أخرى إلى جرم صدام يمكن أخذها من الواقع، حيث إنّ صدام وبعد مرور عشرين عاما، ولما ارتقى إلى منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، زار المدرسة التي يعمل فيها قريب التكريتي في بغداد، وحسب العادات العشائرية أعطاه مبلغا من المال وبندقية من نوع براونغ مقابل الدم.(٢٨)

ونتيجة للاغتيالات التي نفذها في تكريت، صنع صدام اسما له، ليس كما كان

يتمنى ذات يوم بأن يكون ضابطا شابا مندفعا يتدرب في أكاديمية بغداد العسكرية، ولكن كداعية سياسي وهو الذي لا يتوانى عن ارتكاب جريمة قتل من أجل تحقيق أهدافه. وربما كان حزب البعث صغير الحجم آنذاك (كان يضم فقط ثلاثمائة عضو في عام ١٩٥٨)، لكنه كانت لديه طموحات، وكان قادته يدركون بسرعة المواهب الخاصة للأعضاء الجدد المنتمين إليهم من الشباب. وإذا ما حقق حزب البعث هدفه في السيطرة على البلاد، فإنّه سيتخلص من الحكومة أولا. وهكذا وفي مهمته الرسمية التالية، أوكلت لصدام مهمة اغتيال رئيس العراق المعيّن حديثا.

الفصل الثاني

القـاتل

إن سقوط الملكية في العراق في ثورة ١٩٥٨ كان من أكثر الاحداث دموية في الشرق الأوسط. في الصباح الباكر في الرابع عشر من تموز دكت مجموعة من الوحدات العسكرية يطلقون على أنفسهم «الضباط الأحرار» القصر الملكي في قصر الرحاب. ودمرت نيران المدفعية أعلى الأبنية، مجبرة الملك الشاب فيصل الثاني، والوصي على العرش، وعوائلهم على الفرار من البناية إلى باحة القصر. وهناك واجهتهم نصف دائرة من ضباط الجيش الذين قاموا، دون أي اعتبار للنساء والأطفال، بقتلهم جميعا. والناجية الوحيدة من حمام الدم كانت زوجة الوصي السابق، وبقيت على قيد الحياة لأنها تركت شبه ميتة وسط كومة من الجثث الملكية. وربما أخذ قادة الانقلاب هذا الدور من إزاحة البلاشفة لامبراطورية رومانوف في إيكاترينبرغ، فكانوا مصممين على ألا يبقى أي أثر للأسرة الملكية في العراق على قيد الحياة ليكون نقطة لاستجماع القوى لدى الموالين للملك مستقبلا. وفعل الاحترام الوحيد الذي أبداه قادة الانقلاب كان بأخذهم جثمان الملك الشاب إلى موقع سري لغرض دفنه.

أما الضحايا غير الملكيين، من ناحية أخرى فلم يلقوا أي احترام على الإطلاق. أما جثة خال الملك والوصي السابق، عبد الإله، فقد أخذت من ركام الجثث وسلمت إلى الحشد الثائر. وعموما كان عبد الإله ورئيس الوزراء، نوري سعيد، مسؤولين عن سياسة الدعم لبريطانيا، وكانا موضع شك في تحمّل مسؤولية مقتل الملك غازي، الملك الوحيد الذي أثار أي شيء يقترب من مشاعر الولاء بين أبناء الشعب العراقي خلال عهد حكمه القصير في الثلاثينيات. وسحل جسد عبد الإله في الشوارع حيث كان مربوطا إلى سيارة قبل أن تقطّع أوصاله بطريقة غريبة جدا. وتم عرض بقايا الأوصال في وزارة الدفاع في المكان نفسه الذي علّق فيه البريطانيون أربعة من الزعماء

الذين اشتركوا في ثورة ١٩٤١ وبقيت أجسادهم ظاهرة للعيان. وكانت الثورة وإلى حد بعيد، محاولة لتخليص البلد من النفوذ البريطاني وكذلك لإنهاء الملكية. ونجا نوري سعيد من الانقلاب ليومين آخرين حتى تم القاء القبض عليه متنكرا بزي امرأة، في محاولة منه للهروب. حاول سعيد أن يقاوم أولئك الذين مسكوا به باستعمال مسدسه، لكنه سحق سريعا وقتل. وللتأكد من موته، قام قتلته بتمرير سياراتهم على جسده بصورة عكسية ولعدة مرات. دفنت بعد ذلك بقايا الجسد، غير أنّه وبعد مرور أيام قليلة كان لدى الرعاع أفكار أخرى، فاستخرجت جثة سعيد ومثّل بها بشكل مرعب. ويعد ذلك سار الغوغاء بأجزاء من جسده يعرضونها بتباه في الشوارع كأنّها أكاليل انتصار.

إنّ الأماكن الدقيقة لتواجد صدام في الأيام العصيبة لثورة ١٩٥٨ غير معروفة، ولو سلّمنا بصحة الافتراض فإنه يمكن للبعثي الشاب وخاله المعادي للبريطانيين أن يكونا قد أبليا بلاءً حسنا في أحداث العنف التي انفجرت كنتيجة مباشرة لسقوط الملكية. إنّ المئات، إذا لم يكن الآلاف، من العراقيين ماتوا نتيجة لإراقة الدماء، والبعثيون الذين ساندوا الانقلاب العسكري كليا، كانوا مصممين على التأكد من نجاح الثورة. ثمة ذكر ضئيل في أوراق صدام الرسمية حول نشاطاته في ذلك الوقت، والذي يزعم بأن عمره كان واحداً وعشرين عاما في حينها، ولذا علينا أن نسلّم بصحة عدم ارتباطه بشيء أكثر خطورة من إثارته المألوفة للرعاع.

إنّ البرنامج السياسي الجديد لقادة الانقلاب وضع في تمام الساعة السادسة والنصف من صباح الرابع عشر من تموز عبر برنامج إذاعي خاص كان موجها إلى الجماهير العراقية المنذهلة، غير أنّها مبتهجة. وأذاع البيان عبد السلام عارف، أحد قادة الانقلاب. وفي البيان الأول للنظام الجديد بيّن عارف أنّ الجيش قد حرّر «الوطن الحبيب من عصبة الفساد التي نصّبتها الامبريالية». وكان الانقلاب شعبيا بامتياز، وحتى القانون العرفي وحظر التجول فرضا بتأثير مباشر، ولا يبدو أن أحدا يكترث بذلك كثيرا. وكانت أولى أعمال الحكومة الجديدة هي إلغاء المؤسسات الرئيسة للنظام السابق، بما في ذلك الملكية، وإصدار تفويضات باعتقال جميع أولئك الذين ساندوا شرعية الوضع السابق.

إن الضغوطات من أجل الإصلاح الدستوري كانت تتراكم تقريبا من زمن بداية تأسيس البلد على يد ونستون تشرشل في عام ١٩٢٢ وتسارعت الرغبة في التغيير بصورة جوهرية في صيف عام ١٩٥٨ نتيجة لدعم العراق لحلف بغداد (تمت مناقشته

في الفصل الأول) ونجاح ناصر في تحدي بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بقناة السويس في عام ١٩٥٦ والواقع أن ناصر في عام ١٩٥٨، وبدعم من انتصاره الدبلوماسي، كان يحاول بشكل فعال أن يتبنى قضية البعث لصالحه عبر تقديم المشروع النموذجي لدولة عربية موحدة. وفي شهر فبراير من عام ١٩٥٨، قام الاتحاد ما بين سورية ومصر. وانضمت اليمن فيما بعد في السنة نفسها، وأصبح هذا الاتحاد الجديد يعرف بالجمهورية العربية المتحدة، رئيسها ناصر وعاصمتها القاهرة. معظم الضباط الأحرار الذين قاموا بتنفيذ انقلاب الرابع عشر من تموز في العراق دعموا مبدأ الانضمام إلى الاتحاد، خاصة أولئك الذين كانوا أعضاء في حزب البعث، وهم الذين اعتقدوا أن ذلك هو الوسيلة الأفضل لتحقيق هدفهم في خلق دولة عربية شاملة.

ونتيجة لذلك منح البعثيون دعمهم التام للحكومة الجديدة التي أقامها في بغداد عام ١٩٥٨، الزعيم عبد الكريم قاسم، قائد الضباط الأحرار. وخصص قاسم، صاحب الصوت الرقيق والجدية المتناهية كضابط عسكري، للبعثيين اثني عشر منصبا من مجموع ستة عشر في مجلس وزراء الحكومة الجديدة. ومع ذلك، فإنّ دعم البعثيين لقاسم كان مشروطا بالتسجيل فورا في نموذج ناصر للأمة العربية. وكان بعض الضباط الأحرار قد وعدوا ناصر بأنهم سينضمون إلى الجمهورية العربية المتحدة مقابل دعمه ومساعدته لهم في إسقاط الملكية. وبالرغم من ذلك، كان قاسم في السلطة يتبنى في السلطة أسلوبا أكثر حذرا. وفي ذلك كان قاسم يعمل فقط بأسلوب قلّده العديد من القادة العراقيين في السنوات المضطربة التالية. وفي المعارضة كان مألوفا بالنسبة للسياسيين العراقيين أن يساندوا فكرة تشكيل تحالفات مع جيرانهم العرب، ومن وقت لآخر كانوا في السلطة يهمّون بالشروع بقضية «العراق أولا»، تلك السياسة التي وضعت بموجبها مصالح العراق الوطنية فوق كل شيء آخر. وبتوطيد قدميه في سدة الرئاسة، تبنى قاسم حالا سياسة العراق أولاً وكمواطن عراقي، كانت لديه تحفظات حول وضع استقلال العراق الغالي تحت سيطرة ناصر. وكان أيضا مرتابا بدوافع بعض رفاقه الانقلابين، خصوصا عارف، الذي كان يشك في ضغطه من أجل عضوية الاتحاد مع مصر وسوريا كوسيلة لتقوية موقفه السياسي الخاص في العراق. وكما يحدث أحيانا مع العملية الثورية، وبسرعة وجد الثوار أنفسهم في مفترق طرق حول الاتجاه الذي يجب أن تأخذه الثورة. وفي باكورة الخريف رفض قاسم فكرة الانضمام إلى اتحاد ناصر. علاوة على ذلك، وفي محاولة لفرض سلطته أمر باعتقال عارف وعدة أعضاء آخرين من الضباط الأحرار، الذين حوكموا فيما بعد بتهمة الخيانة (وفي تلك المحاكمة

كشف النقاب عن تورط صدام في اغتيال سعدون التكريتي). وأدين عارف ومساعدوه وحكموا بالإعدام، غير أن تلك العقوبات خفضت مؤخرا إلى السجن مدى الحياة.

وفي محاولة أبعد من ذلك لتعزيز قاعدة سلطته، صادق قاسم على تحالفه مع الحزب الشيوعي العراقي، والذي كان ولأسباب أيديولوجية خاصة به يرفض وبشكل جوهري الانضمام إلى اتحاد الدول العربية الذي تكفل به ناصر: الاتحاد الوحيد الذي سانده الشيوعيون العراقيون كان مع موسكو. إن تحالف قاسم مع الشيطان، كما اعتبره العديد من القوميين، والمحاكمات الصورية للعراقيين من غير الشيوعيين، سبب انهيارا سريا للعلاقات بين قاسم والعديد من الضباط الأحرار الذين دعموا سقوط الملكية: إنهم غير مستعدين لتحمل استبدال دكتاتور واحد بدكتاتور آخر. وجاءت اللحظة الحاسمة في شهر مارس (آذار) من عام ١٩٥٩ عندما قام مجموعة من الضباط القوميين بانقلاب ضد قاسم، احتجاجا على النفوذ المتصاعد للشيوعيين فيما يتعلق بقضايا الأمة. ومني الانقلاب بفشل مخز، وليعطي مرتكبيه درسا، شجع قاسم الشيوعيين على القيام بحملة ضد الخوارج والمنشقين من خصومهم القوميين. وكانت النتيجة حادثة دموية أخرى في تاريخ العراق المعاصر. بالإضافة إلى التخلص من جميع الضباط الذين قاموا بالتمرد في الموصل، قتل الشيوعيون العديد من القوميين العرب الذين ناصروا الانقلابيين. وبعض الضباط الأحرار من الذين شاركوا في إسقاط الملكية تمت محاكمتهم كخونة. وفي الموصل نفسها وبإيحاء من الشيوعيين انغمس الرعاع ولمدة أسبوع في اغتصاب معربد، والسرقة والمحاكمات الاعتباطية، والتي نجم عنها إعدام المتهمين رميا بالرصاص أمام أنظار حشود الرعاع المهلّلة.

وبالنسبة للبعثيين، فإنّ سلوك قاسم لم يصل إلى حد أقل من الخيانة. لقد شعروا بأنهم منحوا قادة الانقلاب دعمهم التام في صيف عام ١٩٥٨ للإطاحة بالملكية بشرط انضمام العراق إلى اتحاد ناصر للدول العربية. وبأقل من سنة فيما بعد واجهت آمالهم ضربة قاسية. وما دام قاسم في السلطة، أصبح من الواضح جدا أنهم لن يحصلوا على فرصة لتحقيق هدفهم في خلق دولة عربية شاملة. إن فرصتهم الوحيدة في تحقيق ذلك الطموح كانت في إزاحة قاسم من السلطة، وهذا ما صمموا على فعله عبر أسلوب الاغتيال المقدس.

وليس مفاجئا أن يقدم اسم صدام لتلك المهمة. وفي تلك المرحلة من التطور، كان حزب البعث في العراق يعمل بأسلوب التوجيه الايديولوجي أكثر من أسلوب القتال. وكان معظم أعضائه الثلاثمائة إما طلابا أو من أصحاب المهن الراقية الذين

يتوقون إلى خلق مجتمع أكثر عدالة تخدم فيه الحكومة مصالح الشعب، بدلا من مصالح القوى الأجنبية. ومع ذلك عندما جاءت لتطبيق تلك المثل السامية أعتمدت قيادة البعث على أشخاص مزاجيين لينفذوا العمل القذر لصالحهم. لقد دعم حزب البعث سقوط الملكية، ولكن لم يكن أي واحد منهم حاضرا بالفعل عندما ذبحت العائلة الملكية. وساند البعثيون الثورة في الموصل، بيد أنهم لم يشتركوا فيها بصورة فعلية. الآن وقد قرروا وجوب إزاحة قاسم عن السلطة، كانت لديهم الإرادة، ولكن ليست لديهم الوسيلة. ومن الممكن أن فكرة اغتيال قاسم لم تنبثق من البعثيين العراقيين أنفسهم، وإنما من ناصر، الداهية الحاذق الذي تولى السيطرة على البعث، بالرغم من أنه نفسه، بطبيعة الحال، بقي ملتزما بالناصرية. وبعض المشتركين في محاولة الاغتيال ربما كانوا قد سافروا إلى دمشق ليتدربوا على يد شرطة ناصر، مع أنه لم يظهر أي دليل على تورط ناصر في المؤامرة بشكل مباشر.

ويدعي صدام بأنه انضم إلى حزب البعث في عام ١٩٥٧، عندما كان طالبا في إعدادية الكرخ، ويبدو أنه لا يوجد هنالك سبب لمناقشة ذلك. والغريب في الأمر أنه كان على صدام أن يختار الانضمام إلى الحزب، وفي قياسات ذلك الوقت كان الأمر غامضا نسبيا، ولم يبدو في تلك المرحلة كما لو أن لديه مقومات ذلك التنظيم الذي سيصبح إحدى القوى المهيمنة في علم السياسة العربية المعاصرة. وحسب ما ذكره أحد الكتاب الرسميين، فإنّ صدام انضم إلى البعث لأنه «وجد في أهدافه انعكاسا لأحلامة القومية». ويعطي كاتب السيرة تلميحا قويا حول كيفية انقياد صدام الشاب إلى البعثيين. «كان يعتبر نفسه قوميا من الوقت الذي روت فيه أمه قصصا عن مقاتلة خاله خير الله طلفاح للإنجليز».[١]

وبالرغم من أن خير الله لم يكن لديه الوقت لحزب البعث، ولم يرتبط به، لكنه صادق أحمد حسن البكر، زميله التكريتي الذي كان برتبة عقيد في الجيش العراقي وكان متعاطفا مع الحزب، وهو الذي سيكون أحد الشخصيات البارزة في الحزب وأول رئيس بعثي في العراق. وأحبّ البكر أن يصوّر نفسه كشخص متواضع ومحترم، ولكن وراء تلك الواجهة ثمة أثر قاس ووحشي يبرز للعيان بعد استلامه الرئاسة. وبينما كانت شخصية البكر العامة شخصية مطيعة للقانون، لكنه قدّر كيف أنّ قوة صدام الوحشية يمكن أن تكون مفيدة له، وبتشجيع من خير الله، وضع صدام تحت جناحه من أجل تكوين شراكة نتجت في النهاية في إدارتهما للبلاد لعشر سنوات. ومن خلال البكر تعرّف صدام أولا على حزب البعث. في تلك المرحلة من حياته، ومع ذلك، كان

صدام مؤيدا للحزب فقط، ولم يكن عضوا عاملا. وكانت عضوية البعث تنظم وتحدد فقط لأولئك الذين أثبتوا ولاءهم للحزب والتزامهم بفكره. إنّ الرواية التي أوردها كاتب سيرة صدام حول الطريقة التي ارتبط بها بالحزب تغلف قومية صدام حديثة الولادة.

«قتل البريطانيون أقاربه، وأحرقوا منازلهم، قاتل أجداده بشجاعة ضد الأتراك. بتلك الخلفية، كان صدام مدركا تماما للاستعمار البريطاني وكيف بقيت الحكومة العراقية رهن الإرادة الاستعمارية. فقرر الانخراط في العمل السياسي».[٢] والميول ذاتها يمكن إرجاعها بسهولة إلى خير الله طلفاح.

إنّ اشتراك صدام في مؤامرة اغتيال قاسم ساهم إلى حد كبير في جعل مكانته موضع إعجاب الجماهير في العراق، ومن ناحية النجاح في تصوير الوقع الدرامي الكامل للحادثة، ليس هناك وصف لمشاركته أفضل من ذلك الذي أدلى به صدام نفسه.[٣] وترجع قصة تورط صدام إلى سجنه في تكريت عندما أودع السجن لستة شهور منذ نهاية ١٩٥٨ للاشتباه فيه باغتيال سعدون التكريتي. وحسب رواية صدام للأحداث، فإنّه قدم رشوة لأكثر حرّاس السجن تعاطفا لاعتقال الناشطين البعثيين باتهامات ملفّقة ورميهم في السجن من أجل حمايتهم. «وجلب عدد من البعثيين إلى السجن. ومكثوا في السجن لعدة أيام وحتى حلول الليل، وعندما أطلق سراحهم لتنفيذ أعمالهم، عادوا إلى السجن قبل شروق الشمس».

وحدث ذلك أثناء الحملة التطهيرية التي قام بها قاسم ضد البعثيين في أواخر ١٩٥٨ وبواكير ١٩٥٩ وزعم صدام بأنه أطلق سراحه لبعض الوقت في بداية ١٩٥٩، نتيجة لما يصفه «كضغط وطني»، ولكن الحقيقة كانت بسبب عجز السلطات القضائية، أو عدم رغبتها، بايجاد الدليل الكافي على اتهامه باغتيال التكريتي. وقال صدام بأنه رجع بعد ذلك إلى بغداد بطلب من الحزب، حيث سأله أحد الرفاق إذا ما كان راغبا في اغتيال قاسم. لقد وافق على الفور لأنه «اعتبر تلك المهمة شرفا». أخذ بعد ذلك يتدرب على استعمال الأسلحة الأوتوماتيكية، «وكان قبل ذلك قد أتقن استعمال المسدس» - كما أثبت ذلك نجاحه في قتل التكريتي على نحو واف. وأعدّ الخطة فؤاد الركابي، أمين عام سر البعث، الذي شغل منصبا في مجلس وزراء قاسم لفترة قصيرة، والذي قتل مؤخرا في أحد سجون صدام.

كان على منفذي الاغتيال أن يطلقوا النار على قاسم عندما يقوم بجولته الروتينية عصرا في شارع الرشيد، أحد الشوارع الرئيسة في بغداد، في طريقه إلى البيت، قادما

من مكتبه في وزارة الدفاع. وقد لاحظ ناشطو الحزب أنّ قاسم كان لا يحتمي تماما، فوضعت خطة الهجوم بحيث تقوم مجموعة من المسلحين بإطلاق النار على أولئك الذين يشغلون المقاعد الخلفية في سيارة قاسم، بينما تقوم المجموعة الأخرى بقتل الجالسين في الأمام. وفي فريق الاغتيال المكوّن من خمسة رجال كان دور صدام هو توفير الغطاء الناري أثناء هروب منفّذي الاغتيال.

وفي الحقيقة أنّ اشتراك صدام في محاولة اغتيال قاسم كان في لحظة متأخرة جدا. وكان فريق الضربة المتكون أصلا من أربعة رجال من أعضاء البعث العاملين، وكان يقودهم عبد الكريم الشيخلي، طالب في الطب الذي كان في العشرين من العمر وهو من بغداد وأصبح أحد منظّري الحزب الأساسيين ومن أصدقاء صدام المقرّبين. وبعد أن حيكت المؤامرة، أعلن أحد المسلحين بأنه لا يرغب في الاشتراك لأنّ لديه عائلة أفرادها صغار السن، وكان قلقا حول ما يحدث لهم فيما لو قتل أو أصيب في الهجوم. وقدّم في ذلك الوقت اسم صدام. وحتى في ذلك العمر الصغير نسبيا، اكتسب صدام شهرة بسبب فظاظته. وبطوله البالغ ستة أقدام وإنشين والمنسجم مع تكوينه الجسماني المثير للإعجاب، أظهر صدام مسبقا همته في اغتيال التكريتي، وبرصاصة واحدة فقط أجهز على ضحيته. كذلك كان يهتم كثيرا بالتأكد من عدم وجود شهود يتهمونه بالجريمة.

وضع تاريخ الهجوم في السابع من شهر أكتوبر من عام ١٩٥٩ ولكي يتعوّد على المنطقة، استأجر صدام شقة، استخدمت فيما بعد كقاعدة للعملية. ولعدة أيام عوّد نفسه على المنطقة، وقام بتدوين ملاحظات حول أفضل المواقع لتنفيذ الهجوم ورسم خريطة لأفضل طرق للهروب. وشنت العملية في مساء اليوم السابع وعلى النحو المطلوب. ولسوء الحظ، وفي لحظة الاهتياج، سحب صدام سلاحه الناري من طيّات معطف طويل أخذه من خير الله لأداء المهمة، وفتح النار على سيارة قاسم قبل الأوان. وطغى تصرّف صدام على الخطة الموضوعة بعناية، وقبل أن يتمكن المنفذون من إطلاق النار، انقضّ حرّاس قاسم الشخصيون واستعدوا للمواجهة. وفي تبادل إطلاق النار قتل سائق سيارة قاسم وأصيب قاسم نفسه في الذراع والكتف. قتل أحد المهاجمين (هو عبد الوهاب الغريري) وأصيب صدام في رجله. وحاول المدافعون عن صدام أن يعطوا انطباعا بأنّ حرس قاسم الخاص أطلقوا النار على صدام، غير أنّ الحقيقة المتعارف عليها بأنه أصيب من قبل أحد رفاقه، الذي كان يشعر بالهلع، فأخذ يطلق نيران سلاحه على كل شيء متحرك، بما في ذلك صدام.

ونجح أعضاء فرقة الاغتيال، الذين اعتقدوا بأن قاسم مات والمهمة أنجزت، في الهروب إلى أحد أوكار الحزب في العاصمة. ولكن المتآمرين ليس لديهم علم بأنّ قاسم نقل إلى المستشفى وتم إنقاذه بمعالجته في الطوارئ. وحسب رواية صدام للأحداث، فإنّ النزيف في رجل صدام اليسرى ازداد سوءا وهو في الوكر. «ومن الواضح أنّه من المستحيل أن يذهب إلى المستشفى، فأخذ شفرة حلاقة وطلب من أحد رفاقه أن يدخلها في اللحم المحيط بالرصاصة ويستخرجها، وفعل ذلك باستخدام المقص واليود، وفقد الوعي لدقائق ثم استعاد رشده». وهذه رواية فظيعة جدا، حيث أخذت تحتفظ بقداستها في الأسطورة العراقية كسمة جوهرية لبطولة صدام، التي يبدو أنها تناسب الغرب الأمريكي البدائي، أكثر من بغداد أواخر الخمسينيات. وتلك الرواية لا تلتقي بالتأكيد مع ما يستذكره الدكتور تحسين الملا، الطبيب الذي تم استدعاؤه لمعالجة صدام مباشرة بعد محاولة الاغتيال الفاشلة. «لم يكن سوى جرح في اللحم، في الحقيقة كان خدشا عابرا»، هذا ما ذكره الدكتور الملا، وهو كبقية الأحياء الذين عاصروا صدام، والذي هرب إلى المنفى في النهاية.

وكان الملا أحد الأعضاء المؤسسين للبعث في العراق، الحزب الذي كان في وقت تنفيذ محاولة الاغتيال، يضم أقل من ألف عضو. وقال بأنّ «حزب البعث في ذلك الوقت كان يضم أصحاب المهن الراقية - محامين وأطباء - الذين لم يكونوا ماهرين بالسلاح». وأضاف «كانوا بحاجة إلى جلب ابن شارع مثل صدام لينفذ المهمة القذرة لصالحهم. كان ذلك، كما ظننت، العمل المسلح الأول الذي نفذه حزب البعث في العراق».

وفي وقت محاولة الاغتيال، كان الملا يعمل في قسم العيادة الخارجية في المستشفى الجمهوري في بغداد. وفي اليوم الذي أعقب المحاولة الفاشلة استوقفه أحد أعضاء قيادة البعث في الشارع وأخبره بأن هناك بعض الإصابات التي يعتنى بها في الوكر، وسأله إذا كان بإمكانه تقديم المساعدة. وافق الطبيب على الذهاب إلى الجرحى، وأُخذ إلى بيت في منطقة العلوية في بغداد. وقال الملا إن أكثر المصابين خطورة كان مسلحا يدعى سمير النجم الذي جرح في كتفه، وباستخدام مخدر محلي استخرج الطبيب الرصاصة وعالج الجرح. وعندما أتم ذلك، أخبره أحد البعثيين بأن هناك إصابة أخرى تنتظر المعالجة في الغرفة المجاورة. «عندما دخلت الغرفة صادفت شابا أصفر شاحبا». كان صدام وكان يرتدي دشداشة، وهو ثوب تقليدي طويل يلبسه العرب، «أخبرني بأن لديه جرح رصاصة، ولكن عند معالجته وجدت أنه ليس لديه أي

شيء سوى كشط في قصبة الساق». عالج الملا الجرح وغادر الوكر. وبعد أيام قليلة داهمت قوات الأمن الوكر وألقت القبض على الملا والمقيمين فيه. لقد أمدّهم بمعلومات سرية الرجل الذي كان، إلى وقت طرده من الحزب، يفترض أصلا أن يشترك في محاولة الاغتيال. ولكن في ذلك الوقت كان صدام قد قرر مسبقا الهروب. وحوكم الملا بتهمة تحريض ومساندة القتلة وذلك في محكمة عسكرية خاصة أقامها قاسم، وانتهى الحكم بسجنه.

وبالرغم من أن الإصابة التي تعرض لها صدام خلال محاولة الاغتيال الفاشلة كانت طفيفة، إلا أن الحادثة أصبحت مؤخرا مزخرفة جدا عن طريق ماكنة الدعاية الصدامية بحيث كان معظم العراقيين على قناعة بأنّ صدام كان على وشك الموت من جراحه. وفي فيلم متعلق بالسيرة الذاتية الخاصة بحياة صدام الأولى بعنوان «الأيام الطويلة»، والذي أنجزته وزارة الإعلام العراقية في الثمانينيات، صوّر الجرح على أنّه خطير جدا وأنّ صدام كان عاجزا عن المشي. وفي الفيلم ظهر صدام كشخصية شجاعة وبطولية، وهو الذي لن يتردد بأن يستخرج أحد الرفاق الرصاصة من رجله باستخدام المقص. واستمر صدام نفسه بتخليد تلك الأسطورة. وفي مقابلة أجراها معه صحفي مصري حول تلك المحنة بعد عدة سنوات، ادّعى صدام بأنّه غير سعيد بأداء الممثل لأن ذلك كان غير واقعي. «تمنيت على المخرج أن يعيد تصوير المشهد لأنني أتذكر اليوم الذي حدث فيه. فأنا لم أقطّب الجبين ولم أتحرّك إلى أن أستخرجت الرصاصة».

إنّ الحكاية الملحمية لبطولات صدام في عام ١٩٥٩ استؤنفت بهروبه من بغداد. ولأنّه وحسب روايته للأحداث، كان يعاني من صعوبة في المشي، «صادف رجلا يمتطي حصانا فاشتراه منه بعشرة دنانير»، أي ما يعادل ثلاثين دولارا أو عشرين جنيهاً. بعد ذلك امتطى الحصان على طول ضفتي دجلة إلى أن وصل إلى تكريت. وهناك اشترى صدام تبنا لحصانه وبعض الخبز والتمر لنفسه. وأمضى الليل مع رجل بدوي، وفي صباح اليوم التالي انطلق في رحلته الطويلة إلى سوريا مرورا بتكريت. سافر لمدة ثلاثة أيام، وفي مكان ما التحق بحزب الارتباط في سامراء. «ذُبح خروف بالمناسبة، ولذلك فقد تناول وجبة كبيرة ليعوّض عن أكل الخبز والتمر، ونام في راحة وأمان». وهذا الوصف التوراتي نوعاً ما لهروبه من بغداد توقف بقوة في اليوم الرابع عندما أوقف صدام فجأة من قبل سيارتين من قوات الجمارك المسلحة. حاول صدام أن يفر منهم وهو على ظهر حصانه، لكن رجال شرطة الجمارك تجاوزوه وحاصروه على

الفور، وصوّبوا بنادقهم الآلية باتجاهه. «أوقف صدام حصانه، وترجل، بعد أن تأكد أنّ معطفه قد غطّى ضماد رجله، لأنّ ذلك يدل على أنّه كان مطلوبا». ونجح صدام في خداعهم وتخلص من ذلك اللقاء الصعب، أولا بمطالبته برؤية آمر الضباط، وثانيا طلب من الضابط أن يوّضح سبب معاملته بذلك الأسلوب المشين. اعتذر له الآمر بالقول بأنهم حسبوا صدام مهرّبا. وعندما أراد الآمر أن يرى وثائق سفر صدام، أجاب الأخير بأنه لا يمتلك مثل هذه الوثائق لأنّه بدوي، وكان معروفا بأن البدو لا يدوّنون في السجل الإحصائي للحكومة.

وسمح لصدام أن يواصل رحلته حتى وصوله إلى نقطة العبور في دجلة مما مكنّه الوصول إلى تكريت. وحاول أن يقنع صاحب العبّارة ليأخذه عبر النهر، ولكن صاحب القارب رفض ذلك، بسبب فرض حظر التجوّل بالقوة. ونتيجة ليأسه من العبور بتلك الطريقة، قرر صدام أن يترك حصانه ويعبر النهر سباحة. وضع سكّينه بين أسنانه، وعبر صدام النهر سباحة في منتصف الليل. كان الماء باردا جدا وأثناء وصوله إلى الضفة الأخرى كان صدام في حالة انهيار تقريبا. «ولما شعر بالإعياء يسري في جسده، استجمع قواه لكي يصل إلى الضفة المقابلة.» وأخيرا وصل إلى الجانب الآخر، أسنانه تصطك وهو في حالة تعب شديد. «كان مثلما شاهدتم في الفيلم، بل أسوأ»، كما ذكر صدام نفسه فيما بعد. «كانت ملابسي مبتلة، ورجلي مصابة، ولم أتناول الطعام جيدا لعدة أيام».(٦) وعندما أصبح خارج النهر سار صدام متعثرا إلى بيت قريب بحثا عن الطعام والمأوى. ولكن عندما طرق الباب، ظنّته المرأة لصا. «لم يكن بإمكانها أن تعرف أنّه كان ثوريا وليس سارقا». وأخيرا نجح صدام في أن يؤكد لتلك العائلة حُسن نواياه، فمنحوه المأوى. استأذن في الصباح وسار طوال اليوم وحتى الليلة التالية، وصل أخيرا إلى قريته الأم العوجة، حيث حيّاه أحد إخوته باكيا. وببقائه حيّاً في ذلك الجزء الأكثر خطورة في رحلته، شقّ صدام بعد ذلك طريقه إلى المنفى في سوريا مع بعض الرفاق البعثيين، ووصلوا إلى دمشق، العاصمة السورية، بعد أيام قليلة.

ولو أخذنا بنظر الاعتبار الجوانب الأخرى التي بولغ فيها بخصوص اشتراك صدام في مؤامرة الاغتيال، فيكون من غير المحتمل أن واقع رحلته إلى المنفى يبرر مسرحية الرواية التي ذكرها كتّاب سيرته. إنّ معظم المسؤولين عن التخطيط للاغتيال نجحوا في الفرار إلى دمشق. فاستقلّ الشيخلي مثلا، وهو قائد منفّذي الاغتيال، القطار الذاهب إلى الموصل في شمال العراق، وبعد ذلك واصل طريقه إلى سوريا. إنّ قصة اشتراك

صدام في محاولة اغتيال الزعيم قاسم، من ناحية ثانية، تكشف بعض الجوانب المثيرة في شخصية صدام آنذاك. وبالرغم من أنّ الشاب صدام قد صنع لنفسه اسما من قبل في الأوساط الوطنية كابن شارع فظ وقاتل، لكن لمّا وصل الأمر إلى قتل قاسم، كان الاتفاق العام بأنّ صدام فقد أعصابه وفتح النار بوقت مبكر جدا، وبذلك دمّر فرص نجاح العملية. وحتى أنّ بعض الروايات وجهت اللوم إلى صدام مباشرة بمقتل أحد المنفذين، عبد الوهاب الغريري الذي، بالرغم من ادعاءات صدام بأنه وفر الغطاء الناري لنقل الجريح إلى مكان آمن، استرجعت جثته قوات الأمن ليتمكنوا من تحديد هوية المسؤولين عن المؤامرة بسرعة. وسمح صدام نفسه لأحد كتّاب سيرته بأن يسلّم بأن العملية لم تكن بالضبط نجاحا هائلا بقوله بأن التنظيم الكامل لذلك كان «بسيطا».[٧] وكما في حياته فيما بعد، كان على صدام أن يسيطر تماما على كل جانب في فن الاغتيال، بشقيه الشخصي والسياسي، ويمكن الافتراض فقط أن تلك التجربة كاملة أعطته درسا مفيدا.

إنّ أهمية التأكيد على أسطورة الهروب البطولي في عام ١٩٥٩ كانت بارزة لسنوات عديدة أخرى، عندما قام في عام ١٩٩٨ بزيارة مفاجئة إلى قريتين نائيتين في شمال العراق. وكانت هذه المرة الأولى التي يشاهد بها صدام بين الجمهور منذ هزيمته في حرب الخليج في عام ١٩٩١، وقام بتلك الزيارة غير المعلنة في محاولة لاسترجاع المساندة. وفضلا عن إطلاق النار في الهواء كدليل على تقديره للاستقبال الحار الذي قابله به القرويون المنذهلون، وأعاد صدام رواية بطولاته لسكان آلبودور، القرية التي تقع على دجلة والتي رحل منها أثناء هروبه. «كانت كما ترونها في الأفلام لكنها أسوأ»، قال لهم. «ملابسي كانت مبللة، ورجلي مصابة ولم أتناول الطعام جيدا لأربعة أيام. كيف لي أن أصفها؟» تساءل ببلاغة. «من الصعب أن أصف كيف خرجت من الماء.».[٨]

ولثلاث سنوات ونصف، كان صدام منفيا، في البداية في سوريا، وفيما بعد في القاهرة، التي كانت عاصمة القومية العربية بلا منازع في ذلك الوقت. ودمشق، الوطن الروحي للبعثيين، كانت الوكر الواضح لمخططي الانقلاب بعد هروبهم من بغداد. وبالنسبة لرجل شاب في العشرينيات من عمره، وجد صدام، الذي لم يكن حتى مقترحا للمشاركة في الاغتيال، نفسه يدخل فجأة في أوساط أكثر المنظّرين السياسيين دينامية وأصالة في عصرهم. وكان ميشيل عفلق، عميد حزب البعث السوري، أحد الآباء الروحيين للبعث في عام ١٩٤٤، وهو الذي من خلال اهتمامه السخي بقضية

العرب الشاملة حقق تقريبا مكانة في عقول الكثير من العرب المعاصرين. وعلى عكس البعثيين العراقيين، الذين لم يزالوا حاشية للسلطة السياسية في بغداد، كان البعثيون السوريون قوة مهمة، وكانوا من خلال ارتباطهم بناصر، قد شكلوا أول اتحاد عربي شامل.

وبالرغم من أن العديد من الذين عاصروا صدام صوّروه بأنه ليس أكثر من شخص شرّير (بلطجي)، إلاّ أنّه قيل بأن عفلق قد أبدى اهتماما شخصيا بالشاب صدام فرقّي إلى أعلى موقع في عضوية الحزب بجعله عضوا كاملا.[٩] إنّ هذا التكريم قد أذكى شرارته إعجاب ميشيل عفلق الصادق بصدام، ومن المحتمل جدا أن يكون ذلك علامة شكر على دوره في المحاولة لإزاحة قاسم المدعوم من الشيوعيين. ويقينا أنّ جهود البعثيين العراقيين التي تعوزها الخبرة للإطاحة بالحكم في بغداد جعلتهم أبطالا بين القوميين العراقيين. إنّ المحاكمات العسكرية للبعثيين، مثل الدكتور الملا، والذين اتهموا بسبب أدوارهم في مؤامرة الاغتيال، تمت متابعتها عن كثب في العالم العربي. كما أنّ الدفاع عن بعض البعثيين المتهمين، بالرغم من أنّهم واجهوا حكم الإعدام في حال تمّت إدانتهم، قد حظي بإعجاب واسع النطاق، داخل وخارج العراق. وكان جوهر نقاشهم أنّ لديهم واجبا وطنيا لاغتيال قاسم لأنّه سلّم البلد إلى سيطرة الشيوعيين. وعندما اختتمت المحاكمات، حكم فعلا على ستة من المتهمين بعقوبة الإعدام، بالرغم من أنّ تلك العقوبات لم تنفذ أبدا.

إنّ الشهرة السيئة الحديثة العهد لدى البعثيين العراقيين أسرّت عفلق، الذي حاول أن يستغل لصالح أهدافه الفوضى السياسية التي سببتها محاولة الاغتيال الفاشلة في بغداد. وفي نقطة الأتصال تلك لعب عفلق لعبة مزدوجة. فقد رتب لطرد فؤاد الركابي وأعضاء آخرين في قيادة البعث في بغداد على أساس أنّه كان عليهم أن لا يورّطوا الحزب في مؤامرة الاغتيال. وبعد ذلك حاول عفلق أن يضع مناصريه في مواقع هامة في حزب البعث العراقي، ولهذا الغرض رتب لصدام الحصول على ما كان يشتهيه كثيرا من عضوية الحزب الكاملة. وبالرغم من أنّ عفلق قال فيما بعد بأنه لا يستطيع أن يستذكر لقاءه بصدام حتى بعد ١٩٦٣،[١٠] فإنّ المنظّر الذي يتحدث بهدوء والقاتل الشاب شكّلا على الفور ارتباطا تكافليا. وكان ذلك يعود أساسا إلى جهود عفلق، الذي سيطر لبعض الوقت على الحزب في كل من سوريا والعراق، وفي عام ١٩٦٤ انتخب صدام لمنصب رئيس في قيادة البعث العراقي. وردّ صدام على ذلك الإطراء بالتأكيد، عندما وصل إلى السلطة أخيرا، على أن البعث أصبح مذهب العراق السياسي

الرسمي. وبالطريقة نفسها التي استعمل بها جوزيف ستالين اسم لينين كوسيلة لإضفاء الشرعية على حكمه، استحضر اسم عفلق ليبرر موقعه في العراق. ولدى صدام «لينين الحي الذي يمكن تحريكه في مناسبات مناسبة ليصادق على قراراته وأهم من كل شيء مكانته كوصي لعقيدة الحزب ضد المجموعات المتعاقبة».[١١] وعفلق مؤسس البعث الذي نفي إلى بغداد فيما بعد، عندما مات في عام ١٩٨٩، دفع صدام (بالأحرى دفعت الدولة) لبناء ضريح ضخم له.

وبعد بقائه من شهرين إلى ثلاثة شهور في سوريا، انتقل صدام مع أعضاء فريق الاغتيال الآخرين الباقين على قيد الحياة إلى القاهرة حيث انضموا هناك إلى مجموعة تضم حوالي خمسمائة من البعثيين الشباب المنفيين الذين تجمعوا في العاصمة المصرية. وأرسل أولئك البعثيون الشباب إلى مصر من قبل الحكومة السورية، الشريك الأكبر في الاتحاد السياسي بين القاهرة ودمشق. وكان الهدف من إرسالهم إلى القاهرة لمواصلة تعليمهم، وفي وقت اشتراكه بمؤامرة الاغتيال ضد قاسم، لم يكمل صدام دراسته الثانوية. والرئيس ناصر، كرئيس لأول اتحاد عربي شامل، عارض قاسم في ذلك الحين للإخلال بالتزامه في انضمام العراق إلى الاتحاد. واعتقد عفلق وقادة البعث الآخرون بأنّ منفذي الاغتيال الشباب سيكونون أكثر أمانا تحت مراقبة ناصر اليقظة من وجودهم في دمشق، حيث النظام كان أقل استقرارا. إنّ الحملة لإزاحة قاسم، في تلك الأثناء تُركت للبعثيين الأكثر خبرة والأعلى موقعا.

وكانت تلك المرة الأولى في حياة صدام التي عاش فيها خارج العراق، وبعد وصوله في عام ١٩٦٠ سجل على الفور في مدرسة قصر النيل العالية. وبعد كل ذلك الابتهاج لارتكاب أول جريمة قتل له في تكريت، ومحاولة الاغتيال الأولى في بغداد، كانت الحياة في القاهرة مقارنة بذلك قضية جدية نسبيا. وبوجود جمال عبد الناصر المليء أبهة، والقاهرة كعاصمة للقومية العربية من غير منازع، فإنّ صدام لم يستطع أن يفعل شيئا سوى التنقل في مدينة كانت خلية للنشاط السياسي. وفضلا عن دراسته، انهمك صدام كليا في السياسة، من خلال انضمامه إلى حزب البعث المصري. وخلال أشهر أصبح صدام عضوا في القيادة القطرية - فرع مصر، بالرغم من أنّ نفوذ البعثيين كان محددا بالحضور الطاغي لناصر، تلك الحقيقة التي قادت سوريا تماما ومن طرف واحد إلى الانسحاب من الاتحاد العربي الشامل في عام ١٩٦١

إنّ ذكريات صدام الخاصة بسنواته في المنفى كانت متواضعة وضئيلة الأهمية إلى حد كبير. وكتب أحد كتّاب سيرته أنه «كان يحاكي جمال ويلعب الشطرنج كثيرا، لا

تلهيه حياة الليل وكان يقرأ كثيرا».[١٢] ودعم ذلك الوصف عبد المجيد فريد، الذي كان أمينا للسر لدى ناصر، وكان مسؤولا عن رعاية البعثيين الشباب. وحسب قول فريد، فإنّ السلطات المصرية ساعدت صدام في تعليمه وبإيجاد شقة مناسبة له. «كان أحد قادة البعث العراقي. اعتاد المجيء لرؤيتي بين فترة وأخرى من أجل الحديث عن التطورات في بغداد. كان هادئا ومنضبطا ولم يطلب أموالا إضافية مثل المنفيين الآخرين. لم يكن لديه اهتمام كبير بالكحول والنساء».[١٣] وكتب عبد الكريم الشيخلي، الذي ارتبط بصداقة حميمة مع صدام في القاهرة، إلى أهله في بغداد أن صدام كان يقضي معظم الوقت في محاولة لتعويض ما فاته من التعليم ولإكمال دراسته في المدرسة العالية. والشيخلي الذي أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد، أصبح صديقا مقربا من صدام في القاهرة وكان الرجلان يعتبر أحدهما الآخر الأخ التوأم. والشيخلي الذي أصبح أول ضحايا صدام بعد تسنم الأخير للرئاسة، أمضى وقته في القاهرة حيث حصل على شهادته في الطب. وفي رسالة بعث بها إلى عائلته وصف الشيخلي صديقه قائلا: «إنّه رجل هادئ، ليس شخصية اجتماعية، شخص يبذل قصارى جهده لكي يعلم نفسه».[١٤]

إلاّ أنّ أشخاصا آخرين عاصروا صدام، لم يرسموا مثل تلك الصورة المشرقة. وقد وصفه صاحب مقهى في القاهرة كان يخدم صدام وأصدقاءه بأنه شخص مثير للمتاعب لم يدفع فاتورة الحساب. «كان يتشاجر لأي سبب»، كما ذكر حسين مجود، صاحب مقهى أنديانا، والذي كان مع مقهى النصر من الأمكنة المفضلة التي يرتادها صدام. «كان يتشاجر لأي سبب. وأردنا أن نمنعه من المجيء إلى هنا».[١٥] بيد أنّ الشرطة جاءت وأخبرتنا بحمايته من قبل ناصر، ولما غادر صدام القاهرة نهائيا كان مدينا بسبعمائة دولار. ولكن ليس صدام الذي كان ينسى دينا. ففي السبعينيات، ولما كان نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة في العراق عاد إلى القاهرة بمهمة رسمية، وقام بزيارة مفاجئة إلى ذلك المقهى ودفع فاتورة الحساب كاملة، تاركا لصاحب المقهى بقشيشا قدره ثلاثمائة دولار. وصدام ما كان ليكون صداما ما لم تتناقل الألسن القصص الغريبة والملفقة حول أعماله الشريرة المزعومة في القاهرة. كان متهما بقتل أحد المصريين في عام ١٩٦٠ وذلك برميه خارج نافذة الشقة،[١٦] وكذلك اتهم بقتل أحد زملائه العراقيين في عام ١٩٦٣ [١٧] ولما لم تكن هناك سجلات بالجرائم المزعومة، ولما كان صدام حرا في المغادرة متى شاء ذلك، فيجب صرف النظر عنها لأنها مجرد تمنيات.

ومع أن صدام حاول كثيرا أن يتظاهر بالشجاعة أثناء إقامته في القاهرة، لكن ما اتفق عليه بصورة عامة أنه اعتبر الحياة في القاهرة كمعادل لعقوبة السجن. وبالرغم من ذلك فإنه نجح في إكمال تعليمه في المدرسة العالية وسجل في جامعة القاهرة في عام ١٩٦١ ليدرس القانون. وكان صدام يحصل على منحة متواضعة تدفعها شعبة رعاية العرب في الاستخبارات المصرية. لم يكمل صدام دراسته، غير أنه لم يزل ناجحا في الحصول على الشهادة في سنوات عديدة أخرى عندما اشترك في امتحانات القانون السنوية في جامعة بغداد وفي الزي العسكري الكامل. وقبل جلوسه لإجراء الامتحان، وضع صدام مسدسه على الطاولة ليجعل من نفسه يشعر «بارتياح أكثر». وكما حصل مع مدير المدرسة الذي أراد أن يطرده، فإن منظر المسدس كان يفي بالغرض، ومنح صدام شهادته على النحو المطلوب.

وكانت إقامة صدام المؤقتة في القاهرة مناسبة لحادثين آخرين مهمين في حياته - هما زواجه الأول، وعلاقاته الغامضة مع وكالة الاستخبارات المركزية. وفي أثناء دراسته في جامعة القاهرة ارتبط صدام بابنة خاله ساجدة، بنت خير الله طلفاح. فالزواج ضمن العائلة هو الشيء الطبيعي المتوقع لشخص ما بخلفية صدام، وارتباطه بينت خاله كان مراعاة لتاريخ العائلة. ومن المحتمل أن تكون ولادة ساجدة في عام ١٩٣٧ (وذلك يوضح سبب تلاعب صدام بسجلات ولادته ليجعل من عمره مطابقا لعمر زوجته، وليس أصغر منها)، وأمضى صدام معظم طفولته وهو يكبر معها ومع شقيقها عدنان في بيوت خير الله في تكريت وبغداد. والواقع أن صدام وساجدة ترّبيا كأخ وأخت. وحسب ما يقوله صدام، فإن الزواج قد تم ترتيبه في واقع الأمر عندما كانا صغارا وأن جده خطب ساجدة له. وصدام، الذي يعرف الواجبات العشائرية، راعى العادة العربية وطلب من زوج أمه إبراهيم الحسن أن يذهب إلى خاله ويطلب منه رسميا الزواج من ساجدة. ويبدو أن العلاقات بدأت تتحسن بين إبراهيم وصدام، ربما لأن إبراهيم بدأ يدرك بأنه أصبح مفيدا بالنسبة لزوج أم كسول. وفعل إبراهيم ما طلبه صدام، ووافق خير الله، وأصبح صدام مرتبطا بشكل رسمي. وبالرغم من أنهما لم يتزوجا حتى عودة صدام إلى العراق في عام ١٩٦٣، وكان صدام قد احتفل بخطوبته بالأسلوب العربي التقليدي في القاهرة في بداية عام ١٩٦٢، وليؤكد لساجدة حسن نواياه، أرسل لها خاتم العرس. ونظم حفلة الخطوبة تلك صديقه الطبيب عبد الكريم الشيخلي.

وكان التطور الجوهري الآخر بالنسبة لصدام خلال إقامته في القاهرة هو علاقته

المتنامية بوكالة الاستخبارات المركزية CIA. ومثل معظم نشاطات صدام في القاهرة، فإن علاقاته مع الأمريكان يكتنفها الغموض، خصوصا لما قتل معظم معاصريه دون توقف.[١٨] ولكن مع ذلك فثمة دليل ظرفي كاف يشير إلى أن صدام قد تعاقد مع محطة وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة. وأوائل الستينيات كانت فترة وصلت فيها توترات الحرب الباردة ما بين واشنطن وموسكو إلى مرحلة حرجة كما أظهرت ذلك أزمة الصواريخ الكوبية في عام ١٩٦٢ وكانت وكالة الاستخبارات المركزية ترى هدفها الرئيس في مواجهة أي محاولة من قبل القوى الشيوعية العظمى، الاتحاد السوفيتي والصين، لتوسيع نشاطاتها خارج مناطق النفوذ الحالية. إنّ تحرك الصين في جنوب شرق آسيا كان تماما لإثارة الغضب على اشتراك الولايات المتحدة السيئ الصيت في الحرب الأهلية في فيتنام. إن رغبة موسكو في توسيع نفوذها في العالم الإسلامي، من الجمهوريات السوفيتية في آسيا الوسطى حتى دول النفط الغنية في الشرق الأوسط، كانت نتيجتها أن أصبحت المنطقة سريعة الالتهاب، وجاهزة للاشتعال بالعداوات الساخنة التي أحدثتها الحرب الباردة.

فالعراق، الذي يقع في قلب الشرق الأوسط، تعتبره واشنطن شيئا استراتيجيا أساسيا. ولهذا السبب شجعت الولايات المتحدة حلف بغداد المعادي للسوفيت، منظمة الدفاع الإقليمي التي أقيمت في منتصف الخمسينيات والتي تضم كلا من بريطانيا، تركيا، إيران والباكستان. وفي الواقع فإن الأمريكيين كانوا قلقين جدا بشأن حالة اللااستقرار السياسي في بغداد التي أعقبت سقوط الملكية وقد رأى ألن دليس، مدير وكالة الاستخبارات المركزية في عام ١٩٥٩ بأن «العراق كان البقعة الأكثر خطورة على الأرض».[١٩] وفي عام ١٩٦١، دفعت التطورات السياسية في المنطقة الأمريكان لأن يكونوا فاعلين في مواجهة ما اعتبروه محاولة سوفيتية جادة للسيطرة على الشرق الأوسط.

وتم التعبير عن الاهتمام بقضية صفقات الأسلحة الشهيرة التي أبرمها ناصر مع موسكو، وقد شك في تورط السوفيت في قرار الزعيم قاسم الذي يجتذب مساندة الحزب الشيوعي العراقي للبقاء في السلطة. إن قرار قاسم بالانسحاب من حلف بغداد في عام ١٩٥٩ ومن طرف واحد، والذي جعل المنطقة أكثر عرضة للتسلل السوفيتي، ولتعتمد بوتيرة متسارعة على دعم السوفيت الخارجي وعلى التجهيزات العسكرية قلّل من تخفيف شكوك واشنطن. بل إن الغرب كان قلقا جدا لما حاول قاسم أن يحتل الكويت في عام ١٩٦١، والتي كان العراقيون يعتبرونها دائما جزءا تابعا لهم، ومن

تأميم الحصة الأجنبية في شركة النفط العراقية، وذلك التحرك، بالنسبة للأمريكان، كان صدى غير سار لبرنامج التأميم الذي أسسه ناصر أثناء سنواته الأولى في السلطة.

والمصريون بقيادة ناصر كانوا عازمين تماما مثل الأمريكان على التأثير في التطور السياسي للشرق الأوسط المعاصر، خاصة عندما حطّم قرار سوريا في عام ١٩٦١ بالانسحاب من الجمهورية العربية المتحدة، طموح ناصر في خلق دولة عربية متحدة. ولذلك فإن العراق الذي أخلّ بوعده بالانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة عندما مسك قاسم بزمام الحكم، كان يشكل اهتماما خاصا بالنسبة للمصريين، وكانت الاستخبارات المصرية نشيطة شأنها شأن وكالة الاستخبارات المركزية في المحاولة لتأسيس حكومة موالية في بغداد.

وكأي شخص شارك مسبقا في محاولة للإطاحة بقاسم، ليس أمرا غريبا بالنسبة لصدام وزملائه البعثيين المنفيين بأن عليهم أن يكتشفوا أن نشاطاتهم أثارت الاهتمام الشديد لكل من هيئات الاستخبارات المصرية والأمريكية. وكان يُدفع لصدام مصروف متواضع من قبل السلطات المصرية وسُمح له بالدراسة. بيد أن العلاقات بين البعثيين العراقيين المنفيين والمصريين انتابها البرود خاصة بعد انسحاب رفاقهم البعثيين السوريين من الجمهورية العربية المتحدة، علاوة على أن ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث والمعلم الخاص لصدام، شجع ذلك التحرك فعليا. وزعم كتّاب سيرته بأن صدام وضع تحت المراقبة الشديدة في القاهرة، وتعرض للمضايقة باستمرار، وكانت الشقق التي سكن فيها تفتش في مناسبات عديدة.[٢٠] ويمكن أن يعود ذلك إلى نشاطات صدام الإجرامية المزعومة، وكان المصريون مضطرين إلى تفتيشه بحثا عن أسلحة لو كان كما هو مزعوم، يهدد خصومه في القاهرة باستخدام العنف الجسدي، بالطريقة نفسها التي فعلها في بغداد.

ومهما كان الأمر، لم يورد أحد من كتاب السيرة الرسميّين، أي ذكر عن زيارات صدام المتكررة إلى السفارة الأمريكية في القاهرة. إن الأمريكان، ولأسباب مختلفة، كانوا حريصين كصدام على إزاحة قاسم عن الحكم، وكان ثمة دليل قوي يشير إلى أن صدام كان على اتصال مع وكالة الاستخبارات المركزية CIA إلى نهاية إقامته في القاهرة.[٢١] ولمّح سعيد أبو الريش، كاتب سيرة آخر متعاطف مع صدام بأن لقاءات صدام مع وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية كانت مراقبة من الاستخبارات المصرية، علماً بأن واشنطن والقاهرة كانتا تتبعان سياسات مناهضة لبغداد. ومع أن المدى الحقيقي لغزل واشنطن للشاب صدام قد يكون غير معروف فإنه لا يمكن

التكهن بأن صدام حسين قد بدأ حياته السياسية كعميل لوكالة الاستخبارات المركزية. إن اقرب ما يسلط الضوء على ذلك الجانب المراوغ لسيرة حياة صدام هو اللقاء الذي جمع الكتّاب ماريون فاروق _ سلوغليت وبيتر سلوغليت مع مسؤول سابق رفيع المستوى في وزارة الخارجية الأمريكية والذي أكد لهم «أن صدام حسين والبعثيين الآخرين اتصلوا بالسلطات الأمريكية في نهايات الخمسينيات وأوائل الستينيات».[٢٢] ويقيناً أن تلك القضية كانت ذات حساسية بالغة بالنسبة لصدام، حيث إنه في حياته السياسية التالية، صفّى معاصريه من العراقيين الذين كانوا في موقع يسلط الضوء على مآثره التجسسية.

عاش قاسم حتى فبراير (شباط) ١٩٦٣ عندما أُطيح به أخيراً بانقلاب حاكته وكالة الاستخبارات المركزية. وكان الانقلاب حتى بالمقاييس العراقية فظيعاً بشكل خاص حيث قاده اللواء أحمد حسن البكر وهو أحد المعلمين المخلصين لصدام حيث عرّفه عليه خاله خير الله عندما انتقل إلى بغداد لأول مرة. والبكر الرفيق التكريتي أصبح عضواً بارزاً في حزب البعث العراقي خلال نفي صدام في القاهرة. رجل هادئ وحازم اقتسم مع خير الله الكراهية للشيوعيين ونتيجةً لذلك وضعه الأمريكان في مقام رفيع. انضم البكر إلى البعث لما كان في السجن بسبب تآمره ضد قاسم. والقائد العراقي والذي كانت تعوزه الخصلة القاسية المطلوبة من أجل البقاء في السياسة العراقية، أطلق وإلى الأبد سراح خصومه السياسيين الذين سجنهم لمحاولتهم إزاحته عن السلطة. ولم يستثن البكر حيث التقى بعيد إطلاق سراحه حالاً مع بعثيين آخرين للتخطيط للانقلاب وذلك لإبعاد قاسم.

إنّ انقلاب ١٩٦٣ اتبع العرف الدموي الذي تأسس بسقوط الملكية في عام ١٩٥٨ والعمل ضد قاسم كان يجب أن يطرح للنقاش لأن بعض المتآمرين اعتقلوا، ولما بدأ الهجوم رفض العديد من الوحدات العسكرية التحرك لمساندة البعثيين. ونجح البكر باستخدام أربع طائرات مقاتلة من نوع هنتر هوكر، في شن هجوم على مقرّ قاسم المحصّن جيدا في وزارة الدفاع. استمر القتال لمدة يومين، مخلّفا مئات القتلى والجرحى في وسط بغداد، قبل أن يجبر قاسم وبشكل نهائي على الاستسلام. ورفض أولئك الذين اعتقلوه طلبه بالسماح له بأن يحتفظ بسلاحه الناري، ولم يسمحوا بإجراء محاكمته أمام الشعب، وبعد جلسة محاكمة قصيرة، أعدم قاسم رميا بالرصاص على يد فرقة الإعدامات. والعملية كلها بين استسلامه اللامشروط وإعدامه استغرقت ساعة واحدة فقط. وليؤكدوا للشعب العراقي الذي انتابه الشك في أن الرئيس قد قتل فعلا،

صوّر جسده الذي اخترقه الرصاص في فيلم مخيف عرضه التلفزيون العراقي لعدة مرات. «ليلة بعد ليلة.. كان الجسد متهاويا على كرسي في الاستوديو. جندي يمشي الهوينى حوله، يمسك بأطرافه. الكاميرا تظهر مشاهد الدمار الذي حلّ بوزارة الدفاع، حيث أبدى قاسم مقاومته الأخيرة. عودة إلى الاستوديو، ولقطات قريبة تبدي نقاط دخول وخروج كل رصاصة. وينتهي تسلسل الأحداث المخيف كليا بمشهد يبقى عالقا إلى الأبد في ذاكرة جميع الذين شاهدوه: كان الجندي يمسك بالرأس المتدلي من الشعر، اقترب أكثر، وأغرق الوجه بصاقا».(٢٣)

وعندما انتهت محطة التلفزيون من عرض الجثة، كان الزعيم الفقيد غير مسموح له أن يرقد بسلام. في البداية دفنت جثة قاسم في قبر قليل العمق، وليس له علامة، غير أن الكلاب استخرجتها وبدأت تأكلها. بعد ذلك أعاد دفن الجثة فلاحون مذعورون بعد وضعها في تابوت، إلى أن نبشتها الشرطة السرية ثانية ورمتها في دجلة. ورغم أن هذا التحول الفظيع في الأحداث - لا يشبه معاملة أنصار قاسم التي عاقبوا بها أنصار الملكية في عام ١٩٥٨ - فإن واشنطن اعترفت نفسها برضاها عن تغيير النظام. وجيمس كريتشفيلد، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية في الشرق الأوسط في ذلك الوقت والمتخصص في التسلل الشيوعي، عبّر عن نفسه بعمق فيما بعد بأنه راضٍ عن النتيجة. «اعتبرنا ذلك نصرا عظيما»، ذكر ذلك بعد سنوات عديدة. «نحن فعلا لدينا ال. ts الذي تجاوز ما كان يحدث».(٢٤)

إن صدام، وبخيبة كبيرة، كان متروكا في القاهرة طوال فترة تلك الأحداث الدرامية، لكنّه لما تأسس النظام الجديد استثمر الوقت وعاد إلى بغداد ليساهم في التطهيرات الدموية التي أعقبت الانقلاب. عاد صدام إلى بغداد بالطائرة برفقة عبد الكريم الشيخلي - الرفيق المتآمر في مؤامرة اغتيال قاسم في ١٩٥٩- وبعض العراقيين المنفيين. والتقاهم في بغداد حشد كبير من البعثيين، وأفراد أسرهم والأصدقاء الفرحين برجوعهم. عاد صدام ليتقرّب من البكر، الذي كوفئ لدوره في إسقاط قاسم بموقع رئيس الوزراء من قبل الرئيس الجديد، عبد السلام عارف. وعيّن البكر العديد من رفاق تكريت في مواقع بارزة، بالرغم من أن صدام وجد نفسه في البداية في جانب آخر من اتجاه السياسة السائدة. انتقل الحزب من حال إلى آخر خلال السنوات الثلاث التي أمضاها في المنفى والقيادة الجديدة لم توافق في البدء على عضوية صدام التي حصل عليها في المنفى. وأعطي صدام مركزا متواضعا في مكتب الفلاحين المركزي حيث كانت واجباته تتمثل في النظر إلى طرق تحسين أحوال وأوضاع الفلاحين

العراقيين. وبالرغم من الصعوبات التي واجهها أثناء عودته إلى بغداد، لاحظ أصدقاء ومعارف صدام تغيرا مهما في تطوره. «عندما فر من بغداد، لم يكن قد أنهى دراسته الإعدادية. كان ولدا سفّاحا يجيد استخدام قبضتيه. بيد أنّ صدام الذي عاد من القاهرة كان أفضل تعلما وأكثر نضجا».(٢٥)

واذا كان صدام محبطا في طموحاته السياسية، فإن الصدامات الدموية التي استمرت ما بين البعثيين والشيوعيين بعد سقوط قاسم زودته بمنفذ أكثر ألفة لتفريغ احباطاته. فقتال الشوارع الذي وقع في بغداد خلال الانقلاب نفسه أدى إلى مقتل ما بين (١٥٠٠-٥٠٠٠) عراقي. ولعدة أسابيع بعد الانقلاب، كانت تنفذ من بيت إلى آخر عمليات تعقّب وبحث عن الشيوعيين واليساريين. وكان يقوم بعمليات البحث تلك الحرس القومي، جناح البعث شبه العسكري، الذي اشترك في معارك الشوارع التي قادت إلى هزيمة قاسم في النهاية. وكان رجال الحرس القومي يلبسون شرائط خضر حول الذراع ويحملون رشاشات صغيرة ولديهم الاستخبارات المركزية، وقد أمضوا الأسابيع القليلة الأولى من حكومة حزب البعث الجديدة بالانغماس فيما يمكن وصفه بعربدة العنف.

وبالرغم من التطمينات التي أعطاها البعثيون لوكالة الاستخبارات المركزية بأن جميع المعتقلين سيحاكمون محاكمة عادلة، إلا أنّ العديد من الذين وقعوا في قبضة الحرس القومي تم تعذيبهم ومن ثمّ إعدامهم بسرعة. وتمت مصادرة النوادي الرياضية، ودور السينما، وجزء كبير من شارع الكفاح، وعدد من البيوت الخاصة من قبل الحرس القومي وذلك لاستخدامها كسجون ومراكز للاستجواب. ومن نواحٍ عديدة كانت تصفية الشيوعيين في بغداد بشيرا خطيرا للتطهيرات المضادة لليسارية التي وقعت في تشيلي والأرجنتين في السبعينيات والثمانينيات. ووحدات الحرس الجمهوري الخاص بصدام بدأت تسلك الأسلوب ذاته عقب غزو الكويت في أغسطس ١٩٩٠ عندما قاموا بمصادرة المباني الحكومية والقصور وحولوها إلى أماكن مؤقتة للاستجواب والتعذيب. وادّعت السجلات الرسمية العراقية بإعدام (١٤٩) شيوعيا، غير أنّ المسلّم به لدى أكثر الناس بأن المئات، إذا لم يكن الآلاف، من الشيوعيين عانوا من ألم مبرّح أودى بحياتهم على أيدي جلاديهم البعثيين. وكما يحدث غالبا في مثل تلك الظروف، كان العديد من أولئك الذين قتلوا إما أبرياء، أو ضحايا لثارات محلية ليست لديها أية علاقة بالفكر السياسي.

والدكتور علي كريم سعيد، الدبلوماسي العراقي السابق الذي كان شخصية قيادية

في حزب البعث إبّان تلك الفترة، قال بأن الكثير من العراقيين الأبرياء لقوا حتفهم في حملات التطهير التي استهدفت بها الحكومة الشيوعيين. «ما زلت أتذكر عندما جاء أخي...، الذي كان في ذلك الوقت نائبا لقائد الاستخبارات العسكرية وأحد المحققين الأساسيين إلى منزلي ورمى بندقيته الآلية على الأرض وقال بصوت موجوع: «لا أستطيع أن أستمر، لأنهم يعتقلون الناس البسطاء ويبعثون بهم إلى ساحة الإعدام. إنه أمر لا يُقبل ولا يُحتمل. كلهم يصرخون: رجاءً يا محمد، من أجل علي، وبعد ذلك يصيحون: الله أكبر، ثلاث مرات قبل موتهم" واصل أخي حديثه قائلا: "إذا اضطهدتم أولئك الناس البسطاء والمساكين سيتحولون إلى الشيوعيين بكل تأكيد" بعد تلك الحادثة أنا. عارضت جميع أوامر الإعدام».[٢٦]

وأكثر أماكن التعذيب شهرة ذلك الذي يقع فيما يسمى بقصر النهاية، سمّي بهذا الاسم لأن كل سجين كان يدخل إليه تنتهي حياته تحت التعذيب. وأكثر أصحاب المهن شهرة في فن التعذيب كان ناظم كزار، الذي أصبح فيما بعد مديرا للأمن العام. وحتى بالمقاييس القاسية للعراق المعاصر، كانت شهرة كزار في السادية بادية للعيان. انضمّ كزار إلى حزب البعث وهو طالب في الخمسينيات وصعد في المناصب سريعا. كزار الرجل الصلب والزاهد، كان أحد الشيعة القلائل في الحزب الذين يتبوّأون مركزا في الحكم. عرفت قيمته بعد سقوط قاسم لما كشف عن نفسه كمضطهد مخيف للشيوعيين. إن شهرة كزار في الانغماس في العنف اللامبرر كانت من النوع الذي نجح به حتى في بث ذلك الرعب في نفوس أعضاء حزبه. كان لديه حب خاص لتنظيم الاستجوابات شخصيا ولإطفاء سيجارته داخل مقل عيون ضحاياه.[٢٧]

ومعظم أعمال كزار الوحشية ارتكبت في قصر النهاية الذي نجح البعثيون في تحويله إلى مختبر لتطوير آليات الاستجواب حيث كانوا قادرين على صقل الممارسات التي أصبحت معيارا لمّا استلم صدام الحكم. ونجح حنّا بطاطو، المؤرخ المتميز والمختص في تاريخ العراق المعاصر، مثلا، في أن يستنتج من سلسلة من الوقائع من ملفات الحكومة الرسمية تقريرا مرعبا يصف ما حدث في قصر النهاية في عهد كزار والبعثيين في عام ١٩٦٣:

«ان مكتب تحقيقات الحرس القومي قتل لوحده (١٠٤) أشخاص. ففي زنزانات قصر النهاية، والتي استخدمها المكتب كمقر قيادي، وجدت جميع أنواع أدوات التعذيب التي تضم أسلاكا كهربائية مع كمّشات، خوازيق حديدية مدببة يُجلسون عليها السجناء بالقوة، وماكنة ما زالت تحمل آثار أصابع مفرومة. أكوام صغيرة لملابس

يغطيها الدم كانت متناثرة هنا وهناك، وثمة برك فوق الأرض ولطخات على الجدار». [٢٨] كان هذا عمل الحزب الذي عمل كمنصة وثوب لصعود صدام الدرامي إلى السلطة.

لذا ما هو دور صدام في تلك الأعمال الوحشية؟ ثمة تفاصيل قليلة ودقيقة حول أين كان صدام في ذلك الوقت. والتعليق الوحيد الذي أدلى به صدام بشأن تلك الفترة كان له علاقة بالمعارك الداخلية التي وقعت في حزب البعث العراقي. «كان هناك مناخ من الرعب، وتشكلت في الحزب كتل ومجموعات، ووضعت عراقيل في طريق الرفاق الذين أرادوا أن يعملوا في الاتجاهات الصحيحة». [٢٩] ولما عيّن صدام مؤخرا ناظم كزار رئيسا لجهاز الأمن بمنحه اليد الطولى في تأسيس أساليب استجواب شيطانية كان قد طورها في قصر النهاية، يكون أكثر من المحتمل بأنّ الرجلين أصبحا على علاقة وثيقة أثناء محقهم للمعارضة الشيوعية. وصدام، الخارج توا من لقاءاته في السفارة الأمريكية في القاهرة، قد يكون قادرا حتى على تجهيز أسماء وعناوين الشيوعيين في بغداد. وبعض من الأحياء الذين عاصروا صدام في تلك الفترة أشاروا إلى أنه، فضلا عن واجباته الاعتيادية في مكتب الفلاحين المركزي، أصبح منشغلا إلى حد بعيد في تنظيم الحرس القومي، قوات صاعقة حزب البعث. قام بزيارة معسكرات الاعتقال في بغداد وساعد بالإشراف على تنفيذ العقوبة بالمعتقلين الشيوعيين. [٣٠] إن استخدام معسكر الفلاحين لاحتجاز بعض المعتقلين يقدم رؤية واضحة لطبيعة مهمة صدام في مكتب الفلاحين المركزي. ويبدو أن مهمة صدام كانت في تحسين أوضاع الفلاحين ما داموا فلاحين غير متعاطفين مع الشيوعيين.

ومكافأة لكده في العثور على الشَيوعيين، عيّن صدام في لجنة استخبارات حزب البعث، والتي استلمت المسؤولية الكاملة للتحقيقات. وفي التسعينيات زعم شيوعي عراقي تم تعذيبه في قصر النهاية بأن صدام أشرف شخصيا على استجوابه. «ربطت ذراعاي ورجلاي بحبل. وعلقت بالحبل بكلاّب في السقف وضربت عدة مرات بخراطيم مطاطية مليئة بالحصى». [٣١] واتهم صدام بالتخلّص من أجساد ضحايا تعذيبه بإذابتها في أحواض الأسيد. ويقال بأنه جرّب وسائل تعذيب متنوعة طورها كزار، فيعطي في بعض الأحيان قائمة لضحاياه ليختاروا منها الأسلوب المفضل لديهم بالاستجواب. وفي الفيلم العراقي، الايام الطويلة، المتعلق بسيرته الذاتية، يعلق صدام على مشاركته في أحداث عام ١٩٦٣، قائلا «يجب أن نقتل أولئك الذين يتآمرون علينا».

ثمة وصف عادي أكثر إيجازا لتلك الفترة قدمه بهاء شبيب، الذي كان عضوا في قيادة البعث في عام ١٩٦٣ وعمل وزيرا للخارجية لفترة قصيرة. «في التخطيط الأكبر للأشياء كان صدام لا قيمة له»، وأكد شبيب: «كان منشغلا بالتحقيقات، وليس بصنع السياسة. ولما عاد من القاهرة، كان جلّ اهتمامه أن يحصل على وظيفة تدفع راتبا شهريا. جاء إلينا متوسلا للحصول على وظيفة، فأعطيناه شيئا من هذا القبيل في مكتب الفلاحين. ولكن الشيء الأهم الذي أتذكره عن صدام في ذلك الوقت هو الطريقة التي كان يتمسك بها بالبكر الذي كان رئيسا للوزراء ومن الواضح بأنه امتلك نفوذا كبيرا، وصدام كرفيق تكريتي، كان دائما يتواجد في مكتبه، في محاولة منه لتحبيب نفسه. كان ينشر الغسيل مع الحرس الشخصي للبكر، محاولا أن يلعب دور الفتى الفظ. ولكن ليس هناك من كان يأخذه على محمل الجد. نحن كنا منشغلين جدا بأمور أخرى».[٣٢]

ومن حسن حظ الشعب العراقي، أنّ عهد الإرهاب البعثي الخاص كان قصير الأجل. والنزاع الحزبي الذي حدث بين مجموعات بعثية متناحرة أدت إلى إبعاد الحزب عن السلطة في نوفمبر ١٩٦٣، وبذلك ينتهي في ذلك الوقت على الأقل، بإراقة دم لا مسوّغ لها تقع في قصر النهاية. فالبعث الذي كان حزبا مسيطرا في الحكومة التي أقامها عارف في شباط المنصرم، وقع حالا ضحية للاقتتال الحزبي. إنّ السبب الرئيس للانشقاق الأيديولوجي كان في السؤال المحيّر، هل على العراق أن يتبع الهدف البعثي المعلن للوحدة العربية الشاملة، ويكوّن اتحادا مع سوريا أو مصر، أو كلاهما. فالجناح المدني للبعث بقيادة صالح السعدي، فضّل الاتحاد السياسي خاصة وأن البعث السوري قام بانقلاب ناجح في دمشق في شهر مارس (آذار). ومع ذلك عارض السعدي في البعث العراقي الجناح العسكري الأكثر محافظةً في الحزب الذي فضّل سياسة «العراق أولاً» التقليدية. في خريف ١٩٦٣ أصبحت المؤسسة العسكرية منزعجة جداً من التصرف اللامنضبط للحرس القومي ميلشيا حزب البعث، التي وظفها السعدي وعصاباته من البعثيين الأشرار لإرهاب خصومه واضطهاد الشيوعيين.

وفي أوائل نوفمبر قام الجناح العسكري في الحزب بانقلاب على قيادة الحزب ضد السعدي ورفاقه. وضع السعدي في طائرة وأرسل إلى المنفى في أسبانيا. خرج الحرس القومي إلى الشوارع احتجاجاً وهاجم قاعدة الرشيد العسكرية الحكومية المهمة في ضواحي بغداد. وفي تلك الأثناء طالب البكر، الذي كان يسعى إلى تسوية الخلافات الأيديولوجية بين الأجنحة المتنازعة في الحزب، بعقد اجتماع لقيادة البعث

القومية، الهيئة المؤثرة في الحزب، التنظيم الشامل الذي أشرف على المجموعات القومية المختلفة مثل البعث السوري والبعث العراقي. (فالقيادات القطرية لحزب البعث على حدة مثلت مصالح البعثيين في أقطارهم، وهكذا فالقيادة القطرية العراقية والقيادة القطرية السورية كلاهما تابعتان للقيادة القومية، التي تركزت في دمشق). في غضون تلك الفترة كان صدام، وبولاء عائلي أكثر من قناعته الفكرية، يساند البكر، رفيقه التكريتي، فوجد نفسه على الفور يعمل كحارس شخصي لرئيس الوزراء الفعلي. وكان صدام يتواجد باستمرار إلى جانب البكر أمام الملأ، متسلحاً بمسدس معبأ.

إنّ وصول ميشيل عفلق والعديد من البعثيين السوريين البارزين الآخرين لحضور المؤتمر المنعقد في بغداد والذي دعا له البكر لحل مشكلة الصراع الأيديولوجي في البعث لم يحسّن شيئا في حالة الشعور الجماعي لدى فريق «العراق أولاً» خاصة لما أشار عفلق، الذي اعتبر نفسه رائدا لفكر البعث العربي بأن عليه أن يسيطر على شؤون العراق السياسية. ومع استمرار الحرس القومي في تهديده للنظام العام نفد صبر الرئيس عارف أخيرا مع البعث وقرر أن يقوم بعمل. وفي الثامن عشر من شهر نوفمبر بدأ بتعبئة الوحدات العسكرية التي كان يعتمد على ولائها. والعديد من أعضاء البعث العسكريين الخائبي الفأل بمن فيهم اللواء طاهر يحيى، رئيس الأركان، والعميد حردان التكريتي قائد القوة الجوية، أبدوا دعمهم عندما أمر عارف بمهاجمة الحرس القومي في بغداد وخلال ساعات حققت قوات عارف نجاحا وسيطر الرئيس سيطرة كاملة على المدينة.

إنّ التدخل الحاسم للرئيس عارف أنهى الغزل الأول والقصير لحزب البعث العراقي مع السلطة. طرد أعضاء البعث الاثني عشر من الحكومة وحل محلهم ضباط عسكريون شعر عارف بأنه يستطيع الاعتماد عليهم. وطرد البكر، معلم صدام، من منصبه كرئيس للوزراء وسلّم العراق نفسه لحكومة تقودها الدكتاتورية العسكرية. تم حل الحرس القومي واستبدل بالحرس الجمهوري، وهو وحدة تمثل الصفوة الممتازة في القوات المسلحة ويقودها أحد أبناء عشيرة عارف. وبتسليحها الجيد وموقعها الاستراتيجي قرب بغداد كانت المهمة الرئيسة لوحدة الحرس الجمهوري هي حماية النظام من المحاولات الانقلابية مستقبلا.

ومع ذلك فإن الانقلاب الفاجع في مصائر حزب البعث في أواخر عام ١٩٦٣ لم يكن كارثة كاملة بالنسبة لصدام حسين. إن الفصل النهائي ليس لمجموعة واحدة بل لاثنتين من قادة الحزب كان يعني أن فئة البكر التي يدعمها صدام أصبحت هي القوة

المسيطرة. وخلال السنتين التاليتين شقّ البكر طريقه في صفوف حزب البعث ليصبح الأمين العام للقيادة القطرية- أي القسم المسؤول عن العراق. ولما قوي مركز البكر في البعث قوي مركز صدام كذلك. والعضوية الكاملة في الحزب التي حصل عليها في القاهرة تم الاعتراف بها أخيرا في بغداد ورقّي إلى القيادة القطرية لحزب البعث في العراق في صيف ١٩٦٤ - طبقا لبعض المعلقين بدعم من ميشيل عفلق - ووظّف ذلك المركز لتعزيز سيطرته على الأمن الداخلي للحزب. إن أزمة أواخر عام ١٩٦٣، والتي تواطأ فيها جناح الحزب العسكري مع الحكومة لتشكيل دكتاتورية عسكرية أعطت جناح الحزب المدني درسا مهما ألا وهو أن عليهم في المستقبل أن يكونوا أفضل تنظيما إذا أرادوا ألا يرضخوا للقوة النارية المتفوقة للقوات المسلحة.

وذكر سليم شاكر، وهو جنرال سابق في الجيش العراقي كان ناشطا في حزب البعث في تلك الفترة، بأن صدام استغل بحذر شديد طبيعة البكر الاستحيائية ليزيد من قاعدة سلطته الخاصة. «وحتى عام ١٩٦٣ لم يكن صدام حسين أكثر من رجل عصابات. إذا أردت قتل شخص ما فاستدع صدام لذلك. ولكن بعد أن بدأ البكر في تحريك صفوف الحزب كان صدام في غاية الذكاء بالتحاقه به. كان البكر سياسيا جيدا لكنه كان ضعيفا أمام الملأ. كان يعمل بالخفاء. وكان بحاجة إلى شخص ينفذ أوامره فطلب ذلك من صدام. وكرفيق تكريتي آمن البكر بإخلاص صدام له، ولذا أعطاه الكثير من المسؤولية. ولذلك كان صدام قادرا على أن يستغل البكر ليعزز موقعه في الحزب».(٣٣)

في تلك الفترة ركز صدام طاقاته على تحسين موقعه الاجتماعي. تزوج من ساجدة، حيث كانا مخطوبين خلال فترة نفيه في القاهرة. ومع أن الزواج كان مرتبا، إلا أن العريسين استمتعا بالحب الحقيقي الذي يكنّه أحدهما للآخر. وفي صورة أخذت بعد زفافهما بفترة قصيرة في عام ١٩٦٣ تصوّر زوجين شابين جذابين، صدام بذقن حليق ونظيف (علامة الشارب لم تزل بارزة) ويرتدي بأناقة بدلة داكنة وربطة عنق، وساجدة بشعر أسود وطلعة أكثر جدية وترتدي فستانا متواضعا عليه صورة مطبوعة مزهّرة. وفيما بعد صبغت ساجدة شعرها أشقر بعد أن بدا لدى زوجها ميل للنساء الشقراوات، إلا أنه في أيام البراءة الأولى ظهرا كأي زوجين شابين آخرين يستعدان لمواجهة تحديات الحياة الزوجية. وحتى بعد جريمتي قتل، ومحاولة اغتيال فاشلة وأربع سنوات من النفي في القاهرة، بدا صدام شخصا مسالما، وهو يعبر ذلك الخجل والتحفظ، بوجه نضر لرجل شاب يبدو مرتبكا أمام عدسة الكاميرا. إن عدم كفاءة

صدام اجتماعياً أكّدها أحد المعاصرين له من البعثيين الذي تذكر بأن صدام كان «خجولاً جداً وانطوائياً». وفي اللقاءات الاجتماعية «لم يكن يتكلم كثيرا. ولكن عندما كان يتكلم كان يعبّر بوحشية عن أفكار مناهضة للشيوعيين». وحتى ساجدة نفسها لم تكوّن انطباعا عن المجتمع في بغداد. «كانت تبدو مثل أبيها، وكان الناس يتجنبونها».(٣٤)

ومن وجهة نظر مسيرة صدام المستقبلية فإنّ اختياره لساجدة كعروس كان اختياراً جيداً. وكان خير الله طلفاح أبوها وخاله زميلاً حميماً للبكر حتى لو كان خير الله يبغض مشاعر تأييد حزب البعث الاشتراكي. وأثناء مغازلة الحزب الأولى للسلطة في عام ١٩٦٣، كافأ البكر خال صدام لتأييده نصرة البعثيين بالاستيلاء على السلطة وذلك بتعيينه مديرا عاما في وزارة التربية. وتعزز تحالف البكر مع صدام أكثر فأكثر عندما تزوج أحد أبناء البكر بأخت ساجدة وإحدى بنات البكر تزوجت من أخ ساجدة.(٣٥) وحتى في تلك المرحلة المبكرة من تطور حزب البعث، كان العشائريون التكريتيون يستغلون الروابط التقليدية للزواج والقرابة لتأمين قاعدة السلطة في بغداد.

كرس صدام كل طاقاته لبناء بنية الأمن الداخلي لحزب البعث، الهيئة التي ستصبح أحد المرتكزات الرئيسة من أجل صعوده إلى السلطة. ومثل العديد من البعثيين خصوصاً أولئك الذين في الجناح المدني للحزب كان صدام يخشى قلة انضباط الحزب التي أدت إلى إقصائه من دائرة الحكم في أواخر عام ١٩٦٣ وبتشجيع من البكر عزم صدام على بناء الهيكل التنظيمي الذي بإمكانه التعامل مع الأعداء الخارجيين والمنشقيين من الداخل. وأثناء سنوات القاهرة، كان صدام متأثراً بجوزيف ستالين إلى درجة كبيرة، وكان يدرس حياته وأعماله. ولما كان من الصعب الاعتقاد بأن طالباً متوسطاً مثل صدام الذي قضى معظم وقته في إدارة العصابات وفي إرهاب خصومه، كان قادراً على أن يقوم بقراءة جادة للحكم السوفيتي المطلق، ولم يبدُ أن بعض الجوانب القاسية جداً في فلسفة ستالين تجد امتيازاً لدى البعثيين. وبعد الخزي في شهر نوفمبر ١٩٦٣، كان صدام غالبا ما يُسمع وهو ينطق عبارات ستالينية مثل «إذا كان هناك شخص إذن هناك مشكلة، وإذا لم يكن هناك أي شخص، إذن ليست هناك مشكلة».

وفي وقت ما من عام ١٩٦٤، كان صدام واحدا من مجموعة البعثيين الذين التزموا بمسؤولية تأسيس جهاز الأمن السري للحزب والذي سمّي «جهاز حنين». وبعد انقلاب نوفمبر ١٩٦٣، الذي أدى إلى سجن معظم القادة البعثيين بمن فيهم البكر، قام

صدام بمجازفة محسوبة بالبقاء في بغداد وهذا القرار يعارض رغبات قيادة الحزب العليا في دمشق، والتي طلبت منه أن يهرب مرة أخرى إلى سوريا. والصحيح أن صدام برر ذلك بأنه سيُعتبر جبانا إذا ما غادر بغداد وخائنا إذا ما بحث عن اللجوء مع مجموعة من البعثيين الغرباء في سوريا. وبمعية قلة من البعثيين الذين لم يسجنهم عارف أسس صدام قوة أمنية سرية تدين بالكثير إلى أصحاب القمصان السمر النازيين أكثر من الحراس الحمر في مظهرها الخارجي. وكان الهدف الرئيس لجهاز حنين هو العمل المقابل والموازن للعدد الكبير من الضباط العسكريين في البعث الذين اصطفوا مع عارف في ١٩٦٣ من أجل إقصاء الجناح المدني للحزب. ومع أناس كناظم كزار يتبوّأون مراكز عليا أصبح التنظيم وعلى الفور من أعتى الأجهزة الأمنية في الشرق الأوسط برمّته.

إن حرية صدام في ١٩٦٤ كانت تبرهن بأنها قصيرة الأمد. ومع معظم قيادة البعث سواء في المنفى أو في السجن، ترك صدام لوسائله الخاصة، ليس بفترة طويلة قبل تورطه في أكثر من مؤامرة لإسقاط الحكومة. وكما حصل في مؤامرة اغتيال قاسم في ١٩٥٩ انضم إلى صدام «شقيقه التوأم» عبد الكريم الشيخلي. وتم الكشف عن العديد من السيناريوهات الممكنة لاغتيال الرئيس عارف في سبتمبر ١٩٦٤

كانت هناك خطة لإطلاق النار على طائرته عند إقلاعها من مطار بغداد، وكانت هناك خطة فضّلها صدام كثيرا والتي يقوم فيها بمهاجمة القصر الجمهوري برفقة مجموعة من البعثيين بالدخول إلى غرفة المؤتمرات التي يجتمع فيها عارف مع بقية أعضاء الحكومة وإطلاق النار عليهم جميعا حتى الموت. وتلك الخطة التي أعطت لصدام شرف الشروع بإطلاق النار توجب تركها بعد أن نقل مسؤول في القصر إلى موقع آخر، حيث كان من المؤمل أن يسمح للمتآمرين بالدخول إلى القصر. وأخيرا لجأ المتآمرون إلى خطة قاسية لمهاجمة القصر الجمهوري بقنابل مصنوعة محليا تحتوي على TNT (مادة شديدة الانفجار) والتي تم شراؤها من السوق المفتوحة. بيد أن تلك المؤامرة، كالأخريات، تم إفشالها من قبل قوات الأمن. وفي منتصف أكتوبر حاصرت قوات الأمن وكر صدام في ضواحي بغداد. وبعد تبادل قصير لإطلاق النار أجبر صدام على الاستسلام بعد فراره من إطلاقات الذخيرة الحية. وحسب ما ذكره أحد كتّاب سيرته الرسميين كان صدام باردا وصامدا عندما دخلت قوات أمن عارف إلى الغرفة. «رفيقي العزيز، ماذا كان كل ذلك؟» تساءل. «البنادق آلية؟ ألا توجد حكومة؟»[٣٦]

وسليم شاكر الذي اشترك في إحدى المؤامرات لإسقاط عارف والذي أصبح فيما

بعد أحد أبرز الجنرالات التقى بصدام لأول مرة في بيت في بغداد كان يُستخدم للتخطيط للمحاولة الانقلابية. «كانت خطة معقدة جدا، وكان صدام يحاول أن يجعلني أقوم بتعبئة الوحدات العسكرية لمساندة المحاولة الانقلابية. ولو نظرنا إلى الوراء يبدو الأمر كله مضحكا للغاية، ولكن عليّ أن أعترف بأن صدام كان متأثرا جدا. جاء إلى الغرفة ليخاطب المجتمعين وقال ببساطة متناهية سنطيح بالنظام. ويجب أن أعترف بأنني اعتقدت بأن هناك شيئا ما يخص صدام جعله يقف في وسط معظم البعثيين الآخرين من جيله. وكان انطباعي الأول بأنني أتعامل مع قائد طبيعي، رجل يمتلك فكرة واضحة عن الذي عزم على تنفيذه». [٣٧]

وكذلك في العديد من الأحداث الأخرى من حياة صدام الأولى، قدر من الميثولوجيا سمح به للكشف عن محاولاته «البطولية» لتخليص العراق من حكم عارف، والرزانة التي أبداها خلال السنتين اللتين أمضاهما في السجن. ويذكر كتّاب سيرته الرسميون الطريقة التي وضع بها في زنزانة انفرادية لفترات زمنية طويلة، وكيف أفرد نتيجة المعاملة الخاصة للسلطات بسبب رفضه التعاون معها، والتفسير الواضح لذلك أنه كان يخضع للتعذيب. وفي إحدى المناسبات، زعم بأنه طُلب منه أن يجلس على كرسي لمدة سبعة أيام، وليس هذا مشكلة كبيرة بالذات، ويزعم أيضا بأن الحكومة عرضت عليه الكثير على أمل إقناعه بالانضمام إلى حكومة عارف.

ومثلما قيل عن ستالين بأنه كان يقضي وقته في السجن بالقراءة، بتحسين نفسه بصورة عامة، وأنه أصبح أحد الجدليين الأساسيين في كومونة السجن، كذلك صدام «أمضى وقته في السجن في محاولة منه لرفع معنويات أولئك الرفاق الذين كسرت روحهم بالتعذيب. قرأ عددا من الكتب وشجع الآخرين على القراءة أيضا، وابتدأ كذلك بمناقشات حول الحزب ومستقبله». [٣٨]

ومع ذلك، فإن هذا الوصف المثير لسجن صدام لم يتطابق مع استذكارات أولئك البعثيين الأحياء الذين سجنوا معه. ويستذكر أياد علاّوي، الطالب في كلية الطب والناشط في حزب البعث والذي سجن بالوقت نفسه الذي سجن في صدام، بأنه لم يمر بوقت عصيب، بل تلقّى صدام معاملة مفضّلة من سلطات السجن. «معظمنا وضع في معسكر خاص حيث كان النظام قاسيا جدا» يقول علاّوي. «تم تعذيب الكثيرين منا والبعض بشكل سيئ». و«توأم» صدام عبد الكريم الشيخلي، مثلا، تلقّى معاملة قاسية بشكل خاص. وفي إحدى المرات دقّ مستجوبوه مسمارا في ظهره لحمله على الاعتراف. وفي مرة أخرى سحلوه حول بناية السجن، وكان مربوطا إلى مؤخرة سيارة

جيب، وعانى من إصابات خطيرة. غير أن صدام اعتقل بشكل منفصل عن السجناء الآخرين، حيث وضع في كلية تدريب الشرطة القديمة، حسب ما ذكره علاّوي، حيث كانت الظروف، مقارنة بتلك التي مرّ بها المعتقلون البعثيون الآخرون، تشبه «التواجد في مخيّم العطلة. وعلى الرغم من أن قوات الأمن كان لديها ما يقارب ثلاثين بيانا من شهود أدانوا صدام - بمن فيهم ذلك الذي كان يهرّب البنادق من سوريا إلى العراق - إلا تجاهلت (قوات الأمن) ذلك».[٣٩]

إن المعاملة المنحازة التي تلقّاها صدام في فترة اعتقاله بين ١٩٦٤ و١٩٦٦ أثارت الشكوك لدى حزب البعث بأنه عمل صفقة سرية مع حكومة عارف، ويزعم بعض أعضاء حزب البعث السابقين بأن صدام عمل بنشاط مع الحكومة بتقديم معلومات عن حزبه[٤٠] وخلال صيف ١٩٦٣، لما انهمك صدام في اضطهاد وتعذيب الشيوعيين واليساريين، كان يعمل بالاشتراك مع سلطات الدولة. ومن الممكن أيضا أنه كان يجري اتصالات بالاشتراك مع وكالة الاستخبارات المركزية CIA في القاهرة. ويقينا أن ذلك الشك كان يتقاسمه عدد من البعثيين الآخرين الذين سجنهم نظام عارف، بيد أنهم لم تعجبهم المعاملة المنحازة لصدام. وحتى لو كان صدام مشتركا في إسقاط نظام عارف، بدا واضحا بأنه ما زال لديه أصدقاء في الحكومة، وحتى في الخارج، كان بإمكانهم أن يؤكدوا أنه لم يعامل بسوء في السجن. ومهما أحبّ صدام أن يرى في نفسه كشخصية شبيهة بستالين، الرجل الذي اهتم برفاق السجن وساعدهم على تلقين المبادئ الحزبية، فإن رفاق صدام، في الواقع، كانوا لا يحبونه على الأرجح. وكان الكثير من السجناء متعلمين جدا وجاؤوا من عوائل فاضلة ومن طبقة اجتماعية عليا، والكثير منهم أيضا كانوا ضباطا في الجيش. كانوا يميلون إلى أن يعاملوا باحتقار ذلك الرجل الشاب القادم من تكريت، ذا المنزلة الاجتماعية المتدنية، المتحدث بلهجة فلاحية قوية، والذي يمتلك مؤهلات تعليمية متواضعة. والمؤهل الوحيد الذي كان بإمكانه أن يدّعيه هو شهادة المدرسة الثانوية التي حصل عليها في القاهرة، ولكن ليس هناك أي دليل تم تقديمه في الواقع. وكان صدام يكن الحقد ضد رفاقه بسبب نبرة التفضّل التي تبنوها إزاءه، وشرع بالانتقام منهم عندما تسلم موقعا سلطويا في حكومة البعث.

وكان خير الله طلفاح معتقلا في تلك الفترة، بالرغم من أنه لم يكن عضوا في حزب البعث. ولمدة شارك علاّوي خال صدام الزنزانة ذاتها، وأنها ليست بتجربة سارة. وحسب ما ذكره علاّوي بأن خير الله كان «رجلا طويل القامة، بنيته جيدة

وعدائي جدا، وكانت لغته تجديفية مشوّشة». والظاهر أن خير الله كان ساخطا لاعتقاله، وكان يشكو بمرارة إلى الحرّاس. «لماذا سجنوني؟» كان يصرخ على الحرّاس. «أنا لست ضد النظام». وزارت خير الله ساجدة ابنته، التي أنجبت لتوّها طفل صدام الأول، عدي.. وفضلا عن جلب الكتب والطعام إلى خير الله، كانت تزور صدام المعتقل في سجن مختلف. وحسب ما ذكره كتّاب سيرة صدام، فإن ساجدة كانت تجلب الرسائل له من البكر، الذي أطلق سراحه من السجن، وكانت تخفيها في ملابس الطفل الرضيع عدي، وتلك الرسائل مكنت صدام من متابعة آخر الأخبار والمعلومات الخاصة بقضايا حزب البعث.

إنّ فترة احتجاز صدام الثانية (الأولى كانت بسبب اغتيال سعدون التكريتي في عام ٩٥٨) انتهت في الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٦٦، عندما نجح في الهروب برفقة اثنين من رفاقه البعثيين. وزعم التقرير الرسمي الخاص بهروبه بأن صدام أقام صداقات مع الحرّاس إلى الحد الذي أصبح به قادرا على إقناعهم بالتوقف عند أحد المطاعم لتناول وجبة الغداء أثناء تنقلاته بين السجن والمحكمة، حيث كان يحاكم لمحاولته إسقاط النظام. ولما كانوا داخل المطعم، تمكن صدام ورفيقاه، بمن فيهم الشيخلي، من الهروب من الباب الخلفي، حيث كانت تنتظرهم سيارة يقودها سعدون شاكر، وهو بغدادي فرّ من الجيش وارتبط بعلاقة صداقة مع صدام، بعد ذلك انطلقت السيارة بهم متجاوزة السرعة المحددة بينما كان الحراس ينتظرون خارج المدخل الأمامي. ثمة رواية أخرى عن الحادثة التي أصبحت تقدس باعتقاد راسخ بأسطورة صدام البطولية منذ ذلك الحين، بأن الهروب وقع عندما كان صدام والشيخلي يتظاهران بالمرض في السجن، وقد أقنعا الحرّاس بأخذهما إلى أقرب مستشفى لغرض المعالجة، وهناك نجحا في الهرب بمساعدة سعدون شاكر. إنّ السهولة التي هرب بها صدام والشيخلي أثارت سؤالا جليا عما إذا كان ذلك الهروب حقيقيا أو أن السلطات كانت متواطئة. ومهما كانت الحقيقة، فإن هروب صدام كان يعني بأنه أصبح حرا الآن للشروع بعمل خطة قادمة لإسقاط الحكومة والإمساك بزمام السلطة.

الفصل الثالث

الثوري

إن انقلاب عام ١٩٦٨ الذي جاء بحزب البعث أخيرا إلى السلطة في العراق، كان وبالمقارنة مع إراقة الدم العنيفة التي رافقت تحولات الحكم في بغداد، مسألة مدنية نسبيا. إن كلمة السر التي أعطيت إلى المشاركين في الأحداث التاريخية لتلك الليلة كانت «ارشاد». وفي الساعات الأولى لصباح السابع عشر من تموز قام عدد من الوحدات العسكرية برفقة بعثيين مدنيين بالسيطرة على عدة مراكز حكومية وعسكرية أساسية، بما في ذلك محطات الإذاعة والتلفزيون، محطة الكهرباء، وزارة الدفاع في بغداد، وجميع جسور المدينة وعدد من القواعد العسكرية حول العاصمة. قطعت جميع خطوط الهاتف وعند الساعة الثالثة فجرا أعطي الأمر للتحرك باتجاه القصر الجمهوري. بعد ذلك سمع زمجرة عدد من الدبابات في ساحة القصر، وتوقفت تحت الشبابيك، حيث كان الرئيس يغطّ في نوم عميق. وكان صدام، وليس سواه، يجلس منفرج الساقين على دبابة متقدمة مرتديا زي ملازم أول في الجيش العراقي ومسدسه في يده.

وأحد المتآمرين من رفاق صدام في تلك الليلة كان صلاح عمر العلي. وفي عام ١٩٦٨ كان العلي، مثل صدام، عضوا في قيادة البعث في العراق، وكان مشتركا في جميع الاجتماعات السرية التي أدت إلى محاولة الانقلاب. عمل العلي مع صدام منذ ١٩٦٤ واشترك معه في خلية السجن، وكوّن فكرة حسنة عن قدرات صدام. ويستذكر العلي[1] بأن صدام «كان لديه شعور بالثقة بالنفس. وكان جريئا وشجاعا»! كان المتآمرون متفرقين في خلايا مختلفة وخصصت لهم مهمات مختلفة. وكان العلي في الخلية نفسها مثل صدام الذي كلّف بمسؤولية السيطرة على القصر الجمهوري. وأصرت قيادة البعث على استلام الناشطين المدنيين للمسؤولية لتجنّب تكرار ما حدث

في انقلاب ١٩٦٣ حيث سيطر العسكريون الذين لعبوا دورا رياديا في إسقاط حكومة قاسم على الحكم وأجبروا البعثيين المدنيين على تسلم دور ثانوي.

وبجمعها للأسلحة التي حفظت في مواقع سرية، اندفعت مجموعة صدام إلى القصر بسيارات خاصة. وبالرغم من أن الخلية كانت في الأغلبية مدنية في التكوين، إلا أن تلك المجموعة رافقها العميد حردان التكريتي، قائد القوة الجوية السابق والذي ساند عارف في أواخر ١٩٦٣ في قمع البعثيين (أنظر الفصل الثاني)، والذي ما زال يحظى باحترام في المؤسسة العسكرية، وفي الطريق إلى القصر التقى أعضاء المجموعة بأنصار لهم في الجيش زودوهم بالسيارات المصفحة. بعد ذلك ساروا إلى مقرات القيادة العسكرية بجانب القصر، حيث التقوا بسعدون غيدان، الذي كان مسؤولا عن أمن القصر، ومع أنه لم يكن عضوا في البعث، لكنه كان مؤيدا للانقلاب. وكانت مقرات القيادة العسكرية تضم عددا من الدبابات والمتآمرين الذين ارتدوا الأزياء العسكرية سيطروا عليها وقاموا بمناورة حول القصر. «كان صدام في حالة قلقة جدا»، قال العلي. «كانت تلك اللحظة التي ننتظرها، وكان صدام متلهفا للاشتراك في جميع مراحل العملية».[٢]

وأول مرة عرف الرئيس عبد الرحمن عارف بالانقلاب كانت عندما سمع بعض أعضاء الحرس الجمهوري المبتهجين جدا وهم يطلقون نيران أسلحتهم في الهواء ملوحين للنصر قبل الأوان. ومعلم صدام، اللواء أحمد حسن البكر، وهو العقل المدبر للخطة والذي كان يدير العملية من المقرات العسكرية استعمل شبكة الاتصالات العسكرية ليتصل بالرئيس، وقد أخبره بسقوط حكومته، ودعاه للاستسلام. طلب عارف بعض الوقت لدراسة الطلب واتصل بالوحدات العسكرية الأخرى ليرى ما إذا كان هناك أي أحد ينوي المجيء لنصرته. واكتشف حالا أن الوضع لا أمل فيه وليس لديه أي بديل آخر سوى الاستسلام. اتصل بالبكر تلفونيا وعرض التنحي، لقاء ما قاله البكر بأنه سيضمن سلامته. ثم أوكل البكر لكل من حردان التكريتي والعلي مهمة الدخول إلى القصر ومرافقة الرئيس وهو يغادر المبنى. «أنا مخول بإعلامك بأنك لم تعد رئيسا»، أخبره التكريتي بجفاء. «حزب البعث يسيطر على البلاد. لو تستسلم بسلام، أستطيع ان أضمن لك سلامتك». وافق عارف، الرجل الضعيف الذي أصبح رئيسا بعد أخيه، عبد السلام عارف، الذي قتل بحادث تحطم طائرة هيليكوبتر في عام ١٩٦٦، على الانقلاب كأمر واقع. كان مطلبه الوحيد أن يحافظ منفذو الانقلاب على حياته وحياة ولده، الذي كان ضابطا في الخدمة العسكرية. وخلال الحدث بأكمله كان

دور صدام يتمثل في حراسته للقصر والتأكد من أنه ليس هناك جنود مخلصون لعارف يحاولون التدخل.

بعد ذلك رافق الجنرال التكريتي والعلي عارف إلى بيت التكريتي في بغداد. في الساعة الثالثة والأربعين دقيقة فجرا اكتمل الانقلاب دون أية خسارة في الأرواح، ويعد هذا الأمر بالمعايير العراقية إنجازا إلى حد ما. ولمّا لم يدخل البعثيون بنقاش عريض مع عارف، فإنهم كانوا قادرين على أن ينهوا المسألة بأسلوب مهذب تقريبا. خرج التكريتي من بيته ليجعل عارف يستريح فيه، أَعَدَّ له قهوة وحثه على الاسترخاء والراحة قبل طيرانه إلى لندن، حيث كان من المؤمل أن يلتحق بزوجته التي كانت تتلقى معالجة طبية. بعد الاستراحة لساعات قليلة، كرر كلامه قائلا «ودّعت جميع الضباط وتمنيت لهم كلّ النجاح».[٣] وفي ذلك الصباح استيقظ العراقيون فيما بعد ليكتشفوا أن لديهم حكومة جديدة. وأعلنت إذاعة البعث المرخصة رسميا أنّ الحزب «سيطر على الحكم وأنهى الفساد والنظام الضعيف المتمثل بالعصبة الجاهلة، الأميين، الانتهازيين، اللصوص، الجواسيس والصهاينة».

إن رواية صدام لدوره في أحداث السابع عشر من تموز، وكما هو معروف، تكون مفعمة بالحيوية والإثارة. فقد زعم بأنه في وطيس المعركة من أجل السيطرة على القصر الجمهوري، تعلم كيف يطلق نار بندقيته وهو على ظهر دبابة. وزيّن متعمدا دور برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق، الذي يدّعي بأنه كان معه على ظهر الدبابة نفسها (عدد كبير من أولئك الذين شاركوا في انقلاب السابع عشر من تموز كانوا كصدام تكريتيين). وطبقا لآخرين شاركوا في احتلال القصر الجمهوري، أُطلقت النار من دبابتين فقط إثر بلاغ كاذب بأن عارف عزم على المقاومة. وبالنسبة لبقية الأحداث فإن إطلاق النار الوحيد جاء من جنود جذلين، والتزاما بالعرف العربي، أطلقوا نيران بنادقهم في الهواء احتفالا بنجاح الانقلاب.

إن تبرير ظهور صدام في ذلك اليوم، وهو يرتدي البزة العسكرية ويعتلي ظهر دبابة، يكمن في اهتمام حزب البعث بأن قادته المدنيين، وليس العسكريين، يجب أن يحتلوا المناصب في السلطة عند نجاح الانقلاب، خلافا لما حدث في انقلاب ١٩٦٣ ومن الناحية المثالية كان صدام ورفاقه البعثيون يفضلون تنفيذ الانقلاب بأنفسهم، ولكن في الأسابيع الحاسمة التي أدت إلى سقوط عارف أصبح واضحا أنهم سيحتاجون إلى دعم العسكر لو أرادوا النجاح. إن جهاز حنين التابع لصدام، أي قوة الأمن السرية التي رسمت خطة لمكافحة ما يصفونه «بأعداء الشعب»، كان بارعا في

استخدام تكتيكات بلطجية لإرهاب أعداء صدام، لكنه ليس لديه القوة ولا الخبرة للسيطرة على القطر. ولذلك اتصل قادة البعث بالقادة العسكريين معتقدين بأنهم سيؤيدون قضيتهم. والبعض، كحردان التكريتي، كانوا أعضاء في حزب البعث من قبل، وهكذا كانوا مستعدين للمؤازرة. أما الآخرون فكانوا بحاجة إلى الاستمالة. ثمة شخصيتان بارزتان تحولتا إلى جانب تلك القضية هم عبد الرزاق النايف، نائب رئيس الاستخبارات العسكرية، والعقيد إبراهيم الداود قائد الحرس الجمهوري. وبالرغم من تعاونهما المهم جدا بالنسبة لنجاح الانقلاب، لم يكن أي منهم ملتزما بقضية البعث، وان مساندتهما قررتها الانتهازية أكثر من الأيديولوجيا. وبرئيس ضعيف في الحكم مثل عارف كان واضحا أن النظام لن يعيش طويلا. وكان النايف والداود يعيان تماماً أن الانقلاب سيحظى بفرصة ضئيلة للنجاح من دون دعمهما، ولقاء إبداء ذلك الدعم طالب النايف بمكافأته بمكتب رئيس الوزراء والداود كوزير للدفاع.

إن الطبيعة الدسائسية لمجتمع المقاهي في بغداد كانت تعني أنه حتى الشخص الذي ليس له أية علاقة بالتيارات السياسية في ذلك الوقت كالرئيس عارف أصبح يعي بأن المشكلة كانت تغلي. إن خطط الانقلاب التي وضعها البعثيون بعناية رميت في فوضى كبيرة عندما استدعى عارف بعد ظهيرة السادس عشر من يوليو كلاً من النايف والداود إلى القصر الجمهوري حيث سألهم عما إذا كانت هناك أية صحة للإشاعات حول الانقلاب الوشيك. كلا الرجلين أنكرا متباكيين معرفة أي شيء بخصوص محاولة الانقلاب، وليظهرا ولاءهما لعارف، جثيا على ركبتيهما وقبّلا يده.

ولمّا سمع البعثيون بما حدث عقد البكر اجتماعاً طارئاً لقيادة البعث في بيته في ذلك المساء. ومن الواضح أن البعثيين كانوا بحاجة إلى العمل بسرعة إذا لم تكن خططهم قد تم اكتشافها ومن الواضح تماما أنهم سيحتاجون مساندة النايف والداود، إضافة إلى قادة عسكريين مهمين آخرين لو كتب لهم النجاح. وهكذا وبينما كان البعثيون غير متحمسين تماما حول مطالب النايف والداود إلا أنهم وافقوا عليها. وصدام، الذي يزعم بأنه كان حاضراً في الاجتماع لما اتخذ القرار بتشكيل تحالف تكتيكي مع الضباط، توصل إلى استنتاج تهكمي حول مزايا التحالف. في حديث إلى رفاقه البعثيين في بيت البكر، أعلن صدام، «أنا أدرك أن الضابطين قد فرضا علينا وهما يريدان أن يطعنا الحزب في الظهر لخدمة مصلحة ما أو أخرى، لكننا ليس لدينا خيار الآن. علينا أن نتعاون معهما ولكن انتبهوا إلى أنهما سيصفّيان مباشرةً خلال الثورة أو بعدها. وأنا أتطوّع لتنفيذ تلك المهمة»(٤).

وكانت ثورة تموز انقلابا كلاسيكيا، انقلاب أكثر من كونه ثورة شعبية، والجمهور العراقي بقي يقظا. ولم ينس العراقيون العنف الذي امتد من سيطرة البعثيين الأخيرة على القطر في عام ١٩٦٣، وبقي قلة من الناس المأخوذين بحماسهم الكبير للنظام الجديد حتى تكونت لديهم فكرة جيدة عن الذي كان في الحكم، وكم كانت إمكانيات البقاء. ومع ذلك أصبح من الواضح، طوال الأسبوعين التاليين أن السيطرة العسكرية كانت مجرد تمهيد لتغيير للنظام بعيد المنال تماما وبصعوده على دبابة متقدمة على القصر الجمهوري ليتأكد بأن المتعاونين العسكريين مع البعثيين لم يتركوا الخطة المتفق عليها، لم يضيع صدام ورفاقه المتآمرون الوقت في تعزيز موقعهم في الحكومة الجديدة. وكانت خدمات النايف والداود مطلوبة للحصول على السلطة، ولمّا تحقق ذلك عزم تحالف البكر / صدام حسين على التخلص منهما. وبعد الانقلاب مباشرة عيّن الفريق أحمد حسن البكر رئيسا بينما تسلم كل من النايف والداود حقائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع على التوالي. والبكر الذي بقي أمينا عاما لحزب البعث أصبح أيضا رئيسا لمجلس قيادة الثورة وتشكلت القيادة في الصباح الذي أعقب الانقلاب الذي تسلم السلطة التنفيذية والتشريعية العليا. حصل حزب البعث في السلطة وبسرعة على جميع الصفات التي يحتاج إليها لحكم دولة الحزب الواحد. وصدام، العضو الرفيع المستوى في الحزب قد أصيب بالخيبة ليس لمنصبه في المجلس الجديد وإنما لإعطائه مسؤولية الأمن الوطني الموقع الذي سيكون مهما جدا لديمومة الحكومة الجديدة. ومثاليا فإن هذا المنصب كان مناسبا لصدام، لا سيما أنه خدم متدربا في تأسيس تنظيم جهاز حنين شبه العسكري الذي تم حله عندما جاء البعثيون إلى السلطة وحلت محله الهياكل الأمنية الرسمية. وبالرغم من أنه لم يتمتع باعتراف رسمي إلى أن صدام كان يملك قاعدة حكم مهمة ستسلمه الرئاسة.

في أيام الانقلاب تطور الخلاف المريع على السلطة ما بين البكر والنايف من أجل السيطرة على القطر، مع إيمان كلا الرجلين بأنهما الآن يستطيعان أن يخدم بعضهما البعض. من الناحية الفنية فإن النايف والداود، وكلاهما ضابطان، يجب أن تكون لهما اليد العليا، لأنهما من الشخصيات المعروفة والمحترمة في المؤسسة العسكرية العراقية. وأظهر البكر دهاءً سياسياً كبيراً في إقناع النايف والداود لمساعدة البعثيين في إسقاط عارف. وطلب من حردان التكريتي وسعدون غيدان، وهما من الشخصيات العسكرية القيادية في حزب البعث، أن يوظفا قدرتيهما في الإقناع. وقد أقنعهما التكريتي وغيدان بأن الحكومة الجديدة سيدبرها العسكر، مع البعث الذي سيلعب دورا

ثانويا، وعلى هذا الاساس تمت مشاركتهما في الانقلاب. ولكن لما استلم البكر منصبه في الحكم قرر أن يأتي بالبعث إلى الحكومة على حساب النايف والداود اللذين يبخسان قدر المهارات التنظيمية العليا للبعثيين. وكان البكر مستعدا للسماح للضباط العسكريين الذين كانوا أيضاً أعضاء في حزب البعث، مثل حردان التكريتي، للمشاركة في الحكومة الجديدة، وفي الأيام التي أعقبت الانقلاب زاد من النفوذ العسكري للبعثيين لتعيين أكثر من مائة ضابط بعثي في مناصب في الحرس الجمهوري والوحدات المهمة الأخرى. وفي تلك الأثناء كان صدام منشغلا بتنظيم جهاز الأمن البعثي والوحدات شبه العسكرية، والتي كان يعتقد بأنها جوهرية لبقاء البعث في السلطة. وفي التاسع والعشرين من يوليو (تموز)، كان الداود، الذي أساء قراءة الموقف في بغداد تماما، يقوم بجولة تفتيش في القطاعات العراقية التي كانت متجحفلة في الأردن، كجزء من القوة التي تم إرسالها لتعزيز الجبهة الأردنية بعد حرب الأيام الستة مع إسرائيل. ولما كان الدور بعيدا عن بغداد، كان البكر، وبمساندة صدام، قادرا على توجيه الضربة. وكما علّق أحد كتّاب سيرة صدام الرسميين: «شعر صدام بأن مشاركة عبد الرزاق النايف [في الحكومة] كانت عقبة».(٥)

ولو أخذنا بنظر الاعتبار التهديدات الفظيعة التي أطلقها صدام في بيت البكر عشية الانقلاب فإن إزاحة النايف كانت قضية مدنية نسبيا. في الثلاثين من تموز، اليوم الذي تلا ذهاب الداود إلى الأردن، دعي النايف لتناول الغداء مع البكر في القصر الجمهوري. وعندما اقترب الغداء من النهاية اندفع صدام الذي كان يعمل بموقعه الجديد كرئيس للأمن الداخلي في القطر إلى غرفة البكر وهو يلوح مهددا بسلاحه بصحبة ثلاثة من مساعديه. وعندما رأى النايف المسدس الموجه إليه وضع يديه على عينيه وصرخ، «لديّ أربعة أطفال». كان صدام توفيقياً طبقاً لكتاب سيرته الرسميين. «لا تخف» أجاب صدام. «لن يحصل أي شيء لأطفالك لو تصرفت بعقل». بعد ذلك تقدم صدام ليعطي النايف محاضرة قصيرة يبين سبب طرده من المكتب: «أنت تعلم بأنك أقحمت نفسك في الثورة وأنك حجر عثرة في طريق الحزب. نحن ضحينا لهذه الثورة بدمنا والآن هي نجحت. وقرر الحزب بأن عليك أن تكون خارج هذا الطريق. عليك أن تغادر العراق فوراً».(٦) وبدقة كان قراره بإزاحة النايف مثيرا للجدل. ويعطي كتّاب سيرة صدام انطباعا بأن كل ذلك كان من عمل صدام، غير أن معظم المشاركين الباقين على قيد الحياة يقولون بأن القرار اتخذ من قبل البكر الذي أعطى بعد ذلك الأمر لصدام للتدخل. أقنع النايف بالموافقة على منصب سفير ونقله صدام شخصياً إلى

المطار ليطير من هناك. وعندما غادروا القصر كان صدام يخفي مسدساً في جيبه ليتأكد من أن النايف لن يحاول أن يتصل بالحراس الذين كان بعضهم يدين بالولاء له.

إن التقرير الرسمي لاشتراك صدام في إزاحة النايف نقرأه هكذا: «حذّر النايف بأن مسدسه في سترته ولو رأى أية علامة بأن النايف كان على وشك أن يعطي أوامره فإنه سينهي حياته عاجلاً أم آجلاً. وطلب من بعض رفاقه البقاء في القصر الجمهوري لحماية الرئيس أحمد حسن البكر. جلس صدام إلى جنب عبد الرزاق النايف في الطريق إلى معسكر الرشيد. كانت الطائرة تنتظرهم هناك. بعد إقلاعها تحسس صدام دموعاً تسقط من عينيه. طلقة واحدة كانت ستأتي على العملية الكاملة للتخلص من النايف غير إن إرادة القدر أرادت أن تمضي العملية بلا توقف من البداية حتى النهاية». (٧)

جرت دموع صدام لشعوره بالارتياح بأن العملية كانت ناجحة، أكثر من الحزن على رحيل النايف. فالتوتر الذي رافق إزاحة نايف من الدائرة السلطوية يشير إلى أن انقلاب الثلاثين من تموز، أو «انتفاضة الثلاثين من تموز» كما أصبح يعرف، كان قضية سرية. ولو كانت القوات الموالية للنايف والداود على دراية بما حدث فإنها قد تحاول التدخل، ولكان هناك حمام دم فظيع في بغداد، شبيها لما حدث عندما شن البعثيون هجومهم لإزاحة قاسم في ١٩٦٣ ولما كان الداود، بشكل خاص، يمتلك دعما واسعا في الجيش، لم يكن أكيدا على الإطلاق بأن البعثيين، المعتمدين بصعوبة على أشباه العسكريين غير المنضبطين الذين دربهم صدام، ستكون الغلبة لهم، وأنّ تاريخ العراق قد يكون مختلفا جدا. ومع ذلك، بالقدر الذي كان إلى جانبهم، ربح البعثيون ذلك اليوم، ونفي النايف إلى المغرب (استبعدت اختيارات النايف الشخصية لكل من بيروت أو الجزائر على أساس أن تلك الأماكن مسيّسة وقد يجد فيها حلفاء يناصرونه في شن انقلاب مضاد). وأُلقي القبض على الداود في الأردن على يد الملحق العسكري في السفارة العراقية، العميد حسن النقيب، وأعيد إلى بغداد بطائرة عسكرية ونفي إلى العربية السعودية. واعتُبر النايف بأنه تهديد كامن، لذلك وبعد عشرة أعوام أي في ١٩٧٨ قُتل في لندن بأمر من صدام، وكان قد نجا من محاولة اغتيال سابقة في عام ١٩٧٣

وأخيرا فإن إزاحة النايف والداود سمحت للبعثيين المدنيين، بدلا من العسكريين، بأن يعلنوا أنفسهم بأنهم القوة القيادية الحقيقة خلف ثورة السابع عشر من تموز. وعزز البكر موقعه أكثر فأكثر باستلام منصبين جديدين إضافة إلى رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس قيادة الثورة، فأصبح رئيسا للوزراء وقائدا عاما للقوات المسلحة. وفي تلك

الفترة التي تلت إتمام «المرحلة الثانية» كما يشير لها مؤرخو الحزب، من ثورة تموز برز الجناح التكريتي في البعث كقوة بحد ذاتها. وفضلا عن البكر نفسه، فإن الكثير من المناصب الرئيسة في الحكومة الجديدة ذهبت إلى التكريتيين. فحردان التكريتي الذي كان له دور فعال في تعيين صدام كمنظم عمل أساسي للجناح المدني في حزب البعث في عام ١٩٦٤ أصبح وزيرا للدفاع، بينما عبد الكريم الشيخلي «توأم» صدام الذي اشترك معه في المحاولة الفاشلة لاغتيال قاسم عام ١٩٥٩، وانضم إليه في المنفى في القاهرة، أصبح وزيرا للخارجية. وحتى خال صدام خير الله الذي لم يكن بعثيا عُيِّن محافظا في بغداد. وليس هناك عدد كبير من التكريتيين على علاقة وطيدة بصدام. وأكثر تلك الوظائف إثارة للاهتمام كانت تلك التي تخص صدام نفسه. ومع إن صدام وكما بيّن كتّاب سيرته بوضوح لعب دورا رئيسا في إزاحة كل من عارف والنايف فإنه كان العضو الوحيد من سلطة المتآمرين الذي لم يُمنح موقعا حكوميا بشكل رسمي. عُيِّن صدام نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة الهيئة الأكثر أهمية التي تسيطر على حكومة العراق، ولكن وتحت إصرار صدام لم يعلن عن ذلك المنصب علانية وزعم بأنه اعتذر عن قبول أي موقع حكومي رسمي. وقد يكون سبب ذلك التحفظ له علاقة بصغر سن صدام _ حيث كان عمره بين التاسعة والعشرين والثلاثين فقط. والتفسير الأكثر احتمالا هو أن صدام فضّل أن يبقى في الظل يعمل بهدوء بعيدا عن الأضواء وذلك لضمان نجاح الثورة وأن أية عناصر معادية لنظام البكر تمت تصفيتها. ويعزو كتّاب سيرة صدام رفضه الموافقة على أي موقع رسمي إلى أنه في الحقيقة «قد أنجز دوره في وصول حزب البعث إلى السلطة». إن المعيار في عدم معرفة اسم صدام في ذلك الوقت يمكن استخلاصة من واقع الأمر بأنه لم يترك أي انطباع مطلقا على الجمع الغفير للدبلوماسيين الغربيين المقيمين في بغداد خلال ثورة تموز وما أعقبها، ومعظمهم كانوا يقدمون بيانات طويلة عن الأحداث المضطربة المنتشرة في العراق.

إن اغتيال أحد المحامين فجر السابع عشر من تموز والثورة كانت في بدايتها، أظهرت بدقة طبيعة نشاطات صدام في ذلك الوقت. بينما كان الانقلاب بوجه عام قضية خالية من الدماء والاستثناء الوحيد لذلك هو مقتل حارث ناجي شوكت، الذي اغتيل في بيته في بغداد. في البدء لم يتمكن أحد من معرفة أسباب مقتل شوكت. رجل محترم من الطبقة الوسطى ولديه أسرة وقد غازل قيادة البعث لفترة وجيزة، لكنه لم يشترك مباشرةً في انقلاب تموز الذي لم يسانده ولم يعارضه. ومع ذلك فإن التحريات التي قام بها موظفون محليون قادتهم إلى أن يستنتجوا أن صدام قد أمر بعملية

القتل والتي نفذها أعضاء من الأجهزة الأمنية الجديدة التابعة له. والظاهر أنه عندما أطلق سراح صدام من السجن في عام ١٩٦٦ كان شوكت يرعى أموالاً تقدر قيمتها بعشرين ألف دينار وهو مبلغ كبير بتكليف من الحزب، ذهب صدام إلى شوكت وطلب أن يسلمه ذلك المبلغ والذي زعم بأنه يحتاج إليها للمساعدة في إعادة بناء الحزب. غير أن شوكت رفض ذلك الطلب، مدعيا بأن النقود تعود إلى مجموعة الجناح اليساري المختلفة. وصدام ذلك الشخص الذي لم ينس ولم يتسامح، دفعه الحقد إلى القتل في لحظة إعادة تأسيس البعث في الحكم. وحسب ما ذكره ناشط في حزب البعث كان يعمل قريباً من صدام في ذلك الوقت بأن القتل كان نموذجا لسلوك صدام. «لم يكن صدام منظّراً بل كان رجلا جلفا جاء لتنفيذ أعمالاً قذرة. لم يكن يُنظَر إليه بجدية في الحزب. وتلك كانت غلطتنا الكبيرة، ولهذا السبب كان قادرا على أن يعمل بهدوء خلف الكواليس وأخيراً تولى علينا جميعا».[٨]

مثال آخر على جاهزية صدام لارتكاب العنف يذكره سعدون شاكر الهارب من الجيش والذي قاد سيارة الهروب في عام ١٩٦٦ وعضو مجلس قيادة الثورة بعد تشكيله. ويتذكر قرار صدام بإزاحة النايف «في اليوم الأول للثورة». خلال التخطيط التمهيدي طلب صدام من شاكر «أن يجهز عشرة أعضاء حزبيين ملتزمين مستعدين لاغتيال عبد الرزاق النايف لو طلب منهم ذلك». وفضلاً عن تطفّله على استيلاء البعثيين على زمام الحكم في القطر فإن إساءة النايف الرئيسة كانت «إقامة علاقات مع قوى أجنبية وذلك لتخريب الثورة».[٩] ويعد مغازلة خاصة لوكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة لم يقم صدام بأية مجازفات وذلك لأن الرفيق الذي يشترك معه قد يكون في موقع يكشف تفاصيل غير مرغوبة عن تورطه الخاص مع «القوة الأجنبية».

وحتى لو كانت أساليب صدام تنقصها الدراية فإنه بات واضحاً أنها حصلت على مكانها في نظام البكر الجديد، ولذلك فإن صدام الذي ما زال شابا وقليل الخبره مقارنة بأعضاء البعث الأعلى مقاما مثل الفريق حردان التكريتي، وجد نفسه نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة. ولا بد أن يكون ذلك المنصب مفرحا بشكل خاص بالنسبة لصدام إذا سلمنا بأنه قد فشل فشلا ذريعا في طموحه الشبابي للانخراط في الكلية العسكرية في بغداد وأن يواصل مسيرته في القوات المسلحة، القناة المعترف بها رسميا بالنسبة لشباب المحافظات الذين يبحثون عن الحركية الاجتماعية. كان مجبرا على السهر في مناسبات عديدة مع خصومه كتكريتي استفاد من موقفهم العسكري لتعزيز الأهداف السياسية. وبالرغم من أن البكر كان أكثر قدرة على التحكم في مجال الأمور

العسكرية، إلا أنه احتاج إلى شخص ما يُعنى بالشؤون المدنية، ليتأكد بشكل خاص من أن السيطرة القوية والجديدة للعسكر قد كسرت. وبقوته الأمنية السرية وقواته الضاربة شبه العسكرية كان صدام مناسبا لهذه المهمة تماما. وإذا ما ساورت البكر أية شكوك حول صدام فإنها سرعان ما تُبدَّد من قبل خاله خير الله صديق البكر وصاحبه في تكريت والذي كان نادرا ما تفوته فرصة إعادة التأكيد على سمات ابن اخته. وكان خير الله الذي عُيّن حديثا كمحافظ لبغداد ينصح البكر دائما بقوله «صدام ابنك. اعتمد عليه. أنت تحتاج العائله لتحميك، وليس الجيش ولا الحزب. الجيوش والأحزاب تغير اتجاهها في هذا البلد».[١٠]

إن التحول الدراماتيكي لصدام من سجين مزمن إلى قائد ثوري في فترة سنتين فقط هو إنجاز متميز بكل المقاييس. بالدعم الأبوي للبكر وبجهاز أمنه الخاص العامل بأمرته، كان هناك مسار واحد فقط بالنسبة لمسيرة حياة التكريتي الشاب، وكان ذلك حتى النهاية. إنه برهان لكل من عمق طموح صدام والإحساس بقسوة القلب تجاه الهدف الذي نجح به في التغلب على المساوئ الكبيرة لولادته والخلفية الاجتماعية من أجل الوصول إلى ذروة السلطة الثورية الحاكمة في العراق في مثل ذلك العمر الغض. لم يكن المنفذون الأساسيون الآخرون الذين برزوا في انقلابات ١٩٦٨ يتامى، أو فلاحين فقراء بلا توجيه رسمي. ومنذ انتقاله إلى بغداد مع خاله خير الله في منتصف الخمسينيات فإن المؤهلات الوحيدة التي اكتسبها صدام كانت في الألاعيب المشبوهة للنزعة العصاباتية والحياة السياسية. إن فكره الشخصي مثلما كان، قام على وطنية فطرية اقتربت من كره كل ما هو أجنبي، ذلك الشرط الذي شجعه خير الله كثيرا، والإدراك السليم إلى أن النجاح السياسي في العراق تحدد ببساطة باكتساب واستبقاء السلطة المطلقة، بأية وسائل كانت.

وقبل سجنه في عام ١٩٦٤ اكتسب صدام مكانة مهمة في حزب البعث، وثّقت منصبه في القيادة القطرية في عام ١٩٦٤ نتيجة للحماسة التي أبداها لاضطهاد الشيوعيين العراقيين. إن انهيار حزب البعث بسبب شجار داخلي تافه جاء لفائدة صدام في أواخر عام ١٩٦٣ وأوائل عام ١٩٦٤، وتضافرت الظروف لتتحرك في صالحه أثناء فترة سجنة وبعدها. ومن الناحية السياسية فإن التطور الأكثر أهمية كان في تدهور العلاقات بين الحزبين العراقي والسوري والتي طوّح بها الانقلاب العسكري الذي وقع في فبراير (شباط) ١٩٦٦ عندما تسلم زمام السلطة الجناح الماركسي (اليساري) في البعث السوري في دمشق وتم اعتقال ميشيل عفلق والبعثيين السوريين التقليديين وحل

القيادة القومية للحزب والتي أشرفت فنيا على السيطرة على البعثيين في العالم العربي بما في ذلك العراق. وليس نجاح الماركسيين في دمشق هو الذي أثار المخاوف من انتعاش الشيوعيين في بغداد فحسب، بل إن الحكومة السورية الجديدة أوضحت بجلاء بأنها عازمة على فرض السيطرة على السياسة البعثية، ومعنى ذلك التحرك أن جميع البعثيين العراقيين سيوضعون تحت السيطرة السورية.

إن فكرة أخذ الأوامر من البعثيين السوريين كانت مرفوضة وبشدة من جانب القوميين العراقيين كالبكر وصدام، وبعد وقت قصير من هروبه من السجن نظم صدام ما يسمى بالمؤتمر القطري الاستثنائي الذي عقد في بغداد في سبتمبر (أيلول) ١٩٦٦ واعتبر ذلك المؤتمر كحدث حاسم في تاريخ البعث في الوقت الذي انفصل به البعثيون العراقيون وبشكل نهائي عن نظرائهم السوريين وذلك الصدع الذي أصاب العلاقات المتوترة التي بين شقّي الحزب المتنازعين والحاكمين في كل من بغداد ودمشق. وقرر ذلك المؤتمر التخلي عن نظام القيادة الموحدة، الذي استقر في دمشق، وذلك بتأسيس قيادات قطرية في البلدان الأعضاء المختلفة. واستبدل ذلك النظام بقيادتين قوميتين متخاصمتين في سوريا والعراق حيث ادعت كل منهما بأن تكون وارثة للحزب الأصلي وزعمتا أيضا قيادتهما للبعثيين في العالم العربي. وزيادة في تأثير ذلك الانشقاق الأولي تبعه البعثيون في العراق في شهر فبراير (شباط) ١٩٦٨ بالإصرار على سيادة قيادتهم القومية الخاصة، فنصب البكر أمينا للسر وعمل صدام نائبا له.

وفضلا عن لعبه للدور الأساسي لتسهيل مهمة إقامة حزب البعث منفصلا في العراق، قضى صدام، وبمساعدة البكر مرة أخرى، السنتين اللتين قادتا إلى الانقلاب ١٩٦٨ مساهما في إعادة بناء الحزب بعد نكبات ١٩٦٣ وفي تطهيره من اليساريين المتبقين. وقد أكمل تشكيل وتنظيم جهاز حنين ميليشيا النازية الجديدة في الحزب. وذلك التنظيم نفسه كان من بنات أفكار عبد الكريم الشيخلي، وبالرغم من أن الشيخلي نفسه كان شخصية فكرية ومثقفة، وكان يجادل في موضوع خلق جناح شبه عسكري إلا أنه كان على قناعة تامة بترك الإدارة لصدام بين عشية وضحاها. إن التنظيم شبه العسكري، تحت قيادة صدام، وصل إلى تكوين خلايا منفردة من عمال الحزب الملتزمين والموثوق بهم، وكل خلية تعمل في معزل عن الخلايا الأخرى. إن الكثير من الذين جنّدهم صدام لإدارة خلايا جهاز حنين قد عملوا معه في حجرات التعذيب في قصر النهاية في عام ١٩٦٣ والدليل على كيفية تشكيل البعث تحت قيادة صدام يمكن أخذه من الواقع حيث إن إخوة صدام غير الأشقاء - برزان، سبعاوي ووطبان -

اجتازوا جميعهم معسكراته التدريبية وتعلموا مهارات إطلاق النار والبنادق الآلية ومهارات خطف الخصوم. والرئيس الآخر لجهاز حنين كان سعدون شاكر صديق صدام الذي قاد السيارة التي أقلت صدام ورفاقه بعد هروبهم من السجن. وأصبح البعث بقيادة البكر وصدام مؤسسة عائلية إلى درجة كبيرة، وكان الهدف الرئيس لصدام هو التأكيد في المرة التالية على أن البعثيين حاولوا الحصول على السلطة ولم يحققوا النجاح فحسب وإنما بقوا هناك.

وخلال الفترة التي كان فيها صدام منشغلا ببناء قاعدة الحكم التي قادته أخيرا إلى أن يصبح أحد أكثر الشخصيات قوة في حكومة البعث الجديدة، كان وما زال فردا قلقا اجتماعيا يسيطر عليه الخجل على الدوام لما يتطلب الأمر اختلاطه مع مجايليه من البعثيين. وبالرغم من أنه كان طويل القامة وقوي البنية، إلاّ أنّه احتفظ بنبرته الفلاحية القوية ولهجته العربية الخشنة، وهذا ما جعله يشعر بأنه يلفت أنظار مجايليه الأكثر تهذيبا في بغداد. ورفاقه البعثيون الذين عرفوه في ذلك الوقت يذكرون في مناسبات قليلة بأن صدام صنع له مظهرا شعبيا، ولم يكن يتحدث كثيرا وإذا فعل فإن معظم حديثه كان مقتصرا على إدانة الأعمال الشريرة للشيوعية. وزوجته ساجدة، التي حملت بعد فترة قصيرة بقصي، الابن الثاني لصدام، بعد إطلاق سراحه من السجن، كانت ترافقه بشكل اعتيادي في مثل تلك المهام. بيد أنّ ساجدة كانت على الأعم زوجة مهمَلة تُركت في البيت لرعاية ولدها الصغير بينما كان زوجها يكرّس جلّ وقته لتعزيز مسيرته. ولوقت طويل بقيت ساجدة مع الرضيع عدي في بيت خير الله. وخلال الفترة التي أعقبت هروبه من السجن مباشرة كان صدام يختفي في بيوت الأصدقاء، مثل عبد الكريم الشيخلي، أو بعض الناشطين في حزب البعث. وحتى عندما أصبح الوضع آمناً بالنسبة له لكي يخرج من مخبئه، فإنه بقي متنقلا بين بيوت مختلفة ليحمي نفسه من هجومات انتقامية. وكان يواصل تلك السياسة لمدة طويلة حتى بعد أن أصبح رئيسا. وخلال حرب الخليج في عام ١٩٩١، مثلا، قيل بأنه كان يبقى في كل ليلة في موقع مختلف طوال أيام الحرب. وكموظف يكرّس جلّ وقته للبعث، كان صدام يستلم راتبا متواضعا بلغ خمسة عشر دينارا في كل شهر (حوالي خمسون دولارا تقريبا)، يدفع منها خمسة دنانير كبدل اشتراك شهري كان يطلب من جميع أعضاء حزب البعث التبرع به. وأعطي سيارة قديمة من نوع فولكس واغن بيتل، التي سرقت من الشيوعيين في عام ١٩٦٣، والتي كان يدير بها أعمال البعث الرسمية. وفيما بعد تدرج ليحصل على سيارة مرسيدس تم الحصول عليها بذات الوسائل.

وفي الأشهر القليلة الأولى بعد هروبه بقي صدام في الوكر. ومع ذلك كانت هناك شكوك بأن الحكومة كانت إلى حد ما مشتركة في تحريره من السجن، كان بحاجة إلى الاحتفاظ بلمحة جانبية بسيطة. ومع ذلك، أُسقطت تماما في الخريف التهم الموجهة ضده وأصبح قادرا على استلام دوره البارز ووصل ببعض الناشطين في حزب البعث أن يعتبروه «الابن الثاني» للبكر. والقليل منهم كان يكن احتراما كبيرا لصدام، الذي لم يزل يلومه البعض على الأعمال الإرهابية المتطرفة التي نفذها باسم البعث ضد الشيوعيين في عام ١٩٦٣ بيد أن البكر الذي كان يقود مجموعة متنفذة من الضباط اعتبر أفضل فرصة بالنسبة للحزب لكي يستلم السلطة، خصوصا بعد الحادث الغامض لتحطم طائرة الهليكوبتر التي قُتل فيها الرئيس عبد السلام عارف في نيسان (أبريل) في عام ١٩٦٦ نال عبد السلام عارف الاحترام، بينما كان أخوه، الذي حلّ محله، لا يمتلك سلطة طبيعية، مما أدى إلى فراغ السلطة الهشة بعد فترة قصيرة. «نحن آمنا بأنّ البكر كان أفضل فرصة لنا لاستلام العراق على طبق من ذهب»، علّق أحد المجايلين المباشرين لصدام في ذلك العهد. «لأننا ساندنا البكر، لم نستفسر عن علاقته بصدام».(١١)

وفضلا عن تمتعه بشهوة العنف، كان مجايلوه البعثيون ينظرون إليه بعين الريبة بسبب المدة الزمنية القصيرة نسبيا التي قضاها في السجن. وبخصوص المشاهد الوحشية التي رافقت انقلابات ١٩٥٨ و١٩٦٣، كان الرئيس عبد السلام عارف يؤمن بشدة بالتقاء العنف بالعنف، والبعثيون المجتمعون في ١٩٦٤ للتآمر من أجل إسقاطه عوملوا معاملة قاسية. وأقل ما كانوا يتوقعونه هو أن تربط أذرعهم خلف ظهورهم بقوة، وأن يضربوا ضربا مبرّحا بخرطوم مطاطي أسود سميك على أجسادهم وعلى باطن أقدامهم. وآخرون جُرّت أجسادهم حول السجن حيث ربطوا إلى مؤخرات شاحنات عسكرية، ومورس الكثير من التعذيب المؤلم بحق السجناء، كما في حالة عبد الكريم الشيخلي، حيث دقوا المسامير في ظهورهم. ولكن بالرغم من اشتراكه الموّثق جيدا في سياسات حزب البعث وانقلاب عام ١٩٦٤ لإسقاط عارف، لم يعانِ صدام من سوء المعاملة خلال فترة حبسه.

ومن الطبيعي أن تثير المعاملة الطيبة نسبيا التي تلقّاها صدام من السلطات، الشكوك حول أين تكمن ولاءاته الحقيقية. وكما كان موّضحا مسبقا، فإن صدام الذي استخدم قوائم جهزتها له وكالة الاستخبارات المركزية، كان منهمكا والى حد كبير بمطاردة الشيوعيين وتصفيتهم خلال حملات التطهير في عام ١٩٦٣ ومن المحتمل أن

يكون في تلك الفترة قد قام باتصالات مع شخصيات عالية المستوى في حكومة عارف. لم يكن صدام منظّراً، وكان يميل دائما إلى متابعة أولئك الذين وضعوا بشكل أفضل لتطوير موقعه الخاص. وربما كان صدام يقدم معلومات عن رفاقه في حزب البعث إلى حكومة عارف.(١٢) وبالتعاقب ربما كان صدام يعمل كعميل أما للحكومة البريطانية أو الحكومة الأمريكية (ومن المحتمل أن تكون وكالة الاستخبارات المركزية هي المشتبه بها كثيرا بإعطاء ما تعرفه عن علاقات صدام مع السفارة الأمريكية في القاهرة). ومن المؤكد أن العديد من معاصريه كانوا يعتقدون بأنه لا بد أن تكون هناك قوة أجنبية تدخلت نيابة عنه خلال فترة حبسه. وأثيرت الشكوك أكثر حول ولاء صدام، عندما قام بالاتصال بعد هروبه، بروبرت أندرسون، ضابط الاستخبارات المركزية الذي قام برحلات متكررة إلى بغداد لمراقبة جهود السوفيت في السيطرة على احتياجات النفط العراقي. واحتفظ أندرسون بمثل تلك الصور الجانبية أثناء زياراته، التي أثار فيها، في واقع الأمر، التظاهرات في بغداد، بحشودها التي كانت تهتف «عد إلى وطنك يا أندرسون». إن رجل الاستخبارات المركزية CIA، الذي كان حريصا على أن يرى حكومة تقام في بغداد تعمل بموازاة النظام الماركسي الجديد الذي أقيم حديثا في دمشق، ساعد في كتابة كرّاسات يوزّعها رجال صدام في التنظيم شبه العسكري. إنّ النظام الدقيق لعلاقات صدام مع أندرسون ليس معروفا، بيد أنّ الشكوك حول ولاءاته الحقيقية في تلك الفترة كانت معقدة للغاية، إذ إنّ صدام هو، في الحقيقة، كاتب المذكرة التي أرسلت إلى القنصلية البريطانية في مدينة البصرة ميناء العراق في الجنوب يطلب فيها مساعدتهم على إسقاط عارف.

وعلاوة على تنفيذ واجبات البعث، قرر صدام أن ينهي تعليمه فسجل في كلية القانون–جامعة بغداد. وفي الوقت الذي سجل في صدام في الدورة الدراسية للقانون، في سبتمبر (أيلول) ١٩٦٦ لم تطلب الجامعة درجات المدرسة الثانوية العالية، إذ إن مجرّد إكمال الدراسة الثانوية كان مؤهلا كافيا. والمؤهل الرسمي الوحيد الذي حصل عليه صدام فعلاً كان شهادة المدرسة الثانوية التي حصل عليها جميع البعثيون المنفيين في القاهرة، غير أن صدام لم يُبرز هذا في بغداد وبسرعة ميّز صدام نفسه كطالب نموذجي ليس إلا ومع أنه خجل اجتماعيا إلا أنه كان يأتي كثيراً إلى الحرم الجامعي الساخن سياسياً إضافة إلى أن وجوده الفعلي كان معادلا لشخصيته القيادية. «مقارنة مع الطلبة الآخرين كان سياسيا غير مسالم وصلباً» كما ذكر أحد الطلبة السابقين. «كان طافحاً بالعدوانية». وفضلاً عن آرائه المتطرفة فإن صدام وقف موقفا بارزا من الطلاب

الآخرين لأنه على الأعم كان يرافقه من أربعة إلى خمسة من «الحراس الشخصيين»، أعضاء في جهاز حنين وكان دائما مسلحاً بمسدس. «وأعطى صدام انطباعا عن القوة الجسدية الكبيرة لأنه كان دائما محاطا بمجموعة من البلطجيين. كان صدام يأتي إلى مطعم صغير في المدرسة الطبية، أحد أماكنه المفضلة محاطا بحرسه. هؤلاء الأجلاف كانوا بلطجيين حقاً أُعدوا كمصارعين. ليس هناك أي طالب من الطلاب الآخرين أبداً من يشعر بالرغبة في مجادلة صدام، وبالرغم من ذلك فإننا كنا لا نوافق على سياساته. إنه البعثي الوحيد الذي كان يتصرف بمثل ذلك في الحرم الجامعي».[١٤]

كان الطلاب الآخرون يطلقون على مجموعة حراس صدام اسم «الصِداميين» وفضلا عن حمايتهم لقائدهم لما كان يقوم بمغامرة في الحرم الجامعي، كانوا يقضون معظم وقتهم في ترويع أي شخص لم يشترك في جدول أعمال جناح البكر البعثي اليميني. وفي معظم المجالات لم يكن «الصِداميون» مختلفين عن أصحاب القمصان السمر النازيين ويقينا أنهم اشتركوا معهم في كراهية الشيوعية واليساريين. وقد وظف صدام «الصِداميين» لترويع وإرهاب أي شخص لا يؤمن بفلسفته. كانوا يقتحمون بيوت اليساريين ويقومون بسرقتها. وفي مناسبات أخرى كانوا يرّشون تلك البيوت بوابل من نيران أسلحتهم. وهناك مثال قديم على طريقة عملهم توفر في خريف ١٩٦٧ عندما ظهر صدام في مقهى في بغداد كان يرتاده البعثيون الشباب. دون الوقوف للسلام على معارفه، أعلن صدام نفسه لجميع أولئك الذين كانوا يصغون باهتمام بأنه قتل تواً بعثيا يساريا يدعى حسين هزبر على جسر الجادرية في وسط بغداد. فقد قال صدام متفاخراً: «ضربته على رأسه بمسدسي حتى لم يعد يتحرك أبداً. لن تروه مرة أخرى».[١٥] وعكس توقعات صدام كان البعثيون الآخرون المجتمعون في مقهى البلدية في وسط بغداد قد أفزعهم ذلك الكشف فاحتجوا بشدة بأن تلك ليست الطريقة التي تُحسم بها الخلافات في وجهات النظر داخل حزب البعث. ضحك صدام وغادر المقهى يرافقه حراسه الشخصيون. البعثيون المتبقون في المقهى أسرعوا نحو المستشفى المحلي حيث علموا بأن هزبر الذي أصيب بإصابات خطيرة قد تمت معالجته. ذراعاه مكسورتان وهناك كسر في جمجمته لكنه بالرغم من شدة إصاباته بقي على قيد الحياة. وعلى قدر المستطاع أراحه البعثيون الشباب وأعلموه بأنهم مقتوا تكتيكات صدام. «حاولنا أن نترك لديه انطباعا بأننا لا نعتقد بأن الحزب يسعى إلى ذلك» قال أحد الحاضرين. «بعد الذي مرّ به أصبح من الصعب أن نجعله يدرك بأنه ليس كل عضو في حزب البعث مجنوناً يسعى إلى القتل».[١٦]

وتكتيكات صدام البلطجي كانت من أجل أن يلعب دوراً حاسما في التحشيد لانقلاب ١٩٦٨ وبلا شك فإن الانقلاب نفسه كان له أصول في الصخب الذي عمّ العالم العربي إثر انتصار إسرائيل المدوّي في حرب الأيام الستة في حزيران ١٩٦٧ وكانت القوة العراقية المرسلة خارج الوطن والمرابطة في الأردن للاشتراك في الاجتياح العربي الموحّد لإسرائيل مسيّرة تماما حيث إنها لم تطلق إطلاقة واحدة بغضب. ولقد جرح نصر إسرائيل العالم العربي، ليس أقل ما يكون لأنه وجّه ضربة مدمرة إلى ادعاء الرئيس المحارب ناصر بأن الهجوم العربي الموّحد سيكون كافيا لتدمير «الكيان الصهيوني»، وهذا تهوين في الكلام أشار به إلى إسرائيل. وناصر نفسه لم يصحُ من صدمة الهزيمة، ومات محطّما عام ١٩٧٠ وأثارت الهزيمة في كافة أنحاء العالم العربي فيضا من العداء تجاه الحكومات العربية التي تتحمل مسؤولية النكبة التي تركت الإسرائيليين يسيطرون على الضفة الغربية، غزة، مرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء. وفي بغداد وُجّه غضب الشعب العراقي إلى الرئيس عبد الرحمن عارف.

إنَّ هزيمة حرب الأيام الستة كانت فرصة يبحث عنها البعثيون للتحريض على تغيير الحكم، ومنذ خريف ١٩٦٧ بدأ البكر، بمساعدة صدام، في تطوير خطة عمل موحّدة أدت إلى انقلاب ١٩٦٨ وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٩٦٧ والأولى من عام ١٩٦٨ ، كان البعث مشتركا في سلسلة من الإضرابات والتظاهرات التي أدانت فساد النظام وعدم كفاءته ونادت بتغييره. ولعب صدام نفسه دورا بارزا في الإضرابات، خصوصا تلك التي وقعت في حرم جامعة بغداد. وفي أحد الإضرابات الأولى، والذي دعت إليه أحزاب معارضة أخرى غير البعثيين، وبدافع شرير، عمل صدام على تعطيل الإضراب بدلا من أن يكون منفّذا. كان على أي حزب يريد النجاح في العراق أن يتظاهر ليكون جديرا بثقة الشارع، ولذلك وعندما دعت أحزاب المعارضة الرئيسة إلى إضراب شعبي واسع في أواخر ١٩٦٧ ، احتجاجا على الحكومة، قرر البعثيون معارضته. ومنحهم ذلك الفرصة لإظهار قوتهم التنظيمية، حيث قاموا بإرجاع المتظاهرين إلى عملهم. وصدام، الذي يدعمه «الصِداميون»، كان ملائما تماما لمثل تلك المهمة وركّز طاقاته على إجبار الطلبة المضربين في جامعة بغداد على العودة إلى صفوفهم الدراسية. «وصل صدام إلى الحرم الجامعي، أخذ يطلق نيران بندقيته في الهواء لتخويف الطلبة وإرعابهم»، كما استذكر أحد المعاصرين له في الجامعة. «أخذ يدور على الطلبة برفقة الصِداميين ليجبروا الطلبة على الرجوع إلى صفوفهم لاستئناف دراستهم. نفّذت الخطة ببراعة وأُنهي إضراب الجامعة بسرعة».(١٧)

وبمثل تلك التكتيكات أسس البعث نفسه بسرعة كحزب رئيس في المعارضة. وفي استعراض مهاراتهم التنظيمية في إنهاء الإضراب، عزم البعثيون على إظهار قوتهم السياسية بتنظيم إضراباتهم وتظاهراتهم. وكانت الأشهر الأولى من عام ١٩٦٨ فترة عدم استقرار سياسي واسع في بغداد حيث كانت السلطة العارفية تكافح بيأس لتمسك بزمام الحكم. وفي شهر أبريل (نيسان) ١٩٦٨ سلّم ثلاثة عشر ضابطا متقاعدا، خمسة منهم كانوا بعثيين، مذكرة إلى عارف يطالبون فيها إزاحة رئيس الوزراء، طاهر يحيى، ومؤسسة المجلس التشريعي، وتشكيل حكومة جديدة. وذلك دليل على ضعف حكومة عارف في ذلك الوقت، فبدلا من أن تصبح حذرة تجاه الثقة المتنامية للبعثيين، فإنها لم تفعل شيئا في إيقاف نشاطاتهم بل أبدت اللين في محاولة لتلبية مطالبهم. حتى أن طاهر يحيى قام بعدة اجتماعات سرية مع البعثيين ليرى ما إذا كانت الحكومة قادرة على أن تصل إلى تسامح سياسي معهم. وبمبادرة يحيى حضر البكر وقيادة البعث، التي كانت تنظيما محظورا من الناحية العملية، للاجتماعات الاعتيادية في القصر الجمهوري بين ١٩٦٦ و١٩٦٨ ليناقش مع الرئيس إمكانية تشكيل حكومة للوحدة الوطنية.(١٨) وبوجود الحكومة العراقية في موقف دفاعي، كان الأمر بكل بساطة مسألة وقت قبيل سيطرة البكر ورفاقه على السلطة. وفي الحقيقة، كان من المؤمّل أن يقع الانقلاب فعلا في صيف ١٩٦٧، غير أن حرب الأيام الستة المفاجئة حالت دون ذلك.

وفي خضم كل ذلك الهيجان السياسي كان صدام يعمل بصلابة لتعزيز موقعه في حزب البعث. وصدام الذي أسس لنفسه بشكل جيد في سلطة البعث العراقي، حاول أن يرشح نفسه إلى القيادة القومية في قمة خاصة عقدت في بيروت في ديسمبر ١٩٦٧، للمؤتمر القومي التاسع لحزب البعث، والذي عقد ظاهريا لحسم خلافات الحزب، خاصة مابين جناح اليسار السوري وجناح اليمين العراقي. ومع ذلك فإن محاولة صدام، هذه المرة، في تعزيز سيرته الحزبية باءت بالفشل المهين. وصدام نفسه لم يكن قادرا على حضور الاجتماع، غير أنّ صديقه الطيّب عبد الكريم الشيخلي كان حاضرا وقدم اسم صدام لإدراجه في الهيئة القيادية الجديدة. بيد أنّ سمعة صدام سبقته، دون أدنى شك بسبب الدور الذي لعبه في السنة السابقة بمساعدة البكر على إعادة انتخاب حزب البعث العراقي. ولم يرفض الموفدون للمؤتمر ترشيحه فحسب، بل حتى لم يسمحوا بأن يدرج اسمه في قائمة الانتخاب. وقال أحد الحاضرين في اجتماع بيروت بأن السبب الرئيس لرفض صدام هو أنهّ كان غير محبوب داخل البعث

ولا يمتلك أية مصداقية. «هو رجل بلطجي. وكان كثيرا ما يشكّ بعلاقاته مع قوى أجنبية. لا يملك دائرة انتخابية داخل الحزب ما عدا صداقته مع البكر. ليس هناك أحد يعطيه صوته الانتخابي. واعتقد الشيخلي بأنه أسدى خدمة كبيرة لصدام بتقديم اسمه، ولكن كلّ ما قام به كان إذلالا له».[١٩] ويقينا أنّ ذلك الرفض كان ضربة هائلة لكبرياء صدام، ضربة لم ينساها أبدا. وأُضيف ذلك إلى قائمة أولئك الذين يضمر لهم صدام ضغينة مدى الحياة، وحتى ذلك الوقت كانت القائمة تضم جميع أولئك الذين عاملوه باستعلاء داخل السجن لأنّه غير متعلم وليس لديه مكانة اجتماعية، وجميعهم كانوا من البعثيين الذين سعوا للحدّ من طموحه السياسي.

في صيف ١٩٦٨ كان الزخم يتحرك في صالح البعثيين، وظهرت شعبيتهم المتنامية في سباق الرالي الذي أقيم في وسط بغداد في حزيران (يونيو) في المناسبة الأولى لحرب الأيام الستة. وتلك، علينا أن نتذكر، كانت نفس السنة التي قامت فيها المظاهرات الثورية في ساحات جامعات أوروبا وأمريكا، الوقت الذي كان يعتقد فيه حقا بفرصة الثورة الشبابية لتغيير العالم. وفي بغداد كان على الثوريين أن ينجحوا. وبمناسبة إحدى التظاهرات وضعت منصّة مؤقتة في شارع الرشيد، وخاطب البكر حشد المتظاهرين وكان يرافقه كل من صدام والشيخلي وخمسة من ضباط الجيش المتقاعدين. وانصبّ خطاب البكر على انتقاد الأنظمة العربية لضعفها وفشلها في مواجهة إسرائيل، واتهم العديد منها بأنها مخترقة فعلا من جواسيس إسرائيل، وذلك زعم ينذر بالوعيد نظرا للاضطهاد الذي مورس ضد اليهود والذي وقع عندما وصل البكر بأمان إلى القصر الجمهوري. وقد قوبل الخطاب باستقبال جيد وحتى قادة الشرطة الذين جاؤوا لحفظ النظام، قدموا إلى المنصة وصفقوا للبكر علنا. ولم يكن العرض الشعبي لدعم البعث غير مفهوم من قادة البلد العسكريين الذين، ومنذ الإطاحة بالنظام الملكي في ١٩٥٨، يمتلكون السيطرة الكاملة على من يدير البلد. وبدأ الإدراك يتضح لهم، فإما أن يسيروا خلف البعثيين، أو يجدوا أنفسهم متخلفين عن الثورة القادمة حتما.

واعتقد أياد علاّوي، الذي كان طالبا شابا يدرس الطب ومسؤولا عن إحدى خلايا حزب البعث في بغداد، بأن قرار القادة العسكريين الأساسيين لدعم الانقلاب كان العامل الحاسم في مرور الثورة بسلام. «كان لدينا قادة الحرس الجمهوري والاستخبارات العسكرية الذين كانوا يدعموننا، إضافة إلى قادة الوحدات الرئيسة في بغداد وحولها. وكان على الأقل ٢٥٪ من سلك الضباط أعضاء في حزب البعث، وان

دعمهم كان يعني بأن محاولة الانقلاب، عندما تأتي، فإنّها تنفّذ كآلية الساعة بانتظام». وكان علاّوي مسؤولا عن واحدة من الخلايا الثلاث التي نفذت الانقلاب في صبيحة السابع عشر من تموز (يوليو). وإحدى الخلايا تتكوّن من الحرس الجمهوري، وتضم أيضا بعض البعثيين، بمن فيهم صدام، وكانت مسؤولة عن الاستيلاء على القصر الجمهوري، بينما الأخرى يقودها اللواء المدرع العاشر للسيطرة على وسط بغداد. والمجموعة الثالثة كانت مهمتها السيطرة على محطات الإذاعة والتلفزيون ومعابر الجسور الرئيسة في بغداد. «السبب هو اعتراض صغير جدا بأنّ الجميع تقريبا علموا بأن الثورة ستحدث، بكل بساطة كانت مسألة وقت».[٢٠]

في الصباح الذي تلا الانقلاب التقى أياد علاّوي بصدام، الذي كان في طريقه للتحدث في الإذاعة وكان مفعماً بالإثارة. «في تفهم طبيعة الحوادث بعد وقوعها كنا جميعا نستهين بصدام»، قال علاّوي، الذي كان يرأس لجنة الطلبة في حزب البعث. «كنا نعتقد بأن صدام هو الحلقة الأضعف في القيادة وبأنه سيوضع جانبا على الفور. في الواقع لم يكن أيّ منا قد أخذ الحشد التكريتي على محمل الجد. الأفضلية كانت لدينا هي بناء العراق الديمقراطي الحديث. لم يخطر على بالي في تلك المرحلة بأن صدام سيلعب دورا حاسما في العراق. ثمة مرشحين أفضل منه بكثير كانت لديهم الخبرة في السياسة والحكم». هكذا كان المناخ العام للابتهاج المثالي في أوساط البعثيين الشباب الذين لم يعترضوا عندما اقترح البكر تنفيذ «انتفاضة ٣٠ تموز» لإزاحة النايف. وحسب ما ذكره علاّوي عن الأحداث بأن «الانقلاب التصحيحي» كان من بنات أفكار البكر، ومع ذلك فإنّ المقترح قد حظي بموافقة واسعة في الحزب. وأصرّ علاوي على أن «البكر هو العقل المدبر لتلك القضية تماما». وأضاف «أنّه أحب أن يقدم نفسه كرجل محترم ومعتدل. لكنّه في الواقع كان ذا وجهين. كان متآمرا من الدرجة الأولى». وبالنسبة للبعثيين كان التنسيق مع النايف والضباط العسكريين الآخرين من غير البعثيين هو زواج المصلحة المتبادلة، والآن قد حان أوان الطلاق. والمثل العراقي القديم يقول من الأفضل أن تتغدى بعدوك قبل أن يتعشى بك». وقال علاّوي بأنّ هناك سبباً آخر هو أنّ البعثيين كانوا حريصين على إبعاد أنفسهم عن النايف «على العموم كان يعتقد بأنّ النايف كان يعمل مع قوى غربية، وعليه إذا أردنا أن نحظى باحترام الشعب العراقي، عليه أن يرحل».

وكان الشغل الشاغل بوكالة الاستخبارات المركزية و(الأجانب) كاليهود إحدى السمات الرئيسة المميزة لنظام البعث بعد «الانقلاب التصحيحي» في الثلاثين من تموز

الذي ثبّت قاعدة سلطة البكر ورفاقه التكريتيين. وكان ذلك التطور قد أفزع الشباب البعثيين المثاليين من أمثال علاوي الذين دعموا ثورة تموز بسذاجة معتقدين بأنهم سيحوّلون العراق إلى بلد حديث. «كان حزب البعث قبل الانقلاب لا يريد أن يفعل شيئا بالعنف» أكد علاّوي الذي أصبح فيما بعد رئيسا لإحدى مجموعات المعارضة الرئيسة، الوفاق الوطني العراقي. «العنف الوحيد الذي كنا نتأمله هو الحرب في مرحلةٍ ما ضد الإسرائيليين». غير أن النخبة الحاكمة الجديدة التي أصبح صدام عضوا فاعلا فيها كانت لديها أفكار أخرى، وبمساعدة صدام فإن المثل العليا التي ألهمت انقلابيي تموز أفسدها العنف وإراقة الدماء».[٢١]

وكان هناك شك بتورط صدام بجريمة القتل الوحيدة التي حدثت في السابع عشر من تموز يوم الانقلاب الأصلي. وبعد أربعة شهور أخرى أصبح متورطا بجريمة اغتيال أخرى، وفي هذه المرة قتل ناصر الحاني الذي عمل لفترة قصيرة وزيرا للخارجية في حكومة النايف في صيف ١٩٦٨ وكان الحاني دبلوماسيا محترفا من دون أي توجُّه سياسي محدَّد. وبعد إزاحته عن منصبه واستبداله بعبد الكريم الشيخلي الرفيق المخضرم لصدام، أصبح الحاني يكيل بانتقاداته اللاذعة والصاخبة للحكومة الجديدة حيث كان يشعر بأنها لم تحترم الوعود التي على أساسها جاءت إلى الحكم. ومثل النايف كان يُشتبه بعلاقاته المقربة من وكالة الاستخبارات المركزية التي كانت في النهاية حريصة على التأكيد أن الحكومة العراقية الجديدة، وبغض النظر عن سياستها وشخصياتها فإنها لم تقع تحت النفوذ السوفيتي. فالعراقيون يشكّون كثيرا في أي سياسي له علاقات مع الأجانب، وإذا كان الحاني مرتبطا بعلاقات مع وكالة الاستخبارات المركزية فإنه قد يكون في موقع جيد لتسليط الأضواء على تعاملات صدام الخاصة مع الأمريكان في كل من إقامته في القاهرة وبعد ذلك. ومهما كانت دوافعه فإن صدام كان مصمما على أن يتخلص بنفسه من الحاني ولذلك وفي ليلة العاشر من نوفمبر (تشرين الثاني) خطفت عصابة مسلحة الحاني من بيته وطعنوه مرارا حتى هلك.

«إن العصابة التي ارتكبت جريمة الاغتيال هي ذات العصابةالتي كان يديرها صدام حسين نفسه»، قال علاّوي الذي تعرض نفسه لعدة محاولات لاغتياله على يد أتباع صدام. «وكان حزب البعث مستاءً لجريمة اغتيال هذا الرجل. نحن كنا نسعى لبناء وطن جديد، وليس العودة إلى عنف الماضي. ولكن بوجود أناس مثل صدام في المسؤولية، فمن الواضح أن ذلك لن يتحقق.[٢٢] وبالرغم من أن صدام لم يحاكم أبدا

عن جريمة، ولكن مما اتفق عليه عموما في بغداد بأنه كان مسؤولا عن ذلك، وقد أمر بقتل الحاني «لأنه كان يعرف الكثير». إن الإنكار الشخصي لصدام في تورطه في جريمة القتل كان غير مقنع على نحو استثنائي. وعند الاعتراض على الاغتيال كان جوابه مجرد تعبير بلاغي «من هو ناصر الحاني وما هو الخطر الذي شكله على النظام والحزب؟ إنه ليس سياسيا ولا منافسا لنا. لماذا يجب علينا أن نقتله؟»[٢٣] ومهما كان سبب القتل، فإن قمع صدام حسين العنيف لأي شخص وقف في سبيله كان يضع تدريجيا أسسا لعهد الإرهاب الذي أصبح العلامة المميزة للحكم العراقي الجديد.

الفصل الرابع

المنتقم

ولما كانت الشهرة عملا جسورا، فإن الإعدام العلني لأربعة عشر جاسوسا تصعب منافسته. ففي صبيحة السابع والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٦٩، اليوم الذي وقعت فيه تلك الإعدامات انسحبت الشرطة من وسط بغداد، تاركة المكان تحت سيطرة عصابات الناشطين في حزب البعث. وبتوجيه من مسؤولين _مفضّلين في البعث، قامت مجموعات من المتطوعين بنصب المشانق حول ساحة التحرير. وتسعة من المتهمين يهود عراقيون، وكانت محاكمتهم التي اتهموا فيها بالتجسس لصالح إسرائيل، أكثر إثارة في تاريخ العراق. ونتيجة لذلك كانت الحكومة تتوقع أن تحضر حشود ضخمة لمشاهدة تلك الإعدامات، وأنهم كانوا يريدون التأكد من أن يرى كل واحد من الجمهور المشهد بصورة جيدة. وأعلن ذلك اليوم عطلة وطنية، وساهمت الحكومة في تنظيم النقل لما يقدر بمائة ألف (من العمال والفلاحين) الذين تم نقلهم بحافلات إلى موقع الحدث. وفي الوقت الذي اقتيد المتهمون لملاقاة مصيرهم عم المدينة جو شبيه بالكرنفال تقريبا. وفي ساحة التحرير نفسها انتشرت عوائل بأكملها على أحواض الأزهار للتنزه. وبالنسبة لأولئك الذين لم يتمكنوا من الحضور، فقد تم نقل وقائع الحدث نقلا حيا عبر الإذاعة والتلفزيون. وبمجرد أن كانت الإعدامات على وشك الشروع، كان الرئيس البكر ونائبه البارع صدام حسين، يطوفان حول ساحة التحرير في سيارة ليموزين مفتوحة من الأعلى للترحيب بالطلبة البعثيين الذين اصطفوا في الشوارع.

واستمرت تلك القضية الرهيبة لمدة أربعة وعشرين ساعة. وبعد تنفيذ الإعدامات، تُركت الأجساد - بما فيها جسد ذلك الولد الذي كان عمره ستة عشر عاما - معلَّقة ليراها الجميع. وقد روى أحد شهود العيان الذي كان حاضرا في ساحة التحرير في يوم

الإعدامات كيف أنّ الحشد دفعه باتجاه الأجساد بعد أربع ساعات من وقوع الإعدامات. «تستطيع أن ترى رقابهم المنكسرة والممتدة بطول قدم تقريبا». والفيلم الذي صوّر الحادثة، والذي عرضه التلفزيون العراقي، أظهر جموعا من رجال الميليشيات المبتهجين والمؤيدين الذين يرقصون ويهتفون أمام آلات التصوير. وفي وقت آخر من اليوم اعتلى البكر المنصة وألقى خطابا عنيفا هاجم به الصهيونية والامبريالية أمام حشد مبتهج، وجثث «الجواسيس» الذين أُعدموا توا تتدلى خلفه. «سنضرب بقوة وبيد من حديد المستغلين والطابور الخامس، خدم الامبريالية والصهيونية». وخاطب قادة آخرون بارزون في حزب البعث الجمع، محرّضين جماهير الفلاحين المنذهلين على الهتاف، والبصاق ورمي الحجارة بهياج جنونيّ. وخير مثال هو اللهجة الخطابية التقريرية والحركات المسرحية المصطنعة التي أطلقها من المنصة صلاح عمر العلي، الذي رافق صدام بالدبابة نفسها التي اقتحمت القصر الجمهوري في انقلاب السابع عشر من تموز (يوليو) في السنة السابقة (انظر الفصل الثالث). وكانت الثورة جيدة بالنسبة للعلي، البعثي الذي أصبح وزير الإرشاد وعضوا في مجلس قيادة الثورة الذي أولي الثقة في المقاضاة الناجحة «لحلقة الجواسيس الإسرائيليين». وأشرف العلي شخصيا على التحقيقات وساهم في تنظيم المحاكمات الصورية. «يا شعب العراق العظيم! إنّ عراق اليوم لم يعد يحتمل أي خائن، أو جاسوس، أو عميل، أو من الطابور الخامس! يا إسرائيل اللقيطة، أيها الأمريكيون الامبرياليون، يا أيها الصهاينة اسمعوني! سنكتشف جميع حيلكم القذرة! سنعاقب عملاءكم! سنشنق جميع جواسيسكم، حتى لو كان هناك الآلاف منهم!.. أيها الشعب العراقي العظيم! تلك البداية فقط! ستمتلئ ساحات العراق العظيمة والخالدة بجثث الخونة والجواسيس! انتظروا فقط!»[1] كان تعليق صدام موجزا وفي صلب الموضوع. تم شنق الجواسيس «ليتعلم الشعب درسا».

إن محاكمة الإسرائيليين السيئة الصيت كانت صورة حية لما يمكن أن يوصف بستالينية العراق في أعقاب ثورة ١٩٦٨ فصدام قد تشرّب بالكراهية العميقة للشيوعية، بيد أنه وبلا شك يدين بدين كبير لستالين لتزويده بوسائل خلق وصيانة دولة الحزب الواحد. إن حزب البعث الذي تسلّم السلطة في عام ١٩٦٨ استند إلى النموذج الماركسي-اللينيني التقليدي في مفردات التنظيم والبناء وأساليبه، فالسلطة والنظام والسرية كانت صفاته الغالبة. وكما في روسيا السوفيتية، أصبح الحزب هو الحكومة. وكانت كل الترقيات تمر عبر صفوف الحزب، الذي يمتلك بناء هرميا. في القاعدة

كانت الخلية الفردية، أو وحدة المنطقة. وتلك يتم الإبلاغ عنها دوريا، من أجل الترقية بالأقدمية، إلى الفرقة، ثم الشعبة، وأخيرا الفرع، وكان عدد الفروع في عام ١٩٦٨ واحدا وعشرين فرعا (واحد لكل محافظة من ثماني عشرة محافظة في العراق وثلاثة فروع في بغداد). وكان على رأس الهرم مجلس قيادة الثورة، أعلى سلطة تنفيذية وتشريعية في الدولة. وطبقا للدستور الجديد الذي سنّه البعثيون في عام ١٩٧٠، أصبح مجلس قيادة الثورة (في الواقع هو الزمرة الحاكمة من البعثيين الذين ترأسوا القيادة القطرية) حيث كان صدام نائبا للرئيس، «السلطة العليا في الدولة». وكان مجلس قيادة الثورة مفوضا ومن جانب واحد لتشريع القوانين واللوائح، ولتعبئة الجيش، والموافقة على الميزانية، وتصديق المعاهدات، وإعلان الحرب، وصنع السلام. كذلك اضطلع مجلس قيادة الثورة بمسؤولية جميع الجوانب الخاصة بالأمن الوطني. ونصّ الدستور أيضا على أن مجلس قيادة الثورة يأتي بانتخاب ذاتي وإدامة ذاتية، فهو وحده يقدر أن يختار أو يعفي أعضاءه، وجميع الأعضاء الجدد يتم انتخابهم من أعضاء القيادة القطرية. وكان صدام متفردا من بين أعضاء حكومة البعث الجديدة بأنه لم يكن قد شق طريقه من خلال الآلية الحزبية، وأن صعوده إلى مركز الصدارة كان بدعم من البكر الذي عيّنه في مواقع مهمة في الحزب.

ومباشرة كان منصب البكر كرئيس لحكومة البعث الجديدة مضموناً. وكانت مهمة صدام هي أن يضمن أن حزب البعث ليس باقيا في السلطة فحسب، وإنما يكون الحزب الوحيد في العراق. وحتى بعد نجاحه في انقلاب ١٩٦٨ كان البعث حركة شعبية على الإطلاق، ومعظم التقديرات أشارت إلى أن إجمالي أعضاء الحزب في آخر عام ١٩٦٨ ليس أكثر من خمسة آلاف عضو. وتم إعطاء القاعدة الجغرافية والعشائرية الضيقة للقيادة، التي أخذت من عدد صغير من عوائل المسلمين السنّة المتمركزة حول تكريت، واحتمالية أن يصبح حزبا جماهيريا أصيلا كانت أمرا مستبعدا. وكان صدام يعي جيدا نواحي ضعف الحزب، وعندما أصبح الساعد الأيمن للبكر، أصبحت مهمته الشخصية في سحق أي عدو محتمل للحزب، وأي خصوم محتملين يهددون موقعه. ومعاصرو صدام في تلك الفترة ينسبون إليه عددا من أقوال مأثورة شبه ستالينية مثل «أعطني السلطة وسأعطيك حزبا قادرا على حكم تلك البلاد»، وعلى ما يظن أنه أخبر البكر بذلك بعد تنصيبه نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة بأكمله أو «السيد النائب» اللقب الذي كان يفضل أن يعرف به بامتيازه عن غيره. والعرض الأكثر أهمية في نظرة صدام الاستبدادية للنظام السياسي في العراق نص عليه أحد تصريحاته العامة الأولى بعد

مجيء البعثيين للسلطة. «على القيادة الثورية المثالية أن توجه بفعالية التخطيط والبناء بأكمله. عليها أن لا تسمح بنشوء أي مركز سلطة منافس آخر. يجب أن تكون هناك قيادة واحده تجمع وتوجه الدوائر الحكومية، بما في ذلك القوات المسلحة». [٢]

من غير المحتمل أن يكون العراق دولة شيوعية، لكن الأساليب التي استخدمها البعثيون لفرض إرادتهم على القطر كانت تقريبا متطابقة مع الأساليب التي استخدمها السوفيت، وتمت على يد ستالين. على الجماهير أن «يعاد تعليمها» واحتواؤها في الهيئة التنظيمية للحزب. على الخصوم أن يزاحوا ويجب أن يضرب الشعور العميق بالخوف والاحترام قلوب وعقول العراقيين البسطاء. وصدام بوصفه رئيسا لجهاز أمن البعث كان ملائما تماما لتلك المهمة. وكذلك كانت فرصة له ليتميز على حساب ضباط الجيش الذين كانوا يتنافسون معه في الترقية داخل الحزب. فالتطهيرات والدعاية وتلقين المبادئ ليست بالمهارات التي تأتي بشكل طبيعي إلى رجال الفعل، بل إنها تميل إلى أن تكون الغرفة الخلفية المحتكرة من قبل موظفين مثل صدام.

إن المحاكمة المثيرة للغاية لرؤساء ما ادعته الحكومة بحلقات تجسس صهيونية رئيسة والتي أخذت مجراها أخيرا في شهر يناير ١٩٦٩ وكانت مثالا على الطريقة التي قصد بها نظام البعث الجديد أن يتبنى مفهوم المحاكمة الصورية كوسيلة لمقاضاة أعدائها وبث الخوف في أوساط السكان بصورة عامة. ففي السنوات التي تلت مباشرة نجاح إسرائيل في حرب الأيام الستة كان الموقف المعادي للصهيونية تصعب السيطرة عليه في كافة إرجاء العالم العربي. فالقوات العراقية المسلحة المرابطة في الأردن كانت على الدوام تدخل في مناوشات مع الإسرائيليين وكانت تخرج في معظمها الثانية في الأفضلية وكانت الحكومة نادرا ما تفوت الفرصة في إلقاء مسؤولية كوارث البلد على الجواسيس الصهاينة والطابور الخامس. فمثلاً عندما قُتل ستة عشر جنديا عراقياً في هجوم جوي إسرائيلي في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٨ خاطب البكر جماهير تظاهرة معادية لإسرائيل جرت خارج القصر الرئاسي لتشييع جثامين الجنود القتلى في موكب حاشد اخترق شوارع بغداد. «نحن نواجه تحركات خيانية من رعاع الطابور الخامس والمؤيدين الجدد لأمريكا وأسرائيل» صرح البكر. «إنهم يختفون وراء جبهات وشعارات أدرك زيفها الشعب وكشفها». وكثيراً ما كان البكر يقطع كلامه ليسأل جموع المتظاهرين «ماذا تريدون؟» ويرّدون عليه «الموت للجواسيس، إعدام الجواسيس، جميع الجواسيس، دون تأخير!» [٣]

إن جو الهستيريا الجماعية التي خلقها البعثيون وصبّ تماماً في مصلحة صدام.

وكرئيس لجهاز الأمن في حزب البعث كان من واجبه أن يلاحق ويدمر ما وُصف في أدب حزب البعث _ بلوحدها من دون معرفة واعية لستالين _ «أعداء الدولة». وفي أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٨ ادعى النظام بأن لديه الدليل الدامغ على تلك الخيانة العالمية عندما كشف النقاب عن خرقه لحلقة تجسس صهيونية تشكلت في البصرة. وفي الواقع كان «اكتشاف» حلقة التجسس جزءاً من خطة معدة بعناية وضعها صدام لإزالة بعض خصومه الرئيسين. إن خطة صدام المعارضة للأعمال الصهيونية الشريرة المزعومة تعود إلى سنتين منذ أن قتل عميل إسرائيلي حقيقي في فندق شاتورا في بغداد. ثمة دفتر ملاحظات يؤكد التورط في الجريمة، يحتوي على أسماء العديد من القادة العراقيين وُجد بحوزة الإسرائيلي القتيل. لم يفعل صدام أي شيء به في ذلك الوقت، ولكن بعد مجيء البعث إلى السلطة، ظهر دفتر الملاحظات مرة ثانية، لكن في هذه المرة تمّت اضافة أسماء أخرى، معظمهم من الناس الذين ينوي صدام إزالتهم، بمن فيهم سعدون غيدان، قائد الكتيبة المدرعة في الحرس الجمهوري، التي ساهمت في انقلاب تموز (يوليو).

وبعد اكتشاف المؤامرة الصهيونية بفترة قصيرة جهز صدام «محكمة ثورية» خاصة لمحاكمة «الجواسيس، العملاء وأعداء الشعب». وكانت المحكمة تضم ثلاثة ضباط عسكريين بلا خبرة قانونية، وما من أحد يمثل أمام مثل تلك المحاكمة بإمكانه أن يتوقع جلسة محاكمة عادلة ومنصفة. وفي الحقيقة فإن المحامي الذي مثّل المتآمرين الصهاينة السبعة عشر في المحاكمة في يناير (كانون الثاني) ١٩٦٩ استهل الدفاع باعتذار إلى جهة الادعاء بأن عليه أن يدافع عن «الجواسيس» مصرحاً للمحضر بأنه «لا يحب أن يرى المتآمرين يمضون بلا عقاب».(٤) ولما أخذت جلسة المحاكمة مجراها كان المتهمون يذلون أمام الناس حيث إن توسلاتهم بأنهم «غير مذنبين» تعرضت لجلجلة الضحكات الساخرة من مقاعد الجمهور. وفي نهاية المحاكمة التي استغرقت أسبوعين حُكم على أربعة عشر من المتهمين بالتجسس بالإعدام شنقاً.

إن الإعدامات المرتبة بعناية في ساحة التحرير والتي نفذت بعد أيام من المحاكمات التي اطلقت الحكم كانت سبيل صدام إلى إثارة الدعم الشعبي للبعثيين. ودعا راديو بغداد الشعب إلى «المجيء والاستمتاع بالعيد»، وأُطلق على تلك الإعدامات أنها «خطوة شجاعة أولى نحو تحرير فلسطين». وفي رد غاضب وسريع وجه ضد انتقاد عالمي لتلك الإعدامات، أعلن راديو بغداد: «نحن شنقنا الجواسيس، لكن اليهود صلبوا المسيح». والانتقاد الوحيد لتلك الإعدامات في العالم العربي جاء

من صحيفة الأهرام المصرية حيث علقت بالقول: «إن إعدام أربعة عشر شخصاً في الساحة العامة هو بكل تأكيد مشهد مؤثر، إنه ليس مناسبة لتنظيم مهرجان».

إن محاكمة حلقة التجسس الصهيوني أطلقت نبرة التطهير الواسع لأيّ من الخصوم المشتبه بهم في إظهار التحدي لصدام وحزب البعث والتي استمرت طوال الاثني عشر شهراً التالية. ووقعت الإعدامات العامة الأخرى لمعارضي النظام في العشرين من شهر فبراير (شباط) والرابع عشر والثلاثين من أبريل (نيسان) والخامس عشر من مايو (أيار) والحادي والعشرين والخامس والعشرين من أغسطس (آب) والثامن من سبتمبر (أيلول) والسادس والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني). وأصبحت الإعدامات مألوفة جداً في ساحة التحرير وأصبحت تسمى في أوساط العامة بـ «ساحة المعدومين». ويمثل الضحايا أمام المحكمة الثورية حيث يتم إجبارهم على الاعتراف بجرائمهم أمام جمهور التلفزيون قبل نقلهم لمواجهة فرقة الإعدامات رمياً بالرصاص أو في الحالات المدنية لمواجهة أنشوطة الجلاد. ولو اعتقد صدام بأنه من غير المحتمل أن يكون الاعتراف ذا فائدة فإن عصاباته البلطجية شبه العسكرية كانت تتولى أمر معارضيه كما حدث مع ناصر الحاني، وزير الخارجية السابق في مجلس وزراء ثورة تموز. والاختلاف الجوهري الوحيد بين تطهيرات صدام وإرهاب ستالين هو أنه في العراق لم يكن هناك معسكرات للأعمال الشاقة، وباستثناءات قليلة فإن ضحايا صدام المستهدفين ليس لديهم فرصة في البقاء على قيد الحياة. وإن التطهيرات أساساً وقعت في صنفين: الأول هو تلك العناصر كالأكراد والشيوعيين والشيعة وحتى البعثيين اليساريين الذين يُعتبرون معادين لنظام البكر، والثاني هو أي عضو في الحكومة العراقية أو المؤسسة العسكرية أظهر تهديدا لصدام.

وحتى مجيء حزب البعث إلى السلطة في عام ١٩٦٨ كان الجيش سنداً للانظمة القمعية التي حكمت العراق منذ عام ١٩٥٨، وأشرف على اعتقال واستجواب المعارضين السياسيين. ولما أخذ صدام مكانه في القصر الرئاسي وظف خبرته في إدارة عملية أمن جهاز حنين في حزب البعث ليقوم بإعادة تنظيم البنى التحتية لاستخبارات البلد والتي وضعته وبقوة في موقع السيطرة على كافة جوانب الأمن الوطني. واستبدل جهاز حنين بمؤسسة أمنية تتكون من ثلاثة عناصر رئيسة: أمن الأمن، أمن الدولة الداخلي والذي أشرف على الأمن الداخلي ويعود تاريخه إلى الملكية والمخابرات التي بدأت وجودها باسم غير محتمل وهو دائرة العلاقات العامة ولكن أصبحت تُعرف فيما بعد إما بمخابرات الحزب أو دائرة المخابرات العامة وهي الذراع الأمني لحزب

البعث، والجهاز الأكثر قوةً وإرهاباً، والاستخبارات، أو الاستخبارات العسكرية وهي فضلا عن رقابتها العسكرية، قامت بعمليات خارج الحدود، خاصةً عمليات اغتيال المعارضين في الخارج.[٥] وأخيرا وفي مسيرته أسس صدام جهازا آخر سماه الأمن الخاص سيطر على المخابرات وكانت تقاريره ترفع مباشرة إلى مكتب الرئيس وأصبح جهازا للشرطة السرية الخاصة بصدام. ولكي يضمن المحافظة على سيطرته الكلية على جهاز أمن البعث الجديد، عيّن صدام وبشكل أساسي أعضاء مقرّبين من العائلة أو أصدقاء موثوقاً بهم ليرأسوا إما المخابرات أو الأمن الخاص. وكان أول رئيس للمخابرات سعدون شاكر، رفيقه البعثي الذي ساعده على الهروب من السجن في عام ١٩٦٦ وساعده كذلك في إدارة جهاز حنين. إنّ صدام لم يثق بأي أحد، ولذلك وضع برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق، نائبا لسعدون شاكر. واضطلع برزان فيما بعد بمسؤولية المخابرات بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٣، والأخ غير الشقيق الآخر لصدام، سبعاوي، مدير الأمن العام منذ ١٩٨٩ فصاعدا. وبعد أن تولى صدام مقاليد الرئاسة، ترأس جهاز الأمن الخاص حسين كامل حسن، صهر صدام.

وبعد سيطرة البعثيين على الحكم بفترة قصيرة تسلم ناظم كزار مهمة السيطرة على عمليات الأمن الداخلي. وسبق لكزار أن أثبت مهاراته كجلاد خلال المحاكمات الدموية للشيوعيين في عام ١٩٦٣ (أنظر الفصل الثاني). إن البكر وصدام كقيادة للبعث كانا يدركان جيدا الأساليب الوحشية التي استخدمها نظام كزار لإرعاب معارضي النظام، لكنهما وبالرغم من ذلك منحاه الحرية في كبح ومسح أية لمحة في معارضة النظام الجديد سواء جاءت من داخل الحزب أو من خارجه. وإن المئات إذا لم يكن الآلاف قتلوا على أيدي قوات الامن التابعة لكزار والعديد منهم تم تعذيبهم حتى الموت في قصر النهاية. وفي عام ١٩٧١، مثلاً قدمت مجموعة من الحزب الشيوعي العراقي قائمة بأسماء أربعمائة وعشرة أعضاء زعمت بأنهم لاقوا حتفهم في قصر النهاية. ويستذكر أحد البعثيين الناشطين سابقا والذي كان موجوداً في بغداد في ذلك الوقت بأن كزار كان يتلقى معاملة خاصة من حكومة البكر-صدام. «كان موثوقاً به إلى درجة كبيرة. كان العضو الوحيد في حزب البعث الذي سمح له ان يذهب مسلحا بسلاح ناري عندما قام بزيارة القصر الرئاسي. وذلك لأنه كان له أعداء كثيرون في البعث وكان يشعر بأن عليه أن يحمي نفسة تجاه أي محاولة اغتيال تستهدفه». ويذكر مهندس سابق بالتدريب أن كزار كان رجلاً هادئاً ولم يبتسم. «في كل السنوات التي عرفته فيها لم أره مبتسما لمرة واحدة».[٦]

وعلى قمة قائمة صدام لتصفية الحسابات بعد استلام البعثيين للسلطة كانت أسماء أعدائه الألداء من الشيوعيين. ومن شهر نوفمبر ١٩٦٨ فصاعدا كان هناك عدد من المواجهات بين الشيوعيين وقوات صدام شبة العسكرية. فالشيوعيون، كالأكراد، أصبحوا معنيين بشكل مضطرد بالطبيعة الأوتوقراطية التي أقرتها حكومة البكر الجديدة وقاموا بعدة احتجاجات طالبوا فيها بإدارة أكثر ديمقراطية. وتمثّل رد فعل صدام حيال مطالبهم برقته المعتادة: في نوفمبر ١٩٦٨ قُتل اثنان من الشيوعيين عندما تعرضت مجموعة من العمال المضربين في أحد المعامل في بغداد لإطلاق النار، وقُتل ثلاثة آخرون رميا بالرصاص في اليوم التالي في سباق السيارات احتفالا بالذكرى الواحدة والخمسين للثورة البلشفية. وفي كل مثال كانت تشير أصابع الاتهام إلى قوات صدام شبه العسكرية.(٧)

وجاء رد فعل الشيوعيين الغاضبين عبر تشكيل مفارز صغيرة مسلحة هدفهم من وراءها الإطاحة بالنظام. وقد نفّذت وحدات حرب العصابات تلك عددا من عمليات السطو الجريئة على المشاريع التجارية في بغداد والمدن الأخرى لجمع المال، وفجرت عددا من الناقلات الرسمية حتى أنها رشت بيت صدام بنيران البنادق الآلية. ورد صدام بشن مطاردات واسعة النطاق لخلايا الشيوعين حيث نجحت قوات أمنه أخيرا في إلقاء القبض على أعضائها في شهر شباط (فبراير). وتم نقل أولئك الذين قبض عليهم كما هو متوقع، إلى قصر النهاية لاستجوابهم. وقيل بأنه ليس أقل من عشرين شيوعيا ماتوا من جراء التعذيب بعد ذلك، من بينهم عضوان في المكتب السياسي الذي كان يشرف على الحزب الشيوعي العراقي. إن نجاح أساليب التعذيب التي اتبعها كزار صوّرها عزيز الحاج رئيس المكتب السياسي، الذي انهار واعترف علناً بخطاياه ضد «الثورة» في برنامج إذاعي متلفز. والحاج، الذي خبر ممارسات الرعب قيل بانه كان يصرخ عندما ألقي القبض عليه، «لم اعد احتمل التعذيب سأتعاون».(٨) وخلال السنتين التاليتين تمت تصفية عدد من الشيوعيين البارزين إما بالقتل على أيدي «منتسبي الأمن» الصدامي أو لاقوا حتفهم على أيدي الجلادين التابعين لصدام في قصر النهاية، وان قدرة الحركة على تصعيد التحدي الفعال ضد البعثيين أصبحت تتضاءل تدريجياً.

أما التهديد الأكثر خطورة للبعثيين فقد جاء من جماعة الشيعة الكبيرة في البلاد، والتي فضلاً عن العداء للزمرة السنية التي تحكم البلاد الآن، كانت لها علاقات وثيقة بشاه إيران، زعيم اكثر بلد في العالم يقطنه مسلمون شيعة. وتجاهل صدام الاحتجاجات الصادرة من الامم المتحدة حول المحاكمات الصورية لـ «حلقة

الجواسيس الإسرائيليين»، وراح يمعن في مطاردة الجواسيس والمتآمرين، وكانت المحاكمات الصورية تقام بحيوية أكبر: في فبراير ١٩٦٩ تم الإعدام العلني لسبعة مواطنين آخرين بتهمة التآمر ضد الدولة تبعهم أربعة عشر آخرين في أبريل. ونفذت معظم تلك الإعدامات في مدينة البصرة الجنوبية عاصمة المجتمع الشيعي المتاخمة للحدود مع إيران. والشاه الذي توصل إلى حلف مع إسرائيل لإبقاء العراق ضعيفا وفاقدا للاستقرار، كان حريصا على استغلال الضعف الملحوظ للنظام الجديد، وبلا أي تحريض من العراقيين، أعلنت حكومته ويشكل مفاجئ في أبريل ١٩٦٩ بأن معاهدة ١٩٣٧ التي منحت العراق السيطرة الكاملة على شط العرب ـ الممر المائي عند رأس الخليج ـ أصبحت باطلة المفعول. وكإجراء جيد قام الشاه بتحشيد جيوشه على الحدود مع العراق وحصّن المباني في طهران.

إن الشعور العام بالقلق الذي خلقه حب الشاه للقتال ظهر إلى السطح في بغداد في يناير ١٩٧٠ عندما كان صدام المنتصر قادراً على كشف المؤامرة التي قام بها مجموعة من الضباط العراقيين المدعومين من إيران في محاولة لإسقاط حكومة البكر. في العشرين من يناير اليوم المثبت للانقلاب المرتقب، انطلق مهدي صالح السامرائي وهو عقيد متقاعد في الجيش العراقي برفقة مجموعة تضم خمسين رجلاً وهم الذين تجمعوا سابقا في معسكر الرشيد الرئيس في أطراف بغداد باتجاه القصر الجمهوري كجزء من خطة منسقة لإسقاط الحكومة. وحسب وصف صدام للمحاولة الانقلابية، فإن المتآمرين الذين قادهم اللواء عبد الغني الراوي وهو ضابط متقاعد والمحمي سابقا من الأخوين الرئيسين عارف، كانوا يهدفون إلى تشكيل عدد من «فرق الهجوم» تضطلع بمهمة اغتيال المسؤولين البارزين في الحكومة والحزب بعدد من الهجمات المنسقة. ومع ذلك فإن الحدث الذي وقع فعلا هو تحرك السامرائي على القصر الجمهوري حيث فوجئ عند وصوله إلى هناك بالاستقبال الحار الذي قابله به صلاح عمر العلي، البعثي القيادي الذي كان مع صدام في الدبابة نفسها إبّان انقلاب ١٩٦٨ (أنظر الفصل الثالث)، والعقيد فاضل الناهي. وكان يعتقد بأن العلي والناهي من المشاركين في الانقلاب، ولذا أبدى موافقته وبامتنان شديد على دعوتهما للدخول إلى القصر الرئاسي، وكانت الأبواب مشرعة كما ينبغي ليسمح لزمرة المغامرين التابعين له بالدخول. ولسوء حظ السامرائي ورفاقه المتآمرين أنه حالما أصبحوا داخل المجمّع الرئاسي أُغلقت الأبواب بقوة تاركة إيّاهم داخل الفخ. وحسب الوصف العراقي الرسمي للحادثة، شوهد السامرائي بعد ذلك في قاعة كبيرة.

وبينما كان المتآمرون المرتبكون يفكرون مليًا في خياراتهم فتح الباب ودخل صدام القاعة يرافقه عدد من الضباط. وعندما أدركوا أنهم وقعوا في الفخ فتح المتآمرون النار وقتلوا اثنين من حرس القصر. بيد أنهم غُلبوا على أمرهم بسرعة وأجبروا على الاستسلام.

وبعد ذلك وفي اليوم نفسه شكل صدام محكمة عسكرية لمحاكمة المتآمرين. وترأس تلك المحكمة النقيب طه ياسين الجزراوي، عضو مجلس قيادة الثورة والرفيق الحميم لصدام، والعضوان الآخران كان أحدهما من أتباع صدام المفضلين، هو ناظم كزار. وبالإجمال حوكم أربعة وأربعون متآمرا ونفذ بهم حكم الإعدام[٩]، بمن فيهم السامرائي. بدأت الإعدامات في الحادي والعشرين من شهر يناير وانتهت في الرابع والعشرين من الشهر ذاته. تم إعدام الضباط العسكريين رميا بالرصاص والمدنيين شنقا. وزعم بأن الضباط أطلقت النيران عليهم من الأسلحة التي استلموها من أجهزة الأمن الإيراني لغرض تنفيذ الانقلاب.[١٠] وتم الحكم بالسجن على خمسة عشر آخرين. والنايف، رئيس الوزراء المنفي الذي كان متورطا في القضية، حُكم عليه بالموت غيابيا، وكذلك اللواء الراوي. وأعطي السفير الإيراني أربعا وعشرين ساعة لمغادرة البلاد، وتم غلق القنصلية الإيرانية في كل من بغداد وكربلاء والبصرة وتم ترحيل الإيرانيين الذين كانوا يعيشون في البلاد.

إن اكتشاف وإعدام المتآمرين بسرعة كان انتصارا لصدام حسين. فقوات أمنه هي التي كشفت المؤامرة، وأن اكتشاف محاولة الانقلاب العسكري على يد مسؤولين مدنيين تابعين لصدام شكّل نصرا للبعثيين المدنيين على خصومهم العسكريين، وتلك النقطة يدركها البكر. إن صدام «السيد النائب» اليقظ دوما، كان قادرا على أن يصنع النقطة الهامة في الموضوع بأنه هو وقوات أمنه الهائلة، بدلا من القوات العسكرية، من يستطيع أن يضمن سلامة الحزب. وكان صدام قادرا على تحويل كشف الانقلاب إلى ممارسة دعائية براقة مثلما فعل مع «حلقة الجواسيس الإسرائيليين» وأعلن عن جميع تفاصيل الانقلاب الذي كشفته السلطات: مبالغ الأموال الضخمة، أجهزة ارسال إليكترونية معقدة، ومائة وثلاثين طنا من الأسلحة، عرضت جميعها بإتقان في قاعة عرض مركزية في بغداد، حيث وضعت كل مادة بعناية خلف حاجز زجاجي. وكشف النقاب عن القضية بكاملها حيث تم الترتيب لها في السفارة الإيرانية في بغداد، ونشرت تفاصيل المراسلات ما بين السفير الإيراني واللواء الراوي. وفضلا عن النزاع مع إيران حول ممر شط العرب، فإن الدافع الآخر الذي أعطاه صدام للانقلاب كان جزءا من

مؤامرة إعادة العراق إلى السيطرة الامبريالية الأنغلو-أمريكية ولإضعاف القطر في حربه المستمرة مع إسرائيل.

وتم تنظيم تظاهرات كبيرة للإعلان عن الثورة التي «لا تقهر» وكان هناك تشييع فخم لجنازة اثنين من الجنود البعثيين قتلا في المناوشات التي وقعت في القصر. وثمة اعترافات مسجلة وصور لمستودعات أسلحة ضخمة تم نشرها بشكل واسع، ورسائل مخطوطة باليد فيها كلمات شفرة متيسرة، وزوجات المتآمرين شجبن أزواجهن. وزعم بأن المتآمرين كانوا يخططون لإغراق بغداد والمدن الأخرى لو أنهم لم يتمكنوا من قتل قادة البعث مباشرة. وزعمت السلطات أنها استعادت من جيوب المتآمرين قوائم بأسماء وزراء المستقبل ومناصب حكومية مقترحة أخرى، وزود ذلك صدام بثروة من المعلومات يستخدمها ضد أعدائه.[11] وحسب الرواية الرسمية لكيفية اعتقال السلطات للمتآمرين، التي نشرت في جريدة الثورة الحكومية، فإن المؤامرة قد تم اكتشافها في السنة الماضية، في ذات الوقت الذي كانت فيه الحكومة تقاضي المتآمرين الصهاينة، وبدلا من تجميعهم بشكل مباشر، وضع صدام ثلاثين عميلا في صفوفهم. وكان صدام حريصا على أن يصنع الكثير من رأس المال السياسي قدر الإمكان من القضية التي، فضلا عن إقناع الشعب العراقي بأنه يواجه تهديدا حقيقيا من قوى أجنبية، ستمكنه من إرسال إشارة لا لبس فيها إلى شاه إيران بأن البعثيين لا ترهبهم القوة الإقليمية المتنامية لجارهم.

والنزاع القوي الآخر الذي يلزم حكومة البعث الجديدة أن تضعه على الحياد هو قضية الأكراد، وهي العنصر الأكثر جدلا وتعقيدا من جميع العناصر الأخرى. والأكراد أقلية عرقية تتميز عن العرب. فهم يتكلمون لغة مختلفة ولهم عاداتهم وأزياؤهم المختلفة أيضا. وخلال السنوات الأخيرة من الحكم العثماني عاشت الأكثرية الساحقة من الأكراد في المنطقة التي تسمى اليوم بتركيا. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى أنكرت القوات المتحالفة المنتصرة على الأكراد قيام الدولة التي اعتقدوا بأنهم سيحصلون عليها كما وعدوا. فالأراضي التي احتلوها لقرون تم اقتسامها ما بين سوريا والعراق وتركيا وإيران. ومنذ بداية تكوين العراق قام قادة الأكراد المتعاقبون بحملات من أجل الاستقلال عن بغداد، تلك الحملات التي ولدت بقوة حماسا عاليا عندما اكتشف الأكراد أن المناطق الكردية حول الموصل وكركوك تحتوي على أكثر الاحتياطات النفطية المربحة في العالم. ومع ذلك فإن اكتشاف الثروة النفطية في تلك المنطقة ساعد في تقوية تصميمهم على الاحتفاظ بالسيطرة على تلك المنطقة، وكانت

«المسألة الكردية» قضية دائمة تتطلب معالجة بارعة وكيّسة. والبعثيون الحذرون دائما في قاعدة حكمهم الضيقة، قرروا تهدئة الأكراد على أساس أنهم تمكنوا من معالجة العديد من نزاعات الخصوم في الوقت نفسه.

ومن عام ١٩٦٩ فصاعدا منح البكر صدام سيطرة شخصية ليعيد الأكراد إلى الخط. ومن البداية كانت جهود صدام في التعامل مع الأكراد تواجه في واقع الأمر عوائق لأن القائد الكردي الأهم، مصطفى البارزاني، كان يتلقى الدعم من الاتحاد السوفيتي. والسوفيت الذين بقوا ملتزمين بهدفهم في توسيع نفوذهم في الخليج، صارت لديهم رؤية قاتمة عن مقاضاة حكومة البعث الجديدة للحزب الشيوعي العراقي، ورأوا في الأكراد وسائل ضغط على بغداد. إن الميل الطبيعي الأولي لصدام كان في مواجهة الأكراد في الميدان وفي شهر أبريل ١٩٦٩ استدعى جنود الحماية والقوة الجوية العراقية الصغيرة. وفي الثامن من أغسطس دمر الجيش قرية داكان الكردية تدميرا كاملا، وتقع تلك القرية بالقرب من مدينة الموصل. بيد أن منطقة كردستان الوعرة لم تكن ملائمة بشكل جيد للدبابات وناقلات الجنود العراقيين المصفحة والثقيلة. وكان جنود حرب العصابات الأكراد الذين يُطلق عليهم اسم بشمركة أي «الذين يمشون أمام الموت» يستخدمون ممرات الجبال الشاهقة والوديان شديدة الانحدار لصالحهم. وعندما تحاول القوة الجوية أن تلقي بقنابلها عليهم، فإنهم يغورون بسهولة ويختفون في الكهوف. وكانت الوديان ضيقة جدا إلى الحد الذي جعل الطيارين العراقيين يواجهون صعوبة في المناورة. وأحيانا يكونون غير قادرين على التوقف في الوقت المطلوب، فترتطم طائراتهم المقاتلة بقمم الجبال. وحتى تزداد الأمور سوءا بالنسبة لصدام ألقى الشيوعيون بكل ثقلهم مع الأكراد. فأصبح بالإمكان أن يشكل التضافر الشيوعي-الكردي تهديدا قاتلا للبعثيين.

وبمواجهته لهزيمة مخزية على أرض المعركة، قرر صدام أن يبحث عن حل دبلوماسي. وفي يناير ١٩٧٠ قام بزيارته الأولى إلى موسكو، والتي أصبحت في الستينيات المزوِّد الرئيس بالأسلحة للعراق آملا التفاوض في صفقة مع رئيس الوزراء أليكسي كوسيغين لسحب الدعم السوفيتي من الأكراد. وكان السوفييت على استعداد للقبول، غير أنهم شددوا عليه فيما لو أنهم سحبوا دعمهم، يجب ألا تكون هناك مذابح للأكراد العراقيين. ووافق صدام مترددا على شروط السوفيت، وفي عودته من موسكو، أعلن بمباهاة «خطة الحكم الذاتي» الجديدة لكردستان. وعد بيان آذار، كما أصبح يُعرف، الأكراد بالكثير من الحقوق السياسية والثقافية التي كانوا يطالبون بها منذ

سنوات. غير أن الشرك الوحيد الذي وقع به الأكراد هو أن صدام كان قادرا على أن يصر على إقرار البارزاني بأن اتفاقية الحكم الذاتي يجب ألا تكون سارية المفعول لأربع سنوات أخرى. لم يكن لدى صدام النية في ترك السيطرة على ثلاث محافظات كردية، غير أن الاتفاقية زودت البعثيين بفسحة لالتقاط الأنفاس كانوا بحاجة إليها للتعامل مع التهديدات الأخرى التي واجهوها، كالشيوعيين والعسكريين والشيعة، ناهيك عن إسرائيل وإيران.

إن تعليق الاتفاق بعض الشيء كان محسوما في السنة التالية، بل كانت هناك محاولة مخططة بعناية استهدفت حياة البارزاني وقد حملت علامات قوات صدام الأمنية. إن العلاقات بين صدام والبارزاني أصبحت متوترة بشكل حثيث لأن صدام أثبت تردده في البقاء على شروط بيان آذار، ومن المحتمل بأنه لم تكن لديه النية على الإطلاق لعمل ذلك حينما ضرب الاتفاق في المقام الأول. فالجيش العراقي لم ينسحب من المنطقة، كما تم الاتفاق، على الأسس الأمنية، وخلق صدام عقبات جمّة لمنع البارزاني من إنجاز شق الاتفاق الخاص به، مثل تعيين سياسيين أكراد في مواقع حكومية في بغداد. والقشة الأخيرة بالنسبة للبارزاني كانت محاولة استهداف حياته، والتي وقعت عندما كان يستضيف ثمانية من رجال الدين أرسلهم صدام لمناقشة إنجاز البيان. وعندما كان البارزاني يتحدث، هز انفجاران المكان، وقتل اثنان من رجال الدين، وفتح الحرس الخاص بالبارزاني نيران أسلحتهم على الفور، وقتل الخمسة الباقون من رجال الدين. وهرب البارزاني نفسه، وذكر فيما بعد بأن رجال الدين كانوا قد غرر بهم لتنفيذ محاولة الاغتيال رفيق صدام، ناظم كزار. زوّد كزار رجال الدين بمسجلات وطلب منهم تسجيل حديثهم مع البارزاني. وأثناء تشغيل المسجلات انفجرت القنابل. كان البارزاني غاضبا بوضوح ليس لأنه وافق على لقاء رجال الدين عقب اجتماعه بصدام فحسب، وإنما لأن صدام قد ورّط ابن البارزاني المنشقّ عبيد الله في المؤامرة، مبشرا إيّاه بأنه سيخلف والده لو نجح الهجوم. وبمواجهته للدليل الذي لا جدال فيه حول تورط صدام في هذا الأمر، أعلن البارزاني بأن «العراق دولة بوليس يديرها صدام المهووس ذو الولع الشديد بالسلطة».[١٢]

إن تعليق البارزاني ضرب وترا حساسا لدى العراقيين الذين أصبحوا يعرفون جيدا كيف وسّعت قوات أمن صدام من نفوذها الكريه في كل مكان من المجتمع العراقي. وبعد ثورة ١٩٦٨ مباشرة تم تطهير كافة دوائر الحكومة من مجموع الأعضاء العاملين من غير البعثيين الذين رفضوا الموافقة على النظام الجديد. وكان العسكر المشكلة

الأكثر صلابة على الصدع، بيد أن صدام وجد طريقا للالتفاف على مقاومة فيلق الضباط عن طريق العودة إلى النظام السوفيتي، الذي ابتكره لينين في الحرب العالمية الأولى، وذلك بتعيين مفوّضين سياسيين لإعداد تقارير عن الضباط. وكان هؤلاء المفوّضون يقدمون التقارير مباشرة إلى صدام، متخطين بذلك التسلسل القيادي للأوامر. وهكذا فإن الضباط المشكوك بولائهم استبدلوا ببعثيين أو متعاطفين معهم. والكثير من أولئك الذين فصلوا من القوات المسلحة، بمن فيهم عدد من قادة الفرق، ألقي القبض عليهم وتم تعذيبهم. وبالمثل فإن صدام قد شدد سيطرته على العراقيين البسطاء. وكان رجال الميليشيات البعثية يطوفون الشوارع ويقومون بهجومات مفاجئة على بيوت خاصة في منتصف الليل ناقلين إلى الوطن الرسالة التي مفادها ليس هناك أحد خارج سيطرتهم. وتحول العراق إلى نظام استبدادي و«مكان تلاشى فيه الرجال، وكان أصدقاؤهم يخشون جدا الاستفسار عما حدث لهم، والناس الذين ألقي القبض عليهم بتهم تافهة [ماتوا انتحارا] في السجن، وثمة مسؤولون سابقون اغتيلوا بشكل غامض، واختفى سياسيون آخرون».[١٣]

ومع أن صدام كان منشغلا بتأسيس شبكة معقدة من الجواسيس والمسؤولين الحزبيين والجلادين والقتلة، إلاّ أنه وجد الوقت ليطلع بنفسه على الممارسات الشنيعة التي تطبق بحق ضحاياه في قصر النهاية. وذكر معارض شيعي كان يقبع في حجر التعذيب في قصر النهاية بقي على قيد الحياة وصفا تقشعر له الأبدان للطريقة التي قتل بها صدام شخصيا معتقلا شيعيا آخر اسمه دخيل. «جاء إلى الحجرة وأخذ دخيل وألقى به في حوض الأسيد. وبعد ذلك أخذ يراقب الجسد الذي كان يذوب».[١٤] وبينما يكون توثيق مثل تلك القصص أمرا يصعب الحصول عليه، إلا أنها تحمل تماثلا عجيبا لبعض الأساطير التي ظهرت وهي تعود إلى أعمال صدام في قصر النهاية في عام ١٩٦٣ ومن وجهة نظر صدام، سواء كان على خطأ أو صواب، فإن الدرس الأكثر أهمية هو أن قصصا مثل تلك كانت تدور في نطاق عام في العراق، وكانت تصدق إلى حد بعيد. وبما أن السكان قد استدرجوا إلى العيش بالخوف من أي عراقي قد يقاسي وفي أية لحظة ذات المصير، فإن موقع حزب البعث سيظل آمنا.

وبصرف النظر عن ترويع الأحزاب المختلفة التي تجابه البعثيين، ركّز صدام طاقاته على إزاحة أي شخص قد يعتبر خصما ممكنا، ومع أي شخص عرفه جيدا بالقدر الذي يملك معلومات قد تعتبر ضارة باحتمالات سيرته المستقبلية. وكما نوقش سابقا، فإن الدافع من وراء اغتيال ناصر الحاني، وزير الخارجية السابق، في شهر

نوفمبر ١٩٦٨، ينسب كثيرا إلى حقيقة أنه كان يسلط الأضواء بشكل غير مقبول على علاقات صدام بوكالة الاستخبارات المركزية. والتفسير الرسمي لمقتل الحاني هو أنه قد قُتل على أيدي مجرمين. وكان هناك تفسير مماثل في الشهور الأربعة التي أعقبت اغتيال العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت، قائد القوات الخاصة السابق الذي كان رأس الحربة في الهجوم على وزارة الدفاع في انقلاب ١٩٦٣ الذي أطاح بالزعيم قاسم. وكان إثمه هو بقاؤه متعاطفا مع البعث السوري، العدو البغيض لصدام. ولإزالة الشكوك العامة، أنتزع ضباط أمن صدام اعترافا صريحا من مجرم تافه اعترف بطعنه لنصرت حد الموت في بيته أثناء عملية سرقة. وكان صدام أيضا متورطا في قتل فؤاد الركابي، الأمين العام السابق لحزب البعث العراقي والذي كان مسؤولا شخصيا عن إعطاء صدام مهمته الأولى في حزب البعث، محاولة اغتيال الزعيم قاسم الفاشلة في عام ١٩٥٩ والركابي الذي أبعد عن الحزب بعد ذلك بقليل من قبل المفكر البعثي ميشيل عفلق أصبح ناصريا. وبعد ثورة ١٩٦٨ سجنه البعثيون لسنة ونصف بتهمة ملفقة. وبأيام قليلة سبقت إطلاق سراحه، «جاءت السلطات بقاطع طرق يحمل سكينا. طعن الركابي في صدره ثم نقل إلى المستشفى. ترك هناك دون عناية طبية حتى مات».[١٥]

كانت هناك درجة معتدلة من الاحترافية حول الطريقة التي يتبناها صدام لمعالجة خصومه. ويقدم سمير الخليل صاحب كتاب «جمهورية الخوف» عرضا مثيرا لمؤسسات أمن الدولة القمعية التي أرسى دعائمها البعثيون الأوائل، ويقدم قائمة مفصلة بأسماء أكثر من ثلاثين ضابطا برتب عالية، والبعثيين القدامى وسياسيين برتب وزارية أو أعلى والذين تم تطهيرهم في ثورة يوليو ١٩٦٨، وأكثريتهم بأوامر صادرة من صدام.[١٦] وتبقى المحاكمة الصورية أسلوب الإخضاع المفضل لدى صدام، شريطة أن يكون قادرا على ضمان الإدانة، وهي ممكنة بشكل اعتيادي في الدوائر ذات المصلحة، سواء كانت بأساليب التعذيب في قصر النهاية أو بإرادة موظفي المحكمة الذين يؤدون خدمة لأسيادهم البعثيين. وهكذا اعترف رشيد مصلح، وزير الداخلية السابق، علانية في محاكمته المتلفزة بأنه كان يتجسس لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وقد أعدم في حينه. وعبد الرحمن البزاز الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء في عهد الرئيس الثاني عارف والذي كان بصورة عامة ميّالا إلى البعث، قدم إلى المحاكمة في صيف ١٩٦٩ بمعية عبد العزيز العقيلي، وزير الدفاع السابق. وكلا الرجلين أنكرا على البعثيين رغبتهم في سماع الاعترافات العامة، لكنهما وبالرغم

من ذلك تلقيا عقوبات بالسجن لمدى طويل. وظهر خط صدام السادي بوضوح في معاملته لطاهر يحيى، الذي كان رئيسا لوزراء العراق عندما سيطر البعثيون على السلطة في ١٩٦٨ وخدم يحيى العراق كضابط عسكري طوال حياته الراشدة، وحتى أنه كان في أحد الأوقات عضوا بارزا في حزب البعث وأحد أولئك الذين كانوا أرفع مقاما من صدام. بعد أن مسك صدام بزمام السلطة جاء بيحيى الرجل المثقف والمتعلم جيدا ممتعضا من حنكته فأودعه السجن. وبأوامر منه كلّف يحيى بدفع عربة يدوية من زنزانة إلى زنزانة ليجمع فضلات الطعام الخاصة بالسجناء. كان يصيح «زبالة! زبالة!» وكان إذلال رئيس الوزراء السابق مصدر سعادة كبيرة لصدام حتى مات يحيى أخيرا ذات يوم في السجن. كان يروي القصة لأصدقائه، بضحكته الخافتة على الكلمات «زبالة! زبالة!»[١٧]

وبينما برهنت المحاكم الصورية على أنها أداة ناجعة لإقناع العراقيين بأن بلدهم كانت تمزقه المؤامرات والمكائد، كان صدام بحاجة إلى كل دهائه للتعامل مع الأعداء الألداء من أمثال الفريق حردان التكريتي، قائد القوة الجوية السابق والجلف الذي أقنع الرئيس عارف بالاستسلام خلال الانقلاب الأبيض في عام ١٩٦٨، والفريق صالح مهدي عماش، البعثي المحنّك والرفيق الحميم للرئيس البكر. وبعد الثورة تباهى حردان التكريتي، الرجل الجلف المغرور الذي أظهر تهديدا حقيقيا لصدام، بألقاب رئيس الأركان، نائب وزير الدفاع، ونائب رئيس الوزراء، بينما أصبح عماش وزيرا للداخلية ونائبا لرئيس الوزراء.

والتكريتي الذي أدار الجيش كأقطاعية شخصية تابعة له، اعتقد بأنه كان محصنا تجاه مكائد صدام لأنه، كمهندس وبطل لثورة ١٩٦٨، أصبح المؤتمن المقرّب من البكر، والذي وثق به ثقة مطلقة. وبذلك قدّر الشك الملازم لصدام حول المؤسسة العسكرية، تقديرا بخسا، والذي كان يخشى دائما محاولته لاغتصاب الحكم البعثي المدني. وأدرك صدام أنه لو استطاع أن يزيح التكريتي، فإنه سوف يبطل التهديد الذي يبديه العسكر.

وبالرغم من مكانته العالية في الحكومة والجيش، فإن الثغرة الوحيدة في قوته العسكرية هي أنه، مع مساندته للبعث، لا يعتبر منظّرا ملتزما، كما هو عليه البكر وصدام. ومع ذلك كان التكريتي البارع الذكي يدرك التهديد الذي أبداه صدام، وأخذ يضغط بقوة من خلف الكواليس لإقناع البكر بالتخلص من صدام. وفي إحدى المرات في عام ١٩٦٩ استفز صدام حردان التكريتي بشدة في شجار في القصر الجمهوري

حيث إن الضابط السابق كان قادرا بالفعل على إقناع البكر بإرسال صدام إلى المنفى. وضع صدام في طائرة وأرسل إلى بيروت، حيث بقي هناك لمدة أسبوع، حتى هدأ غضب التكريتي. وكانت تلك إهانة لم ينسها صدام.

ومن ناحية أخرى، كان عماش بعثيا مخلصا، كان قصير القامة وضابطا عسكريا ممتلئ البنية، وهو ليس كصدام، وإنما صعد إلى مراتب البعث من خلال تفانيه في الواجب. كان رجلا أديبا ومحبا للشعر وألف ثلاثة كتب في التاريخ، وبعد الثورة وضع في جهاز الإدارة في الحكومة، حيث ترأس اجتماعات عديدة تخص سياسة الدولة كالتخطيط وإعادة البناء. وفضلا عن كونه رفيقا حميما لعبد الكريم الشيخلي، وزير الخارجية الجديد، كان عماش مخططا ضليعا ولذلك السبب أصبح صدام يعتبره تهديدا وجب عليه إزالته *مكتبة الرمحي أحمد*

وبالرغم من أن صدام كان له نفوذ كبير على جهاز الأمن السري للغاية، فإنه ما زال يعتبر كموظف صغير من قبل الشخصيات الأقدم في الحكومة البعثية، كالتكريتي وعماش والشيخلي، الذين كانوا مساندين بصورة عامة للتطهيرات التي تم تنفيذها ضد أعداء الحكم، الا أنهم كانوا غافلين عن قاعدة السلطة الكبيرة التي كان يحرزها صدام لنفسه. وفي ذلك الموضع من سيرته الحياتية لم يكن صدام مستمتعا بحليّ السلطة. لم يزل مكتبه عبارة عن غرفة صغيرة تقع جوار مكتب البكر في القصر الرئاسي، لم يكن لديه سكرتير أو موظف استقبال. وبالنسبة للوزراء الآخرين فقد اعتبر بأنه فتى المهمات لدى البكر أكثر من كونه شخصية سلطوية تقف إلى يمينه. وكان غالبا ما يرى في وزارات الحكومة المتعددة، وهو يحوم حول مكان الاستقبال، ينتظر الوزير ليجد لحظة إضافية يراه فيها.

ومع ذلك كان صدام ناجحا في إضعاف السمعة الحسنة للأعلى منه مقاما وبالتدريج. وفي ذلك كان مدعوما من جانبين: كان بإمكانه أن يسحب جميع موارد قوات الأمن، وكان لديه أذن البكر الصاغية. ودليل واحد على جهاز أمن صدام ذو الطبيعة الاختراقية، حتى خلال الأيام الأولى لنظام البعث، حيث جهزه مسؤول بعثي سابق كان مستقبلا لعرض مرعب لجنون العظمة المؤسساتية في حزب البعث. وكعضو أقدم في حكومة البكر تلقى المسؤول دعوة لحضور حفلة شراب الكوكتيل في السفارة البريطانية والتي أقامها الملحق التجاري. وكانت الدعوة مدققة من وزارة الخارجية العراقية، وحضر المسؤول الحفلة الرسمية كما ينبغي والتي حاول فيها أن يؤكد ثانية لممثلي بريطانيا من الدبلوماسيين على أن البعث كان ملتزما في تحديث الاقتصاد

العراقي. وبعد أيام قليلة من الحفلة تلقى المسؤول دعوة أخرى للشرب، وكانت هذه المرة مع سعدون شاكر، الذي عيّن رئيسا لأمن الأمن أو أمن الدولة الداخلي، وهو واحد من وكالات الأمن الرئيسة التابعة لصدام. التقى الرجلان لتناول العشاء في نادي الصيد في بغداد. بعد ثلاثين دقيقة أو ما شابه ذلك من الحديث العام أظهر شاكر، الذي كان من أكثر الملازمين الأوائل ثقة لدى صدام، وبشكل مفاجئ كومة من الصور وطلب من ذلك الموظف المسؤول أن يعاينها. وأظهرت الصور التي التقطها مصوّر يعمل في وكالة الأنباء العراقية، ذلك المسؤول وهو يتحدث إلى الدبلوماسيين البريطانيين في حفلة السفارة التي حضرها قبل عدة أيام. «هل تعرفت إلى تلك الصور؟» سأل شاكر. أجاب المسؤول بالإثبات. «إذن عليك أن تحرص كثيرا»، واصل شاكر الحديث. «نحن نفضل ألا تذهب بعد ذلك إلى حفلات من هذا النوع. ستثير شكوكنا فحسب». تلقى المسؤول الرسالة، وصمم ألا يحضر أبدا إلى حفلة أخرى في أية سفارة أجنبية.(١٨)

وبتوجيه من صدام، أسس البعثيون شبكة نافذة في عدة مجالات وذلك لمراقبة نشاطات جميع موظفي الحكومة. وبالطريقة نفسها التي عيّن بها مسؤولون حزبيون لمراقبة نشاطات القوات المسلحة، عيّن كذلك مسؤولون مدنيون في الدوائر الحكومية لكتابة التقارير عن الوزراء والموظفين المدنيين. وبصورة عامة كان المسؤولون الحزبيون المدنيون من خريجي الجامعات الذين كانوا أعضاء موثوقا بهم في حزب البعث. كانوا يكتبون التقارير عن كل من أداء الوزراء واتصالاتهم المهنية والاجتماعية. وبمعزل عن المسؤولين الحزبين الذين كانت مواقعهم معروفة بوضوح، فإن نشاطات موظفي الحكومة كانت تراقب عن كثب بواسطة طبقة ثانوية من المخبرين الذين كانوا يعملون في مكاتب السكرتارية أو كمراسلين. وكانت كافة الاتصالات الهاتفية والبريدية تحصر وتحلّل بغية أن يعتاد موظفو الحكومة على العمل في بيئة كافكاوية حيث لم يكن هناك بديل آخر سوى اتباع تعاليم ووصايا حزب البعث. «منذ اللحظة التي قدموا بها إلى السلطة كان البعثيون منشغلين بشراء أجهزة جرثومية من كل شكل ونوع» حسب ما ذكر موظف سابق عالي المستوى. «كانوا يشترون آخر المعدات التقنية العالية الجودة من بلدان كألمانيا. كانوا على قناعة بأن كلّ من هبّ ودبّ سيتآمر ضدهم لو سنحت الفرصة. تعلمنا بسرعة أننا كنا مراقبين في أي وقت كنا نذهب إلى مكان ما وكنا تحت المراقبة في كل وقت نرفع الهاتف».(١٩)

وبالموارد الضخمة لجهاز أمن الدولة وبإدارته، كان صدام قادرا على أن يكيد

بخصومه السياسيين، وركز طاقاته على النيل من سمعتهم. ويبدو بشكل خاص أنه كان ناجحا في إقناع الرئيس البكر بأن طموح كل من حردان التكريتي وعماش في النهاية شكل تهديدا لموقعه الخاص. وبكل تأكيد يبدو أن البكر قد أخذ ذلك على محمل الجد لأنه في شهر نوفمبر ١٩٦٩ أعلن عن إعادة تنظيم البعث، والذي ثبت به موقع صدام كنائب لرئيس مجلس قيادة الثورة رسميا، ومع ذلك فإنه بقي ينفذ أعمال النائب منذ بداية العام. وتلقائيا فإن منصبي نائب رئيس الوزراء ألغيا، وبذلك حرم كل من التكريتي وعماش من امتياز رئاسة اجتماعات المجلس في غياب البكر (ومن بين ألقابه الكثيرة، كان البكر أيضا رئيسا للوزراء). وفي شهر أبريل ١٩٧٠ عيّنا بمنصب نائب الرئيس، لكنهما أعفيا من مناصبهما الأخرى، واثنان من خصومهما الأساسيين في الجيش أخذا موقعيهما في المجلس، هما حمّاد شهاب كوزير للدفاع وسعدون غيدان كوزير للداخلية. وكانت بكل بساطة مسألة وقت قبل أن ينفذ صدام الانقلاب.

بالنسبة للتكريتي حصل ذلك في شهر أكتوبر١٩٧٠ لقد جرّد من جميع مناصبه بحجة مختلقة بأنه قد فشل في مساعدة الفلسطينيين خلال انتفاضة أيلول الأسود الشعبية ضد الملك حسين ملك الأردن، مع أن سياسة العراق الرسمية التي أقرها البكر وصدام، كانت في عدم التورط. سمع التكريتي تلك الأنباء حينما كان في مدريد على رأس وفد عراقي وكان صدام قد دبر ذلك ليجعله خارج القطر. وحتى أن صدام أوصل التكريتي بنفسه إلى المطار، وكان يقبّله على وجنتيه قبل صعوده إلى الطائرة. وفي اليوم التالي أظهرت الصحافة التي تملكها حكومة بغداد صورا على صفحاتها الأمامية لكل من صدام والتكريتي وهما يتعانقان في المطار. ولكن ما إن وصل التكريتي حتى تم إبلاغه بأنه قد جرّد من منصبه الحكومي وسيعيّن سفيرا للعراق في المغرب. وقد رتب صدام موضوع نشر الصورة حتى عندما تذاع أنباء تجريد التكريتي من مناصبه يكون أمرا مستبعدا أن يحمّل أنصار التكريتي صدام مسؤولية ذلك بصورة مباشرة. ولما سمع التكريتي بتلك الأنباء شعر بالإهانة، وتجاهلا للأوامر الصادرة باستلام المنصب طار عائدا إلى بغداد لمواجهة صدام. ومع ذلك، وعند وصوله مسكه رجال أمن صدام وألقوا به في طائرة كانت تنتظره ثم طارت به إلى المنفى في الجزائر. إن السخرية بمصير التكريتي يمكن أن تنسب إلى شعور صدام بالدعابة المنحرفة. فالرجل الذي قاد الدبابات في القصر الجمهوري في ١٧ يوليو ١٩٦٨ لإقصاء الرئيس عارف يشترك بذات المصير مع الرفيق المتآمر وأول رئيس وزراء لحزب البعث، عبد الرزاق النايف-الذي نقله إلى المطار صدام بنفسه وأجبر على الذهاب إلى المنفى في الجزائر. وعلى غرار

النايف الذي اغتيل في لندن في عام ١٩٧٨، باغت رجال صدام المسلحين التكريتي بسرعة خاطفة فقتل في الكويت في مارس ١٩٧١، حيث انتقل إلى هناك ليكون قريبا من أطفاله الذين كانوا في المدرسة في بغداد.

إن مقتل التكريتي كان كتابا بعثيا في الاغتيال، ألهمته المخاوف من أن وجوده في الكويت قد يجعل منه موضعا لجمع الضباط العراقيين الساخطين. وفي صبيحة اليوم العشرين من شهر مارس (آذار) انطلق التكريتي، يرافقه السفير العراقي في الكويت، إلى موعد في المستشفى الحكومي. وعندما وصلت سيارته إلى المستشفى نصب أربعة رجال مسلحين كمينا للسيارة. ولما فتح أحد القتلة باب السيارة بقوة، أطلق آخر كان يقف خلفه خمس إطلاقات من مسافة قريبة فأرداه قتيلا على الفور. بعد ذلك لاذوا بالفرار. لقد حسّن البعثيون من تقنياتهم في الاغتيال منذ الأيام الأولى عندما أفشل صدام حسين العصبي المزاج مؤامرة اغتيال الزعيم قاسم بإطلاق النار من سلاحه بوقت مبكر جدا.

وبالمقارنة مع المأساة التي رافقت الخروج الدموي للتكريتي من مسرح البعث، فإن إزاحة عماش كانت مسألة مدنية. بعد سقوط التكريتي كان عماش يدرك تماما بأن موقعه الخاص أصبح ضعيفا. فقام بسلسلة قاسية من التعليقات حول رفاقه في حزب البعث الذين عملوا على عزله أكثر فأكثر. وجاءت النهاية في شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٧١ عندما جرّد من مناصبه الحكومية وأُرسل إلى المنفى سفيرا للعراق في الاتحاد السوفيتي. وعلى عكس التكريتي، تلقّى عماش تجريده من مناصبه بكياسة - وليس هناك شك في أنه أُحيط علما بالظروف المتعلقة بمقتل التكريتي - وأنه استغل الفرصة إلى أقصى حد في موقعه الجديد في موسكو. وفي الحقيقة أنه حقق مثل ذلك النجاح في حياته الدبلوماسية حيث انتقل بعد ثلاث سنوات ليكون سفيرا في باريس، وقدم خدماته في آخر منصب له في فنلندا حيث مات هناك. وبالرغم من خدمته المستمرة لبلده فإن الكثير من العراقيين اعتقدوا بأنه قد سمّ أثناء زيارته إلى بغداد بعد أن تسنّم صدام مقاليد الرئاسة، بالثاليوم - عنصر فلزي يشبه الرصاص، وهو معدن ثقيل يستخدم في سم الفئران التجاري وذلك من الأساليب المفضلة لدى قوى الأمن العراقية في التخلص من المعارضين.[٢٠]

إن إزاحة التكريتي وعماش، اللذين تمتع كلاهما بسيرة مهنية متميزة في القوات العراقية المسلحة، مثلت انتصارا لصدام والجناح المدني لحزب البعث على الجناح العسكري. ومنذ ذلك اليوم فصاعدا أصبحت المؤسسة العسكرية العراقية تحت السيطرة

المحكمة للحكومة، وإن مشهد الانقلاب العسكري الناجح والمتصاعد، كما حدث في مناسبات عديدة منذ الإطاحة بالنظام الملكي في ١٩٥٨، أصبح بعيدا أكثر فأكثر. وبعد رحيل كل من التكريتي وعماش، أُزيح أو اعتُقل العديد من الضباط العسكريين الرواد أنفسهم والذين كانوا يشك في ولائهم وصداقتهم للرجلين المعزولين. وبالبقية الباقية من سلك الضباط الذين أصبحوا تحت المراقبة الدائمة للحزبيين للأجهزة الأمنية التابعة لصدام، شعر صدام بأنه واثق بما فيه الكفاية بسيطرته على الجيش وذلك جعله يصرح بالقول «بطرقنا الحزبية، لم تعد هناك فرصة لأي شخص لا يتفق معنا بأن يثب على دبابتين ويسقط الحكومة».[٢١] كما فعلها أحدهم في يوليو (تموز) ١٩٦٨، وكان صدام يعلم تماما عمن يتحدث.

وبوضع رجال الجيش في جيبه بأمان، كان الوقت مؤاتيا لصدام بأن يحوّل اهتمامه نحو المسؤولين المدنيين الأقدم في حزب البعث الذين قد يشكلون عائقا لطموحه الوثاب. وحتى عندما كان منهمكا في اضطهاد الشيوعيين، ونصب الفخاخ للشيعة، واللااستقرار للأكراد، ومضايقة القوات المسلحة، لم يزل لدى صدام متسع من الوقت لتطهير غير منظم يطال السلطة المدنية في الحزب. وفي شهر مارس (آذار) ١٩٧٠ أُزيح عبدالله سلوم السامرائي، وزير الثقافة والإعلام وأحد رفاق صدام منذ الخمسينيات، من منصبه وعيّن سفيرا في الهند. وتم تطهير العديد من أعضاء مجلس قيادة الثورة بمن فيهم التكريتيين أو الذين ادّعوا القرابة مع البكر في صيف عام ١٩٧٠ ولكن إلى حد بعيد، فإن النصر الأكثر أهمية والأكثر عبرة، هو ذلك الذي زعمه صدام بشأن عبد الكريم الشيخلي، رفيقه القديم في السلاح ووزير خارجية القطر.

إن الشيخلي، وذلك سوف يذكر، شارك في محاولة الاغتيال الخائبة التي استهدفت الزعيم قاسم في عام ١٩٥٩ وعلى غرار صدام، هرب إلى دمشق وانتقل فيما بعد إلى القاهرة حيث واصل العمل من أجل قضية البعث. وفي القاهرة كان ضيف شرف في الحفلة التي نظمها صدام احتفالا بخطوبته لساجدة طلفاح. عاد إلى العراق في عام ١٩٦٣ وساعد صدام في تأسيس الجهاز الأمني الجديد للحزب. وبعد إخراج الحزب من الحكم في أواخر ١٩٦٣، أعاد الاتصال ثانية بصدام وساهم في رسم خطط اغتيال الرئيس عبد السلام عارف. وفي إحدى المناسبات في عام ١٩٦٤ أنقذ صدام من الاعتقال عندما كانوا في شقته في بغداد. «كانت الساعة الواحدة صباحا بالضبط. نهض صدام على قدميه وكان على وشك المغادرة. «الى أين أنت ذاهب؟» سأل الشيخلي. «لأنام في الوكر حيث تُخَبأ الأسلحة»، أجاب صدام. «إن دوريات الشرطة

نشطة جدا في هذه الأيام»، قال الشيخلي. «من الأفضل أن تقضي بقية الليلة هنا». في تلك الليلة تمت مداهمة مخبأ الأسلحة، ولو لم يأخذ بنصيحة الشيخلي، لكان صدام أمسك متلبسا بالجريمة».[٢٢] وأخيرا عندما اعتُقل الاثنان بسبب الإجراءات الصارمة التي اتخذها عارف بحق البعثيين في عام ١٩٦٤، كان عضو الحزب الوحيد الذي سجن مع صدام نفسه. وكان الشيخلي إلى جانب صدام عندما هرب الاثنان من السجن في عام ١٩٦٦، وكان الشيخلي مهتما بشكل كبير بإعداد الحزب للحكم، وإقصاء الرئيس عارف الثاني. في ذلك الوقت شعر صدام بقربه الحميم من الشيخلي وقد أشار إلى ذلك علنا بقوله «توأمي». وباختصار لئن كان أحد ما يتوقع ولاءً من صدام فإنه، ربما باستثناء خاله خير الله طلفاح، يكون عبد الكريم الشيخلي.

وقد قيل بأن المحاولة لحل الخصومات الشخصية المتنوعة التي حلت في السنوات الأولى للحزب بمصطلحات أيديولوجية تشبه إلى حد ما مؤرخا من شيكاغو في عصر التحريم حاول أن يوضح التفاعل بين آل كابون وخصومه. ونظرا لأن كل المشتركين في صعود البعث إلى السلطة كانوا مهتمين بالأيديولوجيا، في ذلك الحين عدّ الشيخلي منظرّا. ولد تقريبا في ذات الوقت الذي ولد فيه صدام في عام ١٩٣٥، وينحدر الشيخلي من عائلة بغدادية عريقة وكان أسلافه يديرون بغداد إبّان الأمبراطورية العثمانية. وصدام الذي لم تكن لديه أية فكرة عن تأريخ ميلاده، اتخذ من تأريخ ميلاد الشيخلي (٢٨ نيسان) تاريخا له. والشيخلي الذي هو أحد الأعضاء الأوائل في حزب البعث، ذو التعليم الجامعي، كان محترما للغاية من قبل القادة المؤسسين للحزب، ويعتبر أحد أولئك الذين استوعبوا فعلا مبادئ الحركة البعثية. بل في صيف ١٩٧١، كانت السيرة المهنية للشيخلي تتقدم جيدا من أجل راحة صدام. وكوزير للخارجية والشخصية الأقدم في مجلس قيادة الثورة، كانت بعض الأوساط تعتبره رئيسا للوزراء في المستقبل، أو حتى رئيسا للجمهورية. وفضلا عن صدام، كان هو أيضا مدنيا بموقع رفيع المستوى.

ومع ذلك، فإن الشيخلي ليس كصدام، إنه بعثي محب للفنون. كحامل لشهادة البكالوريوس في ثلاثينياته الأولى، كان وزير الخارجية الشاب الذكي يضع العالم تحت قدميه، ويستثمر الفائدة القصوى من الفرصة، إلى الحد الذي اكتسب به شهرة من يطارد النساء. وكان هناك الكثير من المظاهر في حكومة البعث الجديدة التي لا تروق لطبيعة الشيخلي الحساسة، مثل الإعدامات العامة التي وقعت في ساحة التحرير. «نحن لم نحب ذلك النوع من الأشياء، واعتبرناه غير حضاري، كما قمنا بكل أنواع التعذيب

والاختفاءات التي كانت مستمرة»، حسب ما ذكره أحد معاصري الشيخلي. «لكنّه كان منهمكا للغاية في شؤونه الخاصة ولم يفعل أي شيء حيال ذلك. أصبح منشغلاً بأهميته الخاصة لكي يرعى موقعه في الحزب».(٢٣)

في اليوم نفسه الذي نفذ فيه صدام تطهيره لعماش، أعفي الشيخلي من منصبه كوزير للخارجية ومنح لقبا أقل شأنا بتعيينه سفيرا لدى الأمم المتحدة. والتصور العام حول إزاحة الشيخلي كان أيديولوجيا، أي أن صدام كان يرتاب بمحاولته للترويج للمصالحة بين حزب البعث العراقي وحزب البعث السوري، ذلك التحرك الذي شعر صدام بأنه سيقوض موقعه لأنه الشخص الذي وقعت عليه مسؤولية خلق الصدع في المقام الأول. وكان منصب الشيخلي في نيويورك معادلا لإرساله إلى المنفى، لأنه أصبح أمرا مستحيلا بالنسبة له أن يؤثر في أحداث العراق من الأمم المتحدة. وأخيرا عاد الشيخلي إلى بغداد عندما تقاعد، وبعد أن أصبح صدام رئيسا، اغتيل في عام ١٩٨٠ عندما كان يقوم بزيارة دائرة البريد في بغداد وذلك لتسديد فاتورة الهاتف.(٢٤)

ومع ذلك، ثمة تفسير آخر لإزاحة الشيخلي يعطي تبصوراً مذهلاً للدسائس الأسرية التي هيمنت على الحرم الداخلي لحزب البعث خلال تلك الفترة، يدلي به ابن عم الشيخلي، صلاح الشيخلي، الذي أصبح نيابة عن صدام مديرا للتخطيط قبل الفرار إلى المنفى في أواخر السبعينيات. وحسب روايته للأحداث، كان صدام والشيخلي صديقين حميمين جدا وكان صدام يتمنى أن يتزوج الشيخلي من شقيقته الصغرى سهام، كما كانت العادة جارية بين العرب. على الرغم من أن أسرة الشيخلي قد استبعدت سابقا فكرة السماح لأبنائها بالزواج من عائلة فلاحية من العوجة، كان كبار العائلة يشجعون الشيخلي فعلا على أن يعطي اعتبارا جادا لموضوع الزواج من أخت صدام لأنهم كانوا يعتبرون أن توازن السلطة قد انتقل من النخبة التقليدية الحاكمة وأصبحت الآن بيد الفلاحين. ورغم أن صدام والشيخلي كانا قريبين أحدهما من الآخر، الا أن علاقتهما كانت مهنية أكثر من أن تكون شخصية. فالشيخلي الذكي والمهذب كان يقدّر في صدام شجاعته وقوته الجسمانية، ورأى فيه الشخص الذي سيكفل نجاح حزب البعث. ولكن بمعزل عن السياسة لم يكن صدام ذلك الشخص الذي كان ينشد الشيخلي رفقته.

ولما وصل الأمر إلى الزواج قد يكون الشيخلي ميّالا إلى إسعاد صدام، بيد أن الموقف في حقيقة الأمر كان معقدا للغاية حيث إن الرئيس البكر، الذي كان لديه خمس بنات، كان حريصا على تزويج واحدة من ذريته إلى واحد من نجوم الحكومة

الصاعدين. وفي مناسبات عديدة طرح البكر تلميحات قوية على الشيخلي بأن عليه الزواج من إحدى بناته. وكمن وجد نفسه عالقا ما بين صخرة ومكان صلب، اختار الشيخلي أن يتزوج امرأة من اختياره هو، لا تمتّ بأية صلة لكل من البكر أو صدام. وقيل بأن صدام شعر بالانزعاج الشديد لقرار الشيخلي هذا، وبالرغم من حضوره لمراسيم العرس، إلا أنه بقي لنصف ساعة فقط في ضيافة الشيخلي. وفي فترة أسبوعين إلى ثلاثة من زفافه طُرد الشيخلي من الحكومة وأُجبر على المنفى في نيويورك.(٢٥) والحقيقة أن السيرة السياسية لواحد من أبرز العاملين في حزب البعث قد حطمت بسبب خلاف من هذا النوع كان دليلا على قوة الروابط الأسرية والعشائرية التي كانت تربط أفراد زمرة البعث الحاكمة بعضهم إلى بعض، الروابط تقع في صميم الكثير من الأزمات التي لها آثار خطيرة على استقرار النظام في المستقبل.

وليس كطرد حردان التكريتي، بدا أن صدام قد سبب إزاحة الشيخلي بلا قسوة. وفي ليلة طرد الشيخلي من الحكومة صوّر الرجلان وهما يتناولان طعام العشاء بانشراح. كان صدام حريصا كل الحرص على أن يكون في حل من أية مسؤولية حيال موضوع طرد الشيخلي، الذي كان له مجموعة أنصار قوية داخل الحزب والقوات المسلحة. وحتى لو أن اختيار الشيخلي لعروسته لم يعكر صفو علاقتهما، فمن غير المحتمل أن يبقى الشيخلي على قيد الحياة في عمله إلى فترة أطول. وبرأي صلاح الشيخلي أن طرد ابن عمه له علاقة كبيرة بالنجاح الذي حققه في حكومة البكر بقدر الإهانة الواضحة التي سببها لصدام بعدم الزواج من أخته. «لقد شكل عبد الكريم تهديدا كبيرا لصدام. كان شعبيا وموهوبا. لكنه، مثل الكثير منا، كان عليه أن يدرك أن الخطر قادم. لو قام بعمل شيء ما بشأن صدام في ذلك الحين، لكان تاريخ العراق المعاصر ينعم بسعادة أكثر».(٢٦)

إن تجريد الشيخلي من مناصبه وإبعاده عن بغداد، الذي جاء في الوقت الذي تم فيه تطهير القوات المسلحة من حردان وعماش، دفع بموجات صادمة في أوساط النخبة الحاكمة للبلد وكشف عن موقع صدام كقوة جوهرية خلف عرش الرئيس البكر. ولئن استطاع صدام أن يتصرّف ضد الشيخلي، فمعناه أن لا أحد من البعثيين في أمان. وكإجراء نهائي لاستئصال المعارضة البعثية، في تموز (يوليو) ١٩٧٣ تحرك صدام ضد عبد الخالق السامرائي، الذي كان كالشيخلي، يتمتع بشهرة كمنظّر قيادي كان يتطلع إلى أن يكون المرشح لقيادة الحزب مستقبلا. وفي تموز أودع السجن واحتجز في ظروف مرعبة في زنزانة منعزلة لمدة ستة أعوام. بعد ذلك، وبأيام قليلة من نجاح

صدام في طموحه حيث أصبح رئيسا لجمهورية العراق، أُخرج من زنزانته وأُطلقت النار عليه.

إن سجن السامرائي كان مرتبطا بواحدة من أكثر المحاولات جدية لإقصاء محور البكر-صدام. وبفضل جهود صدام تمّ التعامل مع معظم المعارضين المعروفين من النظام وذلك في عام ١٩٧٣ ومع ذلك فإن حماسة صدام لاستئصال خصومه الشخصيين ولّدت وبشكل جلي شعورا كبيرا بالمرارة داخل الحزب بين أوساط الباقين على قيد الحياة، خاصة، وعلى ضوء ما حدث لرفاقهم، أنهم يتوقعون أن يشاركوهم ذات المصير. إن الشعور العميق بجنون الاضطهاد الذي نجح صدام في خلقه في قلب الحكم نجم عن واحد من أكثر الأحداث غرابة، بالرغم من خطورتها، في فترة مبكرة من تاريخ حكومة البعث. وما جعل محاولة انقلاب أواخر شهر يونيو ١٩٧٣ من أكثر المحاولات شهرة، هو أن فارسها كان ناظم كزار، أحد الرفاق المقربين جدا إلى صدام والذي قامت شهرته على التقنيات الوحشية التي ابتكرها في قصر النهاية لاستئصال المعارضين.

وفي مجالات عديدة اكتسب كزار، الذي اشترك مع صدام في المساوئ المتشابهة للخلفية، ذات الطموح القاسي والتصميم كرفيقه البعثي. كان أبوه شرطياً جاء من العمارة إحدى مدن العراق البائسه التي يعاني أهلوها فقراً مدقعا. وهو من الشيعة القلائل الذين وصلوا إلى مراتب عالية في البعث، حيث ارتبط كزار بالحزب في عام ١٩٥٩، عندما انتقل إلى بغداد للدراسة في معهد التكنولوجيا. وقد ميّز نفسه كعضو حزبي من خلال اضطهاد الشيوعيين بعد انقلاب عام ١٩٦٣ وفي الحقيقة كانت نشاطاته في قصر النهاية، والتي لقّن من خلالها صدام الشاب الفن البربري لاستخلاص المعلومات وكسر الروح الإنسانية، مثيرة للإعجاب فتم تعيينه رئيسا للشرطة السرية في عام ١٩٦٩-وبإلحاح شخصي من صدام. وكان كزار في العديد من المجالات في حزب البعث شجاعا ومندفعا، وكان مسؤولا عن الاعتقال والتعذيب والإعدامات السرية لمئات عديدة من المعارضين، بمن فيهم الشيوعيون، الأكراد، الناصريون والبعثيون المنشقون، وأية مجموعة أخرى مجازفة تتحدى جناح صدام في حزب البعث.

ولما كانت شهرة كزار قد بنيت على العنف، فإن الأمر لم يعد مفاجئا، إذا ما كان مدافعا صلبا عن استخدام الأساليب العنيفة لتحقيق الأهداف السياسية. كان يؤمن بأن القوة هي السبيل الوحيد للتعامل مع الأكراد والشيوعيين، وطالب لمرات متكررة بسحق

الجهاز العسكري للأكراد. وعلى تلك القضية بدأ صراعه مع أولئك البعثيين، بمن فيهم صدام، الذين كانوا يفضلون الأسلوب الأقل مواجهة، خاصة بما يتعلق بالأكراد حتى ذلك الحين. وحتى لو كان صدام لا يملك النية في احترام اتفاقاته مع الأكراد، إلا أن ذلك كان موقفه الرسمي.

والمفهوم ضمناً هو أن تبرّم كزار كان نتيجة الإحباطات المتزايدة في الحزب بأن البلد تهيمن عليه زمرة صغيرة من ضباط الجيش والتكريتيين، في حين كان الهدف الأصلي للبعثيين الذين قاموا بثورة ١٩٦٨ هو تأسيس حكم عريض القاعدة. أراد كزار ومناصروه، والذين من ضمنهم حزبيون منذ أمد طويل، أن يعقدوا مؤتمرا خاصا بالبعث لينتخبوا قيادة جديدة. ولو كان لدى كزار سبب جيد للرغبة في إزاحة زمرة البكر-صدام، فإن الطريقة التي انطلق بها لتحقيق هدفه تركت الكثير مما هو مطلوب. وحتى في معايير العراق الثوري، فإن الخطة التي رسمها كزار للسيطرة على القطر كانت طائشة بشكل واضح. وكرئيس للشرطة السرية كان يعتقد بأنه عبر اختطاف كبار الضباط في الجيش ومدراء قوة الشرطة المدنية سيأخذ على عاتقه السيطرة بطريقة ما على الجهاز الكلي لأمن البلاد. علاوة على ذلك، لو تمكن من اغتيال البكر وصدام، فإن كزار سيقنع رهائنه على تأييده (إن قدراته القصوى على الإقناع، بطبيعة الحال، أُنشئت في أقبية قصر النهاية)، وسيكون قادرا على بسط السيطرة على البلاد.

أن الفعل الأول لتلك الخطة الساذجة للغاية نفّذ في صبيحة الثلاثين من يونيو ١٩٧٣، عندما دعا كزار الفريق الركن حماد شهاب، وزير الدفاع، والفريق سعدون غيدان، وزير الداخلية، لتفتيش معدات الترصّد الإليكتروني التي نصبها للتجسس والتجسس المضاد في المركز الذي ابتناه في ضواحي بغداد [في منطقة الرشاد تحت اسم وهمي «مؤسسة الحسن بن هيثم للأبحاث العلمية»]. واستذكر غيدان كيف أنه فوجئ بتلقي دعوة من كزار لأنه كان قد قام بزيارته مسبقا.(٢٧) ومع ذلك فقد أقنعه كزار بالقيام بجولة، فغادر مكتبه مع حرسه الخاص. ولما وصل إلى المركز ترك حرسه الخاص في الخارج «واثقا من كزار كعضو في الحزب». وما إن دخل حتى أحاط به أربعة من رجال شرطة الأمن المسلحين ببنادق آلية، وأخبروه بأنه رهن الاعتقال. اقتيد إلى زنزانة سجن تحت الأرض حيث تم إيقافه وتقييده إلى وقت آخر في ذلك المساء. وبعد فترة قصيرة أدرك غيدان أن شهاب، وزير الدفاع، قد سجن في زنزانة مجاورة. وعندما استفسر عن اعتقالهما، أخبره شهاب بأن ثورة قد حدثت وقد اعتقلا «من أجل حمايتهما».(٢٨) وبضمان وضع شهاب وغيدان خارج طريقه، انتقل كزار إلى المرحلة

الثانية من مخططه، أي اغتيال كل من البكر وصدام. وكانت خطته أن يقوم بقتلهما عندما تهبط طائرة الرئيس البكر في مطار بغداد في الساعة الرابعة عصرا بعد عودته من زيارة رسمية إلى بولونيا. وسينتظر صدام في المطار للترحيب بالبكر، ورتب كزار الأمر بإرسال كتيبة من شرطة الأمن لتكون في المطار لتقتلهما في لحظة نزول البكر من الطائرة. ومع ذلك، فإن الخطة انحرفت، عندما تأخرت طائرة البكر في مغادرتها من وارسو، وبعد ذلك تأخرت أكثر عندما هبطت في بلغاريا للتّزود بالوقود، وتفاجأ فريق البكر حين اكتشف أن الحكومة البلغارية كانت قد أعدت ترحيباً مرتجلاً للرئيس البكر خلال توقفة القصير. بناءً على ذلك أصبحت الساعة تقريباً الثامنة مساءً قبل وصول الطائرة الرئاسية أخيرا إلى بغداد، وفي ذلك الوقت اعتقد قائد الزمرة الأمنية بأن المؤامرة اكتشفت فقام بتشتيت رجاله ولاذ بالفرار.

في تلك الأثناء، كان كزار مطمئنا في جلسته أمام جهاز التلفزيون ليشهد عملية الاغتيال، ولما قطعت شبكة التلفزيون التي تسيطر عليها الدولة برامجها لتنقل فعاليات الرئيس-بما في ذلك الأمور العادية مثل رجوعه من زيارة روتينية إلى مكان مثل بولونيا. ولما رأى كزار البكر ينزلِ بسلام ويختفي مع صدام في صف مسلح طويل، استنتج خطأً، بأن المؤامرة قد كشفت، فقرر الهروب من البلد. ولضمان سلامته، أخذ كزار شهاب وغيدان معه كرهائن. وغادرت المجموعة بغداد في رتل من السيارات المسلحة متوجهة إلى الحدود الإيرانية، حيث اعتقد كزار بأن الإيرانيين، وبسبب نزاعهم مع بغداد على مستقبل الممر المائي لشط العرب، سيمنحونهم اللجوء. وفي الطريق اتصل بالبكر وعرض عليه مقابلته لمناقشة الخلافات مع النظام، وحلها بسلام. ومن بين مطالبه أنه طالب بتطهير «العناصر الانتهازية» في حزب البعث، وتلك إشارة واضحة إلى صدام. وهدد كزار بقتل شهاب وغيدان ما لم تُلبَّ مطالبه. رفض البكر التفاوض وأمر بالقبض على كزار، حيا أو ميتا. تولى صدام مهمة اعتقال كزار، واستجاب بلذة للتحدي. وبتأمين بغداد، زحف الجيش والقوة الجوية لإيقاف كزار قبل أن يصل إلى الحدود. وحاصرت طائرات الهليكوبتر والطائرات الحربية مجموعة كزار وأجبرتها على التوقف. وقبل الاستسلام أمر كزار جنوده بإطلاق النار على شهاب وغيدان: قُتل شهاب، لكن غيدان وبالرغم من جراحه الخطيرة، بقي على قيد الحياة لأن جسد شهاب سقط أمامه فتحمل العبء الأكبر من إطلاقات البنادق الآلية.

ومن اللحظة التي استسلم فيها قد عرف كزار مصيره، وعزاؤه الوحيد هو أنه جُنّب الأشياء المرعبة المخصصة للخونة في قصر النهاية. وتم تشكيل محكمة خاصة

بعضوية أربعة أعضاء من مجلس قيادة الثورة، وفي اليوم السابع من يوليو حكم بالموت على ثمانية من مسؤولي الأمن وثلاثة عشر ضابطا، بمن فيهم كزار، وتم إعدامهم في وقت متأخر من اليوم ذاته. وفي اليوم التالي حوكم ستة وثلاثون شخصا، من بينهم اثنان من أعضاء مجلس قيادة الثورة هما عبد الخالق السامرائي ومحمد فاضل. ولسوء حظهما أن كزار اتصل بهما هاتفيا أثناء محاولته الانقلابية ليخبرهما بأنها قد وقعت. وأخذت المحكمة الخاصة بالرأي الذي يقول بأن عليهما أن يوصلا تلك المعلومات إلى السلطات المعنية. وإن فشلهم في القيام بذلك اعتُبر معادلا للخيانة، وحكم عليهما بالموت مع اثني عشر آخرين. ولأهمية السامرائي، كأحد المنظّرين الرئيسين في الحزب ولأن سجله السابق كان سليما، عدلّت عقوبته إلى السجن المؤبد، بيد أن الآخرين أُعدموا حالما تمّت المصادقة على قرار الحكم.

إن سحق مؤامرة كزار عزز موقع صدام ليصبح الرجل الثاني الأكثر قوة في العراق بعد الرئيس البكر، وذلك إنجاز هائل لأنه بعد ثورة ١٩٦٨ مباشرة كان يعتبره الكثير من البعثيين «الحلقة الأضعف» في الحزب. وعلى مدى خمسة أعوام فقط تمكن من القضاء على جميع خصومه الرئيسين، الصديق والعدو، وقد حيّد كل التجمعات أو الأحزاب المعادية لحكم البعث، مثل الأكراد والشيعة. واستفسر أحد البعثيين البارزين، الذي لم ير صدام لسنوات عديدة، لكنه التقى به مصادفة في بغداد في ذلك الوقت تقريبا، عن سبب عدم رؤية صدام علنا. «كنت في مواجهة مع جميع الثعالب» كان ذلك جوابا مبهما من صدام.

وبعد اكتشاف مؤامرة كزار استغل البعث الوقت في إعادة بناء الحكومة ليؤكد بأن موقع النخبة الحاكمة أصبح أكثر حصانة. وحتى أثناء محاكمة كزار ورفاقه المتآمرين تم عقد اجتماع طارئ لقيادة البعث، تمت الموافقة خلاله على عقد انتخابات جديدة، والتي ستسمح للمرشحين الموالين لصدام أن يُنتخبوا في مجلس البعث الحاكم. وتم تطهير جهاز شرطة الأمن ووضع تحت سيطرة صدام وذلك لفشله في منع محاولة كزار الانقلابية، وتمت الموافقة على هدم قصر النهاية، حيث إن الحزب أصبح واثقا تماما بأنه لم تعد هناك أية حاجة لحجر التعذيب التي أقامها كزار. وعزمت الحكومة على أن تباشر بمهمة تعزز موقعها وذلك بالتخفيف من القيود المفروضة على الحريات المدنية والشروع ببرنامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية، والذي سيخلق مناخا من الرخاء في القطر، وينفخ في الحكومة المزيد من الثقة.

الفصل الخامس

باني الشعب

بالسلطة جاء الثراء. في السنتين الأوليين بعد ثورة تموز، شغلَ صدام مكتباً جانبياً صغيراً في القصر الرئاسي، كان يلائم مكانته. ولما تحسنت منزلته في الحزب، تحسن أثاثه، وفي بداية السبعينيات انتقل إلى مكتب أكبر في بناية المجلس الوطني، والتي ضمت أيضاً وزارة الخارجية. إنّ مجمّع مباني المجلس الوطني، الذي كان يقع في المنطقة نفسها التي يقع فيها القصر الرئاسي، قد قوّضَ في أواخر الخمسينيات عندما كانت فكرة خلق مؤسسات ديمقراطية فكرةً رائجة في العراق. ومن عام ١٩٧٠ فصاعداً، وبعد أن تمّ تطهير صالح مهدي عماش ومن الحكومة، انتقل صدام إلى مكتب عماش، والذي كان يشغله سابقاً رؤساء وزراء العراق، وكانت بنيته التحتية من موظفي سكرتارية ومرشدين وباحثين ومساعدين متكاملة. وواصل صدام العمل لساعاتٍ طويلة، حيث كان يصل مكتبه فجراً ويبقى حتى وقتٍ متأخر من الليل، بيد أنّ مثابرته الشديدة مجتمعةً مع شبكة استخباراته الواسعة والشاملة أكسبته فائدةً هامة بأن يتقدم دائماً خطوة إلى الأمام على رفاقه.

ولأول مرةٍ في مسيرتهِ المهنية، كانت مكافأة صدام رابحة، فسرعان ما طوّر الميول الغالية لتلائم مكانته كرجل البلاد القوي. وعلى غرار الكثير من الأثرياء من أصولٍ فلاحية، كان اهتمامه الأساسي في الملابس والسيارات الثمينة. فأخذ يتردد على واحدٍ من أغلى الخيّاطين في بغداد، خياطة هاروت، والتي تقع في أحد الأسواق حيث الأسعار فيه فوق ما يستطيعه معظم العراقيين. وفيما بعد ولما أصبح صدام رئيساً للجمهورية، أشبع رغباته بزيارة خيّاطهِ مرةً في الأسبوع، طالباً منه بدلات عديدة في وقت واحد. وكان اهتمامه بالسيارات مقتصراً على شراء ثلاث أو أربع من أرقى أنواع المرسيدس المترفة، والتي يشتريها في كل سنة من الكويت ـ بتكييف كاملٍ وهي شرط أساسي للعيش في حرارة صيف بغداد.

كان على صدام أيضاً أن يوفر وسائل الراحة لأسرته المتنامية. ففي عام ١٩٧٢ كان لديه ثلاث بنات بالإضافة إلى ولديه الاثنين، عدي (١٩٦٤)، قصي (١٩٦٦)، رغد (١٩٦٧)، رنا (١٩٦٩) وحلا (١٩٧٢). وفي السنوات القليلة الأولى بعد ثورة (١٩٦٨)، عاش صدام وأسرته في بيت كبير أقيم على أرض خاصة في القصر الرئاسي، الذي كان، فضلاً عن إيوائهِ السكن الرئاسي الرئيس والمجلس الوطني، كبيراً ومجمّعاً محصّناً بقوة ومجهزاً بوسائل الراحة لمعظم الأعضاء البارزين في النظام. عاشت عائلة صدام في رفاهية، ومعظم البيوت كانت مجهزة بأحواض للسباحة ومجموعاتٍ من الخدم. والوصول إلى المجمع يمكن بعبور أحد الجسرين المحروسين حراسة مشددة: جسر الجمهورية (بسبب قربه من ساحة التحرير) أو جسر المعلّق، اللذين على دجلة، في نهاية المجمع.

وفي تلك الفترة أيضاً أخذ صدام يحصل على الأرض ليبني عليها بيوتاً له ولعائلته خارج بغداد، وبدأ بناء أول بيت من بيوت صدام الكثيرة في عام ١٩٧٠، حيث استغل صدام علاقته الحميمة مع البكر بإتقان للسيطرة على قطع الأراضي المميزة. وفي ذلك الوقت بدأت تلك البيوت تنفق بغير حساب وكأنها قصور أكثر من كونها بيوت عوائل عادية، وفي السنوات التالية استُخدمت لأغراض مختلفة جداً عن تلك التي بُنيت من أجلها أصلاً. استُخدمت لخزن ترسانة أسلحة الدمار الشامل المحظورة. كانت هناك، بطبيعة الحال، نفحات قوية من الفساد الخاص بالأموال الشخصية التي اكتنزتها النخبة البعثية الجديدة. وزعم صلاح عمر العلي، الذي أصبح وزيراً للإعلام بعد الثورة، بأنّه كان عليه أن يعالج طوفان من الشكاوى من أعضاء الحزب في منطقة تكريت حول الأراضي التي صادرها البكر وصدام وخير الله طلفاح. «لقد بدأت بنسبة صغيرة، ولكن بعد مدة كانوا يأخذون ما يريدونه»، كما ذكر العلي. «كان الناس يُطردون من أرضهم ويحرمون من أرزاقها. وكان خير الله طلفاح أسوأهم إزعاجا وانتهاكاً، وسرعان ما أصبح البكر وصدام سيئين جداً. لقد سبّبوا شعوراً بالاستياء في أوساط أعضاء البعث العاديين» [1].

وليس هناك من تفوته فرصة الدعاية، وكان صدام حريصاً على استغلال استقرار حياة عائلته، والتي صوّرت عن عمد في وسائل الصحافة التي تديرها الحكومة العراقية بأنها النموذج الذي يجب أن تتطلع إليه الطبقات العراقية الوسطى المتحولة اجتماعياً. لقد أكد صدام وبشكلٍ خاص على أنّ ساجدة، زوجته، كانت تعمل معلمة غير متفرغة بينما كانت ترعى خمسة أطفال. وبدأت صور صدام وعائلته بالظهور في الصحافة

العراقية التابعة للدولة، بما فيها صوره وهو يمرح في الماء مع أطفاله أيام العطل. إنّ نمو عقيدة عبادة الشخصية لدى صدام أصبح جزءاً مهماً من استراتيجيته للاستيلاء على السلطة، وفي هذه المرحلة المبكرة من حياته المهنية، ركزت حملة الدعاية على الحياة الأسرية المزعومة لعائلة صدام حسين. وفي الصور المنشورة في الصحافة العراقية تظهر عائلة صدام سعيدة حقاً، ولا ضير أبداً بالنسبة لصدام بأن يقدّم كرئيس للأسرة العراقية برمّتها.

وحتى عادات صدام في الطعام قد تغيرت. فالولد الفلاح المسكين في العوجة، الذي نشأ على وجبة عيشٍ مكونة من الأرز والبقوليات، تكوّنت لديه الآن ذائقة للطعام على الطراز الأمريكي، والذي أصبح رائجاً إلى أقصى حد في أوساط البرجوازية العراقية الناشئة حديثاً. وكان مولعاً بشكل خاص بالشواء، وطبقه المفضل كان الأضلاع القليلة اللحم التي كان يزدردها مع شرابه المفضّل، نبيذ ماتيوس الزهري البرتغالي، بالأحرى تعلّقه بالسُّكّرين وليس ذلك بالضبط الاختيار الأكثر متعة بالنسبة لرئيس الدولةِ مستقبلاً. وفي شبابه كان صدام يدخن الغليون، وأخذ يتظاهر بذلك منذ إقامته في القاهرة وحتى الوقت الحالي. وتدريجياً تحوّل إلى السيجار، الذي استمر بتدخينه خلال حياته. وعندما لم يكن كثير الانشغال في عمله في مكتبه، كان يرتاد بعض مطاعم بغداد الأكثر أناقةً، والدور التجارية والتي كانت فوق متناوله قبل استيلاء البعث على الحكم. والأمكنة التي كان يفضل ارتيادها هي مطعم دنانير ومطعم المطعم. وللراحة والاستجمام كان يحب الذهاب للصيد، وفي العالم العربي تتكون تلك من لعبة إطلاق النار. في بداية السبعينيات كان أصحابه في الصيد هم رفاقه السياسيون، مثل رئيس شرطة الأمن، سعدون شاكر والأخ غير الشقيق برزان. وكانت مواقعهم المفضلة هي الكوت، السويكة، سامراء، الدور، وتكريت، وكانت حملات الصيد ثابتة أسبوعياً في الأعمال الروتينية لصدام. وكان عادةً ما يرافقه أحد حراسه الشخصيين وبعض المسؤولين في حزب البعث. ومجموعة الصيد كانت تصيد في معظم الأحيان طيور الدّراج أو طيور الحجل التي تشوى فيما بعد. وصدام الذي تمتع بشهرةٍ كصّياد ماهر، كان يدعو أسرته وأصدقاءه إلى نزهةٍ في الهواء الطلق. ومع ذلك، فإنّ الدعوة التي كان يوجهها صدام لأحد رفاق الصيد لم تكن بالضرورة تعني بأنّ الحياة المستقبلية للبعثي الشاب آمنة، والواقع أن صدام كان يوظفها للتعرف على أعداء المستقبل، أو الاستفادة من المناخ المريح، لجلب أية خلافاتٍ أيديولوجية إلى السطح. وعلى الأقل هناك اثنان من أصحاب صدام في الصيد ندما على تلك التجربة، وهما طاهر أحمد

أمين الذي أعدم بتهمة الخيانة في عام ١٩٦٩، وسعد السامرائي الذي اغتيل في عام ١٩٨٢

وفي الأوقات التي لم يخرج فيها للصيد، كان المكان المقفل الذي يرتاده صدام هو نادي الصيد في بغداد الذي يقع في منطقة المنصور. ومنذ قيام الملكية، وبغداد تزهو بعدد من نوادي الصيد. وكان البريطانيون يجتمعون في نادي العلوية في أوج العهد الملكي، وكان هناك عدد من النوادي الأخرى، كان يقع معظمها بالقرب من نهر دجلة، حيث كانت ترتادها فئات اجتماعية مختلفة؛ ونادي الهندية، مثلاً، كانت ترعاه عوائل مسيحية، بينما كانت عضوية نادي المنصور الحديث العهد مستقاة بصورة رئيسة من الطبقة الوسطى الصاعدة حديثاً في بغداد. ومن بداية السبعينيات أخذ نادي الصيد يميل إلى الارتباط مع نخبة الحكم الجديدة في القطر. وفضلاً عن المنتدى المريح فإن مساحات النادي الواسعة والمصانة بنقاء كانت تضم مسبحاً، وقاعات لعبة التنس، ومرافق ركوب الخيل. كذلك كان النادي يقوم بنشاطات متنوعة، مثل حفلات الصيد وأعمال اجتماعية، لتسلية أعضائه. إنه المكان الذي كانت تزوره النخبة الحاكمة في القطر خلال أوقات الفراغ لاستجمام أو راحةٍ ملحّة.

ولما وطّد سلطته بقوة، استغل صدام النادي، وكأنّه تقريباً إقطاعية شخصية عائدة له، إلى حد أنّه في بداية السبعينيات أجازَ برنامجاً تطويريا لتوسيع مرافق النادي. وكان غالباً ما يتواجد في موقع البناء ليتفقد تقدم العمل في مساء يوم الجمعة وكان ذلك الوقت الذي ينظم به عراقيون من الطبقة الوسطى إلى المسؤولين الأقدم في حزب البعث لتناول وجبة طعام مريحة في النادي مع عوائلهم. ويذكر أعضاء النادي السابقون بأنّ السمة البارزة لزيارات صدام التفقدية كانت في عدد الحراس الشخصيين الذين يجلبهم معه. «كان هناك على الأقل ثمانية رجال مسلحين معه على الدوام. بشكلٍ عام يكون اثنان منهم على كل جانب وأربعة خلفه. ما من أحد غيره في البعث أحتاج إلى مثل هذه الحماية، وإنّ وجود الحراس الشخصيين أضفى على صدام لمحة شريرة»[٢].

وبالرغم من مظهره المرعب، كان صدام يخرج عن أسلوبهِ ليرحب بأعضاء النادي. إنّ الحرج الخجول الذي أصاب محاولاته المبكرة في التواصل الاجتماعي في بغداد يبدو أنّه قد استبدل إجمالاً بأسلوب أكثر مجاملةً. إنّ نادي الصيد كان ملاذ صدام، المكان الذي استطاع به أن يبحث عن المأمن في نهاية كلّ يوم عملٍ طويل، أو في عطلة نهاية الأسبوع. وكان يصلُ عادة إلى النادي مع بعض رفاقهِ المقرّبين، مثل عبد الكريم الشيخلي أو سعدون شاكر، وحراسهِ الشخصيين اليقظين دائماً. كان يأخذُ

مائدةً في إحدى الزوايا ويجلس وهو يتحدث بهدوء مع مجموعة من أصدقائه وهم يكرعون شراب الويسكي المسمّى بـ «جوني ووكر بلاك لابل». وكان صدام في معظم الأوقات يجالس أصدقاءه المقرّبين جداً إليه، ولا يجتمع كثيراً بأعضاء النادي الآخرين. وكذلك لا يشبه الأعضاء الآخرين من الذكور الذين كانت ترافقهم زوجاتهم غالباً في الغداء أو العشاء، فإنّ صدام لم يصحب ساجدة معه، حتى في الأوقات التي قدم بها النادي حفلات اجتماعية مسائية مثل رقصة العشاء أو برنامج الرقص في الملهى. الأعضاء الوحيدون من أسرة صدام الذين جاؤوا إلى النادي كانوا أطفاله، وخصوصاً ولداه، عدي وقصي، اللذان عندما كبرا، أخذا يجيئان إلى النادي في عطلة نهاية الأسبوع، ليلعبا مع الأطفال الآخرين. إلا أنّ ساجدة المشغولة بأطفالها الخمسة، كانت نادراً ما تظهر علناً، بمعزلٍ عن ظهورها العرضي في صحافة بغداد. وبالرغم من تحفظهِ، كان صدام يعرف معظم أعضاء النادي، وكان يشترك معهم في حديث مؤدب لو دعت الحاجة. ولأنّ أكثريتهم في أوائل السبعينيات كانوا يدركون جيداً نشاطات قوات أمن صدام، فإنه حتى محاولات صدام في النكات يمكن أن يساء فهمها بسهولة. ذات مرة ذكر أحد أعضاء النادي السابقين، وهو متزوج من امرأةٍ بريطانية، بأنه كان في أحد الأيام في النادي برفقة ابنتيه وكان يتحدث إليهما باللغة الإنجليزية. استمع صدام إليهم مصادفةً، فجاء إلى ذلك العضو وعلّق قائلاً «أعتقد أنّ الوقت مناسباً لتتحدث معهما بالعربية». كان صدام يبتسمُ للبنت الصغيرة عندما أبدى تعليقه، غير أنّ ذلك العضو، الذي كان يشغل منصباً أعلى في حكومة البعث، لم يكن مقتنعاً بأنّ صدام علّق على ذلك مازحاً، وعزم في المستقبل أن يتحدث مع ابنتيه باللغة العربية أمام الملأ.[٣]

وكانت بداية السبعينيات الفترة التي نشدَ فيها صدام حقل الصورة الشعبية المحبّبة، وكان الكثير من العراقيين من المستقبلين لأفعال الكرم المرتجلة من لدن «السيد النائب». وتقع قريباً من القصر الرئاسي في وسط نهر دجلة جزيرة صغيرة تعرف محلياً جزيرة الخنازير [أم الخنازير] والتي تعتبر مركزاً للنزهة الشعبية في فصل الصيف بالنسبة للعوائل البغدادية. ومع ذلك، وبسبب قربها من القصر، وضعت الجزيرة تحت المراقبة الدائمة في حال قد يستخدمها معارضو النظام كنقطة انطلاق لشن هجماتهم على مركز عصب النظام. وكانت هناك مناسبات عديدة والتي كانت فيها العوائل العراقية تتنزه في الجزيرة في العطل العامة وكان صدام يقاطع احتفالاتهم، لأنه كان يشق طريقه إلى الجزيرة مع حرسه الخاص من القصر الجمهوري بواسطة زوارق مزّودة بمحركات.

كان صدام يذهب من عائلةٍ إلى أخرى، للتعرف عليهم شخصياً والاستفسار عن أحوالهم العامة. وبالرغم من أنّ الهدف الرئيس من زياراته كان للتحقق من أنّ الجزيرة لم تُستخدم لأيّ نشاط تخريبي، إضافة إلى أنه يحاول أن يترك انطباعاً طيباً. وعندما شاهد، مثلاً، بعض الرجال في مجموعةٍ كانت تتنزه، وهم يحتسون الويسكي، أرسل أحد حراسه الشخصيين إلى القارب ليجلب حقيبة من المشروبات الروحية ليسلّمها فوراً إلى المتنزهين، وفي أقصى مكان في الجزيرة مرّ بمجموعة أخرى كانوا يحتسون الخمرة، وكذلك أرسل حرسه الشخصي ليجلب حقيبة أخرى من الزورق. وقد تكون تلك بوادر رمزية من جانب صدام، إلا أنها مع ذلك، كانت نتيجتها الفوز بالشهرة في أوساط سكان بغداد بأنّه الشخص الذي يهتم بالعراقيين البسطاء.

وبطريقةٍ ما فإنّ أسلوب المعيشة الثري هذا يحتاج إلى من يدفع له، وأثبت صدام نفسه على أنه الخبير الماهر في استغلال قنوات الدخل الخارجة عن المعتاد لينفق على حاجاته الضخمة وحاجات قواه الأمنية. وإحدى تلك المغامرات الأولى التي جرّبها صدام كانت إعادة تعديل سباق الخيل. خلال الحكم الملكي، كان سباق الخيل رياضة وطنية، وبالرغم من أن المراهنة تعتبر غير إسلامية، فإن المقامرة قد أنتجت دخلاً نافعاً للحكومة. إنّ الرئيس المتزمت قاسم كان قد حرّم سباق الخيل، ولكن عندما وصل البعثيون إلى السلطة رفع صدام ذلك الحظر. وكانت المقامرة في سباقات الخيل مجازة، وإن صدام الحذر أقام نظاماً تصبُ به بعض الأرباح من مؤسسات المقامرة الجديدة في حساباته الخاصة، وتلك الوسيلة تمنحهُ الذريعة لتمويل متطلباته الخاصة ومتطلبات أجهزته الأمنية.

إنّ التطور الأكثر أهمية في محاولات صدام والبعثيين لتمويل خططهم الفذّة لتحديث العراق هو تأميم صناعة النفط العراقي. فالعراق يحتوي على ثاني أكبر احتياطي للنفط في العالم بعد المملكة العربية السعودية ـ في السبعينيات قدر احتياطي النفط بمائة وثلاثين (١٣٠) مليار برميل مقارنة بمائة وخمسين (١٥٠) مليار برميل في المملكة العربية السعودية. وبحسب شروط الأسواق، فإن العراق قادر على إنتاج ١١ مليون برميل يومياً. وعلاوة على ذلك فإن النفط العراقي تكون عملية استخراجه رخيصة جداً ـ تقريباً بسعر ستة سنتات للبرميل الواحد مقارنة بثمانية سنتات للبرميل الواحد في السعودية. ومنذ تأسيس العراق الحديث، فإن السيطرة على الصناعة النفطية في القطر استقرت على شركة البترول العراقية (IPC)، والتي كانت في السبعينيات في الواقع في الاتحاد الذي يضم خمساً من أكبر الشركات النفطية في العالم. (بي بي،

شيل، إيسو، موبل، سي. ف. بي الشركة الفرنسية للبترول). ولمدة طويلة كانت الملكية الأجنبية لمورد العراق الرئيس إهانة لأجيال القوميين العراقيين، وقد حرّضت الانقلابات العديدة إرادة الحكومة بأنّ عليها أن تسيطر سيطرة تامة على الثروة النفطية الهائلة في ذلك القطر. وهناك جهود مؤكدة قامت بها إدارات عراقية مختلفة لتكبح سيطرة شركة البترول العراقية (IPC) على تلك الصناعة، وأهمها عندما قام الزعيم عبد الكريم قاسم في عام ١٩٦١ بالسيطرة بالقوة على ٩٩,٥ بالمائة من الأرض التي تسيطر عليها (IPC) والتي رفضت أن تطوّرها. وفي عام ١٩٦٤ أنشأ الرئيس عارف شركة النفط الوطنية العراقية (INOC) لتطوير احتياطي النفط في القطر ولبيعه في الأسواق المفتوحة، لكنّ شركات النفط العالمية خيّبت ذلك الأمل، ومن بين إجراءاتها الانتقامية، أنها رفضت أن تبيع النفط إلى البلدان التي تعاملت مباشرة مع الحكومة العراقية. وأساساً كان ذلك الموقف الذي ورثه البعثيون بعد استلامهم للسلطة في ١٩٦٨، وعزم صدام، بدعمٍ من البكر أن يحسم القضية التي اعتبرت وبشكل واسع وصمة عارٍ وطني.

ومن عام ١٩٧١ تسلم صدام المسؤولية للتعامل مع الاتحاد النفطي، بالتعاون مع مرتضى الحديثي، وزير النفط. إن فرصة صدام في أن يعدّ المواجهة التي كان ينتظرها البعثيون سرعان ما جاءت بعدئذٍ عندما قررت شركة البترول العراقية (IPC) أن تخفض إنتاج النفط في العراق لصالح البلدان الأخرى. وقرار شركة البترول العراقية (IPC) كان يعني، في الواقع، أنّ الشركات الأجنبية كانت تفرض أمر العائدات على الحكومة العراقية، وهذا وضع لا يحتمل بالنسبة لأية حكومة تحترم ذاتها أو الحكومة التي وجهت صفعة عنيفة للإمبريالية الجديدة. وكان ذلك تحرّشاً، وأنّ الجناح القومي في حزب البعث، ممثلاً بالبكر وصدام، لم يدع ذلك يمرّ دون تحدٍّ. وإنّ الأسلوب الذي هندس به صدام مجرى الأحداث فأثمر في تأميم الصناعة العراقية هو عبارة عن دراسة قضية توجيهية في قابلية صدام، حتى في تلك المرحلة المبكرة نسبياً من حياته السياسية، على التلاعب بالظروف لتلائم أهدافه الخاصة.

ولقد أعطى حزب البعث، ولبعض الوقت، اعتبارا لتشكيل التحالف مع القوى «غير الإمبريالية»، وأكثر المرشحين احتمالاً، كان الاتحاد السوفيتي، الذي، وبحماقة، لم يعتقد البعثيون بأنّه يغذّي الطموحات الاستعمارية. وبالرغم من معاداة البكر وصدام للشيوعيين، إلا أنّهما أدركا أن الحلف مع موسكو سيمكنهما من مقاومة أي ضغط قد تفرضه واشنطن على بغداد. وبالرغم من أن البكر وصدام لديهما تعاطف قليل مع

الشيوعية وقد أمضيا معظم الحقبة الماضية باضطهاد أعضاء الحزب الشيوعي العراقي، إلا أنّ الحلف مع موسكو صنع شعوراً دبلوماسياً طيباً بالنسبة للبعثيين. إنّ الطموح القديم منذ قرون بالنسبة للأجيال الروسية للوصول إلى البحار الجنوبية الدافئة كان مصدراً ثابتاً لإرعاب شاه إيران، والذي يتقاسم معه العراق حدوداً طولها ألف ميل. فالحلف مع موسكو سيساعد في لجم الغرائز العدوانية التي قد يغذيها الشاه تجاه العراق، خاصة قضايا حسّاسة كالممر المائي لشط العرب، مدخل العراق الوحيد إلى الخليج والذي كان حاسماً بالنسبة لصادراتهِ النفطية. كما أن تطور العلاقات الجيدة مع السوفيت سيعطي العراق أيضاً الفرصة ليقوم بمشتريات أسلحته الهائلة ويبني قوة قواتهِ المسلحة. وكانت تلك أولوية عليا بالنسبة للبعثيين، الذين كانوا يدركون بأنهم بحاجةٍ إلى تقوية موقعهم العسكري ليدافعوا عن أنفسهم ضدّ نزعة حب القتال لدى الإيرانيين، وللاشتراك بكل ما تعنيه الكلمة من معنى في أية حرب مستقبلية مع إسرائيل ولمعالجة أية صراعات داخلية، كالتهديد الدائم للأكراد بإعلان الاستقلال. إنّ أسس التحالف مع السوفيت قد وضعت أثناء زيارة صدام إلى موسكو في عام ١٩٧٠ لإيجاد حل للمسألة الكردية، وفي فبراير (شباط) ١٩٧٢ عاد صدام إلى موسكو مبعوثاً شخصياً للبكر لإجراء سلسلة من اللقاءات مع رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي أليكسي كوسيغين. وحققت مهمة صدام نجاحاً، رغم التحفظات التي أبداها السوفيت حول معاملة البعثيين للشيوعيين العراقيين، حيث ردّ السوفيت الزيارة في نيسان التالي عندما طار كوسيغين إلى بغداد ووقع معاهدة ثنائية للصداقة والتعاون. وبعد الانتهاء من الشكليات، قام كوسيغين بجولة في قاعات القصر الرئاسي المرمرية بمرافقة امرأة شقراء وسيمة جهزها صدام.

وكان صدام مجبراً على إعطاء امتيازات غير محبّبة لديه لصالح السوفيت. وكفلت المعاهدة حق الدخول السوفيتي إلى القواعد الجوية العراقية. وللتعويض وافق السوفيت على توفير التدريب لآلاف الضباط العراقيين في الأكاديميات العسكرية السوفيتية. وأشارت كذلك إلى «التنسيق» في السياسة الخارجية العراقية والسوفيتية، بطريقةٍ مهذبة مفادها أنّ العراقيين سيأخذون الأوامر من موسكو في قضايا مثل تصويت العراق في الأمم المتحدة. وفي المقابل وافق السوفيت على مساعدة البعثيين على البقاء في السلطة، ومساعدتهم أيضاً في خطط التأميم. وفي تعليقه على المعاهدة بعد سنوات أخرى، كان صدام براغماتياً بخصوص الامتيازات التي قدمها لموسكو. «لم نكن نتوقع من السوفيت أن يدعمونا دون ضمانات بأنّ صداقتنا ستخدم مصالحهم

الاستراتيجية». [٤] لم ترق لصدام فكرة البقاء مديناً بالفضل لقوة عظمى، وأنّ الشروط التي فرضها عليه السوفيت كان لها الأثر المهم على علاقاته المستقبلية المتبادلة مع موسكو.

ومع ذلك، فإنّ معاهدة موسكو وضعت صدام وبلا حدود في موقع أقوى ليتحدى الاتحاد النفطي الأجنبي، لأن التحالف أعطاه الثقة بأن يتحدث بصراحة مع أقطاب النفط. كان يعي جيداً أن أية محاولة لكسر خناق شركة البترول العراقية (IPC) على صناعة النفط العراقي ستثير ردّ فعل عدائي، مع الشركات النفطية الكبرى التي تحاول أن تجبر العراقيين على الإذعان، كما فعلت ذلك في مناسبات عديدة في الماضي. ومع ذلك فإن التحالف مع موسكو، عربون الضمان الذي منحه السوفيت بأنهم سوف يشترون فائض النفط العراقي، قوّى فرص صدام في النجاح. وكذلك ساعدته إلى حد كبير، الدلائل التي حصل عليها موظفو النفط العراقيون من فاليري جيسكار ديستان، وزير التجارة الفرنسي، بأنّ فرنسا سترفض الاشتراك في أية مقاطعة مضادة للعراق، ما دامت المصالح الفرنسية غير متضررة.

في الأول من يونيو (حزيران) ١٩٧٢، وبشهرين بعد توقيع المعاهدة مع موسكو، أمّم البعث شركة البترول العراقية. إن أهمية تلك الواقعة لا تحتاج إلى تأكيدها بمقدارٍ كافٍ، في كلّ من مفردات تأثيرها على العراق وتطوره في المستقبل، وفي تعزيز شرعية حزب البعث. من دون النفط سيكون العراق فقيراً، وبالنفط سيمتلك العراق إمكانات واحدة من أغنى الأمم في العالم. إنّ تأميم الصناعة النفطية مطلباً منذ أمد طويل لأجيال من القوميين العراقيين، وإنّ إنجازه كان مثيراً للجدل بأنه الحدث الثوري الوحيد الذي وقع في العراق منذ تأسيسه. وبسبب التحالف مع السوفيت وازدواجية الفرنسيين، كانت قابلية الأعضاء المطرودين في الاتحاد النفطي على الاحتجاج محدودة، خاصة بعدما سافر صدام إلى فرنسا في نهاية يونيو (حزيران) وعقد اتفاقاً مع الرئيس جورج بومبيدو. وافق بومبيدو على القبول بالتأميم مقابل أن يسمح للشركات الفرنسية أن تساهم في التنمية مستقبلاً واستغلال حقول النفط العراقية، وبأن تشتري النفط العراقي بسعر منخفض خاص متفق عليه.

وبتحرره من القيود التي فرضتها شركة البترول العراقية (IPC)، أصبح العراق قادراً على استغلال سلسلة من الحقول النفطية التي رفضت شركة البترول العراقية (IPC) تطويرها. إنّ الاندفاع في إنتاج النفط العراقي نتج عنه تلك الزيادة الضخمة في مصادر دخل الحكومة. وتلك مكنت البعث من المباشرة في بناء مشروعه الطموح

لتحويل البلد إلى دولة عصرية، ولرفع المستويات المعيشية العامة للعراقيين البسطاء. وكذلك تمّ تمويل الزيادة الضخمة في القوات المسلحة في القطر، حيث تضاعفت قوة الجيش تقريباً في الحجم ما بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٥

ليس هناك أحد يعي الانعكاسات الثورية لتأميم نفط العراق أكثر من صدام، الذي لم يضيّع الوقت بأنه حصل على حصة الأسد من الائتمان المصرفي للاستيلاء عليها، بينما ضمن، بعمله هذا، أنّه لم ينتقص من موقف البكر. وفي النهاية، فإنّ صدام قد قاد المفاوضات الحاسمة مع كل من السوفيت وشركة البترول العراقية (IPC). وبالمناقشة الكاملة للبدائل المتوفرة مع البكر، فإن صدام شخصياً قد ابتدع الإنذار النهائي الذي وجّهه إلى شركة البترول العراقية مع المعرفة التامة بأنهم سيرفضون، وبذلك لم يكن لدى الحكومة أيّ خيار سوى الشروع بالتأميم. أخذت إذاعة بغداد تذيع الشعارات الثورية الخالدة مثل «نفط العرب للعرب»، وأطلق صدام على اليوم الأول من يونيو (حزيران) ١٩٧٢ «يوم النصر». وصرّح صدام نفسه «ثروتنا عادت إلينا». وبعد سنوات قليلة، أعاد صدام التأكيد في حديثه إلى أحد كتاب سيرته الرسميين، على الدور الذي لعبه هو شخصياً في تفعيل الاستيلاء على شركة البترول العراقية (IPC) بقوله: «جميع الخبراء والمرشدين حذروني من التأميم. ليس هناك أحد يستحسن الفكرة. ومع ذلك اتخذ القرار. ولو أصغيت إلى وزير النفط، فإنّ هذا القرار ما كان ليُتخذ أبدا».(٥)

إنّ مساهمة صدام في تأميم شركة البترول العراقية (IPC) تنمّ عن بصيرة مطلعة بكيفية اكتساب، حتى في وقتٍ مبكر من عام ١٩٧٢، سلسلة من المهارات السياسية المتطورة للغاية. وكما بدا واضحاً، فإن تأميم النفط لم يحدث في ليلةٍ وضحاها. وفي الحقيقة، وطبقاً لأولئك العراقيين الذين عملوا عن كثب في عملية التأميم، فإن خطة وضع شركة البترول العراقية (IPC) تحت السيطرة العراقية ابتكرت أصلاً في أوائل عام ١٩٧٠، وأنّ قواعدها قد نُفذّت من قِبَل مرتضى الحديثي، وزير النفط، على الأرجح، وليس صدام نفسه، وتلك الحقيقة توضح سبب هلاك مرتضى في إحدى حملات التطهير التي نفذها صدام. وكان البعثيون يدركون بأن عليهم أن يتقدموا بحذر، وهم على درايةٍ بأنّ أية حركة متهورة من جانبهم تجعل الغرب، المستهلك الرئيس للنفط العراقي، أن يغلق الأبواب ويقاطع الصادرات الرئيسة للبلد، والتي من شأنها أن تركّع البلد بسرعة. وقد أعاق البعثيين تقييمُ الخبراء في وزارة النفط العراقية الذي أفاد بأنّ العراق لم يكن قادراً على إدارة الصناعة النفطية بمفرده. ونفذ العديد من الدراسات

الاقتصادية لتقيّم كيف يكون العراق قادراً على العيش على ما يعطى له من حصص أرباح عائدات النفط. وللعدل بالنسبة لصدام، فإنّ نصيحة المرشدين الفنيين، حتى لحظة التأميم، كانت بأنّ العراق لم يكن مستعداً لحد الآن لمثل هذه النقلة الدرامية. إنّ المفتاح لنجاح مقامرة التأميم كان في المساندة التي أبداها السوفيت، والتي بسببها تمكن صدام من الحصول على الشهرة، ومساندة الفرنسيين التي لم يحصل منها على شيء.

وفي اللحظة التي اعتقد فمنها صدام بأن التأميم أصبح ممكناً، قام بطرد مرتضى وسيطر على المشروع بكامله بنفسه. «أراد صدام أن يضع يديه على ثروة الشعب النفطية لأنّه كان يرى بأن هذا هو بوابته للشهرة»، كما ذكر مسؤول عراقي سابق كان يعمل عن كثب في برنامج التأميم. «وبعد استلام النصيحة الفنية، كان صدام هو من اتخذ القرار السياسي».[٦] إنّ الأسلوب الذي صنع به صدام ذلك القرار التاريخي ليمضي بالتأميم إلى الأمام يكشف كيف أنّ صدام، في تلك المرحلة المبكرة نسبياً في سيرته الحياتية، كان قادراً على أن يستغل البنية السياسية في العراق لصالح أهدافه الخاصة. وبالرغم من أنّ القرار السياسي بصيغته الجوهرية كان من صنع صدام، إلا أنّه اهتم بتأكيده على تلقي الدعم الكامل من الرئيس البكر قبل الشروع بتدابيره.

إنّ مثل ذلك القرار الخطير الذي وجب على صدام اتخاذه، وليس البكر، يوحي بمقدار كبير كيف أنّ توازن القوى في بغداد تحول من الرئيس إلى يد نائبه. وبضمانه لدعم البكر، كان صدام حريصاً على التأكيد بأنّ قراره يحظى بالدعم الكامل من السلطة الرئيسة صانعة القرار في حزب البعث، أي مجلس قيادة الثورة، والذي يحتل به موقع نائب الرئيس. ودعي لعقد اجتماع لمجلس قيادة الثورة وكما ينبغي تلقى صدام دعم المجلس الكامل ليبدأ بالتأميم. وأراد صدام أن يتأكد، إذا ما كانت دعوته للانتصار ستؤدي إلى الاشتعال قبل الأوان، من أنّ حزب البعث وبشكل جماعي يتحمل مسؤولية النتائج وليس صدام وحده. ولكن لو نجحت تلك المقامرة، سيرجع النصر كلهُ إلى صدام. وهذا التكتيك لاقتسام تحمُّل المسؤولية، في مواجهة الأوقات العصيبة، موضوع مكرر في سيرة صدام السياسية.

إنّ دور صدام في مفاوضات معاهدة التعاون مع موسكو وبرنامج تأميم النفط كان يعني أنّ سمعته أخذت في الاتساع خارج العراق، وذلك لأول مرة منذ أن جاءَ البعثيون إلى الحكم في عام ١٩٦٨ والحرب الباردة في أوجها، اعتبر نشاط نائب رئيس مجلس قيادة الثورة التكريتي، كما أشارت إليه نيويورك تايمز في عام ١٩٧٢، في

البحث عن «حلف استراتيجي قوي» مع الاتحاد السوفيتي موضوعاً ذا شأن في الأوساط الدبلوماسية الأمريكية.[7] وضخمت الأسئلة حول الطبيعة الدقيقة لحلف موسكو ـ بغداد الجديد وذلك في ربيع ١٩٧٣ عندما قامت القوات العراقية باحتلال مركز حدودي كويتي، لإعادة إشعال مزاعم بغداد التحريرية للمشيخة مرة أخرى. واعتبرت واشنطن الفعل العراقي جزءاً من مؤامرة وضعتها موسكو لتحدي المصالح النفطية الأمريكية في الخليج، والتي كانت موضع الاهتمام الرئيس لصنّاع السياسة الأمريكية منذ الخمسينيات. وبقي الشك ملحاً حتى بعد حل النزاع بوساطة السوفيت، التي حدثت إبّان زيارة صدام إلى موسكو في مارس (آذار) ١٩٧٣، والتي أجرى فيها محادثاتٍ إضافية مع كوسيغين حول تطوير التعاون السوفييتي ـ العراقي. إنّ الدور العام الذي لعبه صدام في برنامج تأميم النفط لم يمرّ دون ملاحظة. ولما استشاطت واشنطن ولندن غضباً، وذلك للاتفاقية الغالبية النموذجية التي تفاوض بشأنها الرئيس بومبيدو مع بغداد لحماية المصالح الفرنسية، حيث هدّدا باريس بردّ فعل تأديبي، وقد استجاب صدام مصرّحاً في مقابلة أجرتها معه «لوموند» بقوله: «لن نتساهل مع أي خطأ يوجّه إلى فرنسا. إنّ أية محاولة تضرّ بالمصالح الفرنسية ستعتبر عملاً عدوانياً على العراق».[8] إنّ بروز صدام كلاعب مهم في سياسة السلطة في بغداد قد أدركه كل من إدارة الدولة في واشنطن ودائرة الخارجية في لندن قبل أن تظهر المقالات الطويلة في الصحافة الغربية والتي وُصفَ فيها صدام بأنه «ناصر» العراق».[9]

لئن كان العالم الخارجي بدأ يهتم بصدام، فإنّ المراقبين الأجانب كانوا يتناولون بعجالة الواقع السياسي الخاص ببغداد منذ أواخر عام ١٩٧٠، عندما صفّى صدام بنجاح خصومه السياسيين الرئيسين، التكريتي، وعماش والشيخلي. وطوال السنتين اللتين قضاهما عماش في مكتب نائب رئيس الوزراء تمتع المرشدون الأقدم في الحكومة العراقية باتصال شخصي مع البكر، وكانت الاجتماعات تعقد في القصر الرئاسي أسبوعياً تقريباً. ورسمياً، كان البكر رئيساً لدوائر الحكومة ولجانها، يتعامل مع كل جانب يتعلق بالإدارة، مثل التربية، والصحة والنقل. وعادة كان يترك الإدارة اليومية لعماش، وكان يترأس الاجتماعات ولذلك يبقى على تماسٍ مع التطورات. ولكن بعد انتقال صدام إلى مكتب عماش، أصبحت اجتماعات القصر الرئاسي غير منتظمة أكثر فأكثر حتى توقفت بالكامل. لقد اضطلع صدام بمسؤولية جميع الدوائر الرئيسة، وأخذ يترأس اجتماعات التخطيط الأساسية، وأصبح البكر بعيداً أكثر فأكثر عن الجهاز الحكومي.

وفي تلك المرحلة من حياته بدأ استحواذ صدام على الأمن يظهر بوضوح. فالمسؤولون الذين كانوا يحضرون الاجتماعات في مكتبه في مبنى المجلس الوطني كانوا يتعرضون لشتى أنواع التفتيش. وكان صدام نفسه يدخل إلى مكتبه من مدخل خاص ومنعزل. وبالرغم من أنّه أخذ يستولي تدريجياً على مواقع البكر في الإدارة، كان صدام حريصاً على أن لا يعطي أيّ انطباع بأن مكانته أقوى من مكانة البكر في أية ناحية من النواحي. لقد ضمن بأنّ مكتبه أصغر من مكتب البكر، وعندما كان يقوم بزيارات ميدانية في القطر كان يصر على أن يكون حراسه الشخصيون أقل عدداً من حراس البكر. وفي كل شيء كان يؤديه حرص صدام كل الحرص على أن لا يزعج معلمه الخاص. ولما كانت مصلحة الحكومة تصل إلى الحد الذي ينقصها اتخاذ القرار، كان صدام يزور البكر، وبطريقة ودية، كان يقترح على الرئيس أنّ عليه المصادقة على قرار أو إجراء معيّن. وبإصغائهِ إلى تحليل صدام لمسألةٍ ما، كان البكر يوافق وبثبات على قرار صدام، كما فعل في تأميم شركة البترول العراقية (IPC). وإذا رفض البكر لأي سبب من الأسباب، كان صدام ينفر من تحديه بشكل مباشر، ولكنّه يؤثر فيه في مدة زمنية ـ أسابيع لو تطلب الأمر ـ حتى يصل إلى مبتغاه.

إنّ ظهور صدام كقوةٍ فاعلة خلف نظام البكر يعود إلى المساندة والتشجيع الكبيرين اللذين تلقاهما من رئيسهِ ورفيقه التكريتي، وكان صدام يعي أن عليه أن لا يبخس قدر كل من شعبية البكر أو سلطته. وفي السبعينيات كان البكر معافى وفي الخمسين من عمره وبدا أنّه كان راضياً بتحقيق دوره الأبوي. وكواحدٍ من آخر الأعضاء الأحياء من الضباط الأحرار المسؤولين عن الإطاحة بالملكية في عام ١٩٥٨، كان يحظى بدعمٍ كبير في أرجاء البلد. والبكر بطبعهِ لم يكن شخصاً جازماً، لقد قام بتنفيذ الأعمال الرسمية الخاصة بالمكتب الرئاسي في حين سمح لصدام بحرية التصرف في تثبيت أركان النظام وإزاحة أعدائه. وقد أُشير، ومنذ المرحلة المبكرة لحكم البعث، إلى أن البكر لم يكن يتمتع بصحةٍ جيدة. وفي أوائل عام ١٩٧١ أدخل المستشفى وذلك لما أعلن عنه في وسائل الإعلام العراقية بأنّه «وعكة صحية طفيفة». وقد يكون ذلك أحد الشروحات للأسباب التي جعلت من صدام، الذي كان يتمتع بصحة جيدة، يحصل على سلطات أكبر من تلك التي يتولاها النائب عادةً، بحيث أصبح قادراً على أن يضع نفسه في الموقع الذي تكون مهامه فيه لا غنى عنها بالنسبة للبكر. وكان ذلك بالطبع، الدور الذي تصوره خير الله طلفاح، خال صدام، عندما كان يشجع البكر على أن يوظف ابن اخته في الستينيات. وبتعيينه للنائب الذي يصغره بعشرين سنة، كان

البكر قد حسب بأنه سيقضي عدة سنوات في السلطة قبل أن تظهر قضية من يأتي بعده. ولكن مع فائدة الإدراك المؤخر، إلا أنه يبدو من أوائل السبعينيات أنّ تخطيط صدام الجدّي كان للاستيلاء على الرئاسة في أول فرصةٍ ممكنة. إن منح البكر لصدام استقلاليةً في العمل أكثر من تلك التي حصل عليها معظم النواب، لا يدل على أنّه كان لا يدرك مخططات صدام أو البراهين التي تدل عليها. وقد أُشعِرَ البكر بكلّ البنى التحتية الخاصة بالإرهاب المؤسساتي الذي أقامه صدام تحت رعايته، وكان شخصياً قد تجاوز استخدام العنف ـ بما في ذلك بربرية قصر النهاية ـ ضد أعداء النظام. ولما شقّ صدام صفوف خصومه السياسيين، بدا يتضحُ للشعب العراقي بأنّ البلد تحكمهُ قيادة ثنائية تتكون من البكر وصدام، وهما من يتخذ القرارات الحاسمة، أكثر من اتخاذها بتحريضٍ من صدام في أحوال كثيرة. وحتى لو كانت عينه على الرئاسة، بقي صدام في تلك الفترة من مسيرته حريصاً على أن لا يتجاوز الحد في علاقاته مع البكر. وفي خطاب إذاعي نقله راديو بغداد في أواخر عام ١٩٧١، مثلاً، ذهب خارج السياق بإنكاره للآراء التي تقول بأنه قد استولى على موقع البكر. «أنا أعرف البعض الذي يدعي بأنّ صدام هو الرجل الأول في العراق»، قال صدام، «لكننا لدينا الرئيس الذي يمارس سلطاته الدستورية. وبرأينا أنه هو الرجل الأول، وعلاوة على ذلك، نحن نعتبره الأب والقائد».(١٠)

* * *

إن الفترة التي أعقبت تأميم النفط كانت حاسمةً بالنسبة لتطور العراق في المستقبل، وصمم صدام على أن يكون صاحب الشأن تماماً في كل جانب من جوانب الخطة المركزية لحزب البعث وذلك لتحديث البلد. وتمتع البعث في ذلك الوقت بدعم شعبيّ واسع الانتشار في أرجاء القطر. وقد اعتقد الشعب العراقي بصورةٍ عامة بأنّه لأول مرة في تاريخه تكون لديه حكومة ليست بملكية ولا مجلس سياسي عسكري، وإنما حكومة حرة مهتمة بتحسين أوضاعهم. وكان صدام والبعث واثقين كثيراً. وقد سحق صدام معظم خصومه، وحيّد البعث الأكثرية من أعدائِه السياسيين. وموقع صدام كرئيس للبنية التحتية الأمنية كان مدعوماً أيضاً وإلى حدّ كبير بالصفقة السرية التي أبرمها مع يوري أندروبوف، رئيس جهاز الاستخبارات السوفيتية (KGB)، وذلك من أجل تطوير نوعية تقنيات الترصد العراقية.

ومن لحظة تسلمهِ للسلطة في عام ١٩٦٨ حاول البعث أن يحقق وعده لإعادة توزيع ثروة البلد بمقادير متساوية، غير أن جهوده قيدتها إيرادات النفط المحدودة.

وحتى بعد التأميم فإن الميزانيات الإدراية كانت تُبتر بصرامة لتمكنها من مجابهة الحركة الارتجاعية المرتقبة من الغرب. إن مضاعفة أسعار نفط أوبك (OPEC) التي حدثت إثر حرب يوم كيبور في عام ١٩٧٣، أعطت السلطات العراقية أخيراً الفرصة التي كانت تنتظرها، مبيحةً لها أن تجني أرباح الثروة النفطية المتحررة حديثاً.

وكان صدام باني الشعب رئيساً لجميع اللجان الرئيسة والمسؤول شخصياً عن خطة البعث الطموحة لتحديث القطر. وهو أكثر من أي شخص آخر كان يعي أن المفتاح لتطوير شعبيته الخاصة وشعبية حزب البعث سيكون بالطريقة التي توزع بها ثروة النفط الجديدة. وفي عام ١٩٨٠ كانت إيرادات نفط العراق تساوي «٢٦ مليار دولار مقارنة بـ ٤٧٦ مليون دولار» بعد استلام حزب البعث للسلطة بفترة قصيرة،[١١] وهذا الارتفاع الاستثنائي في عائدات الحكومة يعود كلياً إلى تأميم صدام للصناعة النفطية. وفي عام ١٩٦٨ وفر النفط حوالي ٢٢٪ من الدخل الوطني، وارتفع ذلك في عام ١٩٨٠ إلى ٥٠٪. وهذا مكّن الحكومة من تمويل البرنامج الضخم لإعادة التنمية الذي وعدت به أنظمة متعددة، لكنه لم ينْجز. وبالرغم من ذلك، فإنّ حزب البعث قاد عملية إعادة بناء الاقتصاد بأسلوب استبدادي. فوضع الحزب لنفسه ثلاثة أهداف رئيسة: (١) إبعاد طبقة الثروة والامتياز العليا، وحتى الوسطى، والتوزيع العادل للدخل والخدمات، (٢) إقامة اقتصاد اشتراكي، بملكية الحكومة للموارد الوطنية ووسائل الإنتاج، (٣) تنويع الاقتصاد، بمنح العراق المزيد من الاستقلال الاقتصادي قدر المستطاع.

كل مشروع، سواء كان مدرسةِ أو مستشفى جديدين، كان يخضع لتدقيق صدام، وإنّ النفقات المقترحة يجب أن يصادق عليها جهاز التخطيط الذي كان يرأسه صدام. ووقع صدام عقوداً مع الاتحاد السوفيتي لتوسيع الصناعة النفطية في العراق. ووقع عقوداً مع الفرنسيين لبناء مجمعات معامل ضخمة، مجهزة بكل شيء من الآلات ومعدات الإنتاج إلى أقلام الرصاص على طاولة المدير. وتفاوض مع البرازيليين لبناء السكك الحديدية، ومع البلجيكيين لبناء مجمع الفوسفات، ومع اليوغسلافيين، والبلغاريين، والألمان، واليابانيين، للتكنولوجيا المتقدمة، والعملِ والخبرة. وبنى المدارس وشبكات محطات الإذاعة والتلفزيون القوية القادرة على بث الدعاية البعثية في كافة أنحاء العالم العربي. ووسع شبكة الكهرباء في العراق فامتدت إلى معظم المناطق البعيدة في الأرياف. وكل ذلك النشاط قاد المراقبين الأجانب إلى أن يشيروا إلى العراق كأحد أساطير النجاح في العالم الثالث. وعلى عكس ما يجري في أفريقيا،

حيث تصرف النقود كلها في مشاريع عديمة الفائدة، فإنّ خطط صدام الضخمة لبناء الشعب كانت تحسّن فعلاً مستويات معيشة العراقيين البسطاء.

وحتى مع تدفق ثروة النفط الجديدة، طالب صدام بقيمةٍ للنقود. وتكتيكه المفضل هو أن يجعل الشركات السوفيتية والغربية أن تزايد بعضها ضد البعض الآخر حول العقود وبذلك سيحصل العراق على الصفقة الأفضل. وسمى صدام تلك السياسة «عدم الانحياز»، وكان هدفها الرئيس هو أن تصون استقلالية العمل. وقد علّمته تجربته مع السوفيت مخاطر الاعتماد كثيراً على منفذٍ واحد. وقد حرص صدام على أنّ اندفاع الغربيين الذي جعلهم يعملون في مشاريع بناء مختلفة لن يدنس الثورة البعثية. وقد تم توجيه قواته الأمنية لكي يضمن أنّ «تأثيرات الإفساد» لن تمسّ العراقيين البسطاء. وتمت متابعة العمال الأجانب، واستجوابهم في بعض الأحيان، وحثهم على أن لا يقيموا اتصالات اجتماعية مع المدنيين العراقيين. وحجزت الصحف والمجلات الأجنبية وطُلب من جميع العمال الأجانب أن يقدموا طلباتٍ للحصول على تأشيرة الخروج قبل أن يغادروا القطر، وتُحجز أحياناً تذاكر المرور كوسيلة للتخويف. وقد أوضح صدام فلسفته بالتعامل مع الشركات الأجنبية إلى مجموعة من الصحفيين العرب الذين زاروا العراق في عام ١٩٧٤ «ليس لدينا تحفظات بالتعامل مع الشركات في أي مكان في العالم، على الأساس الذي يضمن احترام سيادتنا ويكفلُ للطرفين الربح المشروع. ويمتلك بلدنا مشاريع واسعة النطاق، ومشاريع استثنائية مذهلة، ولدينا طموحات كبيرة. وفكرة أننا قد نعزل أنفسنا عن العالم لنعيش وفق أجهزتنا فكرة غريبةٌ علينا، ونرفضها رفضاً باتاً».(١٢)

إن معظم الفنيين والموظفين العراقيين المشتغلين في المشاريع المتنوعة علموا بأنّ صدام اعتمد كثيراً على جهاز أمنه ليثبت نفسه في السلطة. ومع ذلك فهم ما زالوا متأثرين بقابليته في السيطرة حتى على الأمور الأكثر تعقيداً. وصلاح الشيخلي، ابن العم الأول لوزير الخارجية المخلوع عبد الكريم الشيخلي، والاقتصادي الذي درس في بريطانيا قد عمل نائبا لمدير التخطيط في حزب البعث إلى أن أجبر على الفرار من القطر في عام ١٩٧٧ ولمدة سبعة أعوام كان يحضر الاجتماعات الأسبوعية التي يترأسها صدام، ورغم المعاناة التي سبّبها صدام لعائلته، لم يكن متذبذباً في رأيه بأنّ صدام كان إدارياً موهوباً. «كان باستطاعته إدراك الخلاصة أسرع من الكثير من الفنيين»، قال الشيخلي. «وكان باستطاعته أن يوجه أسئلةً لا يجيب عليها حتى حملة شهادة الدكتوراه. ويمكن لنا أن نفترض بأنه كان يقضي جُلّ وقته يقرأ التعليمات

بتمعن. ومع ذلك كان أداءً مثيراً للإعجاب». وفي المناسبات التي لم يفهم فيها صدام نقطة معينة، فإنه كان يطلب إعادتها مرة أخرى «لفائدة بقية المجموعة، الذين هم مثلي، وأنا متأكد، سيثمّنون القليل من الشرح». وكانت الاجتماعات تدار بطريقةٍ جدية وليس هناك أي تلميح بالتهديد الذي طال مناطق أخرى من الحياة العراقية. «ليس هناك إحساس بالرعب»، أكد الشيخلي. «كان ذلك يحدث فقط عندما يكون البعض مقصراً في أدائه وتلك تصبح مشكلة».

وبوشر بحملة تحديث العراق بقوة وفق الشروط التي وضعها صدام. ولم يكن «السيد النائب» في حالة وهم حول أهمية الثروة الكامنة التي على وشك أن تغيّر البلد إلى الأبد، ولم يقدّر تقديراً بخساً أهمية ثروة العراق النفطية للعالم الخارجي. «ما دمنا نمتلك النفط نمتلك القوة»، كان مولعاً بقول ذلك لموظفيه. «أريد العراق أن يمتلك آخر برميل نفط في العالم. كلما استطعنا أن نجعل نفطنا الأخير، فإننا سوف يعترف بنا كقوة عالمية». ولهذا السبب استبعد وبازدراء المقترح الذي قدمه أحد مستشاريه الأقدم لتطوير مصادر الطاقة الشمسية في البلد، وهو مقترح معقول لتوليد الطاقة الشمسية في المناطق الصحراوية العراقية. «لو فعلنا ذلك، سيكون النفط فائضاً»، كان ذلك رد صدام على المقترح.

في مجالات أخرى كان صدام مفتوناً بالعلم، وصمم على استيراد أحدث التقنيات إلى العراق. وبدلاً من اتباع الدول الخليجية الأخرى الغنية بالنفط، والتي تستورد التكنولوجيا بسهولة، كان صدام يريد أن يكتفي العراق ذاتياً من الناحية التكنولوجية. وبلا ريب فإنّ حماسة صدام كان من الممكن بثّها بسهولة، وإنّ الموظفين والعلماء الذين تمت دعوتهم للمشاركة في الباكورة الجديدة لتنمية العراق حفزتهم قيادة صدام. «كنا جميعاً نعتقد أنّه شيء رائع»، استذكر الشيخلي. «الأشياء الجيدة تفوقت على الأشياء الرديئة. نحن علمنا بأنّ هناك مراقبة وعلمنا أنّ هناك أشياء غير طيبة حدثت على يد القوات الأمنية إذا ما ارتكبت مخالفة. ولكن بالنسبة لنا، نحن الذين أعطينا الفرصة لإعادة بناء البلد، كان الأمرُ مثيراً جداً». كان صدام على الدوام في موضع ترقب للمواهب الجديدة اللامعة. ولما كان يترأس الاجتماعات، كان يجلس متيقظاً عندما يدعى قادم جديد لتقديم عرض ما. في تلك الظروف كانت الانطباعات الأولى صعبة. فأي شخص يعطي انطباعاً أولياً جيداً كان بإمكانه أن يتطلع إلى ترقيةٍ سريعة. «وأساساً كان صدام يبحث عن الشباب الذين لديهم مؤهلات جيدة الشباب الأذكياء والشجعان»، قال الشيخلي. «أولئك الناس الذين كان يريد منهم أن يساعدوه في

تحديث البلد. وبالنسبة للولاء، فإنّ ذلك أمرٌ مسلّم به. في النهاية، كان يمتلك جهازاً أمنياً واسعاً يراقب الجميع في كل وقت. وإذا ما أبدى أحدهم إشارةً تافهة بعدم الولاء، فإنّ صدام كان يعرف وبدقة كيف يتعامل معهم». (١٣)

وفي تلك الأحوال لما كان أحدهم يزعجُ صدام فإنّ لديه طريقة فريدة في إظهار امتعاضه. كان ظهر يده اليسرى موشوماً بثلاثة أوشام تشبه النقاط الصغيرة، وتلك علامات عشائرية لذلك التكريتي حملها منذ الطفولة. وبكل بساطة يؤشر صدام بيده، مظهراً الأوشام الثلاثة باتجاه الموظف المسيء، وهي علامة على وجوب مغادرته فوراً. وفي وقت آخر من حياة صدام، أصبحت هذه الإشارة علامةً لقوات الأمن لاعتقال الموظف سيئ الحظ، والذي يؤخذ خارجاً للاستجواب، وفي الغالب لم تتم رؤيته مرة ثانية.

وكان الإصلاح الزراعي إحدى أولويات حزب البعث وقد بادر الحزب بمشروع واسع النطاق لإعادة توزيع الأرض، مبدداً بذلك ملكيات الأرض الكبيرة عبر خلق شبكة من المزارع الصغيرة المكتفية ذاتياً والمطلوبة مساهمتها في التعاونيات المحلية. ولم يدفع أي تعويض لمالكي الأرض. وفي عام ١٩٧٦ أُعطي أكثر من ٧١٪ من الأراضي التي امتلكتها الدولة إلى ٢٢٠٠٠٠ من المزارعين الجدد الذين تم تجهيزهم بمعدات زراعية حديثة بينما ارتفع عدد التعاونيات الزراعية من (٤٧٣) تعاونية في عام ١٩٦٨ إلى (١٨٥٢) تعاونية في عام ١٩٧٦ وانعكست الطبيعة المساواتية للنظام في التعليم، تلك القضية القريبة من قلب صدام، فتضاعف تسجيل الطلبة في المؤسسات التربوية في كل المراحل خلال عام ١٩٧٠ وكان اهتمام صدام الشخصي منصباً على محو الأمية لدى الكبار.

في عام ١٩٧٧، على سبيل المثال، خاب أمله وذلك بسبب عجز المقترحات التربوية في خفض مستوى الأمية لدى الكبار، وأعلن عن يوم المعرفة لحثّ العراقيين على المساهمة في المناهج الواسعة في القراءة والكتابة. ولكي يضمن أن التسجيل في تلك المناهج أصبح كاملاً، هدد صدام الذين لم ينفذوا طلبه بالسجن. وكان ذلك المشروع ناجحاً مما حدا باليونسكو أن تمنح صدام جائزة كروبيسكا وذلك لترويج حملتها في محو الأمية عالمياً. (١٤)

إن القطر ما زال يعتمد بقوة على عائدات النفط، وانهمك صدام أيضاً في محاولات حزب البعث لتنويع الاقتصاد وجعل البلد مكتفياً ذاتياً. ومن عام ١٩٧٥ فصاعداً، سحبت الحكومة ميزانيات الاستثمار التي كانت تهدف إلى تطوير نواة

الصناعات الثقيلة، مثل الكيروسين والمرافق البتروكيماوية. وكان مكتب صدام معنياً وعن قرب بتنمية ما قيمته (٤٥ مليار دولار) لإنشاء معامل إنتاج الأسمدة، الحديد والمواد الكيماوية في الزبير، ومجمع ضخم للبتروكيماويات في البصرة. وشرع صدام بالاقتراض لبناء شبكة واسعة النطاق لخطوط أنابيب النفط تحصل من خلالها الحكومة على منافذ للنفط في سوريا، تركيا والبصرة. وكجزء من برنامج التنمية لدى الحكومة، تم ربط القرى البعيدة بشبكة الكهرباء. وبدأ البعثيون يوزعون التلفزيونات والثلاجات مجاناً على الأسر الفقيرة، خاصة في أوساط السكان الشيعة في جنوب القطر. وكجزء من سياستهم في التحرر الاجتماعي، كان البعثيون ملتزمين بتحرير النساء وقد سنّوا تشريعاً يقضي بالمساواة في الأجر ومنعوا التمييز الوظيفي على أساس الجنس. إنّ قانون الأسرة الذي يُعرف باسم قانون الأحوال الشخصية، تمّ تعديله، بجعل قانون تعدد الزوجات أكثر صعوبة في التطبيق يسمح للنساء باختيار أزواجهن، بدلاً من اختيارهم من قبل أسرهن، وسمح بالطلاق. وفي الوقت الذي لم يُسمح به للنساء في السعودية العربية المجاورة أن يظهرن بمفردهن أمام الملأ، كان قد سُمح للنساء العراقيات أن يلتحقن بالجيش والجيش الشعبي.

فبرنامج التنمية الضخم، الذي شكّل ثورةً اقتصادية واجتماعية حقيقية في العراق، ركز الانتباه بشكل طبيعي على أولئك المسؤولين عن إنجازه، وإن صدام، الذي قوّم في ذلك الحين أهمية عبادة الشخصية، كان المستفيد الرئيس. إنّ صوره وصور عائلته أصبحت عنصراً ثابتاً ومألوفاً في الصحافة العراقية، وإنّ قصة صعوده إلى السلطة من أصوله المتواضعة في تكريت أصبحت مادة أسطورية. فالأطفال حديثو الولادة أصبحوا يسمّون باسمه، وأشيع بأنّ أعضاء الحزب من الشباب كانوا متأثرين بمشيته، ولباسه، وحتى طريقته في الكلام. وكان صدام يظهر باستمرار على شاشة التلفزيون العراقي بأحاديث طويلة مشتتة يمكن أن تستغرق أربع ساعات متواصلة، تُعنى بمواضيع مختلفة وواسعة، من التعليم وحتى التخطيط الأسري. وجوهر الأحاديث قد لا تصنع اعتقاداً قسرياً، بيدَ أنّ ظهوره المتواصل في التلفزيون عزّز الانطباع لدى الناس عن الذي كان يدير البلد بصورة فعلية. علاوة على ذلك، فإنّ صدام استحق السمعة الكبيرة نتيجة التحولات التقدمية الحقيقية التي حدثت في المجتمع العراقي. وللتأكد من أنّ جميع الأهداف التي وضعها أصبحت في متناول اليد أخذ ينظّم «لقاءات إنتاجية» في كافة أنحاء القطر، وقد قام بزيارات شخصية ليضمن أنّ الأهداف التي وضعها في بغداد قد أتت أكُلها في البلد.

إنّ تأميم الصناعة النفطية والمعاهدة مع موسكو منحا البعثيين ثقة عالية ومشجعة، ومكنتهما من معالجة القضايا السياسية الأخرى البارزة في ذلك الوقت، والقضايا الأساسية التي من بينها قضية الأكراد والعلاقة المعقدة المتزايدة مع إيران، البعبع الدائم بالنسبة للبعثيين. وكخطوة للتودد تجاه السوفيت في أوائل السبعينيات، جلب البكر وصدام وبنيّات غير حسنة الباقين من الحزب الشيوعي المضطهد إلى الحكومة وذلك عبر تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية. وبالرغم من أنّ البكر وصدام لم تكن لديهما النية لإعطاء القادة الشيوعيين العراقيين الكلمة في إدارة العراق، إلا أن بادرة المصالحة تلك وجدت تقبّلاً من لدن السوفيت، الذين استجابوا بالمحاولة في الضغط على الأكراد لإيقاف البلبلة ضد النظام البعثي. إنّ علاقات الأكراد بالبعث كانت متوترة في ذلك الحين إثر محاولة صدام الفاشلة لاغتيال البارزاني في عام ١٩٧١، وتدهورت أكثر عند تأميم شركة البترول العراقية IPC، بادعّاء الأكراد أن البعثيين قد أحكموا السيطرة على حقول نفط كركوك وادعوا أن ذلك كان خرقاً واضحاً لبيان آذار عام ١٩٧٠ ومن أجل الضغط على البعثيين، أثار البارزاني ضجة مشجعة للأمريكيين، الذين كانوا غير راضين بالمرة عن تحالف بغداد الاستراتيجي الجديد مع موسكو وإنّهم ما زالوا حانقين بسبب خسارتهم لشركة البترول العراقية. وقد أوضح البارزاني أنّه سيُسمح للشركات الأمريكية لتطوير حقول نفط كركوك إذا ما ساندت الولايات المتحدة الأكراد في تحقيق استقلالهم. إنّ التهديد الذي أثاره الأكراد للهيمنة البعثية قد ازداد لأن الشاه، الحذر من التحالف الجديد بين بغداد وموسكو والذي هو نفسه كان مزوّداً بالسلاح من الولايات المتحدة، كان يدعم القادة الأكراد بالأسلحة والمساعدة اللوجستية.

وبالنسبة لصدام، فإنّه كان يرى في التهديد الذي أبداه الأكراد ليس أكثر من محاولةِ «العملاء الإمبريالية» لتدمير جميع منجزات ثورة البعث.[١٥] والذي كان يعين صدام، بعيداً عن البحث في حل الاستقلال، هو أنّ البارزاني لا يتوقف عن شيء أقل من الاستقلال، وبذلك فإن كردستان المستقلة ستتحالف بعد ذلك بنفسها مع البلدان المعادية للعراق، مثل إيران وإسرائيل والولايات المتحدة. وبمواقع كلا الطرفين المحصنّة جداً، كان تصعيد الصراع أمراً حتمياً، وأخيراً بدأ القتال في ربيع العام ١٩٧٤ عندما ثار الأكراد ضد محاولة بغداد فرض خطة الاستقلال التي وضعها صدام، والتي رفضها البارزاني. وفي البداية أبلت القوات المسلحة العراقية بلاءً حسناً، ولكن في أواخر عام ١٩٧٤ أجبرت على أن تكون في موقف دفاعي عندما كانت تقاوم أساليب

حرب العصابات التكتيكية للمقاتلين الأكراد القساة والمسلحين تسليحاً جيداً. وأوقف الجهد العراقي إلى حد بعيد برفض السوفيت، مورّدي أسلحتهم الأساسيين، أن يزوّدهم بالأسلحة والمؤن الحربية. ووجدت موسكو في ذلك فرصةً لمعاقبة البعثيين بسبب حملاتهم التطهيرية ضد الشيوعيين العراقيين. وبدعم الأمريكان للبارزاني، وقرار السوفيت بمساندة العراق، فإن حلف الحرب الباردة البعيدة الاحتمال بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي هدّد حكومة البعث. فتدهور الوضع العراقي إلى حدٍ بعيد في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥، عندما دخل الجيش الإيراني النزاع إلى جانب الأكراد، وقام بنشر فوجين عسكريين داخل العراق.

بعد الانتصارات الدبلوماسية في عام ١٩٧٢، كانت الحرب في كردستان تتحول بسرعة إلى تحد قاتل واجهه البعثيون منذ استلام السلطة في عام ١٩٦٨ وصدام، كمخطط ومنفذ للاتفاقية والذي كان يفترض أن يحلّ المسألة الكردية الدائمة، كان عرضةً للخطر أو الهزيمة، خاصة عندما استمرت الخسائر العراقية في التصاعد وبلا أية علامة تدل على تحقيق تقدم مفاجئ. وحاول صدام أن يضع المواجهة الشجاعة على مصائر الحزب في فبراير (شباط) ١٩٧٥ عندما أعلن أنّ «الوضع السياسي والعسكري في منطقة الشمال لم يكن جيداً جداً»[١٦] ولكن الخسائر تجاوزت الستين ألفاً وأنّ كلفة الصراع هددت بإفلاس الاقتصاد العراقي، وعلى البعثيين اتخاذ الإجراءات الصارمة إذا ما أرادوا البقاء في السلطة.

والحل لدى صدام هو بفتح الحوار مع الشاه، إذا ما تمكن بطريقة ما إقناع الإيرانيين على الانسحاب من الصراع، وكان واثقاً بأنّ قواته ستكون قادرة على سحق المقاومة الكردية. ومع ذلك، فإنّ فتح الحوار مع الشاه لم يكن نتيجةً ضائعة. وكانت سلطات طهران تدرك جيداً التكتيكات القاسية التي استخدمها البعثيون ليبقوا أنفسهم في السلطة، وأنّ الشاه قد استمر بإدانته لنظام بغداد «كمجموعة من الهمج المجانين المتعطشين للدماء». وكان الشاه، علاوة على ذلك، يقدر تماماً الموقف القوي الذي وجد نفسه فيه، وكان مصمماً على أن يخبط خبطته في الصفقة الشاقة الرابحة. لقد كان يرغب منذ مدةٍ طويلة في اتفاقيةٍ بواسطتها يعترف العراق رسمياً بادعاء إيران في السيطرة على شط العرب، الممر المائي الاستراتيجي المهم على رأس الخليج العربي. وقد قاوم العراق وبقوة الادعاء الإيراني على أساس أن مثل ذلك الامتياز سيعرض للخطر إمكانية العراق في تصدير النفط. وهذه دلالة على الموقف المحفوف بالمخاطر الذي وجد صدام نفسه فيه في بداية عام ١٩٧٥ الذي وافق به على الدخول في

مفاوضات مع الشاه حول شط العرب والمناطق الأخرى المتنازع عليها وذلك خلال اجتماع وزراء النفط في الجزائر في أوائل عام ١٩٧٥ وكانت المفاوضات ناجحة، بكل تأكيد من وجهة نظر الشاه، وفي السادس من مارس (آذار) ١٩٧٥، توصّل صدام والشاه إلى إبرام اتفاقية الجزائر. ومقابل أن يمنح العراق إيران السيطرة على شط العرب، وافق الإيرانيون على سحب دعمهم للأكراد.

وفي السياق المباشر للنزاع الكردي، أثمرت مقامرة صدام. وفي ثمانٍ وأربعين ساعة من توقيع اتفاقية الجزائر، سحبت إيران قواتها ومساندتها للأكراد، وخلال أسبوعين تم القضاء على التمرد الكردي بصورة فعالة. وحتى أن صدام وجد نفسه مخصوصاً بالثناء من الشاه، والذي اختتم قوله بعد المفاوضات معلقاً «ترك صدام انطباعاً إيجابياً لدي. هو شاب ويمتلك أفكار شجاعة».(١٧) ومع ذلك، ومن نواحٍ أخرى شكلت اتفاقية الجزائر إذلالاً وطنياً لصدام والبعثيين، لأنها منحت بصورة فعليةٍ السيطرة لإيران على شريط العراق الساحلي الصغير جداً عند رأس الخليج، المدخل البحري الوحيد لذلك الشعب. ومن الواضح أن ذلك كان موقفاً ضعيفاً من جانب العراق، وقد نجم عن ذلك في النهاية أكثر الصراعات دمويةً التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط. وقد أجمل بدقة وزير خارجية العراق، سعدون حمادي، مشاعر بغداد الحقيقية حول التخلي عن شط العرب «إمّا ذلك وإمّا نفقد شمال القطر». ولكن إلى الآن وبقدر تعلق الأمر بصدام، كانت الاتفاقية جوهرية لأنها، فضلاً عن إنهاء التمرد الكردي، أنقذت حياته السياسية. وقد عُرف جيداً في بغداد بأنّ صدام قد ادعى المسؤولية الشخصية لحل المسألة الكردية، وإنّ الفشل في إنهاء ذلك، خاصة بعدِ تمرد ١٩٧٤، كان قد حطمه. وبمواجهته لخيار التضحية بالمصلحة الوطنية أم التضحية بسيرة حياته الخاصة، فإنّ صدام اتخذ الخيار الذي كان يضمن بقاءه.

وبالرغم من جميع أخطائها، فإنّ صدام قد نجح في أن يحوّل الاتفاقية مع الشاه إلى نصر شخصي، إكليل زهر آخر أضيف إلى تلك التي اكتسبها من تأميم شركة البترول العراقية (IPC) ومعاهدة التعاون مع موسكو. وفي جوانب عديدة، انّ عام ١٩٧٥ هو الفترة التي يمكن أن يقال فيها حقاً بأنّ مسيرة صدام المتصلبة في القصر الرئاسي قد بدأت بجدّ.

وفضلاً عن كونه قادراً على التباهي بتلك الانتصارات الدبلوماسية، فإن أعداءه المعروفين في الجيش والجناح المدني لحزب البعث قد تم انتقاؤهم وأن جهاز أمنه كان اختراقياً. وكنائب رسمي للبكر، كان يستشار في جميع أمور السياسة داخلياً

وخارجياً. ومع ذلك فإن صدام كان يظنّ بأنّ الأمر لم يزل مبكراً جداً بالنسبة له ليبدأ تحرّكه على القصر الرئاسي.

وذلك لا يعني أن تلك الفكرة لم تدخل في حيز تفكيره. وكما وضح هو فيما بعد لأحد كتاب سيرته الرسميين: «من المؤكد أن تلك الأمور ستتحقق بصورة أسرع لو أصبحت رئيساً للجمهورية قبل خمسة أعوام»، قال ذلك بثقة. «كان ذلك أيضاً اعتقاد الرئيس البكر لكنني اعتدت أن أخالفه لأنني كنت لا أرغب في أن يغادر موقعه كرئيس».[١٨] إنّ جدال صدام في موضوع عدم إقصائِه للبكر في عام ١٩٧٥ هو أنّ مثل ذلك التحرك قد يعتبر انتهازية معيبة، ومع ذلك فإنّه نفسه كان يعتقد بأن ذلك هو الطريق الصحيح للعمل. «إذا لم أتصرف بتلك الطريقة الأخلاقية، بماذا سأخبر الناس؟ إن موقفي هو بالضبط كأي موقف ثوري آخر في العالم أو في الأمة العربية، دون أي اختلاف أخلاقي واضح. لو أنّ الشخص الأفضل يستحوذ على مكان صديقه ويبحث عن المكافأة فحسب، إذن ستكون مثل الحركات الثورية الأخرى، بينما يكون ذلك مجافياً للحقيقة».[١٩] وتلك التعليقات، التي أدلى بها فوراً بعد تسلمه للرئاسة، قلّما تؤخذ كقيمة ظاهرية في معاينة معاملته اللاحقة للبكر. وحقيقة الأمر ببساطة هي أنّه وعند تلك النقطة في سيرته النيزكية لم يكن صدام يشعر بالثقة الكافية في موقعه ليقود عصياناً مسلحاً ضدّ البكر. والحذر الملازم له هو واحدة من أكثر سمات شخصية صدام المدهشة.

إنّ الصعود التدريجي في حظوظ صدام في منتصف السبعينات رافقته زيادة موازية في حظوظ حزب البعث. فالجيش الشعبي، ميليشيا حزب البعث الذي أصبح تحت إدارة عزت الدوري، نائب صدام في مجلس قيادة الثورة وأحد أتباعه المخلصين جداً، زاد عدد منتسبيه إلى ما يقارب (١٥٠٠٠٠) مقاتل. وحزب البعث الذي بلغ تعداد أعضائه خمسة آلاف عندما تسلم الحكم في عام ١٩٦٨، أخذ يجتذب أرقاماً قياسية من المنتسبين الجدد، من المواطنين العاديين الذين لاحظوا في عضوية الحزب وسيلة لتحسين أوضاعهم. وفي أواخر السبعينيات قُدّر عدد أعضاء حزب البعث العراقي بمليون بعثي، وذلك حدث مثير في بلدٍ يصل تعداد سكانه إلى (١٢ مليون) فقط.[٢٠]

وبتعزيز موقعه في الحزب والقوات المسلحة، كان صدام يدرك جيداً بأنه لو أراد أن يحقق طموحه المطلق في أن يكون رئيساً فإنه بحاجةٍ إلى أن ينمّي المساندة الحقيقية بين أوساط الشعب العراقي بشكل أوسع. والنفاذ المخادع إلى كيف كان صدام يفكر في تلك النقطة المهمة من سيرته وفره الصحفي البريطاني الذي زار بغداد في عام

١٩٧٥ وأخبره مترجم الحكومة بأنّ «الأخ غير الشقيق لصدام ورئيس جهاز المخابرات، برزان التكريتي، طلب منه أن يدبّر كتباً عن ألمانيا النازية. وهو يعتقد بأنّ صدام نفسه كان مهتماً بذلك الموضوع، ليس بسبب التعامل مع العنصرية ومعاداة السامية. وإنما كمثل للتنظيم الناجح لمجتمع بأكمله بواسطة الدولة لتحقيق الأهداف القومية»[٢١] وباتخاذ ستالين نموذجاً لخلق النظام الشمولي، أصبح صدام ينظر الآن إلى هتلر للحصول على مفاتيح لكيفية تحسين شعبيته.

ولتحضير الطريق ليتبوّأ منصبه النهائي شعر صدام بأنّه بحاجة ماسة إلى العديد من العراقيل في المكان، لأنه لما يحين الوقت بالنسبة له للقيام بتحركه، ستكون المعارضة التي يواجهها عديمة الجدوى. فجاءت المحاولة المهمة الأولى لصدام لإضعاف موقع البكر في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧ عندما رتب موضوع تعيين عشرة أعضاء جدد في القيادة القطرية لحزب البعث، والذين سيعطون صدام أكثريةً مريحة لأربعة عشر عضواً من أصل واحد وعشرين عضواً. وبعد سبعة شهور عُيّن القادمون الجدد أعضاء في مجلس قيادة الثورة، موفرين لصدام أكثريةً حاسمة في الهيئة الصانعة للقرار الأكثر نفوذاً في القطر. ومن بين أولئك الذين يظهرون لأول مرة في صفوة الحزب الحاكمة كان أحد المسيحيين الناشطين في حزب البعث وهو طارق عزيز. وبعد الدراسة في جامعة بغداد، حيث نال شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي، بدأ عزيز حياته المهنية كمعلم في مدرسة. في الستينيات انضم إلى حزب البعث وتركه، وكان ذلك قبل انضمامه ثانيةً في عام ١٩٦٨ رجل متعلم ومثقف، نجح في تجنب العنف وإراقة الدم التي ميّزت حزب البعث، وكان ذا اهتمام ممتاز بالسياسة العالمية، واشتهر، مثل صدام، بكونهِ معادياً صلباً للشيوعية وقومياً عربياً ملتزماً. وفي عام ١٩٦٩ عُيِّن عزيز رئيساً لتحرير صحيفة الثورة وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٤ أصبح وزيراً للإعلام. وخلال رئاسة تحريره لصحيفة الثورة، برهن عزيز على نصرته لصدام، لما كان يكتب افتتاحيات مجدية مساندة لسياسات صدام. وفي عام ١٩٧٦، مثلاً، وفي واحدةٍ من مشاحنات صدام الدائمة مع الشيوعيين، كتب عزيز بوضوح: «ليس هناك مكان للحزب الشيوعي في بلدنا»[٢٢] ولما ولد ابن طارق عزيز بعد سنوات قليلة، دفع إلى معلمه الناصح تكريماً بتسمية الطفل باسم صدام.

وبتصنيفه للجناح المدني للنظام، حوّل صدام انتباهه نحو ضمانة عدم مواجهته أي تهديد من القوات المسلحة. وحقق ذلك في شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٧ عبر هندسته لتصعيد ابن خاله الأثير بالنسبة له، عدنان خير الله، ليصبح وزيراً جديداً

للدفاع. وعدنان، مثل طارق عزيز، قد انتخب عضواً في القيادة القطرية في يناير (كانون الثاني) السابق. وفي جميع المخططات التي رسمها صدام لزيادة قاعدة سلطته فإنّ تعيين عدنان المثير للجدل كان أكثر أهميّة. وقد أعجب صدام بعدنان منذ أن اتبع نموذجه وشق طريقه في نظام التعليم العراقي. وبعد انتقال صدام إلى بيت خاله خير الله في تكريت، نشأ هو وعدنان معاً كأخوين تقريباً. وانتقلا إلى بغداد معاً، بالرغم من أن عدنان، الذي كان يمتلك مؤهلات دراسية أفضل، قد حقق جميع أحلام الطالب العراقي الطموح في تسجيله في أكاديمية بغداد العسكرية، بينما كان مطلوباً من صدام أن يقنع نفسه بمهنةٍ أقل سحراً في حزب البعث. تزوج صدام أخت عدنان، ساجدة، بينما تزوج عدنان بإحدى بنات البكر وذلك بتحريض من أبيه وصدام. ومن الصعب أن نتصور ترتيباً أكثر لزواج القربى المهيمن على النخبة الحاكمة للجمهورية الحديثة. وفي عام ١٩٧٨ انتصرت أوامر الأسرة والقرابة، وانضم عدنان إلى صدام في الحكم. وإنّ ذلك التعيين لم يكن سهلاً بالنسبة لعدنان، الذي أضعف صهره بشكلٍ فعال. وقبل تعيين عدنان كان البكر يمسك بحقيبة الدفاع، إضافة إلى مواقعه العديدة الأخرى في الدولة. إنّ ارتقاء عدنان سلب من صهره الوظيفة التنفيذية الجوهرية. وكان ذلك يعني تقريباً أنّ من الآن فصاعداً ستصبح القوات المسلحة تحت سيطرة صدام.

إنّ صعود عدنان إلى وزارة الدفاع كان أحد التعيينات العديدة التي قام بها صدام حيث أصبح أفراد عائلته وعشيرة تكريت وبالتدريج يحكمون السيطرة على أمن البلد والبنى التحتية لوزارة الدفاع. برزان، الأخ غير الشقيق، أصبح في ذلك الحين رئيساً لمديرية المخابرات العامة عقب قضية ناظم كزار، وقد سيطر على وظائف بعض الدوائر الأمنية الأخرى. وترأس مكتب الأمن القومي صديق صدام سعدون شاكر ـ الذي ساعد صدام على الفرار من السجن في عام ١٩٦٦ وكان عضواً في عصابة قطاع الطرق الصداميين ـ وينقل التقارير مباشرة إلى صدام. والأخوان الآخران نصف الشقيقين، وطبان وسبعاوي، قد أصبح الأول محافظاً لمحافظة تكريت التي توسعت حديثاً والثاني مديرا لجهاز الأمن العام وعلى التوالي، وخير الله طلفاح، والد وزير الدفاع الجديد، أصبح محافظاً لبغداد. وكلما ازداد نفوذ صدام سيطرت على زمام الحكم الزمرة التكريتية المتلازمة بقوة.

وبعدنان الذي نُصّب بقوةٍ في موقع قيادة القوات المسلحة، تم التحريض على جولةٍ أخرى من التطهيرات لمحق الآثار الأخيرة للرأي المعادي للبعث في سلك الضباط. وفي صيف عام ١٩٧٨ قاد «عملية تطهير» خاصة به، حيث تم تطهير عشرات

الضباط، بمن فيهم قائد القوة الجوية والعديد من قادة الفرق العسكرية وأعدم ستين من ملاك القوات المسلحة.[٢٣] وفي يوليو (تموز) ١٩٧٨ أصدر مجلس قيادة الثورة مرسوماً يعتبر النشاط السياسي غير البعثي في القوات المسلحة عملاً لاشرعياً عقوبته الإعدام. وفي الوقت نفسه الذي تم فيه تطهير القوات المسلحة، كان صدام يموّل الإنماء العسكري الحقيقي، بصورة رئيسة وذلك لمواجهة التهديد الذي يبديه حب الشاه للقتال. وربما كان صدام يفكر ملياً في القيام بشيء ما لتطوير حصانة القوات العراقية المسلحة في الماضي، إلا أنّه كان متردداً لأنّه لا يشعر بالثقة التامة بالمؤسسة العسكرية، وبتقويتها فإن صدام المحترس سيشعر بأنّه كان يعزز مواقع خصومه السياسيين فحسب. وبالرغم من فشلهِ الشخصي في تأمين المكان في أكاديمية بغداد العسكرية، إلا أنّ صدام قد نجح في إقناع البكر بتنصيبه برتبة فريق أول ركن (والذي أصرّ على أن يؤرخ ذلك بتاريخ ١٩٧٣) وتلك الرتبة معادلة لرئيس أركان الجيش. وبعد استلامهِ للرئاسة بفترة قصيرة عيّن صدام نفسه مهيباً.

إن تعيين عدنان في منصب وزير الدفاع كان يعني أنّ صدام تمتع بسيطرة أكثر على القوات المسلحة. وبالنتيجة في الفترة ما بين ١٩٧٧ و١٩٧٩ شهد العراق نوبة الإنفاق العسكري التي أدت إلى شراء بعض أنظمة الأسلحة السوفيتية المتطورة، من ضمنها أربعمائة وخمسون دبابة من طراز «ت ـ ٥٢»، والعشرات من المدافع من عيار (١٢٢ و١٥٢ مليمتر) وقاذفات القنابل توبوليف (Tu-22) وطائرات هليكوبتر (Mi-24) وطائرات نقل (Il-76). لكن صدام تعلّم درسه في الصراع الكردي بالاعتماد إلى درجة كبيرة على السوفيت في معداته العسكرية الثقيلة، وعزم على أن يجد أسواقاً جديدة. والبديل الأكثر منطقية عن السوفيت هم الفرنسيون، الذين وفروا الدعم المعنوي الكبير خلال أزمة النفط. وهكذا تسلمت القوة الجوية (٤٠) طائرة ميراج مقاتلة متطورة من طراز (F1)، وتسلم الجهد العسكري العراقي المضاد للدبابات تعزيزات مهمة وذلك بشراء (٦٠) طائرة هليكوبتر (Gazelle)[٢٤] ومعظم تلك المشتريات تفاوضت عليها لجنة خاصة مكونة من ثلاثة رجال نصّبهم صدام في نهاية عام ١٩٧٤، حيث كان هدفها الطويل الأمد هو ضمان استقلال العراق الطويل الأمد في تجهيزاته العسكرية. وبرئاسة صدام، كان أعضاء اللجنة الآخرون هم كل من ابن خاله عدنان خير الله وعدنان الحمداني، نائب رئيس الوزراء العراقي والذي كان يلعب دوراً مهماً في بناء ترسانة العراق لأسلحة الدمار الشامل. إن استيلاء صدام وعدنان على القوات المسلحة قلّل وعلى نحوٍ خطير من سلطة ونفوذ الرئيس البكر، الذي أصبح وعلى نحو متزايد

أقل بكثير من رئيس صوري، إلى حدّ أنه في نهاية السبعينيات أصبح العراقيون يشيرون بصراحة إلى القصر الرئاسي كـ «ضريح للجندي المجهول».

وبحلول العام ١٩٧٧، أصبح موقع صدام حصيناً إلى درجة كبيرة. ورسمياً كان القطر يديره كلّ من الثلاثي البكر، صدام، وعدنان، مع شبكة معقدة من الروابط الأسرية والعشائرية. وفي الحقيقة، إنّ الأكثرية التكريتية في المناصب البارزة قد حثت الحكومة في عام ١٩٧٦ على اعتبار الشخصيات العامة التي تستخدم اسماً يدل على عشيرتهم شخصيات آثمة. ومن عام ١٩٧٤ فصاعداً، واجه البكر مجموعة من المآسي العائلية والصحة المتردية والتي جعلت منه، وكما هو بادٍ، شخصية سطحية، وأصبح مكتب صدام البؤرة المركزية للسلطة وصناعة القرار في العراق. فتنظيم حزب البعث الواسع، الذي امتد إلى كل قرية ومدينة، وجهاز المخابرات، والوزراء المميزون، والذين حسب الدستور يدينون بالولاء للبكر، كلها تنقل التقارير إلى مكتب صدام،[٢٥] وكان صدام يعي جيداً أهمية موقعه في العراق، وبغض النظر عن إصراره في كل الأوقات على مناداته بالسيد نائب الرئيس، طالب بالالتزام الشديد بالبروتوكول الرسمي عند قيامه بواجباته العامة. مثلاً، عندما كان ينتظر خارج مكتب البكر، كان صدام يصر على أنّ أحد موظفي البكر سيدعو رسمياً «السيد النائب» ليدخل مكتب الرئيس. وببساطة كان الأمر مسألة وقت بالنسبة لصدام قبل أن يجعل من ذلك المكتب مكتباً له.

الفصل السادس

الإرهابي

بعد العراق، العالم. إذا استطاع صدام أن يسيطر على المسرح العراقي، إذن هو لم يرَ أي سبب لماذا لا يستطيع أن يصبح الشخصية المهيمنة في القضايا الدولية. وحتى عندما كان يمضي وقته كشخصية ثانية في القيادة بعد البكر، اكتسب صدام ميلاً للديمقراطية، وبتسلحهِ بثروة النفط الجديدة، آمن وبثبات بأنّ قدر العراق أن يصبح القوة المتفوقة في سياسة الشرق الأوسط. وكلما كسب المزيد من السلطة في العراق، شعر بأنّ يجب أن يؤخذ على محمل الجد كأنّه مقامر عالمي. لقد أظهر مهاراته التفاوضية في الصفقات التي أبرمها مع السوفيت، الإيرانيين، والأكراد بالرغم من أنه وفي القضايا الثلاث جميعها قد نقض الاتفاقيات في النهاية. وقد رأى صدام في نفسه الوريث الطبيعي لعبد الناصر، الرئيس القوي الذي قام بقيادة العالم العربي بأكمله. لكنه لو أراد أن يحقق النصر الدائم الذي كان يتمناه بوضوح، لكان يحتاج إلى أكثر من مهارات طاولة التفاوض. وللتنافس مع القوى العظمى كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كان أمراً أساسياً أن يطوّر العراق قوته العسكرية. وأنّ ذلك يعني برأي صدام الحصول على ترسانة الأسلحة النووية، والكيماوية والبيولوجية.

إن السهولة التي كان بها صدام قادراً على تقوية القدرة العسكرية غير التقليدية في السبعينيات ساندها إلى حد كبير الموقف المتساهل الذي اتخذه الغرب حيال نظام البعث، خصوصاً بعد تأميم صدام للنفط الذي أدى إلى أن تكون وزارات الحكومة المتنوعة في بغداد مغمورة بدولارات البترول. العراق كان بلداً ثرياً، والشركات الغربية، بما فيها متعهدو الدفاع، كانت تصطفّ للمتاجرة مع بغداد. إنّ تأثير ثروة النفط الجديدة يمكن أن يُرى في الصعود الدراماتيكي للإنفاق العسكري في القطر من ٥٠٠ مليون دولار في ١٩٧٠ إلى ٤,٥ مليارات دولار في عام ١٩٧٥، والشركات

الأجنبية طارت من الفرح عند توفر الفرصة لاستغلال سوق الأسلحة العراقية الجديدة، خاصة بعد أن توصل صدام إلى نتيجة أن حلفه الاستراتيجي مع موسكو، والذي كان أساسياً جداً في تدابيره في تأميم شركة البترول الوطنية (IPC)، قد دام أكثر من نفعهِ. وكان صدام عازماً على تجنب ما اعتبره اعتماد العراق الناقص على الاتحاد السوفيتي للحصول على الأسلحة، ومن منتصف السبعينيات فصاعداً سيطر على اللجنة الثلاثية والتي كانت مسؤوليتها في تنويع الحصول على الحاجات التسلحية للعراق. وعندما أبدى أندريه غروميكو، وزير خارجية الاتحاد السوفيتي، تذمّره حول ترتيبات العراق لشراء الأسلحة الجديدة، أجاب صدام بصراحة، «أنا لا يهمني من أين تأتي أسلحتي. بل المهم أن تلك الأسلحة ستخدم هدفي».[1] والتعليق لخص فلسفة صدام بدقة، وليس ما يتعلق بصفقات الأسلحة فحسب.

ويبدو أنّه ليس هناك أحد يعنيه كثيراً تجاهل النظام الظالم لحقوق الإنسان، وفي أواخر السبعينيات كان العراق يشتري الأسلحة من فرنسا، إيطاليا، ألمانيا الغربية، بلجيكا، البرتغال، يوغسلافيا، والبرازيل، وبينما بقي الاتحاد السوفيتي المورّد الرئيس لأسلحة العراق انخفضت حصته في الحصول الإجمالي لبغداد من الأسلحة من أكثر من ٩٥٪ في عام ١٩٧٢، عندما كان صدام يتفاوض في معاهدة التعاون، إلى ٦٣٪ في عشية الحرب الإيرانية العراقية في عام ١٩٨٠ وفرنسا، التي كانت البلد الغربي الأول أبدت بوادر تهدئة تجاه بغداد بعد تأميم الشركة الوطنية للبترول IPC، كانت المستفيد الرئيس وأصبحت بسرعة ثاني أكبر مورّد بعد الاتحاد السوفيتي. وفي صيف عام ١٩٧٧ اختتم العراق صفقته الأولى للأسلحة مع فرنسا لتزويده بطائرات ميراج المقاتلة F1، لتتبعها بعد سنة أخرى اتفاقيات إضافية لبيع طائرات هليكوبتر هجومية من طراز (Alouette) وصواريخ (كروتيل-١) أرض ـ جو، ومعدات إليكترونية.

ومن مرحلة مبكرة من تطور العراق العسكري، أوضح صدام بشكلٍ جلي أنه لم يكن مهتماً بالأسلحة التقليدية فحسب، ومن منتصف السبعينيات فصاعداً ركز وبمقدار كبير من الطاقة على بناء قدرات عسكرية غير تقليدية في العراق. ومحاولات العراق للحصول على الأسلحة البيولوجية والكيماوية يمكن أن تعود إلى عام ١٩٧٤ عند إنشاء اللجنة الثلاثية المعروفة بلجنة التخطيط الاستراتيجي التي أُوكلت مهمة تحقيق هذا الهدف والتي كان يرأسها صدام شخصياً. إنّ أعضاء هذه اللجنة كانوا هم أنفسهم الأعضاء في لجنة الحصول على الأسلحة، عدنان خير الله وعدنان الحمداني، المحامي المتدرب الذي أصبح التاجر المتنقل والمفاوض المسؤول لصالح صدام.

وكان الحمداني محسوباً على عبد الكريم الشيخلي، وزير الخارجية السابق الذي بعث به صدام إلى المنفى في الأمم المتحدة في نيويورك في عام ١٩٧١ لتراجعهِ عن الزواج من شقيقته سهام (أنظر الفصل الرابع). واتصل صدام بالحمداني عندما كان يعمل في إحدى لجان التخطيط وتأثر بفكره الثاقب ومقدرته الفنية، فرقّاه للعمل كمعاونٍ له.

وكانت مبادرة الحمداني الأولى إقامة علاقة مع شركة في بيروت يديرها اثنان من المقاولين الفلسطينيين وتحمل «المشاريع والتنمية العربية» (APD)، والمتخصصة بإيجاد العمل للعرب ذوي الكفاءة العالية. وتقول التقديرات بأن عدد العلماء العرب الذين وظفهم العراقيون يتراوح بين مئات عدة وأربعة آلاف. فقد تم إقناع مصريين، مغاربة، فلسطينيين، جزائريين، سوريين وعرب آخرين بترك وظائفهم الجيدة في كل من الولايات المتحدة، بريطانيا، كندا، البرازيل، وعشرات الأقطار الأخرى، جالبين للعراق ثروة من الخبرة. ومعظمهم قد تم توظيفهم في المشاريع البتروكيماوية ومشاريع البنى التحتية، ولكنّ بعضهم وبصورة حتمية وجدوا أنفسهم يعملون في مشاريع عملية أكثر حساسية. والمساهمة الرئيسة الأخرى التي منحتها (APD) إلى التنمية في العراق هي في المساعدة على خلق نظام تعليم عالٍ في العراق، والذي زوّد صدام بعلمائه الوطنيين للعمل في مشاريع أسلحته المتنوعة.

إن اهتمام صدام الأول بالأسلحة البيولوجية انصبّ على التنوع الجرثومي، وهي رخيصة، وسهلة التصنيع نسبياً، وقاتلة بقوة وقنينة واحدة من فيروس الجمرة الخبيثة، على سبيل المثال، يتم إسقاطها في الشبكة المدنية للماء تكون كافية، في الظروف الملائمة، لنشر وباء كامل. إذا ما كان هناك إرهابي فذلك هو سلاحه. وبطلبٍ من صدام قام عزت الدوري، وهو مسؤول رفيع المستوى في حزب البعث عمل في مجلس قيادة الثورة كوزير للزراعة، بزيارة إلى باريس في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٤ حيث وقع عقداً مع (Institute Merieux) الفرنسي لإقامة أول مختبر جرثومي في العراق. إنّ التبرير الكاذب الذي قدمه العراقيون بأنهم بحاجة إلى مثل تلك التسهيلات وذلك لتصنيع كميات كبيرة من اللقاحات لمساعدتهم في تطوير الإنتاج الزراعي والحيواني. وتدعى وكالة الشراء العراقية الرسمية بالمديرية العامة للخدمات البيطرية.[٢] ويبدو أنه لم يكن أحد في فرنسا معنياً بذلك على الأقل. وكوفئ الدوري بترقيةٍ عند عودته إلى بغداد، وعيّن فوراً وزيراً للداخلية، بينما لم يزل يحتفظ بمسؤوليته الخاصة عن التنمية «الزراعية».

وبوضعها أسس برنامج الأسلحة البيولوجية، قررت لجنة صدام في عام ١٩٧٥

بأن يكون تحركها القادم للحصول على الغاز السام. وفي الاجتماع ناقش عدنان خير الله مسألة الأسلحة الكيماوية التي أصبحت «قوة ضاربة». وليس مثل أجهزة الإلكترونيات المعقدة التي طورتها القوى العظمى فيما بعد، فإنّ تكنولوجيا الأسلحة الكيماوية أصبحت تماماً بقبضة دولة نامية كالعراق. وقررت اللجنة أن تبذل الجهود كاملة للحصول على التكنولوجيا لإنتاج الأنواع المتنوعة من الغاز السام، بما في ذلك الغازات الخانقة، كغاز الخردل، وغازات الأعصاب مثل التابون Tabun والسارين Sarin الأكثر تعقيداً. واكتشف التابون في عام ١٩٣٧ عن طريق علماء يعملون لصالح الشركة الألمانية (I. G. Farben)، والتي حازت شهرة عالمية خلال الحرب العالمية الثانية لتجهيز الغاز الذي استخدم في معسكرات الإبادة النازية. واكتشف العلماء أن مركبات فسفورية عضوية معينة، وهي سهلة المنال، يمكن تحويلها إلى غاز قاتل يهاجم الجهاز العصبي المركزي. وإنّ جمهورية هتلر الثالثة بدأت تصنيع كميات كبيرة من غاز الأعصاب، لكن الديكتاتور لم يستخدمها في القتال، وبعد الحرب سجلت شركة (I. G. Farben) اختراعاً لمركّب جديد سمّته تابون Tabun.

إنّ تابون، وابن عمه الأول سارين Sarin متماثلان تقريباً في تكوين مركب الباراثيون الفوسفاتي العضوي، وهو مبيد الحشرات المعروف جداً بخطورته العالية. فالتابون والسارين هي غازات فتاكة جداً وقطرة واحدة منها كافية لقتل الإنسان. ولدى غاز الأعصاب أيضاً ميزة أخرى وهي أنه بلا لون ولا رائحة. إنه سهل الصنع وسهل الانتشار، وتجعل من القتل سهلاً وفعّالاً. وكلا العنصرين يمكن الحصول عليهما من المركبات الفوسفاتية العضوية، والتي بدورها تُشتق من أنواع مختلفة من المعادن الفوسفاتية. ومن حُسن طالع صدام أن العراق قد امتلك تراكمات فوسفاتية طبيعية في صحرائه الغربية، القريبة من الحدود السورية.

ومن أجل وضع خطة الأسلحة الكيماوية موضع التنفيذ في أواخر عام ١٩٧٥، نقل صدام عدنان الحمداني إلى وزارة التخطيط الضخمة حيث بإمكانه أن يشرف على التنمية الصناعية الشاملة في العراق. وكانت وظيفة الحمداني أن يدسّ مشاريع الأسلحة الاستراتيجية في عقود تهدف ظاهرياً إلى تطوير صناعة العراق المدنية والإمكانيات الزراعية. ولهذه المهمة كان يساعده اثنان من الأعضاء الأقدم في مجلس قيادة الثورة هما، عزت الدوري، وزير الداخلية الجديد (الذي لم يزل يحتفظ بمسؤوليته الخاصة بالتنمية الزراعية)، وطه الجزراوي، وزير الصناعة والمعادن. وأخفى الحمداني بذكاء مشاريع الأسلحة الاستراتيجية في الخطة الخمسية الثانية في العراق. وتحت عنوان

«التنمية الزراعية» أدرج مدخلاً غير جدير بالملاحظة يدعو إلى «إنشاء ستة مختبرات للتحاليل الكيماوية، الفسيولوجية والبيولوجية»، ولتشغيل تلك المختبرات، أوصت الخطة بتدريب ٥٠٠٠ من الفنيين من الشركات الأجنبية. وتحت عنوان «الصناعات الكيماوية» اقترحت الخطة بناء مصنع المبيدات في سامراء بقدرة إنتاجية تصل إلى ١٠٠٠ طن من مركّبات الفوسفات العضوي سنوياً.(٣) وكانت أكثرية البلدان الغربية قد وقفت استعمال تلك المركبات التشويهية للغاية للسيطرة على الوباء في السنوات السابقة وذلك بسبب درجة التسميم العالية فيها. والمواد الفسفورية العضوية ذاتها تشكل القاعدة لمركّبات غاز الأعصاب مثل سارين وتابون.

وبالرغم من أن شركة (APD) كانت متعاونة في تجنيد الخبرات التقنية، أدرك العراقيون أنهم بحاجة إلى المساعدة الخارجية لتحقيق هدفهم بالاكتفاء الذاتي في موضوع تصنيع الأسلحة البيولوجية والكيماوية. ولذلك الغرض أسس صدام معهد ابن الهيثم في منطقة المسبح في بغداد. وبالرغم من أنّ المعهد كان يبلغ صدام مباشرة، إلا أنّ المراقبة اليومية كان يديرها سعدون شاكر والمخابرات. وقد طوّر المعهد علاقاته القوية مع مجموعات فلسطينية منشقة مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي ساعدت العراقيين في الحصول على مادةٍ حساسة من بلدان كألمانيا الشرقية.(٤)

وأرسلت فرق الحصول على تلك الأسلحة إلى كل من أوروبا والولايات المتحدة متنكرين كممثلين تجاريين لشركاتٍ متنوعة في الصدارة. وأكثر الخداع دقةً للبلد الأجنبي في بناء مصنع الغاز السام كان عن طريق خطة أعدّها وسطاء فرنسيون لشركة بفاولدر Pfaulder، في روشستر Rochester في نيويورك، والمتخصصة في تصنيع معدات خلط المواد الكيماوية السامة. وباعتقادهم بأنّه قد طُلب منهم أن يبنوا مصنعاً لتصنيع المبيدات، أرسلت شركة بفاولدر اثنين من مهندسيها إلى بغداد للالتقاء بفريقٍ من الموظفين في وزارة الزراعة. وأعطى موظف عراقي ودود للأمريكيين شرحاً مفصلاً عن أنّ محاولات العراق لتطوير إنتاجه الزراعي كان يعيقها عدم قدرة المزارعين العراقيين على حفظ محاصيلهم من إتلاف الجراد الصحراوي والحشرات الأخرى. «ومصنع مبيدات حديث يستطيع أن يغيّر كل ذلك»، قال الموظف. كان الأمريكان متأثرين، غير أنهم يدركون صعوبات المبيدات السامة عالية الخطورة في العالم الثالث، فاقترحوا بناء مصنع إرشادي لتدريب القوى العاملة المحلية وتحديد المساحات التي قد يكون فيها مشكلات.

ولهذا الغرض وفي شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٦٧ قدمت شركة بفاولدر مقترحاً

مفصلاً حول المصنع الإرشادي. وفضلاً عن احتواء تحديدات التصميم المفصلة، فإنها تعهدت بنموذج المعدات الخاصة الضرورية لمزج المواد الكيماوية السامة. وكان العراقيون غير مسرورين بشأن بناء المصنع الإرشادي، إذ كانت تحدوهم الرغبة في الدخول في الإنتاج مباشرة. إنّ نفاد صبر العراقيين أزعج المهندسين، كما فعل إلحاح العراقيين بأنه عندما يأخذ الإنتاج مجراه أخيراً فإنهم يرغبون في تصنيع أربعة مركّبات عضوية عالية السميّة ـ أميتون، ديميتون، باراكسون، وباراثيون. وجميع تلك العناصر الكيماوية الأربعة هي قريبة لعناصر غاز الأعصاب من الدرجة الأولى، ويمكن أن تتحول حالاً إلى أسلحة فتاكة. وما زاد الطين بلة بالنسبة للأمريكان هو عندما أشار العراقيون إلى أنهم ينوون بناء خطوط إنتاجية كبيرة تكفي لإنتاج ١٢٠٠ طن من تلك المواد الكيماوية في السنة. وفي لقاء عاصف في منتصف عام ١٩٧٦ في فندق والدورف ـ أستوريا في نيويورك، قال العراقيون بأنّهم يريدون مصنعاً كاملاً على الفور، ولما بقي الأمريكان متشبثين بإصرارهم لبناء المصنع الإرشادي أولاً، انسحب العراقيون من المفاوضات.(٥) ولم يرجع العراقيون صفر اليدين تماماً. فبرامج العمل والمواصفات التي زودتهم بها الشركة بفاولدر كانت كافية لتمكين العراقيين من بناء مصنعهم الخاص.

ولاحقاً حوّل العراقيون اهتمامهم نحو أوروبا. وبقي صدام مقتنعاً بأنّه إذا استطاع العراق أن يبني قوته في الأسلحة الكيماوية فإنه يتمكن من تحقيق استقلاله الكامل من مورّدي الأسلحة له. وفي أواخر عام ١٩٧٦ توصلت فرق الحصول على الأسلحة التابعة لصدام إلى تقارب مع اثنتين من الشركات البريطانية وهما شركة امبريال للصناعات الكيماوية (ICI) وشركة بابكوك وولكوكس (Babcock and Wilcox). ومرة أخرى كانت حجة العراقيين هي أنهم يريدون إقامة مصنع للمبيدات قادر على إنتاج الأميتون، الديميتون، الباراكسون، والباراثيون. وحتى أنّ العراقيين أعدّوا الخطط التي رسمتها شركة بفاولدر في السنة الماضية، وأظهروا الأوعية التفاعلية المقاومة للتآكل، والأنابيب والمضخات التي يحتاجها إنتاج غاز الأعصاب. وكان موظفو ICI ينتابُهم الشّك فتراجعوا عن العرض «بسبب الطبيعة الحساسة للمواد والإمكانات التي تستعمل بشكل خاطئ». وفي الوقت نفسه زوّدت ICI ضبّاط الاستخبارات في جهاز الاستخباراتي السري في لندن بمعلومات سريّة. وبفشلهم في بريطانيا زار العراقيون شركتين إيطاليتين هما، شركة مونتيديسون الكيماوية العملاقة والمؤسسة الهندسية، وشركة تقنيات البترول، وكلا الشركتين قد امتنعتا عن مساعدة العراقيين في الحصول

على الأسلحة الكيماوية، على الرغم من أنّ كلا الشركتين ورد في قائمة لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي لمورّدي الأسلحة الكيماوية للعراق. ولأن العراقيين ما زالوا يفتقرون إلى الخبرة والمعدات، فقد وجهوا اهتمامهم صوب ألمانيا، الموطن الروحي للغاز السام.

وفي لقاء مع كارل هاينز لوس، مدير معهد لايبزغ للمركبات الكيماوية السامة، وكان في حينها في ألمانيا الشرقية، لم يبرر العراقيون نواياهم. «أنتم الألمان لكم خبرة عظيمة في قتل اليهود بالغاز»، قال المسؤول. «وهذا يهمنا بنفس الطريقة. كيف [يمكن] لهذه المعرفة. أن تستعمل لتدمير إسرائيل؟» وقد قام لوس بعدة زيارات إلى العراق لإعطاء المحاضرات حول التأثيرات المرعبة لاستعمال الأسلحة الكيماوية، بالرغم من ادعائه مؤخراً بأنّ زياراته استثمرت من قبل سلطات ألمانيا الشرقية كغطاء لإرسال خبرائهم في الأسلحة الكيماوية إلى بغداد للمساعدة في تطوير برنامج الأسلحة الكيمائية في العراق.[٦]

والمسألة الأخيرة في قضية الأسلحة الكيمائية تتعلق بتطوير رواسب الفوسفات في غرب العراق، حيث أراد العراقيون استغلاله لإنتاج غاز الأعصاب. وكانت الشركة الهندسية البلجيكية سيبيرتا متعاقدة في ذلك الحين لإقامة منجم الفوسفات الضخم في عكاشات. إنّ استخراج معدن الفوسفات بحد ذاته هو مشروع مقبول تماماً بالنسبة لبلد نام كالعراق، وهناك العديد من البلدان، كالمغرب، والتي أصبحت مصدراً رئيساً للأسمدة، التي تصنّع في المغرب من رواسب الفوسفات في الصحارى. ولما بدأ العمل في التعدين، وقع العراقيون عقداً ثانياً لبناء مجمّع الأسمدة الذي يبعد ١٥٠ كيلومتراً عن القائم. ولنقل المواد الخام من عكاشات إلى القائم تم التعاقد مع شركة برازيلية لبناء خط للسكك الحديد. وما من كلفة كانت لتعيق مشروع صدام المحبّب إلى قلبه. ويبدو أنّه ما من شركة من الشركات المعنية في المشروع اهتمت بالمواصفات غير العادية التي طلبها العراق كتعزيز التحصينات الإسمنتية حول مبانٍ معينة. فالشركات البريطانية، الفرنسية، الأمريكية، النمساوية، الألمانية، السويسرية، الدانماركية والسويدية، ساهمت جميعها بالخبرة في مشروع عكاشات/ القائم، مؤمنة جميعها بأنها كانت تساعد في بناء مصنع إنتاج الأسمدة. غير أنّ المشروع تحول إلى نموذج كلاسيكي للاستعمال المزدوج للتكنولوجيا. ومنذ ذلك الحين أكد موظفو الاستخبارات الأمريكية والبريطانية على أنّ أول مصنع لغاز الأعصاب في العراق أقيم في عكاشات بكلفةٍ تقديرية بلغت (٤٠ مليون دولار)، وأنشئ في القائم مرفق منفصل.

وقد تم بناء المشروع في الفترة التي أصبح فيها صدام رئيساً على وجه التقريب وخلال العشر سنوات التالية أصبح صدام قادراً على إغراء خبرات عدد من الشركات الأجنبية التي مكنت العراق من إنتاج كميات كبيرة من الأسلحة الكيماوية، بما في ذلك الأنموذج المكرر للخردل المصفى (HD)، بالإضافة إلى أن غاز الأعصاب المسمّى تابون Tabun وغاز الأعصاب VX الفعال جداً. وشهد تصنيع الأسلحة البيولوجية أيضاً توسعاً جوهرياً إلى الحد الذي أصبح به العراق قادراً على إنتاج عناصر مثل الجمرة الخبيثة، التيفوئيد والكوليرا. والسخرية التي لم تنطل على فرق مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة الذين تولوا مهمة نزع أسلحة الدمار الشامل لدى صدام في أعقاب حرب الخليج في عام ١٩٩١ هي أنّ الكثير من العناصر التي حاولوا أن يعثروا عليها تمّ إنتاجها إما في أوروبا أو الولايات المتحدة.

ومن كل المخططات الخاصة لتطوير الأسلحة غير التقليدية كان الأقرب إلى قلب صدام، مع ذلك، المخطط المتعلق بالجهد العراقي للحصول على الترسانة النووية. ومن منتصف السبعينيات كان صدام وقادة البعث الآخرون يبشرون بضرورة أن يقوم العراق بالكثير من التطورات العلمية إذا أراد أن يتحول بنفسه إلى دولةٍ عصرية. «بالنسبة للأمة العربية، تكون الحاجة للتقدم العلمي، معادلة للحاجة إلى العيش لأنه من المستحيل لأي أمة أن تجعل من وجودها مبجّلاً. دون احترام العلم ولعب دور معروف في اكتشافه واستغلاله»، كما صرح صدام. للعلم دور رئيس يلعبه في شتى الفعاليات الاقتصادية في عراق صدام، فمن تطوير الصناعات البتروكيميائية إلى البرنامج الضخم لإعادة بناء الطرق، الدور، والمرافق العامة. لكنّ مجال العلم الذي سحر صدام كثيراً هو التكنولوجيا النووية. وبالفعل كان افتتانه كبيراً بحيث إنّه انتقل إلى أولاده. وفي عام ١٩٨٠ مُنح أحد كتّاب سيرة صدام الفرصة للالتقاء بأسرته. وخلال زيارته لمنزل العائلة التقى عدي، الابن الأكبر لصدام الذي كان له من العمر ستة عشر عاماً. وأخبر عدي الشخص الذي قابله بأنّه كان جيداً في الفيزياء والكيمياء وبأنه يود الذهاب إلى الجامعة لدراسة الفيزياء الذرية. وسبق تعلّقه بذلك الطريق الخاص من سيرة حياته هو أنّ «العراق سيحتاج إلى العلماء في ذلك المجال عندما يدخل النادي النووي».[٧]

وفي اجتماع خاص بلجنته الثلاثية حول الحصول على الأسلحة، وضع صدام هدفاً للحصول على تلك الأسلحة في عشر سنوات ـ أي في عام ١٩٨٥ وفضلاً عن المكانة التي نشأت من طريق امتلاك قوة الأسلحة النووية، هناك أسباب عديدة من وراء

التصميم القوي لصدام للحصول على تلك الترسانة الخاصة. وللشروع بذلك ثمة إصرار في العالم العربي على مضاهاة القوة النووية التي كان يعتقد وبشكل واسع بأن إسرائيل قد طورتها بعد شراء مفاعل الديمونا النووي من فرنسا في الخمسينيات. وسيكون كذلك عقبة مفيدة ضد أي تهديد مستقبلي من إيران، البلد الذي هو أكبر من العراق بثلاث مرات. وكان صدام يدرك جيداً بأنّه بالانضمام إلى نظراء الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، الصين والاتحاد السوفيتي في نخبة «النادي النووي»، سيكون موقع العراق كبطلٍ لا ينازع في العالم العربي موقعاً حصيناً.

وقد شرعت السلطات العراقية في بحثها عن التكنولوجيا النووية بأسرع ما يمكن في أواخر الستينيات عندما اشترت حكومة عارف مفاعلاً للبحث التجريبي من الاتحاد السوفيتي. وأقام العراقيون مركز بحثهم النووي الأول في صحراء التويثة التي تبعد بحوالي خمسة عشر ميلاً جنوب بغداد، ليضم مفاعل الطاقة المائية (IRT 2000) المتواضعة الحجم. وفيما بعد حسّن السوفيت المفاعل ودربت على الأقل مائة من الفيزيائيين النوويين العراقيين. ولكن عندما طلب العراقيون في شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٥ شراء المزيد من التكنولوجيا المتقدمة، رفض كل من بريجينف وكوسيغين الطلب بأدب ولكن بقوة. وطبقاً للكاتب الفلسطيني سعيد أبو ريش، الذي لم يعتذر عن مساعدته لصدام في بناء أسلحته في السبعينيات، فإن صدام قد فوّض شخصياً موظفيه ليقوموا ببحث واسع النطاق عن معدات مناسبة وأبو الريش نفسه تلقى أمراً بمفاتحة وكالة الطاقة الذرية في كندا، وفشل في ذلك.[٨] وبسهولة تمكن صدام من الحصول على المساعدة في بحثِهِ عن أسلحة الدمار الشامل من قبل انتهازيين مثل أبي ريش الذي، فضلاً عن كسبه لأجر كبير كعمولة، شعر بـ «إحساس خاص بالفرح» لدوره في الجهد الذي يسعى لخلق «توازن الرعب» ما بين إسرائيل والعرب.[٩] ومع ذلك، فإنّ نشاطات أبي الريش ورفاقه لم تحقق الكثير.

وصدام الذي خاب أمله في الروس والآخرين الذين فاتحهم، حصل أخيراً على ما يبحث عنه عندما حوّل اهتماماته إلى طيف عالمي يفضله كثيراً هو فرنسا. فقد أبرم صدام في ذلك الحين اتفاقاً شخصياً قوياً مع شيراك، رئيس الوزراء الفرنسي. وبالرغم من تأثره الكبير بجوزيف ستالين في محاولاته لخلق نظام شمولي في العراق، بقي صدام في الصميم ذلك القومي الذي شجّعه خاله خير الله كثيراً على ذلك. ولذلك لم يكن أمراً مفاجئاً بأنّ عليه أن ينجذب إلى ديغوليّ ملتزم كشيراك. فالجنرال ديغول، الذي سحب فرنسا من هيئة القيادة العسكرية المتحدة لحلف الناتو بدلاً من وضع

أسلحة فرنسا النووية تحت سيطرة الناتو، كان رجلاً في قلب صدام. وقد بشر الديغوليون بأنّ السيادة الوطنية أصبحت مقدسة، كما فعل جناح صدام في حزب البعث، وأن التكنولوجيا النووية، كما حاول شيراك ومستشاروه أن يبرهنوا دائماً، هي قضية سيادة إلى حد كبير.

وقد طوّر كل من صدام وشيراك تفاهماً عميقاً خلال المفاوضات المطوّلة التي جرت في عام ١٩٧٥ لشراء العراق طائرة الميراج المقاتلة F1 الجديدة، وهي نسخة محسّنة من الطائرات التي استخدمتها القوة الجوية الإسرائيلية لتهزم العرب في حرب ١٩٧٣ وخلال زيارته إلى باريس في شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ لإتمام صفقة الميراج، أخذ شيراك صدام بجولة في بروفنس [جنوب شرق فرنسا]. وفي طريقهم إلى حلبة مصارعة في Les Baux، قام موكب شيراك بانعطافةٍ صغيرة ليمكنوا صدام من زيارة مركز الأبحاث النووي في Cadarache، الذي يبعد بأميال قليلة شمال مارسيليا. إنّ مفوّضية الطاقة الذرية (CEA) قد نصبت تواً مفاعلها التجريبي الإنتاجي السريع، الذي يسمّى رابسودي Rapsodie. إنّ المبدأ الرئيس للمفاعل الإنتاجي السريع هو في أن ينتج وقوداً نووياً أكثر مما يستهلك. ومع مرور الزمن أخذ يحول كميات مهمة من اليورانيوم إلى البلوتونيوم، والذي يمكن معالجته فيما بعد للاستفادة منه في تصنيع الأسلحة النووية. إن اهتمام العراق بمفاعلات الإنتاج السريع كان بسيطاً: الحصول على البلوتونيوم لصناعة القنابل.

وعلى الرغم من محاولاتهم للحصول على الأسلحة البيولوجية والكيميائية، ادعى العراقيون بأنهم أرادوا التكنولوجيا النووية لأغراض سلمية. وبالرغم من امتلاكهم لثاني أكبر احتياطي نفطي في العالم، زعم العراقيون أنّهم كانوا مهتمين في تطوير صناعة الطاقة النووية الوطنية. ووافق المسؤولون الفرنسيون بشكل أساسي على توضيح صدام، وعرضوا عليه بيعهم لمفاعل أوسيريس للأبحاث Osiris ونموذج بياني نسبي يسمى Isis، وكلاهما ينتج كميات صغيرة من بلوتونيوم بمستوى قنبلة. ووافق صدام على شرائها بشرط واحد ـ أن توافق فرنسا على أن تسلم تجهيزات سنة واحدة إضافية من وقود المفاعل عند التشغيل، ولو تمت معالجة الوقود صناعياً بشكلٍ صحيح فإنه سينتج مادةً كافية لصناعة عدة قنابل بحجم القنبلة التي أسقطت على هيروشيما.

وكان المفاعل مشابهاً للمفاعل الذي باعته فرنسا إلى الإسرائيليين في عام ١٩٥٦ وكما كان الاشتراكيون الفرنسيون مسؤولين عن تزويد إسرائيل بمفاعل ديمونا للأبحاث النووية، حسب شيراك بأنّه من حق حزبهِ الديغولي فعلاً أن يزود العرب بتكنولوجيا

مماثلة. بينما كانت بقية العالم تحاول يائسة أن تجعل من الشرق الأوسط منطقة نووية حرة، كان الفرنسيون، بطرازهم الخاص الذي لا يضاهى، يتفاوضون في الصفقات بابتهاجٍ وذلك لتجهيز البلدان العدوانية وبالتبادل بالقدرة على تفجير نفسها لتصبح نسياً منسياً. وبحسب التعبير الغالي [نسبة إلى بلاد الغال: المورد] الساخر كانت مصلحة شيراك الوحيدة في بيع مفاعل معقّد إلى صدام «للاستعمالات السلمية» مصلحة تجارية، وكان المفاعل مقابل حصول فرنسا على العقود التجارية المفضلة في بغداد، بما في ذلك الحقوق الممنوحة في النفط، واستيراد السيارات الفرنسية والتفاهم على أن يبرم العراق صفقة الجيل الجديد من طائرات الميراج المقاتلة. ويبدو أنّه لم يكن هناك أيّ أحد في الحكومة الفرنسية منزعجاً على الإطلاق من التناقض الملازم لبلدٍ نفطيّ غني كالعراق عن تحويل نفسه إلى قوة نووية. ولم يترك صدام أيّ أحد في شك بما يتعلق بنواياه الحقيقية. وفي مقابلة أجرتها في المجلة اللبنانية الأسبوعية «الأسبوع العربي» في شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ بفترة قصيرة بعد إبرام اتفاقية المفاعل، صرّح صدام بفخر «أنّ الاتفاق مع فرنسا هو الخطوة القوية الأولى نحو إنتاج القنبلة الذرية العربية».

في البدء أطلق العراقيون على المفاعل اسم «اوسيعراق» Osirak ولكنهم غيّروا الاسم فيما بعد إلى «تموز-١» و«تموز-٢»، تيمناً بالشهر الذي تسلم فيه حزب البعث زمام الحكم. ويقال إنّ العراقيين غيروا الاسم Osirak بطلب من الحكومة الفرنسية بعد الانتقادات الساخرة للصحافة الفرنسية لأنه يتطابق باللفظية مع اسم رئيس الوزراء (O'Chirac). ولما عاد الوفد إلى باريس، أصرّ صدام، على الاحتفال بالاتفاقية بإقامة وليمة خاصة لحليفه الفرنسي الخاص. ولما زار شيراك بغداد في العام السابق أبدى إعجابه بالسمك النهري العراقي المحلي الذي يطلق عليه اسم «المسكوف». وأمر صدام طباخه بأن يطير إلى بغداد على متن الطائرة الرئاسية ليعود بطنّ ونصف من السمك. وعند عودة الطباخ، أقنع صدام مدير الخدم في قصر ماريني، حيث يقيم الوفد العراقي أن يعدّوا شواءً خاصاً لشيراك، وبينما كان حراس أمن صدام يحرسون المطابخ ببنادقهم الآلية المعبأة، شرع الطباخون بعملهم في شواء سمك الشبوط الفخم والكثير الدسم على نيران مفتوحة. وكان على شيراك أن يتحمل المعاملة المهينة بكاميرات التلفزيون الفرنسي وهي تصوره - يلتهم ببسالة السمك الذي يقدم إليه بالطريقة البغدادية على ورق الألمنيوم، وقد أفضى فيما بعد لأحد معاونيه بأنّ الوفد العراقي قد سبّب إثارة كبيرة في قصر ماريني. «وغطت رائحة السمك المشوي المكان بأكمله. كان أمراً مسلياً، لكنه ورطة».[(١٠)]

وأسفرت زيارة صدام عن الحظ السعيد بالنسبة للتجارة الفرنسية التي بلغت قيمتها المادية مليارات الدولارات. إنّ اتفاقية المفاعل النووي، التي تم التوقيع عليها في بغداد في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥، كلّفت وحدها حوالي ثلاثة مليارات دولار. بالإضافة إلى ذلك هناك عقود للمصانع البتروكيماوية، ومصانع تحلية المياه، ومطار جديد، وحتى نظام أنفاق في بغداد. كان ذلك إضافة إلى صفقات الأسلحة الضخمة التي تم التفاوض عليها مسبقاً. فمنظومة التجارة الفرنسية قد بهرها السخاء الذي بلغته اتفاقات شيراك مع صدام الذي سمّوه «السيد عراق». ولما استعد صدام للمغادرة، ألقى شيراك خطاباً بليغاً. فقد أعلن بأن السياسة الفرنسية «لا تمليها المصلحة فحسب، وإنما القلب أيضاً. وتحسبُ فرنسا أنّه من الضروري أن تقام العلاقات بين المنتجين والمستهلكين وفق الشروط التي تنسجم بشكل أفضل مع مصالح كلا الطرفين».[١١] ولم يعلن عن النص الكامل لمعاهدة التعاون النووي الفرنسي ـ العراقي إلا بعد مرور ثمانية أشهر. وأحد الشروط المنصوص عليها في المعاهدة يشترط إقصاء «جميع الأشخاص من العرق اليهودي أو الدين المركّب» من المشاركة في البرنامج، في العراق أو فرنسا. وألزمت المعاهدة أيضاً الفرنسيين بأن يدربوا ستمائة فني نووي عراقي، وهو عدد أكثر من اللازم لبرنامج قنبلة.

وخضر حمزة، أحد العلماء العراقيين الذين عملوا في المشروع النووي في العراق منذ ولادته والذي نجح في الانضمام إلى الغرب في عام ١٩٩٤، قد كشف أنه ليس هناك أي شك حول نوايا العراقيين. وحسب ما ذكره حمزة، فإن صدام قد أصبح مسؤولاً عن وكالة الطاقة الذرية في العراق منذ منتصف السبعينيات، حيث جمع أولاً فريقاً من العلماء لصنع القنبلة العراقية.[١٢] ومعظم العلماء العراقيين الذين عيّنوا في المشروع قد تعلموا في بريطانيا، الولايات المتحدة، وكندا وقد دعمت جهودهم بدرجة كبيرة برحابة صدر وكالة الطاقة الذرية في الولايات المتحدة والتي كانت تدير برنامجها في ذلك الوقت تحت شعار الذرة من أجل برنامج السلم، حيث أعطت في عام ١٩٦٥ إلى وكالة الطاقة الذرية العراقية مجموعة كاملة من تقارير مشروع مانهاتن، الذي أنتج أول قنبلة ذرية في العالم في عام ١٩٤٥ ويذكر حمزة أنّ العراقيين قد قرّروا أن يقلّدوا الإسرائيليين، الذين اشتروا مفاعلاً صغيراً للأبحاث وبعد ذلك غيّروا استعماله خلسة.

وبلا شك كان صدام القوة المحرّكة من وراء المشروع النووي في العراق. فترأس اجتماعات وكالة الطاقة الذرية بالاحترافية نفسها التي كان يترأس بها جميع اللجان

الحكومية الأخرى التي تتعامل مع تحديث العراق. وقد طالب بتقارير مفصلة من العلماء عن الطريقة التي ينوون بها تطوير القنبلة العراقية. كان يقرأ التقارير بعناية ويسيطر تماماً على ملخّصها، لذلك عندما كان يلتقي بالعلماء كان قادراً على أن يطرح أسئلة ثاقبة ووثيقة الصلة بالموضوع. وبمبادرة شخصية من صدام أمّن العراق موقعه في هيئة المحافظين في وكالة الطاقة الذرية الدولية (IAEA)، الهيئة الدولية المسؤولة عن ضبط الصناعة النووية. وظنّ صدام أن وكالة الطاقة الذرية الدولية ستكون أقل شكاً بنشاطات «البحث» النووي في العراق إذا ما لعب دوراً إيجابياً في المنظمة. ورفض صدام مقترحاً قدمه علماؤه لبناء «مدينة ذرية» على أساس أنّ تركيز جميع مقومات البحث النووي للأمة في مكان واحد يجعل منه هدفاً سهلاً لأي شخص يقصد تدميره. وكما هو الحال مع مشروع الأسلحة الكيماوية، كان صدام ينوي نشر المنشآت النووية على عدد من المواقع السرية في أنحاء القطر وذلك لحمايتها من أي هجوم.

وبوصوله إلى الاتفاق مبدئياً على شراء مفاعل فرنسي خلال لقائه بشيراك، بعث صدام بحمزة ومجموعة صغيرة من المتخصصين العراقيين إلى ساكلي، المركز الرئيس لوكالة الطاقة الذرية الفرنسية في ضواحي باريس، وذلك لتصنيف المواصفات الفنية. ولما أصبح العراقيون عاجزين عن تقديم أي تفسير مقنع إلى نظرائهم الفرنسيين عن حاجتهم إلى مفاعل نووي للبحوث، استجاب الفرنسيون ببساطة بمضاعفة السعر. ومع ذلك لم يرَ الفرنسيون أيّ خطأ بالاتفاقية النووية، وحالما أصبح الأمر معروفاً أثار عاصفة من الاحتجاج العالمي، خصوصاً من جانب إسرائيل، بريطانيا، العربية السعودية وسوريا. ولتهدئة منتقديه، أمر الرئيس جيسكار ديستان الوكالة الذرية الفرنسية بأن تطوّر وقوداً «نظيفاً» لمفاعل تموز ليكون كافياً لتشغيله ولكن ذلك عديم الفائدة تماماً بالنسبة لإنتاج الأسلحة. غضب صدام وهدد بإلغاء كافة العقود التجارية الأخرى ما لم يحقق الفرنسيون شروط الاتفاقية الأصلية. وأخيراً توصلوا إلى تسوية وافق بها الفرنسيون على تجهيز المادة الأصلية، ولكن بشحنات أقل، ولتفادي أية مشاكل أخرى مع الجانب الفرنسي، تفاوض صدام سراً في عام ١٩٧٩ على اتفاقية للتعاون النووي مع البرازيل لعشر سنوات، والتي ألزمت البرازيليين بتزويد العراق بكميات كبيرة من اليورانيوم الطبيعي والمنخفض القيمة، تقنيات المفاعل، المعدات والتدريب. إضافة إلى ذلك ادعى موظفو الاستخبارات الأمريكية أن صدام قد وقّع اتفاقيات نووية سرية مع الصين والهند، بالرغم من عدم نشر التفاصيل. والقطعة الوحيدة من المعدات التي يحتاجها صدام لإتمام مغامرته النووية هي إعادة تشغيل المختبر الضروري لاستخلاص

البلوتونيوم من وقود المفاعل المستنفد. وقد عولج ذلك في إبريل (نيسان) ١٩٧٩ عندما وافقت الشركة الإيطالية سنيا تكينت Snia Techint، وهي شركة تابعة لمجموعة فيات Fiat، على بيع أربعة مختبرات نووية إلى وكالة الطاقة الذرية العراقية. وتعطي الاتفاقية الإيطالية البلوتونيوم الكافي لصنع قنبلة واحدة في السنة، وسيكون المشروع جاهزاً للتشغيل في أواخر عام ١٩٨١ [١٣]

وتواصل العمل في البحث عن القنبلة العراقية في السبعينيات، وأنّ العلماء المشتغلين في المشروع كانوا يتابعون باهتمام وتتم مراقبتهم من قبل وكلاء أمن صدام. وفي إحدى المناسبات وصل صدام إلى مركز البحوث الرئيس ليحاضر في العلماء حول الحاجة إلى أن يديروا أعمالهم بالسر. «على العالم أن يكون مدركاً للأمن وإلا فلا فائدة منه»، صرّح صدام، «ونحن لسنا بحاجة له. يجب أن يكون الأمن هو الأسمى في أذهانكم ويمكن أن يأخذ عدة أشكال. وإحدى هذه الطرق هي أن تتظاهر بأنك لا تعرف كثيراً». [١٤] إنّ إصرار صدام على أن يعمل العلماء بسريةٍ تامة أعاق سرعة سير المشروع، عندما انقطع العلماء تماما عن زملائهم في الخارج وعزلوا عن آخر الخطابات العلمية والتطورات. إنّ فرص نجاح المشروع لم يعزّز أي منها، عندما دُمّرت نواتا المفاعلين العراقيين بشدة بعملية تخريب في إبريل (نيسان) ١٩٧٩ في مصنع La Seyne-sur-Mer، قرب طولون، حيث تمّ تركيبهما. والتخريب كان من عمل الموساد، مديرية الاستخبارات الإسرائيلية، والتي هرّبت سبعة متخصصين إلى فرنسا لتنفيذ المهمة. وقد نظم الهجوم باسم عملية الإزالة الكبيرة، وقد وضع الإسرائيليون قنابلهم بدقة لتحدث الحد الأعلى من الدمار لنواتي المفاعلين دون تدمير بقية المجمّع.

والصعوبة الأخرى التي أعاقت المشروع، في واقع الأمر هي أنه ليس جميع العلماء كانوا يعون بأنهم منهمكين في مشروع لصنع القنبلة. وأصبح ذلك واضحاً للغاية قبل نهاية ١٩٧٩، عندما قام صدام، بعد أن أصبح رئيساً بفترة قصيرة، بزيارة مفاجئة إلى المركز الرئيس للطاقة الذرية AEC، والذي يقع في مجمع عسكري جنوب بغداد. وأدرك العلماء وصول صدام الوشيك عندما ظهر الحراس يكتشفون القنبلة بالشم فتشوا المبنى فيما بعد بحثاً عن فخاخٍ متفجرة. وأخيراً وصل إلى المجمّع موكب سيارات المرسيدس السوداء المليئة بعملاء التحري الذين يرتدون ملابس مدنية وهم يحملون بنادق شبه آلية. سار صدام في المبنى شاقاً طريقه باتجاه مكتب رئيس وكالة الطاقة الذرية، عبد الرزاق الهاشمي، وأمره أن يجمع كافة موظفيه النوويين ذوي المرتبة

العليا. ولما اجتمعوا أخيراً، استغنى صدام عن المقدمات وذهب مباشرة إلى الموضوع. «متى ستسلمون البلوتونيوم الخاص بالقنبلة؟» طالبهم بإلحاح. فالبلوتونيوم كان أساسياً لنجاح مشروع صنع القنبلة، وإن المفاعلات الفرنسية تم شراؤها لمساعدة العراقيين في استخلاص المؤن من المادة المحدودة عالمياً. إنّ مسؤولية إنتاجها ـ مهمة علمية بالغة التعقيد ـ وقد أوكلت إلى حسين الشهرستاني، وهو عالم عراقي لامع كان خبيراً في تنشيط النيوترون. ولما كان الشهرستاني مسؤولاً عن استخلاص البلوتونيوم، لم يخبره أحد بأنه كان يعمل في مشروع لتصنيع القنبلة الذرية. «قنبلة، نحن لا نستطيع أن نصنع قنبلة»، أجاب العالم المرتبك. بعد ذلك بدأ بإلقاء محاضرة على صدام بأنه من المستحيل أن تستخدم المفاعلات الفرنسية لإنتاج أسلحة من صنف البلوتونيوم لأنها «مشمولة بمعاهدة توقف إنتاج السلاح النووي، ونحن سنخلّ بالتزاماتنا في المعاهدة». نظر صدام بازدراء إلى العالم سيئ الحظ. «المعاهدات»، أجابه صدام، «هي موضوع نعالجه نحن، وأنت، كعالم، عليك أن لا تنشغل بتلك الأشياء. عليك أن تقوم بعملك ولا تقدم مثل تلك الأعذار». وفي تلك اللحظة رفع صدام رأسه، إشارة لحرس أمنه لأخذ الشهرستاني. ولما اقتيد العالم المرتجف من الغرفة، أدار صدام ظهره.[١٥] أخذ الشهرستاني إلى المقر المركزي للمخابرات، مديرية المخابرات الداخلية، في منطقة المنصور الثرية في بغداد حيث تم تعذيبه بقوة إلى الحد الذي لم يتعرف أطفاله على وجهه المنتفخ عندما سمح لهم بزيارته. وأخيراً أخضع إلى محاكمة صورية بمحكمة أمن خاصة وسجن مدى الحياة.

* * *

إن الدافع الأولي لحصول صدام على أسلحة الدمار الشامل هو رغبته في أن يكون العراق مكتفياً ذاتياً في إنتاج الأسلحة وأن يكون قوةً مهيمنة في كلّ من السياسة العالمية والإقليمية. فالأسلحة الكيماوية والبيولوجية ستقلص من الاعتماد الكبير للعراق على مورّدي الأسلحة الأجنبية وتمكنه من حماية نفسه من أيّ هجوم، الأسلحة النووية ستجعل العراق أول قوة عربية عظمى، قادرة على السيطرة على جيرانها وفي وقت تحقق مبادئ البعث التي حملها طويلاً لخلق جمهورية عربية موحدة، يرأسها، بطبيعة الحال، صدام حسين. ومع أنه في منتصف السبعينيات كان اهتمام صدام الرئيس منصباً على تثبيت الثورة البعثية في العراق، إلا أنه كان حريصاً على تطبيق العقيدة البعثية خارج حدود العراق وتحت رعايته. «إنّ نصر العرب ينبع من نصر العراق»، صرّح في إحدى المناسبات. «وفي التاريخ، عندما أصبح العراق قوياً ومزدهراً كذلك أصبحت

الأمة. ولهذا السبب نحن نناضل لأن نجعل العراق قوياً، عظيماً، مقتدراً ومتطوراً، ولذلك سوف لا ندّخر شيئاً لتحسين رفاهيته وليسطع النصر من العراقيين». وبقي صدام مرتبطاً بفكرة توارث عباءة ناصر كقائد عربي متطرف، لكنه واع بحدود العراق، خصوصاً لما جاء لمواجهة إسرائيل. وفي ذلك الوقت، كان صدام مقتنعاً باختيار الأسلوب الواقعي، عندما اعترف بصراحة، بأن تحرير فلسطين بالوسائل العسكرية لم يكن سهلاً قبل بناء «العراق القوي علمياً واقتصادياً وعسكرياً».(١٦)

وفي رغبته للسيطرة على جدول الأعمال العربي، كان من المحتم، بسبب ذلك، أن يصبح صدام أخيراً متورطاً في مكائد الصراع العربي الإسرائيلي. وحتى ذلك الحد كان العراق يتمتع بتاريخ مغمور في تورطه بحروبٍ مختلفة مع إسرائيل. والقوة التي أرسلت لمساعدة العرب الفلسطينيين الذين قاوموا إقامة دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ قد نفذت مهمتها بشكل سيئ للغاية مما حدا بالحكومة أن تنهيها باتهامها بالتواطؤ مع البريطانيين لإعطاء الفلسطينيين لليهود. والقوة العراقية المرسلة كانت عاجزة عن منع الإسرائيليين الذين قاموا بحرب خاطفة لافتة للنظر ضد العرب في عام ١٩٦٧، ونجح العراقيون بصورة أفضل في عام ١٩٧٣ في حرب تشرين ٧٣ وقد أرسل العراقيون ثلاثين ألف جندي وفرقة مدرعة لمساندة السوريين الذين كانوا يقاتلون من أجل طرد الإسرائيليين من مرتفعات الجولان، ولكن النقص في ناقلات الدبابات كان يعني أن الدبابات كانت متأخرة في الوصول. والسوريون، الذين بدأوا بالحرب حتى دون أن يعلموا العراقيين بخططهم، قد استقبلوا التعزيزات العراقية ببرود. ولم يجهز العراقيون حتى بالخرائط، بيد أنهم منحوا اتجاهات غامضة تشير إلى موقع الخط الأمامي. وكانوا هدفاً يسيراً عندما قام الإسرائيليون بالهجوم، وخسروا أكثر من مائة دبابة وتكبدوا خسائر فادحة. وتذمّر صدام من ذلك في المعركة التي اعتمد في سماع أخبارها على الإذاعة ليعرف مصير القوات العراقية، ولما انتهى القتال سحب قواته من سوريا وهو في نوبة غضب.

إن قضية تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني بقيت، مع ذلك، من أكثر قضايا العصر إلحاحاً، وفي غياب الخيار العسكري تحوّلت الدول العربية في السبعينيات إلى وسائل أخرى رخيصة، لكنها فعالة جداً وهي وسائل خوض حرب ضد الإرهاب. وكما هو الأمر مع الأسلحة الكيماوية، فإنّ خلايا الإرهاب يمكن أن تدار بشكل رخيص نسبياً، وهي ممزقة للعدو إلى أقصى حد. وبالرغم من نهاية الستينيات، فإنّ تورط العراق قد كان خارجياً في أحسن الأحوال، وفشل العراق، على سبيل المثال،

في دعم منظمة فتح التي يرأسها ياسر عرفات في حرب أيلول الأسود الأهلية في الأردن في عام ١٩٧٠ لم يكن قد نسيه رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. والعامل الآخر الذي وزن بضخامة ضد محاولات العراق بأن يصبح متورطاً بشكل مباشر في نضال التحرر، هو أنّه ليس كالأردن، وسوريا، ولبنان، ومصر، إذ ليس له حدود مشتركة مع إسرائيل، ولهذا السبب يكون أمراً باهظاً بالنسبة للمجموعات الفلسطينية أن تقوم بعملياتها من بغداد، والتي يحتاجون منها أن يمروا من خلال واسطة قبل أن يتمكنوا من ضرب الأهداف الإسرائيلية.

ونقطة التحول بالنسبة لصدام جاءت في النتيجة الدبلوماسية لحرب يوم القبور في عام ١٩٧٣ عندما أدت دبلوماسية المكوك الشائنة للدكتور هنري كيسنجر، وزير خارجة الولايات المتحدة، إلى إقناع أنور السادات، الرئيس المصري الجديد، للسعي إلى حوار سلام مع إسرائيل، العملية التي انتهت إلى معاهدة سلام كامب ديفيد. وظهر أن عرفات أيضاً كان يدعم المبادرة المصرية. وبحرصها على عزل المصريين وتصويرها نفسها كنظام متطرف حقاً، حاولت الحكومة العراقية تكوين تحالف خاص مع الفلسطينيين. ولهذا الغرض ذهب العراقيون بعيداً ليدعوا ياسر عرفات للانضمام إلى مجلس وزرائهم كوزير للشؤون الفلسطينية ووعد العراقيون الفلسطينيين أيضاً بالدعم المادي الكبير. وعرفات الذي ما زال غاضباً من البعثيين بسبب فشلهم في دعمه في أيلول الأسود، الذي كان حريصاً على أن لا يأخذ العراقيون القضية الفلسطينية على عاتقهم اعتذر عن قبول الطلب. أصبح صدام شديد الغضب. فأمر بإغلاق مكاتب عرفات في بغداد وشرع بدعم عدد من المجموعات الفلسطينية المتطرفة، والذين كانوا يعارضون بشدة أية اتفاقية مع الإسرائيليين وكانوا معارضين أيضاً لمنظمة فتح التي يرأسها عرفات.

وكان ذلك أول تورّط لصدام في عالم الإرهاب الدولي. وحتى ذلك الحين كانت تكتيكات الإرهابية لدى صدام مقتصرة على شعبهِ الخاص وبلده، وفي المناسبات التي غامرت بها عملياته خارج العراق، وبشكل عام استهدف المعارضين العراقيين مثل غتيال الفريق المخلوع حردان التكريتي في الكويت في عام ١٩٧١ نفسه، واللواء مهدي صالح السامرائي في بيروت في العام نفسه. ولكن بحمايته للإرهابي الفلسطيني سيئ الصيت صبري البنا، المعروف بأبي نضال، أصبح صدام يرعى شبكة معقدة من الإرهابيين المتعصبين. وحتى في مقاييس الإرهاب في الشرق الأوسط، اكتسب أبو نضال تقريباً مكانة أسطورية، من خلال مناقبه، كالهجومات بالقنابل على مكاتب تذاكر

الخطوط الجوية الإسرائيلية في مطارات روما وفيينا في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٥ ، والتي أدت إلى مقتل ثمانية عشر شخصاً، وجرحت مائة وعشرة آخرين، أكثرهم من السوّاح الأمريكيين. وكان هو أيضاً مسؤولاً في أواخر عام ١٩٨٤عن اغتيال الدبلوماسيين البريطانيين كين ويتي وبرسي نوريس في أثينا وبومباي على التوالي، وعن الاغتيال البشع في عام ١٩٨٦ للصحفي البريطاني أليك كوليت، وأُرسل شريط فيديو يصوّر مقتله، انتقاماً من الهجمة الأمريكية بالقنابل على ليبيا، إلى أقاربه.(١٧)

وانتقل أبو نضال إلى بغداد أول مرة في عام ١٩٧٠ كممثل أول لمنظمة فتح التي يرأسها ياسر عرفات، وهي القوة المهيمنة في منظمة التحرير الفلسطينية. وليبدأ العمل كان على ارتباط كبير مع البكر وصدام، ولكن لما ازداد نفوذ صدام، أصبح مطلوباً من الرجلين أن يعملا معاً. وكانت العلاقات بين الاثنين متوترة دائماً، وسبب ذلك بالدرجة الأولى أنهما أدركا بأن كليهما يشتركان في الإحساس نفسه بالطموح القاسي. وكان أبو نضال أيضاً مقرباً من طارق عزيز وسعدون شاكر، وابن خال صدام ورئيس الاستخبارات العسكرية. ويُعرف أن شاكر، الذي يأخذ أوامره مباشرة من صدام، قد عمل عن قرب مع أبي نضال من منتصف السبعينيات عندما ركز أبو نضال طاقاته بشكل رئيس على اغتيال مناوئيه في الحركة الفلسطينية. وبدعم من صدام، قضى أبو نضال أواخر السبعينيات وهو يخوض حرباً ضد منظمة التحرير الفلسطينية في كل من أوروبا والشرق الأوسط. واغتيل ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن، سعيد حمادي، المدافع القيادي عن فتح حوار مع إسرائيل، في عام ١٩٧٨ ، واغتيل ممثلون آخرون في كل من باريس والكويت. وبتدبير جيد، قام أبو نضال أيضاً الذي وصف علاقته مع بغداد «بالتحالف الجوهري»، بسلسلة من الهجمات الإرهابية التي استهدفت النظام البعثي المجاور في سوريا، الذي أصبح عدو صدام الأكيد فيما بعد. وهناك محاولتان استهدفتا حياة وزير الخارجية السورية، عبد الحليم خدام، وفي عام ١٩٧٦ فجّر فريق من الإرهابيين التابعين لأبي نضال فندق سميراميس في دمشق.

وآوى صدام في تلك الفترة إرهابياً فلسطينياً آخر يدعى الدكتور وديع حداد، أحد الأعضاء المؤسسين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تلك المجموعة المسؤولة عن تحويل القضية الفلسطينية إلى أداة للإرهاب الدولي في مطلع السبعينيات. وبالاشتراك مع الدكتور جورج حبش، العضو المؤسس الآخر لتلك المجموعة أصبحت الجبهة الشعبية مسؤولة عن الاختطاف المضاعف لثلاث طائرات في ميدان داوسون في الأردن ومقتل ستة وعشرين شخصاً في مطار اللد في إسرائيل. وكانت نشاطات تلك

المجموعة سافرة للغاية استحقت شجب كل من الاتحاد السوفيتي والصين، وهم مسؤولون أيضاً عن اتخاذ الملك الحسين قراراً بطرد منظمة التحرير الفلسطينية من بلاده إبّان أيلول الأسود. وانتقلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إلى دمشق، ولكن عندما تحوّل حبش ضد سياسة تنفيذ الهجمات الإرهابية الدولية، انتقل حداد إلى بغداد في عام ١٩٧٢، حيث شكل جماعة العمليات الخاصة المنشقة. ومن هناك نظم العملية السيئة الصيت لاختطاف وزراء نفط أوبك خلال اجتماعهم في فيينا في ديسمبر ١٩٧٥ واختطاف طائرة إسرائيلية متوجهة إلى عينتبة في أوغندا. وأحد الرفاق المقربين إلى حداد هو الإرهابي الفنزويلي الأسطوري الذي يدعى «الثعلب كارلوس». إضافة إلى مسرحة عملياتهم الإرهابية الخاصة، ارتبطت منظمة حداد بتشكيلة واسعة من الجماعات الإرهابية، من ضمنها عصابة «بادر - ماينهوف» في ألمانيا و«الجيش الأحمر» الياباني. وفي عام ١٩٧٧، ولما أدار صدام العراق فعلياً، وصف حداد «كعنكبوت في شبكة الجماعات الإرهابية المتضافرة في العالم». ولما توفي حداد، لأسباب طبيعية، في عام ١٩٧٨، دفن في بغداد بشرف عسكري تام. وحسب ما ذكره منشق عراقي، كان عضواً سابقاً في جهاز الأمن العراقي يتولى المسؤولية الخاصة بتدريب الجماعات الإرهابية الأجنبية والذي فرّ من بغداد في أواخر عام ٢٠٠٠، بأن خمسين عضواً على الأقل في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يقيمون في العراق حتى التسعينيات، قاموا باستخدام متكرر لمرافق تدريب الإرهابيين التابعة للمخابرات.[١٨]

إن تعاملات العراق مع الجماعات الإرهابية مثل تلك التي يديرها أبو نضال ووديع حداد كان يسيّرها مكتب صدام الخاص، وكنتيجة مباشرة لدعم صدام لتلك الجماعات الإرهابية عالمياً في السبعينيات أضاف قسم الدولة في الولايات المتحدة اسم العراق إلى قائمة البلدان المتهمة برعاية الإرهاب. ويقول، ديفيد ماك، الذي كان ضابطاً سياسياً في شعبة مصالح السفارة الأمريكية في بغداد في أواخر السبعينيات، بأن العراقيين لم يحاولوا التستر على تورطهم مع الجماعات الإرهابية المختلفة. فقد قال: «علمنا جميعاً وبدقة أين يقع منزل أبي نضال، ومع ذلك، طبعاً، لم يسمح لنا بالذهاب إلى هناك»، وأكدّ على أنّ «صدام يود الاحتفاظ بتلك الجماعات هناك من أجل الأبّهة».[١٩]

والمرة الأولى التي يعترف فيها صدام علناً بمساندته للجماعات الإرهابية الفلسطينية جاءت في لقاء معه أجرته مجلة «نيوزويك» Newsweek في يوليو في عام ١٩٧٨ ولما سُئل لماذا أصبحت بغداد ملاذاً آمناً لكل من الجماعات الإرهابية

الفلسطينية والأوروبية، ردّ صدام بقوله: «بما يتعلق بالفلسطيني، لم يعد الأمر سرّاً: العراق مفتوح لهم وهم أحرار بأن يتدربوا ويخططوا [الهجمات الإرهابية] هنا».[٢٠] وفي صيف عام ١٩٧٨ قلّما يمر أسبوع ولم ترتكب إحدى الجماعات الإرهابية المرتبطة ببغداد أمراً فظيعاً أو عملاً وحشياً آخر، سواء في باريس أو لندن أو إسلام أباد. وقال ضابط سابق في المخابرات المركزية الأمريكية كان متخصصاً في شؤون العراق في السبعينيات بأنه لم يعد هناك أي شك في عقول المسؤولين الأمريكيين بأنّ صدام كان متورطاً شخصيا في ترتيب الهجمات الإرهابية. «من منتصف السبعينيات سيطر صدام على كل شيء في بغداد. وإذا كان صدام يوفر الملاذ الآمن لتلك الجماعات، فإنه كان يتوقع شيئاً ما بالمقابل بالنسبة لصدام، ليس هناك أيّ شيء حر كالمكان والطعام». في الواقع، إنّ شهرة صدام في أواخر السبعينيات، كونه ممول سخي جذبت عدداً كبيراً من الجماعات المنشقة ليوطّدوا أنفسهم في العراق: فالحركة الكردية المتشددة PKK، وجماعة «الإخوان المسلمين» في سوريا. وحتى آية الله الخميني الذي شكل أكبر تهديد لشاه إيران، جميع أولئك حصلوا على مساندة صدام. «ورغب صدام في استخدام تلك الجماعات لأنّ الأمر أعطاه مرونة كبيرة»، طبقاً لضابط مكتب سابق في وكالة الاستخبارات المركزية. «باستطاعته أن يقلبهم على هواه، وطالما قاموا بتنفيذ أمره كان سعيداً بمساندتهم».[٢١] وكثيراً ما كانت جماعة «أبو نضال» تتخاصم مع صدام، خاصة حول إلحاح صدام على أن يواصل الإرهابيّ الفلسطيني هجماته ضدّ سوريا. وأبو نضال الذي اعتبر نفسه كلاعب مهم في المشهد السياسي الفلسطيني، كان يرفض في بعض الأحيان أن يطيع أوامر صدام، ونتيجة لذلك أغلق مؤقتاً مكاتبه في بغداد، وأعاد تموقعه في أماكن مثل طرابلس في ليبيا حيث وجد أن تدخّل العقيد القذافي في نشاطاته أقل تطفلاً. وأخيراً توصل صدام وأبو نضال إلى تسوية وانتقل الفلسطيني مرة أخرى إلى بغداد.

لم تكن جميع نشاطات صدام الإرهابية خلال تلك الفترة مقتصرة على العمال المستقلين على جدول رواتب جهاز الأمن العراقي. والدكتور أياد علاوي، العضو السابق والأقدم في حزب البعث والذي هرب إلى لندن احتجاجاً على وحشية صدام في القطر، استيقظ ذات ليلةٍ في منزلهِ في ابسوم هو وزوجته ليجد أحد المأجورين التابعين لصدام مسلحاً بفأس يقف فوق سريرهما. «كلانا تعرّض لهجوم رهيب من قبل ذلك الرجل المقنّع»، استذكر علاوي الذي أصبح أحد قياديي المعارضة للإطاحة بصدام. «قام بضربنا عدة مرات وتركنا فاقدي الوعي. ولحسن الحظ وبعدما غادر نجحت في

أن أجر نفسي إلى الهاتف وأتصل طالباً النجدة»،[٢٢] وعبد الرزاق النايف، رئيس الوزراء العراقي السابق الذي ساعد البعثيين في استلام السلطة في ١٩٦٨، لم يكن محظوظاً جداً. فقد اغتيل في تموز ١٩٧٨ في فندق إنتركونتيننتال في لندن. أطلق المأجورون القتلة إطلاقتين على رأسه من مسافة قريبة جداً. وفيما بعد ألقت الشرطة القبض على اثنين من العراقيين اتهما باغتياله. وقد عُرف فيما بعد بأنهما عضوان في جهاز الاستخبارات، المعادل للجهاز الجوي الخاص في بريطانيا (SAS)، الذي يضم وكلاء الاستخبارات العسكرية المسؤولية عن إدارة العمليات في الخارج. وقد أشعل الاغتيال شجاراً دبلوماسياً ما بين بغداد ولندن خاصة وأن الحكومة البريطانية كانت في عملية استضافة الجولة الأخيرة لمحادثات السلام ما بين مصر وإسرائيل. وقامت الحكومة البريطانية بطرد ثمانية من ضباط المخابرات العراقية ومنعت ثلاثة آخرين من دخول البلاد، معربة عن «اهتمامها المتزايد بالتهديد الذي أظهرته النشاطات الإرهابية في لندن، خصوصاً ضد أهداف عربيّة. وإن وجود عدد من ضباط المخابرات العراقية المعروفين قادنا إلى الاستنتاج بأنه يكون من الأفضل أن يغادروا».[٢٣] ولم يهمل العراقيون حالات الطرد تلك. فقد طرد عدد مماثل من الدبلوماسيين البريطانيين من بغداد، واعتقل العراقيون رجال الأعمال البريطانيين الذين كانوا يعملون بعقود في العراق. واتهم رجال الأعمال وأدينوا بتهم تجسس ملفقة، وحكم عليهم بعقوبات سجن طويلة. وأصدر صدام أوامره المباشرة لوزارات ومنظمات الدولة بأن لا تقوم بأي عمل تجاري مع بريطانيا، وفرض الحظر التجاري الكامل على السلع البريطانية فوراً.

ولما أعيدت القنوات الدبلوماسية مؤخراً ما بين لندن وبغداد، قام الدبلوماسيون البريطانيون باحتجاجات طالبوا فيها بإطلاق سراح رجال الأعمال، وأوضح العراقيون بأنه لا يوجد هناك أيّ اتفاق ما لم توافق بريطانيا أولاً على إطلاق سراح اثنين من ضباط المخابرات العراقية سُجنا بتهمة اغتيال النايف. «استقبلنا العديد من الوفود العراقية في لندن ولم يتفهموا لماذا لا نطلق سراح القتلة»، ذكر الدبلوماسي البريطاني الذي أدار المفاوضات في حينها. «هم كانوا يظنون أنّ الأمر مجرّد مقايضة. ولكن لم يعد هناك طريق لتدخّل الحكومة البريطانية في العملية القانونية مباشرة».[٢٤] ولأكثر من عشرين سنة أخرى ما زال القاتلان يقضيان عقوبة السجن مدى الحياة في السجون البريطانية.

إن أول غزل لصدام مع عالم الإرهاب الدولي انتهى تدريجياً في أواخر عام ١٩٧٨ فتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد في شهر سبتمبر من عام ١٩٧٨ ما بين الرئيس

المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي، مناحيم بيغن، أصبح لحظة حد فاصل في تاريخ دبلوماسية الشرق الأوسط. ولما احتفى العالم بمعاهدة السلام ما بين مصر وإسرائيل، رأى فيها صدام فرصة لإعادة موقع العراق رائداً للمعارضة العربية ضد إسرائيل، الموقع الذي كان يتبوّأه ناصر. وفي السنة الماضية واصل صدام حديثه عن الحقائق في لقاء نادر مع مجلة أمريكية والذي بيّن فيه معارضته لمعاهدة السلام والتي ناقشتها إدارة كارتر. والرسالة الأكثر أهمية والمستنبطة من ذلك اللقاء هي النفور الشخصي لصدام تجاه وجود دولة إسرائيل. ومع تأكيده بأنه شخصياً ليس ضد الشعب اليهودي، لكنه صرّح بأنه ملتزم بعدائه للصهيونية. وأعلن «نحن لن نعترف أبداً بحق إسرائيل في العيش كدولة صهيونية منفصلة».[٢٥] وبعد عام رأى صدام في «خيانة» السادات فرصة لتوكيد موقعه الخاص في السياسة العربية، ونظم لهذا الغرض القمة في بغداد في أواخر عام ١٩٧٨ وذلك لمناقشة السبل الأمثل للرد على الموقف المصري. وتطلب ذلك من صدام أن يحسّن علاقاته مع العربية السعودية ودول الخليج، وقدم مقترحات للرئيس السوري حافظ الأسد بأن يضع جانباً الانقسام البعثي الذي لوّث العلاقات ما بين البلدين بدرجة كبيرة في السبعينيات. ومن مصالح صدام أيضاً إصلاح علاقاتِه مع ياسر عرفات الذي لم يزل قائداً للقضية الفلسطينية من دون أي شك. وعرفات، بالطبع، شعر بأنه قد تمت خيانته إلى أبعد حد بما نتج عن كامب ديفيذ، وكان منقاداً إلى الاعتقاد بأن القضية الفلسطينية ستحلّ في محادثات السلام، ولكنه اكتشف أن السادات قد اختار في الواقع معاهدة السلام مع الإسرائيليين من طرف واحد. وفي انعقاد قمة بغداد، دعا صدام عرفات إلى مكتبه ليوجز له سياسته الجديدة، وحسب ما ذكره مسؤولون فلسطينيون حضروا اللقاء بأن صدام قد وعد بإنهاء دعمه لأبي نضال الذي ما زال منشغلاً باغتيال المسؤولين المهمين لدى عرفات، إذا ما وعد عرفات بدعم مبادرة العراق المناهضة للسادات. «أستطيع أن أخبرك حالاً بأننا سنمنع أية عمليات أخرى تنطلق ضدكم من بغداد»، أكد صدام لعرفات. «نحن لم نعد نتحمل مسؤولية أعماله [أبو نضال] ولقد أخبرناه بذلك».[٢٦]

إنّ قرار صدام في تقليل تورطهِ مع الجماعات الإرهابية منحه الفرصة في إعادة تقييم موقف العراق الدولي. إن المشاحنة الدبلوماسية مع بريطانيا في صيف ١٩٧٨ كانت تعني بأن بغداد وجدت نفسها الآن في مواجهة العزلة الدبلوماسية من اثنتين من قوى الغرب الرئيسة كما قطعت سابقاً العلاقات مع الولايات المتحدة عقب حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧ ومن منتصف السبعينيات فصاعداً، كانت هناك علامات من المد

والجزر حصلت في توجه بغداد الدبلوماسي. فصدام الذي كان مسؤولاً عن التفاوض بشأن المعاهدة السوفيتية في عام ١٩٧٢، تزايدت شكوكه بخصوص الحاجة إلى الحفاظ على العلاقات الطيبة مع موسكو، خاصة بعد أن خذله السوفيت على نحو خطير أثناء اعتدائِه على الأكراد في عام ١٩٧٤-١٩٧٥ وبرز التلميح المبكر لموقف بغداد الليّن تجاه الولايات المتحدة في إبريل ١٩٧٥ عندما منح صدام مقابلة لمراسل نيويورك تايمز الشهير سولز بيرغر. وبالرغم من أن الموقف العراقي الرسمي بقي معادياً بقوة لأمريكا بسبب دعم واشنطن لإسرائيل، كان صدام حريصاً على أن يرسل رسالة أكثر ليناً لأنه أراد أن يدمج أفضل تكنولوجيا لدى الغرب، وخاصة الأمريكية، وفي خطته الرئيسة لتحديث العراق. وحتى من غير الروابط الدبلوماسية الشكلية، نمت التجارة مع أمريكا بعشرة أضعاف تقريباً ما بين ١٩٧١ و١٩٧٥ حتى الآن وبقدر تعلق الأمر بصدام، فإنه لا يرى تناقضاً في أن يحتفظ العراق بموقفه كمنتقدٍ عنيف للسياسة الأمريكية وبين أن يكون أحد أكبر مستهلكي السلع الأمريكية في الشرق الأوسط. «السياسة الأمريكية كما توجّه الآن هي عدو لنا»، قال لسولز بيرغر، «لكنّ العرب، ونحن جزءٌ منهم، ليسوا ضد الدولة الأمريكية أو الشعب الأمريكي، وإنما ضد السياسة الأمريكية فقط. نحن نشعر بعدم الارتياح لتدخّل الولايات المتحدة في شؤوننا الداخلية، وفي السياسة الإقليمية للشرق الأوسط. ولو كان هناك تغيّر في ذلك، سنستجيب على الفور».[٢٧] عاد صدام إلى تلك المسألة ثانية في مقابلته مع نيوزويك في عام ١٩٧٨ ولما سُئل عن النظرة العامة لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين بغداد وواشنطن، كرّر صدام إصراره على الولايات المتحدة أن تخفض من تعهداتها لإسرائيل. «هناك قضايا أخرى أهم، مثل دعمكم الكامل للكيان الصهيوني [إسرائيل] واستراتيجيتكم المتعمدة في تقسيم العالم العربي، ذلك ما يقف في سبيل العلاقات الاعتيادية».[٢٨] ووجد الدبلوماسي الأمريكي ديفيد ماك، الذي كان أساس مهمته أن يفهم غزل بغداد لواشنطن، صعوبة في معرفة الطريقة التي يأخذ بها صدام على محمل الجد. «من ناحية كانوا يدعمون كل الجماعات الإرهابية التي قامت بتفجيرات في أوروبا، ولن يضيّعوا على الإطلاق الفرصة لتوبيخنا بعنف بسبب سياستنا حول إسرائيل. ولكن من ناحية أخرى كانوا حريصين جداً على إقامة التجارة مع الولايات المتحدة. ومع ذلك، فإن مشكلتنا الأساسية مع النظام في ذلك الوقت هي دعم بغداد لكافة الجماعات الإرهابية. وإلى أن يجدوا حلاً، نحن لن نلعب الكرة، وأوضحنا ذلك الأمر تماماً».[٢٩] وبالفعل، فإن العلاقات ما بين بغداد وواشنطن لم تعاد بشكل

مناسب حتى صيف ١٩٨٤، عندما قرع ناقوس الحرب المدمرة ما بين إيران والعراق والتي أجبرت صدام على التخلّي عن معارضته لموقف واشنطن المؤيد لإسرائيل.

وفي أواخر السبعينيات كان موقع صدام «كرجل بغداد القوي» قد حصل على اتفاق عام في العالم الخارجي وأنّ أي دبلوماسي غربي أو صحفي يبحث عن لقاءٍ بقيادة البعث يجد نفسه مدفوعاً باتجاه صدام، وليس البكر. وبكل تأكيد أن صدام في تلك الفترة سيطر سيطرة تامة على السياسية الخارجية، حيث جعل ذلك واضحاً جداً في تعاملاته المشحونة أكثر فأكثر مع موسكو. وكان صدام عازماً على أن يتخلى العراق عن اعتماده على الدعم السوفيتي، وفي شهر مايو عام ١٩٧٨ أطلق رميةً أخرى عبر أقواس موسكو بإعدامه لواحد وعشرين ضابطاً عسكرياً شيوعياً والذين كانوا يقبعون في سجونٍ في بغداد منذ ١٩٧٥ وقد أعلن البعث مسبقاً بعدم السماح لأي نشاط سياسي في الجيش سوى النشاط السياسي للبعث. ومع ذلك فالشيوعيون ألقي القبض عليهم قبل الإعلان عن حكم البعث، وفي قضاياهم قرر صدام أن يسنّ قانوناً رجعياً، وتم إعدام الضباط. وللشروع بذلك القانون، تم إعدام نصف دزينة من الضباط رمياً بالرصاص. استشاط السفير السوفيتي غضباً وزار صدام شخصياً ليقدم احتجاجه. ونتيجة لزيارته تم إعدام أكثر من عشرة ضباط رمياً بالرصاص. بعد ذلك طلب السوفيت من رؤساء بعثات الكتلة الشرقية لالتماس الرحمة. هؤلاء تم تجاهلهم أيضاً وسار خمسة من السجناء الباقين أمام فريق إطلاق النار. لم يكن صدام مسروراً كفاية بتلك الإهانة الموجهة للسوفيت، فمنع طائرات النقل السوفيتية من استخدام المجال الجوي العراقي لنقل التجهيزات العسكرية إلى أثيوبيا، والتي كانت موسكو تدعمها في حربها ضد الثوار الأرتيريين. وكإجراء جيد، ساند صدام الحملة الأرتيرية، وسمح لمجموعات الثوار أن يتدربوا في بغداد. وأخيراً طالب صدام الروس بنقل سفارتهم، والتي كانت تقع في جوار بوابة القصر الرئاسي. وكان صدام يشك في المخابرات السوفيتية KGB، بالضبط دون أدنى شك، التي تراقب أحاديثه داخل القصر وقمرات حزب البعث اللاحقة به. ولما رفض السوفيت الانتقال، ردّ صدام بقطع إمدادات الماء والكهرباء عن المجمع السوفيتي. وفي النهاية وبعد أيام قليلة أعلن السوفيت بأنهم سينتقلون إلى المبنى الجديد.

إن تدهور العلاقات مع موسكو كان أحد مواضيع النقاش الرئيسة عندما وافق صدام على إجراء مقابلة معه بمناسبة ثورة السابع عشر من تموز، بالضبط قبل تسلّمه السلطة من البكر بسنة واحدة. ولما سُئل عما إذا كان إعدام الضباط العراقيين جاء

كتحذير لموسكو بعدم التدخل في شؤون العراق الداخلية، أجاب صدام بلا تردد: «نعم، كان كذلك». في ذلك الحين، وبإعطائهِ متنفساً للكراهية العميقة للشيوعية التي كانت السمة الأكثر إثارةً في سيرة صدام في البعث، وقد علّق: «هم [السوفيت] لم يكونوا مقتنعين إلا أن يصبح العالم كله شيوعياً». ونظراً لعداء بغداد المتصلب لإسرائيل، سُئل عما إذا كان يعتقد بأن الحرب هي الحل الوحيد، فأجاب صدام ببساطة: «صحيح». وتنبأ أيضاً بأنه في فترة عشر سنوات ـ أي في عام ١٩٨٨ ستكون الدول العربية قوية بما يكفي لهزيمة إسرائيل. «العرب لن يكونوا دائماً ضعفاء. إن قوتهم تنمو كلّ يوم. في عشر سنوات سترون بأنّ المعادلة ستكون مختلفة تماماً».[٣٠] وتلك إشارة واضحة لمشروع صدام السري للعراق وذلك لتطوير ترسانته النووية الخاصة، ذلك المشروع الذي ما زال العالم الخارجي لا يعرف عنه إلا القليل.

وبينما حثّت اتفاقية كامب ديفيد العراقيين على القيام بإعادة تقييم لأهداف سياستهم الخارجية، كانت الحظوظ المتضائلة للشاه في إيران المجاورة العامل الحاسم في حسابات صدام بأن الوقت بالنسبة له قد حان ليقوم بتحرّكه ضد الرئيس البكر. وتوصل صدام إلى نتيجةٍ بأنّ البكر المتقدم في السن سيكون غير قادر على التعامل مع الخطر الذي تشكله الحكومة الإسلامية المتطرفة في طهران. وإنّ جميع الإصلاحات التي نفذها البعثيون في السبعينيات كانت مصممة لتحويل العراق إلى دولة علمانية حديثة، وإن تكن محكومة من قبل الأوتوقراطية. إنّ مشهد الثورة الإسلامية الذي غطّى إيران المجاورة ملأ العراقيين بالاهتمام العميق. ولأن في إيران أكبر شعب مسلم شيعي في العالم، فإنّ النظام الإسلامي في طهران سيزعزع حتماً الاستقرار في المجتمع الشيعي الكبير في جنوب العراق، والذي يشعر بتباعدٍ عن المسلمين السنّة، والنظام البعثي العلماني في بغداد. وبالرغم من محاولات البعثيين الساخرة من شرائهم أجهزة تلفزيون وثلاجات مجانية، فإن الشيعة، مثل الأكراد والشيوعيين، بقوا شوكةً أبدية في خاصرة النظام. وفي عام ١٩٧٧ اندلعت مواجهات دموية في مدينة النجف المدينة الشيعية المقدسة، والتي كانت في ذلك الحين مأوى للقائد الإيراني الإسلامي آية الله روح الله الخميني. ونتجت المصادمات ما بين الشيعة والحكومة عند إلقاء القبض على ثمانية من رجال الدين العراقيين، حوكموا بمحكمة ثورية وتم إعدامهم. وتم اعتقال أكثر من ألفي شيعي، وتم إبعاد بما قدّر بمائتي ألف إلى إيران على يد صدام بذريعة أنهم ليسوا بعراقيين. وفي أكتوبر من عام ١٩٧٨ أبعد العراقيون، وبطلبٍ من الشاه آية الله الخميني الذي كان يعيش في منفاه في العراق منذ الستينيات. وفي محاولةٍ لدعم

الشاه، استقبل صدام الإمبراطورة فرح في بغداد وسط أبهةٍ فخمة. وبالرغم من أنّ الشاه كان لا يميلُ دائماً إلى النظام البعثي في العراق، إلا أنه الموقّع مع صدام على اتفاقية الجزائر حول النزاع على شط العرب، وكان صدام يعتقد بأن الحفاظ على الاتفاقية، وبالتالي بقاء الشاه في الحكم، هو أمر حيوي بالنسبة لبقائه الشخصي.

وفي ذلك الوقت كانت كل بوادر الدعم تلك بلا فائدة لأنّه سرعان ما أصبح واضحاً بأن الإمبراطورية البهلوية مآلها الهلاك. وفي فبراير من عام ١٩٧٩ عاد الخميني منتصراً إلى طهران، معلناً بداية الثورة التي تحوّل إيران إلى أحد الأنظمة الإسلامية المتصلبة جداً في العالم. إنّ التحدي الذي أظهرته كلّ من اتفاقية كامب ديفيد وظهور الحكم الإسلامي المتطرف في إيران أقنع صدام بأنه ليس باستطاعته أن يدير البلد من موقعه كـ «السيد النائب». فالتحديات المقبلة ستتطلب حكماً قوياً، ولم يعد البكر قادراً على سد حاجة القيادة المطلوبة. وبحكم التآكل التدريجي لسلطته على يد صدام، صار البكر شخصية مثيرة للشفقة يوقع الأوراق التي يضعها صدام على مكتبه. وأصبح البكر ضعيفاً جداً إلى حد أن صدام شكا متذمراً بأن البكر أصبح لا يستحق حتى الراتب الذي يتقاضاه. وأن مستوى الازدراء الذي بدأ يشعر به صدام تجاه البكر في نهاية علاقتهما ذكره أحد كتاب سيرته بالقول: «الرجل العسكري يقضي وقت فراغه في أشياء ليس لها أية علاقة بشؤون الدولة. إنه يستيقظ مبكراً في الصباح ويذهب إلى حديقته، يسقي النباتات ويقلم الشجيرات. ولما يتعب يستريح قليلاً بصحبة أحفاده. إنه يعيش مع ذكرياته».(٣١)

الفصل السابع

السيد الرئيس

كل الصبر، كل العمل الشاق، كل التآمر والتخطيط، كل الخيانات، القتل العمد، والإعدامات والاغتيالات دفع حسابها أخيرا في تموز ١٩٧٩ عندما أصبح صدام رئيسا للعراق. وقد تم الإعلان عن ذلك رسميا، بتوقيت متقن من قبل الرئيس الراحل أحمد حسن البكر، في عشية الأحتفالات السنوية بذكرى ثورة السابع عشر من تموز. وقد تم اختيار ذلك التاريخ بعناية من قبل صدام حسين ليرمز إلى استمرارية الثورة، وكان ذلك ثمرة شهور من التخطيط المدروس بعناية. وقد احتفظ صدام بالتفاصيل الدقيقة لتسنمه ذلك المنصب في غاية السرية. إن «السيد النائب» الشديد الارتياب علم بأن لحظة الفواق الأخيرة يمكن أن تحطم كل شيء. فضربة الشاطر المتقنة بالنسبة لصدام، وبأية وسيلة، كانت في إقناع البكر نفسه ليس بقبول التخلي عن السلطة فحسب، وإنما بالظهور على شاشة التلفزيون العراقي ليبين بأن عملية التطهير تلك جاءت كانتقال طبيعي للسلطة. «المدة طويلة»، أخبر الرئيس البالغ من العمر خمسة وستين عاما الجماهير، «كنت أتحدث لرفاقي في القيادة، وبالأخص الرفيق العزيز صدام حسين، حول صحتي التي لم تعد تسمح لي بتحمل المسؤوليات التي شرفتني بها القيادة. وقد وصلت صحتي في الوقت الحاضر المرحلة التي لم أعد بها قادرا على الاضطلاع بالمسؤولية على النحو الذي يرضي ضميري». وبصوت يهتز عاطفة، واصل البكر كلامه ليسمّي صدام «الرجل الأكثر أهلية لاستلام القيادة». وقبل الانسحاب من الحياة العامة، قدم البكر الثناء الأخير لصدام الذي كان تحت رعايته سابقا.

«وخلال الأعوام المريرة من النضال الذي سبق الثورة، كان الرفيق صدام شجاعا ومناضلا مخلصا حاز احترام وثقة مناضلي الحزب. وفي عشية الثورة، كان على رأس الرجال الشجعان الذين دكوا حصون الدكتاتورية والرجعية، وخلال مسيرة الثورة كان

القائد اللامع القادر على مواجهة كل الصعاب وتحمل كافة المسؤوليات».[1]

وفي عمر الثانية والأربعين (أو قريبا من ذلك) سيطر صدام على أغنى بلدان الشرق الأوسط. وكبلد يطفو على ثروة نفطية، برز العراق سريعا كإحدى القوى المهيمنة في المنطقة اقتصاديا وعسكريا وسياسيا. وافتخرت الحكومة بوضع (٣٥ مليار دولار) في مدخرات الصرف الأجنبي، وبدأت ثروة النفط تدخل إلى كل جانب من الحياة العراقية. فتوسعت القوات المسلحة بسرعة وبدأت تستفيد من المعدات المتطورة الجديدة التي ابتاعتها من بلدان مثل أسبانيا وفرنسا. وصنع البعثيون أول دولة رفاه في العالم العربي، بتعليم مجاني لجميع الأطفال من الروضة وحتى الجامعة، ونظام وطني مجاني للرعاية الصحية. وكان مستوى المعيشة للعراقيين العاديين يتصاعد تدريجيا، والأغذية الأساسية كانت متوفرة ورخيصة. وبالنسبة للعراقيين الذين لم يتحدوا نظام البعث، لم يكن هناك وقت أفضل من هذا الوقت ليقيموا في العراق. إن نجاح البعثيين في تحويل الثروة النفطية الجديدة نحو بناء شعب صناعي معاصر وشعب قوي عسكريا وموحّد سياسيا جعل بعض المعلقين يصفون العراق كبروسيا العالم العربي الشرقي. لم يتمكن صدام من اختيار أفضل وقت للسيطرة على البلاد. وصدام ليس كسابقه، لم يكن يسعى إلى اقتسام السلطة. كان هدفه الدكتاتورية المطلقة. وفضلا عن موقعه كرئيس للجمهورية، مسك صدام بزمام مواقع البلد العليا: كان رئيسا لمجلس قيادة الثورة، أمينا لسر القيادة القطرية لحزب البعث، رئيسا للوزراء، وقائدا للقوات المسلحة. وباتخاذه من ستالين نموذجا، أصبح صدام القائد الأعلى في العراق.

وعلى وجه الدقة فإن الطريقة التي نجح فيها صدام بأن يجعل البكر يتنازل عن السلطة كانت دائما تعتبر شيئا يكتنفه الغموض. إن قضية صحة البكر المتدهورة، السبب الرسمي الذي أعطي «لتقاعده»، لا يمكن أن يصرف عنها النظر تماما. وكانت الشائعات حول المعافاة الجسدية للبكر في تداول مستمر في أوساط مجتمع بغداد الدبلوماسي الذي ينقل القيل والقال. وفي أوائل عام ١٩٧١ أدخل البكر المستشفى بسبب ما أعلن في وسائل الإعلام العراقية «كتوعك صحي طفيف». وفي عام ١٩٧٤ قيل بأنه كان يعاني من نزف دماغي منعه من الحضور في تشييع جنازة زوجته.[2] إن الانحراف في صحته كان يعني أيضا السبب في عدم تمكنه من استقبال جاك شيراك (رئيس وزراء فرنسا آنذاك) عندما قام بزيارة بغداد، ودون أي عناء، كان صدام، المحب المتحمس للثقافة الفرنسية، قد ملأ الفراغ. وفي شهر مايو من عام ١٩٧٧ جاء إلى بغداد سرا فريق طبي شهير من جامعة جورج واشنطن ليعالج «مسؤولا عراقيا رفيع

لمستوى» وفهم الجميع بأنه البكر.[٣] وفضلا عن صحته المتدهورة كان على البكر أن يصارع بقوة جملة من الفجائع الشخصية المنغصة بموت زوجته وابنه وصهره.

وبالرغم من ذلك، فإنه من غير المحتمل أن يكون البكر قد تخلى عن موقعه من غير نزاع، وحسب ما ذكره أعضاء سابقون في حزب البعث تمت مقابلتهم لأول مرة من قبل الكاتب، بأن اللقاء الذي تم فيه إقناع البكر بأن يتنازل سريعا كان لاذعا. وباتخاذه لقرار تسلم السلطة في الذكرى السنوية للثورة، ذهب صدام برفقة ابن خاله عدنان، وزير الدفاع، وخاله خير الله طلفاح، لرؤية البكر في مكتبه في القصر الرئاسي في مساء السادس عشر من تموز ١٩٧٩ «في الحقيقة وضعوه أمام الأمر الواقع» ذكر ذلك بعثي سابق. «قالوا له: أنت تتنازل طواعية ولن يحصل لك أي شيء. ولكن إذا ما أجبرنا على القيام فالأمر يكون وخيما». وفي ذلك الوقت كان هيثم ابن البكر مع والده في الغرفة، سحب مسدسه وأطلق طلقة في الهواء تحذيرا لجماعة صدام متهما إياهم بالخيانة. لكنه أخضع سريعا وتم نزع سلاحه، وكان صدام والمساندون له قادرين على شق طريقهم.[٤] في اليوم التالي استلم صدام الرئاسة وقرأ البكر خطاب الاستقالة بوقور.

كان على البكر أن يتوقع تحرك صدام. لقد تلقى الكثير من التحذيرات حول طموح صدام لاستبداله، وفي وقت مبكر من ذلك العام، تم إنعاش فكرة توحيد حزبي البعث في كل من سوريا والعراق، والى حد ما نسجت خطة لإضعاف صدام الذي كان يعارض الجانب السوري. وبصرف النظر عن وضع صدام في مكانه، كان المحفز الآخر الأكثر ضغطا من أجل الاتحاد المقترح هو رغبة نظامي بغداد ودمشق في تقديم جبهة عربية موحدة تستطيع أن تتحدى اتفاقية السلام التاريخي ما بين مصر وإسرائيل، والتي تم التفاوض بشأنها في كامب ديفيد في السنة الماضية. إن العراق وسوريا اللذين كانا يعارضان وجود إسرائيل أيديولوجيا وبشدة، اعتبرا اتفاقية كامب ديفيد خيانة وليس أقل من ذلك لأنها تركت القضية الفلسطينية من دون حل. ومع أن مصر لم تعد حليفا في الكفاح من أجل تحطيم إسرائيل، فإن حزبي البعث في سوريا والعراق وفي أكتوبر من عام ١٩٧٨ اتفقا على أن يضعا جانبا خلافاتهما الأيديولوجية القديمة العهد من أجل تأسيس «ميثاق مشترك للعمل القومي» -ضد إسرائيل.

وأُعطي صدام المسؤولية الشخصية للتفاوض في اتفاقية توحيد البلدين مع الرئيس السوري حافظ الأسد، وفي شهر يناير أصبح صدام السياسي العراقي الأعلى منصبا أول من يزور دمشق بعد عشر سنوات، وخلال تلك الزيارة وقع اتفاقية لدمج خاص لكل

من وزارات الخارجية والدفاع والإعلام. واعتبر ذلك الخطوة الأولى باتجاه اتحاد كلي، والذي حدد موعد وقوعه في شهر أبريل القادم. وفضلا عن التحدي الذي شكلته اتفاقية كامب ديفيد، فإن العراق كان حريصا على تقوية علاقاته مع سوريا كوسيلة لدرء التهديد الجديد المحدق به من الثورة الإسلامية في إيران بعد استلام الخميني للسلطة في فبراير ١٩٧٩ وفي حديث مقتضب بعيد استلام الخميني للسلطة، تحدث صدام بحماس عن الاندماج السوري-العراقي المرتقب، معلنا أن «هذه الوحدة لم تكن نظاما، وإنما هي بالأحرى الفصل الرئيس للثورة العربية الشاملة». وأبدى أيضا تلميحا مهادنا نحو النظام الجديد في طهران قائلا بأن «العراق يساند ما قرره الشعب الإيراني».[٥] وبلا شك فإن الثورة الإيرانية قد أثارت قلق البعثيين، وحتى صدام كان على استعداد على أن يضع جانبا تعاطفاته الطبيعية المضادة للطرف السوري وذلك من أجل بناء جبهة موحدة ضد الإسلاميين المتطرفين الذين سيطروا على الحكم في طهران.

وبالرغم من أن صدام كان مسؤولا عن التفاوض بموضوع الاتحاد ما بين سوريا والعراق، إلا أنه كان عاجزا عن التغلب على تحفظاته القوية حول المشروع، والذي أصبح معلنا رسميا باستمرار المفاوضات وتواصلها. إن اهتمامه الأكبر يظهر أن خط الاتصال مع سوريا سيحدد سلطته. ولذلك فإن صدام قد بدأ بتقويض المقترح [الخاص بالاتحاد]، وكان في الوقت ذاته يتظاهر بأنه يلتزم بدرجة كبيرة بمشروع الاتحاد. ولما جاء الرئيس الأسد، مثلا، إلى بغداد في السادس عشر من يونيو ١٩٧٩، لمناقشة المقترحات الأخيرة، صدّه صدام بجفاء وذلك برفضه الذهاب إلى المطار لاستقباله. وذهب البكر بدلا عنه، وبعد ثلاثة أيام من المحادثات، أعلن البكر والأسد بيان الوحدة الذي تتحد بموجبه حكومتا البلدين كوسيلة لمجابهة «الهجوم الساداتي-الامبريالي-الصهيوني».[٦] وبموجب شروط مقترح الاتحاد، تصبح سوريا والعراق اتحادا حرا، بالبكر رئيسا، والأسد نائبا، وصدام في المرتبة الثالثة. إن هذا الترتيب كان مرفوضا من قبل صدام. وكما بدت عليه الأمور حاليا في بغداد، فإن صدام وفي واقع الأمر كان الرقم واحد من قبل، وأن موضوع نزوله إلى المرتبة الثالثة في الشعب المتوحد حديثا لن يروق له، خصوصا وأنه كان على دراية بأن صحة البكر السيئة نوعا ما، ستسمح للأسد بأن يكون القوة الرئيسة في الاتحاد الجديد، بالطريقة نفسها التي سيصبح بها صدام القوة التي لا جدال عليها في العراق منفصلا. وإذا ما مضى الاتحاد قدما، إضافة إلى ذلك، فإن الأسد سيتخلص من صدام بالطريقة نفسها التي تخلص بها

صدام من خصومه. إن السبيل الوحيد الذي يمنع تحقيق ذلك الاتحاد، بالنسبة لصدام، ويزيح التهديد بنجاح، كان في أن يمسك بزمام السلطة بنفسه. ومهما كانت الرغبة كبيرة لدى البكر في تحقيق الاتحاد العراقي السوري، فإن المبادرة قد جاءت متأخرة جدا، ومن منتصف السبعينيات فصاعدا، كان صدام يدير البلاد بصورة فعلية، وطموحه المتزايد لم يكن متعلقا بالصعوبات التي تسببها الترتيبات الدستورية التي قدمها رفاقه البعثيون. وكتب الكاتب السوري باتريك سيل، بأن البكر قد أرسل رسالة إلى الأسد، قبيل تسلم صدام للسلطة بفترة قصيرة، يطلب منه أن يسرّع في إنجاز الاتحاد المقترح ما بين سوريا والعراق «لأن ثمة تياراً هنا يتلهف لقتل الاتحاد وهو في البرعم قبل أن يحمل الثمار».[٧] ليس مهما تخمين الهوية لذلك التيار.

إن حقيقة الأمر القاسية هي أن البكر، وفي صيف عام ١٩٧٩، كان غير قادر على استرجاع السلطة والتي سمح هو تدريجيا بانتقالها إلى صدام في المرحلة الماضية. ويصر بعثيون مسؤولون سابقا على القول بأن الدعم الذي تلقاه صدام في سعيه للحصول على السلطة العليا من خاله خيرالله طلفاح وابن خاله عدنان كان العامل الحاسم في إقناع البكر في التنازل. وكانوا قادرين في الضغط على البكر ليستقيل «لصالح العشيرة»،[٨] وعلى الأصح فإن جلسة خاصة مغلقة لمجلس قيادة الثورة تم عقدها في الحادي عشر من يوليو ١٩٧٩ اتخذ فيها قرار استبدال البكر، في الأسبوع التالي، بتجريده من كافة سلطاته - ومعظم ألقابه - التي ستنقل إلى صدام حسين. إن إهانة البكر لم تنته بإزالته عن سدّة الحكم. وبعد ثلاثة شهور من استيلاء صدام على الحكم، تم تجريد البكر من آخر لقب يحتفظ به، كنائب للأمين العام لحزب البعث، والذي أعطي له كلقب شرف بعيد إقصائه من الرئاسة، إنه المركز نفسه الذي منحه هو نفسه للشاب صدام في أواخر الستينيات. وبعد ثلاث سنوات مات البكر في عام ١٩٨٢ في غموض تام في واحدة من أحلك اللحظات في الحرب العراقية ـ الإيرانية، وسط شائعات ترددت بوجوب عودته إلى السلطة. وحسب معلومات لم تنشر سابقا حصل عليها المؤلف، بأن البكر قد قتل على يد فريق من الأطباء كانوا يعملون في الجهاز الأمني التابع لصدام أُرسلوا لمعالجته عندما بدأت الشائعات تنتشر حول جاهزية البكر للعودة إلى الحكم. وإضافة إلى مرض القلب فقد علم بأن البكر كان يعاني من عدة أمراض مثل السكر وارتفاع ضغط الدم ومشاكل في الكلى. ومنع أطباؤه المختصون من الذهاب إليه لمدة شهر. وخلال تلك الفترة حقنه الفريق الطبي الذي أرسله صدام بجرعة كبيرة من الأنسولين سبب له غيبوبة مميتة. لم يستعد بعدها وعيه،

وبقي أطباء صدام إلى جانبه حتى تيقنوا تماما بأنه قد مات.[٩] وبتلك الطريقة رد صدام على معروف وكرم وتشجيع ومساندة الناصح المخلص والقريب الذي كان له التأثير الأكبر على سيرة حياته.

ولئن كان تسنم صدام للرئاسة جرى من دون أية ندبة، فإن ذلك لا يعني عدم وجود معارضة. وخلال الاجتماع الخاص لمجلس قيادة الثورة والذي اتخذ فيه قرار تنحية البكر، استجمع محيي عبد الحسين المشهدي، رئيس ديوان الرئاسة، شجاعته بالاحتجاج على ارتقاء صدام. وخلال المناقشات «وقف المشهدي فجأة وطالب بالتصويت على مسألة تخلي الرئيس البكر عن مسؤولياته في الحزب والدولة لصدام حسين. وأصرّ بأن القرار يجب أن يتخذ بالإجماع. 'أنه أمر لا يصدق بأن عليك أن تتقاعد' قال للبكر، 'واذا كنت مريضا فلماذا لا تستريح؟'».[١٠] ومثل تلك المعارضة يجب التخلص منها وقد فعل ذلك صدام بسرعة. في الخامس عشر من تموز، اليوم الذي سبق استقالة البكر، أعلن بأن المشهدي قد أعفي من جميع مهماته في مجلس قيادة الثورة.

وحتى بمقاييس التطهير الكبرى التي قام بها ستالين في الثلاثينيات، فإن العملية التي أزاح بها صدام وبلا عاطفة خصومه من البعثيين الأحياء في أعقاب تسنمه الرئاسة أضافت بعدا جديدا كاملا لمفهوم إرهاب الدولة. ولم يكن المشهدي الوحيد في معارضته لتسنم صدام منصب الرئاسة، وساند العديد من البعثيين الأقدم مرتبة محاولات البكر لإحياء الاتحاد مع سوريا كوسيلة تعيق صدام بغضّ النظر عن مشاعرهم حول اتفاقات كامب ديفيد. وقد طلبوا من البكر أن يمنحهم المجال الكافي لوضع استراتيجية مجابهة مسيرة صدام نحو الرئاسة التي تبدو بأنها لم تتوقف، بيد أن البكر كان مسنًا وضعيفا ومنهكا إلى الحد الذي لا يمكنه من تأييد المواجهة مع نائبه. وهذه آخر محاولة لحزب البعث لإيقاف قوة صدام الماحقة والتي نجحت فقط في أن تجعل الرئيس المرتقب يعي بأن شعبيته لم تمتد إلى جميع دوائر البعث.

وبقوة الشخصية، عقد صدام العزم على أن لا يُري أعداءه الرحمة، والأسلوب الذي وضع به تطهير الحزب لا يظهر إتقانه لعلم نفس الإرهاب فحسب، وإنما لمهاراته التنظيمية الهائلة. وكان تحركه الأول، في ذلك الوقت، في إعفاء المشهدي من واجباته كأمين عام لمجلس قيادة الثورة. وكان نافذ البصيرة بإزاحته المشهدي، لأنه كان البعثي الوحيد المعارض لصدام وكان لديه النفوذ لعقد اجتماع لمجلس قيادة الثورة للمناقشة حول من يخلف البكر. وبعزل المشهدي أصبحت قدرة الحزب على تحدي صدام

محدودة للغاية. وأُخضع المشهدي، فضلا عن ذلك، لاستجواب متعارف عليه عن طريق التعذيب الذي أصبح، في عام ١٩٧٩، أكثر تعقيدا. وأُحضرت عائلة المشهدي إلى الغرفة التي كانت تجلس فيها الصورة المنوّمة لأمين عام مجلس قيادة الثورة السابق. وأعطي المشهدي خيارين: إمّا أن يكون متعاونا مع صدام ويزوّده بقائمة الأسماء التي طلبها وإلا سيغتصب مستجوبوه زوجته وبناته أمام عينيه قبيل قتلهن. والمشهدي نفسه تم إعدامه بتهمة التجسس لإسرائيل. واختار المشهدي الخيار الأول. ولم يكن المشهدي مقتنعا بأن يعترف بعدد من المخططات والمؤامرات فحسب، وإنما كان مستعدا لتسمية المشتركين معه، وبما يلائم الرئيس الجديد، وصودف أنهم نفس أولئك الذين عارضوا تسنم صدام للرئاسة.(١١)

فالمسرح، إذن أصبح جاهزا لصدام ليعرض تفوقه في اضطهاد ترعاه الدولة. ودون أي شك كان صدام مسرورا بالترتيبات التي قام بها من أجل التطهير الكبير، إلى حد أنه أمر بتصوير الأحداث كاملة بأفلام للأجيال القادمة، كتحذير لخصومه في المستقبل وليبين تسيده الكامل على بنى النظام السياسية والأمنية. ومسرح الأحداث الذي اختير للتطهير الكبير الأكثر قسوة في سيرته كان قاعة الخلد للمؤتمرات في بغداد الشبيهة بمسرح سينمائي كبير والمقابلة للقصر الجمهوري. وفي الثاني والعشرين من تموز، بعد خمسة أيام من استلامه للسلطة، عقد صدام مؤتمرا استثنائيا لأعضاء حزب البعث الأعلى مرتبة. ومعظم الحاضرين البالغ عددهم ألفا والمبعوثين الذين سافروا من كافة أطراف البلاد لحضور ذلك التجمع التاريخي كانوا على الأقل يدركون بغموض بأن السلطة العليا للحزب كانت وما تزال منغمسة في جولة أخرى من الشجار الوحشي، ولكن لم يستطع أي واحد منهم أن يخمّن الأحداث المثيرة التي كانت على وشك الظهور للعيان. ويفتتح فيلم المؤتمر الذي أُعدَّ خصيصا لصدام وهو يصور جلوسه بلا مبالاة في كرسي في أحد جوانب المنصة، مجسدا حالة الاسترخاء لديه. وعندما أخذت وقائع الأحداث بالظهور، كان ينفث بدخان سيجارته الكوبية الكبيرة بشكل مشوش تقريبا. وافتتح المؤتمر بخطاب ألقاه طه ياسين رمضان، الرفيق القريب من صدام والذي عيّن حديثا نائبا لرئيس الجمهورية ورئيسا لميليشيات الحزب، أي الجيش الشعبي. وهناك مخلصون آخرون ظهروا على المسرح ومنهم عزت الدوري، الثاني في قيادة البعث بعد صدام ونائب الأمين العام لمجلس قيادة الثورة، وطارق عزيز وزير الخارجية الجديد، والفريق عدنان خير الله، رئيس الأركان وابن الخال الذي نشأ معه صدام برعاية خاله في تكريت.

ولما كان صدام يتفرج على الفيلم، كان وجهه يتخفى خلف عمود من دخان سيجارته، وكان رمضان يعلن عن كشف «مؤامرة فظيعة ومؤلمة». وكان رمضان يتحدث بصوت حزين يبعث على الأسى، وهو يحاول أن يعطي انطباعا بأن خيانة الحزب من قبل أبرز أعضائه قد سببت له حزنا شخصيا. إن جمهور الحاضرين، في تلك الأثناء، تحركوا بدهشة صادقة عندما أعلن رمضان بأن جميع المتآمرين هم موجودون في الواقع في قاعة المؤتمر، وقد تمت دعوتهم إلى الاجتماع دون أن يعلموا بأنهم سيكشف أمرهم كخونة. توقف للتأثير الدراماتيكي، وبعد ذلك دعا صدام لمخاطبة جمهور الحاضرين. اعتلى صدام المنصة وهو يضع سيجارته جانبا. كان يرتدي بدلة أنيقة ذات صف واحد من الأزرار وربطة عنق بعقدة مرتبة، وقف صدام واضعا يديه الطليقتين خلف ظهره عندما خاطب جمهور الحاضرين. صوته كان موزونا وسلوكه ينضح ثقة بالنفس. يتكلم ببطء، بلا تعليقات، ويترك وقفات مطولة بين جملة وأخرى ليجعلها مؤثرة. في الماضي، يبدأ صدام القول، كان دائما قادرا على الاعتماد على حاسته السادسة التي تنذره عندما تكون هناك مشكلة مدبّرة. وفي ذلك المثال وبالرغم من أنه يعي بأن الحزب كان في خطر ـ بسبب الاندماج المخطط له مع سوريا ـ انتظر اللحظة المناسبة قبيل التحرك ضد أعدائه. «اعتدنا على أن نكون قادرين على الشعور بالمؤامرة بقلوبنا حتى قبل أن نجمع البراهين» أكد القول. «ومع ذلك، فقد كنا صابرين وبعض رفاقنا لامنا لأننا نعرف ذلك ولم نفعل شيئا بهذا الخصوص».[١٢] لكنه الآن بات يؤمن بأن لديه الدليل الدامغ لأدانة المتآمرين. في تلك الأثناء دعا صدام المشهدي، الذي جيء به من السجن ليحضر الاجتماع، إلى المنصة ليسرد تفاصيل «الجريمة الفظيعة». والمشهدي رجل متوسط العمر بشعر أشيب وشارب أنيق، يرتدي بدلة أنيقة، ويتحدث بنبرة موزونة عندما كان يشرح تفاصيل المؤامرة، ومن حين لآخر كان يلوّح بإصبعه في الهواء للتوكيد.

وعلى الأرجح، كان صدام قد وعد بالحفاظ على حياة المشهدي لقاء موافقته على مخاطبة المؤتمر وإدانة رفاقه السابقين. ومن المؤكد بأنه لو علم بالمصير الحقيقي الذي ينتظره لكان من غير المحتمل أن يقوم بمثل ذلك العرض المقنع. ولما كان المشهدي يوجّه اتهامه، كانت الكاميرا تصور صدام وهو يرجع للجلوس في كرسيه، وهو ينفخ دخان سيجارته بضجر شديد من وقائع الأحداث، بالرغم من أنه قد سمع كل شيء من قبل.

تم إعادة حديث المشهدي بشكل جيد. لقد زوّد جمهور الحاضرين بالتفاصيل

الكاملة للمؤامرة: التواريخ، أماكن الاجتماعات، والأكثر صدمة من كل شيء، أسماء المشتركين، والمشهدي وهو الشيعي الذي كان عضوا في حزب البعث لعشرين سنة، كشف الطريقة التي كان عليها ومنذ عام ١٩٧٥، كطرف في مؤامرة سورية للإطاحة بكل من البكر وصدام من أجل تمهيد الطريق للاتحاد السوري العراقي. وعندما أدرك المتآمرون بأن البكر على وشك أن يتخلى عن الرئاسة لصالح نائبه، كما يروي المشهدي، حاولوا أن يقنعوا الرئيس بأن يغير رأيه، وهم يعلمون بأن سيطرة صدام على الحكم، ستحطم آمال الاتحاد مع سوريا. وزعم بأن الرئيس الأسد قام بعدة لقاءات مع المتآمرين ليقدم لهم المشورة بكيفية التعامل مع صدام.

ولما أدلى المشهدي بشهادته، عاد صدام إلى المنصّة، ليخبر الحاضرين عن ذهوله باكتشاف خيانة أقرب الرفاق له. «بعد اعتقال المجرمين»، هو يقول، «قمت بزيارتهم لأعرف الدافع من وراء سلوكهم، ما الفروق السياسية بيني وبينكم؟، سألتهم، هل كانت تنقصكم السلطة والنقود؟ إذا كانت لديكم فكرة مختلفة لماذا لم تقدموها للحزب وأنتم قادته؟ لم يكن لديهم أيّ شيء ليقولونه دفاعا عن أنفسهم، إنهم اعترفوا بذنبهم فقط». وأخيرا انهى صدام حديثه معلنا «على أولئك الذين سأقرأ أسماءهم أن يرددوا شعار الحزب ويغادروا القاعة».[١٣] أخرج صدام قائمة بأسمائهم، التي تلاها أحد رجال الأمن. شعور بالرعب مسك بخناق الحاضرين عندما اقتيد أحد المتآمرين المزعومين خارج القاعة، يرافقة رجال مسلحون تم اختيارهم بشكل خاص من جهاز الأمن في حزب البعث. وأشرف على العملية الأمنية برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام، والذي عمل مع صدام بإمعان كبير في إتمام ترتيبات التطهير. واحد بعد الآخر تم اقتياد المتهمين من قاعة المؤتمر من قبل حرس برزان وكان صدام يراقب من كرسيه في المنصّة وهو ينفث دخان سيجارته من حين لآخر.

وبلغ مجموع المتهمين ستة وستين بعثيا ومن بينهم رفاق مقربون جدا من صدام. وقبيل مغادرة قاعة المؤتمر طلب منهم أن يتلوا قسم الحزب وأهدافه: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة: وحدة، حرية، اشتراكية !». والمرة الوحيدة التي أولى بها صدام اهتمامه بذلك الحشد هي عندما حاول أحد المتهمين أن يعترض علنا على ظلم الواقعة. دون أن يرفع صوته، قاطعه صدام مشيرا إلى حديث المشهدي بالقول «لقد أعطانا الشاهد توا معلومات عن قادة التنظيم. واعترافات مماثلة قدمها قادة الحلقات». بعد ذلك، وبلمحة تهديد مميزة خامرت صوته، صاح صدام ببساطة: «اطلع. اطلع».

وبنشوء تلك الطقوس الشاذة بدأ الأعضاء الباقون من الحاضرين يدركون دلالة ما

شاهدوا، في العرض القاسي للسلطة اللامحدودة لقائدهم الجديد. فانتقل العراق، وبلا رحمة من الدكتاتورية العسكرية إلى النظام الاستبدادي حيث ستكون إرادة القائد الأعلى هي الأساس. ولما أخذ رفاقهم البعثيون المتهمون من غرفة الاجتماعات بالقوة، وقفت البقية الباقية منهم على أقدامها وهي تهتف لقائد القطر بلا منازع. وكانوا يهتفون «يعيش صدام!». «الله ينقذ صدام من المتآمرين»، كانوا يصرخون ويقولون «نفديك! يعيش أبو عدي». وبعض الموجودين أخذتهم العاطفة وبدؤوا ينشجون. ويبدو أن صدام نفسه قد تأثر بتلك الدفقات المفاجئة من الإخلاص، وشوهد وهو يمد يده إلى منديل ليمسح دمعة وكان في الأخرى يمسك بسيجارته.

ولما اقتيد المتآمرون المزعومون من القاعة، كان صدام يدعو الحاضرين لمناقشة أحداث اليوم، وتلك إشارة خاصة للأعضاء الأكثر تملقا ليتزلفوا إلى صدام. وصرّح أحدهم بالقول «صدام حسين متساهل جدا. هناك مشكلة في الحزب منذ فترة طويلة.. هناك خط مابين الشك والرعب، والديمقراطية اللامتوازنة. إن مشكلة التساهل الكبير تحتاج أن ينصبّ عليها اهتمام الحزب». وعند ذلك أطلق صدام ابتسامة ساخرة. والمتحدث الآخر هو ابن عم صدام، علي حسن المجيد، الذي حصل لنفسه فيما بعد على لقب «علي كيمياوي» لاستخدامه الأسلحة الكيمياوية ضد الأكراد في عام ١٩٨٨ قال علي كيمياوي «كل شيء فعلته في الماضي كان جيدا وكل شيء تفعله في المستقبل يكون جيدا. أقول هذا لإيماني بالحزب وبقيادتك».[١٤] وبعد أحاديث عديدة، طالب فيها المؤتمرون بكشف «الخونة» الآخرين، اختتم صدام اللقاء قائلا «نحن لسنا بحاجة إلى الأساليب الستالينية للتعامل مع الخونة. نحن نحتاج إلى الأساليب البعثية». وفي تلك النقطة وكتلميح للتضامن نزل صدام من المنصة وأخذ مكانه في قاعة الاجتماعات العامة بين الأعضاء الباقين في مجلس قيادة الثورة. وفي الختام دعا صدام الحاضرين إلى تشكيل فرق إطلاق النار لتنفيذ إعدامات المتآمرين المدانين.

وكان من بين أولئك الذين تبعوه في يوم لا ينسى في تاريخ العراق الحديث عدد من البعثيين الكبار، وبعضهم رفاق وقفوا معه طويلا وساندوه فعلا في صعوده إلى السلطة. خمسة من أعضاء مجلس قيادة الثورة الواحد والعشرين كانوا متهمين في المؤامرة من بينهم المشهدي.[١٥] وكان من بين الضحايا، مرتضى الحديثي، وزير النفط السابق، الذي وضع خطة العمل التمهيدي لتأميم شركة البترول العراقية في عام ١٩٧٢ والاسم الذي أثار الاستغراب كثيرا في القائمة، كان اسم عدنان حسين الحمداني، العضو المخلص والمجد الدؤوب في حزب البعث، الذي عيّنه صدام قبيل

خمسة أيام فقط نائبا لرئيس الوزراء ورئيسا لمكتب الرئيس. ويرجع صعود الحمداني إلى قمة الحزب إلى مناصرة صدام له. وبعد تطهير الحزب الذي وقع في ١٩٧٣ بعد قضية ناظم كزار، كان الحمداني مسؤولا عن مكتب صدام الشخصي وأثّر في سلسلة من القضايا الأساسية، منها مساعدته في تأسيس برنامج الأسلحة غير التقليدية. وطبقا لأحد الرفاق السابقين للحمداني، فإن صدام يعتبره حلاّل العقد الرئيس. «الحمداني هو الذي يسوّي النزاعات عن طريق المفاوضة وإذا ما احتاج صدام إلى أحد ما لحل مشكلة ما فإنه يحيلها إلى الحمداني. وكان يعلم الكثير عن إدارة البلاد أكثر من صدام نفسه».[١٦] وقد كان الحمداني الخادم النموذجي لفعل ما يريده صدام وكان موثوقا به إلى الحد الذي كان هو وزوجته سناء رفاق عشاء اعتياديين لصدام وساجدة.

ومثل العديد من مسؤولي البعث البارعين، كلما حقق الحمداني المزيد من النجاح، استثار الطبيعة المريبة لصدام. وقدمت نظريات متنوعة لزوال رجل لعب مثل هذا الدور في النظام خلال أواخر السبعينيات، خصوصا في رسم الخطة الرئيسة لبرنامج صدام لأسلحة الدمار الشامل. وإحدى تلك النظريات تقول بأن الحمداني أصبح فاسدا جدا في أخذه للرشاوى في تعامله مع العديد من تجار الأسلحة المشبوهين، وأخرى تقول بأنه كواحد من الشيعة القلائل في حلقة صدام الداخلية، اشتبه بأنه يتعاطف سرا مع أشخاص متمردين في طائفته الدينية.[١٧] والسبب في ترقية صدام له بأيام قليلة سبقت إدانته يشكّل غموضا آخر يتعلق بتلك القضية البغيضة التي لا يوثق بها. وادّعى موظفو صدام بأنهم كانوا يعرفون عما يسمى بالمؤامرة السورية من فترة طويلة قبل الشروع بالفعل، ولذلك فإن صدام كان يعلم بأنه على وشك أن ينهي الحمداني عندما عيّنه بمواقعه الجديدة. والتفسير الأكثر احتمالا هو أن صدام لم يكن راغبا في إثارة الشكوك حول المشهد المرعب الذي كان يخطط له من أجل تثبيت سيادته الكاملة على البعث. وادعى أحد رفاق الحمداني السابقين بأن اثنين من أقارب صدام المقرّبين كانا من وراء سقوط الحمداني. «أعتقد بأن السبب الرئيس لتصفيته هو أنه قد تشاجر مع برزان التكريتي وعدنان خير الله» - الأخ غير الشقيق لصدام وابن الخال على التوالي. «ببساطة كانا لا يحبانه ولا يحبان النفوذ الذي يمارسه. لذلك جعلا منه متهما».[١٨] إن الحمداني الذي يعتقد بأن لديه القدرة على أن يفصح عن رأيه بصراحة أمام صدام، ربما كان قد عبر عن تحفظاته حول خطة صدام لاستبدال البكر. وكان الحمداني مؤيدا للاتحاد مع سوريا، وكان يخشى بأن صعود صدام سيقوّض ذلك المشروع. ومن المؤكد بأن الحمداني وعائلته لم يكن لديهما أي إحساس خفي بأن

الحمداني قد سبب إساءة شديدة لصدام. وفي إعدام الحمداني كانت زوجته في رحلة تسوّقية إلى باريس مع ساجدة حسين.

وفي اليوم ذاته الذي كشف به صدام «المؤامرة» شكلت محكمة خاصة، تتكون من سبعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة الباقين على قيد الحياة، وبرئاسة نعيم حداد، نائب رئيس الوزراء. وقد بلغ عدد البعثيين الذين أدينوا في تورطهم في المؤامرة خمسة وخمسين شخصا، حكم بالإعدام على اثنين وعشرين منهم عن طريق «الإعدامات الديمقراطية». وبشكل خاص تم ابتكار صيغة عقوبة الإعدام تلك من قبل صدام، وطلب من البعثيين أن يشاركوا في تنفيذ حكم الإعدام برفاقهم السابقين الخونة. وقد حدد موعد الإعدامات في الثامن من آب، ودعيت تنظيمات البعث المحلية لإرسال موفد عنها للمشاركة في تنفيذ عقوبات الموت. ونفذت الإعدامات في ساحة البناية نفسها التي زعم بأن المتهمين كانوا يحيكون مؤامراتهم فيها. وجميع أولئك الذين شاركوا في تنفيذ الإعدامات تم تزويدهم شخصيا ببنادق يدوية من قبل صدام، الذي مهد الطريق للشروع بالانغماس المفرط في القتل.

إن شريط الفيديو الذي أطلقه صدام مؤخرا كان يتضمن مشاهد الإعدامات التي تم تنفيذها. فالكاميرا تظهر المدانين راكعين وقد عصبت أعينهم، وأُوثقت أيديهم خلف ظهورهم. وتقترب الكاميرا وهي تصور يدا تحمل بندقية، وهي تطلق إطلاقة في الصدغ. كانت أجساد الضحايا تترجرج بهزات مفاجئة وتنكمش، والدم يسيل على التراب من رؤوسهم. وفي بعض الحالات لم تكن الإطلاقات دقيقة، فتترك الضحايا على قيد الحياة. والسبب هو أن بعض المنفذين لم يكونوا رماة محترفين، فإما أن يخطئوا الهدف المقصود، أو يفقدوا أعصابهم في اللحظة الأخيرة. في تلك الحالات تظهر الكاميرا جلادا محترفا يطلق رصاصة الرحمة من فوهة مسدسه نحو الرأس. وقد نقلت الصحافة مؤخرا بأن إعدام الحمداني كان غير ناجح، وترك يتلوى على الأرض بعد أن فشلت الرصاصة الأولى في أداء مهمتها. وبرزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام، والذي كان مسؤولا عن إدانة الحمداني بالدرجة الأولى، أجهز عليه بإطلاقتين في رأسه.[١٩]

إن فكرة دعوة قيادة البعث للمشاركة في «الإعدامات الديمقراطية» كانت حيلة ذكية من صدام، ليحول تلك الإعدامات إلى جلسة مفخمة ذات سند عشائري. في بلد تمتد به عداوات الدم بعمق، حتى فوق ما يسمى بجرائم القتل القضائي، ورّط صدام أعضاء سلطة البعث من المتبقين في «تطهير» الحزب وبذلك فرض عليهم أن يقدموا له ولاءهم

الكلي. وعلى سبيل لمثال، وضع نعيم حداد، وهو أحد القادة الشيعة في الحكومة الجديدة، ليصدر الحكم على اثنين من الشيعة البارزين في البعث، وهما محمد عايش والحمداني، وكان صدام قد ضمن مقاطعة حداد لمجتمعه الخاص وزاد في اعتماده على الرئيس الجديد. وكان لهذا التكتيك أن يصبح السمة المميزة لحكم صدام، بإجبار الضباط والمسؤولين على المشاركة في أعمال بربرية، وبإمعان في الضلال كان يشوه سمعتهم ويربط مصيرهم بمصير النظام.

ويتخلصه من آخر خصومه، شرع صدام بتحويل الأحداث إلى ضربة دعائية لصالحه. ولقد تم توزيع نسخ من شريط الفيديو الذي سجل وقائع المؤتمر الخاص إلى أعضاء البعث في جميع أنحاء القطر. ولم تعلن تفاصيل «المؤامرة» نفسها حتى صبيحة الإعدامات عندما أُذيع بيان رسمي من إذاعة الدولة. وجاء في الأخبار أن الإعدامات التي شارك فيها مئات الموفدين، والرئيس وجميع أعضاء مجلس قيادة الثورة كانت «واقعة غير مسبوقة في تاريخ الحزب». ولقد نفذت الإعدامات «وسط هتافات بالعمر المديد للحزب والثورة، والقائد، الرئيس، المناضل، صدام حسين».[٢٠] وبعد أن قضى الصباح مشاركا في الإعدامات، بدا صدام مستريحا في آخر اليوم نفسه ليوجه خطابا إلى الشعب حول اكتشاف المؤامرة. كل جنون الاضطهاد البعثي القديم كان باديا للعيان عندما تحدث صدام. ولم يكن كشف المؤامرة إنجازا كبيرا لثورة البعث فحسب، وإنما كان هزيمة مخزية «للقوى الأجنبية» التي دعمتها. «نحن نرثي الخائنين والمتآمرين من خارج العراق»، خاطب الرئيس الحشد الهائل الذي تجمع في حدائق القصر الجمهوري، «الذين عملوا لأكثر من خمس سنوات وكل ما استطاعوا أن يحصلوا عليه كان خمسة وخمسين فردا».[٢١] وتماما مثل السوفيت بعد ثورة ١٩١٧، كان صدام يحاول متعمدا أن يوحد الشعب خلف قيادته مذكيا فيه نيران الكراهية للأجانب.

وفي دمشق، كان الرئيس الأسد، الشخصية البعثية الكبيرة عن جدارة، منزعجا للغاية بأن يرى الحلف الجديد بين سوريا والعراق يضحى به على مذبح الطموح الذي لا يقاوم لدى صدام. وبعد أن جاء في خطاب صدام اتهام الأسد بأنه العقل المدبر للمؤامرة ضد البعث العراقي، احتج الأسد بغضب عنيف، وطالب برؤية الدليل. أرسل وزير خارجيته، عبد الحليم خدام، ورئيس أركانه إلى بغداد ليؤكد لصدام أنه إذا ما كان لدى العراق أي دليل حول اعتداء سوريا، فإن المسؤولين عن ذلك ستتم معاقبتهم. وكل الذي عادوا به كان شريط تسجيل مفكك لاعتراف المشهدي. ورفض صدام مقترح الأسد بفحص مزاعم العراق من قبل لجنة من الجامعة العربية. ومن غير

المحتمل أن تكون سوريا بريئة تماما من مزاعم صدام، ودون أدنى شك ان الأسد كان يفضل شخصا قابلا للتوجيه كالبكر المسؤول عن النظام البعثي المجاور، على صدام. ولكن لما خرج صدام منتصرا في لعبة السلطة في بغداد، كان الخيار الأكثر حنكة بالنسبة للقائد العراقي الجديد أن يضع الماضي خلفه ويستثمر استعداد سوريا لتحسين العلاقات. إلا أن إصرار صدام على الاستهانة بسوريا حطم الحلف وكان المسؤول الرئيس الذي جعل الأسد يشكل حلفا مع آية الله الخميني في إيران، الحلف الذي سيسبب لصدام المزيد من وجع القلب في السنوات القادمة.

إن حملة تطهير مجلس قيادة الثورة التي رافقت تسنم صدام للرئاسة في تموز ١٩٧٩ كانت مجرد بداية لحملة تطهير واسعة النطاق لأعضاء الحزب والعسكريين. ومنذ بداية حكمه كان صدام عازما على التأكد أن الحزب والقوات المسلحة لن يشكلا تهديدا له. وبالرغم من أنه ليس هناك شخصيات واضحة، قدّر بأن مئات العاملين في الحزب والضباط العسكريين قد تم تطهيرهم من مواقعهم، بعضهم عذّبوا وأُعدموا، وحكم على كثير منهم بالسجن المؤبد. ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما قامت به قوات أمن صدام توا من حملة تطهير واسعة في حزب البعث والجيش في بداية السبعينيات، فقد كان إنجازا إلى حد ما أنه كان قادرا على أن يجد الضحايا الجديرة بالتطهير. إن الاختلاف الجوهري بين تطهيرات ١٩٦٩ وتطهيرات ١٩٧٩ هو أن الأولى عبارة عن سلسلة من التطهيرات كانت موجهة لأعداء البعث، بينما كانت تطهيرات ١٩٧٩ موجهة فقط لأي أحد يشك في معارضته لصدام حسين.

إن صعود صدام إلى السلطة العليا زوّده بفرصة حسم عدة أهداف قديمة. وكانت تلك اللحظة التي اختار فيها أن يرسل رجاله المسلحين لاغتيال رفيقه وصديقه القديم عبد الكريم الشيخلي والذي كان خارج النشاط السياسي منذ ١٩٧١ عندما أرسل إلى الأمم المتحدة. وحتى في نيويورك لم يلتفت الشيخلي إلى الدروس التي يجب أن يكون قد تعلمها من انغماسه في الملذات في بغداد في أوائل السبعينيات. كان عليه أن يعلم بأن كل شيء قاله، عاما أو خاصا، قد تم تسجيله وإرساله إلى صدام بواسطة عملائه من رجال الأمن، حتى في نيويورك البعيدة. بيد أن الشيخلي بقي مثالا للحماقة ولم يكن مترددا في أن يفصح عن رأيه حول سيطرة صدام على البعث. ربما كان يشعر بأن الصداقة الشخصية الحميمة التي كان مستمتعا بها ذات يوم مع صدام ستحميه. وأخيرا، وفي أواخر عام ١٩٧٨، نفد صبر صدام وأمر الشيخلي بالعودة إلى بغداد.

وحتى ذلك الأمر المشؤوم لم يسبب كثيرا من التشويش لانضباط الأعصاب لدى الشيخلي، وأنه قد امتثل لذلك الطلب. وعند وصوله تم اعتقاله ورمي في السجن. ولأنه ما زال يتمتع بوجود أتباع أقوياء في الحزب والقطر، قررت الحكومة أن تمنحه محاكمة اعتيادية قدر الإمكان، بدلا من إخضاعه إلى محاكمة شكلية من قبل محكمة عسكرية خاصة. امتثل القاضي للطلب وعندما سيطر على المحاكمة في آخر الأمر، استضيف الجمهور العراقي إلى المشهد الفريد للمدعى عليه الذي يزوّد المحكمة بدفاع قابل للتصديق في واقع الأمر. بعد عشرة أيام، وباستدعاء الشيخلي لمجموعة من الشهود لإعطاء شهادات لصالحه، لم تحرز المحاكمة تقدما، وواجه الشيخلي إمكانية متميزة لتبرئته. وفي ذلك الوقت تدخلت السلطات الحكومية، من خلال مذكرة سرية قدمت للقاضي، وأمرت المحكمة بحلّ القضية على الفور. أُدين الشيخلي كما ينبغي بنقد غير قانوني للحكومة وسجن لست سنوات. ولكن بعد سنة من ترؤس صدام، أطلق سراحه. وباعتقاده بأن مشاكله مع صدام أصبحت من الماضي، حاول الشيخلي أن يتكيّف مع الحياة المدنية العادية. وبأسابيع قليلة أعقبت إطلاق سراحه، ذهب بصحبة زوجته الحامل لتسديد فاتورة هاتفه. وعندما نزل من سيارته أطلق اثنان من أتباع صدام النار عليه فأردياه قتيلا.

وقد حصل إجراء مماثل لبعثيين سابقين آخرين بارزين. فأُعدم في بغداد في شهر يونيو ١٩٨٠، القيادي البعثي المعزول، مرتضى سعيد عبد الباقي، الذي عيّن سفيرا للعراق في الاتحاد السوفيتي السابق بالرغم من فقدانه لعضوية مجلس قيادة الثورة في عام ١٩٧٤ وعلى غرار ما جرى للشيخلي تم استدعاء الحديثي من موسكو في يوليو ١٩٧٩، فاعتقل ورمي في السجن. وقد عزم صدام على أن يدير رئاسته على قاعدة الإرهاب المطلق، وواصل تلك السياسة بصرامة خلال رئاسته. ليس هناك معارضا تافها جدا أو ضئيلا في نظر صدام. أي مقترح لمعارضة إرادة صدام كان يسحق بلا رحمة وبوحشية قصوى. وسليم شاكر، الضابط السابق في الجيش العراقي والذي أصبح بطلا وطنيا لدوره في حرب يوم القبور في عام ١٩٧٣، كان واحدا من القلة الباقين من تطهيرات صدام السياسية في عام ١٩٧٩ وكان شاكر عضوا نشيطا في البعث منذ أواخر الخمسينيات، وقد عمل مع صدام لوصول البعث إلى السلطة. هو ضابط جيش مندفع، وكان يقود واحدة من وحدات الدبابات التي أرسلت لقتال إسرائيل في حرب يوم القبور. وبعد خدمته في الخارج كملحق عسكري، وفي عام ١٩٧٩ كان سفيرا للعراق في السنغال. وبعد تسلم صدام للرئاسة مباشرة، وجد نفسه

ويشكل مفاجئ متهما بالخيانة، كما كان الآلاف من الضباط والمسؤولين في كافة مجالات الحياة، حسب تقديره. وعلى غرار الكثير من السفراء العراقيين الآخرين في ذلك الوقت، تلقّى شاكر مكالمة تأمره بالعودة إلى بغداد «للمشاورات» مع صدام. وكان شاكر يعتقد ببساطة بأن عودته إلى العراق كانت من أجل إطلاعه على الأهداف الدبلوماسية للحكومة الجديدة، ولكنه حالما نزل في مطار بغداد الدولي، اعتقل وأُخذ للاستجواب. وعندما تمت مقابلته من قبل المؤلف بعد سنوات لاحقة، كان شاكر القصير القامة، أنيق الملابس، رجلا لطيفا ولوعا بالنسيج الإنجليزي الصوفي الخشن، كان يعاني من صمم جزئي وطنين الأذنين نتيجة للضرب الذي تعرض له في أحد مراكز صدام الاستجوابية. «من الصعب أن نصف إرهاب ذلك المكان. كل واحد ذهب إلى هناك تم تعذيبه إلى حد ما. وبالنسبة لصدام كان التعذيب طريقا للحياة. كنت محظوظا بأنني ضربت فقط، لكن بعض الآخرين كانوا غير محظوظين. أعتقد بأنني ضربت فقط لأنني كنت مشهورا كبطل حرب، وحتى أولئك الناس كان لديهم بعض الأحترام لي».

واتهم شاكر بالتآمر على صدام وأُحضر أمام محكمة ثورية خاصة برئاسة نعيم حداد. وكانت المحاكمة قضية عاجلة، إلى حد أن شاكر كان غير مسموح له أن يرى حتى شهادته الخطية، والتي بالطبع، لم يكن يتذكر ما جاء فيها. «ليس لدي أي فرصة على الإطلاق كي أدافع عن نفسي»، أكد شاكر. «وقد قررت المحكمة مسبقا ما تريد فعله بخصوص قضيتي. لقد تمت إدانتي كخائن، وكان هذا دليلا كافيا بالنسبة لهم». لقد حكم عليه بالسجن لسبع سنين مع الأشغال الشاقة. لم يعط شاكر تفاصيل محددة حول إثمه، وما زال لا يدري ما الذي عمله حتى يسبب الإساءة إلى صدام. «وقد أخبرني صدام بأنه دائما كان فخورا بخدمتي العسكرية ودوري في حرب عام ١٩٧٣»، تذكر شاكر. «ربما كان هو أيضا حاسدا لي. كان حساسا جدا حول واقع الأمر لأنه نفسه لم يخدم في الجيش وقد يكون سجلي الحسن إحراجا بالنسبة له». والتفسير الوحيد الآخر الذي استطاع شاكر أن يقدمه للمعاملة التي عانى منها هو بلقائه بصدام في عام ١٩٦٩، عندما طلب منه أن يقدم قائمة بأسماء ضباط لترقيتهم. وقد استثنى صدام أحد الأسماء التي قدمها شاكر، مدعيا بأن الضابط المعني قد غذّى مشاعر التأييد والمناصرة لسوريا. حاول شاكر أن يدافع عن سمعة الضابط، لكن صدام اعترض قائلا «المشكلة بين سوريا وبيننا ليست سياسية، اقتصادية، أو فلسفية. إنها مسألة حياة أو موت». واختتم شاكر بأن صدام قد ضمر حقدا ضده منذ ذلك الجدل، وقرر أن يفعل ذلك عندما سيطر على السلطة. «عليك أن تتذكر بأن صدام ليس لديه أصدقاء

حقيقيون. هو امتلك كل أولئك الناس الذين من حوله والذين كانوا خائفين جدا منه. كل شخص كان قريبا من صدام يطلب منه أن يثبت ولاءه له في كل وقت». وحسب ما ذكره شاكر، فإن أحد ادعاءات صدام المفضلة كان «ببساطة أستطيع أن أُميز من خلال النظر إلى عيني شخص ما إذا كان مخلصا أو خائنا». وكان صدام أيضا ميّالا إلى العروض العاطفية، مثل أن ينفجر بالبكاء إذا ما جرح أحد أطفاله نفسه بأية طريقة. وقد عانى صدام من انفصام الشخصية. هو يبكي على أطفاله بينما في الوقت ذاته يوقع على إجازة الموت من أجل إعدام خمسين رجلا. وفي إحدى المناسبات سأل شاكر صدام عن شعوره إذا قام بإعدام إنسان آثم بالخطأ. «من الأفضل جدا أن تقتل إنسانا بريئا بدلا من أن تسمح لإنسان مذنب أن يبقى على قيد الحياة»، أجاب صدام بوضوح.[٢٢]

وأزاحت التطهيرات أي تلميح بالمعارضة لحكم صدام، وبدأ بسرعة إعادة تنظيم الحكومة بطريقة أكثر لتعزيز قاعدة سلطته. وكان تحركه الأول لزيادة سلطة مجلس الوزارة بينما يقلل حجمه إلى حفنة من الوزراء المخلصين. اتحد العديد من الوزراء، وفي اليوم الذي تسلم فيه زمام السلطة أوجد صدام مركز النائب الأول لرئيس الوزراء وخمسة مراكز لنائب رئيس الوزراء. وعيّن طه ياسين رمضان بالمنصب الجديد، واحتل المراكز الأخرى كل من عدنان خير الله الذي لم يزل يمسك بحقيبة وزارة الدفاع، وطارق عزيز وزير الخارجية، ونعيم حداد، وسعدون غيدان، وسيئ الطالع الحمداني. إن إعادة بناء مجلس الوزارة، حيث تعقد الاجتماعات برئاسة صدام، كانت تهدف إلى تقليل سلطة مجلس قيادة الثورة، التي استمر صدام ينظر إليها بريبة، بالرغم من تطهيره من أعدائه.

وفي مارس من عام ١٩٨٠ أجرى صدام تغييرا دستوريا مهما آخر وذلك بإحياء المجلس الوطني، الهيئة التشريعية لدولة العراق والتي تعطلت بعد سقوط الملكية في عام ١٩٥٨ وينص القانون الجديد على أن يضم المجلس (٢٥٠) عضوا يتم انتخابهم بالاقتراع السري كل أربعة أعوام. ولئن أعطى المجلس الوطني الانطباع، وبشكل مؤكد إلى العالم الخارجي، بأن النظام الجديد لديه مزاعم ديمقراطية، فإن الواقع كان مختلفا. إن العملية الانتخابية للمرشحين المحتملين كانت تمليها شروط صارمة. كان يرخص لكل محافظة أن تكون لديها قائمة انتخابية منفردة فقط، وبذلك تلغى أية منافسة ما بين الأحزاب أو الجماعات. وجميع المرشحين، الذين عليهم أن يلبوا المعايير المتنوعة قبل أن تتم الموافقة عليهم، توجب عليهم الالتزام بمبادئ ثورة تموز ١٩٦٨ وأن يخضعوا أنفسهم لمعاينة من قبل لجنة انتخابية للحصول على الإذن بالترشيح.

ولكي تضمن الهيئة الانتخابية بأنها لم تترك في شك بخصوص مجموع الأصوات، أعلن صدام «علينا أن نضمن بأن الثلاثة عشر والنصف مليون [حجم أصوات الناخبين العراقيين] تأخذ ذات الطريق. والذي يختار الطريق الملتوي سيواجه السيف».(٢٣) وأُقيمت الانتخابات في العشرين من يونيو ١٩٨٠ أصوات قليلة اختارت «الطريق الملتوي» وملئ المجلس بالمعيّنين من حزب البعث. إن التعليق الغريب لصدام حول العملية كان يعني بأن انتصار حزبه في الانتخابات هو علامة على أن الشعب العراقي قد أقر وبثبات مرشحي البعث ومباده».

ورافق صعود صدام إلى السلطة زيادة جوهرية في نشاطات جهاز الأمن العراقي. إن إعادة البناء الدقيقة لعمليات صدام الأمنية تم تنفيذها، بتكوين الأمن الخاص، الذي أصبح الذراع القوي والشامل لأمن الدولة. وحل الأمن الخاص محل المخابرات التي تضاءل حجمها ونفوذها فعليا. وفي الواقع إن الأمن الخاص أصبح القوة الأمنية الشخصية لصدام، تقدم تقاريرها مباشرة إلى مكتب الرئيس، الذي توسع هو ذاته ليستوعب المسؤوليات الكثيرة للرئيس الجديد. وفي نهاية السبعينيات قدّر بأن شعبة الشؤون الرئاسية، التي ضمت الأمن الخاص، كان في جدول رواتبها ما يقارب ثمانية وخمسين ألفا من الموظفين.(٢٤)

أقيمت سجون جديدة وابتكرت تقنيات تعذيب وذلك للتأكيد بأن نظام الإرهاب كان يعمل بنشاط. ومن الناحية الفنية فإن التعذيب قد حرّم في العراق حسب المادة ٢٢ (أ) من الدستور العراقي والمادة ١٢٧ من قانون الاجراءات الجزائية. ومع ذلك، وفي الوقت الذي جاء فيه صدام إلى الحكم، قدّر بأن النظام قد أتقن (١٠٧) أسلوبا مختلفا لتعذيب أعدائه. فالتعذيب اليدوي أخذ شكل الضرب المتكرر، جر الشعر، والضرب بالعصا على القدمين، وليّ الأعضاء حتى تنكسر. وعموما نفذت الصدمات الكهربائية وذلك لانتزاع الاعترافات، وتم تنفيذ سلسلة واسعة من التعذيب النفسي. والشكل المتعارف عليه من التعذيب هو أن يوضع الضحايا في سجن انفرادي لفترات طويلة. وبعض السجناء يتركون في زنزانات باردة إلى أن تتجمد أعضاؤهم، بينما في مناسبات أخرى تحرق أجزاء من أجساد السجناء بالنار. وهناك تخصص عراقي آخر خاص هو اغتصاب أقارب المعتقلين - ذكورا وإناثا - ويجبر المتهمون على مشاهدة ذلك. وتعذيبات صدام استطاعت أن تستفيد من الآلات المتنوعة والمتوفرة من أجل إزالة الأعضاء الإنسانية من الأصابع إلى الأرجل.

وفي تقرير صدر في عام ١٩٨١، أجملت منظمة العفو الدولية شهادة خمسة عشر

عراقيا منفيًا - اثنا عشر رجلا وثلاث نساء - من الذين تم تعذيبهم على يد منتسبي أمن صدام. وجميعهم قد تم فحصهم بالتالي من قبل أطباء في لندن الذين وجدوا في كل حالة «بأن التعذيبات التي وصفت كانت متطابقة مع الأعراض اللاحقة والعلامات التي وجدت في الفحص الطبي». وذكر تقرير منظمة العفو الدولية وصفا مريعا للمعاناة التي تعرض لها الضحايا العراقيون. «في أول يومين كان يؤخذ السجين إلى غرف مختلفة ويتم ضربه بقبضات الأيدي، بقضبان وسوط. وفي إحدى الغرف يلاطف ويداعب جنسيا، قبل أن يؤخذ ويضرب ويركل. وأصبح التعذيب فيما بعد أكثر انتظاما، يحدث في كل ساعة أو ساعتين. يضرب رأسه بالسوط ويضرب بقوة إلى أن يفقد الوعي. وبعد استعادته للوعي في إحدى المناسبات أدرك بأنه قد انتزع منه بنطاله وأنه قد اغتصب. وبعد ذلك أجلسوه على جسم يشبه القنينة الباردة أُدخلت بقوة في شرجه. كذلك أُحرق بجسم صلب بحجم قلم الرصاص تقريبا».(٢٥)

ولأن جهاز التعذيب المؤسساتي أصبح منتشرا جدا، لذا فإن منتسبي أمن صدام أصبحوا أقلّ تمييزا في اختيارهم للضحية. وتحقيق آخر لمنظمة العفو أظهر بالتفصيل قضية امرأة عراقية ذهبت إلى مشرحة الجثث في بغداد في سبتمبر ١٩٨٢ لتجمع جسد ولدها. أُلقي القبض على الولد في عام ١٩٨١ واحتجز من دون تهمة أو محاكمة، ودون أن تعلم عائلته عن مكانه. ولما دخلت المرأة إلى المشرحة، لم تستطع أن تصدق عينيها. «نظرت من حولي وأبصرت تسعة أجساد ممدّدة على الأرض معه. لكن ولدي كان في هيئة كرسي. إنه شكل جالس، ليس نائما ولا ممددا. كان مضرّجا بالدم وكان جسده منخورا جدا وينزف. نظرت إلى الآخرين المددين إلى جانبه. جميعهم محترقون.. لا أدري بأية مادة. جسد آخر حمل علامات مكواة منزلية ساخنة من رأسه حتى أخمص قدميه..»(٢٦) وكان اعتقال النساء والأطفال تكتيكا مألوفا استخدمته قوى الأمن الصدامية، خاصة عندما يكونوا غير قادرين على الإمساك بالرجال. وهناك حالات موثقة جيدا عن نساء تم تعذيبهن أمام أسرهن، أو أزواج أو أطفال عذبوا أمام زوجاتهم وأمهاتهم. ولما اعتقلت صحفية عراقية، حرم المحققون معها طفلها الرضيع من الطعام في محاولة للضغط عليها. وأنثى أخرى بقيت حية من مكاتب تعذيب صدام كررت القول كيف أن التعذيب الجنسي كان يمارس عادة ضد النساء والأطفال، وكيف يوضع الأطفال في أكياس مع قطط تتضور جوعا.(٢٧)

وفي منتصف الثمانينيات اعترفت السلطات العراقية رسميا بأنه كان هناك بمعدل أربع وعشرين جريمة حملت عقوبة الموت: عشرة تحت عنوان جرائم ضارة بالأمن

الخارجي للدولة، وعشرة تتعلق بالأمن الداخلي، والبقية «جرائم تشكل خطرا على الشعب». إن تعريف الجرائم الكبيرة كان غامضا بشكل متعمد ولذلك فإن أي كشف محظور للمعلومات يمكن أن يفسر كخيانة. فالمادة ١٧٧ من قانون العقوبات العراقي، على سبيل المثال، أجازت عقوبة الموت بسبب «إفشاء أسرار الدولة» من قبل أحد الموظفين «في زمن الحرب أو في تعزيز مصالح دولة أجنبية». وتقريبا إن جميع المعلومات التي تخص الحكومة والاقتصاد والمجتمع تعتبر من أسرار الدولة، وأن إفشاء أية معلومات بصورة عملية إلى أي دبلوماسي أجنبي أو صحفي يمكن اعتباره جريمة خيانة. وانعكست معاداة نظام صدام للصهيونية في المادة ٢٠١ من قانون العقوبات، والتي حددت عقوبة الموت «لأي شخص يروّج لمبادئ الصهيونية والماسونية أو ينظم أو يدافع عن عضوية المؤسسات الصهيونية أو الماسونية». وبالإضافة إلى ذلك طبقت عقوبة الموت على سلسلة من الجرائم المدنية كالاغتيال والاغتصاب وإحراق المباني عمدا والسطو المسلح واللواط. وفي التسعينيات كان أي عراقي مصابا بفيروس الأيدز معرضا لحكم الإعدام.

وكانت هناك فرص ضئيلة لأن يتلقّى محاكمة عادلة لأولئك الذين وجدوا أنفسهم متهمين بجرائم كبيرة. وبينما بقيت بنية المحاكم الدينية والمدنية والجنائية العسكرية دون أن تمس، فإنها كانت مرّخصا لها أن تتعامل بكثرة مع القضايا الحياتية لوحدها. وإن أية قضية لها بعد سياسي كانت تحال إلى محكمة الثورة في بغداد، التي تأسست في عام ١٩٦٩ وكانت تتألف إما من ثلاثة من العسكريين أو ثلاثة قضاة مدنيين. وكانت العقوبات التي تقررها تلك المحكمة نهائية ولا تخضع للاستئناف. ومن ثم كانت هناك محاكم خاصة يديرها مباشرة مكتب الرئيس. وتلك المحاكم لا تتطلب محامين محترفين وإنما كانت تشكَّل من أعضاء مجلس قيادة الثورة. وكانت مثل تلك المحاكم تقام من أجل محاكمة المتورطين في محاولات انقلابية مختلفة، ولم يكن لدى صدام أية صعوبة في تأمين حكم القرار المطلوب.[٢٨] ولدى منظمة العفو أسماء (٢٥٠) شخصا من الشعب أُعدموا لجرائم سياسية ما بين ١٩٧٨ و١٩٨١، وكان هناك أكثر من (٣٠٠) قد تم إعدامهم في عام ١٩٨٢

وفي الحالات التي تكون فيها القوى الأمنية، لسبب أو لآخر، عاجزة عن جلب المعارضين السياسيين إلى المحاكمة، فإنها تستخدم السم. وكان الثاليوم هو الأسلوب المفضل جدا لأنه عديم الطعم واللون والرائحة. ومنذ عام ١٩٨٠ فصاعدا كان هناك عدد من التقارير لنشطاء عراقيين قد تم سمّهم بالثاليوم. وفي شهر مايو ١٩٨٠ شق

اثنان من المنشقين كانا رهن الاعتقال طريقهما إلى لندن. وقد فحصا من قبل الأطباء ووجدا بأنهما يعانيان من التسمم بالثاليوم. وأحدهما يدعى جهاد مجيدي، قد تم فحصه بفترة قصيرة سبقت موته وكان يعتقد بأن السم أُعطي له في شراب برتقال قدم له في مركز شرطة بغداد حيث ذهب إلى أخذ جواز سفره من هناك.[٢٩]

وبوسائل الإعلام التي تسيطر عليها الحكومة بقوة، فإن حرية التعبير كانت غير مسموح بها. ومنذ عام ١٩٦٨ فصاعدا وضع حزب البعث من نفسه هدفا لجلب وسائل الإعلام تحت سيطرته وجعلها أداة لنشر فكر البعث. ولكن في تقرير نشر في عام ١٩٧٤، سلّم الحزب بأنه لم يصل إلى تلك الأهداف لحد الآن، وتذرع متباكيا بأنه ما زال هناك فعلا العديد من «العناصر الرجعية» التي تكمن في وسائل الإعلام وعدد قليل جدا من «المسؤولين الثوريين المنافسين». وفي نهاية السبعينيات عولجت نقاط الضعف تلك بعضوية الاتحاد العام لشباب العراق التي وضعت كشرط للدخول إلى مدرسة الصحافة. وأخيراً وفي عام ١٩٨٠ أسس صدام التجمع الثقافي في العراق، وجميع الصحفين والكتّاب والفنانين كان مطلوبا منهم أن ينضموا، وأن أية منظمات أدبية وثقافية مستقلة كانت موجودة قد تم إلغاؤها. وجعل صدام كل الإنتاج الفني، بما في ذلك الموسيقى، تحت السيطرة الصارمة وأخضعه لرعاية الدولة. «بالنسبة لأولئك الذين يتماشون معه»، كتب أحد الناشطين في حقوق الإنسان في العراق في عام ١٩٨١، «كانت هناك مكافآت ممتازة... ولأول مرة في تاريخ العراق يمكن أن يوجد الشعراء من بين القلة من الأثرياء». إلاّ أن ثمن ذلك التماشي كان في «أن تكتب شعرا للمناسبات الرسمية والاحتفالات، مادحا حزب البعث الحاكم وقيادته... مغنيا بإفراط بمدائح صدام». وغالبا ما يؤدي الفشل في تنفيذ أوامر صدام إلى السجن والتعذيب، وكالعادة ينتهي بموت المئات من الكتّاب والمثقفين العراقيين.[٣٠] وبينت عريضة وقعها مثقفون عرب ونشرت في صحيفة السفير اللبنانية في ديسمبر في عام ١٩٨٦ أنه في العراق «أُخضع أكثر من ٥٠٠ كاتب ومفكر مبدع للمساءلة والتعذيب لانتزاع اعترافاتهم أو لإجبارهم على تعديل أفكارهم».[٣١]

وبسيطرة الحكومة على السلطة القضائية ووسائل الإعلام مباشرة، فإن التعويض الوحيد المفتوح للمدنيين العراقيين كان من خلال صفوف حزب البعث. ولكن بوجود قوى صدام الأمنية التي تراقب كل نشاط، فإن النقد الوحيد الذي كان مسموحا به هو ذلك الذي يمجد منجزات القيادة العراقية. وقد نظّم البعث وفق مبادئ الماركسية-اللينينية الكلاسيكية للسلطة والنظام، وفي الوقت الذي تسلم فيه صدام السلطة أصبح

البعث دولة داخل دولة. ولدى البعث مرافقه التدريبية الخاصة أو «مدارس الإعداد الحزبي» حيث يذهب الأعضاء الشباب لدراسة الأيديولوجيا والاقتصاد والعلوم السياسية. وقد رعى الحزب «المكاتب» التي كانت تدار بشكل متواز مع دوائر الحكومة لضمان الامتثال والولاء للمبادئ البعثية. وكلفت مكاتب أخرى بتنظيم وتلقين مجموعات رئيسة من العاملين، كالعسكريين والعمال والفلاحين والمحترفين. واضافة إلى الجيش، فإن مهنة التعليم كانت هدفا رئيسا للتطوع في حزب البعث لأن البعثيين كانوا عازمين على ضمان مواصلة تلقين الشباب العراقيين. وفي عام ١٩٧٩ طلب من جميع المعلمين الانتماء إلى الحزب، وأما الذين رفضوا، أو الذين ظنّوا بأنهم غير كفوئين لذلك فقد أطلقت النار عليهم. وأدار الحزب الميليشيا الخاصة به، أي الجيش الشعبي، كقوة مقابلة للمؤسسة العسكرية، والتي بالرغم من كافة التطهيرات التي نفذت طوال تلك السنوات، ما زالت ينظر إليها بشك عميق من قبل البعثيين. وقد انجذب صدام بشكل خاص إلى مفهوم الجيش الشعبي وفي السنة الأولى من رئاسته تضاعف حجمه أكثر من ذي قبل من ١٠٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠ رجل.

ولخص الوضع في العراق تحت رئاسة صدام من قبل مجموعة من كتّاب المعارضة المعتدلين الذين يعيشون في المنفى، والذين سلموا مذكرة سلّمت إلى الأمم المتحدة:

«إن دكتاتورية صدام حسين هي واحدة من أقسى وأشد وأكثر الأنظمة تجرّدا من المبادئ الخلقية في العالم. إنه نظام شمولي، نظام الحزب الواحد المستند إلى عبادة شخصية صدام حسين. سيطر هذا الرجل وأسرته وأقاربه على الجيش النظامي والجيش الشعبي والشرطة وأجهزة الأمن. إن جميع وسائل الإعلام هي تحت السيطرة الصارمة لذلك النظام وليس هناك أية فرصة لحرية التعبير. فالتنظيم السياسي مقتصر على حزب البعث وعدد من التنظيمات الخنوعة وغير المهمة. لم توجد اتحادات للتجارة. والعضوية في أي حزب للمعارضة تكون عقوبتها الموت. وأي انتقاد للرئيس تكون عقوبته الموت كذلك. والتعذيب هو المعيار. والنظام الأمني قوي ومتكامل من كل النواحي ويتمتع بسلطات غير محدودة».

وفي عام ١٩٨٠ كل مؤسسة حكومية، وكل دائرة حكومية، وكل جانب عام أو خاص، وكل مسعى فردي إنما وجدت ببساطة من أجل تمجيد إنجازات صدام حسين. وكانت المحاولة المتعمدة لصدام لتطوير مكانة عبادة الشخص في العراق تمضي قدما منذ منتصف السبعينيات. ولكن بعد إن تسنم منصبه في القصر الرئاسي، اتخذت عبادة

صدام حياة من نوع خاص. إن عبادة القائد تحت حكم صدام تجاوزت أي شيء يرى في مكان ما في العالم العربي أو أبعد من ذلك، باستثناء ممكن في كوريا الشمالية. إن تمجيد الرئيس العراقي أصبح أحد المشاريع الرئيسة للصحافة في القطر والإذاعة والتلفزيون، وتطورت الصناعة الخصبة لتصنيع البوسترات، والصور والتماثيل الأخرى «لأب» الثورة. واستوقف الصحفيين الأجانب الذين تمت دعوتهم لتغطية «انتخابات» المجلس الوطني في ١٩٨٠ عدد بوسترات صدام التي زينت مكاتب أكثر المسؤولين العراقيين. وكانت الصحف تحمل في كل يوم صورة للرئيس صدام على صفحاتها الأمامية، بصرف النظر عن وجود قصة تنسجم معها. وفي أوائل الثمانينيات تم تأليف مائتي أغنية تملقا لصدام. وفي كل ليلة كانت تبدأ أخبار المساء بما يسميه العراقيون «أغنية صدام» والتي كانت تقدم على خلفية جنود منتصرين وفرقعات متفجرة من قبل شخص يهزج مبتسما:

يا صدام يا منتصرا لنا
يا صدام يا حبيبنا،
أنت تحمل فجر الأمة
بين عينيك.
يا صدام، كل شيء يكون طيبا
معك.
الله، الله، نحن سعداء
صدام يضيء أيامنا.

وبالنسبة لأولئك الذين تجرّأوا على معارضة صدام كان هناك إرهاب مؤسساتي في مكاتب التعذيب، وبالنسبة لأولئك الذين رحبوا به كان هناك وعد «بحصتهم» في انتصار ونجاح عراق صدام حسين. وكل عمل كانت تنفذه الحكومة كان يعلن عنه بأنه مبادرة من مبادرات صدام الشخصية. وابتكر صدام بذكاء إغراءات مادية متنوعة ليزيد من شعبيته، مثل منح علاوات إلى مجموعات منتقاة من العمال، وكذلك القوات المسلحة. وكان صدام يقوم دائما بزيارات مفاجئة إلى المعامل والمدارس والمستشفيات والمزارع، وتلك الأحداث تصور كاملة وتعرض على شاشة التلفزيون العراقي. وسميت أماكن شعبية عديدة باسمه، وفي ذلك الوقت كانت تكتب سير حياته المصرّح بها، والتي أولت اهتماما خاصا لتمجيد أعماله في شبابه، كتورطه في محاولة

الاغتيال الفاشلة التي استهدفت الزعيم قاسم في ١٩٥٩ وحتى في تلك الفترة المبكرة من رئاسته كان لدى صدام إحساس متنام للغاية حول مصيره الخاص. وقد أخبر أحد كتّاب سيرته بأنه كان لا يعنيه كثيرا ما يفكر فيه الشعب في ذلك الوقت بل «ما سوف يقوله الشعب عنا في الخمسمائة سنة من الآن».[٣٢] وكرست طبعة خاصة من صحيفة الجمهورية البغدادية لقصة حياته، وخصص معرض دائم لحياته أقيم في بغداد. وظهر الكثير في الصحافة العراقية عن إخلاص صدام لأسرته، وانشغاله اليومي مع أطفاله. وعلم العراقيون عن هواياته كصيد الأسماك والبستنة. وفي كل شيء كان يتحدث به ويعمله قدم صدام نفسه نموذجا لجميع العوائل العراقية. والهستيريا المحيطة بصدام شقت طريقها مباشرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عندما استصدر المروجون له، من أجل الاحتفال بعامه الأول كرئيس، إعلانا في نيويورك تايمز حول السابع عشر من تموز ١٩٨٠ وزعم الإعلان أنه تحت قيادة صدام أصبح العراق على حافة تكرار «أمجاده السابقة» وشبه صدام بقادة العهد الإسلامي الأول، الخلفاء العباسيين المنصور وهارون الرشيد.

ونجح التلقين. فالدبلوماسيون الغربيون الذين أقاموا في العراق في تلك الفترة كتبوا في تقاريرهم بأنه، بالرغم من أن معظم العراقيين كانوا يعون تماما التكتيكات المستبدة للقوى الأمنية، كان صدام قائدا شعبيا بالفعل. «على مستوى المجتمعات المحلية كان يحظى بقدر كبير من الدعم الشعبي»، كما ذكر سفير سابق في بغداد. «كان يقوم بزيارات مرتجلة إلى المدن الجديدة التي بنيت في كافة أرجاء العراق. وتحسنت نوعية الحياة بشكل غير محدود بالنسبة لكثير من الشعب. كانت هناك المدارس والعيادات والطرق والماء والكهرباء، وكان ذلك بضاعة رائجة جدا مع الفلاحين العراقيين البسطاء. وظاهريا بدا كل شيء جيد جدا، وكانوا يقدرون كثيرا ما أنجزه صدام لهم».[٣٣] والعراقيون الذين أرادوا أن يظهروا تقديرهم لقائدهم خلال تلك الزيارات المفاجئة كانوا بحاجة إلى أن يكونوا متيقظين لكل طارئ، وبعد أن أصبح رئيسا بدأ حراس أمن صدام باستخدام الهراوات والقضبان الكهربائية على الناس الذين كانوا يقتربون من الرجل الذي منحته وسائل الإعلام ألقاب «فارس العراق، القائد، المناضل وابن الشعب».[٣٤]

إن الإعداد المؤكد لعبادة شخصية صدام، والقدر المحدود من الزمن لرجل بمسؤوليات عدة استطاع بحصافة أن يكرسه لزيارة شعبه، نتج في واحدة من أكثر الصفات غرابة في رئاسته - ألا وهي تأجير الأشباه. وزعم منفي عراقي يدعى ميخائيل

رمضان بأنه عمل بديلا لصدام أكثر من عشر سنوات قبل ارتداده وتوجهه إلى الغرب. وقد أورد رواية مثيرة حول كيفية إحضاره إلى بغداد من قريته في جنوب العراق بفترة قصيرة بعد أن أصبح صدام رئيسا بعد ملاحظة رجال الأمن لأوجه الشبه القوية مع القائد العراقي. وأكد رمضان بأنه أُخذ لمقابلة صدام في بيته في بغداد، ولما رآه صدام لأول مرة، صعق لأوجه الشبه في خلقتهما مما جعله يتساءل بمزاح فيما لو كان أبوه قد تمتع بعلاقة غير شرعية مع أم رمضان. وبعد ذلك سأل صدام رمضان ما إذا كان راغبا في أن يمثله في بعض الارتباطات الرسمية للرئيس. «أعلم بأن الشعب العراقي يؤله الرئيس، لكن بمسؤولياتي تلك لا أمتلك الوقت الكافي الذي أود أن أقضيه مع شعبي. هل تقدم لي، وطبعا لشعب العراق العظيم خدمة جليلة وتحل محلي عند اقتضاء الحاجة؟»[٣٥] وافق رمضان وأُرسل للتدريب لشهور، حيث شرع بدراسة أشرطة فيديو تبين الحضور الشعبي لصدام قبل أن ينفذ هو نفسه ارتباطات بمستوى أدنى نيابة عن قائده.

وقد تطورت طبيعة الحياة بلا حدود بالنسبة لصدام وعائلته. احتل آل حسين القصر الرئاسي وأصبحوا يعتادون على زخارف الدائرة العليا. واستمر صدام في العمل من ست عشرة إلى سبع عشرة ساعة يوميا في مكتب صغير أقامه منفردا لنفسه في أراضي القصر. وكان صدام يرتدي بدلات أنيقة تجلب من الخياطين المفضلين لديه في بغداد وجنيف، وكانت هيئته شيئا من الطراز الأول. وزعم أحد رفاقه البعثيين السابقين بأنه امتلك أكثر من أربعمائة حزام. وبالرغم من حبه للحياة الراقية، بقي صدام تطهريًا حينما يتعلق الأمر بممارساته العملية. ويذكر الدكتور محمود عثمان، وهو سياسي كردي تفاوض مع صدام لعدة سنوات، كيف أنه زار القائد العراقي الجديد بعد انتقاله بفترة قصيرة إلى القصر الجمهوري. ورتب اللقاء في الساعة السابعة مساء ولما وصل وجد صدام لم يزل مرتديا بيجامته. لقد أمضى صدام الليل يعمل في مكتبه الصغير، واندهش عثمان لرؤيته سريرا عسكريا صغيرا في زاوية من الغرفة حيث كان ينام الرئيس العراقي. وبالقرب من السرير كان هناك اثنا عشر زوجا من الأحذية الثمينة، وضمت بقية المكتب الضيق مكتبة صغيرة لكتب عن ستالين. وعند رؤيته للكتب علّق عثمان «تبدو مولعا بستالين؟» وأجابه صدام بود «نعم أحببت الطريقة التي حكم بها بلاده». ولعل عثمان كان يدفعه حظه قليلا، وبعد ذلك سأل صدام ما إذا كان شيوعيا، وأجاب صدام على ذلك بصوت متسائل «ستالين شيوعي؟» من ذلك استنتج عثمان بأن صدام كان يعتبر ستالين قوميا أكثر منه شيوعيا.

في عام ١٩٨٠ كان عمر ولدي صدام، عدي وقصي، السادسة عشرة والرابعة عشرة على التوالي وكانا يدرسان في ثانوية الكرخ التي تخرّج منها صدام، وكانت تديرها زوجة صدام قبل أن يصبح رئيسا. ويستذكر زملاء سابقون بأن عدي كان صاخبا وسوقيا بينما كان قصي هادئا وماكرا. وكان الولدان يحظيان بمعاملة خاصة في المدرسة، ولا يجبران كبقية التلاميذ الآخرين على إطاعة القوانين. ويبدو أن عدي، وبشكل خاص، كان خارج السيطرة تماما. وكان يرافق الولدين، بطبيعة الحال، حراس أمن في كل الأوقات، وكان عدي غالبا ما يستفيد من حضورهما لكي يتصرف بوحشية. ويزعم تلاميذ سابقون بأنه كان شيئا مألوفا بالنسبة له أن يحضر إلى المدرسة وهو يلبس حزاما عريضا للكتف فيه جيوب للرصاص مليئة بالذخيرة الحية. كان مهووسا بالسيارات ويأمر حراسه للاستيلاء على أية سيارة تعود لأسرة أحد زملائه التلاميذ إذا ما أعجبته. وفي إحدى المناسبات كُسرت رجله وطلب من صفه أن ينتقل إلى صف آخر في الطابق السفلي. وبدأ يقلد عادة أبيه في تدخين السجائر. وقيل بأن اهتمامه الخرافي بالجنس الآخر نشأ منذ أيام المدرسة، ويُعتقد بأن البنات اللواتي كان يضرب موعدا للقاء بهن لم يكن لديهن خيار في الأمر.

وساجدة حسين التي التزمت بنفسها كثيرا بعيدا عن الأضواء خلال السنوات العشر لصعود زوجها إلى الرئاسة، قد كسبت ذوقا في الحياة الراقية. وفي عام ١٩٨١ أصبحت المعلمة السابقة والخجولة تستخدم الطائرة الرئاسية استخداما شخصيا للقيام برحلات تسوقية في الخارج. وقد قامت برحلة سرية إلى لندن من حاشية من عشرين صديقة حيث كانت تقضي معظم الوقت في هيرميس في شارع بوند (وزعم منفيون عراقيون بأنها كانت ترفع قيمة الفاتورة إلى ملايين الجنيهات). وبعد أشهر قليلة طارت ساجدة إلى نيويورك في طائرة بوينغ ٧٤٧ خاصة تعود ملكيتها للحكومة العراقية وذلك بصحبة أحد أبناء عمومتها وصهرها في المستقبل، حسين كامل المجيد، وحاشية تتكون من ثلاثين شخصاً. وفي تلك المناسبة عشقت كثيرا محلات «بلومنغديل»، حيث صرفت ثروة لملء خزانة ثيابها. وفي كل يوم كانت تمضيه في نيويورك كان صدام، الزوج المخلص، يتصل بها تلفونيا ليطمئن على راحتها وسير رحلتها.

الفصل الثامن

الجنرال

مكتبة الرمحي أحمد ٩٣

ما إن بزغ فجر الثاني والعشرين من سبتمبر١٩٨٠، حتى هاجمت عدة أسراب من الطائرات العراقية المقاتلة عشراً من القواعد الإيرانية، بما في ذلك المقاطعة العسكرية في مطار طهران الدولي. وكان هدفها تحطيم القوة الجوية الإيرانية على الأرض ولتهيئة الطريق للجيش العراقي للقيام بالغزو البري. وأنجز ذلك التكتيك بنجاح لامع الإسرائيليون في حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧، وصدام حسين، الرئيس العراقي الصاعد توا، الذي عيّن نفسه قائدا ميدانيا، كان واثقا بأن ذلك سيقود إلى نصر مؤكد لصالح قواته المسلحة. وخلال النهار قام الطيارون العراقيون بطلعات جوية طلعة إثر أخرى، مستخدمين طائرات الميراج الفرنسية التي حصلوا عليها حديثا لتدمير المطارات الإيرانية ومحطات الرادار المبكر. في البدء فوجئ الإيرانيون، وبعد ذلك نجحوا بشن هجوم مضاد وأمروا طائراتهم الأمريكية الصنع (أف ٤) لتنفيذ طلعات انتقامية ضد العراقيين، وفجروا مطارين عراقيين ودمروا أربعة قوارب للصواريخ تقع في الخليج. ودمر الإيرانيون أيضا مصنع إنتاج الغاز العراقي وعددا من المنشآت النفطية العراقية قرب الحدود الإيرانية -العراقية. ولم تثنه الروح القتالية للإيرانيين، فأمر صدام في اليوم التالي قادة دروعه ببدء الغزو البري لإيران. وعبرت ست فرق آلية من الجيش العراقي إلى إيران، مثيرة بذلك واحدة من أطول الصراعات وأكثرها دموية وأبهظها ثمنا منذ الحرب العالمية. وفي الوقت الذي وضعت فيه الحرب أوزارها بعد ثماني سنوات، كان ضحيتها أكثر من مليون شخص واندثرت تحت حطامها اقتصاديات اثنين من أثرى الشعوب النفطية في العالم.

والمسؤولية الكاملة لقرار غزو إيران، والذي دمر كل التقدم الذي أنجزه البعثيون في تحديث العراق، تقع تماما على صدام. وكانت العلاقات بين الدولتين الخليجيتين

في طريق تصادمي، خاصة بعد تسلّم آية الله الخميني السلطة. ومن أبريل ١٩٨٠ صعودا سجل عدد من المناوشات على طول الحدود المشتركة التي تبلغ ألف ميل بعد أن طلب الخميني علنا من المسلمين الشيعة في العراق أن يقوموا بثورة لإسقاط النظام البعثي. إن السبب الرسمي لتصعيد التوترات هو الصراع المستمر على ممر شط العرب. وبالرغم من أن اتفاقية الجزائر التي تم التفاوض عليها ما بين صدام والشاه في عام ١٩٧٥قد حاولت حل القضية، كان صدام دائما يشعر بأن العراق، الذي لم يكن في حينها في موقع تحدٍّ لجاره الأكثر قوة قد احتل المقام الثاني في الاتفاقية وبتغيير النظام في طهران، وجد صدام فرصة لتعديل الاتفاقية في صالح العراق، ذلك التحرك الذي قاومه الإيرانيون بقوة. واستمرت العلاقات ما بين البلدين بالتدهور إلى الحد الذي خاطب به صدام في السابع عشر من سبتمبر الجلسة الطارئة للمجلس الوطني الذي أُعيد إلى وضعه السابق حديثا والذي أعلن به من طرف واحد إلغاء اتفاقية الجزائر ملقيا باللائمة على «الانتهاكات الإيرانية المتكررة والصاخبة للسيادة العراقية». وصدام الذي كان يتحدث ببطء، مؤشرا بأصبعه بين الفينة والأخرى لمزيد من التأكيد، ترك الحاضرين في شك قليل حول نواياه. وصرح قائلا «هذا النهر ينبغي أن يستعيد هويته العراقية-العربية كما كان في التاريخ».[1] بعد خمسة أيام أصبح العراق في حرب مع إيران.

وبالرغم من النجاحات العديدة التي حققها في صعوده القاسي للحكم من خلال صفوف حزب البعث، كان صدام غير مؤهل لأن يكون قائد حرب. إنّ جميع أنواع الزيّ العسكري والألقاب ومراتب الشرف التي أسبغها على نفسه - بما في ذلك لقب القائد الميداني - لم تكن لدى صدام أية خبرة عسكرية على الإطلاق، ومن المحتمل أنه لم يطّلع على كتاب عسكري، ولم يدرس أبدا النقاط الأبرز في الاستراتيجية والتكتيك. ولم يشترك أبدا في صراع مسلح. فضلا عن ذلك كان الطالب العاجز عن الحصول على الدرجات المطلوبة للدخول إلى الكلية العسكرية في بغداد يضمر ارتيابا عميقا مشتعلا بالغيرة، من الضباط العسكريين الناجحين وأفسد ذلك علاقاته مع القادة العراقيين طوال فترة الحرب. وللتعويض عن نواقصه الواضحة كقائد حرب، ضاعفت ماكنة الدعاية الصدامية من سرعتها لتصوره للشعب العراقي قائدا عاما جسورا.

كانت استراتيجية صدام في جوهرها تكمن في ضرب العمق الإيراني والتمسك بمنطقة كافية للعب مع إيران بورقة مقايضة للتفاوض على اتفاقية أفضل حول شط العرب. وصدام الذي نصحته مجموعة من جنرالات الشاه المنفيين في بغداد، أُخبر بأن

النظام الإيراني الجديد في حالة فوضى وأن بإمكانه أن يتوقع نصرا سريعا-ربما بغضون أسبوعين إلى ثلاثة. واستندت خطة الغزو إلى تمرين لأركان حرب أداره مرشدون عسكريون بريطانيون في كلية بغداد الحربية يعود إلى عام ١٩٤١ [٢] إضافة إلى تأمين الضفة الشرقية من شط العرب، كانت عين صدام على احتلال إقليم خوزستان الذي يقطنه العرب في إيران، على أمل أن يشعل ذلك الثورة في وسط الجماعات العرقية غير الفارسية. ولو تمكن من تحقيق تلك الأهداف ستكون له الفرصة السانحة التي تعجل بانهيار النظام الخميني.

في الأسابيع القليلة الأولى بدا العراقيون وكأنهم حققوا أهدافهم الحربية. فالفوضى التي أحدثتها الثورة الإيرانية، كما حسب صدام بالضبط، تركت مؤسسات البلاد العسكرية غير جاهزة للحرب، ويقينا إنها ليست بموضع الرد على اجتياح واسع النطاق. تقدم العراقيون سريعا، وسيطروا على العديد من المدن المهمة على طول الحدود الوسطى وأخضعوا للقصف المدفعي العنيف مدينة ديزفول التي تقع في الحقول النفطية الشمالية من إيران وخط المواصلات الرئيس ما بين طهران والجنوب. وفي الجنوب عبرت القوات العراقية نهر الكارون، متقدمة على عبادان، وبعد معركة شرسة تخلّلها قتال من بيت إلى آخر وإصابات كبيرة من الجانبين، سيطرت على خرمشهر في أواخر أكتوبر. والمدافعون الإيرانيون المسلحون بأسلحة خفيفة وبكوكتيل الملوتوف قاتلوا بتماسك وبحماسة منقطعة النظير، وتكبد كل طرف حوالي سبعة آلاف قتيل وإصابات بالغة الخطورة من الجرحى، وخسر العراقيون أكثر من مائة دبابة وناقلة مدرعة. وفي الوقت الذي اصبحت فيه خرمشهر بأيدي العراقيين في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر، أصبحت تذكر من قبل مقاتلي الجانبين «بخونستان» أي «مدينة الدم». واحتل العراق آنذاك شريط المنطقة الحدودية البالغة (٦٠٠ كم) طولا وامتد عرضا من (١٠ كم) في الشمال إلى (٤٠ كم) في الجنوب. إن قلة الخبرة العسكرية لدى صدام لم تمنعه من السيطرة المباشرة على المجهود الحربي بنفسه. وكما فعل هتلر، أعطى جنرالاته أهدافهم وأخبرهم متى يضربون. ومنذ بداية الحرب ذهب إلى الجبهة وأدار العمليات العسكرية من مواقع متقدمة. ولما كان يغامر قرب الخط الأمامي، كانت كل تحركاته تسجل بأفلام وتعرض على شاشة التلفزيون العراقي في وقت آخر من مساء ذلك اليوم نفسه.

ومع أن صدام كان يزعم بأن المرحلة الأولى من الحرب كانت ناجحة، إلاّ أنه كانت هناك علامات قلق في ذلك الوقت بأن الهجوم قد لا يحقق الأهداف المرجوة.

فالطلعات التي نفذتها القوة الجوية العراقية أنجزت القليل، وبقي الكثير من القوة الجوية الإيرانية فعالا وقامت بالرد على الضربات العراقية. واكتشف العراقيون بسرعة بأن أنظمة دفاعاتهم الجوية كانت غير فعالة. وبالرغم من أن الجيش الإيراني كان غير مستعد للقتال فإن الغزاة العراقيين دهشوا لضراوة المقاومة التي واجههم بها السكان المحليون. فالإصابات الكبيرة التي تكبدوها في هجوم خرمشهر كانت تعني بأن العراقيين كانوا غير قادرين على السيطرة على عبادان، الواقعة على عشرة أميال إلى الجنوب. وتلك انتكاسة خطيرة، لأن الفشل في السيطرة على عبادان كان يعني بأن العراقيين قد فشلوا في تحقيق أحد أهدافهم الرئيسة، أي احتلال الساحل الشرقي لشط العرب من أجل تأمين السيطرة على الممر المائي الاستراتيجي والكبير الأهمية.

في تلك الأثناء طلب صدام إيقاف الهجوم العراقي وأمر الجيش بأخذ وضع دفاعي. وكانت تلك أولى الحسابات الخاطئة الكثيرة لصدام والتي ارتدت ضده بقوة. وبحفر مواضعهم الجديدة هنا وهناك، كان العراقيون يرسلون إشارة إلى الإيرانيين بأنهم غير معنيين في مواصلة الهجومات إلى أبعد من ذلك وافترض صدام بأنه قد حقق مكاسب إقليمية كافية لإجبار الإيرانيين على مائدة المفاوضات. وبالمكاسب التي تحققت، قد يعتقد صدام بأن انهيار نظام الخميني كان وشيكا. بيد أن صدام أخطأ في قراءة الموقف تماما. إذ إن فشل العراقيين في السيطرة على ديزفول أو عبادان كان يعني بأن خطوط الاتصال الإيرانية بقيت سليمة، مما مكنهم من إعادة تجمعاتهم. وعلى الرغم من تكبد الخسائر الضخمة، فإن معنويات الجيش النظامي الإيراني وقوات الحرس الثوري غير النظامية، بقيت عالية. وبدلا من إضعاف نظام الخميني، منح الهجوم العراقي بكل بساطة الفرصة للعوامل القتالية في طهران في كسب السيطرة على النظام السياسي.

وكان على صدام أن يواجه حالا نقاط ضعف ستراتيجيته. ومن المدهش لأي شخص كان يبدي أحيانا احتراما كبيرا للحياة الإنسانية، أن يكون العدد الضخم للخسائر التي تكبدها العراق في الهجوم الأول - يعتقد بأن خمسة وأربعين ألفا من العراقيين قتلوا في أول شهرين من الحرب - قد أقنع صدام بعدم تكبد خسائر إضافية في مهاجمة عبادان. وكانت معنويات الجيش العراقي عاملا مجهولاً، ولما كانت أكثرية الجنود من الشيعة، لم يكن هناك أي ضمان لإخلاصهم عندما يوجّه لهم الأمر بمهاجمة رفاقهم الشيعة في إيران. وهناك الكثير من العراقيين الذي عارضوا الحرب مؤمنين بأن أهداف صدام يمكن بلوغها بوسائل أخرى. وعندما امتدت الحرب، بدأ

صدام يدرك ويبطء بأنه قدّر بشكل سيئ حجم التحدي الذي واجهه من بلد أكبر من العراق بثلاثة أضعاف. إذ إن قدرة العراق على إمداد خطوط الاتصالات الطويلة في العمق الإيراني والتي تتطلب امتصاص الخسائر الحتمية كانت أمرا مشكوكا فيه. ويرى المحللون العسكريون الغربيون بأن إصرار صدام على تنفيذ سيطرة مركزية من بغداد قد يوازي قدرة القادة المحليين على العمل، وساهم ذلك في فشلهم في التقدم والسيطرة على الأرض. فالمحدودية الاستراتيجية للعراق كانت عاملا في الحرب الجوية بشكل خاص. وباستثناء المنشآت في خوزستان، كان على القوة الجوية أن تخترق مئات الأميال في إيران لضرب أهداف رئيسة. وعلى القوة الجوية الإيرانية أن تقطع ليس أقل من مائة ميل عبر الحدود للوصول إلى الأهداف الرئيسة في العراق. ولستة أشهر في الحرب، تقبّل صدام نتائجها الاستراتيجية أخيرا عندما صرّح، «الجغرافيا عدونا».

إن التقدير الأكثر واقعية لفشل صدام في تحقيق أهدافه في الحرب هو أن الهجوم كان تعوزه الحماسة ويفتقر إلى الأهداف الواضحة. ونصف الجيش العراقي فقط - ست من اثنتي عشرة فرقة - كان منهمكا بالاجتياح الفعلي، ومنذ البدء أراد صدام أن تقتصر الحرب على تحديد أهدافه العسكرية ووسائله. وكان بشكل خاص حريصا على تجنب الخسائر المدنية الإيرانية، لأنه كان يأمل بأن يقنع الاجتياح العراقي بعض الشيء الشعب الإيراني على الثورة وإسقاط نظام الخميني. وفي الحقيقة ظهر أن دافع صدام الحقيقي هو إسقاط نظام الخميني قبل أن يسقطه نظام الخميني. ذهب صدام إلى الحرب مع إيران بينما كان يحاول في الوقت ذاته أن يرسل إلى الإيرانيين علامة بأنه لم يكن يرغب في حرب كاملة مع إيران. والموقف العراقي لخصه طارق عزيز ببلاغة، وهو الآن نائب رئيس الوزراء في نظام صدام. «إن استراتيجيتنا العسكرية تعكس أهدافنا السياسية. نحن لا نريد أن ندمر إيران أو نحتلها إلى الأبد لأنه بلد جار لنا وسنبقى مرتبطين معه براوبط جغرافية وتاريخية ومصالح مشتركة. ولذلك فنحن عازمون على تجنب أية خطوات نهائية».[٣] ثمة قليل من التساؤل كيف أن الإيرانيين كانوا حائرين تماما بالأهداف العراقية، وبقوا على إخلاصهم لحكومتهم.

ثمة عامل آخر قد يكون ساهم في فشل الحرب العراقية الخاطفة هو الزعم بأن الإيرانيين كانوا في حوزة الخطة الحربية العراقية لشهرين كاملين قبل شن الهجوم. وحسب ما ذكره الحسن بني صدر، الرئيس الإيراني السابق، والذي عيّن رئيسا لمجلس الدفاع الأعلى بعد الاجتياح العراقي مباشرة، بأن الخطة العراقية كانت تحتويها وثيقة تمكن من شرائها وزير الخارجية الإيراني من أمريكا اللاتينية بمائتي ألف دولار.

وأُعطيت تفاصيل خطة المعركة من قبل السوفيت إلى وسطاء من أمريكا اللاتينية، حيث اعتقدوا بأن العراق قد أُعطي الضوء الأخضر من الولايات المتحدة لاجتياح إيران. «كل شيء وقع كما هو مثبت في الوثيقة. كان هناك اجتماع في باريس. وكان في ذلك الاجتماع أمريكيون وإسرائيليون ومؤيدون للحكم الملكي الإيراني: وهناك تم إعداد خطة الهجوم». [٤]

وكانت النتائج الاقتصادية للحرب كبيرة بالنسبة للجانبين، ولكن بالنسبة للعراق أكثر من إيران. فقد دُمرت مصافي نفط عبادان إلى حد كبير مع العديد من مرافق ميناء بندر عباس. كما دمرت محطات الضخ في كل من الموصل وكركوك تدميرا كبيرا، وكذلك مجمّع البتروكيمياويات الضخم في البصرة. ونتيجة لذلك علّقت صادرات كلا البلدين من النفط ولما أعادوها كانت في مستوى منخفض جدا عمّا كان عليه قبل الحرب. ومع ذلك، وبما يخص الصادرات النفطية في زمن الحرب، كان لدى إيران أفضلية استراتيجية تتفوق بها على العراق وهي امتلاكها لآلاف الأميال الساحلية التي تتمتع بها في كل من الخليج الفارسي والمحيط الهندي. ومن ناحية أخرى، كان العراق محصورا في المياه بشدة لأن فشله في السيطرة على عبادان كان يعني بأنه قد فقد منفذه الوحيد إلى البحر.

والسنة التالية كانت الأسوأ بالنسبة لصدام عندما قام الإيرانيون أخيرا بشن هجوم بالمقابل في شهر مايو١٩٨١ على الجبهات الوسطى والشمالية، مجبرين القوات العراقية على الانسحاب من خرمشهر. وفي أكتوبر دفع الإيرانيون العراقيين عبر نهر الكارون وفي نوفمبر شن الإيرانيون هجوما جديدا استخدموا به استراتيجية جديدة مدمرة كان لها الأثر المرعب على الجنود العراقيين. واشترك في القتال مئات الآلاف من متطوعي الحرس الثوري غير المدربين جيدا والمسلحين بأسلحة خفيفة، والممتلئين حماسة دينية كبيرة. وبقيادتهم من قبل رجال الدين، أبدى المتطوعون عدم خوفهم من الموت، لأن النظام قد علّمهم بأن الجنّة للشهداء-وهو التكتيك ذاته الذي استخدمه فيما بعد المقاتلون الإسلاميون في فلسطين في الانتفاضة الثانية لإقناع المراهقين العرب ليصبحوا قنابل انتحارية. والجنود العراقيون كانوا مثيلا غير كفء لمثل ذلك الجيش من المتطوعين الإنتحاريين. وذكر أحد الضباط العراقيين لمراقب عسكري بريطاني كيف «أنهم جاؤوا إلينا كحشد خارج من الجامع في يوم جمعة. وأطلقنا النار فورا عليهم وقتلنا منهم، بعضهم التف بالأسلاك الشائكة، وآخرون متكومون على الأرض، وكانوا يدوسون على الألغام». [٥] وتحدث قائد عراقي آخر عن الفعل المربك الذي تركته

التكتيكات الإيرانية على جنوده. «كان رجالي في سن الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، أكبر بسنوات قليلة من أولئك الأولاد. رأيتهم يبكون، وفي بعض الأوقات كان الضباط يضربونهم ليحملوا بنادقهم. ولما رأينا الأولاد الإيرانيين وهم يمتطون دراجاتهم باتجاهنا، أخذ رجالي جميعهم يضحكون، وبعد ذلك بدأ أولئك الأولاد برمي رماناتهم اليدوية فتوقفنا عن الضحك وبدأنا إطلاق النار».[٦] ونجحت التكتيكات ولطوال مدة الهجوم كان العراقيون يندفعون إلى الخلف تدريجيا. وفي شهر ديسمبر سيطر الإيرانيون على مفترقات طرق مهمة، وخاصة الطريق الوحيد الذي يربط القاطع الجنوبي بأكمله. وطوال شهر فبراير فشل الجهد العراقي في استرجاع ذلك التقاطع، بالرغم من أن صدام ذهب بنفسه لكي يقود الهجوم المضاد. وفي نهاية مارس من عام ١٩٨٢ حقق الإيرانيون انتصارا مثيرا آخر، بدفعهم الجيش العراقي لثلاثين ميلا إلى الخلف وأسرهم خمسة عشر ألف عراقي. بيد أن النجاح العسكري الإيراني الأكبر جاء في مايو ١٩٨٢ عندما دفعوا العراقيين، بحملة دامت شهرا، من مواقعهم المتبقية واستعادوا السيطرة على مدينة خرمشهر وأسروا اثنين وعشرين ألفا من الجنود العراقيين.

والإشاعة التي انتشرت سريعا في بغداد خلال هجوم مارس بأن صدام كان قريبا من الوقوع في أسر الإيرانيين قاب قوسين أو أدنى. وبينما كان في سيارته حول مؤخرة الجيش، قرب الحدود العراقية، حوصر موكبه من قبل جنود إيرانيين كانوا لا يعلمون بوجود صدام. والقوة العراقية الوحيدة التي كان بإمكانها مساعدة صدام كان يقودها الفريق الركن ماهر عبد الرشيد، الرفيق التكريتي، وأحد أكثر المقاتلين العراقيين الأكفّاء. وبالرغم من أن رشيد لم يكن على وئام مع صدام لأنه ومنذ سنوات خلت كان قد رتب الأمر مع عشيرته لاغتيال عم الفريق خلال واحدة من حملاته التطهيرية. وقبل إنقاذ صدام، جعله رشيد يطلب المساعدة متوسلا وهو يقسم باسم قريبه القتيل. وتحت القصف الشديد وبارتماء أكوام من حراسه الشخصيين فوقه من أجل حمايته، ألقى صدام السلاح بطلب من الفريق. وأنقذ رشيد الرئيس المحاصر، وعلى الرغم من زواج ابنته فيما بعد من قصي ابن الرئيس، فإن الرجلين لم يتغلبا على نفورهما المتبادل. وقبل نهاية الحرب، قام صدام بوضع رشيد تحت الإقامة الجبرية في مزرعته قرب تكريت، حيث بقي هناك لسنوات عديدة.[٧]

وانهارت خطة صدام الحربية من حوله سريعا، ولو لم يجد وسيلة لمواجهة تلك النكسات، لواجه مشهد الإيرانيين وهم يثبون بهجوم لإزاحته. وكان صيف ١٩٨٢ من أكثر الفترات إحراجا في حياة صدام. ومنذ بدء الصراع فإن القرع المتواصل لطبول

ماكنته الدعائية جعل الأمر واضحا بأن تلك كانت حرب صدام: لو كان منتصرا، فالنصر نصره، ولو خسر الحرب فإن الهزيمة ستكون على مسؤولية صدام الشخصية. لكن فشل الإيرانيين في الرد على اعتداء العراق بالطريقة التي توقعها صدام كان مصدر خيبة كبيرة بالنسبة للقائد العراقي. وكان صدام في ذلك الوقت يرثي القيادة الإيرانية على أنها قد رفضت بحماقة أن تقوّم قواعد الحرب المتوقعة. وكان قد صرّح: «بالرغم من هزيمته العسكرية في عام ١٩٨٠، أصر نظام طهران على مواقفه العدائية ونزعاته التوسعية».[٨] وفي يونيو ١٩٨٢ استجاب صدام لتلك الانعكاسات بإعلانه ومن طرف واحد وقف إطلاق النار على أساس مشكوك في أمره كثيرا بأن العراق قد حقق هدفه في تحطيم مكانة إيران العسكرية. ولا تنطلي هذه الخدعة على أي أحد في العراق أو خارجه، خصوصا وأن الإيرانيين الذين هددوا بقلب الطاولات وينقلون الحرب إلى داخل العراق، بالهدف المعلن بالإطاحة بصدام حسين والنظام البعثي واستبداله بجمهورية إسلامية متصلبة، تماشيا مع تلك الخطوط المماثلة التي أقامها في طهران آية الله الخميني. في ذلك الوقت تمنى صدام لو أنه لم يقم بغزو إيران، خاصة من نقطة الصراع التي انحرفت إلى حرب إنهاك دموي، وهي تشبه كثيرا خنادق القتال في الحرب العالمية الأولى، حيث تكبد الطرفان خسائر ثقيلة من أجل كسب قليل ملموس.

وفي جوانب عديدة يمكن أن تُرى الحرب العراقية الإيرانية كحادثة أخرى في العداء الطويل الأمد ما بين الفرس والعرب من أجل السيطرة على الخليج. ويمكن إرجاع أصول الصراع إلى الغزو العربي الإسلامي لبلاد فارس في القرن السابع، والذي استمر، بمستويات متنوعة من القوة، حتى القرن العشرين عندما خدم اكتشاف احتياطيات النفط الهائلة في المنطقة لوحده في تكثيف الخلاف. وفضلا عن الاختلافات الثقافية التي تميز الشعبين - فالفرس والعرب لديهم لغتهم الخاصة وتراثهم الأدبي-كذلك كان عليهم أن يتنافسوا بمنافسة شديدة في تراثهم الإسلامي القدير. فالإيرانيون شيعة ولديهم شعور قوي بالسلطة الدينية، ولهذا السبب يكون الآيات، قادة الإسلام الشيعي ذوي سلطة مطلقة أو نفوذ غير محدود. والعرب المهيمنون، من ناحية ثانية هم السنّة، بتأكيدهم على القرآن والشرع الديني، يتمتعون بتركيبة دينية أكثر ديمقراطية. إن أحد الأخطاء القاسية في تكوين العراق المعاصر هو أن أكثرية السكان شيعة، بينما النظام الحاكم، من الملكية فصاعدا، كان يتكون من الزمر السنية، مثل تكريتيّي صدام.

ومنذ بداية الصراع كانت ماكنة صدام الدعائية سريعة في التنقيب عن النزاعات

التاريخية التي خلقتها قرون من الصراع. ورسم صدام خطوطا متوازية ما بين صراع اليوم مع إيران ومعركة القادسية في سنة٦٣٥ (هجرية) عندما ألحق الجيش العربي الأقل عددا هزيمة مخزية بالفرس، وأجبروهم على اعتناق الإسلام. وصدام الذي زعم بأنه يشترك مع صلاح الدين في الولادة بالمكان نفسه، ذلك المحارب الكردي العظيم الذي أخرج الصليبيين من الأرض المقدسة، يرى في نفسه الآن متعقبا أثر سعد بن أبي وقاص، القائد العربي الذي دحر الفرس. ورحب بالحرب مع إيران كقادسية ثانية. وأشارت وسائل الإعلام العراقية، بالتكرار الممل، إلى الصراع «كقادسية صدام حسين الجديدة». وشجع صدام المقارنات التي تُجرى بينه وبين الشخصيات الأسطورية في التاريخ، بما فيها الشخصيات التي سبقت العصر الإسلامي. إن امبراطورية بلاد ما بين النهرين القديمة العظيمة كانت تقع في المنطقة التي تشكل العراق الآن، ولدى صدام تعلّق خاص بنبوخذنصر، الملك البابلي الذي غزا القدس في عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وحطم الهيكل اليهودي، ودفع اليهود إلى المنفى بأنهار بابل.

إن اللوم في بدء الحرب، بطبيعة الحال، يقع على صدام. لقد حسب خطأ بأن إيران التي يعيقها الاندفاع الإسلامي، ستمكنه من الاستفادة من ضعف طهران ليقوّي ادعاء العراق بأن يكون قوة عسكرية مهمة في كل من الشرق الأوسط والخليج. ولكن إذا كان صدام مذنبا بالخضوع للعجرفة، فمن الممكن أيضا مناقشة الأمر على أن جانبا ما من الصراع كان حتميا حينما سيطر آية الله الخميني على إيران. ومنذ ولادة العراق والمجتمع المسلم الشيعي كان يعتقد بأنه أهل للكلمة الفصل في إدارة البلاد وكان أفراده في غليان دائم وذلك من أجل تطوير معيشتهم. إن انبثاق النظام المسلم الشيعي الخاص في إيران صعّد من الغليان لدى رجال الدين العراقيين، ومعظمهم كان على علاقة حميمة بالخميني خلال الأعوام الخمسة عشر التي قضاها في منفاه في العراق، وهو من دعا صراحة إلى إقامة جمهورية إسلامية في بغداد. وليس غريبا أن يرى صدام في الخميني تهديدا للنظام البعثي وتهديدا هائلا بالنسبة له. وفي جوهره كان النزاع بين صدام والخميني تباينا في الأيديولوجيات أكثر من كونه تصادما شخصيا، فالعراقيون يناصرون القومية العربية العلمانية وإيران تبشر بالثورة الإسلامية، وصدام والخميني يطالب كلّ منهما بسقوط الآخر.

وبصورة رسمية، فإن السبب الرئيس للحرب العراقية-الإيرانية هو النزاع على شط العرب، مع إن اهمال إيران للبروتوكولات الأخرى الخاصة باتفاقية الجزائر في عام ١٩٧٥ حث صدام على التحرك. وعملا ببنود الاتفاقية كان على كل من البلدين أن

براقب سياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للآخر والتنفيذ الصارم لجهاز قيادة الحدود. وبعد ثورة الخميني لم يعد الإيرانيون يحترمون أيا من تلك الشروط. إن غياب شرطة الحدود المناسبة مكن الثوار الأكراد من إعادة التسلح، وفي تموز ١٩٧٩ سمح لقادة الكرد الأساسيين، الذين كانوا يعيشون في المنفى، إن يعودوا إلى كردستان بواسطة الإيرانيين. واشترك القادة الأكراد في ذلك الوقت مع رجال الدين الشيعة في الدعوة إلى إسقاط النظام البعثي. وردا على ذلك جددت الحكومة العراقية دعمها للجماعات العربية المنشقة في إقليم خوزستان في شرق إيران.

ولإعطاء صدام حقه، فإنه قد بذل خالص جهده ليكون كريما تجاه الحكومة الإيرانية الجديدة بعد مجيئها إلى السلطة. وبعد تسلمه الرئاسة مباشرة أعاد اهتمامه بإقامة علاقات حميمة مع إيران «تقوم على الأحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية». وبالرغم من أن حديثه قوبل باستجابة سلبية من طهران، فإن صدام احتفظ بخطابه المتفائل. وأعلن بأن الثورة الإسلامية، أو أية ثورة أخرى تنحو إلى أن تكون إسلامية، «يجب أن تكون صديقة للثورة العربية» -أي الثورة التي قام بها البعثيون في بغداد. وصدام العلماني بطبيعته، بدأ يصلي بتكرار أشد، وكان ذلك الحدث يذاع كما ينبغي في التلفزيون العراقي. وقام صدام بسلسلة من المبادرات هدفت إلى استرضاء الشيعة العراقيين وآيات الله: وطلب من إذاعة بغداد أن تذيع مقتطفات من القرآن الكريم، وزار صدام كلاً من العتبات المقدسة الشيعية والسنّية، وجعل ميلاد الإمام علي عليه السلام، مؤسس التراث الشيعي، عيداً دينياً جماهيرياً، واستخدمت الرموز الإسلامية بتكرار أكثر. وحتى أن صدام قد تعهد بنفسه بأن «يقاتل الظلم بسيوف الأئمة» وفي الوقت نفسه كان يدعو «لإحياء القيم السماوية»[٩] وأصبح صدام العلماني صدام المسلم.

ومع ذلك بقي الملالي على عنادهم. وحتى قبل أن يصبح صدام رئيساً، كان رجال الدين المسلمون الأعلى مقاماً يعتبرونه هدفهم الرئيس. وبالعودة إلى عام ١٩٧٨، وبعد أن نفي الخميني إلى باريس، وعندما سُئل القائد الروحي لإيران في مقابلة معه بأن يذكر قائمة باسماء أعدائه صرح قائلاً: «أولاً: الشاه، وبعد ذلك الشيطان الأمريكي، ثم صدام حسين وحزبه حزب البعث الكافر».[١٠] وبعد استلام الآيات للسلطة ادعى حجة الإسلام صادق خلخالي، عضو القيادة الجديد بأن صدام كان يقف في طريق محاولاتهم لتصدير الثورة. «لقد اتخذنا طريق الإسلام الحقيقي وهدفنا بإيقاع الهزيمة بصدام كان يكمن في حقيقة الأمر في أننا نعتبره العائق الرئيس لتقدم الإسلام

في المنطقة». ومن يونيو ١٩٧٩ كانت طهران تحث الشعب العراقي ـ وخصوصاً الشيعة، الذين يؤلفون ٦٠٪ من السكان ـ على الثورة وقلب «النظام الصدامي».

واستمرت الحملة الإيرانية المعادية لصدام في الخريف. والحليف الرئيس للخميني في العراق هو محمد باقر الصدر، رئيس حزب الدعوة الشيعي المسلم في العراق، والذي صادقهُ في فترة منفاه في النجف. وكان الصدر شوكةً دائمة في خاصرة الحكم العراقي وقد سجن في مناسبات عديدة، كان آخرها خلال الاضطرابات الشيعية الدموية في عام ١٩٧٧ (أنظر الفصل السادس). والمشكلة الدائمة بالنسبة للبعثيين في الماضي هي أنهم لما كانوا يعتقلون الصدر ـ كما فعلوا في الأعوام ١٩٧٢، ١٩٧٤ و١٩٧٧ ـ كانوا ينجحون فقط في زيادة شعبيته. بيد أن الصدر الآن تجاوز الحد. فقد أعلن بأنه تقبل الخميني قائداً للشيعة بلا أي جدل، وبأنّه كان يعمل نائباً رسمياً لآية اللّه في إيران. إنّ أعمال الصدر الخيانية، بالارتباط مع التظاهرات المناوئة للبعث والمتكررة باستمرار في النجف الأشرف، كانت تحدياً لا يمكن لصدام أن يتجاهله. إنّ المواجهة ما بين صدام والصدر بلغت ذروتها في إبريل ١٩٨٠ عندما حاول أعضاء في حزب الدعوة الذي يرأسه الصدر، والذي اغتالَ عدداً لا يقدر من مسؤولي الحكومة في عام ١٩٧٩، أن يغتالوا طارق عزيز، نائب رئيس مجلس الوزراء في نظام صدام والعضو القيادي في مجلس قيادة الثورة. وجُرح عزيز نفسه جرحاً طفيفاً ولكن كان هناك عدد غير معروف من القتلى والجرحى. وبعد أيام قليلة أظهر إرهابيو حزب الدعوة تعصبهم وذلك بمهاجمة الموكب الجنائزي لتشييع أولئك الذين قتلوا في الهجوم الفاشل على عزيز، وأدى ذلك إلى المزيد من القتلى.

وكانت استجابة صدام، وكما هو متوقع، وحشيةً ومتصلبة. وإن زمن عمل مقترحات لآيات الله قد انتهى. «إن شعبنا مستعد للقتال من أجل حماية شرفه وقيادته، إضافة إلى المحافظة على السلام بين الشعوب العربية» صرّح بذلك. وجعلوا من عضوية حزب الدعوة جريمة عقوبتها الموت، جمّع صدام المئات من المعارضين الإسلاميين العراقيين ونفذ بهم حكم الإعدام. وأرسل بقواته الخاصة إلى النجف، حيث قامت باعتقال الصدر وشقيقته. وبتنفيذهم لأوامر إطلاق النار حد الموت، استطاعوا أن يتغلبوا على حراس الصدر وعادوا بالسجناء إلى بغداد. وهناك شك ضئيل في أن رجل الدين وشقيقته قد تم تعذيبهما على يد برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام ورئيس جهاز المخابرات العامة، قبل إعدامهما شنقاً وبالسر بعد محاكمةٍ قصيرة. ولم يصدر أي تسجيل لتلك المحاكمة أبداً. ولما وصلت أخبار الإعدامات

شنقاً إلى المناطق الشيعية الاستراتيجية في جنوب العراق، اندلعت اضطرابات واسعة النطاق، وتم إخمادها بقسوة على يد قوات أمن صدام. وقتل المئات واعتقل الآلاف، الذين لم تتم رؤيتهم مرةً ثانية. وأعاد صدام برنامج الطرد الجماعي الذي نفذ في عام ١٩٧٧، مجبراً ما يقارب خمسة وثلاثين ألفاً من العراقيين الشيعة على ترك بيوتهم وترحيلهم إلى إيران. وكان رد فعل الخميني شديداً لمّا علم بإعدام صديقه وزميله. «إن الحرب التي يريد البعث العراقي إشعالها هي حرب ضد الإسلام. وعلى شعب العراق وجيشه أن يديروا ظهورهم عن النظام ويسقطوه لأن النظام يهاجم إيران والإسلام والقرآن»[١١] ومنذ تلك اللحظة فصاعداً تصاعدت المناوشات الحدودية، وأصبح واضحاً أن البلدين كانا في تصادم سيؤدي حتماً إلى الحرب.

ولم يكن النزاع مقتصراً على بغداد وطهران تماماً. فالثورة الإيرانية لها تأثيرها الدرامي عالمياً، خاصة لما أصبح الثوار الإيرانيون مسؤولين عن حوادث كتلك التي عصفت بالسفارة الأمريكية في طهران في ١٧ ديسمبر ١٩٧٩، عندما أخذ حراس الثورة ستة وستين دبلوماسياً أمريكياً كرهائن. وفي السنة التالية فاضت التوترات المتصاعدة ما بين إيران والعراق على شوارع لندن عندما سيطرت مجموعة من ستة ثوار مؤيدين للعراق وهم من خرمشهر في إقليم خوزستان العربي في إيران على السفارة الإيرانية في شهر مايو واحتجزت الموظفين كرهان. وأنهي الحصار عندما قامت وحدة من النخبة من جنود الإنقاذ البريطانيين باقتحام السفارة بعدما قتل الإرهابيون أحد الرهائن. ونجمت العملية عن مصرع خمسة من الإرهابيين وبقي واحد على قيد الحياة. ولكن في الوقت الذي حوكم فيه ذلك الشخص في محكمة أولد بايلي في لندن في ١٩٨١، كانت خرمشهر تحت السيطرة العراقية. وبعد ذلك تلقى حكماً بالسجن مدى الحياة بعدما حوكم بتهم إرهابية. واتضح فيما بعد بأن العملية كلها قد نسجتها المخابرات العراقية، وأنّ الإيرانيين المسلحين قد تم تدريبهم في العراق، وكذلك حصلوا على جوازات سفر مزورة من مدربيهم العراقيين.

المواقف اليائسة تتطلب في بعض الأحيان علاجات يائسة، ومع عدم وجود نهاية وشيكة للحرب المدمرة بازدياد مع إيران، أقدم صدام على مقامرة متسرعة حيث إنه كان يأمل بأنه سيقنع أخيراً القوى العظمى بالتدخل وإيقاف القتال. وفي صيف ١٩٨٢ كانت حكومة بيغن في إسرائيل تعد العدة لتشن هجوماً على لبنان يهدف إلى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. وبوعيها لذلك، كانت منظمة التحرير الفلسطينية التزمت أفضل حالات ضبط النفس لكي لا تعطي للإسرائيلين الحجة في شن الهجوم.

وفي ذلك الحين وفي مساء الثالث من يونيو ١٩٨٢ نفذت محاولة اغتيال استهدفت شلومو آرغوف، السفير الإسرائيلي في لندن، عندما غادر فندق دورشستر، حيث كان يتحدث عن الوضع الراهن في الشرق الأوسط. أطلقت النار على آرغوف وجرح جرحاً بليغاً، لكن السلطات البريطانية نجحت في محاصرة منفذي الاغتيال. وكشفت التحريات البريطانية أن الرجال المسلحين الثلاثة الذين اشتركوا في إطلاق النار هم أعضاء في المنظمة الإرهابية التي يترأسها أبو نضال، والتي لم يزل مقرها في بغداد. وكان أحد المسلحين من أقارب أبي نضال بينما كان الرجل الذي رتب الهجوم عقيداً في المخابرات العراقية. واكتشف أيضاً أن معظم الأسلحة المستخدمة في العملية قد جاءت من الملحقية العسكرية في السفارة العراقية في لندن(١٢)

والأمر غير الوارد، بطبيعة الحال، هو أنّ الهجوم وقع دون علم صدام ـ ولم يزل أبو نضال على اتصال منتظم بمكتب صدام الخاص وكان يعتمد إلى درجة كبيرة على رعاية صدام. وكل من صدام وأبي نضال كانا يدركان تماماً ما ستكون عليه النتائج المحتملة لمحاولة اغتيال السفير الإسرائيلي، ليس مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الإسرائيلي، ولا أريل شارون وزير دفاعه من النوع الذي يجلس مكتوف اليدين وينتظر في الوقت الذي كانت فيه السلطات البريطانية تحاول معرفة من المسؤول عن إطلاق النار. وفي أذهانهم أن الشبهات لا بد أن تكون مرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية بشكلٍ أو بآخر، وأنّ محاولة الاغتيال وفرت لهم الذريعة التي كانوا يبحثون عنها. وفي صبيحة السادس من يونيو ١٩٨٢، أمر بيغن الجيش الإسرائيلي باجتياح لبنان. وفي العاشر من يونيو أعلن صدام وقف إطلاق النار مع إيران من طرف واحد، وأمر جنوده بالانسحاب من الجيوب الصغيرة في المنطقة الإيرانية التي ما زالوا يحتلونها. واقترح بأنّ على إيران والعراق أن يستفيدا من وقف إطلاق النار لتحويل مواردهما لمساعدة الفلسطينيين في الدفاع عن أنفسهم ضد العدوان الإسرائيلي. وبالرغم من أنّ صدام قد نجح في بدء حرب شرق أوسطية جديدة ليأسه من تخليص نفسه من الصراع مع إيران، فإنّ الحيلة كانت فشلاً ذريعاً. وفي الرابع عشر من تموز رفض آية الله الخميني عرض صدام وقف إطلاق النار وشنّ هجوماً جديداً ضد العراقيين. ومن وجهة نظر الخميني، كانت تلك حرباً ضد الموت.

ولم تكن محاولة الاغتيال التي استهدفت آرغوف الإجراء اليائس الوحيد الذي كان به صدام مهيئاً لأن يتأمل نهاية للحرب. وفي الوقت الذي أصبح جلياً أن إيران لم تهزم بسهولة، كان صدام حريصاً أكثر من ذي قبل على استخدام الأسلحة غير التقليدية

والمتنوعة. وكالعادة، فإن صدام كان مهتماً بمشروع البحث الذري بشكل خاص. وقبل بدء الحرب، كان صدام قد وعد بأنّ المفاعل سيكون جاهزاً لإنتاج مادة الأسلحة في يوليو ١٩٨١ وبالرغم من استجابة الفرنسيين للضغوط الدولية، إلا أنهم ما زالوا ماضين في تزويد صدام باليورانيوم المخصب الضروري في تشغيل مراكز مفاعل تموز، وفي يوليو ١٩٨٠ كانت الشحنات الأولى قد وصلت إلى التويثة في ضواحي بغداد حيث أقيمت منشأة البحث الذري. وكان العراق منهمكاً أيضاً في بحث واسع النطاق عن اليورانيوم. فتم الحصول على مائتين وعشرين طناً من البرتغال في عام ١٩٨٠، ومائتي طن إضافية من النيجر. وبوضوح كان صدام يأمل بأنه سيستخدم القنبلة الذرية إما في أواخر ١٩٨١ أو في بداية ١٩٨٢، وإذا نجح علماؤه في مهمتهم، فهناك شك ضئيل في أنه سيستخدمها ضد إيران. ولما جدّد صدام مؤخراً جهوده في الحصول على القدرة النووية في الثمانينيات، أصدر جهاز المخابرات السرية البريطانية (SIS) تقييماً على أنه إذا نجح العراقيون في إنتاج السلاح النووي، فمن المحتمل جداً أن صدام سيستخدمه ليوصل الحرب مع إيران إلى نهايتها السريعة[١٣]

ومع ذلك، فإنّ آمال صدام في الحصول على ترسانة نووية، أحبطها الإسرائيليون، الذين كانوا فرحين بقائمة أهداف صدام لو أكمل العلماء العراقيون بنجاح تطوير القنبلة الذرية المحلية. وبتدمير مراكز المفاعل على نحو خطير، وجهت المسؤولية إلى العملاء الإسرائيليين في يونيو ١٩٨٠ بسبب اغتيال عالم الذرة المصري المولد يحيى المسعد في فندق باريس، والذي كان قد تطوع للعمل في البرنامج النووي العراقي. ولم تُثن تلك النكسات صدام الذي أصرّ على الاستمرار في تطوير مفاعل تموز. «من يعادينا عليه أن يعلم بأن الأمة التي يعاديها اليوم ستكون مختلفة بعد خمس سنوات»[١٤] والضربة التالية التي استهدفت برنامج صدام المحبّب جاءت بعد ثلاثة شهور، في الثلاثين من سبتمبر، بعد أن غزا صدام إيران بفترة قصيرة وبعد أن سلّم الفرنسيون الشحنة الأولى من اليورانيوم المخصب، عندما شن الإيرانيون غارةً جوية مفاجئة على التويثة. فشلَ الهجوم، ولكن في السابع من يونيو ١٩٨١، أكمل الإسرائيليون ما فشل الإيرانيون في تحقيقه، عندما هاجمت القوة الجوية الإسرائيلية بالقنابل المصنع بنجاح، قبل أن يصبح جاهزاً للتشغيل بشهر واحد فقط. دمر المفاعل تماماً، على الرغم من أن معظم اليورانيوم المخصب، الذي تم خزنه في قناة عميقة تحت الأرض، بقي دون أن يمس، وذلك مكن صدام من استئناف مشروع الأسلحة النووية الأثير لديه في وقت آخر.

وحتى بعد النكسة الكارثية، لم ينثن صدام عن عزمه في الحصول على ترسانة أسلحة الدمار الشامل. وتحدث صدام في خطابه السنوي بمناسبة ثورة البعث معلناً: «لن نخضع للعدوان الصهيوني ولن نحيد عن الحرب التي اخترناها»[١٥] وهو كذلك استغل الفرصة بإجراء مقابلة تلفزيونية نادرة مع باربارا والترز من شبكة الأخبار الأمريكية A. B. C والتي زعم فيها بأن إسرائيل أرادت «أن تبقي العرب في حالةٍ من التخلف لكي تكون قادرة على السيطرة عليهم واضطهادهم».

وفي الوقت الذي كان على المشروع النووي أن يركن، حقق صدام المزيد من النجاح في محاولاته للحصول على الأسلحة البيولوجية والكيماوية. وكان الشغل الشاغل لصدام هو الحصول على الأسلحة الاستراتيجية التي بإمكانها أن تُنزل ضربة مدمرة بالأعداء مثل إيران وإسرائيل. إنّ الكثير من المخططات لمصانع الأسلحة الكيماوية التي كانت مخفية في خطة العراق الخمسية من قبل عدنان الحمداني بقيت كامنة. وفي أعقاب الهجوم الإسرائيلي المدمر الذي استهدف مفاعل تموز، أعاد صدام نصب تلك المشاريع وأمر علماءه بمعاودة مضاعفة جهودهم لتطوير الأسلحة البيولوجية والكيماوية. وفي ذلك الوقت ساندتهم في مساعيهم شركات متنوعة من ألمانيا الغربية والتي عملت في السنوات القليلة التالية، جنباً إلى جنب مع الكيمائيين العراقيين، والمهندسين الباليستيين، والعلماء النووين وذلك لتطوير واحدة من أكثر ترسانات الأسلحة غير التقليدية المتنوعة المنتشرة في العالم. والسيناتور الأمريكي جسي هلمز الذي أمضى جهاز مساعديه أشهراً يتابعونها، سمّوا تلك الشركات وجماعاتها «فيلق صدام الأجنبي»[١٦] وإنّ ذلك «الفيلق الأجنبي» من الشركات الألمانية أصبح مسؤولاً بصورة رئيسة عن بناء مجمّع سلمان باك العسكري في طريق الصويرة التي تبعد ثلاثين كيلومتراً إلى جنوب بغداد، قرب الموقع التاريخي لطاق كسرى. وابتدأ العمل في المصنع في أواخر ١٩٨١، بالرغم من ادعاء العراق بأنه كان مشروعاً «جامعياً»، ولما أكمل بعد سنتين أصبح أول مصنع لغاز الأعصاب تابع لصدام[١٧] وكانت الشركة الألمانية مسؤولة أيضاً عن بناء المصنع الرئيس للأسلحة الكيمياوية العراقية في سامراء. والتفسير الرسمي هو أن مصنع سامراء منوط بكيان عراقي وجد حديثاً، هو مؤسسة الدولة لإنتاج المبيدات وذلك للمساهمة في تطوير الإنتاج الزراعي. ومع ذلك فإنهم رأوا في ذلك زعماً مفترضاً، فالألمان ساعدوا العراقيين على إنشاء ستة خطوط منفصلة لتضنيع الأسلحة الكيمياوية في سامراء تسمى: أحمد، عاني، محمد، عيسى، مدى، وغازي. وأكمل الأول في عام ١٩٨٣، والأخير في عام ١٩٨٦ وتلك المصانع قامت

بصنع كل شيء من غاز الخردل ومن الأسيد البروسي إلى مركبات غاز الأعصاب سارين وتابون. وبالكفاءة الألمانية النموذجية، صمم المصنع، وأخذت السموم من «مفاعل» الإنتاج إلى مصنع تعبئة تحت الأرض، حيث تُعبّأ هناك في قذائف المدفعية، الصواريخ وذخائر أخرى. وفي الوقت الذي تم فيه العمل في المجمّع، استطاع العراق بأن يفتخر بأكبر مصانع تصنيع الأسلحة الكيمياوية في العالم[١٨] وكإجراء احترازي أنشئ مصنع أسلحة كيمياوية ثالث في الصحراء العراقية في الرطبة قرب الحدود السورية. لم يهدر العراقيون الوقت بالتفاخر في قدرتهم الجديدة، وفي إبريل ١٩٨٣، أعلن مجلس قيادة الثورة إنذاراً صريحاً إلى الإيرانيين بأنّ العراق أصبح الآن مسلحاً «بأسلحة حديثة، ستستخدم لأول مرة في الحرب»، وتلك «لم تكن مستخدمة في الهجومات السابقة لأسباب إنسانية وأخلاقية». وفي محاولةٍ يائسة لتفادي أية هجومات إيرانية أخرى، استمر الإنذار معلناً «لو أنكم تنفذون أوامر الخميني سيكون موتكم مؤكداً لأننا في ذلك الوقت سنستخدم سلاحاً يدمر كل مخلوق يتحرك في الجبهات»[١٩]

ولم تكن ألمانيا البلد الغربي الوحيد الذي ساند صدام في الحرب ضد آيات الله. وشعر الفرنسيون بالغضب إثر الغارة الإسرائيلية على مفاعل تموز، وتعهدوا على الفور بإعادة بنائه. والرئيس الفرنسي الجديد، فرانسوا ميتران، قد أحاط نفسه بوزراء مساندين للحرب وكانوا يريدون تعويض ما اعتبروه ميلاً إلى جانب إسرائيل. والسرب الأول من طائرات الميراج F1 قاذفات القنابل ـ المقاتلة التي اشتراها صدام خلال مفاوضاته مع جاك شيراك سلم إلى بغداد في فبراير ١٩٨١ ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، واصلت طائرات الميراج الجديدة وصولها إلى بغداد بمعدل طائرتين في كل شهر. ومع الشلل الذي أصاب معظم القوة الجوية الإيرانية التي بنتها أمريكا وذلك بسبب حصار الأسلحة الأمريكي المفروض على طهران، فإن القاذفات ـ المقاتلة الجديدة شكلت مساهمة مهمة في المجهود الحربي العراقي. وفي شهر فبراير ١٩٨٢، اختتم الرئيس ميتران الصفقة الفرنسية الجديدة مع بغداد والتي بلغت ٢,٦ مليار دولار. ولا يمكن أن ننسى أنه في سبتمبر ١٩٨٠، بأيام سبقت غزو العراق لإيران، وقع الإيطاليون صفقة بلغت ٢,٦ مليار دولار لتزويد صدام بأسطولٍ جديد بُني لهذا الغرض تقريباً.

وعكست صفقات الأسلحة الجديدة عزم صدام على أن لا يكون معتمداً على مورّد واحد، الفلسفة التي استمدها من الصعاب، وخبرها مع السوفيت عندما كانوا

مورّدي الأسلحة الرئيسين للعراق في أوائل السبعينيات. وفي بداية القتال مع إيران، أثبت السوفيت مرة أخرى أنهم غير جديرين بالثقة كحليف لبغداد عندما علّقت موسكو جميع شحنات الأسلحة. والموقف الرسمي للاتحاد السوفيتي هو أنّ موسكو كانت تريد أن تحافظ على حياديتها في الصراع، بينما بشكل خاص أراد ليونيد بريجينيف أن يعاقب صدام لاستمراره في معاملتِهِ المرعبة للشيوعيين العراقيين[٢٠] وكان هناك انزعاج في موسكو حول محاولات صدام نتيجة تقربه من الغرب، ذلك التطور الذي فسّره السوفيت كتهديد لخططهم في توسيع نفوذهم في منطقة الخليج. وهذا قد يوضح الادعاء (أنظرالفصل السابق) بأنّ السوفيت كانوا يزوّدون الإيرانيين سراً بخطة غزو العراق. وقد أصرّ أبو الحسن بني صدر، الرئيس الإيراني السابق الذي أشرف على السنوات الأولى للمجهود الحربي الإيراني، على أنّ السوفيت رتبوا لطهران لاستلام تفاصيل خطة الغزو بعد أن اكتشفوا أنّ صدام قد فتح حواراً سرياً مع واشنطن[٢١]

ورسمياً فإن الولايات المتحدة وبريطانيا حافظتا على سياسة الحياد تجاه الطرفين المتحاربين، ولكن كانت هناك إشارات واضحة أنّ كل من لندن وواشنطن كانتا تميلان بشكلٍ أفضل نحو بغداد أكثر من طهران. وكارتر، بشكل خاص، كان يائساً من أن يجد حليفاً ليساعده في تخليص نفسه من الموقف السياسي الذي سببته أزمة رهائن السفارة الأمريكية في طهران، والتي هددت بصورةٍ جادة فرص انتخابه لمرحلةٍ ثانية في خريف ١٩٨٠ ومع ذلك ما زالت واشنطن تضع العراق في قائمة الدول التي ترعى الإرهاب ولم تتمتع بعلاقات دبلوماسية كاملة منذ حرب الأيام الستة العربية ـ الإسرائيلية في ١٩٦٧، ومن منتصف ١٩٨٠ فصاعداً كان هناك تغيّر متميز في إدارة كارتر، الذي بدأ يعتبر صدام كثقل موازٍ موجود ضد آيات الله وكحليف من المحتمل أن يكون سداً منيعاً ضد التوسع السوفيتي في الخليج. وطبقاً للرئيس بني صدر ونيويورك تايمز، فإن رغبة كارتر لاكتشاف إمكانية التحالف السري مع صدام نتجت في لقاءٍ بالغ السرية جرى في عمان، عاصمة الأردن، خلال الأسبوع الأول من يوليو ١٩٨٠ بين زبغنيو بريجينسكي، مستشار الأمن القومي في إدارة كارتر، وصدام حسين. وحسب ما جاء في التايمز، فإن هدف ذلك الاجتماع كان مناقشة السبل التي يستطيع بها كل من العراق والولايات المتحدة من تنسيق نشاطاتهما «لمجابهة سياسات إيران المتهورة»[٢٢] وعلى الدوام كان بريجينسكي ومساعدوه السابقون ينفون بأنّ هناك لقاء حصل وجهاً لوجه، على الرغم من أنّ بريجينسكي قد التقى الحسين ملك الأردن، والذي أقنعته غريزته الحية مسبقاً بأن يصادق جاره وسميّه المستبد. ومن الممكن أنّ

مبعوثاً عراقياً رفيع المستوى كان حاضراً أيضاً. وكما هو الأمر في غزو العراق للكويت في السنوات العشر الأخيرة، فإن مختلف المسؤولين السابقين في إدارة كارتر، بما في ذلك غاري سك، مستشار الأمن القومي زعموا بأن الأمريكان قادوا صدام إلى التصور بأن العراق قد أعطي الضوء الأخضر لأن يغزو إيران في صيف ١٩٨٠ ويقيناً من تلك اللحظة فصاعداً كان هناك ذوبان ملحوظ في علاقات الولايات المتحدة مع بغداد. وفي حين استمر مجلس الشيوخ الأمريكي في منع أية محاولة لتصدير المعدات العسكرية إلى بغداد، إلا أن كارتر وافق في شهر يوليو على بيع خمس طائرات بوينغ للخطوط الجوية العراقية، وذلك هو العقد التجاري الأول بتلك الأهمية مع العراق منذ مجيء البعثيين إلى الحكم.

وفي صيف ١٩٨٢ فإن النصر الذي كم تمنى صدام إحرازه في «القادسية الثانية» أصبح وبسرعة ذاكرة بعيدة. إن الانقلاب المخيف في خطوط العراق في حرب تنبأ لها صدام أن تنتهي في غضون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فقط تطور، بينما وصلت الحرب إلى نهاية سنتها الثانية، إلى أزمة للقائد العراقي. وقدّر عدد القتلى مائة ألف، وآلاف الإصابات، والبقايا من قوة غزوه تتعفن في معسكرات الأسر الإيرانية، ولأول مرة في رئاسته بدأ البقاء الشخصي لصدام يصبح موضع تساؤل جاد.

والإشارة الأولى إلى تراجع شعبية صدام برزت في إبريل عندما نفذت محاولة اغتيال وزير الإعلام، لطيف نصيف جاسم. وكان المسلحون أعضاء في حزب الدعوة، الجماعة الشيعية المعارضة في العراق، ومع ذلك فإن محاولة الاغتيال نفسها كانت تتطلع إلى أبعد من الرغبة في الانتقام لإعدام قائدهم الصدر وشقيقته. وردّ صدام بطريقته المعهودة بتجميع المئات من الشيعة وأكثرهم لم تتم رؤيته مرة ثانية. وبعد أشهرٍ قليلة قام حزب الدعوة بمحاولةٍ خطيرة لاغتيال صدام نفسه عندما كان يزور قرية الدجيل في منطقة بلد في العراق، التي تقع على بعد حوالي أربعين ميلاً شمال شرق بغداد. وفي المعركة التي استغرقت أكثر من ساعتين حوصر الموكب الرئاسي مما اضطر الجيش إلى إنقاذه. قتل العديد من مرافقي صدام في الهجوم وقتل ثمانية من منفذي الاغتيال. وأطلق المنفذون على عمليتهم اسم أم الهدى تيمناً باسم شقيقة آية الله الصدر التي أعدمها صدام. وبعد أيامٍ قليلة تم ترحيل سكان الدجيل من منازلهم وأُسكنوا في مدينةٍ جديدة بينما دمر الجيش القرية نفسها. وحسب أحد التقارير، هاجمت القرية طائرات هليكوبتر وأسقطت قنابل النابالم. وبعد ذلك تم إرسال جرّافات إلى هناك وتحولت القرية إلى أراضٍ زراعية. وجاءت محاولة الاغتيال الفاشلة لتعطي

انطباعاً قوياً عن الأسلوب الذي كان صدام يدير بهِ رئاسته. وحتى ذلك الهجوم كان صدام معتاداً على المظاهر الارتجالية في أرجاء القطر كجزء من حملتهِ المستمرة لتقديم نفسه كأحد أفراد الشعب. ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يقم بالمزيد من تلك المظاهر الارتجالية.

ومنذ بداية الحرب حاول صدام جاهداً عزل الشعب العراقي عن واقع ما يجري على الجبهة. فقد تغذى سكان العراق على الطعام المستمر والمكرر بعض الشي للدعاية المساندة لصدام. ومن اللحظة التي يحدقون بها في صحيفة الصباح، خلال رحلتهم إلى العمل، وحتى المساء الذي تتجمع به الأسرة أمام التلفزيون، كان العراقيون يشاهدون وبشكل حتمي الحضور المحلّق «للرئيس المناضل». كانوا يرونه وهو يقف إلى جانب راجمة الصواريخ في الخطوط الأمامية للجبهة، أو يعانق بأبوةٍ الأطفال الصغار، وكرجل دولة يلتقي برؤساء الدول وكقائد عسكري يناقش الخطط الحربية. وصوّر صدام كبيروقراطي بارع في بدلةٍ تتماشى مع الموضة وكفلاح اعتيادي، يساعد الفلاحين في حصادهم والمنجل بيده. وانتشرت صوره في كافة أرجاء القطر إلى الحد الذي قسمت به نكتة شعبية سكان العراق البالغ عددهم ٢٦ مليوناً إلى: ١٣ مليون عراقي و١٣ مليون صورة لصدام[٢٣]

إضافةً إلى بقاء الاندفاع المستمر للدعاية في وسائل الإعلام التي تمتلكها الدولة في الثناء على القوات المسلحة والقائد في القطر، استخدم صدام ثروة النفط لضمان بقاء مستويات المعيشة في مستوى عال. وفي اندلاع الحرب روي عن صدام كثيراً قوله بأن العراق لديه مؤونة سنتين من جميع السلع الرئيسة[٢٤] وبدلاً من تركيز معظم موارد العراق على الجهد العسكري والتأكيد على قيمة التضحية كإيران، كان الرئيس العراقي يريد أن يبرهن لشعبهِ بأنه يستطيع أن يخوض الحرب ويحافظ على مناخ العمل في الوقت نفسه. إنّ خطط التنمية الطموحة التي استأنفت قبل الحرب مضت قدماً، وارتفع الصرف العام من ٢١ مليار دولار في عام ١٩٨٠ إلى ٢٩,٥ مليار في عام ١٩٨٢ وحصة الأسد في تلك الميزانية الضخمة صرفت على الواردات المدنية لمنع النقص في السلع. إنّ سياسة البنادق والزبد تلك كانت تعني بأنّ معظم العراقيين كانوا مستثنين نسبياً من الحرب الضروس التي تدور رحاها في ميدان المعركة. وبدلاً من ذلك كان البلد يدندنُ كثيراً من أجل متعةِ المقاولين الأجانب. فمشاريع البناء بكافة أنواعها، والتي بدأت قبل الحرب، استمرت بسرعة والنتيجة أن بغداد نُقلت وبسرعةٍ محمومة من مدينةٍ في القرون الوسطى إلى مدينةٍ عصرية. وإلى درجة كبيرة لم تتأثر

الحياة اليومية في العاصمة بالحرب. وفترات التعتيم التي فرضت في بداية القتال سرعان ما رفعت لما أصبح واضحاً أنّ القوة الجوية الإيرانية التي بنتها أمريكا أصبحت متضائلة، لاحتياجها الشديد لقطع الغيار بسبب الحظر الأمريكي، وأصبحت عاجزة عن توسيع الحرب إلى المناطق الاستراتيجية العراقية. وكانت معظم المواد الغذائية متوفرة بسهولة، ولم يكن لون الحداد الأسود بادياً كثيراً في شوارع بغداد.

وفضلاً عن الدرع الواقي فإنّ صدام قد عوّل على السكان المدنيين، واهتم كثيراً برعاية أولئك الذين انهمكوا بشكلٍ مباشر في القتال أو الذين تأثروا بالحرب. ولأن السلطات العراقية أجبرت على الاعتراف بأن الخسائر كانت تصل إلى معدل ١٢٠٠ شهرياً، تعهد صدام بمكافأة جميع المشاركين بسخاء. إنّ المستوى المعيشي العالي مسبقاً لسلك الضباط تحسّن أكثر فأكثر، وأعطي المنتسبون للقوات المسلحة أفضلية في الحصول على السيارة وشراء المنازل، والضباط الذين كانوا يظهرون أيّ مستوى من البطولة كانت تهدى إليهم ساعات رولكس والتي يظهر عليها بطبيعة الحال وجه صدام. والعوائل المفجوعة، نتيجة لدورها، كانت تعوّض بسيارة وقطعة أرض مجاناً، وقرض من دون فائدة لبناء بيت. وللتأكيد على أنّ البعثيين متماشين مع المجهود الحربي بشكل واضح، أمر صدام كافة مسؤولي الحزب القياديين بالتخلّي عن بدلاتهم الأنيقة وأن يلبسوا بدلات معركة زيتونية خضراء سرعان ما أصبحت علامات مميزة للقاءات البعث المتلفزة.

والمثال الآخر لمحاولات صدام في المحافظة على مظهر الحالة السوية هو إصراره على التمسك بخطته لاستضافة مؤتمر دول عدم الانحياز في بغداد في خريف ١٩٨٢ إنّ اهتمام صدام في حركة عدم الانحياز، التي تشكلت في الخمسينيات لتمثل مصالح الدول النامية التي كانت تنشد الاستقلال عن القوى العظمى، يعود تاريخه إلى عام ١٩٧٨ عندما حضر المؤتمر الرباعي في هافانا عاصمة كوبا. وبالرغم من كراهيته للشيوعية، يقال بأنّ صدام له علاقة صداقة مع فيدل كاسترو وأنه طوّر ذائقته في سجائر هافانا الجيدة التي تصدّر إلى بغداد منذ الآن فصاعداً وفق مبدأ أساسي طبيعي، وفي رغبته في منع العراق من الخضوع لنفوذ أية قوةٍ عظمى، كان أمراً طبيعياً بالنسبة لصدام أن يحوّل اهتماماته باتجاه حركة عدم الانحياز. وفي إعداد الترتيبات لمؤتمر الحركة في عام ١٩٨٢ الذي كان من المؤمل أن يعقد في بغداد، كان صدام يتمنى أن يستحوذ على عضويته لينتخب بدلاً من كاسترو لما تنتهي مدته كرئيس لحركة عدم الانحياز. والكثير من عمل البناء المحموم الذي حصل في بغداد في أوائل الثمانينيات هو عبارة عن بناء

فنادق جديدة ومراكز الاجتماعات المؤتمرات المخطط له. وصرفت ملايين، إذا لم تكن مليارات الدولارات على مشاريع البناء المختلفة، وإيجاد المباني والمرافق التي خضعت لتجديد حقيقي.

ومع ذلك، ولما شرعت إيران بعزم في الزحف إلى داخل العراق في منتصف عام ١٩٨٢، لم تدم طويلاً سياسة الزبد ـ والبنادق، الدعامة الرئيسة للمعنويات الوطنية العراقية. وكان نجاح إيران في مهاجمة وتدمير العديد من المنشآت النفطية العراقية القريبة من البصرة سبباً في أن الاحتياطيات المالية لم تعد قادرة على تموين كلّ من الحرب والاقتصاد المحلي المزدهر. والسبب الآخر هو قرار رفاق البعث الخصوم لبغداد في دمشق بغلق أنبوب النفط العراقي الذاهب إلى بانياس على البحر الأبيض المتوسط، والذي يمر عبر سوريا. وكان الرئيس الأسد يتحيّن الفرصة ليثأر من إعدام وتطهير صدام لنظامه من البعثيين الموالين لسوريا، عندما استلم الرئاسة في عام ١٩٧٩ ـ وطوال الحرب ـ العراقية ـ الإيرانية، برهنت دمشق على أنها أحد الحلفاء الأشداء لطهران. وبالاحتياطيات الأجنبية العراقية الهابطة من ٣٥ مليار دولار قبل الحرب إلى مجرد ٣ مليارات في نهاية عام ١٩٨٣، أصبح صدام مرغماً وبتطرّف على تقليل الصرف على السلع غير الأساسية. ونتيجة لذلك انخفض الاستيراد المدنية من ٢١,٥ مليار في ١٩٨٢ إلى ١٢,٢ مليار في ١٩٨٣، و١٠ ـ ١١ مليار دولار بين ١٩٨٤ و١٩٨٧ وأجبر صدام كذلك على إلغاء خطط عقد مؤتمر حركة عدم الانحياز في بغداد، وانتقل الاجتماع إلى نيودلهي، وبغياب صدام تسلمت رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي قيادة العالم غير المنحاز للسنوات الأربع التالية.

إنّ التحول في حظوظ الحرب العراقية والانخفاض الاقتصادي الدراماتيكي اتحدا لأول مرة في طرح الشكوك الجادة حول كفاءة صدام في القيادة. فالنكسات التي عانى منها العراقيون بعد الهجمات الإيرانية كانت تعني أنّ صدام هو المسؤول المباشر عن إخفاقات القوات المسلحة. وهو الملام أيضاً في تنفيذه للقرار السياسي الضعيف بإعلان الحرب على إيران بالدرجة الأولى. إنّ إصراره على تولّي قيادة الجيش شخصياً كان يعني بأنه ليس لديه بديل سوى أن يقبل بمسؤوليته عن النكسات العسكرية. ومنذ بدء الحرب وجّه صدام أمراً بأن تخضع القيادة العسكرية لسيطرة حزب البعث. وفي الأسابيع الأولى من الصراع أشرف صدام شخصياً على العمليات من غرفةٍ محصنة تقع تحت أرض القصر الرئاسي في بغداد. فجميع الأوامر يجب أن تصدر من بغداد وأصرّ صدام على الاشتراك بكل قرار عسكري، من العمل بمستوى فصيل في الجيش إلى

ضرب الأهداف الرئيسة. وحتى عدنان خير الله، ابن خاله وصهره والذي كان رئيساً لأركان الجيش، عليه أن يخضع للمهيب الميداني صدام في أبسط القضايا.

ولما تطور الصراع، حوّل صدام مجلس قيادة الثورة إلى مقراتِهِ الخاصة، ليمكنه ذلك من الاحتفاظ بالسيطرة القوية على كافة العمليات الحربية. وكانت النتيجة نقصاً في المرونة والمبادرة من جانب القادة الميدانيين الذين أُعيقت وبشدة مقدرتهم على الاستجابة بسرعةٍ وبفعالية تجاه ما قد يقوم به الإيرانيون من نشر تكتيكات جديدة. إنّ إصرار صدام، ولأسباب سياسية، على أن يبقي قادته العسكريون على الخسائر العراقية عند حدّها الأدنى، كان مجرد مثال واحد حول تدخله الذي تعوزهُ الخبرة والذي أعاق فعالية قادته. وبعيداً عن تقليل الخسائر، فإن تدخلات صدام، التي كانت غالباً ما تعارض بكل ما للكلمة من معنى، أفكار الضباط المحترفين، لها نتائجها المدمرة. وبعدم قدرتهم على استغلال نجاحاتهم الأولى في جنوب إيران، كان العراقيون مجبرين على أن يلزموا قواتهم في ظروف عملياتية سيئة عندما عززت إيران دفاعاتها، مسببين بذلك آلاف القتلى من العراقيين وبلا مسوّغ. ولما كان على خطأ، وكانت سيطرة صدام على الجيش كاملة تماماً، كان قادة الأفواج والسرايا غير راغبين باتخاذ قرارات مستقلة وذلك لخشيتهم من إزعاج قائدهم العام. وبدلاً من ذلك كانوا يرجعون القرارات إلى الغرفة أو مقرات الفيلق، وبدورها تصل إلى القيادة العليا في بغداد. ويجب أن نتذكر أيضاً بأن المفوضين السياسيين الذين عيّنهم البعث ليراقبوا القيادة العسكرية العليا كانوا متواجدين، ليرسلوا بتقاريرهم إلى مجلس قيادة الثورة حول الأداء الفردي للضباط.

وكان صدام يعي جيداً بأنّ شعبيته أصبحت سطحية، وبإخلاصه لشخصه، كان يعنيه بأن يهتم بالإجراءات الوقائية الضرورية التي تبقيه في السلطة. إنّ جهاز أمن الدولة الحالي وظف ما يقارب ٢٠٨ ألف شخص ـ ضعف الحجم الحالي للجيش البريطاني ـ وارتفع إلى حوالي ١٥٪ من جميع موظفي الدولة[٢٥] وبقي جهاز الأمن الخاص تحت الرقابة الحذرة والحاقدة لبرزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام. وبالرغم من أعباء الحرب فإن جلادي صدام نادراً ما تفوتهم الضربة؛ ففي عامي ١٩٨١ و١٩٨٢، قدّر بأن أكثر من ٣ آلاف من المدنيين أعدموا إضافة إلى أولئك الذين أعدموا لجرائم سياسية بحتة.

إنّ مناخ الشك المتصاعد الذي نفذ إلى الحرم الداخلي لحكومة البعث انعكس في الحادثة سيئة الصيت التي وقعت في شهر مارس ١٩٨٢ عندما قتل صدام أحد

وزرائه خلال اجتماع المجلس الأسبوعي. وفي الوقت الذي زعمت فيه الحكومة مؤخراً بأنّ الوزير قد قتل بسبب الاستغلال ـ وتلك جريمة عقوبتها الموت ـ فإنّ السبب الحقيقي لعمل صدام المتهور هو أن رياض إبراهيم حسين، وزير الصحة، كان مندفعاً باقتراحهِ على صدام أن يتنازل لصالح الرئيس السابق أحمد حسن البكر، ليجعلَ وقف إطلاق النار قابلاً للتفاوض في الحرب العراقية ـ الإيرانية. وفي تلك المرحلة من القتال أصبحت الحرب نزاعاً جباراً ما بين الذوات المتضخمة لصدام والخميني، وبإزاحة صدام من الخط المتقدم، قد يكون العراقيون في وضع أفضل لالتماس السلام. ولما قدّم الوزير الاقتراح، لم يبد صدام أية علامة غضب بارزة. إنما هو قاطع اجتماع المجلس فحسب وطلب من الوزير أن يصحبه خارجاً. «دعنا نذهب إلى الغرفة الأخرى لنناقش الموضوع أكثر» قال صدام. وافق الوزير وغادر الاثنان الغرفة. وبعد لحظة سمع صوت إطلاقة وعاد صدام لوحده إلى المجلس وكأنّه لم يحدث أيّ شيء[٢٦] ولما أشارت وكالة الأنباء العراقية إلى إعدام وزير الصحة، بينت بأنه قد تمت معاقبته لاستيراده دواء قتل العراقيين الأبرياء، ولذا فهو «خائن». وعندما طلبت زوجة الرجل القتيل إعادة جثمان زوجها، سلّم لها مقطعاً. وسرعان ما أرسل صدام بعد تلك الحادثة فريقاً من الأطباء يعملون لصالح قواته الأمنية ليتأكدوا من أن سلفه المتوجّع، الرئيس السابق البكر، لن يسبب له مشاكل في المستقبل (أنظر الفصل السابع).

إن إصرار صدام على الاحتفاظ بالسيطرة المباشرة في الحملة العسكرية كان يعني بأنه كان عليه أن يتعامل شخصياً مع حالات التململ والتذمر داخل القوات المسلحة. فالحرب لم تكن شعبية بشكلٍ خاص من البداية، خاصة وأن سلك الضباط العراقيين المتعلمين في ساند هيرست كان ينتابهم الشك حول شن هجوم تنقصه الأهداف المحددة بشكلٍ واضح. وقد كانت هناك تقارير متفرقة لضباط أعدموا لرفضهم بصراحة أهداف صدام في الحرب وبلغت الأمور ذروتها في صيف ١٩٨٢ عندما حاولت مجموعة من الضباط أن ينطقوا بما اعتبروه نقداً بنّاء بخصوص الطريقة التي يوجّه بها المجهود الحربي بشكلٍ أفضل. وصدام الذي لم يزل يغذي عقدة النقص لديه حول المؤسسة العسكرية، لم ير الأمر بتلك الطريقة، وأعدم حوالي ثلاثمائة من الضباط ذوي الرتب العالية بمعية عدد قليل من مسؤولي الحزب الذين أيدوا وجهة نظر الضباط. ولم يبدِ صدام أية رحمة تجاه أولئك الضباط الذين كان يشك في عدم تنفيذهم للواجب في الجبهة. وقد روي بأنّه في إحدى الحوادث أعدم صدام شخصياً

ضابطاً كان قد وجّه أمراً بتراجعٍ تكتيكي. وقد أُحضر الضابط بين يدي صدام، الذي سحب مسدسه بهدوء وأطلق النّار على رأس الرجل.

وكان على البعثيين أن يقاوموا عدداً متصاعدا من المارقين، على الرغم من أنّ قوات الأمن كانت قادرة على أن تتعامل مع تلك المشكلة الخاصة بيسر. في البداية كان المارقون الذين كان من سوء حظهم أن قُبض عليهم قد أعيدوا إلى منازلهم حيث تمّ إعدامهم. وفيما بعد أُخذ من يُقبض عليهم إلى سجن أبي غريب في ضواحي بغداد والذي كسب لنفسهِ شهرةً سريعة فأصبح يعرف لوبيانكا صدام Lubianka. وذكر أحد السجناء إذ نجا من ممارسات الرعب في السجن الذي حلّ محل قصر النهاية كمركز رئيس للاستجواب «إن شعبة أبي غريب المحجوزة لأولئك المحكومين بعقوبة الموت هي عبارة عن قاعة محاطة بغرف قياس ٤م × ٤م يزّج فيها من خمسة عشر إلى عشرين سجيناً. وكان عليهم أن يستعملوا غرفهم كمرافق صحية وأماكن للنفايات القذرة. الشمس لم تجد طريقها في تلك الغرف ونسبة صغيرة جداً من هؤلاء السجناء هم مجرمون مألوفون ولكن الأكثرية هم من الجيش، من الرجال الذين عارضوا الحرب العراقية ـ الإيرانية»[٢٨] ووصف موقوفون آخرون شعبة السجن التي تتعامل مع «العقوبات الخاصة»، الضيف الذي يشمل جميع أعضاء المعارضة، وخاصة أعضاء حزب الدعوة وأعضاء الحزب الشيوعي. والكثير من أولئك الناس احتجزوا في زنزانات في الطابق السفلي، ويسمح لهم بالخروج للتمرين مرة واحدة فقط في كل شهر.

وفي محاولةٍ لتخفيف المسؤولية في فشل العراق في تحقيق أهدافه الحربية، نفذ صدام في شهر يونيو سلسلة من الإجراءات المهمة للتأكيد على أن نسق حكم البعث ليس له أية فائدة قوية. وشرع صدام بعقد اجتماعات مجلس قيادة الثورة، الذي دعي أعضاؤه ليقدموا التماسهم إلى الإيرانيين للموافقة على وقف إطلاق النار. ورفض الإيرانيون ذلك تماماً، وبذلك أظهروا أن إزاحة صدام لن تنهي الحرب. وفي الاجتماع التالي بدأ صدام بتطهير مصغر في مجلس قيادة الثورة وأزيح ثمانية من الأعضاء الستة عشر. والتغيير الأكثر رمزية هو إزاحة الفريق سعدون غيدان، آخر الأحياء من الضباط الذي جاؤوا بالبعث إلى الحكم في ١٩٦٨ وإشارة أخرى لمزاج صدام السّفاح في صيف ١٩٨٢ تتعلق بحادثة يزعم وقوعها خلال اجتماع المجلس الوطني. عندما كان صدام يخاطب المجلس لاحظ رجلاً من الحاضرين وهو يمرر ملاحظة إلى رجلٍ آخر. دون أن يفكر مرتين سحب الرئيس مسدسه وقتل كلا الرجلين. لقد ظنّ صدام بأنهما كانا يخططان لاغتياله، ولما تم فحص قصاصة الورق، ثبت بأنّ الرئيس كان على

صواب. وإذا كانت تلك القصة حقيقية أم مشكوكاً في صحتها، فمن المؤكد إنها لاقت انتشاراً واسعاً في مقاهي بغداد وعززت الرأي بأن الرئيس العراقي ليس ذلك الرجل الذي يستهان بهِ.

والتحدي الأكثر خطورة بالنسبة لموقع صدام جاء من داخل عائلته في السنة التالية عندما أُجبر على أن يضع إخوته الثلاثة غير الأشقاء ـ برزان، وطبان وسبعاوي ـ تحت الإقامة الجبرية. إنّ ما سبب شجار العائلة لم يكن واضحاً تماماً بشكلٍ دقيق. وقد اعتقد بأن برزان كان متورطاً في محاولةٍ انقلابية ضد أخيه، حيث فاتحه بها مجموعة من الضباط العسكريين وعرضت عليه الرئاسة في حالة مساندته للعصيان المسلح ضد صدام. ورواية أخرى تلوم برزان، الذي كان رئيساً لجهاز الأمن، على فشله في كشف مؤامرة ضد صدام، وتلك سخرية قُدّمت في السنة السابقة على أن برزان قد نشر فعلاً كتاباً بعنوان «محاولات لاغتيال صدام حسين» والذي ذكر فيه تفاصيل سبع مؤامرات مزعومة، بعضها حدث قبل أن يصبح صدام رئيساً، متهماً بذلك قوى مختلفة مثل سوريا، إسرائيل والولايات المتحدة بأنها العقول المدبّرة التي تقف وراء تلك المخططات.

والتفسير الأكثر ترجيحاً هو أن صدام وإخوانه غير الأشقاء أصبحوا متورطين في خصومةٍ عائلية. ويحتمل بأنه ليس هناك اتفاق على أنّ تلك التوترات سرعان ما تطورت بعد وفاة أم صدام الحبيبة في أغسطس ١٩٨٣، والتي كانت مدافعة عنيدة عن أولادها من زواجها الثاني. إنّ المنافسة بين آل مجيد الذين تربطهم قرابة الدم مع والد صدام الحقيقي، وآل إبراهيم، أقربائه من زواج أمه الثاني، أصبحت أحد الأسباب الرئيسة للتوتر في النظام. وفي حياتها دعمت صبحة طلفاح مصالح جميع أولادها، والواقع أن جميع إخوة صدام الثلاثة غير الأشقاء قد احتلوا مواقع كبيرة بارزة في الدولة وذلك يعود بشكل كبير إلى مواهب صبحة الإقناعية ونزعة صدام لملء المواقع الرئيسة بالتكريتيين والعائلة. والتفسير الأكثر تصديقاً بالنسبة للخلاف ما بين صدام وإخوته غير الأشقاء في أواخر ١٩٨٣ هو اختيار صدام عريساً لابنته الكبرى رغد. ومع كل الدعاية البعثية حول تحرير النساء والذي حصل تحت قيادة البعث، فإنه في عائلة صدام ما زالت العادات التراثية والقبلية هي السائدة، وكان واجباً على الأب أن يختار الصهر المناسب. وفي تلك الحالة اختار صدام حسين كامل المجيد، أحد أبناء عمومته. وقد نجح حسين، وهو ضابط بموهبة محدودة، أن يفوز بالحظوة لدى كل من صدام وساجدة. وقد رافق ساجدة في رحلاتها التسوّقية إلى نيويورك، وبفضل العلاقات

العائلية، احتل عدة مناصب مهمة في جهاز أمن صدام. ومع ذلك فإنّ اختيار صدام لحسين سبب إهانةً عميقة لبرزان، الذي كان يأمل أن يكون ابنه خطيباً لرغد. وغضب برزان كثيراً لما سمع الأخبار بأن صدام قد اختار حسين كامل بأسلوب تكريتي نموذجي، فتوعّد بأن يقتل حسين بدلاً من أن يدعه يحرم ولده من عروسته التي اختارها. وهكذا فإنّ البلد الذي كان في خضم حرب ضروس وكان ذلك أثناء تطوير الترسانة الكيماوية والبيولوجية والنووية التي وجدت نفسها فجأةً مشلولة بخصومةٍ عائلية حول ترتيبات زواج قبلي.

وبذلك فإنّ النزاع الذي كان قبلياً أكثر من كونه تآمرياً كشف بأيامٍ قلائل بعد وضع الأشقاء الثلاثة تحت الإقامة الجبرية. وفي بيان عام أعلن صدامٌ تأييده لإخلاص برزان، وهذا شيء ما كان ليقدم عليه لو كانت هناك إشارة صغيرة لدليل يثبت تورّط أيّ من الأشقاء الثلاثة في التآمر ضد صدام. ولو كان ذلك الدليل في متناول اليد، فإنهم سيواجهون ذات المصير الذي يواجهه أي متآمر آخر، ولكانوا قد سيقوا من قبل إحدى فرق إطلاق النار التابعة لصدام. ولما بردت الانفعالات، عومل برزان المستعصي بالطريقة نفسها التي عومل بها بعثيون سابقون رفيعو المستوى والذين، لسبب أو آخر، نحّوا عن خدمة سلطة البعث. أُرسل برزان إلى المنفى كسفير، وضع في دور بعيد الاحتمال كممثل رسمي للعراق في اليونسكو في جنيف. وبعد ثلاث سنوات أُعيد تأهيل الأخوين الآخرين. فاحتل سبعاوي موقع برزان السابق كرئيس لجهاز الأمن العام وعيّن وطبان رئيساً لأمن الدولة الداخلي. والأزمة الجوهرية الأولى في علاقات صدام بعائلته قد حُلّت من دون اللجوء إلى إراقة الدم. وكان ذلك مثالاً لن يُحتذى في أحوالٍ كثيرة في السنوات المضطربة مستقبلاً.

الفصل التاسع

المنتصر

وكانت الحرب تسبب خسائر فادحة لصدام. فالنكسات العسكرية في عام ١٩٨٢، مع العلامات الأولى للاضطراب الشعبي، أثرت اعتبارياً على صدام. وكان صدام على الدوام شديد التأثر تجاه فكرة أن بغداد كانت مغمورة بالمكائد والمؤامرات، بيد أن ضغوطات الحرب التي لم تبد محض إشارة من التضاؤل ساهمت في تفاقم إحساسه العميق بجنون العظمة. إن الأيام السعيدة التي تمكن بها أن يكرم شعبه بزياراته المفاجئة، كما فعلها في مناسبات عديدة في السنوات الأولى من رئاسته، أصبحت من الماضي. ليس هناك شخص أو مؤسسة ـ ولا حتى عائلته ـ كان أهلاً للثقة. ثمة شريط أمني واسع ومحكم ضرب من أجل حماية الرئيس من القتلة الكثر، في الخارج والداخل، حيث كان قد أقنع نفسه بأنهم خرجوا من أجل دمه، أينما وحيثما سافر، كانت المواكب الوهمية من سيارات الليموزين المصفحة ذات النوافذ المعتمة والمحاطة بحراس الأمن المدججين بالسلاح تقومُ برحلاتٍ خاطفة، محاولةً اجتذاب القتلة المزعومين من مخابئهم. وبسبب تجربته الشخصية في تخطيط وتنفيذ الاغتيالات، عرف صدام شيئاً أو شيئين حول تفكير منفذ الاغتيال، وبالنسبة له كانت عادة تمارس بسهولة لمحاولة ضرب القتلة في لعبتهم.

وبالمثل، فإنّ زيارة الوجهاء كانت تتطلب القيام بإجراءات تدقيق مطوّلة قبل أن يسمح لهم بمواجهة صدام. ليس هناك أحد، ولا حتى أقرب مساعديه، يقدر أن يخمّن أين سيكون صدام في وقت من الأوقات. وفي المناسبات النادرة كانت قاذفات القنابل المقاتلة قادرة على الوصول إلى بغداد، وكان صدام متيقناً بأن القنابل كانت تستهدفه بشكلٍ مباشر. ونتيجة لذلك أخذ الرئيس ينام في «بيوت آمنة» متنوعة في ضواحي بغداد، وتلك عادة قديمة مارسها في سنوات عمله كمنظم لجماعة سرية في حزب

البعث في الستينيات وكان قد كررها عدة مرات في ما بعد عندما كان يشعر بأن سلامته الشخصية في خطر. وامتلك جنون العظمة المتصاعد لدى صدام عدة مظاهر شاذة. عند ارتداء ملابس الصيد المفضلة لديه، كانت قبعته تغطى من الداخل بمادة الكيفلار المضادة للرصاص. وفي أواخر السبعينيات كان يستخدم طبّاخيه الخاصين، ولكن حلّ محلهم الآن متذوقو طعامه الشخصيون، الذين كانوا يرافقونه عندما كان يغامر بالخروج خارج بغداد. وبدلاً من استشارة الأطباء العراقيين الذين يمكن تجنيدهم بسهولة من قبل أعدائه، استقدم صدام عدداً من الأطباء الأجانب ليعتنوا باعتلالاتهِ الجسدية. وزعم مسؤولون سابقون أنه اعتمد أكثر فأكثر على استخدام الأشباه ليمثلوه في المراسم الرسمية، ويقال إن أحد الأشباه قد قتل بالرصاص في ١٩٨٤ بعدما ظُنّ خطأً بأنه صدام الحقيقي. وحتى ابن صدام الأكبر، عدي، قيل إنّ لديه شبيهه الخاص. ويؤكد اللواء وفيق السامرائي، الذي كان في فترةٍ من الثمانينيات من أكثر الضباط العسكريين ثقةً لدى صدام وكان على علاقة حميمة مع الرئيس، بأنه شاهد الأشباه يحلون محل صدام في أعمال رسمية ثانوية في عدة مناسبات.

وكان صدام قد كوّن مسبقاً جهاز استخباراته الخاص، الأمن الخاص، وفي عام ١٩٨٤ أخذ أمنه الخاص إلى غاياتٍ جديدة عندما كوّن جيشه الخاص، النسخة المتجدّدة للحرس الجمهوري الذي كان موجوداً منذ الستينيات. واعتز البعث بنفسه بامتلاكه الميليشيا الخاصة به، الجيش الشعبي والذي بلغ تعداده في بداية الحرب حوالي ٢٥٠ ألفاً. وفي السنوات الأولى من الحرب نفذ الجيش الشعبي، الذي كان في الواقع أكثر قليلاً من مجموعة من محبّي البعث المتحمسين، واجبات الدفاع المدني، ومهما يكن السبب فإنه خاطر دائماً في رؤية قتال حقيقي. وفي عام ١٩٨٤ قرر صدام أن يستبدل جيش البعث بوحدة جيشه الخاص، والتي تدين بولائها المطلق للرئيس. بدأ بمجرد لواءين، وتحول الحرس الجمهوري بسرعة إلى جيش داخل جيش. جهّز بأفضل المعدات العسكرية المتوفرة: دبابات سوفيتية الصنع «ت ٧٢»، «ت ٦٢» و«ت ٥٥» ومدافع من عيار ١٥٥ ملم فرنسية الصنع، وصواريخ أرض ـ جو متطورة. وأعضاء الحرس المتحدرون، كصدام من أصل فلاحي سنّي، كانوا يفرضون نماذج جسمانية. فحصلوا على تدريب خاص ورواتب أفضل من الجنود الآخرين، وكانوا يعتمدون كلياً على صدام في حياتهم. وإذا ما اقترب الإيرانيون في أي وقت من اجتياح بغداد، فإن الحرس الجمهوري، كأسلافهم الرومان، سيكون متوقعاً بأنهم يدافعون عن رئيسهم حد الموت. وفرض البناء الأمني المحكم على القوات المسلحة العادية لمنعها

من تنفيذ محاولات الاغتيال والانقلاب. ولم يسمح لوحدات الجيش بالتواجد على مسافة تقلّ عن مائة ميل من بغداد، وعندما يخلون مواقعهم العسكرية كانوا يعملون ذلك بلا ذخيرة. وكان المسؤولون الحزبيون ووكلاء الأمن ينقلون التقارير بشكلٍ مباشر إلى مكتب صدام حول أداء الضباط الشخصي، وهم ينقلون دائماً من وحدة إلى أخرى لمنعهم من أن يكونوا مقربين جداً من جنودهم.

وقد هُزّ صدام إلى أبعد حد بالغارة الجوية الإسرائيلية في الستة أيام الماضية والتي دمرت برنامج الأسلحة النووية في العراق، ولكي يحمي نفسه والنظام من هجومات جوية مستقبلية طرح برنامجاً عالي التكلفة لبناء شبكة من الملاجئ السرية لتحميه وتحمي موارد البلد الاستراتيجية. وعلى الرغم من أن صدام زعم بأن الخطة كانت منوطة بمصالح الأمن الوطني، كان هناك أكثر من رأي على أنّ «العقلية التحصينية» الخاصة بصدام تكمن وراء اهتمامه بالمشروع. وسلمت الشركات البريطانية تصاميم لملاجئ سرية كافية لإخفاء ثمانية وأربعين ألف جندي. وبني أحد الملاجئ الشخصية لصدام تحت دار للسينما في الطابق السفلي لمجمّع السجود الإداري، الذي يقع بالقرب من القصر الرئاسي. هو صغير بمقاسات صدام (٣٠ قدم × ١٥ قدم)، لكنه ضم معدات إلكترونية كافية، حواسيب، طابعات مبرقة، وخطوط اتصالات لصدام لتأمين الاتصال مع القوات المسلحة في كافة أرجاء القطر.

وبني مخبأ محصّن آخر لصدام قريباً من مجمع القصر الرئاسي الجديد الذي شرع بتشييده. وهذا المخبأ الذي بنته شركة ألمانية دفن بحوالي ثلاثمائة قدم تحت نهر دجلة. وضمت الجدران من ستة إلى ثمانية أقدام من الكونكريت المسلح وارتكز البناء على نوابض ضخمة، قطرها قدمان، فوق مسندٍ من المطاط الصلب المسبوك. وفي حادث تفجير قنبلة بحجم قنبلة هيروشيما بمسافة ربع ميل عن المخبأ «شعر صدام برجةٍ فقط». وضمّ المخبأ مسلكين للهروب، ومصعداً مضاداً للهزات الأرضية. وكلا المدخلين لذلك المخبأ الشبيه بخيال جيمس بوند الجامح تتم حراستهما بشبكة بنادق آلية يسيطر عليها أتوماتيكياً[1] وأمر صدام بترتيبات أمنية خاصة ضمن بناء ردهة انتظار للشخصيات الكبيرة في مطار صدام الدولي الذي كان في ذلك الوقت قيد الإنشاء. وطلب من المقاولين الفرنسيين أن يبنوا مسلك هروب سري وطريقاً منفصلاً للدخول. وذكر أحد المهندسين الفرنسيين بأنه «إذا تعرض المطار لهجوم، فإن صدام يستطيع أن يهرب من خلال نفق طوله خمسة عشر كيلومتراً تحت ردهة انتظار الشخصيات الكبيرة يؤدي إلى طائرة هيليكوبتر سرية تحط في الصحراء»[2]

وصل أعضاء عائلة صدام القريبين إلى العمر الذي مكنهم من استلام مواقع المسؤولية في الحكم. وأصبحت عادة لدى الحكام العرب العلمانيين المستبدين أن يعدّوا أبناءهم كورثة سياسيين لهم؛ فبشار الأسد أصبح رئيساً لسوريا بعد وفاة والده، وكل من الرئيس المصري مبارك والزعيم الليبي العقيد القذافي منحا أبناءهما مواقع حكومية متميزة على أمل أن يثبتوا بأنهم الخلفاء الجديرون. ولم يكن صدام مختلفاً وعندما تخرج عدي من كلية الهندسة في جامعة بغداد في ١٩٨٤، كافأ ولده الأكبر بتعيينه مديراً للجنة الأولمبية العراقية. وحتى المتحمس الأكثر ارتباطاً بالألعاب الرياضية سيكون مجبراً أن يستذكر المناسبة الأخيرة التي تأهل فيها رياضي عراقي للألعاب الأولمبية، لكن اللجنة الأولمبية كانت أكثر من موقع خزانة العرض التي مكنت عدي البالغ عشرين عاماً من العمر من أن يتعلم فن الحكم. وفي الواقع فإن معظم مسؤوليات عدي كانت تتعلق بتطوير الشباب، وتلك المهمة لم يكن مؤهلاً لها على نحو استثنائي بسبب السلوك العنيد البلطجي والأناني الذي أظهره في كل من المدرسة الثانوية والجامعة. تخرج عدي بمعدل ٩٨,٥، درجة بعيدة الاحتمال أن تُمنح لمن اشتهر بتفضيله النوادي الليلية على الفصول الدراسية. وزعم أيضاً بأن الأساتذة الذين لم يكونوا مستعدين لإعطائه أعلى درجة ممكنة تم تعذيبهم وفقدوا وظائفهم.

وبالولدين اللذين بلغا عمر الزواج، امتلك صدام فرحة تعزيز الطموحات الهائلة للعائلة. ففي عام ١٩٨٤ رتب صدام لزواج عدي من ابنة عمه سجا، وهي ابنة برزان الأخ غير الشقيق لصدام. وكما أظهر صدام نفسه في زواجه الأول من ابنة خاله، لم يكن أمراً غريباً أن يتزوج العراقيون من أقاربهم المقرّبين. وبالرغم من أنّ حزب البعث قد قام بجهدٍ بطولي لتحديث بنية العراق الاجتماعية والاقتصادية في الأعوام الستة عشر التي كان فيها في السلطة، بقيت الروابط الأسرية والقبلية ثابتة دون أن تتغير، وبقيت الزيجات المرتبة هي المعيار. ولم يزل برزان يعيش في المنفى في جنيف إثر الخلاف العائلي الذي نشب في السنة الماضية حول رفض صدام السماح لابن برزان بالاقتران من ابنة صدام الكبرى رغد. وبموافقته على زواج إحدى بنات برزان من ابنه الأكبر، كان صدام يأمل بشكلٍ واضح أن يحسم الخلاف ويقنع برزان بالعودة إلى الوطن ليمنحه بعض الدعم المعنوي الذي يحتاج إليه كثيراً في الأيام الحالكة للحرب.

إن القران ما بين عدي وسجا حصل كما ينبغي، وكل شيء بدا موضوعاً لمصالحةٍ شكلية بين صدام والأخ غير الشقيق. بيد أنّ صدام قد فشل في أن يقيم كيف أصبح ابنه الأكبر خارج السيطرة حتى بعد دخوله مرحلة الرشد. وأيّ من ولديه لم يكن يخضع

تماماً لكثير من الانضباط خلال الطفولة، وكانت مقاهي بغداد وأسواقها تأكل وتشرب مراراً وتكراراً بحكايا آخر الحماقات لكلّ من عدي وقصي. وأفضل مكان يرتادانه كان حانة رقص في أعلى فندق المنصور ميليا، وقصي الذي كان أكثر حرصاً في اختياره لمن ترافقه، قيل بأنه يستورد الشقراوات من اسكندنافيا لمتعته الشخصية. ومع أنّ كلا الولدين كانا يتطلعان إلى أسلوب حياتي منغمس بالملذات، إلا أنّ فشل زواج عدي بعد أقل من ثلاثة أشهر كان مشيناً حقاً حتى بأدنى المقاييس الأخلاقية لعشيرة صدام حسين. ولم يوضح السبب الدقيق لانحلال الزواج على نحوٍ كافٍ، على الرغم من أنّ المتفق عليه عموماً في المجتمع العراقي أنّ السبب الأساسي لذلك الانفصال هو العجز الجنسي لعدي. وبالرغم من عشق عدي للسيارات السريعة والنوادي الليلية غير المحتشمة، فإنّ الآراء أصرت على أنه نادراً ما كان يحقق الاستجابة الجنسية، وكان ذلك هو السبب السيكولوجي الجوّاني لمزاجهِ العنيف. ولما عادت سجا كسيرة القلب إلى بيت أبيها في جنيف، اتفقت الآراء على أن ذلك الزواج لم يتم. عادت إلى بيتها وهي مغطاة بالجروح والكدمات، نتيجة الضرب الوحشي الذي تلقته كهدية للانفصال عن عدي. ولأنه كان محبطاً بسبب عجزه، فإن الهياجات العنيفة أصبحت واحدة من سمات عدي المعروفة. وفي تلك الأثناء كان برزان أقل ميلاً من السابق في تأمل المصالحة مع الأخ غير الشقيق. واستطاب صدام نجاحاً أكثر في ترتيب زواج ولده الثاني قصي، الذي كان هادئ المزاج وأكثر حرصاً من أخيه الأكبر. ولأول مرة يسمح لأحد أولاد صدام بالزواج من خارج العائلة، لكنه ليس خارج العشيرة التكريتية. وأخذ قصي عروسة له سحر، ابنة أحد الأبطال القلة في الحرب مع إيران، الفريق ماهر عبد الرشيد الضابط الذي حسب له إنقاذ صدام من الوقوع في الأسر بيد الإيرانيين في عام ١٩٨٢ وبالرغم من أن صدام ورشيد لهما خلافاتهما (أنظر الفصل الثامن)، إلا أنّ رشيد هو تكريتي في النهاية، والزواج في واحدة من الأسر العراقية العسكرية المحترمة جداً سيرفع دون أدنى شك من مكانة آل حسين الاجتماعية، وهذا عامل في غاية الأهمية لصدام كذلك لزوجته ساجدة. إن زواج قصي في عام ١٩٨٥ كان مسألة سياسية وكان هائلاً ويبدو أن العامل الرومانسي كان مفقوداً تماماً. وبمجرد إنتاج طفلين، أصبح الزواج منحلاً. إنّ تحطم ذلك الزواج قد يكون له علاقة بحقيقة أن صدام، في نهاية الحرب، كان يشعر بالغيرة بشكل غير طبيعي من النجاح الذي تمتع به أيّ من ضباطه العسكريين، فوضع حما ولدهِ تحت الإقامة الجبرية. والحلقة الأخيرة في سلسلة صدام لتعزيز مكانة عائلته وُضعت في مكانها في السنة ذاتها عندما تزوجت

ابنة صدام الكبيرة الثانية أحد أبناء عمومة صدام، هو صدام كامل المجيد، وهو الأخ الأصغر لزوج أختها الكبرى، حسين كامل المجيد. وبتقوية روابط العائلة الحاكمة مع آل مجيد، أقارب والد صدام، زاد صدام في تنفير آل إبراهيم، عائلة زوج أمه، لأن إخوانه الثلاثة كان جُلُّ طموحهم أن يقترن أحد أبنائهم بواحدةٍ من بنات الرئيس. إنّ انهماك صدام بتريش عش عائلته بينما كانت بقية البلد التي تعاني من الحرمانات المريرة للحرب تعمل القليل من أجل تحسين شعبيته بين العراقيين. إن القصص حول ارتشاء عائلة آل حسين، وخاصة اهتمامهم بالحصول على الملكية، أصبحت مألوفة. ففي عام ١٩٨٥، ولكي يتكيف مع متطلبات أسرته المتنامية، قيل بأنّ صدام قد صادر مدينة كاملة على طول ضفتيّ الفرات. ودفع لأصحاب البيوت والأراضي الثمينة مبالغ من المال تحددها أسرة صدام بدلاً من شروط السوق. ولما تناهى إلى سمع صدام بأن مالكي الأرض المرحّلين كانوا أقل رضاً بالتعويض الذي حصلوا عليه، انفجر قائلاً «كانوا بلا جاكيتات ونعل قبلي».[٥] إنها عدد من الأساطير الرهيبة بدأ ينتشر حول أسرة صدام. ويعتقد بشكلٍ واسع، مع أنّه غير مؤكد، بأنّ شاباً قد تولّع بابنة صدام الصغرى، حلا، المفضلة لديه والوحيدة التي لم تكن متزوجة من بين أولاده الخمسة، قد دفن حد رقبته ورُجم حتى الموت. ومع ذلك فإن صدام قد مرّر قوانين شديدة القسوة ضد الفساد لمنع العراقيين من الاستفادة من العقود الأجنبية، وظهر أنّ دائرته الداخلية الحاكمة ليس لديها وخز للضمير حول التكبر والتباهي بثرواتهم. وعدنان خير الله صهر صدام ووزير الدفاع جمع أسطولاً ضخماً من السيارات الثمينة. وقد استورد دزينةً من سيارات المرسيدس ولديه سائق في كل سيارة. إنّ طمع عدنان ترك انطباعاً عميقاً على ولدي أخته، عدي وقصي، اللذين بدآ يجمعان أساطيلهما الخاصة من السيارات على الرغم من أنّ أصغر عضوين من عشيرة آل حسين كانا مهتمين جداً بالسيارات الرياضية. وبنظر صدام فإنّ الثروة التي جمعتها أسرته ليست أقل مما كانوا يستحقونه. وصرّح في إحدى المناسبات قائلاً «نحن انتزعنا خطوط الشمس، ولن نذهب».[٦] وبقدر تعلق الأمر بصدام، فإنّ ثروة العراق النفطية الضخمة أصبحت ملكية مقصورة على عائلته.

إنّ الإنفاق الباذخ لنخبة صدام الحاكمة ناقض بحدة التضحيات المطلوبة من العراقيين العاديين لتمويل المجهود الحربي. وفي عام ١٩٨٣، مثلاً، لما كانت صادرات النفط العراقي في أدنى مستوياتها، طلب صدام من المدنيين العراقيين التبرع بمجوهراتهم ومدخراتهم للدولة، «لندع النساء والناس الكبار أن يشاركوا في معركة

الوطن، كل واحد حسب قدرته». كما قال طه ياسين رمضان، نائب رئيس الوزراء العراقي، بإيجاز شديد. «وذلك استبيان في صالح الحزب. في صالح الثورة وقيادة صدام حسين». وكانت الاستجابة هائلة، سواء من الفلاحين الذين تبرعوا بمدخرات حياتهم أو سيدات بغداد الأنيقات اللواتي حملن حقائب مجوهراتهن الجلدية المغربية إلى مراكز التبرع. وكان انطباع وزير المالية كبيراً حول المبلغ الذي تم جمعه فزعم بأن «الذهب الذي جمع سيكون احتياطياً إضافياً لتقوية العملة العراقية». ونظرياً، إن كلّ النقود والحاجات الثمينة التي تم تسليمها هي عبارة عن قرض لفترة الحرب فقط، وسيتم إرجاعها عندما تضع الحرب أوزارها. ولكن في جميع الأحوال، لم يسلّم العراقيون أي شيء مقابل كرمهم.

وإلى حد بعيد كان الإنجاز الأكبر لصدام في منتصف الثمانينيات في تحويل الإنجاز الكارثي العراقي في الحرب ضد إيران إلى مصلحتهِ ومصلحة الدولة. إنّ «الانسحاب الطوعي» للعراق من إيران في صيف ٩٨٢، عندما أشار النظام إلى الانكسارات التي ألمّت به على أيدي الإيرانيين، لم ينطل على أحد، خاصة الشعب العراقي. وعلى العموم أصبحت «القادسية الثانية» تعرف بـ «حرب صدام»، والفشل الإجمالي للجيش العراقي في تحقيق أي من أهداف الحرب المعلنة هو مسؤولية صدام الشخصية. ومع ذلك، فإنّ تلك النكسات وحدها جعلت من صدام أكثر عزماً من السابق على إعادة تأكيد نفسه كحاكم لا ينازع للشعب العراقي ومصيره. فالتطهيرات التي نفذت بحق ضباط عسكريين كبار خلال صيف ١٩٨٢ الكارثي، مع إعادة تنظيم مجلس قيادة الثورة، أعادت تأكيد موقع صدام كقائد أعلى للقطر. وفي أواخر ١٩٨٢، عقد اجتماعاً خاصاً للقيادة القطرية لحزب البعث، والذي حصل فيه على ما كان يرمي إليه من تثبيت سلطته المطلقة على آلية الحكم. وبين التقرير الختامي لمؤتمر الحزب التاسع دون أي لبس بأنّ «صدام حسين هو رمز الحرية والاستقلال والفخر والوفاء وأمل المستقبل الأفضل للعراق والأمة العربية». ولكن بالسلطة المطلقة جاءت المسؤولية المطلقة، وأنّ مسؤولية الورطة الخطيرة التي واجه بها العراق آيات الله وقعت مباشرةً على عاتق صدام.

ومن عام ١٩٨٢ فصاعداً كان الاندفاع الرئيس للهجوم الإيراني المضاد باتجاه البصرة، ثاني أكبر مدينة في العراق وعاصمة المجتمع الشيعي في القطر. وهدف الإيرانيين كان في قطع الطريق الرئيس العام بين بغداد والبصرة ولفرض السيطرة على المناطق الشيعية الاستراتيجية. ومع ذلك، فقد برهن العراقيون على أنهم الأفضل في

الدفاع عن مواقعهم مما كانوا عليه في مواصلة الهجوم، وكانوا قادرين على صدّ الهجمات الإيرانية وتكبيدها خسائر فادحة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً دخل الصراع في مأزق، إذ لم يكن أحد الجانبين قادراً على القيام باختراق مهم. وكان المهندسون العراقيون منشغلين تماماً في بناء شبكة محكمة من المواقع الدفاعية لم تكن مختلفة جداً عن المواقع التي بنيت في شمال فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى. حُضرت بشكل جيد، وزوّدت بذخيرةٍ كثيرة وخطين دفاعيين أساسيين آخرين لحماية المنطقة العراقية الاستراتيجية في حالة حدوث خرق إيراني، حيث إن هدف صدام هو أن يسحق الإيرانيين بالاستسلام، وأصر الإيرانيون على ذات التكتيك الذي نجح في طرد العراقيين من خرمشهر. والباسيج، وهم المتطوعون الإيرانيون الانتحاريون الشباب والذين كانوا على استعداد للسير في حقول الألغام طلباً لمكان في الجنة، واصلوا هجومات الأمواج البشرية ضد المواقع العراقية. غير أن العراقيين قد تعلموا درسهم في انسحابهم المخزي من خرمشهر، وكانوا قادرين على أن يقاوموا بسهولة تلك التكتيكات الانتحارية. وفي المناسبات النادرة التي نجح بها الإيرانيون في إحداث اختراق، كان العراقيون قادرين على أن يستعيدوا زمام المبادرة باستدعاء الطائرات السمتيّة والطائرات المقاتلة.

وأظهر صدام مهارة سياسية كبيرة في تلك الفترة في تحويل الهجوم الإيراني المضاد لصالحه. وبطريقة ما فإنّ المحاولات الإيرانية لاحتلال منطقة عراقية مكنت الحكم العراقي من تحقيق شيء ما فشلَ في إنجازه في السنوات الأولى من الحرب ـ هو توحيد الشعب. وبأظهرهم إلى الجدار، وبقتالهم من أجل الدفاع عن أرضهم وليمنعوا الغزو الإيرانين، حصل التحوّل في صفوف الشعب العراقي. وليس الجيش وحده من قاتل بحماسة كبيرة، وإنما كان هناك انحدار ملحوظ في حجم المعارضة. وكما ذكر دبلوماسي غربي كان مقيماً في بغداد في تلك الفترة أنّ النقطة الجوهرية هي أن العراقيين كانوا خائفين جداً من الإيرانيين أكثر من خوفهم من صدام. «العراقيون كانوا يعون جيداً بأن صدام دكتاتور ويعامل الناس بسوء إذا ما عارضوه، لكنهم كانوا مذعورين جداً من فكرة تصدير الثورة الإيرانية إلى العراق. كانوا يريدون صدام أن يبقى قوياً وأرادوا منه أن ينتصر»[٧].

إنّ هجوم الإيرانيين من ثلاثة اتجاهات على البصرة في أواخر صيف ١٩٨٢ وضع الأسلوب الذي سوف تتبعه الهجومات اللاحقة. الإيرانيون حصلوا على الأرض ـ حوالي أربعة أميال ـ لكنهم أوقفوا أخيراً وردّوا وفقدوا أعداداً كبيرة من الرجال في تلك

العملية. والعراقيون المحتمون جيداً خلف تحصيناتهم أظهروا روحاً جديدة، إذ قاتلوا بمهارة وعزم لأنهم كانوا يدافعون عن وطنهم أفضل من الإمساك بخط سديمي غير واقعي داخل إيران. وكان صدام ناجحاً إلى درجة كبيرة في الترويج للنجاح العسكري في إيقاف الهجومات الإيرانية كنصرٍ عظيم. فأقيمت الاحتفالات والتجمعات الحاشدة في بغداد والمدن والقرى في كافة أرجاء القطر. فالأحاديث التي أدلى بها صدام وقيادة البعث وجهت اللوم إلى إيران في اندلاع الحرب في عام ١٩٨٠ فالمطالب التي أُعلنت في بداية الحرب، مثل إعادة ترسيم الحدود على طول شط العرب وقرار مطالبة العراق بالمناطق العربية في إيران، أُسقطت تماماً. وكلّ ما كان يبحث عنه صدام في الوقت الحاضر هو العودة إلى وضع ما قبل ١٩٨٠

ومع ذلك، فإنّ نجاح العراق في صد هجمات الأمواج البشرية الإيرانية لم يُثنِ آيات الله في طهران. وبقي هدف الإيرانيين الرئيس هو احتلال البصرة وإسقاط صدام حسين. وكانت استراتيجيتهم أن يحاصروا المدينة ويحطموا موقعها العسكري أو يجبروها على الاستسلام، أو تجنبها تماماً والاندفاع إلى الغرب، وقطع العراق إلى نصفين بشكل فعال. وفكّر الإيرانيون في أنّه بواسطة السيطرة على مساحة كبيرة من الأرض في جنوب العراق، المنطقة الشيعية الاستراتيجية، سيكون من الممكن إعلان حكومة محلية سيتمكن المعارضون لصدام من الانضمام إليها. والخوف من أنّ الإيرانيين كانوا يحاولون استراتيجية مماثلة أعقبت عملية عاصفة الصحراء في ١٩٩١ كان أحد الأسباب التي جعلت الحلفاء المنتصرين يرفضون دعم الثورة الشيعية ضد صدام.

بقي الإيرانيون مصممين على احتلال البصرة حتى لو كانوا غير قادرين على تحقيق خرق مهم. وشنّت هجومات مختلفة في قواطع مختلفة، كل هجوم حصل على أرض صغيرة عند مناطق الحدود العراقية. ومهما كانت التضحيات كبيرة، فلن يتخلى آيات الله عن هدفهم. ونتيجة لذلك كانت خسائر كلا الجانبين جسيمة. وقد تكبد العراق في عام ١٩٨٤ على الأقل ٦٥ ألف قتيل، وعلى الأقل خمسة أضعاف هذا العدد من الجرحى، وما بين ٥٠ ألف إلى ٦٠ ألف مقاتل وقعوا في الأسر. وبالمقارنة فقد الإيرانيون ١٨٠ ألف قتيل، و٥٠٠ ألف إصابة(٨) إنّ أرقام الخسائر كانت أعلى بكثير من أي شيء أضرّ بالعراق منذ استقلاله، ومن النادر أن تجد عائلة في القطر لم تتكبد خسارة. وموقف القدرة البشرية كان سيئاً للغاية في نهاية ١٩٨٤ حيث إنّ الحكومة عادت إلى استدعاء مَن أعمارهم سبعة عشر عاماً إلى الخدمة. وحاول صدام

أن يلطِّف السخط الذي سبّبه هدر الأرواح المخيف في الجبهة وذلك بإعطاء مكافآت سخية وفوائد متاحة إلى الأسر المنكوبة والأرامل. ومع ذلك، كان هناك انزعاج شعبي قوي في العراق حول مستوى الخسائر ومنذ ١٩٨٤ أمر صدام بتغيير التكتيكات التي صممت من أجل تقليل مستوى الخسائر في الجبهة. واعتمد العراقيون كثيراً على المدفعية الثقيلة والضربات الجوية لإيقاف هجمات الأمواج البشرية المتكررة التي يشنها الإيرانيون. ونجح العراقيون في إرهاق الإيرانيين بشن غارات متكررة في عمق المناطق الإيرانية آملين أن يثبتوا عجز السلطات في طهران عن حماية شعبها.

والخرق المهم الوحيد الذي قام به الإيرانيون خلال حرب الاستنزاف، كما سمّي الصراع في تلك الفترة، جاء في بداية ١٩٨٤ عندما سيطر الإيرانيون على جزر مجنون، وهما شريطان نحيفان من الأرض، مليئان بالنفط، يشرفان على الاتجاه الشمالي إلى البصرة. ونفذت العملية الإيرانية بتألق. وبهجوم ليلي، شقت قوات الكوماندوس الإيراني طريقها في صمت في أهوار الحويزة مستخدمة قوارب صغيرة مكونة من الزجاج الليفي آخذة العراقيين الذين كانوا يحرسون الحواجز على حين غرّة. وفي الفجر كان الإيرانيون يفرضون سيطرتهم الكاملة على الجزيرتين، شمالاً وجنوباً، وتخندقوا بشكلٍ جيد. وأقاموا عوّامة للتجسير لجلب الإمدادات والجنود الجدد. وفي غضون أيام زادوا في تأسيس رأس الجسر ليصل إلى ٣٠ ألف جندي وبنوا طريقاً معبدة موصلة تربط جزر مجنون بالبر الإيراني. وقام العراقيون بهجوم مضاد مرةً تلو أخرى، محاولين دفع الإيرانيين إلى المستنقعات وإرجاعهم إلى الحدود. بيد أنّ الأهوار المليئة بالقصب تغلبت عليهم. وعلق النبات الكثيف بدوافع المدرعات العراقية البرمائية، مما جعل منها هدفاً سهلاً للقناصة الإيرانيين. وصدام الغاضب لأن قواته غير قادرة على زحزحة الإيرانيين العنيدين، قرر بأنه لم يتبقَّ لديه إلا خيار واحد ـ وهو استخدام الغاز السام المنتج حالياً في مصانع الأسلحة الكيمياوية الجديدة التي تحت السيطرة في سلمان باك وسامراء.

وأفرغ الطيّارون العراقيون قنابلهم من طائرات الهليوكوبتر السوفيتية، والألمانية والفرنسية الصنع. ثمة مضخة كهربائية صغيرة في داخل براميل تحدث صدمة، فيتطاير المزيج في غيمة قاتلة. وفي هجومات أخرى رشت طائرات الهليكوبتر الإيرانيين بسائل دهني أصفر ملأ المنطقة برائحة الثوم. والإيرانيون، الذين لم تكن لديهم ملابس واقية، مرضوا حالاً وخلال دقائق بدأوا يتقيأون سائلاً أصفر، واحمرّت جلودهم. وإلى أن وصل الأطباء إلى ساحة المعركة، كان بعض الجنود قد فارقوا الحياة في ذلك الحين،

وقد اسودّت وجوههم بذلك الغاز بشكل مخيف. وآخرون ظهرت على كامل أجسادهم بثور بلون الكهرمان وكانوا يعانون من صعوبة في التنفس.[٩]

والعراقيون، بطبيعة الحال، أنكروا وبقوة استخدام الأسلحة الكيمياوية، ولكن في شهر مارس ١٩٨٤ زارت مجموعة من خبراء الأمم المتحدة إيران للتحقيق في المزاعم. واستنتج فريق الأمم المتحدة أن العراق قد استخدم غاز الخردل وغاز الأعصاب الكيمياوي تابون، الذي طوّره النازيون لأول مرة وتم تصنيعه في الوقت الحاضر في مجمّع سلمان باك العسكري في الصويرة، وقد أنشئ بمساعدة عدد من الشركات الألمانية. وبالرغم من أنّ تابون قد طوّر على يد النازيين، إلا أن هتلر قد امتنع عن استخدامه في ساحة المعركة. ومن الواضح أنّ صدام لم يكن لديه وخز الضمير هذا.

إنّ استخدام الأسلحة الكيمياوية ضد الإيرانيين ارتدّ على صدام في أكثر من طريقة. في البداية كان استخدام الغاز السام رادعاً فعالاً بالرغم من أنّ الاستخدام الأول للغاز فاجأ الإيرانيين، وأوقع بهم خسائر كبيرة، إلا أن الظروف الجوية نادراً ما تكون ملائمة لاستعماله، ولما كانت الريح تغيّر اتجاهها فإنها قد تهب ضد الجنود العراقيين. «العراقيون كانوا يكرهون استخدام الغاز السام»، حسب ما ذكره ملحق عسكري سابق كان مقيماً في بغداد في ذلك الوقت. «كان صعب الاستعمال وكان يشكل تهديداً كبيراً لقواتهم بمثل ما يشكل للعدو»[١٠] وأثبت الإيرانيون أيضاً مهارةً في تغيير تكتيكاتهم للتعامل مع التهديد الجديد. ولما استعمل العراقيون الغاز السام في السنة التالية، كان الجنود الإيرانيون في خطوط الجبهة الأمامية مزوّدين بكمامات من ألمانيا الغربية، وقناني الأتروبين الشخصية، وهو عنصر سريع الفعالية يستعمل لمواجهة غاز الأعصاب. وتأكيد مفتشي الأمم المتحدة على أنّ العراق كان يستعمل الأسلحة الكيمياوية ضد الإيرانيين أدى إلى إعادة تقييم معظم البلدان الغربية لسياستها في دعم العراق.

وقبل الفضيحة المتعلقة باستخدام العراق لغاز الأعصاب في ساحة المعركة، كان صدام قد استخدم أسلوب الدعاية نفسه في الخارج كما استخدمه في الداخل في تحويل الحرب لصالحه. في بداية الحرب كان الرأي العام الخاص بأولئك الذين لم يتورطوا مباشرة في الصراع قد وضّحه بشكلٍ أفضل الدكتور هنري كيسنجر، وزير خارجية الولايات المتحدة السابق، الذي كان يرثي حقيقة أنّ كلا الجانبين لن يخسرا. وبفضل مهارات الدعاية المتميزة لصدام، فإن معظم القوى الغربية في ١٩٨٤، مع

أكثرية الدول العربية، كانت تتأرجح في دعم المجهود الحربي العراقي. ومن الإنصاف أن نقول بأنه في بداية الحرب الإيرانية ـ العراقية قليل من الناس خارج المجال المغلق للدبلوماسية العالمية قد سمعوا بصدام، بالرغم من استحواذه على الدعاية والترويج الذاتي. ومن ناحيةٍ أخرى وفي بداية الثمانينيات كان معظم الناس يعون جيداً الثورة الإيرانية، وتعصّب الحرس الثوري للخميني. إنّ محاصرة السفارة الأمريكية في طهران والبعثة العسكرية الأمريكية المشؤومة لإنقاذ الرهائن في أواخر عام ١٩٨٠، قد حطمتا رئاسة جيمي كارتر. إنّ محاولات الإيرانيين لتصدير ثورتهم إلى دول الخليج ولبنان، حيث تأسست ميليشيا حزب الله التي موّلت وسلحت ودربت على يد الحرس الثوري الإيراني، والتي شكلت تهديداً مباشراً للمصالح الغربية في شرق البحر الأبيض المتوسط، قد حول إيران إلى دولة منبوذة. وبالرغم من أنّ اللوم في الحث على الحرب يقع على صدام، فإنه في بداية ١٩٨٣ كان العراقيون غير قادرين على الزعم، وبتبرير واسع، أنّ الإيرانيين كانوا مسؤولين كلياً عن استمرارهم في الحرب.

ومهما بدا نظام صدام الشمولي غير جذاب بالنسبة للعالم الخارجي، فإنّ بغداد وجدت نفسها جاذبة لخليط انتقائي من المناصرين الذين رأوا في القضية العراقية متراساً جوهرياً ضدّ تقدم تيار التعصب الإسلامي مجسداً بآيات الله في طهران. وفراق صدام الأول كان مع السوفيت، أحد أكبر مورّدي الأسلحة التقليديين لبغداد، والذي كان رد فعله تجاه غزو العراق لإيران بإعلان الحيادية وفرض حظر على الأسلحة. والعلاقات بينَ موسكو وبغداد أصبحت متوترة قبل الحرب بسبب انزعاج السوفيت المتزايد من اضطهاد صدام للحزب الشيوعي. ولكن معاداة صدام للشيوعية كانت طيّعةً عند مقارنتها بالخطاب المعادي للشيوعيين والسوفيت الصادر من طهران، والذي بلغت ذروته في عام ١٩٨٣ بإعدام آيات الله لقادة حزب توده، الحزب الشيوعي الإيراني. وفي عام ١٩٨١ استأنف السوفيت شحنات الأسلحة إلى بغداد بمستوياتٍ معتدلة، ولكن في عام ١٩٨٣ كانت موسكو مستعدة لبيع العراقيين تجهيزات متميزة مثل الصواريخ الباليستية SS-12، التي يصل مداها إلى ٨٠٠ كم، والقادرة على دك الأهداف في العمق الإيراني. وأرسل السوفيت أيضاً ألفاً ومائتين من الخبراء العسكريين للمساعدة في المجهود الحربي العراقي.

أما العلاقات مع مصر، والتي تدهورت بعد اتفاقية كامب ديفيد للسلام، فقد أُعيد ترميمها بعد اغتيال الرئيس أنور السادات في عام ١٩٨١ وحسني مبارك، الرئيس المصري الجديد، الذي كان يحاول أن يحتوي مثيري القلاقل من الإسلاميين، وافق

على تزويد العراق بقطع غيار لأنظمة أسلحته السوفيتية، إضافة إلى الدبابات والمعدات الأخرى. والفرنسيون الذين تمتعوا بتجارة أسلحة مربحة مع بغداد منذ منتصف السبعينيات، تفاوضوا في صفقة قرض للعراقيين لامتلاك خمسة طائرات حربية من طراز سوبر اتيندار Super Etendard مجهزة بصواريخ تعقُّب حراري وأنظمة توجيه والتي كانت تستخدم بشكل أساسي للهجمات على السفن في الخليج.

ومن عام ١٩٨٣ فصاعدا تلقى العراق دعماً كبيراً من دول الخليج التي كانت حريصة على احتواء الخطر الذي شكلته الثورة الإيرانية. وقد انهارت إيرادات النفط العراقي نتيجة لعجزهِ عن شحن نفطهِ عبر الخليج بعدما أغلقت سوريا أنبوب النفط المؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط. وإيرادات النفط الإيراني، والتي كانت عائمة في واقع الأمر حيث إنّ الموانئ الجنوبية لإيران لم تصب بأذى نسبياً خلال المراحل الأولى للحرب، وقد ازدادت تقريباً ثلاثة أضعاف ما بين ١٩٨١ و١٩٨٣[١١] ولأن المجهود الحربي يكلف العراق ما قيمته مليار دولار شهرياً، فإنّ التبرعات التي قدمتها دول الخليج كانت من الصعب أن تبقي الاقتصاد العراقي عائماً، حتى بعد تخفيض صدام إنفاقه على السلع الاستهلاكية في ١٩٨٢ وإذا ما نجح الإيرانيون في خرق الخطوط العراقية، فإن الدول الخليجية غير المسلحة كانت تدرك جيداً أنها في جدول أعمال إيران. ونتيجة لذلك تلقى العراق تبرعات بلغت قيمتها ٢٥ مليار دولار لمجهوده الحربي، أُنفق معظمها على إعادة تسليح القوات المسلحة.

والقوى الغربية، مع الاستثناء البارز لفرنسا، اعترفت علناً بسياسة الحياد المدروس في الحرب بينما تدعم العراقيين بشكل خاص. ثمة إجماع عام على أنّ النصر الإيراني ستكون له نتائج وخيمة على استقرار وأمن الخليج. ولعلّ التطور الدبلوماسي الأكثر مفاجأة في تلك الفترة هو التقارب ما بين بغداد وواشنطن. فقد بدأت وزارة الخارجية الأمريكية تنظر إلى التطورات الدرامية في ساحة المعركة بخشية. والأمنية الأولى لإدارة كارتر في أن يردع الغزو العراقي الإيرانيين من محاولة تصدير الثورة إلى الشرق الأوسط قد أخفقت. والحقيقة أنه ما لم يحصل صدام على المساعدة، فهناك توقع حقيقي في واشنطن بأن إيران قد تربح الحرب. وكخطوةٍ أولى تجاه حسم خمسة عشر عاماً من العداء المتبادل بين واشنطن وبغداد، شطبت وزارة الخارجية الأمريكية في ١٩٨٢ اسم العراق من قائمة البلدان التي يشك في دعمها للإرهاب العالمي. وكانت البلدان الواردة في القائمة تخضع لقيود السياسة الخارجية، وبإزاحة العراق من القائمة امتلكت الولايات المتحدة حرية أكثر في التحرك إذا ما أرادت أن تدعم بغداد. وبعد فترة من

تلك السنة أدى التغير في السياسة إلى أن تقر إدارة ريغان بيع ستين طائرة هليكوبتر من طراز هيوز، وهو نوع من الطائرات صمم خصيصاً لمراقبة ميدان المعركة. وبُعيدَ وصول طائرات الهليكوبتر الجديدة إلى العراق في ١٩٨٣ أُعدّت بسهولة لتطلق صواريخ تاو المضادة للدبابات، واستُخدمت بكامل طاقتها الهجومية ضد المواقع الإيرانية.

وتواصل التناغم الدبلوماسي لواشنطن مع بغداد في صيف ١٩٨٣ بزيارة قام بها عصمت كتاني، وكيل وزير الخارجية العراقي، إلى واشنطن. وبودل ذلك في ديسمبر التالي بزيارة إلى بغداد قام بها دونالد رامسفيلد الذي كان في ذلك الوقت مبعوثاً خاصاً للرئيس رونالد ريغان للشرق الأوسط. إنّ موقع رامسفيلد المعلوم كواحدٍ من القادة المهللين لصالح عمل عسكري ضد صدام في أعقاب الهجمات الإرهابية التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ضد الولايات المتحدة، والأمر الذي يبعث على السخرية نوعاً ما هو أنّ رامسفيلد لعب دوراً رئيساً في المساعدة على إخراج العراق من عزلته الدبلوماسية في الثمانينيات. وطبقاً لديفيد ماك، الدبلوماسي الأمريكي السابق الذي رافق رامسفيلد في مهمته إلى بغداد، فإن الرغبة الأمريكية في إعادة فتح القنوات الرسمية مع العراق عكست الأولويات الجيو ـ سياسية الأمريكية المختلفة الخاصة بالشرق الأوسط في ذلك الوقت. «نحن كنا نهتم بجلب الضغوط المؤثرة على سوريا، وبدت فكرة طيبة لطيّ خلافاتنا مع بغداد». والنظام السوري، الذي تمتع بروابط وثيقة مع موسكو، كان في ذلك الوقت يدعم الجماعات الإسلامية الشيعية اللبنانية الراديكالية مثل حزب الله، والتي فجّرت السفارة الأمريكية ومجمع البحرية الأمريكية في بيروت في بواكير ١٩٨٣ «العلاقات كانت تتحسن مع بغداد منذ نهاية السبعينيات فصاعداً، غير أنها كانت عملية صعبة وبطيئة. وكان من الصعب جداً بالنسبة لنا أن نقرأ الإشارات الصادرة عن بغداد. ولكن بالحرب التي كانت تسير بشكلٍ سيّئ جداً بالنسبة لصدام، إضافة إلى السوريين الذين سببّوا لنا المزيد من الأسى في بيروت، اعتقدنا أنه من المعقول أن نتعامل مع صدام. وأردنا أن نقيم محور القاهرة ـ عمان ـ بغداد الذي سيدفع بالرئيس الأسد إلى الجنون»[١٢]

إنّ تفجير السفارة الأمريكية ومجمع البحرية الأمريكية في بيروت كانَ في الواقع نقطة التحول الرئيسة في قرار واشنطن لبناء الجسور مع بغداد. فتفجير السفارة، في إبريل ١٩٨٣، وقع خلال اجتماع لمسؤولي محطة CIA في الشرق الأوسط. وبضربةٍ واحدة محق معظم خبراء الـ CIA وأفضلهم في الشرق الأوسط. وفي غضون أسابيع

أكدت انصاتات الأقمار الصناعية للمحادثات الهاتفية الشكوك الأمريكية ـ على أنّ الإرهابيين الذين كانوا مسؤولين عن التفجير كانوا موجّهين من طهران. فالولايات المتحدة كانت في ذلك الوقت في حرب غير رسمية مع إيران. وتحركت الولايات المتحدة بسرعة، وفي الشهر التالي التقى وزير الخارجية جورج شولتز سراً بطارق عزيز، وزير الخارجية العراقي خلال رحلةٍ إلى باريس. ورأى كل من شولتز وعزيز أنّ منطق تجميع الإمكانات في القتال ضد آيات الله، ولكن الولايات المتحدة ما زالت حذرة من تطبيع العلاقات ما دام صدام يؤوي أبا نضال، الذي دبر وحده في السنة الماضية محاولة اغتيال شلومو آرغوف، السفير الإسرائيلي في لندن (أنظر الفصل الثامن). ولكي توافق واشنطن على تطبيع العلاقات مع بغداد، أصرّ شولتز أنّ على صدام أن يتخلص من أبي نضال أولاً وأجبر القائد العراقي في حينه، بطريقة غريبة قابلة للتصور. وبُعيد لقاء شولتز ـ عزيز أعلنت وسائل الإعلام العراقية التابعة للدولة بجدية أنّ أبا نضال قد مات بسكتة قلبية. وأكدت البيان «مصادر» قريبة من الإرهابي الفلسطيني. وبعد شهر، وكما كان البيان يبدأ بكسب التصديق في المجتمع الاستخباراتي الدولي، أعلن الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي أن أبا نضال حي ويعيش في طرابلس، وبذلك أضعف محاولة صدام الحاذقة جداً ليغسل يديه من قضية أبي نضال.

تقارب الولايات المتحدة ـ صدام جمع زخماً في ديسمبر ١٩٨٣ عندما طار رامسفيلد إلى بغداد. وخلال الزيارة التقى رامسفيلد بصدام وسلمه رسالة شخصية من الرئيس ريغان. وكانت الزيارة ناجحة لأنه، بعد عودة رامسفيلد إلى واشنطن، بدأت الولايات المتحدة بالضغط على حلفائها بعدم توريد الأسلحة إلى إيران. وفي نوفمبر ١٩٨٤ أدت العلاقات العراقية الأمريكية إلى المشاركة في بناء خطوط أنابيب النفط الجديدة عبر الأردن والعربية السعودية لتزويد بغداد بمنافذ جديدة لمبيعاتها النفطية. وردّ صدام بإرسال طارق عزيز، وزير خارجيته، إلى واشنطن، حيث سلم رسالةً من صدام إلى الرئيس ريغان والأعضاء القياديين الآخرين في الإدارة الأمريكية. وقد احتفظت الولايات المتحدة بهدوء بضابط CIA في بغداد منذ أوائل ١٩٧٩[١٣]، وبكل تأكيد كانت وكالة الاستخبارات المركزية نشطة في بغداد من ١٩٨٤ فصاعداً. ومع ذلك، فإنّ الولايات المتحدة في ذلك الوقت ما زالت تحجم عن تسليح العراقيين واحتفظت بسياسة الحياد، باستثناء ستين طائرة هليكوبتر من طراز هيوز باعتها في عام ١٩٨٢ «للاستعمال الزراعي». وأصرّ ديفيد ماك على أنّ واشنطن لم تبع أية أسلحة للعراق. «نحن لم نزوّد العراق بأية معدات عسكرية» قال مؤكداً. «المعدات الأمريكية

الوحيدة التي أرسلناها إلى بغداد كانت عبارة عن مسدسين بمقبضٍ لؤلؤي طلبهما صدام بشكلٍ خاص لإعطائهما إلى شخصٍ ما كهدية. هذا كل ما في الأمر. ليس هناك شيء آخر».

والمساهمة المهمة جداً التي قامت بها الولايات المتحدة حيال المجهود الحربي العراقي هي بدون شك استخبارات من النوع الرفيع خاصة باستعدادات الجيش الإيراني وفرقها، بواسطة الأقمار الصناعية التجسسية الخاصة بوكالة الاستخبارات المركزية. وبعيد عودة العلاقات الدبلوماسية كاملةً، أرسل الأمريكيون فريق ارتباط تابع لـ CIA إلى بغداد لتسليم صور الأقمار الصناعية وتبادل المعلومات التي التقطتها طائرات المراقبة الأمريكية أواكس AWACS المتمركزة في السعودية. وسرعان ما أقيم الارتباط الاستخباراتي ما بين لانغلي وفرجينيا والمركز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية وبغداد وعلى هذا الأساس عيّن صدام ثلاثة ضباط من الاستخبارات العسكرية في العراق، ليعملوا كضباط ارتباطٍ مع الأمريكان. ودفعت الإعانة الأمريكية بعد وقت قصير حصصاً من أرباح الأسهم. وعندما أسقطت المقاتلات السعودية في يونيو ١٩٨٤ طائرة إيرانية من نوع F-4 حاولت أن تهاجم هدفاً في المياه الإقليمية السعودية، اعترفت واشنطن بأنّ ذلك التحرش كان قد وجّه من طائرة الأواكس «السعودية» التي يديرها طاقم أمريكي.

واللواء وفيق السامرائي، الذي كان أحد ضباط الارتباط العراقيين مع الولايات المتحدة، ذكر أنّ المعلومات مفيدة جداً للمجهود الحربي العراقي. وعند الإعداد للهجوم، كان ضباطُه يطلبون بصورة روتينية معلومات استخباراتية محددة من الأمريكان. «اعتدت القول، مثلاً، أعطونا معلوماتٍ عن قاطع البصرة». وبالرغم من أنّ الأمريكان وفروا المعلومات، إلا أنّ صدام بقي يشك كثيراً في علاقتهم، إلى حد أنّه وضع السامرائي تحت المراقبة المكثفة لقوى أمنه الخاص. وصدام شخصياً وجه ضباطه الكبار حول الطريقة التي يذهبون بها للبحث عن معلومات من حلفائهم في الاستخبارات الأمريكية المركزية. وعندما كان صدام يريد معلوماتٍ عن قاطع البصرة، مثلاً، كان يخبر السامرائي «أطلب منهم أن يعطونا معلومات من شمال العراق حتى جنوبه، لأننا لو نخبرهم عن البصرة، سيخبرون الإيرانيين». والسامرائي الذي يملك مذكرات في بعض الأحيان حول اتصالاته الأمريكية، والتي كان يطلبها منه صدام باستمرار، عاد بملاحظات تحذيرية كتبت في الهوامش بخربشة صدام المتميزة «كن حذراً. الأمريكيون متآمرون».

إنّ شكوك صدام حول ازدواجية بنية الاستخبارات الأمريكية ولد من كشف الفضيحة السيئة الصيت إيران ـ كونترا Iran-Contra في ١٩٨٦ وأحد أسباب الإفشاء في أواخر ١٩٨٦، هو أنّ الولايات المتحدة كانت تشحن سراً صواريخ مضادة للدبابات إلى إيران منذ ١٩٨٥ وسبب ذلك الإحراج في واشنطن هو أنّ سياسة الولايات المتحدة كانت موجهة صوب دعم العراق في حربه مع إيران. إنّ فضيحة إيران غيت، كما أصبحت تعرف، التي حاكها الكولونيل أوليفر نورث رئيس مجلس الأمن القومي، صممت لشراء إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين المحتجزين في لبنان، ولكن تم التخلي عنها عندما كشفت تفاصيل الصفقة. وبعض الأسلحة المضادة للدبابات تاو TOW التي جهزتها الولايات المتحدة وجدت طريقها فعلاً إلى الجبهة الإيرانية، حيث ساعدت الإيرانيين في تحقيق خرق استراتيجي في جبهة البصرة.

في أوائل الثمانينيات كانت بريطانيا تحاول أن تحتفظ بالموقف الحيادي. وسير جون موبرلي، الذي كان سفيراً لبريطانيا في العراق بين ١٩٨٢ و١٩٨٥ قال بأنّ بريطانيا لم تعتقد بأن العراق كان في خطر من اجتياح إيران له، وهذا الأمر يختلف عن الولايات المتحدة. «الرأي الأمريكي هو أن هناك خطرا حقيقيا في هزيمة العراق على يد الإيرانيين ولذا كان عليهم أن يفعلوا أي شيء يمكنهم من تقوية العراقيين. ومع ذلك، نحن كنا إلى حد ما أكثر شكاً بالأمور». وبسبب تشدّد بريطانيا حول تزويد العراق بالأسلحة، رأى موبرلي صدام بمناسباتٍ نادرة فقط، وعندما قام بذلك أصبح متأثراً بما رأى. «كان رجلاً يمتلك شخصية قوية بوضوح وكان يسيطر على الأحداث. الجميع في العراق عرف أين يقف. هم كانوا يدركون جيداً بأنهم لو تجاوزوا الخط ستكون النهاية بالنسبة لهم. واتفق معظم العراقيين على أنّ العراق بحاجةٍ إلى قائد قوي من أجل حفظ القانون والنظام والسيطرة على البلد معاً. وحقق صدام كل تلك المعايير». من ناحيةٍ ثانية، كان موبرلي على اتصال مستمر مع طارق عزيز، وزير الخارجية في نظام صدام، الذي كان دائماً يوبخ المبعوث البريطاني حول موقف حكومة تاتشر. «كان عزيز يشكو دائماً بأنه حصل على استقبال من الأمريكان أفضل مما حصل عليه من البريطانيين ونحن، كقوة استعمارية سابقة، علينا أن نمتلك تفهماً أكثر للشعب العراقي. وقال عزيز: أنتم شعب يجب أن يفهمنا، ولكن بدلاً من ذلك نحن نجد عملياً بأننا نحصل على إجابات من الولايات المتحدة أفضل بكثير مما نحصل عليه من المملكة المتحدة»(١٤)

في الحقيقة، لأكثر فترات الحرب كان الموقف البريطاني في الخليج مغلفاً في

الوقت الحاضر بالتوجيهات المشينة حول مبيعات الأسلحة والتي قدمها إلى مجلس العموم جيفري هاو، وزير الخارجية في عام ١٩٨٥، عندما بيّن بأن بريطانيا رفضت أن تزوّد كلا الجانبين «بمعدات دفاعية مميتة» كجزء من سياسة بريطانيا «العمل أي شيء ممكن لنرى ذلك الصراع المأساوي وهو يصل إلى نهاية ممكنة على أقل تقدير». في أواخر ١٩٨٤كان هناك دليل متزايد على أنّ العراقيين كانوا يستعملون الأسلحة الكيمياوية كوسيلة لمواجهة هجمات الأمواج البشرية الإيرانية، وشرع عدد من منظمات حقوق الإنسان في التحقيق في تلك المزاعم. وكان لتقارير الأمم المتحدة صداها خاصة في لندن، حيث التأكيد على استخدام العراق للأسلحة الكيمياوية، مجتمعاً مع سجل العراق المرعب تجاه حقوق الإنسان، أقنع حكومة تاتشر بفرض قيود صارمة على تجارة بريطانيا إلى العراق. هناك عدد من الصفقات لتزويد بغداد بمعدات غير مميتة مثل إلكترونيات الرادار، والتي وافقت عليها الحكومة البريطانية. ونحو نهاية الحرب فقط كانت حكومة تاتشر قد استجابت وبهدوء لمزيد من التفسير الحر لما شكلته المعدات «غير المميتة»، والقرار بالسماح لشركة تشرشل ـ ماتريكس البريطانية بأن تصدّر إلى بغداد معداتٍ مصممة لصنع أسلحة معقدة كانت ستؤدي إلى فضيحة «عراق ـ غيت».

وبالأموال والأسلحة التي تأتي إلى بغداد، انتقلت الحرب إلى مرحلة جديدة من ١٩٨٤ فصاعداً. وفي محاولةٍ لإجبار الإيرانيين على مائدة التفاوض، سعى صدام إلى إضعاف معنويات السكان المدنيين عبر تدمير الاقتصاد الإيراني. ففي فبراير ١٩٨٤ شرع باستعمال صواريخ سوفيتية مستوردة حديثاً ليدك المدن الإيرانية، وهي تشبه إلى حد كبير الصواريخ الألمانية 'V2 'doodlebug التي أطلقت على بريطانيا في المراحل الختامية للحرب العالمية الثانية. وأثار ذلك ما أصبح يعرف بمعركة المدن الأولى، لأن الإيرانيين ردّوا بالمثل بسرعة. ومعركة المدن الثانية وقعت في مارس وإبريل ١٩٨٥، ومن وجهة نظر صدام، بدأت تعطي أُكلها لأنّ دك طهران المتواصل بالصواريخ العراقية أدى إلى تظاهرات واسعة النطاق ضد الحكومة الإيرانية.

وفضلاً عن إضعاف معنويات الإيرانيين، كان هدف صدام الأساسي الآخر من منتصف الثمانينيات فصاعداً هو تدويل الصراع على أمل أن يقتنع الغرب بإنهاء الحرب لصالحه. وعلى هذا الأساس وفي مارس ١٩٨٤ أمر طائرات Super Etendard التي حصل عليها من فرنسا حديثاً بشن هجمات طويلة المدى على محطات وسفن شحن النفط الإيراني في الخليج. وفي البدء تركزت الهجمات العراقية على ناقلات البترول

المرابطة في الموانئ الإيرانية، خاصة محطة جزيرة خرج. وفي الأشهر الأولى تم ضرب سبعين باخرة بصواريخ Exocet العالية الكفاءة والمنطلقة من طائرات Etendard.

واستمرت الحرب على الخطوط نفسها حتى فبراير ١٩٨٦ عندما قام الإيرانيون باختراق مفاجئ في ساحة القتال وسيطروا على شبه جزيرة الفاو جنوب البصرة، ووضع ذلك ثاني كبرى مدينة عراقية في خطر جدّي يؤول إلى سيطرة طهران عليها. وبالرغم من أن شبه جزيرة الفاو لا أهمية لها من الناحية العسكرية، إلا أنها شكلت انتكاسةً سياسية مهمة لصدام في الوقت الذي أظهر فيه العراق تقدماً على جبهات الحرب. وضاعف صدام من تلك النكسة بتوجيه الأوامر لقوّاده لاستعادة الفاو، إلا أنّ وقت إعطائه الأوامر كان متأخراً جداً. تخندق الإيرانيون بمواقع جيدة جداً لا يتزحزحون عنها. وتنفيذاً لأوامر صدام، صبّ القادة العراقيون الرجال والمعدات في شبه الجزيرة، وتكبدوا خسائر مرعبة. وبلغت خسائر القوة البشرية العراقية إجمالاً ما بين ٨ آلاف و١٠ آلاف قتيل وأُجبر الجيش العراقي على تنظيم قطارات خاصة لنقل الجرحى، والرقم المماثل للخسائر الإيرانية كان ٢٠ ألف قتيل[١٥].

إنّ الفشل في إعادة السيطرة على الفاو جعل صدام يرتكب خطأً استراتيجياً آخر. وليأسهِ من النصر، أمر الجيش العراقي بشن هجوم على الجبهة الوسطى للسيطرة على مدينة مهران الإيرانية. وكانت استراتيجية صدام ثنائية: أراد أن يظهر للعراقيين أنّ قواتهم المسلحة لم تزل قادرة على القيام بفعل هجومي، وأراد السيطرة على أرض إيرانية يمكن استخدامها كورقة مقايضة لاسترجاع الفاو. وفي البداية نجح العراقيون، الذين هاجموا في شهر مايو بأربعة فرق، في السيطرة على المدينة التي يحرسها بلا مبالاة خمسة آلاف جندي إيراني تم دحرهم بسرعة متكبدين خسائر فادحة في العملية. وبكل تأكيد رفع ذلك الانتصار من معنويات القوات المسلحة، وكان صدام سريعاً باستغلال الإمكانية الدعائية. بيد أنّ النصر كان قصير العمر. رفض الإيرانيون عرض صدام باستبدال مهران بالفاو، وفي نهاية يونيو شنوا هجوماً معاكساً باغت المحتلين العراقيين. وفي أوائل تموز، رجعت مهران تحت السيطرة الإيرانية وتكبد العراقيون خسائر كبيرة.

إن خسارة الفاو، والخسائر الثقيلة التي تكبدها العراقيون كنتيجة لمطالبة صدام للقوات المسلحة بشنّ سلسلة من محاولات بلا جدوى لاسترجاع الأرض، شكّلت جرحاً عميقاً بالنسبةِ له. إنّ مغامرة مهران كانت مثالاً آخر للمشاكل التي سببها إشراف

المدنيين على عمليات عسكرية. إن إصرار صدام شخصياً على توجيه المجهود الحربي ساهم دون أدنى شك في فشل قدرة الإطلاق العسكرية المتفوقة للعراق في مقاومة الهجوم الإيراني الأولى. وحثّت خسارة جزيرة الفاو على رد فعل من الرئيس العراقي الذي أوشك على اللاعقلانية. وحث العراقيين على التبرع بالمال والدم والعمل لساعات أطول. وتم تسجيل مائة ألف من الرجال والنساء والأطفال لقطع القصب في الأهوار الجنوبية للمساعدة في تسهيل العمليات العسكرية في المنطقة. وفي محاولة لتخفيف التفوق الديموغرافي الشديد لإيران، قام صدام شخصياً بحملةٍ واسعة النطاق وذلك لتشجيع التناسل. «شعارنا يجب أن يكون أنَّ على كل أسرة أن تنجب خمسة أطفال والأسر التي تفشل في إنجاب أربعة أطفال على الأقل تستحق أن توّبخ بقسوة». ونصح الطالبات بقوة أن يخترن الحمل على الدراسة. إنّ الخسائر الفادحة التي تكبدها العراق في هجومات الفاو جعل السلطات العراقية تلجأ إلى إجراءات يائسة كتبرعات الدم الإجبارية، وتجنيد طواقم الفنادق السياحية الرائدة، وإجبار سيارات الأجرة الفارغة الذاهبة شمالاً من البصرة على حمل الجثث في داخلها أو فوق حوامل السقف.

وفي تلك المرحلة العصيبة من الصراع شعر قادة العراق العسكريون بالخيبة لتدخل صدام المستمر في قيادتهم للحرب واقتربوا من القيام بالتمرد. والمثل على خيبة أمل العسكر المتزايدة من صدام بان بنفسه في شتاء ١٩٨٦، عندما تصادم مع اللواء ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق السابع. عبد الرشيد، الرفيق التكريتي وخمو الابن الثاني لصدام، قصي، هو أحد ضباط العراق الناجحين حقاً. واشتهر عبد الرشيد بالإفصاح عن رأيه بصراحة، والخسارة الهائلة لحياة العراقيين في الفاو، والتي كان يعتقد بإمكانية تجنبها، جعلته ينتقد علناً تكتيكات صدام. وفي مقابلة صريحة نشرت في الصحافة الكويتية، بيّن عبد الرشيد بشكلٍ جلي بأنّ العدد الكبير من الخسائر العراقية التي وقعت في معركة الفاو لا ضرورة له. غضب صدام وأمر عبد الرشيد بالقدوم إلى بغداد ليوضح الأمر بنفسه. ولإدراكهم ما كان يعنيه الأمر، نقل ضباط عبد الرشيد تحذيراً إلى صدام مفاده أنهم لن يستمروا في المجهود الحربي إذا ما وقع شيء غير طيب لقائدهم. وعند وصولهِ إلى القصر الرئاسي قلد صدام المبتسم عبد الرشيد وساماً وأرجأ انتقامه منه إلى وقت آخر. وبعد الحرب أُجبر عبد الرشيد على التخلي عن منصبه ووضع تحت الإقامة الجبرية.

والشيء المهم أن الضباط لم يبحثوا عن سلطة سياسية بمواجهتهم مع صدام، كما كان ذلك في الانقلابات العسكرية السابقة، وإنما كانوا يتمنون وببساطة أن يستخدموا

حكمهم المحترف لمواصلة الحرب ضد إيران. وكانوا ناجحين في ذلك الوقت. ولبقية الحرب كان القادة قادرين على الإصرار بأنهم كانوا يديرون الحرب وليس السياسيون. وكان صدام يرى قليلاً وقليلاً في اجتماعات مجلس الدفاع الأعلى، الهيئة المشرفة على المجهود الحربي، إلا أنّه من الواضح بأن زياراته كانت من أجل رفع المعنويات بين الجنود، والرواية التي تقول بأن صدام كان شخصياً يدير العمليات الناجحة كانت مستبعدة تماماً.

والدلائل على أنّ صدام أصبح لاعقلانياً أكثر فأكثر في قيادته لم تكن مقتصرة على الميدان العسكري. ففي منتصف الثمانينيات أعلن أنه قد طرد حامد الجبوري، وزير خارجيته، بعد أن اتصل صدام الشغول هاتفياً بمكتب الوزير لمرتين ولم يتلق أيّ رد. وبتصوره أن الوزير قد تأخر عن العمل، فصله صدام في لحظة وصوله إلى المكتب. ورفض صدام أن يلغي قراره حتى بعد أن أبلغه الوزير بأنّ لديه سبباً شرعياً لعدم تواجده في المكتب بكل ما في الكلمة من معنى ـ لقد كان يستقبل وفداً رسمياً في مطار بغداد الدولي. وبالرغم من ارتشاء عائلته، بدأ صدام بحملةٍ كبيرة مناوئة للفساد ضد العراقيين المتهمين بأخذ عمولات غير شرعية على العقود الحكومية. ومنذ السبعينيات اعتبر البعثيون الفساد جريمة خطيرة، ولكن خلال سنوات الازدهار في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات تم وبصورة عامة التغاضي عن المقاولين العراقيين الذين صنعوا ثروات صغيرة لأنفسهم من عمولات العقود الأجنبية الكبيرة. إنّ التشدد في منتصف الثمانينيات رافق صدام ليبعث من جديد القانون المضاد للفساد ونتج عن ذلك أنّ عبد الوهاب المفتي، محافظ بغداد، الذي تولى ذلك المنصب بعد خير الله طلفاح أعدم شنقاً بذريعة أنه قد تلقى رشوة من شركةٍ بريطانية كانت تجهز بغداد بعربات النفاية وسيارات الإطفاء.

إن الانهيار في العائدات النفطية أدى إلى تخلّف العراقيين عن مدفوعات تجهيزات أسلحتهم. وحتى بداية الحرب مع إيران، كانت بغداد قد تمتعت بسمعة الدفع الفوري، وذلك كان أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت الحكومات الغربية تحرص على عقد صفقات تجارية مع البعثيين. ولكن في منتصف الثمانينيات كانت الأموال قليلة وكان صدام عاجزاً عن تلبية مدفوعات شحنات الأسلحة التي كان يحتاجها في دعم المجهود الحربي. وكان الروس والفرنسيون أكثر تضرراً، بالرغم من أن شكواهم المستمرة في دائرة بغداد الدبلوماسية من أنهم لن يستطيعوا أن يجعلوا العراقيين يسددون ديونهم أثارت القليل من التعاطف من زملائهم الدبلوماسيين. «أعتقد بأننا

جميعاً اعتقدنا بأنهم، الفرنسيين بشكل خاص، حصلوا على ما كانوا يستحقون»، علّق دبلوماسي غربي سابق[١٦].

وبإدراكه أن موقفه أصبح يائساً أكثر فأكثر، قام صدام بمحاولةٍ أخرى متوسلاً السلام. غير أنّ آيات الله بقوا مصرّين على أن أحد شروطهم الرئيسة لإيقاف القتال هو إزاحة صدام عن السلطة. ولأن علة صدام على العموم هي بقاؤه، فإن مطلب الإيرانيين كان مستحيلاً على نحو واضح. واستجاب صدام بهجومٍ جويّ عنيف ضد تجمّعات السُكان الرئيسة في إيران ـ طهران، أصفهان وكرمنشاه ـ وجدد الهجوم على البنى التحتية الاقتصادية لآيات الله.

وفي واحدةٍ من أكثر تطورات الحرب أهميّةً، قامت الطائرات العراقية في أغسطس ١٩٨٦ بأولى طلعاتها الناجحة على محطة النفط الإيراني في جزيرة سري Sirri، التي تبعد مائة وخمسين ميلاً شمال مضيق هرمز عند مدخل الخليج مظهرةً بذلك أنه ليس هناك أي من الأهداف الإيرانية الاستراتيجية خارج متناول العمليات العراقية. وبتوسيع الصراع إلى الممرات السفلى للخليج، كان صدام يقوم بمحاولةٍ أخرى لتصعيد الصراع بأسلوبٍ يدعو إلى التدخل الدولي. وبشكلٍ خاص كان يأمل في أن يستفز الإيرانيين إلى رد فعلٍ سيجعل من الخليج غير آمن للسفن، وبذلك يغلق واحداً من أكثر الشرايين النفطية أهمية في العالم. في البداية لم ينجذب الإيرانيون إلى فخ صدام، وبقي مضيق هرمز مفتوحاً. ولأنّ صدام واصل هجومه على البنى التحتية الاقتصادية لإيران فإنّ الإيرانيين توصلوا إلى رأي مفاده أنهم ليس لديهم خيار آخر سوى الرد بالمثل. في أواخر ١٩٨٦ بدأ الإيرانيون بتخويف الكويتيين، الذين كانوا يساندون العراق في صادراته النفطية، إلى حد أنّ الكويتيين اتجهوا إلى كلا القوتين العظميين لطلب الحماية. وكان السوفيت أول من عرضوا خدماتهم، ومنظر الأسطول السوفيتي وهو يأخذ على عاتقه مسؤولية حماية ممرات السفن في الخليج دفع الولايات المتحدة إلى التدخل نيابةً عن الكويت. وفي بداية ١٩٨٧ نشرت كل من القوتين العظميين وعدد من البلدان الغربية مثل بريطانيا وفرنسا خمسين سفينة حربية في الخليج. وقد فعل صدام ما أراد ونجح في أن يزج القوى العالمية في نزاعٍ كانت تحاول أن تتجنبه باستماتة. علاوةً على ذلك فإنّ صدام امتلك عملياً قوةَ الأساطيل العالمية التي تحميه من هجمات إيران في الوقت الذي بقي فيه قادراً على مهاجمة الأهداف الإيرانية بحصانةٍ نسبية. وحتى عندما أطلقت طائرات سوبر اتندار Super Etendard العراقية بالخطأ صاروخين من نوع Exocet على الفرقاطة الأمريكية

USS Stark، وقتلت سبعة وثلاثين أمريكياً، لم يكن هناك انقطاع في جهد الحماية الدولية.

إنّ التدخل الدولي لحماية إمدادات النفط العراقي مع استمرار صدام في دكّهِ المكثف للمدن الإيرانية، اتحدا تدريجياً لإضعاف المعنويات الإيرانية ومنحا النظام في طهران شعوراً متزايداً بالعزلة. ثمة انحسار حاد في عدد الإيرانيين الشباب المتطوعين للجبهة، خاصة بعد الإخفاق المكلِف في السيطرة على البصرة في أواخر ١٩٨٧ وأدى القصف العراقي المتواصل إلى هروب الكثير من الإيرانيين من المدن الرئيسة. إنّ لوبي السلام في طهران أصبح مسموعاً جداً عندما تغير نمط الحرب من حملةٍ دفاعية لصد الغزاة العراقيين إلى هجوم عدواني للسيطرة على منطقةٍ عراقية وإسقاط صدام. وحسب صدام بشكلٍ صحيح بأنّ هجوماً كبيراً هو كل ما مطلوب لإرغام الإيرانيين على مائدة التفاوض، وفي فبراير ١٩٨٨ قام العراقيون بحملتهم الأكثر ضراوة في الحرب بأكملها. وخلال الشهرين التاليين أطلق مائة وخمسين صاروخاً وشُنّ العديد من الطلعات الجوية على التجمّعات السكانية الأكثر أهمية. وفي إبريل شنّ العراقيون هجومهم البري الأول في ما يقارب ستة أعوام، ونجحوا في استعادة السيطرة على شبه جزيرة الفاو. وفضلاً عن تلقي المساعدة من الاستخبارات العسكرية الأمريكية، تلقى العراقيون مساعدةً عسكرية مباشرة من الولايات المتحدة، التي أرسلت فرقاً من الخبراء العسكريين لدعم العمليات العراقية الكبيرة والمباشرة في الجبهة. وشجع ذلك النجاح العراقيين فشنّوا المزيد من الهجومات في الربيع ونجحوا في طرد الإيرانيين من كل المنطقة التي احتلوها منذ ١٩٨٢ وفي أوائل تموز دفعت القوات العراقية ما تبقى من القوات الإيرانية خارج كردستان ونجحت في السيطرة على شريط صغير في الجزء الأوسط من الحدود العراقية ـ الإيرانية، وهذا أول غزو عراقي لإيران منذ الأيام العنيفة في بداية الصراع في عام ١٩٨٠

وفي تلك الفترة كان الإيرانيون عاجزين عن القيام برد مناسب للهجمات العراقية. إنّ قلة المتطوعين إلى الجبهة كان يعني بأنهم غير قادرين على الإعداد لهجوم بري وكانت قوتهم الجوية يتعذر عليها الطيران بسبب النقص في قطع الغيار. والتكتيك الوحيد المتوفر لديهم هو أن يهاجموا السفن العراقية، ولكن لأنّ صدام استدرج عدداً كبيراً من الأساطيل الغربية لحماية جميع السفن الخليجية، فإن أيّ تحرك إيراني سيعرض نفسه لخطر المواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة وحلفائها. ونجحت كتائب صغيرة من الحرس الثوري في مهاجمة سفن عديدة باستخدام قوارب صغيرة

عالية السرعة ونجحت أيضاً في زرع الألغام في ممرات السفن الرئيسة. وتلك التكتيكات جعلت الإيرانيين يظهرون التهديد الأساسي للمصالح الغربية. وأدّت حالة الإنذار القصوى التي التزمت بها القوات الأمريكية ضد إمكانية الهجوم الإيراني، في أوائل تموز، إلى أن تسقط الـ USS Vincennes مصادفةً طائرة مدنية إيرانية، وذهب ضحيتها من ثلاثمائة شخص[١٧]

إن اتحاد جميع تلك العوامل مكن معسكر السلام في طهران أخيراً من إقناع آية الله المتقدم في العمر وبتردد بأنّ صدام حسين، عدوه اللدود لن يُسقط خلال حياته. وفي الثامن عشر من يوليو ١٩٨٨، وافقت إيران على قرار مجلس الأمن ٥٩٨ لوقف إطلاق النار في الحرب العراقية ـ الإيرانية وبعد شهر صمتت البنادق على طول الحدود المشتركة. وادعى الخميني بأنّ الموافقة على وقف إطلاق النار كانت تشبه الشراب من كأس مسمومة. وببساطة أعلن صدام نفسه منتصراً. والحرب التي كلفت ما قدر بمليون قتيل، وحطمت الاقتصاد العراقي وشارفت على تدمير رئاسة صدام أُعلن بأنها انتصار لصالح الشعب العراقي. وفي مجالات عدة مثّلت نهاية الحرب إنجازاً مهماً. وبالرغم من الشمولية القاسية التي اتسم بها نظامه، نجح صدام بأن يقنع العالم الخارجي بأن العراق العلماني والمتقدم كان يفضل كثيراً على الجماعات المتعصبة في الثورة الإيرانية. وقد نجح باجتذاب الدعم المادي والمعنوي من جيرانه الخليجيين وحتى جعل القوى العظمى في العالم تتنافس فيما بينها للتأكيد على نجاحِهِ في الحرب مع إيران. ومحلياً كان قد أظهر بأنه لم يكن خائفاً من أن يشارك في القمع حتى في وقت الحرب. وقد جعل الأمر واضحاً جداً بأنه ليس هناك تضحية كبيرة للغاية مقابل احتفاظه بالسلطة.

إنّ العيب الوحيد في انتظاره هو ميل صدام لاستخدام أسلحة غير تقليدية في حرب تقليدية. وخلال معظم فترات الحرب العراقية ـ الإيرانية استخدم صدام الأسلحة الكيمياوية باقتصاد ضد الإيرانيين، لخشيته من تحول الرأي العالمي ضد بغداد. وعليه فإنّ الأسلحة الكيمياوية استخدمت ضد الإيرانيين في مناسبات منفصلة، مثل تلك التي واجه بها العراق الهجمات البشرية الضخمة للمتطوعين الانتحاريين، أو لإزاحة الإيرانيين من الأهداف الحساسة استراتيجياً، كجزر مجنون. وفضلاً عن تقرير الأمم المتحدة حول استخدام غاز الخردل وغاز الأعصاب تابون، اتهم مفتشو الأمم المتحدة العراقيين باستخدام الأسلحة الكيمياوية في عام ١٩٨٦ و١٩٨٧ واستنتج المفتشون أنّ «الأسلحة الكيمياوية استخدمت مرة ثانية بواسطة القوات العراقية ضد القوات الإيرانية

ونتج عنها خسائرة كبيرة». وبالرغم من ذلك، فإنّ صدام كان مقيداً نسبياً باستخدامه للأسلحة غير التقليدية، مما مكنه من أن يضمن دعم معظم القوى الغربية التي تجاهلت الوثيقة الدامغة التي قدمتها فرق تفتيش الأمم المتحدة.

ولئن كان صدام مقتصداً باستخدامه للأسلحة الكيمياوية ضدّ الإيرانيين، فالشيء ذاته لم يكن صحيحاً عندما تعلق الأمر بشعبه. وخلال الصراع كان الأكراد يأملون الاستفادة من الحرب ليحققوا هدفهم الخاص في الاستقلال الكلي. وفي إحدى المرات غضب منهم فتواطأ فعلاً مع الأتراك والولايات المتحدة ليسمح لعدوانٍ تركي ضد المنطقة الكردية. ومن عام ١٩٨٣، ولإدراك الإيرانيين لقابلية انكسار القوات العراقية في المنطقة، ركزّوا بجزء من جهودهم على محاولة خلق اختراق في كردستان. في البداية استجاب صدام بتكرار عرضه لمنح الأكراد حكماً محدوداً. رفض الأكراد العرض، وكان رد فعل صدام بشن حملةٍ شرسة لإخضاع المنطقة. قاد الهجوم الفريق علي حسن المجيد، ابن عم صدام الذي أصبح يعرف باسم «علي كيمياوي» لتفضيله استخدام الأسلحة غير التقليدية. وكان المجيد مسؤولاً عن المخابرات، جهاز أمن الدولة، منذ خلاف صدام مع برزان وفرع عائلة آل إبراهيم. ولما انهار الموقف مع الأكراد عيّن صدام المجيد نائباً له في الشمال وأمره باستخدام الوسائل الضرورية لحسم المسألة الكردية.

وابتدأت الحملة بإعدام ثمانية آلاف سجين كردي، ألقي القبض عليهم وتم احتجازهم منذ ١٩٨٣ وحاولت الحكومة أيضاً أن تعيد تكوين سياستها في اجتثاث السكان المتمردين وتنقلهم إلى مناطق يشكلون فيها تهديداً أقل. وفي نهاية الحرب في ١٩٨٨، قدّر بأن أكثر من نصف المدن والقرى في كردستان قد تم تهديمها وأبعد سكانها إلى المدن الرئيسة أو إلى معسكرات الاعتقال في جنوب غرب الصحراء العراقية. ولما حاول السكان أن يقاوموا، اعتمد المجيد استخدام تشكيلة واسعة من الأسلحة الكيمياوية ضد السكان المدنيين العُزل.

وأُشير إلى الهجمات الكيمياوية الأولى في مايو ١٩٨٧ عندما سُمّمت عشرون قرية كردية بالغاز في محاولةٍ لمنع السكان المحليين من التعاون مع القوات الإيرانية المتقدمة. إلا أن الهجوم سيّئ الصيت للغاية وقع في مارس ١٩٨٨، عندما دفع مشهد الاختراق الإيراني في كردستان صدام لأن يستخدم الأسلحة الكيمياوية على نحوٍ غير مسبوق ضد قرية حلبجة الكردية. ولما انتشرت غيمة كثيفة من الغاز بواسطة الطائرات العراقية تبخرت في السماء الصافية، اندفعت طواقم التلفزيونات الغربية إلى المدينة

بواسطة الإيرانيين وشاهد العالم ضخامة المجزرة كاملةً. وقتل في ذلك اليوم خمسة آلاف شخص ـ رجال، نساء، أطفال وأطفال رضّع ـ وجرح حوالي عشرة آلاف. لقد تم تسميمهم بمركّب سيانيد الهيدروجين الذي طوّره العراقيون، وبمساعدة خبرائهم الألمان، في مصنع الأسلحة الكيمياوية الجديد في سامراء[١٨] إنّ عنصر الموت الجديد حمل تشابهاً لافتاً للنظر مع غاز السم الذي استخدمه النازيون لإبادة اليهود قبل أكثر من أربعين سنة. إن الهجوم على حلبجة زوّد صدام بسجل مشوه آخر في التاريخ المحزن للحرب الكيمياوية. ولما كان أول قائد حرب يصادق على استخدام غاز الأعصاب في ساحة المعركة «خلال معركة جزر مجنون»، فإنه في ذلك الوقت استطاع أن يدعي بأنه أول قائد وطني يستخدم الأسلحة الكيمياوية ضد شعبه. وأخيراً فإن العالم الخارجي أرغم على مواجهة الواقع الذي هو عراق صدام حسين.

وبالرغم من متطلبات الحرب الشاقة، لم يزل صدام يجد الوقت في جدوله المزدحم لإزالة أعدائه. وبالرغم من أن الإجراءات الوحشية التي اتخذها ضد الشيعة قد دمرت وبنجاح قدرتهم في معارضة حكمه، إلا أنّ صدام كان مهتماً بنشاطات آية الله السيد مهدي الحكيم رجل الدين المبجّل والمؤثر إلى درجة كبيرة والذي كان يعيش في لندن مع زوجته وأطفاله الأربعة. وكان الحكيم يعيش في المنفى في بريطانيا منذ ١٩٦٩ عندما اتهمه البعثيون بالتجسس وأرغم على الهروب. وقد أعدم نظام حكم صدام سبعة عشر من عائلته، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً. وفي الحرب العراقية الإيرانية أصبح الحكيم معنياً في محاولات لمّ شمل جماعات المعارضة العراقية لتكثيف جهودهم من أجل إزاحة صدام. فنشاطاته جلبت حالاً انتباه أجهزة صدام الأمنية اليقظة. وقبل نهاية ١٩٨٧ تقريباً، تلقى الحكيم دعوة لمخاطبة المؤتمر الإسلامي في السودان. لبى الدعوة ووصل إلى هناك في ١٧ يناير ١٩٨٨ ولما كان ينتظر في قاعة الانتظار في فندق هلتون في الخرطوم، تقدّم ثلاثة أعضاء من فرقة الاغتيال العراقية باستخفاف إلى حيث كان يجلس الرجل العالم. أطلق أحدهم النار عليه من مسافة قريبة جداً بينا أطلق كل من الآخرين طلقتين في الهواء. بعد ذلك سار القتلة الثلاثة بهدوء خارجين من الفندق واتجهوا إلى سيارة تنتظرهم تحمل رقماً دبلوماسياً، أقلتهم بعد ذلك إلى السفارة العراقية في الخرطوم. بعد أيام قليلة طاروا عائدين إلى بغداد.

الفصل العاشر

الـغـازي

مكتبة الرمحي أحمد ٩٣

لقد ربح صدام الحرب، وبالنسبة له كان كل ذلك محسوبا. البلد أفلس فعليا، بناه التحتية تحطمت واستنزف السكان بأعباء المجهود الحربي. بيد أن صدام كان يهمه فقط التأكد من أن النصر قد تم لصالحه. فالبنادق قد صمتت بصعوبة في الجبهة قبل أن يظهر قوس نصر صدام في وسط بغداد. تكوّن القوس من سيفين عملاقين متقاطعين تمسك بهما قبضتان برونزيتان ضخمتان مغروزتان بإحكام في خرسانة. ولكي لا يبقى أي أحد في شك حول من كان المسؤول عن الانتصار على إيران، فالقبضتان الممسكتان بالسيفين الضالعين صنعتا على غرار قبضتَي الرئيس العراقي(1) وخلال الحرب كانت ماكنة صدام الدعائية تسعى باستمرار لتقارن مناقب الرئيس العراقي مع شخصيات بطولية من العصور القديمة. وبنهاية الحرب سعى صدام إلى تكريم أولئك الأجداد الأماجد وذلك بإقامة مراسم رسمية لدفن بقايا الملوك البابليين وبناء أضرحة جديدة على قبورهم. وفي الوقت ذاته أمر بإعادة البناء الفخم لموقع بابل القديمة. وأزيحت أقسام كاملة من الآثار القديمة واستبدلت بجدران من الآجر الأصفر. وحملت عشرات الآلاف من الآجر المستخدم في البناء نقشا خاصا يذكّر أجيال المستقبل بأن «بابل نبوخذنصر أعيد بناؤها في عصر الرئيس القائد صدام حسين».

وبالرغم من محاولات صدام في الانتصاراتية، إلا أنه كانت هناك علامات واضحة أن السنوات الثماني من الصراع القاسي قد ثلمت ثقته بشدة. إن إحساس صدام بجنون العظمة نما بدرجة كبيرة في أفضل الأوقات، بل إن الضغوطات التي جلبتها الحرب لتؤثر على قيادته جعلت منه مريبا بمقدار أكبر. أصبحت مظاهر حضوره العامة أقل، واستفاد كثيرا من شبكة المخابئ والقصور التي شيدت إبان الحرب ليحمي نفسه ضد أية محاولات انقلابية ممكنة. وفي الوقت الذي خرج فيه مئات الآلاف من

العراقيين إلى شوارع بغداد بعد إعلان وقف إطلاق النار الفوري للاحتفال بنهاية الحرب، كان صدام يدرك جيدا بأن الانشراح سيكون قصير الأمد وذلك لن يدوم طويلا قبل أن يبدأ الشعب بطرح أسئلة جوهرية حول حكم رئيسهم، وخاصة فيما لو كانت تضحية السنوات الثماني التي عانوا لتوّهم منها ضرورية أو ذات قيمة. وبحق، كان صدام يشك في أن زملاءه السياسيين والعسكريين سرعان ما سيشتركون في محاولات لإسقاطه. ولاحظ دبلوماسيون أجانب كانوا يقيمون في بغداد في نهاية الحرب العراقية - الإيرانية بأن صدام قد أصبح أكثر انعزالا في سلوكه العام. وفي نظرهم أنه لم يتمتع بثمار النصر، وإنما حبس نفسه بعيدا عن أنظار الشعب. وكما علّق دبلوماسي سابق «بعد الحرب كان هناك القليل من الانتصاراتية البادية للعيان في بغداد»(٢)

وفي المراحل الأخيرة من الصراع كوّن صدام عادة الانتقال من أحد القصور الرئاسية إلى قصر آخر في أيام قليلة. وكل قصر كان يشبه كثيرا القصر الآخر، وكان مجهزا تماما ببساتينه الخاصة وحدائق الخضراوات التي توفر موردا غذائيا مضمونا. وكانت جدران جميع القصور معززة بشكل خاص لمقاومة أيّ هجوم صاروخي، وكل قصر له وحداته الأمنية الخاصة. ولم يعرف بدقة كم عدد تلك القصور التي بنيت إبان الثمانينيات، ودليل واحد على كثرتها هي أنها في الحقيقة ليست أقل من خمسة عشر قصرا لصدام عرفت بأنها توجد في مساحة نصف قطرها أحد وثلاثين ميلا شمال كردستان. وأشار دبلوماسي غربي سافر كثيرا في أرجاء العراق في أواخر الثمانينات إلى أنه وجد فعليا في كل مكان زاره حصونا بأسوار عالية قيد الإنشاء، حتى في أبعد مناطق القطر. وجميعها كان لها تصميم متشابه، ولما سأل السكان المحليين عنها، أخبروه بأنها مراكز محلية للدولة. وعلم الدبلوماسي مؤخرا بأن تلك الحصون كانت في الواقع قصورا جديدة لصدام، وهي أماكن يقدر أن يحتمي بها من أعدائه. وفضلا عن توفير المأوى للرئيس، فإن تلك القصور المحصنة وفرت مخبأ مناسبا للممتلكات العسكرية، وخصوصا الأسلحة غير التقليدية. وجميع القصور مرتبطة مع بعضها بعدد من أنظمة الاتصالات المختلفة حتى إذا فشل نظام واحد، فإن هناك على الأقل نظامين أو ثلاثة أنظمة أخرى بإمكانها أن تبقي التجمع الرئاسي على تماس مع التطورات في أي مكان في القطر وفي أي وقت.

والاجتماع الذي عقده صدام للمدراء العاميّن في وزارات القطر الرئيسة في أواخر الثمانينيات كشف عن بصيرة باردة في حالة تفكيره في ذلك الوقت. طلب من

المسؤولين ان يتجمعوا في نقطة محددة في الساعة الثامنة صباحا. ولما وصلوا وضعوا في حافلة ذات نوافذ سوداء وسارت بهم حول بغداد. استبدلوا الحافلات مرتين، وتكررت الممارسة. وبعد ذلك أُخذ المسؤولون إلى قصر في ضواحي المدينة، حيث تم تفتيشهم وطلب منهم أن يفرغوا جيوبهم من جميع حاجياتهم، والتي وضعت في ظروف كتبت أسماؤهم عليها. صعدوا مرة ثانية إلى الحافلة وسارت بهم إلى قصر آخر، حيث تم تفتيشهم مرة أخرى وطلب منهم أن يغسلوا أيديهم بمبيد للجراثيم. بعد ذلك أُدخلوا إلى قاعة كبيرة وأمروا بالجلوس، حيث انتظروا لثلاث ساعات. في حينها كان الوقت متأخرا بعد الظهر، ولم يعط أي من المسؤولين طعاما ولم يسمح لهم بالذهاب إلى الحمام. «ببساطة كنا خائفين جدا من أن نسأل»، استذكر أحد المسؤولين الحاضرين. «اعتقدنا بأن صدام سيعلن حربا جديدة أو شيئا ما. جميع حراسه الشخصيين بدوا جادين للغاية».

أخيرا، وفي تمام الساعة السادسة مساء دخل صدام القاعة وكما ينبغي نهض المسؤولون وبدأوا التصفيق وقوفا. تحدث صدام بحديث مقتضب ومشتت عن وضع الشعب والحاجة إلى تنفيذ مسؤولي الحكومة لواجباتهم بشكل فعال. «لم يقل شيئا مهما أو شيئا جديدا». غادر بعد ثلاثين دقيقة. بعد ذلك دعي المسؤولون المربكون ليشكلوا طابورا جنب المنصة. ولما أخذوا أماكنهم لاحظوا أن الأكوام الضخمة من الدنانير العراقية مكدسة على طاولة في أحد جوانب المنصة. ودعي كل واحد من المسؤولين إلى المنصة وسلّم حزما من الدنانير، وكانت قيمة كل واحدة منها آلاف الدولارات. وباستيفائهم لـ «هديتهم» من صدام، أُخذوا إلى حديقة بجوار القاعة حيث بذلت الجهود لإقامة وليمة فخمة. والمشكلة الوحيدة هي أن فكرة صغيرة قد أعطيت في أسلوب تقديم الطعام، فاختلاط الكعكات مع الحلوى وأفخاذ الخرفان الصغيرة والدجاج المحشو، كان له وقع جعل المأدبة بأكملها تبدو غير مثيرة للشهية. أنهى المسؤولون الجائعون الوليمة، وقبل أن تتم مرافقتهم، استقلوا الحافلة ورجعوا إلى منطقة تجمعهم الأصلية، حيث قاموا بانعطافات مختلفة على طول الطريق. «كمسؤولين في الدولة كنا جميعا نعرف البلد جيدا، ولكن ليست لدى أي منا أدنى فكرة أين كنا»، قال المسؤول الذي حضر الاجتماع. «الغرض الوحيد من تلك الممارسة هو التخويف، بكل بساطة أراد صدام أن يذكرنا من هو الرئيس. منحنا النقود والمأدبة ليرينا كيف سنكافأ لو عملنا بما كلّفنا به»[٣]

وبرغم كل شيء، فإن أمن صدام الخاص قد ازداد بعد الحرب بدلا من أن يقل.

وما دام كان العراق في حرب ظن صدام بأنه من غير المحتمل أن تكون هناك حركة شعبية لإزاحته، وبقتله لوزير الصحة في اجتماع مجلس الوزراء كان على ثقة بأنه قد أقنع رفاقه المقربين في الاتجاه المعاكس لمحاولة عزله. وبعد الحرب أقنع صدام نفسه بأنه تحت طائلة التهديد، ونتيجة لذلك كثفت ترتيباته الأمنية. فالتزم بأسلوب الحياة البدوية الذي لجأ إليه في سنوات الحرب. والحقيقة أن أمر القصور المتشابهة كان في صالحه كثيرا. فلو أدلى بحديث تلفزيوني، مثلا، فمن المستحيل أن يتم اكتشاف موقعه من خلال خلفية الصورة. وفي المناسبات النادرة على نحو متزايد والتي كان صدام يظهر فيها أمام الشعب، كانت تفاصيل الحدث تظهر في صحافة بغداد بعد أن يكون قد حدث. ولو أراد أعداء صدام أن يتخلصوا منه، فإن مهمتهم الأولى هي أن يجدوه.

ومن جميع المشاكل التي كان على صدام مقاومتها بعد نهاية الحرب كانت تلك التي سببت له مباشرة صعوبة كبيرة ألا وهي تصرف عائلته. وخلال سنوات الحرب كان صدام قد نجح في احتواء خصومات الزمر المختلفة في عائلته حيث كانوا يتصادمون دائما لزيادة سلطتهم ونفوذهم ضمن العصابة التكريتية الحاكمة. فالعلاقات ما بين آل إبراهيم وآل مجيد لم تصل تماما إلى مستوى العلاقات ما بين آل مونتاغيو وآل كابيوليت في مسرحية شكسبير «روميو وجوليت»، وإنما كان صدام قد عمل على رأب الصدع مع إخوته الثلاثة غير الأشقاء والذي سببه اختياره عريسا لابنته الكبرى، رغد (انظر الفصل الثامن). وقد نجح صدام بتحقيق المصالحة مع جناح آل إبراهيم في عائلته تقريبا قبل نهاية الحرب، وإخوانه الثلاثة غير الأشقاء - برزان، وطبان، وسبعاوي - أعيد لهم الاعتبار ومنحوا مناصب رفيعة المستوى في النظام. فاستلم سبعاوي منصب برزان القديم كرئيس للمخابرات وأصبح وطبان رئيسا لأمن الدولة الداخلي، بينما بقي برزان في جنيف كسفير لدى الأمم المتحدة.

ومع ذلك، فإن نجاح صدام في السيطرة على عائلته أثبت بأنه قصير الأجل. إذ إن سبب الصدع الجديد الذي احتدم في أكتوبر ١٩٨٨، بشهرين فقط عقب التفاوض على وقف إطلاق النار مع إيران، كان خيانة صدام المزعومة لزوجته ساجدة. والإشاعات حول خيانة صدام لسيدة العراق الأولى قد أصبحت مألوفة في بغداد إبان الحرب. وعرف صدام بميله للشقراوات، وفي محاولة للمحافظة على زوجها من الضياع، غيرت ساجدة لون شعرها في وقت ما في منتصف الثمانينيات. وتضمنت أنباء خيانات صدام ما زعم بأنه كان على علاقة غرامية مع زوجة تاجر أرمني يعيش في

بغداد، في الوقت الذي كان يظن بأن عشيقته الأخرى هي ابنة سفير عراقي سابق. لكن العلاقة الغرامية التي أثارت أزمة كبرى في عائلة صدام هي علاقته بسميرة الشاهبندر، زوجة مدير الخطوط الجوية العراقية.

وعلى وجه الدقة لم يكن معلوما متى بدأت العلاقة، بالرغم من أنها قد يرجع تاريخها إلى ١٩٨٦ الفترة التي تورط فيها صدام في صراع السلطة مع أصحاب الشأن من العسكريين، والإشارات الأولى لتقلبه العقلي بدأت تظهر بوضوح. وكانت سميرة تفي بكل متطلبات صدام لعشيقة محتملة - هي طويلة، شقراء، واضحة النطق وفي أواسط الثلاثين من عمرها ومتزوجة. ويدعي العديد من المنفيين العراقيين الذين كانوا منهمكين في النظام بمعرفة جيدة في ذلك الوقت بأنه من منتصف الثمانينيات فصاعدا كان غزل صدام راسخا باتباعه نموذجا محددا. «كان يتمتع بشكل خاص في علاقاته الغرامية مع نساء متزوجات لأن تلك هي طريقته في إذلال أزواجهن»، كما علّق مسؤول عمل في القصر الرئاسي لعدة سنوات[٤] كانت المرأة تؤخذ ضد إرادتها من بيتها في الوقت الذي يكون فيه الزوج خارجا وتجلب إلى بيت خاص في منطقة المنصور في بغداد، ليس بعيدا عن نادي الصيد الذي كان المأوى الاجتماعي المفضل لدى صدام في أوائل السبعينيات وعندما ينتهي صدام من لقائه الغرامي اللاشرعي تعاد المرأة إلى بيتها في وقت آخر من الليلة ذاتها.

وكانت معظم مغامرات صدام ترتب بواسطة أحد حراسه الشخصيين وهو، كامل حنا ججو، الذي عمل مع صدام بصفة أو بأخرى لعشرين عاما تقريبا. وججو هو ابن رئيس الطهاة الشخصي لصدام، وأحد واجباته هو أن يعمل متذوقا للطعام الرئاسي، وظن صدام بأن الطاهي لن يسمم ابنه متعمدا. ومن خلال ججو تعرف صدام على سميرة. ليس كمثل لقاءاته الغرامية السابقة، وإنما في هذه المناسبة بدأ صدام علاقة جادة مع سميرة، وهي لا تشبه زوجته، بل انحدرت من عائلة بغدادية محترمة. في الماضي كانت ساجدة، أم أطفال صدام الخمسة، تعي انهماك صدام في المغازلة، لكنها اعترضت فحسب عندما بدت إحدى نزوات صدام وكأنها تشكل تهديدا للزواج. وفي تلك الشواهد كانت تستدعي أحد إخوة صدام غير الأشقاء، إما برزان أو سبعاوي اللذين كانا يديران قوى الأمن القوية، للتدخل. وفي إحدى المناسبات، على سبيل المثال، اعتقل برزان إحدى عشيقات صدام وأرسلها إلى المنفى في تركيا.

ولما علمت ساجدة بأن صدام أصبح مولعا بسميرة، عزمت على تحطيم تلك العلاقة. ومع برزان في جنيف، أخطأت ساجدة في استعطاف ولدها الأكبر، عدي،

ليتدخل. وحسب رواية عن العلاقة الغرامية التي انتشرت بشكل واسع في بغداد في ذلك الوقت، كانت ساجدة قد أنهكتها الغيرة كثيرا وكانت على وشك انهيار عصبي. وأخبرت عدي بأنه ما لم يقم بعمل بسرعة، فإن صدام سيتزوج من سميرة وأن إرثهم سيكون في خطر. واستجاب عدي بصدق. علم بأن ججو قد دعي إلى حفلة أقامها أحد نائبي الرئيس العراقي في جزيرة أم الخنازير، الجزيرة التي تقع في وسط دجلة ليس بعيدا عن القصر الرئاسي وهي مكان نزهة مفضل بالنسبة للبغداديين. وأقيمت الحفلة على شرف زوجة الرئيس المصري حسني مبارك، كجزء من محاولات العراق لتحسين العلاقات مع العالم العربي بعد الحرب مع إيران. وصل عدي إلى الحفلة مع حرسه الخاص وذهب مباشرة إلى جججو وطرحه أرضا بضربة واحدة من هراوة ثقيلة. بعد ذلك شرع عدي في ضرب الضحية الفاقد للوعي وهو ملقى على الأرض. فيما بعد مات ججو في المستشفى(٥)

في الماضي كان صدام دائما يغض النظر عن تجاوزات أولاده. ولا أحد من أبنائه كان يعرف المقدار الوافر من الانضباط خلال طفولتهم. ومنذ سيطرته على اللجنة الأولمبية في عام ١٩٨٤، كان عدي يعمل القليل ليحبب نفسه للشعب العراقي، ولو في نظر أبيه على الأقل، كان يهيئ نفسه للخلافة، ومساهمته الوحيدة في المجهود الحربي كانت في أن يبقي الحياة الليلية في بغداد في شغل بينما كان أكثر الشباب العراقيين الذين هم بعمره مشغولين في الجبهة. وكانت هناك تقارير متواصلة عن تورطه في اشتباكات سكر في النوادي الليلية، وكان متورطا بحادثي قتل متعمد آخرين على الأقل قبل قتله لمتذوق طعام أبيه. وضحيته الأولى كان عقيدا في الجيش كان قد عارض محاولات عدي في إغواء ابنته المراهقة، بينما كان الثاني ضابطا في الجيش كان قد اعترض عليه وهو يقوم بإيماءات إغرائية لزوجته في إحدى حانات الرقص في بغداد(٦) وبحماقة، نالت حوادث القتل السابقة التي ارتكبها عدي استحسان القصر الرئاسي، حيث بدا والده مفتخرا في الواقع بأن ولده ووريثه كان «دمويا».

وإذا كان صدام راغبا في العفو عن تجاوزات عدي السابقة، فإنه لم يكن مستعدا لتدخّل ولده في حياته الغرامية الخاصة. وأثار مقتل جججو رد فعل غاضب من صدام الذي أدان ابنه حالا في التلفزيون وأمر بأن عليه أن يمثل للمحاكمة بسبب القتل وسرعان ما امتلأت الصحافة العربية بتقارير مزعومة عن ذهاب صدام إلى بيت ولده وضربه إياه ضربا مبرحا، ولما تدخلت زوجته من جانب ولدها، أثخنها ضربا كذلك(٧) ورواية أخرى، أدلى بها رجل عمل كواحد من «أشباه» عدي، زعم بأن

عدي كان مغلوبا بندم شديد فابتلع قنينة من الأقراص المنومة ونقل إلى المستشفى نفسه الذي نقل إليه ججو بعدما هاجمه عدي. وأنقذ الطاقم الطبي حياة عدي. وعندما كانوا يغسلون معدته وصل صدام إلى ردهة الطوارئ، دفع الأطباء جانبا وضربه في وجهه وهو يصيح: «دمك سيسيل مثل دم صديقي».[٨]

ولو أخذنا بنظر الاعتبار الإرهاق السياسي الضخم الذي أصبح صدام يرزح تحته عقب الحرب الكارثية مع إيران، فإن الفضيحة المنزلية التي سببها قتل عدي لمتذوق الطعام الرئاسي ساهمت في تقليل شعبية الرئيس. وبإدراكه بأنه بحاجة إلى اتخاذ فعل حازم إذا ما أراد أن تكون له فرصة في إنقاذ سمعة العائلة الحاكمة، أمر صدام كلا من زوجته وعدي على الاختفاء عن المرأى العام. وكان ذلك أمرا محرجا بالنسبة إلى ساجدة على الأخص، فهي كانت تستضيف حفلات رسمية متنوعة في بغداد على شرف السيدة سوزان زوجة الرئيس مبارك عندما وقعت حادثة القتل. ولما ذهبت السيدة مبارك إلى مطار بغداد لتعود بالطائرة إلى مصر في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر، كان من الغرابة أن تغيب سيدة العراق الأولى عن مراسم التوديع. وفي اليوم الذي أعقب القتل حذف اسم عدي من البيانات الإدارية لصحيفة الرياضة المحلية والتي كان يرأس تحريرها بالاسم فقط. وبعد أيام قليلة جرد من مناصبه الرسمية كرئيس للجنة الأولمبية العراقية واتحاد كرة القدم العراقي. وببساطة أوضح بيان قصير بأنه قد استقال «لأسباب شخصية». إن استقالة عدي من اتحاد كرة القدم كانت محرجة بشكل خاص لأنه أعيد انتخابه توا من قبل الأعضاء بالإجماع -جميعهم منتسبون إلى حزب البعث- للعمل لمدة أربع سنوات أخرى. وكان مطلوبا منه أيضا أن ينسحب من المركز الذي حصل عليه توا كرئيس لجامعة بغداد للعلم والتكنولوجيا في بغداد.

في البداية حاول صدام أن يبقي على الفضيحة كسر عائلي، لكن التقارير سرعان ما بدأت بالظهور في الصحافة الأجنبية، وكان صدام مجبرا على الإعلان. سُجن عدي وعُينت لجنة خاصة للتحقيق في القتل، وأعلن صدام بأنه إذا أثبتت اللجنة مسؤولية عدي، فإنه سيحاكم بجريمة القتل العمد. إن الطريقة التي أقيمت بها المحكمة والخلفية الضاغطة التي جرت لتأمين الإخلاء النهائي لسبيل عدي تكشف إلى أقصى حد طبيعة السياسة البيزنطية التي يرتبها في الحقيقة نظام صدام. وفي الواقع ان القاضي الذي عُيِّن لإدارة التحقيق هو، عبد الوهاب حسين الدوري، ابن عم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت إبراهيم الدوري. وأيدت اللجنة بسرعة في مشاوراتها عندما طالب والد ججو، والذي كان، رغم كل شيء، مستخدما كطباخ شخصي لصدام،

بإسقاط التهم. إضافة إلى ذلك اعتمد العرف القبلي في مناشدة صدام في الحفاظ على حياة عدي. وخضع صدام لضغط مكثف تأييدا لعدي من ساجدة وأخيها، عدنان خير الله، وزير الدفاع العراقي وابن الخال الأول لصدام. ولامت ساجدة صدام، مطالبة بأن تعرف منه لماذا يعاقب عدي لقتله متذوق الطعام في حين لم يفعل أي شيء حيال أحداث القتل السابقة التي ارتكبها عدي، «لماذا تعتقله؟» سألت زوجها بإيجاز. «ومع ذلك، انها ليست المرة الأولى التي يقتل فيها. وليس هو الوحيد في عائلته من يقتل».[٩] وبوضوح كان التعليق الأخير ملاحظة جارحة حول اعتداءات صدام في شبابه.

إن تردد اللجنة القضائية في أن تزعج الرئيس، إضافة إلى الضغط المكثف الذي يقوم به أقارب عدي، أدّى إلى إسقاط القضية. وبقي صدام شديدا مع عدي لجسارته في اختراق علاقاته الرومانسية، وأرسل ابنه الأكبر إلى المنفى في جنيف ليلتحق بالعم غير الشقيق، برزان التكريتي والذي كان هو نفسه غاضباً بسبب رفض صدام في السماح لابنه بالزواج من إحدى بنات الرئيس. إن إبعاد عدي إلى بلد مثل سويسرا، والذي يعتز بمدنيته، كان بلا شك، يرمي إلى كبح غرائزه الهائجة. ولكن آمال صدام بأن تصبح جنيف المدرسة الأخيرة بالنسبة لولده الضال كانت قصيرة الأجل. والتقارير عن سلوك عدي في بغداد أثارت انتباه السلطات السويسرية، ولما تقدم برزان وعدي للحصول على إجازات الإقامة الدبلوماسية، وافقت على برزان بينما أجلت القرار الخاص بعدي. وبعد أسابيع قليلة قدم السويسريون طلبا رسميا لعدي لمغادرة البلد. وبينما كان طلبه للحصول على الصفة الدبلوماسية معلقا، كان قد نجح في توريط نفسه في مشاحنة كلامية مع شرطي سويسري، حيث سحب سكينا في طابور عند مطعم في جنيف. وكانت مغادرة عدي مفاجئة للغاية حيث تقاطعت طائرته مع طائرة أمه، التي لم يكن لديها أي علم بإبعاده فسافرت إلى سويسرا لرؤيته. عاد إلى بغداد حيث نجحت المصالحة السيئة مع أبيه. وحصل عدي على عفو رئاسي، وأعيد انتخابه بالإجماع رئيسا للجنة الأولمبية العراقية، وسمح له باستئناف الكثير من نشاطاته السابقة. وأشار مسؤولون عراقيون سابقون ذهبوا إلى المنفى بعد حرب الخليج بأنه قد تطور إلى نسخة كاربونية من أبيه. «هو وقح ولم يبد أي احترام. مستأسد وسفاح».[١٠]

وإذا كان صدام مستعدا لأن ينسجم مع ابنه، فإن الشيء ذاته لا يمكن قوله عن علاقاته بزوجته. وبسبب غيرة ساجدة من عشيقة صدام شجعت عدي على قتل ججو

بالمقام الأول. وكسيدة أولى للعراق، كانت ساجدة نفسها مستثناة فعليا من أي شكل من أشكال العقاب، خاصة عندما أوضحت التقارير الصحفية الخاصة بمقتل ججو بأن صدام وليس زوجته، هو المسؤول تماما عن الفضيحة بإقامة علاقة غرامية بالدرجة الأولى. ولما كان غير قادر على أن ينتقم لنفسه من زوجته مباشرة، عزم صدام على أن يعاقبها بفعل ضد أخيها وصديق طفولته، عدنان خير الله.

في عام ١٩٨٩ كان صدام وعدنان، اللذان ترعرعا معا في بيت خير الله طلفاح في تكريت، صديقين، رفيقين، وزميلين لأكثر من ثلاثين عاما. وكان عدنان حليفا أساسيا في صعود صدام إلى السلطة. وكان تعيين عدنان كوزير للدفاع في عام ١٩٧٧ لحظة الحد الفاصل في استعدادات صدام للسيطرة على الرئاسة، لأن ذلك كان يعني بأن صدام لم يعد يصارع أي تهديد من المؤسسة العسكرية. وعمل عدنان قريبا من صدام في الحرب العراقية -الإيرانية. وكوالده، خير الله طلفاح، لم يكن بمنأى عن استغلال منصبه للكسب الشخصي. وفضلا عن كسبه المال في صفقات الملكية الهائلة مع والده، فإن عدنان كذلك حصل على ملايين الدولارات في عمولات صفقات الأسلحة التي تفاوض عليها نيابة عن الحكومة. في عام ١٩٨٩، ولما بقي البلد يعاني من تقشف سنوات الحرب، كان عدنان قد حصل على خمسمائة سيارة فخمة لاستخدامه الشخصي.

كانت العلاقات متوترة مسبقا ما بين صدام وعدنان قبل أن يصبح الشجار حول عدي علنيا. وكوزير للدفاع، ادعى عدنان بعض فخار الانتصار على إيران لنفسه، وأصبح يرى نفسه أكثر وأكثر كوريث بارز لصدام. وكان صدام على الدوام مرتابا ويشدة بالرفاق الذين بدوا وكأنهم في موقع لتحديه. وعلى عكس صدام، فإن عدنان قد التحق في شبابه بالكلية العسكرية في بغداد، وصنع لنفسه شهرة كضابط عسكري عالي الكفاءة. وكعضو منذ فترة طويلة في البعث، كان عدنان دمثا وقادرا على تقديم أفكاره بأسلوب عسكري محترف. وقبل أن يصبح وزيرا للدفاع، خدم في اللواء المدرع العاشر «اللواء الذهبي»، ولا يشبه معظم أعضاء النظام الآخرين، حيث إنه لم يكن متورطا في الفظاعات والتعذيب التي نفذها مسؤولو الأمن الصدامي. بناء على ذلك كان شعبيا مع رفاقه الضباط. وفي الحرب مع إيران أصبحت قدرة عدنان ومعرفته العسكرية المتفوقة مصدرا للاحتكاك المستمر مع صدام. ولو أن ضابطا عراقيا، على سبيل المثال، انسحب من اشتباك مع العدو، كان عدنان قادرا على إدراك الشرح التكتيكي من أجل المناورة. من ناحية أخرى، فإن صدام الذي لا يمتلك تدريبا

عسكريا، كان يفسر أي تراجع جبنا، ويطالب بإعدام الضابط المسؤول. وقد أصبحت العلاقات ما بين صدام وعدنان متوترة جدا في الحرب، بحيث إن عدنان فكر جديا في الاستقالة من منصبه كوزير للدفاع بيد أنه أُقنع بالبقاء من قبل والده، خير الله طلفاح، الذي بالرغم من أنه كبير بالسن ومقعد، إلا أنه استمر بتمتعه بمنزلة «الأب الروحي» غير الرسمي للنظام حتى وفاته في التسعينيات.

بعد الحرب، ولما تصاعد انتقاد المؤهلات القيادية لصدام، بدأت المقالات بالظهور في الصحافة العربية مقترحة إمكانية أن يحل عدنان خير الله محل صدام كرئيس. وقدّمت المقالات آراء متشابهة: تدرب عدنان بشكل أفضل، وهو أكثر احترافا وأكثر تعقلا من صدام وهو أكثر ملاءمة لإدارة البلد. علاوة على ذلك ان العراق دولة قد سيطر فيها سابقا ضباط عسكريون ناجحون على الحكم. إن ضباط مخابرات صدام أخبروه بكل شيء حول المقالات التي تظهر في الصحافة الأجنبية، وكذلك حول تأثير تلك المقالات على النخبة الحاكمة في بغداد. وقد تزايدت شكوكه حول عدنان عن طريق التقارير التي أصبح ملّما بها كثيرا عن طريق موظفي الاستخبارات المركزية الأمريكية الذين كانوا مقيمين في بغداد خلال الحرب، وقد زودوا العراق بمادة استخباراتية جوهرية[١١].

إن قرار عدنان بالوقوف علنا إلى جانب شقيقته في النزاع حول عشيقة صدام كان القشة الأخيرة. كان صدام يعي أن عدنان، إخلاصا للعرف العربي، سيقف جنب أقرباء الدم في وقوع أي نزاع. وكوزير للدفاع فإن عدنان كان أيضا مسؤولا عن الحماية الشخصية لصدام. وفي هذا الجانب كان منصب عدنان ليس بذي عون في يناير ١٩٨٩ عندما أرغم صدام على إلغاء الاحتفالات السنوية لعيد الجيش - الأول الذي أقيم منذ نهاية الحرب - بعدما كشف وكلاء أمنه الساهرون مؤامرة لقتله في الموكب العسكري. ثمة مجموعة من الضباط العسكريين المنشقين والذين بلا شك لم يزالوا في غليان بسبب حماقة صدام في المجهود الحربي، كانت قد خططت لمهاجمة منصة الاستعراض خلال مرور المسيرة الرسمية. وحتى كانت هناك مقترحات بأن طيارين متمردين سيقومون بقصف وتفجير المنصة. وبالرغم من أن المؤامرة كشفت في وقتها، لكنها في الحقيقة لم تكتشف في وقت مبكر وترك ذلك انطباعا بأن عدنان لم يكن يولي الاهتمام الكافي لإنجاز واجباته. ولم يكن على عدنان الانتظار طويلا حتى ينتقم منه صدام. فبعد مضي أربعة أشهر قتل في حادث تحطم طائرة هليكوبتر. والتفسير الرسمي هو ان عدنان، الذي كان يقود طيارة الهليكوبتر، قد انحرف عن مساره بسبب

عاصفة رملية، فقد السيطرة وتحطمت طائرته أثناء عودته من رحلة استجمام عائلية في كردستان.

إن القصة الحقيقية لموت عدنان ذكرها بعد سنوات قليلة حسين كامل المجيد، ابن العم الأول لصدام وصهره. وطبقا لحسين كامل، كان عدنان في جلسة عائلية قرب الموصل، في شمال العراق، مع صدام وساجدة. وكان الاجتماع محاولة من صدام لرأب الصدع في العائلة والذي سببه شجار حول عدي، ومع ذلك، فإن الخلاف احتدم ما بين صدام وعدنان، وقرر عدنان أن يغادر الجلسة. في تلك الأثناء أخبر صدام حسين كامل «بأن يهتم بالأمور». واعترف حسين كامل بأنه وضع متفجرات في طائرة عدنان مع جهاز توقيت ليجعلها تنفجر عندما تصبح الطائرة في الجو[١٢].

وأشار مقتل عدنان إلى نهاية علاقة صدام مع زوجته الأولى. وقبل أن يستقل عدنان الطائرة الهليكوبتر بفترة قصيرة كان لدى ساجدة هاجس بأنه ليس من الأمان بالنسبة له أن يطير عائدا إلى بغداد خاصة عند حلول الظلام. وقد حاول صدام أن يؤكد لها، قائلا بأن على عدنان أن ينفذ واجبه، وعزاها بالكلمات «علينا أن نؤمن بالله لكي يحمينا». بعد مقتل عدنان لم يكن لدى ساجدة شك فيمن كان مسؤولا عن مقتل أخيها، وأقسمت بأن لا تتكلم مع صدام ثانية. ورتب انفصال رسمي ما بين صدام وساجدة فيما بعد حصلت بواسطته على لقب رسمي «سيدة السيدات»، بينما سميرة التي سرعان ما أصبحت زوجة صدام الثانية بعد ذلك، أخذت لقب «السيدة الأولى».

ومشاكل صدام العائلية دون شك كان لها تأثير على السياسات التي اتبعها في الآثار المباشرة للحرب. ولما ظهر صدام في موقف دفاعي، كان يدرك بأن منصبه عرضة للتحديات السياسية من داخل نخبته الحاكمة ومن الجيش. وما بين نهاية الحرب الإيرانية وعام ١٩٩٠ نفذت عدة محاولات استهدفت حياته. وقعت الأولى في نوفمبر ١٩٨٨ وتضمنت خطة لإسقاط طائرته في عودته من زيارة رسمية إلى مصر. والثانية كانت في استعراض عيد الجيش العراقي. وتلك بشكل خاص كانت مصدر قلق لصدام لأنها ضمت ضباطا من الحرس الجمهوري، الصفوة في وحدة حرسه الخاص. واعدم العشرات، إذا لم يكن المئات، من الضباط ردا على ذلك. والمحاولة الانقلابية الثالثة أخفقت في سبتمبر ١٩٨٩، في الوقت الذي كان يرحب بالقائد العراقي كنبوخذنصر جديد في احتفال وطني بمناسبة إعادة بناء بابل. وفي يناير ١٩٩٠ نجا صدام بصعوبة من محاولة اغتيال قام بها ضباط من الجيش عندما كان يستقل سيارته في بغداد.

ولإدراكه أن شعبيته الشخصية أصبحت في الحضيض، بادر صدام بصبغة عراقية للبيرسترويكا، إلى برنامج لتحرير بعض مؤسسات الدولة. وإحدى خطواته الأولى هي إجراء انتخابات جديدة في أبريل ١٩٨٩ للمجلس الوطني، المؤسسة التي اقتربت أكثر من توفير المنصة الديمقراطية الحقيقية للتعبير السياسي. مع ذلك، وكما في الانتخابات السابقة راقب جهاز الأمن بدقة كافة المرشحين. وسمح للأعضاء من غير البعثيين ان يخوضوا الانتخابات «كمستقلين»، وانتخب عدد كبير من أولئك الذين يسمون بالمرشحين المستقلين، بالرغم من أن السلطات كانت أقل حرصا في نشر حقيقة أن كل مرشح محتمل اعتبر «خطرا على الدولة» - الوضع الشرعي الذي تمتع بوضوح واسع - لا يسمح له بخوض الانتخابات. وفضلا عن إجراء الانتخابات أشار النظام إلى أنه سيسمح مستقبلا بمقدار من الانتقاد لوزراء الدولة وسياساتها، بالرغم من تشديده على أن مثل هذا الانتقاد يمكن أن يوجه فقط إلى الوزراء، التكنوقراط المسؤولين عن إدارة البلاد. أما الرئيس، وأقاربه، والأعضاء الآخرون للدائرة الحاكمة فهم مستثنون من النقد، وذلك كان عادلا أيضا في نظر المهرجين من بعض أقارب صدام الأكثر عنادا في ذلك الوقت.

وأقيم «الجدار الحر» في جامعة بغداد حيث شجع الطلبة على بداء شكاواهم. وبدأت وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة تنقل عددا كبيرا من المقالات التي تفصل الشكاوى العامة حول الحياة اليومية، مما مكن وزير الثقافة والإعلام، لطيف نصيف جاسم، أن يدعي، بلا تلميح، بأنه «ليس هناك رقابة في العراق. لا يسأل شخص عن ماذا يكتب. القيود الوحيدة تتعلق بالأمن الوطني».(١٣) ومن أجل عرض التغيرات التي حدثت في العراق إلى العالم الخارجي، تدفق عدد من الصحفيين الغربيين إلى القطر لمراقبة «العملية الديموقراطية» مباشرة. وبدأ صدام كذلك بهجوم ساحر على الصحافة العربية، والمحررون الأوائل في مصر تمت دعوتهم إلى بغداد وتسلموا «٢٣٠ سيارة رائعة وجديدة حمراء وبيضاء وزرقاء وبنية خفيفة من نوع مرسيدس بينز mercedes benz والأشخاص الأقل شأنا تسلموا سيارات تويوتا toyota»(١٤)

وجهود صدام في تحرر المؤسسات السياسية في القطر رافقها تطهير ممنهج في القوات المسلحة. وفي عام ١٩٨٨ كان العراق قد طوّر رابع أكبر جيش في العالم. ان إدارة صدام غير الكفوءة للحرب، وبالأخص تدخلاته المتسرعة في أزمة شبه جزيرة الفاو في أواخر ١٩٨٦، أدت إلى أن تفرض القيادة العسكرية العليا ضوابط على سلطته السياسية (انظر الفصل التاسع). وفي استعادة الأحداث الماضية وتأملها فإن تلك

ستكون اللحظة المثالية للعسكر ليقوموا بتحركهم ضد صدام. ولكن بعد أكثر من عشر سنوات من المراقبة اللصيقة من عناصر الأمن وشبكة المسؤولين الفعالة جدا في حزب البعث، كانت المؤسسة العسكرية العراقية قد تعرضت لغسيل الدماغ ضد فكرة إضمار الطموحات السياسية. وصدام لم ينس ولم يغفر للإذلال الذي تعرض له على أيدي القادة العسكريين، بالرغم من أن القيود التي تمكنوا من فرضها عليه قد ساهمت أخيرا في الانتصار في الحرب.

إن الكشف عن مؤامرات عسكرية مختلفة لإسقاط صدام بين ١٩٨٨ و١٩٩٠ مكنته من إعادة تأكيد سلطته على المؤسسة العسكرية. وفضلا عن إعدام أي ضابط يشتبه في تورطه في المحاولات الانقلابية، فإن آخرين ماتوا في حوادث غامضة - فالضباط العسكريون العراقيون الذين ماتوا في حوادث تحطم الهليكوبتر في عام واحد هم أكثر من الذين ماتوا في سنوات الحرب الثماني مع إيران. وكان صدام عازما على كسر روابط الرفقة التي تشكلت في سنوات الحرب حيث كان يعتقد، إذا ما تركت دون كبح، فإنها تشكل تحديا كبيرا لقيادته. وهكذا فإن تطهيره للجيش نظم بوحشية كبيرة. فمثلا الفريق عمر الهزاع حكم عليه بالإعدام بعدما سمع مصادفة بأنه يتكلم بسوء عن الرئيس العراقي. وأمر صدام باستئصال لسانه قبل إعدامه، وكإجراء احترازي، أعدم أيضا ابن الهزاع، فاروق. وأزيحت بيوت الهزاع بالجرافات وتُرك كل من زوجته وأطفاله في العراء.

وحتى أولئك الضباط الذين جاؤوا من المنطقة ذاتها التي جاء منها صدام، أو كانوا مرتبطين مباشرة بالعشيرة أو بزواج من دائرة الرئيس الحاكمة، لم يكونوا مستثنين من الاضطهاد. فمعاملة صدام للفريق ماهر عبد الرشيد كانت وثيقة الصلة بالموضوع. ولم يكن عبد الرشيد الرفيق التكريتي لوحده، ، وانما ابنته المتزوجة من الابن الأكبر الثاني لصدام، قصي. غير أن عبد الرشيد قد أصبح قويا جدا أكثر مما يريده صدام، فعزم على أن يقلل من حجمه. فقتل شقيق عبد الرشيد في حادث غامض أولا بعد ذلك أرغم عبد الرشيد نفسه على التخلي عن منصبه ووضع تحت الإقامة الجبرية الفعلية في مزرعته الكبيرة خارج تكريت، ومنعه ذلك التحرك من تأمين الاتصال مع الجهاز القوي للضباط المخلصين له. على الرغم من ان صدام امتلك أسبابا أخرى لرغبته في التخلص من ابن خاله ووزير الدفاع عدنان خير الله، فإن موته في ربيع ١٩٨٩ في حادث تحطم طائرة هليكوبتر لاءم مخطط التطهيرات التي نفذت في كافة ميادين القوات المسلحة.

وعلاوة على كل الصعوبات التي عانى منها صدام مع أقاربه وإخضاعه للقوات المسلحة، فإن التحدي الأكبر إلى حد بعيد هو ذلك الذي واجه على الجبهة الاقتصادية. لقد حطمت الحرب الاقتصاد العراقي. في بدايته كان العراق أحد أكثر البلدان ازدهارا في العالم، وفي النهاية أصبح أكثر البلدان إفلاسا - وفضلا عن وقوعه تحت الدين البالغ ٨٠ مليار دولار، فإن تكاليف إعادة البناء وضع لها ٢٣٠ مليار دولار. ان عائدات النفط العراقي البالغة ١٣ مليار دولار لن تغطي تكاليف إنفاق الدولة، واحتاج النظام إلى ١٠ مليارات دولار إضافية في السنة ببساطة وذلك لموازنة الحسابات[١٥] ولما كان نظام صدام يعتمد بقوة على سياسة الدعم، فإن نقص الأموال في اقتصاد استهلاكي موجَّه كالعراق خلق استياء واسعا وأدى إلى اتهامات حول عدم الكفاءة وجهت إلى الحكومة. ان اتساع ديون العراق كان يعني أن صدام كان معتمدا على حسن نية الدائنين، وهذا الوضع أضعف إلى درجة كبيرة صورة الرئيس كقائد قوي.

وفي محاولة لإنعاش الاقتصاد بادر صدام بسلسلة من الإجراءات لتعجيل عملية التحرر الاقتصادي التي بدأت في الحرب. فأزيحت رقابة الأسعار، وشجعت الأنشطة المقاولاتية، وتم بيع عدد من مصانع الدولة إلى القطاع الخاص، وكذلك بعض ممتلكات الدولة الأخرى. إن الانطباع العام الذي خلقته تلك التغيرات هو أن صدام أصبح ملتزما بتفكيك القطاع العام الكبير في العراق[١٦] فمنحت الإجازات للمشاريع الصناعية الخاصة، والتي أدّت إلى أن يكون للقطاع الخاص حوالي ربع مجموع الواردات تقريبا. وغاب عن النظام ان يجتذب الاستثمار الرابح من دول النفط الخليجية الغنية المجاورة وجميع تلك التغيرات نجحت في خلق مجموعة صغيرة من المقاولين الأثرياء، كان معظمهم من المقربين جدا إلى النظام الحاكم والذين كانوا قادرين على استغلال الفرص التي وفّرتها عملية الخصخصة.

وفي سياق تحسين الأداء الاقتصادي في العراق، لم يكن للإصلاحات التي قام بها صدام ذلك التأثير الكبير. فالتوقعات الكبيرة التي أثارتها التغيرات كان يقابلها فقط التضخم المرتفع، مما أرغم صدام على إعادة إحياء مبدأ الرقابة على الأسعار. وفي ربيع ١٩٨٩ سعى إلى إلقاء اللوم على وزرائه بسبب التدهور الاقتصادي، وطرد اثنان منهم بسبب عدم الكفاءة. ولكن لأن نسبة ٥٠٪ من إيرادات النفط العراقي تُصرفت لتسديد الديون، فإن الوضع الاقتصادي تدهور بدلاً من تحسنه. وأرغم صدام على القيام بسلسلة من الإجراءات التقشفية، كالتخفيضات في عدد موظفي الدولة وتسريح

آلاف الجنود من القوات المسلحة. وتلك ساعدت في زيادة البطالة فقط ولم تسعف الشعور المتنامي للقلق في أوساط الشعب العراقي. ومع ذلك فإن سنوات ما بعد الحرب أصبحت فترة طموح عظيمة من جانب النظام البعثي. وفي إحدى المناسبات أعلن صدام بأنه سيبني في بغداد شبكة لمترو الأنفاق بمواصفات عالمية، فهو مشروع كبير بملايين الدولارات، ومن ثم ادعى بأنه سيبني شبكة وطنية للسكك الحديد حول بغداد. إن العائق الوحيد دون تنفيذ تلك المشاريع الرائعة هو نقص الموارد المالية. وأصبح القطر، في النهاية، محطما.

وحسب ما جاء على لسان سعد البزاز، رئيس التحرير السابق لأكبر صحيفة يومية في بغداد والذي كان مديرا في الوزارة التي أشرفت على برامج الإذاعة والتلفزيون، من أن إجراءات التحرر التي اقترحها صدام كانت تجميلية في الدرجة الأولى. وفي عام ١٩٨٩، مثلا، وجد سعد نفسه على نحو مفاجئ «مدفوعا» لمقابلة صدام. انطلق به ضابط الأمن إلى فيلا كبيرة في ضواحي بغداد. وفتش عند الوصول ودعي إلى الجلوس على مقعد، حيث انتظر لمدة نصف ساعة عندما كان الناس يجيؤون ويذهبون من مكتب الرئيس. وعندما جاء دوره، سلم دفترا وقلم رصاص، وذكر بأن يتحدث فقط إذا طرح صدام سؤالا مباشرا، وبعد ذلك دخل برفقة الدليل. كان الوقت ظهرا وكان صدام يرتدي زيا عسكريا. بقي جالسا خلف مكتبه، لم يقترب من البزاز أو حتى يصافحه. في البداية، تذمر صدام بخصوص عرض كوميديا مصرية كانت قد بثت في إحدى قنوات التلفزيون العراقي. «انها سخيفة، وعلينا أن لا نعرضها لشعبنا»، أكد صدام. دوّن البزاز الملاحظة كما ينبغي. بعد ذلك جاء صدام على المسألة التي كانت تهمه كثيرا.

وحتى في عصر التحرر الجديد كان عمل المذيعين التابعين للدولة هو ان يبثوا يوميا القصائد والأغاني التي كتبت في ثناء صدام. معظم العمل كانت تنقصه البراعة، كتبه عراقيون كان إعجابهم برئيسهم أكبر من مهاراتهم الكتابية. وبالرغم من أن الأشعار ما زالت تذاع، فإن البزاز والمخرجين العاملين معه قد خفضوا عددها، وقد أصبحوا أكثر صرامة في الاختيار. وقد لاحظ صدام التغيير في السياسة وعلق عرضا، «افهم بأنك لم تسمح لبعض الأغاني التي تحمل اسمي من أن تذاع». سيطر الرعب بشكل مفاجئ على البزاز وأجاب «السيد الرئيس نحن لم نزل نذيع الأغاني، لكني أوقفت بعضها لأنها كتبت على نحو هزيل جدا. إنها سقط المتاع». كان صدام غير متأثر بالإيضاح. «أنظر، أنت لست بقاض»، أبلغ مدير البرامج المذعور، الذي كان يظن بأنه

على وشك أن يؤخذ ويعدم. «كيف تستطيع أن تمنع الناس من التعبير عن مشاعرهم تجاهي؟» وكل الذي تمكن البزاز من فعله هو تكرار «نعم سيدي» وتدوين كل شيء قاله الرئيس بارتباك شديد. وواصل صدام تقريعه المطول، وأعطى إرشادات جديدة حول الكيفية التي تدار بها الصحافة والفنون. وفي وقت آخر من ذلك اليوم سمح للبزاز بالعودة إلى دائرته في بغداد، حيث ألغى على الفور سياسته السابقة. في ذلك المساء كانت هناك إذاعة كاملة للقصائد والأغاني المهداة إلى صدام.[١٧]

وإحدى الأولويات الأساسية الأخرى لدى صدام في أعقاب الحرب مباشرة هي تحسين موقف العراق العالمي، خاصة مع الأقطار العربية التي ساندت المجهود الحربي العراقي. وفي فبراير ١٩٨٩ ساهم في إقامة مجلس التعاون العربي (ACC)، الذي ضم كلا من مصر واليمن الشمالي والأردن والعراق. وفضلا عن تشجيع التعاون الاقتصادي، فإن (ACC) وجد ليشكّل السد الموحد الذي سيوقف الأهداف الإيرانية التوسعية، ويدعم القضية الفلسطينية، ويعزل سوريا، العدو اللدود لصدام. ورحب بتشكيل مجلس التعاون العربي في الغرب، الذي شهد تغيرا ملحوظا في موقف بغداد، خاصة بما يتعلق بالقضية الفلسطينية. وفي هذا المضمار انخفض خطاب صدام «الرافض» قبل الحرب إلى الحد الذي أيد به إعلان منظمة التحرير الفلسطينية في حق إسرائيل في الوجود، والذي أعلنه ياسر عرفات في جنيف في ديسمبر ١٩٨٨

الغرب، بمعية الأنظمة العربية الأكثر اعتدالا والاتحاد السوفيتي، ساندوا جميعا العراق حتى نهاية الحرب مع إيران، والتهديد الملحوظ الذي شكّله آيات الله المتشددون في طهران كان يعني بأن أكثرية تلك البلدان أرادت أن تواصل دعمها للعراق، وإذا لم يكن هناك شيء آخر فإنه وقاء ضد انتشار الأصولية الإسلامية في أرجاء الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن معظم الدول الغربية كانت ميالة إلى مواصلة التعامل التجاري مع بغداد، إلا أن قضيتين عرقلتا التطبيع الكامل للعلاقات - سجل العراق المرعب في انتهاك حقوق الإنسان وتطويره المتواصل لأسلحة الدمار الشامل.

وكما حصل في ١٩٧٥، عندما كانت اتفاقية صدام مع الشاه قد مكنته من شن هجوم مدمر ضد الأكراد، فإن وقف إطلاق النار مع إيران في ١٩٨٨ مكنه كذلك من استئناف قتاله ضد الأكراد. وفي خلال شهرين من نهاية الحرب تعرضت خمس وستون قرية كردية للهجوم الكيمياوي ذاته الذي أباد القسم الأكبر من حلبجة في مارس الماضي عندما كان صدام يسعى إلى فرض «الحل النهائي» لقضية الاستقلال الكردي الشاقة.

ومات ما قدر بـ (٥٠٠٠) شخص في الهجمات الكيماوية، بينما فر (١٠٠٠٠٠) آخرين في اتجاه الحدود الإيرانية والتركية. وفي خريف قد بلغ عدد اللاجئين الأكراد في إيران وتركيا (٢٥٠٠٠٠). وأثار اضطهاد الأكراد الغضب العالمي. وفي الولايات المتحدة أرسلت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ اثنين من أعضائها، بيتر غالبريت وكرستوفر فان هولن للاطلاع على الوضع في كردستان. وعندما قدّما تقريرهما في أكتوبر ١٩٨٨ بأن العراق كان يستعمل الأسلحة الكيمياوية كجزء من سياسته في تجريد المنطقة من سكانها رد الكونغرس الأمريكي بالمطالبة بالعقوبات. وفي فرنسا أخذت دانيل ميتران، زوجة الرئيس الفرنسي قضية الاكراد على عاتق جمعيتها أحرار فرنسا France - Libertés ونظمت مؤتمرا كرديا في باريس في أكتوبر ١٩٨٩ وفي بريطانيا أصدر وزير الخارجية السير جيفري هاو، بيانا يشجب معاملة صدام للأكراد.

إن الاهتمام بانتهاكات العراق لحقوق الإنسان انعكس في الدليل المتصاعد بأن صدام، على الرغم من الوضع المالي للدولة المحفوف بالمخاطر، كان يكثر من تطوير البنى التحتية العسكرية في أعقاب الحرب بدلا من تركيز موارده على إعادة الإعمار السلمي. وفي عام ١٩٨٩ كانت واردات العراق العسكرية تصل إلى خمسة مليارات دولار سنويا، أي ما يقارب نصف عائدات النفط. وفي نهاية الحرب تم إنشاء مؤسسة جديدة، هي مؤسسة التصنيع العسكري لتشرف على تطوير صناعة الأسلحة العراقية المحلية. وحسين كامل المجيد، الرجل المسؤول عن وضع القنبلة في طائرة الهليكوبتر الخاصة بعدنان خير الله، وتولّى مسؤولية مؤسسة التصنيع العسكري وميزانيتها الضخمة. وقد تعلم صدام من التجربة المرة بأن العراق ليس في وسعه الاعتماد على مورّدي الأسلحة الأجانب في أوقات الأزمة، ولذا عزم على الاستمرار في خطته، التي أُقرّت في منتصف السبعينيات، ليجعل منه مكتفيا ذاتيا في تصنيع الأسلحة، خاصة أسلحة الدمار الشامل.

ويبدو أنه كان ناجحا إلى درجة كبيرة في ذلك، لأنه في شهر أكتوبر ١٩٨٩ أصدر معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وهو مؤسسة بحوث خاصة، تقريرا بعنوان «الجنيّ الطليق»، الذي جدول إنتاج العراق للأسلحة البيولوجية والكيمياوية واقترح على أن الغرب قد يخسر المعركة لإيقاف انتشار مثل تلك الأسلحة. ونصّ التقرير: «أن العراق قد واصل، بل وسع جهوده منذ إيقاف القتال مع إيران في يوليو ١٩٨٨»، واستمر في القول بأن المساعي الدولية لإضعاف برنامج الأسلحة الكيمياوية بحرمانه من المواد الخام أصبحت خارج الموضوع أكثر فأكثر لأن العراق أصبح على حافة الاكتفاء

الذاتي. «إن استعداد بغداد لاستثمار الموارد الحقيقية في برنامج أسلحتها البيولوجية والكيمياوية يوحي بأن قادتها يؤمنون بأن تلك البرامج سوف تستمر لتكون ذات أهمية استراتيجية هائلة». وكانت هناك إشارات أخرى بأن برنامج أسلحة العراق البيولوجية كان متقدما بشكل جيد، وان مرفق سلمان باك، الذي يبعد عشرين ميلا جنوب شرق بغداد، كان ينتج مواد سامة. وقيل بأن المصنع البيولوجي الرئيس الآخر في سامراء يُجري أبحاثاً في التطبيقات العسكرية الممكنة للتيفوئيد والكوليرا، والجمرة الخبيثة وداء حمى الأرانب والتهاب دماغ الخيل.

وقليل من الاهتمام أعطي في ذلك الوقت لبرنامج صدام النووي، لأن معظم الخبراء بالدرجة الأولى اعتقدوا بأن الهجوم الإسرائيلي على مصنع Osirak في عام ١٩٨١ قد حطم طموحات العراق النووية. ولكن في أواخر الثمانينيات توصل موظفو الاستخبارات الأمريكية والبريطانية إلى استنتاج بأن العراق كان مستمرا في إحراز تقدم ملحوظ في برنامج بحثه النووي، والنتيجة أن بغداد في أوائل التسعينيات ستكون في موضع إنشاء قنبلتها الذرية الخاصة. والتأكيد على أن صدام لم يزل مصمما على أن يصبح العراق أول قوة نووية عظمى في العالم العربي برز في ١٩٨٩عندما كشف المحققون البريطانيون والأمريكيون عن مخطط للحصول على عدد من الـ Krytons محولات الفولتية العالية التي يمكن استعمالها لتفجير الأسلحة النووية.

إن التقدم في برنامج جعل العراق مكتفيا ذاتيا في تصنيع أسلحة الدمار الشامل انسجم مع نجاح العراقيين في تطوير أنظمة إطلاقهم الخاصة. خلال الحرب مع إيران كان العراقيون قد نجحوا، بمساعدة المصريين، في تطوير نسخة مطوّرة من صواريخ سكود -ب السوفيتية الصنع بمدى ١٨٠ميلا باستطاعتها أن تضرب إيران. وكان العراقيون أيضا يعملون على تطوير بدر ٢٠٠٠، وهو صاروخ بمدى ٣٧٥ ميلا بالارتكاز على Condor-2 الأرجنتيني. وفي ديسمبر ١٩٨٩، ولإظهار براعته الفنية الفائقة، أعلن العراق أنه قد أطلق صاروخا بثلاث مراحل قادرا على وضع قمر صناعي في الفضاء وقد جرب صاروخين بمدى ١٢٠٠ ميلا. المشروع العسكري الأكثر اهتماما الذي نفذه العراقيون في ذلك الوقت كان تطوير «المدفع العملاق» والذي من المفترض أن يكون قادرا على إطلاق رؤوس حربية لآلاف الأميال. ووصل المشروع إلى توقف مفاجئ في مارس ١٩٩٠ بسبب الاغتيال الذي وقع في بروسلز، للدكتور جيرالد بول، خبير الصواريخ الباليستية الكندي المسؤول عن تصميم «المدفع العملاق». إن جهاز استخبارات الموساد الإسرائيلي وقعت عليه مسؤولية الاغتيال إلى حد بعيد، بالرغم من

أنه لم تكن هناك شحة في المشبوهين الآخرين. بعد أسابيع قليلة استولى موظفو الجمارك على ثمانية أنابيب فولاذية كبيرة كانت متوجهة إلى بغداد، حيث يعتقد بأنها لتشكيل الجزء الأسطواني في «المدفع العملاق»، وبعد ذلك بفترة قصيرة كانت أجزاء أخرى من هذا المشروع البارع اكتشفت في اليونان وتركيا.

وبالرغم من الدليل الكامل بأن العراق أدين في كل من خروقاته الصارخة لحقوق الإنسان وتطوير أسلحة الدمار الشامل، لم يقم الغرب بمحاولة جادة لعزل صدام في ذلك الوقت العصيب. وفي الوقت الذي كان فيه السياسيون الغربيون يدلون ببيانات مختلفة تشجب تصرف العراق، كان رجال الأعمال الغربيون يشجعون للمتاجرة مع بغداد. وفي واشنطن واصلت إدارة ريغان الوقوف في مواجهة أي محاولة يتخذ بها الكونغرس عملا ضد العراق، بينما في بريطانيا ردّ وزير التجارة البريطاني توني نيوتن على انتقاد معاملة صدام للأكراد عبر مضاعفة قروض الصادرات البريطانية إلى العراق من ١٧٥ مليون جنيه في عام ١٩٨٨ إلى ٣٤٠ مليون جنيه في عام ١٩٨٩ ولما أقام صدام، في شهر أبريل ١٩٨٩، معرضا عسكريا في بغداد، نظمه صهره حسين كامل، أرسلت مئات الشركات الغربية ممثلين عنها على أمل الحصول على عقود مربحة.

والسير هارولد ووكر الذي أصبح سفيراً لبريطانيا في بغداد في فبراير ١٩٩١، استذكر بأن مذكرته كانت من أجل إدامة العلاقات على نحو اعتيادي مع العراق لكي تستطيع الشركات البريطانية أن «تنجز تجارة جيدة». فالغرب لم يزل معنياً بإيران والعراق، وكان هناك إدراك متنام بأن العراق استطاع فعلاً أن يصبح عاملا راسخا في الصراع العربي الإسرائيلي. «أخشى أن تكون قضية حقوق الإنسان وقعت تحت البساط. الأفضلية الرئيسة هي التجارة» أكد السير هارولد[١٨] ومع ذلك، فإن إقامة اتصالات دبلوماسية طبيعية مع النظام، لم تكن موضوعا هينا. ومن منتصف الثمانينيات فصاعدا قرر صدام أن يتوقف عن استقبال السفراء الأجانب عند وصولهم بحجة أنه كان مشغولا بالحرب. واستمرت الممارسة حتى بعد توقف القتال، وبدلا عنه طلب من السفراء الجدد أن يقدموا أوراق اعتمادهم إلى طارق عزيز، وزير الخارجية، في القصر الرئاسي. واستذكر ووكر بأنه عندما ذهب إلى القصر في أوائل عام ١٩٩١، بمدة طويلة بعد تنفيذ وقف إطلاق النار مع إيران، كان مندهشا بمستوى الأمن. كان عليه أن يمر بنقاط تفتيش أمنية عديدة، ولما وصل نقطة التفتيش الأخيرة، وجد جميع الحراس يرتدون أقنعة غازية، كما لو أنهم كانوا يتوقعون بأن القصر نفسه سيتعرض لهجوم بالأسلحة الكيميائية.

ومع ذلك، بقي صدام على العموم محبطا بشدة وذلك للضغط السلبي الذي تلقاه وخاصة في الغرب. والسفراء الغربيون، الذين كانوا يدعون لرؤيته في مناسبات نادرة، كانوا يناقشون بصورة عامة في قائمة طويلة من الشكاوى حول تغطية وسائل الإعلام للعراق. فالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية كان مصدر إزعاج خاص، وتلقى سفراء بريطانيون متعاقبون محاضرات طويلة حول ما لمسه صدام من تحامل هيئة الإذاعة البريطانية على بغداد[١٩] ولا يستطيع أن يستوعب الاحتجاج الدولي العنيف الذي رحب بدليل استخدام العراق للأسلحة الكيمياوية ضد الأكراد. وصرف صدام النظر عن الانتقاد بوصف الموضوع مؤامرة صهيونية لتشويه الانتصار العظيم للعراق على إيران، وأطلق حملة دعائية صممت لتصوير ترحيل الأكراد كعمل إنساني. إن عقدة الاضطهاد لدى صدام لم يمنعها السقوط والإعدام الوحشي للدكتاتور الروماني نيكولاي شاوشيسكو في ديسمبر ١٩٨٩ وكصدام، كان شاوشيسكو حاكما مطلقا اعتمد حكمه على التأسيس المتواصل لعبادة الشخصية وكفاءة جهازه الأمني الهائل المدرب في ألمانيا الشرقية، لكي يبقى في السلطة. وكصدام، أصبح شاوشيسكو مبتعدا عن شعبه ومنعزلا في حرم قصوره الكثيرة والمحصنة بقوة ليحمي نفسه من واقع شعبه المسلوب القوة والساخط. وصدم صدام بشدة بسقوط شاوشيسكو، وأمر مسؤولي أمنه بدراسة أشرطة الفيديو الخاصة بزوال شاوشيسكو ليضمن بأنه لن يكابد المضير ذاته.

من ناحية ثانية فإن كل الآمال التي قد يمنّي بها صدام نفسه مع الغرب، حطمت بشكل يتعذر معالجته وذلك بمعاملته لفرزاد بازوفت الصحفي البريطاني الذي اعتقل بتهم التجسس عندما كان في طريقه إلى مطار بغداد في ديسمبر ١٩٨٩ وبازوفت الذي ولد في إيران وكان يعمل كصحفي مستقل لصحيفة الأوبزيرفر في لندن، كان يجري تحقيقا في انفجار غامض وقع في مصنع عسكري في الحلة جنوب بغداد. وبالرغم من أن صدام قد أمر في كتمان أخبار الحادث، فإنه سرعان ما ظهر بأن الانفجار قد وقع في خط إنتاج الصواريخ. وقتل الانفجار عشرات الفنيين المصريين العاملين في مشروع الصواريخ السري للغاية، وبازوفت الذي كان يأمل في أن يحقق سبقا صحفيا، سافر إلى الحلة مرتديا زي طبيب هندي ليجري تحقيقا. وبعد عودته اعتقل فورا عندما حاول أن يغادر القطر واتهم بالتجسس. وفي لقاء تلفزيوني لاحق، من الواضح أنه جرى تحت الإكراه التهديدي، قال بازوفت بأنه كان يعمل جاسوسا لإسرائيل. وباعترافه هذا كان يأمل بأنه سيعامل برفق. لكن هذا ليس أسلوب صدام. وخلال حكمه كان قد

استعمل تكتيك استخلاص الاعترافات الكاذبة ليبرر تطهيره لأعدائه، كما أثبت ذلك فعلا خلال الأيام الأولى لرئاسته في ١٩٧٩ عندما قاد حملة تطهير واسعة النطاق لرفاقه في حزب البعث. وفي الخامس عشر من مارس ١٩٩٠، وفي محاكمة ليوم واحد فشلت فيها جهة الادعاء في إصدار أي دليل مقنع خاص بجرمه، أعدم بازوفت على يد فرقة إطلاق النار.

ومن جميع الأفعال الوحشية التي استمرت تحت رعاية صدام منذ أن استلم البعثيون السلطة في عام ١٩٦٨، فإن الإعدام السريع لفرزاد بازوفت كان الوحيد الذي استرعى في النهاية اهتمام الغرب وجذب التحري في الطبيعة البربرية لنظام صدام. وسواء بسبب موقع بازوفت كصحفي الذي كان يعني بأن قضيته اجتذبت اهتماما أكثر من العدد الضخم لضحايا صدام الآخرين، أو لأن إعدامه وقع في وقت كان فيه الاهتمام العالمي معبرا في ذلك الحين عن انتهاكات حقوق الإنسان في العراق وتطوير أسلحة الدمار الشامل، فإن الحكم بإعدام بازوفت أثبت بأنه الحد الفاصل في علاقات الغرب مع بغداد. إن الرأي الغربي في العراق في ظل صدام في ١٩٩٠ اختصر بإيجاز بارع بقول مارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا: «العراق بلد استخدم الأسلحة الكيمياوية - ليس فقط في الحرب، وانما ضد شعبه. وصدام حسين ليس قاطع طريق دولي فحسب، وإنما هو أيضا الخاسر الذي سبّب دمارا كبيرا لكل من القضية الفلسطينية والعرب وهو الذي ولأكثر من ثماني سنوات رمى عبثا موجة إثر موجة من العراقيين الشباب في الحرب ضد إيران».[٢٠]

وبسبب تدهور الاقتصاد، وخضوع محاولاته للحصول على أسلحة الدمار الشامل إلى تخريب متواصل، والكشف المتكرر للمحاولات الانقلابية الجديدة، فإن صدام أصبح في موقف دفاعي للغاية في ربيع ١٩٩٠ وبإعدامه لبازوفت كان وبلا شك قد حسب، كما فعل ذلك في عدة مناسبات في الماضي، بأنه سيرسل إشارة جريئة إلى أعدائه المتمثلين، في الداخل والخارج، بأن جميع أولئك الذين تآمروا ضده سيدفعون الثمن غاليا. وإنه في تلك الحال المتقدمة من جنون الاضطهاد، وعندما كان يعتقد فعلا بأن هناك مؤامرة دولية لتحطيم نظامه، بدأ صدام يتأمل مبادرة دراماتيكية جديدة ستعيد كلا من أموال البلد وثقة الشعب بقائده.

في الشهور الستة الأولى من عام ١٩٩٠ كان يزيد من الضغط الدبلوماسي على دول الخليج، وبالأخص الكويت والسعودية، من أجل تخفيف المأزق الاقتصادي للعراق. ومنذ نهاية الحرب مع إيران كان العراقيون يضغطون على قادة الخليج لحذف

٤٠ مليار دولار وهي المساعدة المادية التي أعطيت لبغداد، وإن سعر النفط المنخفض في أواخر الثمانينيات كان أيضا شأنا خطيرا بالنسبة للعراقيين، لأن النفط بلغ ٩٥٪ من دخل الحكومة. وفي فبراير ١٩٩٠، في اجتماع قمة مجلس التعاون العربي في عمان للاحتفال بالذكرى التأسيسية الأولى، طالب صدام فعليا دول الخليج بتخليصه من مشاكله المادية، وفضلا عن الإيقاف الفوري لقروض الحرب، طالب بقروض جديدة بقيمة ٣٠ مليار دولار تُدفع لإعادة الإعمار. «فلتعلم دول الخليج»، أعلن صدام، «بأنه إذا لم يقوموا بدفع هذا المبلغ لي فإني سوف أعرف كيف أحصل عليه».[٢١]

وتصاعدت التوترات ما بين العراق ودول الخليج في ربيع ١٩٩٠، خاصة بعدما أصبح صدام مقتنعا بأن إسرائيل، وبدعم أمريكي، كانت تخطط لمهاجمة مرافق أسلحة الدمار الشامل، بطريقة مماثلة لهجوم Osirak في عام ١٩٨١ بيد أن دول الخليج لم تكترث بتهديدات صدام، ولتزيد الطين بلة، واصلت سياستها في زيادة حصصها من إنتاج نفط OPEC والتي خدمت في تخفيض سعر النفط العالمي في الوقت الذي استطاع صدام أن يرفعه بمقدار أقل. وفي القمة العربية المنعقدة في بغداد في مايو ١٩٩٠، ظاهريا لمناقشة تأثير التدفق الجديد لليهود السوفيت إلى إسرائيل على المنطقة، شن صدام هجوما مباشرا على قادة الخليج، خاصة الكويتيين، الذين كانوا يزيدون عمدا حصصهم في أوبك. وأعلن صدام بأن تلك السياسة كانت معادلة لإعلان الحرب على العراق. لكن دول الخليج ما زالت ترفض الإكراه بالتهديد. وكان أمير الكويت مصرا على أن لا يقلل من إنتاج النفط ولا يلغي قروض الحرب للعراق ولا يعطي منحا إضافية إلى بغداد.

وبالرغم من أن غضب صدام كان موجها إلى جميع دول الخليج المنتجة للنفط، كان بشكل خاص يستشيط غضبا من موقف الكويتيين، الذين في نظره، عليهم التزام تاريخي في دعم بغداد. ومنذ وجود دولة العراق كانت الأنظمة العراقية المتعاقبة تشكو من أن الكويت، التي كانت تشكل جزءا من الإقليم الإداري للبصرة خلال العهد العثماني، فصلت بشكل لاشرعي من العراق. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الطبيعة المحدودة للخط الساحلي العراقي على الخليج، فإن الخط الساحلي الكويتي المتطور حقا كان ينظر إليه بعين الحسد في بغداد، خصوصا بعد اكتشاف وتطوير حقول النفط في المنطقة. إن الترسيم الاعتباطي للحدود ما بين العراق والكويت، والتي رسمها السير بيرسي كوكس في العشرينيات، كان مصدرا آخر للتذمر، لأن العراقيين ادعوا بأنه أعطى الكويتيين حق الدخول إلى حقل الرميلة النفطي المربح.

وقد هدد العراق باتخاذ إجراء ضد الكويت في عدة مناسبات في الماضي. في عام ١٩٣٧ أزعج الملك غازي ملك العراق أسياده البريطانيين بالدفاع عن إلحاقها. ولما منحت بريطانيا الكويت الاستقلال في عام ١٩٦١، ردّ الزعيم قاسم بالإصرار على أنها جزء لا يتجزأ من العراق، وحتى أنه أعلن تعيين حاكم عراقي جديد «للإقليم». وفي أوائل السبعينيات أدى النزاع ما بين العراق والكويت حول الجزيرتين الكويتيتين وربة وبوبيان إلى احتلالهما من قبل القوات العراقية المسلحة. وتحتل الجزيرتان المصب المؤدي إلى ميناء أم قصر في جنوب العراق وإن امتلاكهما سيزيد من حجم ساحل العراق الخليجي ليوفر له الفرصة لتطوير الممر المائي العميق الذي يحتاجه كثيرا في الخليج. وفي النهاية أقنعت القوات العراقية عن التخلي عن الجزيرتين بعد تدخل الجامعة العربية والسعودية، لكن العراق واصل ضغطه في ادعائه بالجزيرتين.

في محاولة نهائية لترويع الكويتيين، في تموز، وفي الذكرى الثانية والعشرين لثورة البعث، سلم صدام الكويت قائمة من المطالب، تضمنت استقرار سعر النفط العالمي، تجميد قروض الحرب المتوجبة على العراق، ووضع خطة عربية شبيهة بخطة مارشال Marshal وذلك لدعم برنامج إعادة إعمار العراق. وإذا فشل الكويتيون في ما التزموا به، فإنه حذر، «ليس لدينا خيار سوى اللجوء إلى العمل الفعّال لنضع الأمور في نصابها ونضمن استرجاع حقوقنا».(٢٢)

والدكتور غازي القصيبي، الدبلوماسي الذي عمل مستشارا مقربا من الملك فهد خلال أزمة صيف ١٩٩٠، قال بأن الملك السعودي كان منزعجا للغاية لموقف صدام تجاه الكويتيين وجيرانه الخليجيين الآخرين. «كان الملك قلقا في شأن حالة صدام العقلية. كان على قناعة بأن صدام على وشك أن يقوم بعمل كارثي». وطبقا للقصيبي، ليس لدى السعوديين ولا الكويتيين أي توقع حقيقي بأن قروض الحرب سيعاد دفعها، لكن كلا البلدين اعتقدا بأنها ستشكل سابقة خطيرة إذا ما أعلنوا على رؤوس الأشهاد بأنهم قد ألغوها. إلا أنه بسبب المزاج الحربي لصدام ووجود أكبر جيش في الشرق الأوسط تحت تصرفه، كان السعوديون مستعدين للاستثناء، وحثوا الكويتيين على العمل ذاته. وفي شهر يوليو كان الملك فهد على اتصال هاتفي متواصل مع أمير الكويت. وفي النهاية أقنع الأمير على الموافقة على شروط صدام. اتصل الملك هاتفيا بصدام وأخبره، «لدي أخبار لك لا تصدق. وافق الأمير على جميع شروطك». ولكن ما أدهش الملك فهد، هو أنه بدلا من الشعور بالارتياح بأن الأزمة قد حسمت، فإن

صدام أعطى انطباعا بأنه غير مهتم بالمبادرة السعودية. «في تلك اللحظة أدرك الملك بأن الكويت مآلها الهلاك»، أكد القصيبي.[٢٣]

وفي كل الاحتمالات فإن صدام قد اتخذ قرار غزو الكويت قبل الإنذار النهائي الصادر في ١٨ يوليو. وفي الحادي والعشرين من يوليو بدأ ما يقدر بثلاثين ألف جندي عراقي بالانتشار قرب الحدود الكويتية. والقضية الوحيدة التي منعت العراق من القيام باجتياح واسع النطاق للإمارة كانت رغبة صدام في أن يربح على الأقل الموافقة الضمنية على مغامرته من واشنطن. وبسبب انهيار الاتحاد السوفيتي في السنة الماضية اعتقد صدام بأن الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة القادرة على إعاقة خططه. وحتى بعد إعدام بازوفت، لم تزل واشنطن ترسل الإشارات المتناقضة حول موقفها تجاه بغداد. وفي الوقت الذي ضغط فيه مجلس الشيوخ في صالح فرض العقوبات على العراق، كان الرئيس بوش يشير إلى المصلحة في تنمية العلاقات الثنائية مع بغداد. وفي يونيو اعترض جون كيلي، مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى، على محاولة الكونغرس لفرض العقوبات على أساس أن مثل ذلك التحرك سيكون ذا أثر معاكس للمصلحة القومية للولايات المتحدة.

وفي الخامس والعشرين من يوليو استدعى صدام أبريل غلاسبي، سفيرة الولايات المتحدة في بغداد، لاجتماع الساعة الواحدة في القصر الرئاسي. أراد صدام أن يختبر رد فعلها بخصوص مغامرته المبيتة في الكويت. وقد اشتركت غلاسبي من قبل في مواجهة دبلوماسية عبر إذاعة صوت أمريكا في فبراير الماضي، والتي رسمت مقارنة مباشرة ما بين عراق صدام ورومانيا تحت حكم شاوشيسكو، مبينة: «ان نجاح الحكم الدكتاتوري والاستبدادي يتطلب وجود قوة بوليسية سرية كبيرة، بينما يتطلب نجاح الديمقراطية إلغاء مثل تلك القوة». وقد أجابت غلاسبي على احتجاجات صدام بتقديم الاعتذار، وأكدت بأن الولايات المتحدة ليس لديها نية في التدخل في «الشؤون الداخلية للشعب العراقي والحكومة».

وفي اجتماع يوليو، أوضح صدام بأن الصراع نتج من خلافه مع الكويت. اتهم الولايات المتحدة بدعم «حرب الكويت الاقتصادية ضد العراق» في الوقت الذي كان عليها أن تكون ممتنة لبغداد لاحتوائها إيران الأصولية. وفيما بعد هدّد الولايات المتحدة بانتقام إرهابي إذا ما واصلت سياستها العدوانية تجاه العراق. «إذا استخدمتم الضغط فنحن سوف نستخدم الضغط والقوة»، أكد صدام. «نحن لا نقدر أن نقطع كل تلك المسافة لنصلكم في الولايات المتحدة ولكن قد يصلكم العرب بشكل فردي».

وحسب الصورة المنقولة للحديث ما بين غلاسبي وصدام، والذي تسرب عن طريق العراقيين، ولم تنكر صحته وزارة الخارجية في الولايات المتحدة، فإن السفيرة غلاسبي، بدلا من الاستجابة لولع صدام في الحرب أجابت ببساطة «ليس لدينا فكرة عن الصراعات العربية - العربية مثل نزاعكم الحدودي مع الكويت». هي واصلت الثناء على صدام «لجهوده الاستثنائية» في إعادة بناء العراق بعد الحرب مع إيران. ولما كرر صدام زعمه بأن الولايات المتحدة كانت تساند المحاولات الكويتية لتقويض الاقتصاد العراقي، أجابت «الرئيس بوش رجل ذكي. إنه لا ينوي أن يعلن الحرب الاقتصادية على العراق». وأخيرا قالت غلاسبي بأنها قد كلفت و«بروح الصداقة» أن تتبين نوايا صدام بما يخص الكويت، ومن وجهة النظر الأمريكية، كان ذلك الهدف الأساسي من اللقاء. وكرر صدام ادعاءه بأن الكويت كانت المعتدية، لأنها وبشكل متعمد قد خفضت سعر النفط، وبذلك هددت أرزاق العراقيين «مضرة حتى الحليب الذي يشربه أطفالنا ومعاش التقاعد الخاص بالأرملة التي فقدت زوجها في الحرب، ومعاشات الأيتام الذين فقدوا والديهم». واختتم اللقاء مصرحا، إذا لم نتوصل إلى اتفاق مع الكويت في «ذلك الحين سيكون أمرا طبيعيا بأن لا يقبل العراق الموت».

وظاهريا خرجت غلاسبي من اللقاء معتقدة بأن صدام كان مليئا بالغضب، ولم يكن عازما على غزو الكويت. وبعد خمسة أيام طارت إلى واشنطن للتشاور مع الرئيس بوش. وبعد ذلك بثلاثة أيام غزا العراق الكويت. ولما نشر العراقيون تفاصيل لقاء غلاسبي بصدام في بغداد، اتهمت الدبلوماسية ذات السيرة البالغة ثمانية وأربعين عاما والتي امتلكت خبرة واسعة في العالم العربي، بالسذاجة في أحسن الأحوال، أو في أسوئها، بإعطاء صدام «الضوء الأخضر» ليغزو الكويت. وقد نفت ذلك الاتهام بشدة. وقالت في مقابلة نشرت في نيويورك تايمز في أواخر ١٩٩٠ «على نحو بيّن أنني لم أعتقد، ولم يعتقد أي شخص آخر، بأن العراقيين سيحتلون الكويت كاملة. كل كويتي وسعودي، كل محلل في العالم الغربي، كان على خطأ أيضا».

وتعاطف السير هارولد ووكر، السفير البريطاني في ذلك الوقت، مع موقف غلاسبي. وفي نظره، لم تأخذ أيّ من البعثات الدبلوماسية الغربية ما اتخذه صدام على محمل الجد. علاوة على ذلك فإن الرئيس المصري مبارك قد أكد شخصيا لواشنطن ولندن بأن صدام ليس لديه النية بغزو الكويت، وأن الأزمة ستُحل عبر الدبلوماسية العربية. «لذلك السبب»، قال ووكر، «اعتقدنا جميعا بأن صدام كان منهمكا في لعبة سياسة خطرة ستنتهي فجأة بالاتفاق، والجميع سيتصرفون وكأنه لم يحدث أي شيء».

ولما أعلنت غلاسبي بأنها أخذت إجازة، كان ووكر يحذو حذوها دون أن يتردد لحظة واحدة.[٢٤]

ومع ذلك، فإن تعليق غلاسبي بأنها لم تعتقد بأن صدام «سيحتل الكويت كاملة» كان مخادعا. وقبل الغزو العراقي كان هناك توقع عام بأن صدام لو قام بعمل عسكري فسيكون مقتصرا على حقل الرميلة النفطي والجزيرتين المتنازع عليهما. وفي الحقيقة، لو اقتصرت فعاليته على تلك المناطق فسيكون من غير المحتمل أن تذهب الأمم المتحدة وراء فرض العقوبات، أو ترسل الولايات المتحدة جنديا واحدا إلى المنطقة. بيد أن ذلك التخمين استخف وعلى نحو خطير بالمبادئ العربية الشاملة للفكر البعثي، والذي يتطلع إلى الإلغاء الكامل للحدود الاستعمارية المفروضة على الشرق الأوسط في نهاية الحرب العالمية الأولى. إن غزو صدام «للكويت كاملة» كان متوافقا تماما مع الفكر البعثي. وكانت تلك أيضا سياسة شائعة من البداية إلى حد كبير بين عامة الشعب العراقي.

الفصل الحادي عشر

الخاسر

في الساعة الثانية صباحاً من اليوم الثاني من شهر أغسطس ١٩٩٠، سحق مائة ألف جندي عراقي تدعمهم ثلاثمائة دبابة الجيش الكويتي القوي البالغ عدده ستة عشر ألفاً وسيطروا على الإمارة. ويختلف الأمر عن غزو إيران في العشر سنوات المنصرمة، حيث نادراً ما واجه العراقيون أية مقاومة. ليس هناك مقاومة في الحدود الكويتية، وكانت فقط عندما دخلت القوات العراقية المسلحة مدينة الكويت نفسها حيث صادفوا القلة من الكويتيين الشجعان الذين حاولوا أن يعيقوا تقدمهم، لكنّهم أُبيدوا بسهولة بالقوة النارية العراقية المتفوّقة. والقوة الجوية الكويتية طارت في السماء، لتنقل مقاتلاتها إلى الأمان في السعودية فحسب، والأسطول الكويتي بقي راسياً بهدوء.

والنكسة الوحيدة بالنسبة لصدام هي أنّ الأمير الكويتي وجميع وزرائه نجحوا في الفرار، بفضل الخطة المنسّقة بعناية والتي تم ترتيبها بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية قبل بضعةِ شهور خلت. وقد أعطي الأمر إلى وحدةٍ منتقاة في الحرس الجمهوري بأن تذهب مباشرة إلى قصر دسمان في اللحظة التي دخلوا فيها إلى الكويت وأن يأخذوا العائلة الحاكمة كأسرى. ولو حصل ذلك، فإنّ الأمير سيمنح خيار التعاون مع الغزاة، ويأمر بإيقاف المقاومة، مقابل المحافظة على حياته وسيعيّن رئيساً لحكومةٍ مرتهنة توجّه من بغداد. وإذا اعتذر الأمير عن التعاون، كما كان متوقعاً، فإنه سيعدم في القصر. والعضو الوحيد من العائلة الحاكمة الذي تخلف هو الشيخ فهد، شقيق الأمير، الذي كان يدير فريق كرة القدم الكويتي. وقف مع القلة من حراس القصر في قمة درجات القصر عندما وصل العراقيون الأوائل، فسد طريقهم شاهراً مسدسه. وبلا مبالاة أطلق أحد العراقيين النار عليه فأرداه قتيلاً.

وفي غضون سبع ساعات كان الغزو قد اكتمل وأصبحت الكويت تحت السيطرة

المحكمة للعراقيين. الحكومة قد هربت، بمعية ما يقارب ثلاثمائة ألف مواطن، حيث انتهت المقاومة المسلحة وأغلق المطار. وامتلك صدام جائزةً مضافة بسيطرته على طائرةٍ تابعة للخطوط الجوية البريطانية هبطت في الكويت عن غير قصد للتزوّد بوقود إضافي في لحظة بدء الغزو. وكانت الطائرة في طيران مجدوَل من لندن إلى دلهي، وبالرغم من أنّ الاستخبارات الغربية علمت بأن العراق كان منهمكاً في عملية غزو الكويت، فلم يفكر أي أحد في أن ينذر الخطوط الجوية. ولما هبطت الطائرة في الكويت تم أسر الطاقم والمسافرين، ونقلوا إلى بغداد ليشكلوا جزءاً من درع بشري بدأ صدام بنشره ليحمي الأهداف الحيوية من الهجوم.

وبالرغم من أنّ صدام كان منشرحاً في البداية لسيطرته على الكويت، إلا أنّ فرحته لم تدم طويلاً. وقد حسب أنه الوقت الذي لم يكن يتوقع به أي تصفيق لتحركه، فإنه لم يواجه مقاومة كبيرة. وفي الحقيقة، إنّ الصور الاستخباراتية التي التقطها القمر الصناعي الأمريكي بعد الغزو بفترة قصيرة أظهرت بوضوح خطوط الدبابات العراقية على الحدود العراقية مع السعودية، وأحد الألغاز الكبيرة في غزو الكويت هي أنه لماذا أوقف صدام تقدمه عند الإمارة، ولم يتقدم أبعد من ذلك جنوباً ويحتل الحقول النفطية في الإمارات العربية المتحدة. ولكن وكما أظهر في حربه مع إيران، فإن صدام لم يكن فطناً من الناحية التكتيكية وأن أعماله كانت دائماً مزاجية بحذر. كان يعتقد بأنه قد حصل على «الضوء الأخضر» من أبريل غلاسبي ليحتل الكويت، وقد فعل ذلك، وقرر بأن يقيس قوة رد الفعل العالمي تجاه الغزو قبل أن يفكر ملياً في الحركة التالية. ولهذا السبب فإنّ الإشارات المنبعثة من بغداد في الآثار المباشرة للاحتلال كانت مشوشة.

في البداية أقام صدام «حكومةً ثوريةً محلية»، وأعطى الانطباع على أنّ العراق ينوي أن ينسحب من الكويت عندما يكون قد لبى حاجاته الاستراتيجية بضم جزيرتي وربة وبوبيان، مع بعض الأراضي على طول الحدود المشتركة، بما في ذلك حقول النفط في الرميلة الجنوبية. ومع ذلك، فإنه من غير المحتمل جداً أن يكون صدام قد أعطى أية فكرة جادة للتخلي عن مدينة الكويت، وحتى لو نجح في إقامة حكومة مستعدة لمساعدة بغداد، فإنه سيكون متردداً في فعل ذلك. والمدافعون من العرب رأوا بأن صدام كان سينسحب من الكويت في الوقت المطلوب، ولكنه أجبر على ضم الإمارة بسبب الرد العالمي المتصلب الذي قوبل بالغزو. ومع ذلك، ولو أخذنا بنظر الاعتبار منجزاته السابقة، فإنه من غير المحتمل أن يكون صدام قد أقنع بالانسحاب

طواعيةً. وتاريخياً اعتبر العراقيون الكويت أرضاً تابعة لهم، المحافظة التاسعة عشرة، والتي حرموا منها لغدر البريطانيين عندما رسموا الحدود الأصلية للعراق في العشرينيات. وفي العهود العثمانية كانت الكويت تحت سيطرة الحكومة الإقليمية في البصرة، وكانت تقريباً مسألة إيمانٍ بالنسبة للعراقيين بأنّ عليهم أن يسيطروا على الكويت، كان هجوماً لااستفزازياً على جار غير مستعد، وأدين مثل ذلك الهجوم على نطاقٍ واسع. وأثار الفعل العراقي إدانةً دوليةً كانت غير مسبوقة بشدتها إلى درجةٍ كبيرةٍ. وفي ساعات الاجتياح فرض الرئيس جورج بوش حظراً اقتصادياً على العراق وأمر حاملة الطائرات Independence بالتحرك من المحيط الهندي إلى الخليج الفارسي. وجمّدت جميع الأموال والممتلكات الكويتية والعراقية في المصارف والشركات الأمريكية وعلّقت حركة السلع والمسافرين من وإلى العراق. ومارغريت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا، التي كانت تحضر مؤتمراً في آسبين في كولورادو حيث استضافها الرئيس بوش في اليوم الذي وقع فيه الغزو، رسمت خطاً متوازياً ما بين احتلال صدام للكويت واحتلال أدولف هتلر لـ Sudetenland في الثلاثينيات، وأصرتِ على أن رد بريطانيا يستند إلى سياسة أن «المعتدين يجب ألا يستعطفوا على الإطلاق»[1] واتخذت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي خطوة غير اعتيادية وذلك بإصدار بيان مشترك يشجب الغزو. وأدين العراق أيضاً من قبل الأمم المتحدة والجامعة العربية، وفرض مجلس الأمن في الأمم المتحدة حظراً تجارياً واقتصادياً شاملاً على العراق وأوقفت على الفور أنابيب تصدير النفط العراقي عبر السعودية وتركيا. علاوةً على ذلك، فإنّ السعودية التي انتابها الذعر من انتشار الوحدات العراقية المسلحة على حدودها، طلبت الدعم من الولايات المتحدة. والولايات المتحدة التي التزمت نفسها بالانسحاب العراقي غير المشروط من الكويت، شرعت بمدّ جسورها الجوية العسكرية والتي نجحت تماماً في نشر ٦٠٠ ألف من الجنود الأجانب في السعودية في غضون الستة شهور التالية. وبجميع المقاييس كان غزو صدام للكويت خطأً مذهلاً في التقدير.

وبلا شك فإن قوة الرّد الدولي على الغزو قد فاجأت صدام. وبالرغم من تقديره بأن احتلاله للكويت سيجلب الانتقاد، لكنه ما زال يعتقد، بشكلٍ أو بآخر، بأن الغزو سيكون في صالحه تماماً. ولو أنه أرغم على الانسحاب، فإنه سيكون قادراً بالتأكيد على الحصول على امتياز ما، مثل إلغاء الديون الأجنبية على العراق، الاعتراف بادعاء العراق بحقول نفط الرميلة، أو بدلاً من ذلك، الاعتراف بادعاء العراق بالجزيرتين

المتنازع عليهما وربة وبوبيان. أو على الأقل أن يتوقع بأن يحل تظلّم العراق الدائم حول قِصَر خطه الساحلي البالغ خمسين كيلومتراً على الخليج. ولكن في تقديره للخيارات المتوفرة لديه، لم يُدخل صدام في حسابه مثل ذلك الرد المتصلب من الغرب.

وأحد العوامل الرئيسة التي عملت بشدة ضد مصلحة صدام هو أن المجتمع الدولي، في عام ١٩٩٠، كان ما يزال متقبلاً للحقائق السياسية الجديدة لما بعد الحرب الباردة. فانهيار الستار الحديدي في خريف ١٩٨٩ قد حرر عدداً من بلدان أوروبا الشرقية والتي كانت خاضعة بالقوة لعقيدة موسكو الشيوعية لأكثر من أربعين سنة. لما انتهى الاستبداد في أوروبا، فإن قادة العالم الحر، كانوا معارضين لرؤية استبدادٍ آخر ينشأ في الشرق الأوسط.

وفي محاولة لمواجهة الانتقاد الدولي المتصاعد زعم صدام بأنّ القوات العراقية قد دخلت الكويت بطلبٍ من حركة ثورية معارضة لأسرة آل صباح الحاكمة، بيد أنّ هذا الزعم سرعان ما تزعزعت الثقة به لعدم قدرته بأن يجد مواطنين كويتيين يرغبون في خدمة حكومةٍ ألعوبة. بالرغم من ذلك، مضى العراقيون قدماً في إقامة مجلس وزراء محلي في الرابع من أغسطس، أعلن بعد ثلاثة أيام الكويت جمهورية. وفي السادس من أغسطس، وبينما كانت واشنطن تدرس أفضل الطرق لحماية السعودية، التقى جوزيف ولسون، القائم بأعمال السفارة الأمريكية في بغداد (وهو يعمل سفيراً في غياب غلاسبي)، بصدام حيث طلب في اللقاء ضمانات لأمن السعودية. وكان صدام سعيداً في توفيرها وطلب من ولسون أن يبلغ السعوديين «لن نهاجم الذين لا يهاجموننا، ولن نؤذي الذين لا يؤذوننا».

في السابع من أغسطس، أعلن الرئيس بوش في خطاب تلفزيوني إلى الأمة بأن الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً أرسلت إلى المملكة العربية السعودية. وتلك كانت بداية عملية عاصفة الصحراء وأكبر انتشار للقوات الأمريكية في الخارج منذ حرب فيتنام. وفي خطابه كان بوش متشدداً. واتهم صدام «بالعمل العدواني الوحشي والسافر». وردّد متعمداً الآراء التي عبرت عنها السيدة تاتشر، فقارن بصورة غير مباشرة بين صدام وهتلر. وأعلن أنّ «التهدئة لا تفيد. وكما كان عليه الحال في الثلاثينيات، نحن نرى في صدام دكتاتوراً عدوانياً يهدد جيرانه». والتورط الواضح هو إذا لم يفعل الغرب على إخراج صدام من الكويت، فإنه في النهاية سيسيطر على الخليج وعلى أكثر من ٥٠٪ من احتياطي النفط المعروف في العالم. وبعد ذلك استمر بوش في تعداد

المبادئ الأساسية التي ستعزز من سياسته في الشهور الستة التالية: (١) الانسحاب الفوري وغير المشروط لجميع القوات العراقية من الكويت، (٢) إعادة الحكومة الشرعية الكويتية، (٣) إعادة التأكيد على التزام الولايات المتحدة بالاستقرار في الخليج، و(٤) تصميم أمريكا على حماية حياة مواطنيها. وجاء رد صدام في اليوم التالي بإعلانه ضمّ الكويت، وهذه أول عملية ضم لدولة ذات سيادة منذ الحرب العالمية الأولى. وفي الثامن من أغسطس وافق مجلس قيادة الثورة على عودة «الفرع، الكويت إلى الأصل، العراق»، وبعد ثلاثة أسابيع، أي في الثامن والعشرين من أغسطس أصبحت الكويت رسمياً المحافظة التاسعة عشرة في العراق. إنّ إعلان «الاندماج الشامل والأبدي»، كما وصفه العراقيون، اتضح في نهاية الأمر بأنه خطأ تكتيكي خطير من جانب صدام. وحتى حلفاؤه المزعومون في مجلس الأمن، مثل كوبا واليمن، وجدا من الصعب أن يدافعا عن أعماله في ذلك الوقت.

وفي خريف ١٩٩٠، ولما وصل إلى تقييم نتائج سياسته في الكويت بادر صدام بعدد من المبادرات الدبلوماسية اليائسة طابعها الواضح والوحيد هو ضمان بقائه على قيد الحياة. وبتعيينه لابن عمه علي حسن المجيد، المسؤول عن تسميم الأكراد في حلبجة في عام ١٩٨٨، حاكماً جديداً للكويت، ركز صدام طاقاته على تخليص نفسه من الوضع المعقد في الكويت بينما يحافظ على سمعته في العالم العربي، على الأقل، كبطل للقومية العربية. ومن البداية كسب صدام بعض الحلفاء المدهشين، مثل الملك حسين ملك الأردن، الذي أصرّ في مناقشاته مع كل من لندن وواشنطن بأن الأزمة الكويتية هي مشكلة عربية من الأفضل أن يحلها العرب. ووجد صدام أيضاً نفسه مدعواً من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، وهذا تطور مفاجئ لو أخذنا بنظر الاعتبار أنّ صدام كان قد كرّس سابقاً جلّ طاقته لتدمير قاعدة سلطة عرفات. وبإظهار انتهازيته المميزة، حسب عرفات بالخطأ، كما اتضح في النهاية، بأنّ موقع صدام الجديد كبطلٍ لا ينازع للقومية العربية قد يعزز موقعه فيما يتعلق بإسرائيل.

وبكل تأكيد حاول صدام أن يربط قضية الكويت بالصراع العربي ـ الإسرائيلي. وفي الأشهر التي سبقت غزو الكويت أصبح على قناعةٍ بأن إسرائيل كانت تخطط لمهاجمة البُنى التحتية العسكرية العراقية. إنّ حساسية صدام تجاه نظريات التآمر قادته إلى الاستنتاج أنّ الولايات المتحدة كانت تشجع إسرائيل على مهاجمته وفي الوقت ذاته كانت تشجع الكويتين على تقويض الاقتصاد العراقي. وقد بين صدام فعلاً نظرية النفاق الأمريكي إلى جوزيف ولسون، القائم بأعمال السفارة الأمريكية في لقائهما في أوائل

أغسطس. وفي الأشهر التالية سعى الخطاب الصادر من بغداد وإلى درجة كبيرة إلى ربط احتلال العراق للكويت بتحرير القدس. وبضم الكويت، هكذا دار النقاش، قد حقق «هدفاً عربياً عزيزاً. لتصحيح ما قد فرضه الاستعمار على قطرنا»[٢] ومع ذلك، فإنّ العمل النبيل عارضته الولايات المتحدة «الامبريالية» المدعومة من حليفتها إسرائيل التي أرادت أن تحافظ على هيمنتها على المنطقة عن طريق منع العرب من الدفاع عن حقوقهم المشروعة. وفي الثاني عشر من أغسطس قدم صدام مبادرته الخاصة بالسلام والتي اقترح فيها أنّ العراق سينسحب من الكويت بعد أن تكون جميع الأراضي المحتلة في الشرق الأوسط قد حررت. على إسرائيل أن تنسحب من الأراضي العربية التي احتلتها في فلسطين، سوريا ولبنان، في الوقت الذي ستنسحب فيه سوريا من لبنان. وبالرغم من أن مقترح صدام للسلام رُفض من الغرب، إلا أن محاولته في إقامة ارتباط ما بين ورطته والقضية الفلسطينية لاقت بعض النجاح. وفي سبتمبر أدلى سياسيون في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ببيانات في صالح عقد مؤتمر للسلام في الشرق الأوسط لحل القضية العربية ـ الإسرائيلية، ولكن بعد أن ينسحب صدام من الكويت.

والتكتيك الآخر الذي استخدمه صدام كان في المحاولة لاستغلال الخلافات في الرأي بين أعضاء التحالف الدولي الذي تشكل ضدّه. ولحوالي عشرين عاماً خلت، حينما كان العقل المدبّر لتأميم النفط العراقي، كان صدام قد أصبح خبيراً في استغلال منافسات القوى العظمى. وفي السبعينيات قام بنجاح بتشكيل تحالفاتٍ مع الاتحاد السوفيتي وفرنسا لضمان نجاح برنامجه في تأميم النفط، وفي خريف ١٩٩٠ اتبع أجندةً دبلوماسية مماثلة على أمل أن يصد الحملة التي قادتها أمريكا لطرده من الكويت. ومن بداية الأزمة استثمر القائد السوفيتي ميخائيل غورباتشوف مقداراً كبيراً من النشاط في محاولةٍ لإيجاد حل غير عسكري. ويفجيني بريماكوف، المبعوث الشخصي لغورباتشوف والمختص في الشرق الأوسط، هو أول من تحول إلى مفهوم الربط بين قضية الكويت وحل الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وكان نقاشه في صالح إعطاء صدام «بعض المجال للمناورة»[٣] وصدام أيضاً عرض على السوفيت، الذين كان اقتصادهم على حافة الانهيار بعد سبعين سنة من سوء الإدارة الشيوعية، إمدادات نفطية مجانية.

والفرنسيون الذين واصلوا تقييم «علاقتهم الخاصة» ببغداد، غازلهم صدام بشكلٍ مماثل. وفي سبتمبر كان الرئيس فرانسوا ميتران قد أحرج واشنطن، في خطابه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، بالإشارة إلى أنه أدرك شرعية بعض مزاعم العراق

الإقليمية في الكويت. وفي أواخر نوفمبر سعى صدام إلى استغلال ما فهمه على أنّه نوايا طيبة من فرنسا تجاه العراق فأخلى سبيل ٣٢٧ عاملاً فرنسياً من الذين احتُجزوا «كضيوف» منذ اجتياح الكويت. إن إخلاء سبيل الرهائن الفرنسيين جاء توقيته متعمداً ليتزامن مع زيارة وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر إلى باريس، لمناقشة استراتيجية التحالف ضد العراق. إن علامة الرضا لدى صدام أثارت وبشكل حتمي الشكوك بأن الفرنسيين قد تفاوضوا بصفقة ثنائية مع صدام، كما فعلوا في مفاوضات تأميم النفط. وفي الوقت الذي نفى فيه الفرنسيون بقوة ذلك التلميح، سرّب العراقيون تفاصيل اللقاء السري الذي حدث ما بين وزيري خارجية البلدين في تونس. وبإطلاق تفاصيل الصفقة، توقع صدام أن يفاقم التوترات بين مختلف الأعضاء في التحالف الدولي الذي تشكل من أجل القيام بعملٍ ضد العراق. وفي الحقيقة كان لذلك نتيجة معاكسة، وشعرت الحكومة الفرنسية المحرجة بأنها لم تعد تمتلك السلطة الأخلاقية لتتحدى أهداف التحالف.

والتكتيك الأكثر فظاعةً الذي استخدمه صدام لمواجهة تهديد العمل العسكري الذي يقوم به الغرب هو استخدام «الدروع البشرية» لحماية المنشآت المهمة. وكان صدام قد أقنع نفسه بأنه عندما يقترب الأمر من تكبد الخسائر، فإنّ الغرب لن يتقبّل القتال. وقد أشار إلى ذلك كثيراً في لقائِه بالسفيرة غلاسبي في يوليو عندما أوضح، بالإشارة إلى العدد الكبير للخسائر التي تكبدها العراق في حربه مع إيران، بقوله «مجتمعكم لا يمكن أن يتقبل عشرة آلاف قتيل في معركةٍ واحدة». وأشار صدام أيضاً إلى حقيقة أن عدداً من الحكومات الغربية في أواخر الثمانينيات، بما في ذلك الولايات المتحدة، كانت مستعدة للتفاوض في صفقات سرية ليأسهم في إطلاق سراح مواطنيهم الذين أُخذوا كرهائن في لبنان.

في أغسطس أصدر صدام أمراً بأنّه سيعتقل جميع العاملين الغربيين في العراق حتى ينتهي تهديد العمل العسكري. وهدف تكتيكه إلى اختبار عزيمة الحكومات التي تشكل التحالف الدولي لتحرير الكويت. إن سياسة «الدرع البشري» لدى صدام، كما أصبحت تُعرف، كانت تهدف إلى حماية المواقع الحساسة من الهجوم. وحسب صدام بأنه من غير المحتمل أن يهاجم الغرب مرافقه الحكومية والعسكرية الأساسية إذا كانت تضم مجموعات من الرهائن الأجانب. وهذا التكتيك كان له بشكلٍ مؤكد أثر في جعله مركزاً للاهتمام العالمي، بالرغم من أن اهتمامه في استغلال الشعبية في الدفاع عن قراره في غزو الكويت تمخض عن نتيجةٍ عكسيةً على نحوٍ هائل. وسرعان ما أصبح

واضحاً أنّ مصير مجموعات الرهائن المختلفة اعتمد كلياً على موقف حكوماتهم تجاه صدام. وهكذا فالفرنسيون، الذين لم تزل حكومتهم حريصة على إدامة الحلف الفرانكو ـ عراقي الذي خدم مصالحهم التجارية كثيراً، سرعان ما أطلق سراحهم ككل. أما البريطانيون الذين كانت رئيسة وزرائهم، مارغريت تاتشر، من أكثر المعارضين صراحةً لاسترضاء صدام، فقد نقلوا من موقع عراقي استراتيجي إلى آخر. واللحظة الأكثر اشمئزازاً في تلك التمثيلية جاءت عندما قرر صدام أن يقوم بـ «زيارةٍ وديةٍ» إلى مجموعةٍ من الرهائن البريطانيين. وكرر صدام تأكيدهُ على أنّ وجودهم في العراق كان ضرورياً بالنسبة لقضية السلام، أي أنهم ما داموا هناك، فلن يتمكن الحلفاء من ضربهم. وفي إحدى الوقائع التي نقلت نقلاً تلفزيونياً حياً في أرجاء العالم، اقترب صدام من صبي بريطاني عمره سبع سنوات هو ستيوارت لوكوود، ربت على رأسهِ، وسأله باللغة العربية «هل تناول ستيوارت حليبه اليوم؟» أعربَ التعبير المذعور على وجه صبي عن مشاعر جميع أولئك التعساء الذين حبسوا في عراق صدام.

وربما تكون تكتيكات الإرعاب لدى صدام قد نجحت طوال السنوات في إرهاب سكان العراق، ولكنها نجحت في الغرب فقط في إبعاد أي دعم قد يتمتع به. وبالرغم من ذلك، فإنّ سياسة «الدرع البشري» كانت ناجحة في جذب سلسلة واسعة من الشخصيات العالمية البارزة إلى بغداد، حتى أنّ بعضها كان متعاطفاً، إذا لم يكن مع صدام نفسه، فمع مأزقه. والزائر الأول كان كورت فالدهايم، الرئيس النمساوي، الذي حضر مؤتمراً صحفياً مشتركاً مع صدام، وكوفئ بإطلاق سراح ١٤٠ نمساوياً كانوا محتجزين في العراق والكويت. وتبع فالدهايم الكاهن جسي جاكسون الذي أمّن إخلاء سبيل النساء والأطفال الأمريكيين والرجال الذين يعانون من مشاكل صحية. وضمّ الزائرون الآخرون الملاكم محمد علي كلاي، ورئيس الوزراء السابق لكل من ألمانيا الغربية وبريطانيا، وفيلي براندت والسير إدوارد هيث، وقد رجعوا جميعهم بصحبة دفعة من الرهائن. ومع ذلك، لم توفر سياسة الرهائن لدى صدام التحول في الرأي الغربي الذي كان يتمناه. فحكومتا بوش وتاتشر، بشكلٍ خاص، رفضتا التخلّي عن عزمهما في مطالبتهِ بالانسحاب غير المشروط من الكويت، ولما ازداد الضغط في مجلس الأمن في الأمم المتحدة لمنح الحلفاء التفويض في إخراج العراق بالقوة، لذا أصبح صدام يائساً جداً في أن يبدو مهادناً. وعرض إخلاء سبيل جميع الرهائن في فترة ثلاثة شهور إذا ما رفع التهديد بالحرب. وفي مساء الاقتراع الرئيس لمجلس الأمن، أطلق سراح ١٠٠٠ من العمال السوفيت في محاولةٍ متعمدة لثني موسكو عن دعم

القرار. بيد أنّ ذلك كان بلا طائل. ففي التاسع والعشرين من نوفمبر أصدر مجلس الأمن القرار المرقم ٦٧٨، والذي طالب بانسحاب العراق غير المشروط من الكويت في الخامس عشر من يناير ١٩٩١، وأجاز استخدام القوة العسكرية إذا فشل العراق بأن يذعن لذلك.

وأصبح صدام في وضع ميؤوس منه، بالرغم من استمراره في إدامة موقف الدفاع الشعبي. ثمة خطاب مماثل لذلك الذي استخدم للإعلان عن عظمته في الحرب مع إيران أذيع في وسائل الإعلام العراقية. «أيُّها العراق العظيم، تحت قيادة صدام حسين وإدارته الباهرة للصراع، ستبقى أبياً وقوياً تتحدى جمع الأشرار والطغاة»[٥] إنّ البلد الذي لم يسترد عافيته بعد من مظاهر دمار حرب السنوات الثماني مع إيران، زجّ مرةً ثانية في الحرب. أعلن عن تعبئةٍ واسعة النطاق للجنود الاحتياط وبذلت جهود محمومة لتحويل الكويت إلى حصن منيع. وصدر قرار يقضي بعقوبة الموت لمن يقوم بادخار المواد الغذائية.

في الكويت، أو «المحافظة التاسعة عشرة» في العراق، كما أصبحت تسمى في ذلك الوقت، كانت الحكومة المحلية العراقية الجديدة، التي ترأسها علي حسن المجيد، تعمل بجد لمحو أية علاقة تدل على أنّ الكويت وجدت كدولةٍ مستقلة. وحوالي ٣٠٠ ألف كويتي، أي ما يقارب ثلث السكان، فرّوا من البلاد، وتعرّض المتبقون منهم لحملة إرهابٍ منظمة. فتحولت الطوابق السفلية للقصور المفرّغة إلى بديل مؤقت لحجر التعذيب على يد وعملاء استخبارات صدام. إن أدوات ورشة العمل العادية كالملزمة والمناشير الكهربائية عدّلت كآلات للتعذيب، وكانت هناك أسلاك كهربائية أيضاً. تم تغيير أسماء الشوارع وكان على المقيمين أن يحصلوا على وثائق هوية ولوحات جديدة للسيارات. وتم إلغاء الاختلاف في الوقت بين بغداد والكويت. وطبق قرار منع الكويتين من موضة اللحى، وبعض المنتهكين لذلك عوقبوا بانتزاع لحاهم بآلة الزردية Pliers[٦]

وإلى حد بعيد فإن الاعتراف المخزي الذي أرغم صدام على القيام به نتيجة لأزمة الكويت هو شروط السلام التي عرضها على إيران. وبالرغم من أنّ وقف إطلاق النار كان في الموضع الصحيح منذ ١٩٨٨، إلا أنه لم توقع اتفاقية سلام نهائي ما بين العراق وإيران. وبسبب التحالف الدولي الضخم الذي حشّد من أجل طرده من الكويت، أدرك صدام بأنه لا يقدر أن يتحمل بقاء جبهته مكشوفة مع إيران. وبعد أسبوعين فقط من غزوه للكويت، أي عندما أدرك صدام بأنه واجه معارضة دولية

متصلبة، أخذ يقترب تدريجياً من الرئيس الإيراني، علي أكبر هاشمي رفسنجاني، عارضاً عليه اتفاقية سلام نهائي على أساس اتفاقية ١٩٧٥ التي تفاوض عليها مع الشاه. وفي الماضي كان صدام يجادل بأنّ اتفاقية الجزائر في عام ١٩٧٥ أنكرت بإجحاف سيطرة العراق على شط العرب، وكان ذلك دافعه الرئيس في إعلان الحرب على إيران في ١٩٨٠ ولكن بعد خوضه لأكثر الحروب دمويةً في القرن العشرين، أصبح صدام، المنتصر بالاسم فقط، مستعداً الآن للاعتراف بكافة النقاط المبدئية الأساسية. وكشفت اتفاقية إيران مرةً أخرى أنّ السياسة الوحيدة التي تهم صدام فعلاً هي تلك التي تضمن بقاءه على قيد الحياة.

وذلك بكل تأكيد هو الأولوية الرئيسة لدى صدام لأنه كان يسعى إلى تجهيز نفسه ونظامه لتحد عسكري وشيك سيقع لا محالة. وفي البداية كانت سياسته في الكويت هي توخي الانسحاب المفيد، أي بالشروط التي تنفع بغداد، كالاحتفاظ بالجزر المتنازع عليها وحقل نفط الرميلة، وبحكومة مؤيدة للعراق تقام في مدينة الكويت. إن الزخم الدبلوماسي العالمي، المدفوع من واشنطن ولندن، جعل توقع مثل تلك الحصيلة يبدو بعيد الاحتمال على نحوٍ متزايد. ولما بدا أن الحرب حتمية، غيَّر صدام سياسته من الانسحاب المفيد إلى انسحاب قد يوصف بشكل أفضل على أنه «انسحاب من أجل البقاء حياً»[٧]

وركز صدام طاقاته على بقاء النظام حياً بدلاً من الدفاع عن البلاد. وأعيد علي حسن المجيد من الكويت ليساهم في خطة الدفاع عن الوطن البعثي. وتمت ترقية أحد الأقارب الموثوق بهم، هو حسين رشيد التكريتي، من قائد للقصر الرئاسي والحرس الجمهوري إلى قائد للأركان العامة. وتم نشر فرق الحرس الجمهوري بأسلوب يكفل الأمان لكلٍ من قلب النظام في الوسط وشمال العراق ولصد أية محاولة لغزو البلاد من الجنوب. وإخوة صدام غير الأشقاء ـ برزان، وطبان وسبعاوي ـ احتلوا جميعهم مواقع رئيسة في أجهزة استخبارات البلد، توخياً للحذر من احتمال وقوع انتفاضة شعبية داخلية. وبوجود تلك القوات في المكان الملائم أصبح صدام واثقاً بأنه يستطيع أن ينجو من أيّ هجوم، ولو دعت الضرورة فإنه كان مستعداً حتى للتضحية بقواته في الكويت، إذا كان الأمر يعني ضمان سلامة المنطقة المتوسطة ذات الموقع الاستراتيجي. وبادرت الولايات المتحدة بجهد الخندق الدفاعي الأخير لحل الصراع عن طريق الدبلوماسية وذلك في نهاية نوفمبر. وبضمان موافقة الأمم المتحدة على العمل العسكري، عرض الرئيس بوش أن يرسل وزير خارجيته، جيمس بيكر، إلى

بغداد وليستقبل طارق عزيز في واشنطن. وعلى الرغم من أنّ الولايات المتحدة أصرت على أنها تسعى لانسحاب عراقي غير مشروط من الكويت، فإنّ المبادرة غير المتوقعة منحت صدام صيغةً لحفظ ماء الوجه. وكان صدام يدعو إلى مفاوضاتٍ مباشرة مع واشنطن منذ بداية الأزمة وأصبح قادراً على أن يصوّر عرض بوش امتيازاً لبغداد. وفي محاولةٍ لاستثمار ما شعر بأنّه تليينًا في الموقف الأمريكي، أمر صدام بإطلاق سراح جميع الرهائن الأجانب المتبقين المحتجزين في العراق والكويت. لكنه كان على خطأ في تفسيره لعرض واشنطن للمحادثات على أنّه علامة ضعف. وعلى أقل تقدير كان يتوقع بأنه سيُمنح بعض الامتيازات في الكويت مثل إعادة رسم الحدود في صالح بغداد، قبل أن ينسحب. ولو انسحب صدام دون قيدٍ أو شرط من الكويت فإنه سيكون مهاناً في نظر أصحابه من العرب. واستنتج بأنّ مكانته، وفرص بقائه حياً، سيزيدان بشكلٍ كبير إذا ما واجه التحالف الدولي، أو حصل على امتيازاتٍ للعراق. ولما استبعدت واشنطن الخيار الأخير قطعاً، فإن الصراع المسلح أصبح حتمياً. وبالتالي لن يتمّ الخضوع لإملاءات الدكتاتور.

إن هجوم الحلفاء، الذي بدأ في السادس عشر من يناير ١٩٩١، أخضع العراق لواحدٍ من أشد أنواع القصف الجوي كثافةً المعروفة للعالم المعاصر. ولستة أسابيع قذفت طائرات التحالف بالقنابل وبشكلٍ منظم الأهداف العسكرية، السياسية، الاستراتيجية والاقتصادية في العراق والكويت على الرغم من التحصينات. وبالرغم من امتلاكه سادس أكبر قوة جوية في العالم ولنظامٍ دفاعي جوي واسع، إلا أنّ العراق كان عاجزاً عن مقاومة القوة الجوية المرعبة التي هاجمهُ بها الحلفاء. ولم تحاول القوة الجوية العراقية أن تتحدى طائرات التحالف، والطائرات التي أقلعت إنما كانت في محاولةٍ للهروب إلى مطاراتٍ في شمال العراق.

ووضعت خطة التحالف الحربية تصوراً لمراحل عملية الهجوم الجوية، البحرية والبرية في غضون شهر واحد. والمرحلة الأولى من عملية عاصفة الصحراء، كما سميت الحملة بهذا الاسم، كانت تهدف إلى إضعاف قوة الدفاعات العراقية استعداداً للهجوم البري لتحرير الكويت. وبتأكيد السيطرة الجوية الكاملة، بدأت قاذفات القنابل للدول المتحالفة بمهاجمة أهداف واسعة النطاق وقت ما تشاء. واستهدفت الطلعات الهجومية الأولى قواعد الاتصالات والرادار، ومحطات الإنذار المبكر وبطاريات الدفاع الجوي. وتبعت ذلك وبدقة هجومات بالقاذفات باستخدام الطائرات وصواريخ كروز ضدّ أهداف استراتيجية كالمطارات، ومراكز القيادة والسيطرة، وتجمعات الجيش

العراقي في الكويت وحولها، ومصافي النفط العراقية، وبطاريات صواريخ أرض ـ أرض البعيدة المدى. وفي الأيام الأولى للهجوم تحملت بغداد الوطأة العظمى لحملة التحالف، ولما ظهر العراقيون من ملاجئهم بعد هجوم الليلة الأولى شاهدوا بأن القصر الرئاسي ومقرات حزب البعث ومبنى وزارة الدفاع دمرت جميعها إلى حد كبير.

وفي غضون ساعتين من بدء هجوم الحلفاء، أدلى صدام ببيانٍ جريء أبلغ به الشعب العراقي بأنّ «أم المعارك» قد بدأت، وحث العراقيين على أن يحققوا الآمال المعقودة على مكانتهم المجيدة. وبعد ساعاتٍ قليلة عرض التلفزيون العراقي الرئيس وهو يزور أحد شوارع بغداد حيث رحبت به امرأة عجوز وهي تمسك بيده باحترام كبير. وقد اهتم صدام كثيراً بإعداد الشعب العراقي للحرب. فصدرت تعليمات مفصلةً تتعلق بالدفاع عن النفس ضد الهجومات النووية والكيميائية. وطلب من المواطنين إطفاء الأنوار في منازلهم وأن يحتفظوا بخزانةٍ للدواء في كل منزل. وقد طلب من الأفراد والمؤسسات أن ينظفوا ملاجئهم للاستخدام الفوري، وأن يخزنوا منتجاتٍ نفطية للطوارئ. وحتى التدريبات العسكرية للدفاع المدني كانت قد توقفت مع إجلاء واسع النطاق من بغداد شمل مئات الآلاف من الناس[8].

وبالرغم من دفاعهِ الشعبي، لم يكن صدام تسيطر عليه الأوهام حول التحدي في المستقبل. فالصراع الذي واجهه الآن أصبح أمراً مختلفاً جداً عن ذلك الذي واجهه في حربه مع إيران. وفضلاً عن الغارات الجوية المتقطعة، والصواريخ التي تطلق على بغداد في حرب المدن فإنّ أغلبية السكان المدنيين في العراق كانوا محميين من الصراع. وكانت هناك نواقص، وهذا صحيح، وأن أكثر العوائل تأثرت بدرجة الانهاك المخيفة في الجبهة، إلا أن صدام نجح بشكلٍ عام في تحشيد الشعب خلفه. إنّ المواجهة مع التحالف الدولي الكبير الذي حشده الرئيس بوش بتفويضٍ من الأمم المتحدة كانت مسألة مختلفة تماماً. فالحلفاء كان لديهم الوسيلة والإرادة في نقل المعركة إلى قلب العراق، ومنذ الطلقات الأولى للحرب، فإن بغداد خضعت لقصف مكثف. وكلما استمر القصف، فإن دماراً أكبر سيلحق بالبنى التحتية في العراق. وبرغم كل شيء فإنّ أحد الأسباب الأساسية لغزو صدام للكويت هو لصرف الانتباه عن المأزق الاقتصادي التعيس، وهو بحد ذاته نتيجة لحرب السنوات الثماني مع إيران. وعملية عاصفة الصحراء وحدها جعلت الوضع العسكري والاقتصادي للعراق في أسوأ حال، وإن ذلك من دون شك سيرتّب عواقب وخيمة بالنسبة لصدام في عالم ما بعد الحرب، بادّعائه بأنّه نجا من الحرب. ولذلك فإنّ صدام ومنذ بداية الصراع عزم

على أن يجرّ الحلفاء إلى حربٍ برية قدر الإمكان. وما زال يعتقد، كما وضّح للسفيرة غلاسبي في تموز الماضي، من أنّ القوى الغربية لم تستطع أن تتحمل المستوى العالي للخسائر، ولو أنّه تمكن من إغراء الحلفاء في توريط قواتهم البرية، فإنه كان واثقاً بأن قوّاته ستكون، على الأقل، قادرة على أن تلحق بتلك القوات خسائر الكبيرة. وهذا بدوره، أو هكذا كان يفكر، سيرغم الحلفاء على طلب مبكر لإيقاف إطلاق النار، ويرجعهم إلى مائدة التفاوض. وكما أشار في أحد خطاباته الجريئة التي ألقاها في بداية الصراع بأنه، «ستراق أنهار من الدم، وليس قطرات قليلة منه. ويومها سيخدع بوش أمريكا، والرأي العام الأمريكي، والشعب الأمريكي، والمؤسسات الدستورية الأمريكية».[٩]

والمعرفة العميقة في تفكير صدام عند اندلاع الحرب، بيَّنها اللواء وفيق السامرائي الذي كان مديراً للاستخبارات العسكرية في حرب الخليج، وهو أحد مستشاري صدام العسكريين الموثوق بهم جداً[١٠] وحسب ما ذكره السامرائي بأنه، قبل بدء هجوم الحلفاء بفترةٍ قصيرة، دعا صدام إلى اجتماعٍ بقوّاده في البصرة أوجز به تكتيكاته. فاقترح صدام أسر الجنود الأمريكيين ووضعهم حول الدبابات العراقية واستخدامهم كدروع بشرية. «إن الأمريكيين لن يطلقوا النار على جنودهم»، أعلن ذلك بزهو المنتصر. وفي المعركة القادمة، توقع صدام بأنّ الآلاف من الأعداء سيقعون في الأسر، وأنّ العراقيين سيكونون قادرين على استخدامهم لهذا الغرض. وبالمقابل سيمكن ذلك قوات صدام من التحرك في شرق المملكة العربية السعودية لإرغام الحلفاء على التراجع.

وكان السامرائي والقادة الآخرون خائفين من سذاجة صدام وهمجيته. وللشروع بذلك، سيكون أمراً مستحيلاً وإلى درجة كبيرة أن يوقع العراقيون جنود التحالف في الأسر، وأنّ قواعدهم في المملكة العربية السعودية محمية تماماً. وحتى لو نجح الأمر، فإنّ فكرة استخدام الجنود كدروع بشرية بحد ذاتها هي فكرة بغيضة بالنسبة للضباط العسكريين المحترفين. إنّ ذلك سيؤدي إلى خرق جميع القوانين والاتفاقيات الدولية وقد تثير غضب الحلفاء كذلك وتستفزهم للرّد بالمقابل باستخدام الأسلحة غير التقليدية. ومع ذلك فإنّ جنرالات صدام عرفوا بأن مخططه كان غير منطقي، وخطيراً ومستحيلاً تنفيذه، ولم ينبس أيّ منهم ببنت شفة. كانوا جميعاً يهزون رؤوسهم ويدونون الملاحظات طائعين. إنّ الاستفهام عن استراتيجية صدام كان يعني الإقرار بالشك والجبن والخوف. وإنّ ذلك كان يعني أيضاً التجريد من الرتبة أو الموت.

ومع ذلك، وفي عشية اندلاع الحرب، اعتبر السامرائي، رئيس الاستخبارات العسكرية، أنّ من واجبه أن يبلغ القائد الأعلى للقوات المسلحة في البلد عن الخطر الجسيم الذي واجهته جرّاء تحالف أكثر من ثلاثين بلداً ساهمت بفاعليةٍ في عملية درع الصحراء. وفي وقت متأخر من مساء الرابع عشر من يناير، أعلم اللواء باجتماع في مكتب صدام في القصر الرئاسي. وجلس الرئيس الذي كان يرتدي بدلةً سوداء أنيقة خلف مكتبه لما قدّم السامرائي تقييمه المتجهم. سيكون أمراً صعباً للغاية بالنسبة لدفاع العراق عن نفسه ضد الهجوم القادم، أكد السامرائي، لم يقع أي من جنود العدو في الأسر، وأنّه من غير المحتمل أنه سيقع أي منهم. كان العراق سيّئ التجهيز لكي يدافع عن نفسهِ مقابل عدد وتنوّع الأسلحة التي اصطفت ضده. وكان من الصعب أيضاً الدفاع عن المواقع العراقية بسبب رفض صدام انسحاب العدد الأكبر من قواته من الكويت وإرجاعها عبر الحدود العراقية، حيث قد تكون أكثر فاعلية. وفقاً للسامرائي، كانت القوات العراقية منتشرة بكثافةٍ قليلة جداً عبر الصحراء بحيث كان هناك القليل لإيقاف تقدم الأمريكيين مباشرةً إلى بغداد نفسها. وبعد ذلك قدم الجنرال دليلاً يدعم مناقشته بصيغةِ صور وتقارير الأخبار. واختتم حديثه بأنّ العراق لا يستطيع أن يتوقع شيئاً سوى الانكسار السريع، ومن ثم عليه أن يواجه احتمالية سعي إيران لاستغلال ضعفه واجتياحه من الشمال.

ولما انتهى السامرائي من تلخيصه للكارثة ردّ صدام بالسؤال، «هل هذه أفكارك الشخصية أم أنّها حقائق؟» أجابَ السامرائي بأنّ هذا هو تحليله الذي ينم عن اطلاعهِ المستند إلى الحقائق المتوفرة لديه. وكان رد صدام على ذلك، «سأخبرك الآن عن رأيي. إيران سوف لن تتدخل. قواتنا ستبدي مقاومةً أكثر مما تظن. يستطيعون أن يحفروا مواضع محصّنة ويقاوموا الهجمات الجوية الأمريكية. سيقاتلون لزمنٍ طويل، وستكون هناك خسائر كثيرة من الجانبين. ونحن نريد فقط أن نتقبل الخسائر، أما الأمريكان فلا يريدون ذلك. الأمريكيون ضعفاء. إنّهم لا يتقبلون خسائر الأعداد الكبيرة من جنودهم».[11] وكان صدام يكرر الحجة ذاتها التي قدمها للسفيرة غلاسبي في يوليو المنصرم.

ثمة مسألة أخرى إذا ما كان صدام قد نجح في استمالة القوات المتحالفة إلى مواجهةٍ برية مبكرة، فإنّه سيغريه كثيراً استخدام ترسانته لأسلحة الدمار الشامل لينزل بهم الخسائر الفادحة.[12] وقد نال صدام مسبقاً امتيازاً في كونه «المشير الميداني» الأول لاستخدام غازات الأعصاب في ساحة القتال. وثبت مؤخراً أنّه في المرحلة

الأولى من الصراع كان قد نشر كميات من الأسلحة من صنف الجمرة الخبيثة، مادة البوتولينوم السامة وعناصر الأفلاتوكسين البيولوجية مع أنظمة إطلاق الصواريخ الخاصة بها، ولكن ما اتفق عليه بصورةٍ عامة أنّ تلك الأسلحة لم تستخدم.[١٣] والتفسير الأكثر احتمالاً هو أنّ الولايات المتحدة حذرت بغداد، عبر القنوات الدبلوماسية، بأنها سترّد بالمقابل بالأسلحة النووية إذا ما حاول العراق استخدام أسلحة الدمار الشامل. وحسين كامل المجيد، صهر صدام ومدير برنامج الحصول على الأسلحة في العراق، الذي لجأ إلى الأردن مؤخراً، اعترف بالكثير في مقابلةٍ أجرتها معه مجلة Time في سبتمبر ١٩٩٥ ولما سُئل عن سبب عدم استخدام صدام للأسلحة غير التقليدية، أجاب حسين كامل: «كيف تستطيع أن تستخدمها في الوقت الذي تقاتل فيه الكوكب بأكمله؟ إنّ أي خطأ في استخدام الأسلحة غير التقليدية تلك سيجعل القوى العظمى تستخدم الأسلحة النووية والتي تعني أنّ العراق سيمحق».[١٤]

ومع ذلك، فإنّ البلد الوحيد الذي أشار في الماضي إلى أنّه سيلجأ إلى الرادع النووي إذا ما تمت مهاجمته بأسلحةٍ غير تقليدية هو إسرائيل. وفي فترة التهيؤ العسكري لعملية عاصفة الصحراء، اتهمت الماكنة الدعائية لصدام الإسرائيليين بأنهم العقل المدبّر لهجوم قوى التحالف على العراق. وفي الخطاب الذي ألقاه صدام في صبيحة الضربات الجوية الأولى لقوات التحالف، فإنه قد زجّ الإسرائيليين مباشرة. وبالإشارة إلى القصف الجوي، أعلن صدام بأنّ «تابع الشيطان بوش ارتكب جريمته الغادرة، هو والصهيونية المجرمة». وفي وقتٍ آخر من اليوم نفسه اتهم العراقيون السعودية التي كانت قد انطلقت منها عملية عاصفة الصحراء بالسماح لإسرائيل بنشر ستين من طائراتها على تربة النبي المقدسة.[١٥]

في تلك الظروف كان أمراً مدهشاً جداً أن يقوم صدام بشن هجماتٍ صاروخية على إسرائيل. كانت استراتيجية مزدوجة. أولاً، بمهاجمته الدولة الصهيونية كان يأمل في حشد مساندة الجماهير العربية، والتي كانت دائماً تدعم أيّ قائد عربي واجه إسرائيل. ثانياً، بإطلاق سلسلة من صواريخ سكود على الساحل الإسرائيلي، كان يتوقع ردّاً إسرائيلياً، وبالمقابل كان يحسب أن ذلك سيرغم قوات التحالف أن تشنّ الهجوم البرّي بوقت أبكر مما كانوا يتمنون بوصفهم كانوا يائسين من منع انتشار الصراع إلى مناطق أخرى في الشرق الأوسط. إنّ قادة جميع القوى الغربية المشتركة في التحالف الدولي كانوا حريصين على عدم تصعيد الصراع إلى حريقٍ إسرائيلي ـ عربي هائل. وهكذا ولما سقطت، في الساعات الأولى من يوم الثامن عشر من يناير، ثلاثة

صواريخ باليستية عراقية في تل أبيب، وصاروخان آخران ضربا ميناء حيفا الشمالي، كانت هناك جهود دبلوماسية مكثفة لإقناع الحكومة الإسرائيلية بعدم الرد بالمثل. وذلك ليس بالخيار السهل بالنسبة للإسرائيليين. ولأول مرةٍ منذ تأسيس دولتهم، تتعرض المراكز السكانية في البلد لهجومٍ مشوش من جيش عربي نظامي. ومع ذلك، فإنّ القائد الإسرائيلي اسحق شامير أُقنع من واشنطن بأن فوائد ضبط الأعصاب الطويلة الأمد فاقت الرغبة المباشرة للانتقام، وبالرغم من أنّ صدام استمر في إطلاق صواريخ سكود على إسرائيل، إلا أنّ الإسرائيليين رفضوا الانجرار إلى الصراع.

وبفشله في محاولته الأولى في جرّ الحلفاء إلى هجومٍ بريّ، جرّب صدام مجموعة منوعة من التكتيكات الأخرى. وفي يناير الماضي أشعلَ النار في عدة منشآت نفطية في الكويت وبدأ بضخ النفط الخام إلى شمال الخليج، مسبباً أكبر بقعة نفطية في العالم ـ قدّرت بـ ٢٤٠ ميلاً مربعاً. وظهر عدد من الطيارين الأسرى في التلفزيون العراقي. وأكثريتهم قد عوملوا بقسوة وأجبروا على قراءة قصاصات جاهزة ينتقدون فيها المجهود الحربي للتحالف. ولكن بدلاً من استفزاز القوات المتحالفة في شن هجوم بريّ سابق لأوانه، فإنّ جميع تلك الأعمال المنجزة كانت في صالح تحشيد الرأي العام الغربي وراء المجهود الحربي. وخصّت أعمال صدام البربرية على دعوات بعض الجهات لتوسيع أهداف الحرب لتكون أبعد من تحرير الكويت لتشمل إزاحة الزعيم العراقي من السلطة. وجون ميجر الذي حلّ محل مارغريت تاتشر كرئيس لوزراء بريطانيا قبل بدء الحرب بفترةٍ قصيرة، لمّح إلى إمكانية محاكمة صدام بجرائم حرب بعد الحرب إذا ما استمر في إطلاق العنان لسلوكهِ «اللاإنساني واللاشرعي».

وبالرغم من تلك النكسات بدا صدام واثقاً بأنّه في النهاية كان يفعل ما يريد. وفي العشرين من يناير أشار منذراً «لم تدخل قواتنا البرية المعركة إلى الآن وعندما تصبح المعركة شاملة بكافة أنواع الأسلحة، سيزداد عدد القتلى في جانب قوات التحالف بعون الله. ولما تزداد أسباب الموت ويزداد القتلى في صفوفهم، فإنّ الكفرة سيغادرون».[١٦] وبعد أيام قلائل، وفي مقابلةٍ مع بيتر آرنيت، مراسل وكالة كيبل للأنباء، بدا صدام مسترخياً وواثقاً. وقال بأنّ العراق قد نجح في المحافظة على «توازنه» باستخدام الأسلحة التقليدية فقط وإنّه من دون شك «سيحظى بإعجاب العالم بشجاعته القتالية». ولما سُئل عما إذا كانت لديه أية شكوك بانتصار العراق في الحرب، أجاب «ولا حتى واحد في المليون». وكذلك طرح صدام قضية الأسلحة غير التقليدية مدعيّاً بأن العراق امتلك المقدرة على تثبيت أسلحته النووية والبيولوجية والكيميائية

بصواريخهِ. وأكدّ قائلاً «أدعو الله بأنني لن أكون مضطراً لاستخدام تلك الأسلحة، ولكنني لن أتردد في ذلك إذا دعت الضرورة».[١٧]

وبالرغم من التظاهر بالشجاعة أمام الشعب، فإنّ صدام أصبح محبطاً بشدّة من جرّاء مسار الحرب. فكثافة حملة القصف سببت خسائر فادحة. ولأنّ طائرات التحالف كانت حرةً في ضرب أهدافها وقت ما تشاء، فإنّه في نهاية يناير قد تمّ تدمير أربعة مفاعلات للبحوث النووية الرئيسة، وإنّ منشآت الأسلحة البيولوجية والكيميائية دمرت بشدة. ودمرت البنى التحتية الاستراتيجية والاقتصادية للبلد لأنّ جميع الطرق والجسور ومحطات الطاقة والمنشآت النفطية تعرضت للهجوم. وفضلاً عن تعرّضها للقصف الكثيف، فإنّ القوات المسلحة وجدت الأمر صعباً على نحوٍ متزايد في أن تدير العمليات لأن قيادتها وأنظمة سيطرتها أصبحت خارج التكليف. ولم تسعف معنويات القوات المسلحة عندما فرّ ما قدر بمائة طائرة مقاتلة وطائرات نقل تابعة للقوة الجوية العراقية، من ضمنها بعض الطائرات المتطوّرة جداً، مثل طائرات الميغ ـ ٢٩ والميراج F1 الفرنسية، إلى إيران طلباً لمكانٍ آمن. وحاول صدام أن يعطي انطباعاً بأنّ الهروب الجماعي كان خدعةً مبيّتة وذلك للاحتفاظ ببعض من أفضل الممتلكات العسكرية لديه، وهي رواية بعيدة الاحتمال نظراً لأنها لم تزل في إيران بعد عشر سنوات. والتفسير الأكثر احتمالاً هو أنّ الطيارين تعيّن عليهم أن يهربوا بعد انقلاب فاشل في القوة الجوية، مما حدا بصدام إلى القيام بإعدامات عاجلة لقادة القوة الجوية والدفاع الجوي وذلك للفشل في صدّ هجوم قوات التحالف.

وأصبح حال صدام يائساً، وفي محاولةٍ أخيرة لاستفزاز الحلفاء في بدء الحرب البرية، شنّ في نهاية يناير سلسلة من الهجومات على مواقع القوات المتحالفة. في البدء قامت قوة عراقية صغيرة تتألف من كتيبتي مشاة وكتيبة دبابات واحدة بعبور الحدود الكويتية وسيطرت على الخفجي، وهي مدينة سعودية تبعد حوالي اثني عشر ميلاً عن الحدود. وبالرغم من نجاحها في البداية، إلا أنّ القوة تمّ التغلب عليها بسرعة بالقوة النارية المتفوّقة للحلفاء، وفُقد عشرات الرجال ووقع المئات من العراقيين في الأسر. وبالرغم من ذلك كان صدام يدّعي انتصاراً هزيلاً عندما أظهر جنوده بأنّ لديهم القدرة على اختراق خطوط العدو. وبعد أيام قليلة احتشدت أربع فرق آلية قوامُها ٢٤٠ دبابة و٦٠ ألف جندي قرب مدينة الوفرة الكويتية الحدودية. وتلك الوحدات، التي شكلت رتلاً بطول عشرة أميال، تعرضت لهجمات جوية عنيفة حققت خسائر فادحة وأرغمت صدام على ترك ما كان يرمي إليه بوضوح كهجوم ثانٍ على الحلفاء. ولإغاظة

صدام أكثر، رأى الرئيس بوش في تلك المناورات علامةً على يأس الزعيم العراقي من منازلة الحلفاء على الأرض قبل أن يدمّر القصف الجوي كلّ ممتلكاته. وأكد الرئيس الأمريكي أنّ الحلفاء لن ينثنوا عن خطتهم الحربية وأنّ الهجوم البريّ سيشنّ «إذا كان الوقت مؤاتياً».

ومع تخلف الحلفاء عن الوقوع في خُدعه المتعددة، فإن صدام لم يحقق الكثير من التأييد بغض النظر عن موهبته الكبيرة في استخدام ماكنة الدعاية لتصوير كل تطور كانتصار لصالح «الرئيس البطل». وبالتالي فإنّ الانكسار العراقي في الخفجي أصبح عاراً على الحلفاء. «حاول بوش أن يتجنب مواجهة الرجال وجهاً لوجه، ورجلاً لرجل، واستبدل مثل تلك المواجهة بالتكنولوجيا التي تطلق النار من بعيد».[١٨] ودُعي الصحفيون الغربيون إلى بغداد لمعاينة الدمار الذي ألحقته الضربات الجوية والذي كان له حتماً تأثير على الضمير الجماعي للرأي العام في الغرب، وأدى إلى إشعال سلسلة من الاحتجاجات في العالم العربي. فالحركة المناوئة للحرب أصبحت مسموعة خصوصاً بعدما دمرت ثلاث عشرة طائرة أمريكية قاذفة للقنابل ملجأ في بغداد، وقتلت ثلاثمائة مدني. وحتى الملك حسين ملك الأردن المناصر عادة للغرب ذهب بعيداً جداً باتهامهِ للحلفاء بارتكاب جرائم حرب. ولما كان قصف قوات التحالف ناجحاً من دون أيّ شك في تدمير القسم الأعظم من قدرة صدام العسكرية، فإنّ القصف اليومي كان له تأثير دراماتيكي في الحياة اليومية للمواطنين العراقيين. وفي بداية فبراير لم يكن هناك ماء جارٍ ولا كهرباء في بغداد والمدن العراقية الرئيسة الأخرى. وأعلنت الحكومة حظراً غير محدد على بيع الوقود، والذي أوصل البلد وبشكلٍ كبير إلى التوقف التام. وبطبيعة الحال، وجه صدام اللوم إلى الحلفاء بخصوص جميع تلك المصائب، بدلاً من حساباته الشخصية المأساوية في غزو الكويت.

إنّ القلق المتزايد حول سير الحرب الجوية، ويأس صدام من تخليص نفسه من هزيمةٍ مؤكدة أدّيا إلى طرح الاتحاد السوفيتي مبادرة دبلوماسية لعرض إمكانية ترتيب وقف إطلاق النار. والزعيم السوفيتي كان متلهفاً للتوسط لوقف إطلاق النار حينما بدأت الحرب، وفي منتصف فبراير أشارَ العراقيون، الذين أبعدوا وباستهزاء عروض الوساطة السابقة، إلى أنّهم مستعدون للقاء المبعوث الخاص لغورباتشوف، يفجيني بريماكوف، والذي كان قد أمضى الكثير من حياته المهنية في تطوير العلاقة مع بغداد. وصل بريماكوف إلى العراق والتقى بصدام في الثاني عشر من فبراير وقام فوراً بجولةٍ تفقدية للدمار الذي خلّفه القصف في بغداد. ولاحظ المبعوث الروسي أنّ صدام كان

قد فقد أكثر من ثلاثين رطلاً منذ آخر لقاءٍ لهما في أكتوبر ١٩٩٠ وحتى أنّ صدام بدا مسترخياً وواثقاً. وللتأكيد على إحساسه بالسعادة، فإنّه لم يلتق بريماكوف في ملجئه المحصّن وإنما في دارٍ للضيافة في وسط بغداد، حيث قوبل الضيف الروسي بنقدٍ ساخر عنيف من صدام أمام أعضاء قيادة النظام استهدف الموقف السوفيتي. وبحكمهِ أنّ الحديث كان موجهاً إلى رفاق صدام في مجلس قيادة الثورة أكثر من أن يكون موجهاً إليه نفسه، طلب بريماكوف من صدام لقاءً خاصاً. وفقاً لبريماكوف، فإن الطبيعة العملية لموقف صدام استرعت انتباهه خلال حديثهم الخاص، والذي كان مختلفاً عن تظاهرهِ بالشجاعة في تصريحاتهِ العامة. «في حالة حدوث الانسحاب»، تساءل صدام، «هل أنّ العراقيين المنسحبين سيضربون من الخلف؟ هل تتوقف الضربات الجوية؟ هل سترفع العقوبات؟ وهل كان بالإمكان إحداث تغيّر في النظام الكويتي [بمعنى إقامة حكومة في الكويت تميل إلى بغداد بشكلٍ أفضل مما كان عليه حكام آل صباح]؟». [١٩]

وخرج بريماكوف من الاجتماع بشعورٍ بأنّ صدام كان مهتماً بشكل جدي بالحل السلمي للصراع، وعاد إلى موسكو ليحيط غورباتشوف علماً. وبعد يومين أصدر مجلس قيادة الثورة في بغداد بياناً يشير إلى استعداد العراق للانسحاب، وبسرعةٍ سبّب ذلك التحرك إثارةً كبيرة في أوساط الحلفاء، الذين اعتقدوا أن مخاوف الاجتياح البريّ، برغم كل شيء، من المحتمل تجنبها. ومع ذلك، فإنّه أصبح معروفاً من أنّ صدام قد ألحقَ عدداً من الشروط بالانسحاب، كالمطالبة بانسحاب إسرائيل من فلسطين والأراضي العربية التي احتلتها في لبنان وسوريا، رفع كافة العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق، وإلغاء الديون الأجنبية على العراق والبالغة ٨٠ مليار دولار. ومجرد اعتقاد صدام بأنه يقدر أن يخرج بأيٍّ من تلك الشروط هو أمر يبعث على الغموض، لأنّ بريماكوف كان صريحاً جداً في إبلاغه بأنّ الحلفاءَ عازمون على تحرير الكويت بكل ما في الكلمة من معنى. وعلى أية حال، فإنّ مقترح صدام رفضه الرئيس بوش معتبراً إيّاه «خدعة قاسية»، ودعا بوش «الجيش العراقي والشعب العراقي ليأخذوا زمام الأمور بأيديهم ليرغموا الدكتاتور صدام حسين على التنحّي». [٢٠] إنّ دعوة بوش الصريحة للشعب العراقي لاتبّاع «خيار شاوشيسكو» لم تلقَ تقديراً لدى صدام. وكان ردّه بتكرار تهديده باستخدام الأسلحة الكيميائية.

وعن طريق البحث عن الخيارات الدبلوماسية مع السوفيت، كان صدام يأمل في استغلال خلافات وجهات النظر في مجلس الأمن. وبنجاحهِ في تجنيد الدعم السوفيتي

لصالح أهدافِهِ الخاصة، اعتقد صدام بوضوح بأنه وجد الفرصة للقيام بذلك مرة ثانية. ومع ذلك، فإنّ كل الذي نجح في فعله هو أن يحرج موسكو في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفيتي ما بعد الشيوعي يتلمس طريقه رويداً في «النظام العالمي الجديد» الذي وصفه جورج بوش بنفسه. ثمة أمر واحد بالنسبة ليفجيني بريماكوف الذي أعطاه صدام محاضرةً أمام الأعضاء الآخرين للحكومة العراقية، أمر آخر تماماً جعل موسكو تبدو ساذجة أمام عائق الرأي العالمي. وقد أوضحَ بريماكوف الأمر لصدام بأن الأمريكان كانوا يعنون ذلك الأمر وأنّ بوش لن يقبل بأي شيء سوى الانسحاب غير المشروط. وبالنسبة لصدام في ذلك الحين فإنّ فرض مجموعة من الشروط الكاملة بأيامٍ وبالضبط بعد أن أشار السوفيت إلى أنهم قد حققوا تقدماً مهماً ومفاجئاً في بغداد كانَ يعني بأن لا صدام ولا السوفيت أبقيا على مقدار من المصداقية.

ومع ذلك، فلما شرع الحلفاء في التحضيرات النهائية للاجتياح البري بجد، قام صدام بمجهودٍ أخير لتفادي الكارثة. ففي الثامن عشر من فبراير، طار طارق عزيز إلى موسكو ووافق على المقترح السوفيتي كاملاً وبالانسحاب غير المشروط من الكويت. إلا أن مقترح الانسحاب، مرة أخرى، لم يكن غير مشروط. ووضع العراقيون شرطاً على أنّ جميع قرارات الأمم المتحدة المناوئة للعراق يجب أن تلغى وترفع العقوبات قبل أن يكمل العراق انسحابه. ولم يبدُ هناك أي شك في أن صدام في ذلك الوقت العصيب كان مستعداً لأن يخلي الكويت وأن المقترح السوفيتي، وفي ظروف مختلفة، قد شكل الأساس للحل الدبلوماسي. وكان صدام يبحث عن صيغةٍ تأخذ بعين الاعتبار حفظ ماء الوجه في العالم العربي في الوقت الذي يتجنب فيه أيضاً الهزيمة الفاجعة، كان مستعداً لترك الكويت لكنه لم يقرّ بنفسهِ بأن يخضع للإنذار الأمريكي النهائي. إن الإقدام على ذلك، في رأيه، سيعني التوقيع على الإذن بموته. ولكن في ذلك الوقت كان صدام يراوغ في أغلب الأحيان منذ أن قام أولاً بمغامرته في الكويت في صيف ١٩٩٠ فإنه لم يكن أيّ من الزعماء الغربيين يثق به. كانوا يريدون الفعل، وليس الوعود، وإن لم يبدأ صدام فعلاً بإخراج قواته من الكويت، فإن الحلفاء بقوا على تصميمهم لتنفيذ المهمة بأنفسهم.

ومع وجود ذلك في ذهنه أعطى الرئيس بوش صدام فرصةً أخيرة. «سيمهل التحالف صدام حسين حتى ظهيرة السبت [الثامنة مساءً في التوقيت العراقي، في الثالث والعشرين من فبراير] لينفذ ما يتوجب عليه فعله ـ ليبدأ انسحابه الفوري وغير المشروط من الكويت. علينا أن نسمع علناً وبشكلٍ قاطع عن موافقتهِ على تلك الشروط».[٢١]

رُميَ النرد. وبينما تُرك طارق عزيز يواصلُ ما تبقى من المبادرة الدبلوماسية السوفيتية، كان صدام يستعدّ للأمر المحتوم. وفي تحسب للاجتياح البري أمر صدام قواته المحتلة في الكويت لإشعال النار في الحقول النفطية الكويتية. ونفذت أيضاً الإعدامات الجماعية بالأسرى الكويتيين.

وكان على صدام أن لا ينتظر الحلفاء طويلاً ليقوموا بالعمل. وفي الساعة الرابعة صباحاً من يوم الأحد حسب التوقيت المحلي، في الرابع والعشرين من فبراير، أعلن بوش أن الجنرال نورمان شفارتسكوف، القائد الأعلى للقوات المتحالفة في السعودية، قد أُعلم «باستخدام جميع القوات المتوفرة، بما في ذلك القوات البرية، لإخراج الجيش العراقي من الكويت». وفي الحقيقة إنّ الغزو تحول إلى هزيمة كاملة للقوات العراقية المسلحة. وفي أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة من القتال، كان العمود الفقري للجيش العراقي قد كسر. وما كان يريدهُ صدام كخط دفاعيّ هائل في الكويت، أي ما يسمّى «خط صدام»، اخترق وانهارَ في غضون ساعات من بدء الهجوم. وبعد ستة أسابيع بلغ القصفُ فيها حدّ الإشباع، أصبحت القوات العراقية بلا مزاجٍ للقتال، وهناك عدد كبير من الجنود العراقيين حاولوا أن يستسلموا إلى حد أنّ القوات المتحالفة جاهدت للتغلب على المشكلة. وفي نهاية اليوم الثاني أخذت قوات التحالف عشرين ألف أسير، وتم تدمير ما يقارب (٣٧٠) دبابة عراقية وسبع فرق عراقية ـ بمعدل ١٠٠ ألف رجل ـ لم تعد قادرة على القتال.

وبإدراكه أنّ مستقبل نظامه أصبح الآن في خطر شديد، أعطى صدام الأمر إلى قادتهِ العسكريين «بأن ينسحبوا بأسلوبٍ منظم إلى المواضع التي كان يحتفظ بها قبل الأول من أغسطس، ١٩٩٠» لكن مع ذلك كانت هناك تقارير من الاستخبارات العسكرية تفيد بأنّ بعض الوحدات العراقية في الكويت كانت تلتف وتتقدم شمالاً عائدةً إلى العراق، وأنّ بوش رفض دعوة وقف إطلاق النار حتى يتعهد صدام نفسه «شخصياً وعلنياً» بالانسحاب السريع. وحتى في تلك المرحلة من الصراع، عندما دمر جيشه تماماً من قبل قوات الحلفاء المتفوّقة لم يأت صدام نفسه للإدلاء بأي حديث عام يلمّح بأية طريقة بأنّه كان على خطأ باحتلاله الكويت. ومن وجهة نظره، فإنّه من الأفضل أن يدع الحلفاء يحطمون جيشه بدلاً من أن تقوّض سمعته كـ «رئيس بطل» منزه عن الخطأ. وكما أعلن، في السادس والعشرين من فبراير، بأنّ القوات المسلحة العراقية كانت تكمل انسحابها من الكويت في غضون الثماني والأربعين ساعة التالية، فإنّ صدام استغل المناسبة لحث الشعب على التصفيق لبطولتها. «صفقوا لانتصاراتكم،

أعزائي المواطنين. إنكم واجهتم ثلاثين بلداً والشر الذي جاؤوا به هنا. إنكم واجهتم كلّ العالم، أيُّها العراقيون العظماء. إنكم متصرون. ما أحلى النصر».[22]

استمرّ القتال ليومين آخرين. وفي الوقت الذي أكد فيه الحلفاء أنّهم لن يهاجموا الجنود العزّل في الانسحاب، فإنّهم وبفعلٍ مدمر واصلوا مهاجمتهم للوحدات القتالية العراقية المسلحة والمتراجعة. وفي نهاية السادس والعشرين من فبراير كان آخر جندي عراقي قد غادر الكويت. وبلغ عدد أسرى الحرب العراقيين في حينه ٥٠ ألفا، وأصبحت ثماني فرق عراقية أخرى غير فعالة، وقدّر العدد الإجمالي للخسائر العراقية بـ ١٥٠ ألفا. وبسبب مخاض الموت الذي كابدته القوات العراقية قام صدام بمناشدات مختلفة للأمم المتحدة لتدعو إلى وقف القتال مقابل تنصّل العراق من ضم الكويت. بيد أن مفاتحاته تلك كان يرافقها مطالب مختلفة، مثل الرفع الفوري للعقوبات، والتي لم تزل مرفوضة من أعضاء التحالف.

وأخيراً وصل الصراع إلى نهايته في صباح الخامس والعشرين من فبراير عندما أعلن الرئيس بوش، الذي شعر بأنه لم يعد باستطاعته أن يبرر استمرار هجمات التحالف ضدّ الخصم العراقي العاجز عن حماية نفسه، بأنه علّق العمليات القتالية الهجومية. واتخذ قرار بوش عندما قامت القوة الجوية للتحالف وبشكلٍ خاص بهجومٍ مدمر استهدف رتلاً عراقياً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه كان ينسحب من الكويت عندَ تقاطع المطلاع، التقاطع الرئيس على الطريق المؤدي إلى البصرة، معتقدة بأنّ ذلك الرتل كان وحدة عراقية تحاول الارتباط بالحرس الجمهوري، حيث أمر قادة التحالف المقاتلات الأمريكية بمهاجمته. وأصبح الهجوم يعرف بما وصفه أحد القادة الأمريكيين بـ «صيد الديك الرومي»، حيث كانت الطائرات الأمريكية تصطف في أجواء الكويت لمهاجمة الرتل العاجز عن الدفاع عن نفسه. ودمرت مئات الناقلات وتكبدت خسائر كبيرة. ولأن هجوم تقاطع المطلاع تزامن أيضاً مع وصول طواقم التلفزة الغربية، الذين رافقوا جيوش الحلفاء المحررة في الكويت، فقد بثت صور المذبحة في كافة أنحاء العالم.

إنّ هجوم تقاطع المطلاع أنهى الحرب بشكلٍ فعّال. وبالرغم من أنّ الجنرال شفارتسكوف بيّن أنّ القوات المتحالفة تستطيع بسهولة أن تجتاح العراق وتسيطر على بغداد، إلا أنّه كان هناك قلق متصاعد لدى شركاء التحالف حول مواصلة الحرب بعد الكويت. والرأي العام في الغرب كان ينمُّ عن الانزعاج حول أي قتل غير ضروري وكانت هناك مخاوف من أنّ الحرب لو انتهت بسمعةٍ بغيضة فإنّها قد تعقد الموقف

السياسي ما بعد الحرب في المنطقة. وعلى هذا الأساس قرر الرئيس بوش أن ينهي الحرب. «تحررت الكويت»، قال مؤكداً. «هُزم الجيش العراقي. أهدافنا العسكرية أنجزت. كان انتصاراً لكافة دول التحالف، للأمم المتحدة، للبشرية جمعاء، ولسلطة القانون». واستقبل البيان الأمريكي بارتياح كبير من صدام، والذي ردّ بتوجيه خطاب النصر للشعب العراقي. «لقد انتصرتم، أيُّها العراقيون» صرّح قائلاً. «العراق هو ذلك المنتصر. لقد نجح العراق في تدمير هالة الولايات المتحدة، امبراطورية الشر والإرهاب والعدوان».[٢٤]

ومهما ادعى صدام، فإنّ الحلفاء قد حققوا انتصاراً شاملاً ومدمّراً. بأكثر من مائة ساعة بقليل سيطرت قوات التحالف على ٧٣,٧٠٠ كيلومتراً مربعاً من الأراضي، من ضمنها ١٥٪ في العراق. مزق الجيش العراقي إرباً، وليس هناك سوى سبع فرق من أصل ٤٣ فرقة عراقية كانت قادرة على العمليات العسكرية. والمدى الكامل لانتصار التحالف أصبح ظاهراً للعراقيين في الثالث من مارس فحسب عندما حضروا إلى لقاء وقف إطلاق النار في قاعدة الإمام علي الجوية. أصغى القادة العراقيون بصمتٍ مذهول عندما بيّن شفارتسكوف أنّ قوات التحالف أخذت ٥٨ ألف أسير، واحتلت مناطق واسعة من أراضي العراق. وقدم العراقيون طلباً واحداً فقط، هو أن تطير طائرات الهليكوبتر التابعة لهم، لأن أكثرية طرق البلاد وجسورها قد دمّرت. فوافق شفارتسكوف.

وفي الأيام التي أعقبت الاندحار بفترة قصيرة استدعي اللواء وفيق السامرائي للقاء قائده أكثر من مرة، الذي كان قد غيّب نفسه وبشكل مناسب من مفاوضات وقف إطلاق النار. كان صدام في ذلك الوقت يعمل في مكتبٍ سريّ، حيث ينتقل من بيت إلى بيت في ضواحي بغداد في كل ليلة تقريباً في الحرب لينجو من القنابل الذكية الأمريكية، والتي كان يعتقد، بحق، بأنّها كانت تحاول أن تقتله. والذي أدهش السامرائي، أنه وجد صدام مسترخياً وجذلاً بشكلٍ مثير يبعث على الغرابة. «ما هو تقييمُك، أيُّها اللواء؟» سأل صدام. أجابَ السامرائي بصراحة متناهية: «أعتقد بأنّ هذا هو الانكسار الأكبر في تاريخ الجيش. إنّه أكبر من الانكسار في خرمشهر [الانكسار في الحرب العراقية ـ الإيرانية]».[٢٥]

في البداية، لم يرد صدام. وكأي شخص كان يعي تماماً مدى الانكسار العراقي. كان يعلم بأن جنوده كانوا يستسلمون كلياً، وكان يعلم بمذبحة تقاطع المطلاع والدمار الذي سببته حملة القصف من القوات المتحالفة. ولكن حتى لو وافق صدام على تقييم

اللواء، فإنّه لم يقل ذلك. في الماضي، وكما حصل في خرمشهر، كان يحمّل القادة مسؤولية الهزيمة، وطبقاً لذلك كان يعاقبهم، وبذلك يعطي الانطباع على أنّه ليس مسؤولاً بشكلٍ شخصي عن الكوارث العسكرية. ولكن في هذهِ المناسبة عرف بأنّ الهزيمة وقعت عليه مباشرةً وهذا أمر لا يستطيع الاعتراف به أبداً. ولذلك كان ردّهُ على السامرائي موجزاً وفي صلب الموضوع. «هذا رأيك»، قال صدام.

الفصل الثاني عشر

الباقي على قيد الحياة

التهديد الأعظم لبقاء صدام لم يكن عملية عاصفة الصحراء، وإنما الانتفاضة الشعبية واسعة النطاق. وفي تلك المناسبة تركت التهاويل الخطابية لصدام أثرا ضئيلا على الشعب الذي سيق إلى أعماق اليأس بسبب الفاجعة التي ألمّت به جرّاء مغامرة صدام سيئة الصيت في الكويت. ولأول مرة في تاريخ العراق المعاصر، انتفض الشعب بقوة ضد الزعيم المستبد. الانتفاضة الأولى وقعت في البصرة، وفي غضون أيام انتفضت ضد بغداد المناطق الشيعية الاستراتيجية في جنوب العراق، بما في ذلك مدينتا النجف وكربلاء المقدستان. ووقعت عدة مدن بأيدي الثوار، ودُمّرت ناقلات عسكرية كثيرة، وهجرت بعض وحدات الحرس الجمهوري. وانتشر القتال إلى مناطق سنية قريبة حتى وصل إلى بغداد، حيث أُعلن عن عدد من الصدامات العنيفة في الشوارع.

وسرعان ما امتدت الانتفاضة إلى الشمال، حيث إن الأكراد الذين شجعتهم انتفاضة الشيعة، قرروا استغلال انهيار سلطة الدولة والتأكيد على حقوقهم القومية. وانطلقت الانتفاضة الشعبية الكردية من إيمانها بالحصول على دعم إدارة بوش التي أبدت التزامها بإزاحة صدام وحماية الأكراد.(1) وفي غضون أسبوعين حرر الأكراد ٩٥٪ من كردستان ودعوا فصائل متنوعة من المعارضة العراقية لتشكيل حكومة جديدة. وبالرغم من تناقض قادة المعارضة العراقية، فقد التقى ثلاثمائة مبعوث من ثلاث وعشرين مجموعة معارضة في المنفى في بيروت في العاشر من مارس في محاولة غير مسبوقة وذلك لتنسيق استراتيجية مشتركة ضد صدام.

إنّ الانتفاضة الشاملة ضد قيادة البعث في بغداد فاجأت قادة التحالف. وإبّان عملية عاصفة الصحراء طالب العديد من زعماء التحالف، بمن فيهم الرئيس بوش ورئيس وزراء بريطانيا جون ميجر بإسقاط صدام. وفي منتصف فبراير طلب الرئيس

بوش وبصراحة من الشعب العراقي «بأن يجبر صدام على التنحّي»، في الوقت الذي أعلن فيه السيد ميجر في البرلمان أن صدام «قد يصبح ذات يوم هدفا لشعبه».[٢] وفي الحقيقة، بعد توقيع وقف إطلاق النار بفترة قصيرة، تلقّى الرئيس بوش تقييما استخباراتيا تكهن بأن صدام سيكون خارج الحكم في غضون عام. وعلامة الاستفهام الوحيدة التي تخيم على قدرة صدام على البقاء هي إذا استطاع جهاز الأمن الضخم الذي أسسه أن يقاوم الانتفاضة الشعبية الواسعة الانتشار في وقت كانت فيه البلاد مدمرة. وبالرغم من أن الحلفاء كانوا متلهفين لرؤية صدام معزولا، إلاّ أنّ الانتفاضات الشعبية التلقائية للشيعة والأكراد وضعتهم في مأزق. ومع أنّ زعماء التحالف كانوا قد حثوا العراقيين على الإطاحة بصدام، فإنهم كانوا غير مستعدين لتوريط قوات التحالف في دعم الثوار. فالحرب بدأت على أساس أنها حملة عسكرية لتحرير الكويت، وأن أمر إزاحة صدام لم يكن أمرا رسميا. إن الجدل ضد توسيع عملية عاصفة الصحراء لتشمل سقوط نظام صدام تبيّن بوضوح في نيويورك تايمز والتي، على سبيل المثال، ناقشت مسألة إذا ما توسعت أهداف الحرب، فإنها ستؤدي إلى خسائر فادحة في صفوف التحالف وتزعزع استقرار المنطقة، خاصة إذا استغل جيران العراق مثل إيران، ضعف نظام الحكم في بغداد لأهدافهم الخاصة.[٣] فالدول الخليجية التي كان عليها أن تقاوم التهديد المستمر الذي يشكله المقاتلون الإسلاميون المدعومون من إيران، كان يقلقها مشهد النفوذ الإيراني الممتد إلى المناطق الشيعية في جنوب العراق.

إنّ الأساس المنطقي لعدم التدخل لخّصه بصورة أفضل ريتشارد تشيني، وزير الدفاع الأمريكي، والذي سيكون بعد عشر سنوات لاحقة، اللاعب الرئيس في الالتزام الأمريكي المتجدد لإزاحة صدام من منصبه. «لو ذهبنا إلى بغداد وتخلصنا من صدام حسين ـ على افتراض أننا تمكنّا أن نجده ـ فإنه يتوّجب علينا أن نحشد قوات كبيرة وأن نطارده إلى أن يصل إلى مكان ما. ولن يكون سهلا إلقاء القبض عليه. بعد ذلك علينا أن نقيم حكومة جديدة بمكانه ثم تواجهنا مشكلة: أي نوع من الحكم سنقيم في العراق؟ هل ستكون حكومة كردية أم حكومة شيعية أم حكومة سنية؟ وكم من القوات ستترك هناك لمساندة تلك الحكومة، وكم سنتكبد من الخسائر خلال سير العملية؟[٤] وكان تشيني نفسه يبحث عن أجوبة لتلك الأسئلة المهمة بعد عشر سنوات عندما انتخب نائبا للرئيس جورج. دبليو. بوش، ابن الرئيس الأمريكي الذي أصدر أوامر عملية عاصفة الصحراء.

ومع أنّ الحلفاء فضلّوا تغييرا لنظام بغداد، إلا أنهم كانوا يحبذون تكرار الانقلاب

التقليدي الذي أحدث من الناحية التاريخية تحولا في الدولة العراقية، بدلا من الانتفاضة الشعبية. وكانت الانتفاضة الشعبية تعج بالمخاطر. ولم يعرف أحد ما نوع النظام الذي سيستبدل البعثيين وبقيت الخارجية الأمريكية مقتنعة بأن الإيرانيين سيحاولون استغلال أي نجاح يتحقق على أيدي الثوار، سواء كانوا الشيعة في جنوب العراق أو الأكراد في الشمال. وعلاوة على ذلك، فإن الحلفاء لم يكونوا مهتمين بمعالجة الترسانة الضخمة للأسلحة غير التقليدية، والتي اعتقدوا بأنها تشكل تهديدا بعيد المدى للمنطقة أكثر من صدام. وقد قامت عاصفة الصحراء ضد المسرح الخلفي للتهديدات المتواصلة للنظام باستخدام الأسلحة غير التقليدية، حيث استخدم صدام بعضها ضد شعبه.

وبالتفكير في ذلك، ضغطت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في الثالث من أبريل ١٩٩١، من خلال قرار مجلس الأمن المرقم ٦٨٧، وهو الأطول في تاريخ المنظمة وعرف بـ «أم القرارات». وفضلا عن النص على حرمة حدود العراق مع الكويت، التي رُسِّمت بتفويض دولي، طالب القرار العراق بأن يقدم كشفا لكافة المرافق والأسلحة البيولوجية والكيمياوية ومخزونات الصواريخ الباليستية وإمكانيات الإنتاج (التي تتجاوز مسافة ١٥٠كم)، وجميع المواد النووية. وتوجب على العراقيين في حينها التعاون الكلي في تدمير ترسانة أسلحتهم غير التقليدية. إضافة إلى ذلك كان على بغداد أن تُسهِّل عودة جميع الممتلكات الكويتية والموافقة على تعويض الشركات والجنسيات الأجنبية التي عانت من نتائج احتلال الكويت. وستبقى العقوبات في محلها تطال كل شيء باستثناء «الأدوية والإمدادات الصحية». وكانت العقوبات تُستعرّض كل شهرين، وكان التجاوب العراقي مع قرارات الأمم المتحدة، وخصوصا ما يتعلق ببرنامج نزع الأسلحة، أمرا رئيسا بالنسبة لأي قرار يدعو لتقليل أو رفع العقوبات. وفي الوقت ذاته لم يسمح للعراق ببيع نفطه.

وبدمار العراق، وانتفاضة نصف البلد وبمواجهة العقوبات المتصلبة جدا والمفروضة بشكل دائم على النظام بواسطة مجلس الأمن وافق معظم الزعماء الغربيون على التقييم العام بأن على صدام أن يرحل خلال عام. والعائق الوحيد هو أنهم كانوا غير مستعدين للمساعدة في زواله. والرئيس بوش كان راضياً بإطلاق ملاحظات مبتذلة مثل «لا يستطيع صدام البقاء. لقد ضاق الناس ذرعا به. هم يرون فيه دكتاتورا متوحشا».[٥] بيد أن دعم الانتفاضة التي قام بها كل من الشيعة والأكراد كان أمرا آخر تماما. ومارلن فتزوتر، الناطق باسم البيت الأبيض، لم يكن واضحا، إلى حد السذاجة

تقريبا، لمّا سُئل عن النوايا الأمريكية تجاه الثوار. «نحن لا ننوي التورط في الشؤون الداخلية للعراق»، ردّ مؤكدا. «نحن لدينا تقارير عن القتال في البصرة والمدن الأخرى، ولكن لم يكن واضحا بالنسبة لنا ما هو الهدف أو المدى الذي يكون عليه القتال». وبشكل جلي لم يكن بوش قريبا من أن يجعل من انتصاره العظيم في الكويت يفقد بريقه وذلك بالسماح للقوات الأمريكية بأن تقع في شراك الاضطراب العظيم للسياسة العراقية. أراد من قوات الولايات المتحدة أن تعود إلى الوطن في الوقت المناسب.

والأسلوب الذي نجح به صدام في تحويل الورطة المحفوفة بالمخاطر التي واجهها في ربيع ١٩٩١ إلى مصلحته الشخصية كان برهانا على منهج الدهاء السياسي، والمهارة التي مكنته من البقاء على قيد الحياة بطلا للعراق دون أدنى شك لأفضل دور من العقود الثلاثة. وأظهر بأنه بقي خصما لدودا عندما تعرض للتحدي على أرضه. ومع أن صدام وإلى حد كبير قد أساء فهم موقف الغرب تجاه العراق ونظام البعثيين وذلك بالإسراع إلى غزو الكويت، فإنه استطاع أن يكتشف بأن الغرب ليس لديه الاهتمام بنقل القتال إلى العراق عقب تحرير الكويت. وأسرع صدام باستغلال قلق الغرب حول الشرق الأوسط وحسب بأنه إذا لم يعط الحلفاء سببا للتدخل في شؤون العراق الداخلية، فإنه سيقدر على إعادة توطيد شرعية حكمه. وهكذا في أوائل مارس سمح لوزير خارجيته، طارق عزيز، بأن يكتب إلى السكرتير العام للأمم المتحدة يبلغه بتخلي العراق عن ضم الكويت، والموافقة على إعادة الممتلكات المسروقة. ووافق عزيز أخيرا على شروط قرار الأمم المتحدة رقم ٦٨٧، على الرغم من أن تنفيذه سرعان ما ارتبط مباشرة بحسابات بغداد حول استعداد التحالف، الذي انحلّ بسرعة مثلما تجمع، إلى اللجوء إلى القوة المسلحة لضمان الاستجابة.

وبعمله ما يكفي لكي يبتعد بعيدا عن الأمم المتحدة، قام صدام ببعض التعديلات المهمة لبنية النظام لتعزيز موقعه ولضمان الولاء المطلق لقيادته في الصراع القادم لقمع الشيعة والأكراد. فأصبح نائبه في مجلس قيادة الثورة، عزت إبراهيم، نائبا للقائد العام للقوات المسلحة وأرسل إلى الجنوب ليشرف على قمع الانتفاضة الشيعية. وعيّن صهره المفضّل لديه، حسين كامل المجيد، وزيرا للدفاع، وطه ياسين رمضان، التابع الأمين لصدام لفترة طويلة، أصبح نائبا للرئيس. وكإشارة إلى الشيعة تخلى صدام عن مكتب رئيس الوزراء، ذلك المنصب المهم، وعين فيه شخصا آخر من رفاقه المخضرمين هو الشيعي البارز سعدون حمادي ـ مع أن حمادي اعتُبر وبنطاق واسع

شخصية ضعيفة بلا قاعدة سلطوية. وأخيرا عيّن علي حسن المجيد وزيرا للداخلية. وبسجله الشنيع، كمسؤول رسمي عن قتل الأكراد بالغاز في حلبجة، وموقعه الشاغر مؤخرا كحاكم سفاح للكويت، فإن تعيين المجيد أرسل علامة واضحة إلى الثوار بأن صدام لم يعتزم معاملتهم باللين والهوادة. وكما فعل ذلك لمرات عديدة في الماضي فإن صدام قد أكد بأن مصير جميع الأعضاء القياديين للنظام مرتبط بشكل لا فكاك منه بمصيره هو.

وقام صدام بجهد حثيث لرفع الروح المعنوية للقوات المنكسرة. فأعلن عن زيادة شاملة في الرواتب للجيش وقوى الأمن. وتم تطهير الجيش من العسكريين المشكوك في ولائهم. فكان هناك عدد من الإعدامات. وشبكة صدام من المسؤولين العسكريين بقيت على قيد الحياة دون أن يصيبها أذى من الحرب. واستبدل عدد من قادة الجيش الكبار، بمن فيهم اللواء وفيق السامرائي، رئيس الاستخبارات العسكرية، الذي بلا شك عوقب لأنه كان صريحا جدا في التعبير عن آرائه حول تورط الجيش في عملية عاصفة الصحراء.

وأُطلق الحرس الجمهوري ضد الانتفاضة في الجنوب. وبدعم من قيادتها الجديدة وزيادة الرواتب أصبحت كتائب الحرس الناجية من الحرب حريصة على أن تخلص نفسها من العار الذي ألحقه بها الحلفاء. فخاضت مهمتها الجديدة بوحشية استثنائية حتى بالمقاييس القاسية لنظام البعث. وفي مدينتي النجف وكربلاء المقدستين تم اعتقال الآلاف من رجال الدين وتم إعدام المئات بسرعة. وأن أي رجل معمم أو ملتحٍ يخرج إلى الشارع واجه خطر الاعتقال والقتل. ورُبط الناس إلى الدبابات واستخدموا كدروع بشرية، في الوقت الذي تم فيه إطلاق النيران على النساء والأطفال دون أي تمييز. وصوّر البعث فيلما لعلي حسن المجيد، الذي عيّن وزيرا للداخلية حديثا، وهو يدير العمليات ضد الشيعة. وفي إحدى المناسبات في ذلك الفيلم سمع وهو يعطي التعليمات لطيار طائرة مروحية كان في طريقه لمهاجمة مجموعة من الثوار كانت تسيطر على أحد الجسور: «لا ترجع الاّ أن تكون قادرا على إبلاغي بأنك قد حرقتهم، وإذا لم تفعل فلا ترجع».(٦) وفي الفيلم الذي وزع فيما بعد على منتسبي حزب البعث بعد إخماد الانتفاضة، انضم إلى المجيد قيادي بعثي آخر هو محمد حمزة الزبيدي، وظهر الرجلان وهما يصفعان ويركلان الأسرى العُزل المرتمين على الأرض. «دعنا نعدم أحدهم لذا فإن الآخرين سيعترفون»، يقول الزبيدي، الذي رقّاه صدام مؤخرا إلى منصب رئيس الوزراء مكافأة له على خدماته المتميزة في جنوب العراق.

وبعد ذلك يُظهر الفيلم مجموعة من الأسرى الخائفين والمذعنين. وكان المجيد يدخن أثناء قيامه باستجواب الأسرى. وكان يشير ويلمّح إلى أحدهم قائلا: «لا تعدموا هذا. سيكون نافعا لنا». وفي الوقت الذي سُمح فيه مؤخرا للمراسلين الغربيين بزيارة المنطقة بعدما تم إخماد الانتفاضة تماما، كانت تقاريرهم تشير إلى أن كربلاء «بدت وكأنها ضُربت بهزة أرضية».(٧)

وفي أواخر مارس شنّ هجوم كبير على الأكراد وفي أيام وقعت المدن الكردية في قبضة القوات العراقية، وشرع الأكراد المذعورون بالهروب إلى الجبال في محاولة يائسة للنجاة من الجيش العراقي المتقدم. وكشفت السيطرة السيكولوجية لصدام على الأكراد عندما قامت قواته، بكل بساطة بإسقاط طحين أبيض على مجاميع اللاجئين لتبث الذعر الكلي وظنّ المدنيون العزّل بأنه قد تمت مهاجمتهم بأسلحة كيمياوية. وفي أوائل أبريل احتشد ما يقارب المليون من اللاجئين الأكراد على طول الحدود الإيرانية الكردية، وفي نهاية الشهر تجاوز العدد المليونين. وفي جبال كردستان ذكرت التقارير بأن اللاجئين كانوا يموتون جوعا بمعدل ألف شخص في اليوم الواحد.

والحلفاء المنتصرون الذين كانوا منذ شهرين فقط يشربون نخب انتصارهم على صدام، وجب عليهم الآن أن يعالجوا كارثة إنسانية كانوا مسؤولين عنها بالدرجة الأولى. وبدعم من قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨، والذي خوّل المنظمات الإنسانية مساعدة الأكراد وحظر الطائرات العراقية من الطيران شمال الخط السادس والثلاثين، قامت قوات التحالف المحرجة بعملية إغاثة، باستخدام طائرات النقل وطائرات الهليكوبتر وذلك لتوزيع أطنان من مواد الإغاثة، بما في ذلك الطعام، الملابس، الخيام والبطانيات. بيد أن الجهد العالمي للإغاثة أعاقه الحشد المرعب في معسكرات اللاجئين ورداءة الطقس. والحل الوحيد الذي يحول دون وصول الوضع إلى معدلات كارثية كان في إيجاد سبيل يُمكّن اللاجئين من العودة إلى ديارهم. وفي أوائل أبريل اقترح جون ميجر إقامة «ملاجئ آمنة» للأكراد في مناطق كردستان لحمايتهم من هجوم قوات صدام. وفي البدء كان الرئيس بوش، الذي يولي اهتماما كبيرا لموضوع منع القوات الأمريكية من التورط في حرب أهلية في العراق، تعوزه الحماسة لتلك الخطة، لكنه غيّر رأيه في منتصف أبريل وخوّل الجيش الأمريكي إقامة عدد من المواقع الآمنة في شمال العراق وذلك لتسهيل توزيع مساعدات الغذاء. وفي نهاية الشهر تم نشر ما يقارب عشرة آلاف جندي أمريكي وبريطاني وفرنسي في شمال العراق للإشراف على عملية الاغاثة الخاصة بالأكراد.

ومن وجهة نظر صدام، فإن سياساته في ربيع ١٩٩١ كانت نجاحا كبيرا. وقد أثبت بأنه كان فطنا من الناحية التكتيكية، ونجح في القضاء على انتفاضتين رئيستين، وأثبت للقادة الغربيين الراضين عن أنفسهم بأنه ما زال قائدا لبلده دون منازع. وبعقلية الواثق بنفسه كان صدام يستعدّ للتعامل مع التحدي القادم لنظامه، وهو وصول فرق مفتشي الأسلحة التابعين إلى الأمم المتحدة إلى العراق لغرض نزع ترسانة الأسلحة غير التقليدية. وفي أعقاب هزيمة العراق مباشرة، كان هناك إجماع واضح في مجلس الأمن في الأمم المتحدة بأن ذلك البلد يجب أن يمنع من شن أية أعمال عدوانية مماثلة في المستقبل. وفضلا عن نجاح عدد من القرارات التي طالبته أن يقدّم اعترافا رسميا بدولة الكويت المستقلة وأن يدفع تعويضات الحرب الضخمة، أمرت الأمم المتحدة صدام بأن يفتح جميع المواقع في العراق لفرق التفتيش التي تبحث عن دليل لبرامجه في تطوير الأسلحة النووية والكيمياوية والبيولوجية المشكوك فيها. وسيتم تدمير تلك الأسلحة في حال اكتشافها بالإضافة إلى تدمير ما تبقى من صواريخ أرض_أرض بعيدة المدى. وسترفع العقوبات التأديبية فقط عندما يكون مجلس الأمن مقتنعا بأن العراق لم يعد يمتلك تلك القدرات، وشريطة أن يسمح بإقامة فرق المراقبة وأن يمتثل للأحكام التي تتضمنها قرارات الأمم المتحدة.

ولما وصل فريق اليونسكوم (لجنة الأمم المتحدة الخاصة بنزع الأسلحة) الأول ليبدأ العمل في مايو ١٩٩١، شرع صدام وموظفوه بحملة منظمة للإعاقة والتغطية، ولذلك، وبعد سبع سنوات، عندما رحلت فرق اليونسكوم، كانت الأمم المتحدة غير قادرة على تبيان الطبيعة الدقيقة لقدرة العراق على تصنيع الأسلحة البيولوجية والكيمياوية والنووية. إن فكرة قيام الفرق الأجنبية بعمليات تفتيش فجائية في المناطق الأكثر حساسية في مجمعات التصنيع العسكري، أصبحت بطبيعة الحال، أمرا بغيضا بالنسبة لصدام وعصابة البعث الحاكم. وعلى مضض وافق العراقيون على عمليات التفتيش في أعقاب الحرب مباشرة وذلك لأن صدام أراد فقط أن يعطي انطباعا عن التعاون مع الأمم المتحدة لتكون له اليد الطولى في إخماد الانتفاضتين في كردستان وجنوب العراق. وبالرغم من أن العراقيين قد وافقوا في الظاهر على النزول عند رغبة مفتشي الأسلحة، إلاّ أن الواقع كان أمرا مختلفا جدا.

وفي أواخر أبريل تشكلت لجنة طوارئ برئاسة طارق عزيز لتقرر أفضل السبل لتحدي الأمم المتحدة بأمر من صدام للحفاظ على أكثر ما يمكن من أسلحة الدمار الشامل العراقية قدر الإمكان.[٨] وكان صدام عازما على أن لا يكشف أي جانب من

برنامج أسلحته النووية، والمسمى (PC-3) والذي أخفاه بنجاح عن المفتشين العاملين لوكالة الطاقة الذرية الدولية لأكثر من عشر سنوات. وأمر صدام كذلك بأنه يجب ألا تكشف أية تفاصيل عن برنامج الأسلحة البيولوجية. والسلاح غير التقليدي الوحيد الذي كشف النقاب عنه كان برنامج الأسلحة الكيمياوية لأنه سبق للأمم المتحدة أن امتلكت دليلا حول تصنيعه. وأجاز صدام موضوع الكشف عن مخزونات العناصر الكيمياوية وأنظمة إطلاقها، لكن مرافق التطوير والبحث الشامل كانت قد أُخفيت إضافة إلى مخزونات الأسلحة الكيمياوية الأكثر تقدما في العراق (X V) والتي تم إخفاؤها تماما عن فرق التفتيش. وكانت السياسة واضحة، سيدرس صدام بدقة مقترحات نزع الأسلحة، لكنه لن يفعل. وصاغت لجنة عزيز قائمة مفصلة بخصوص ما يمكن وما لا يمكن كشفه إلى الأمم المتحدة، ووضعت خطة للتفريغ عند الطوارئ وذلك لبعثرة المواد المرتبطة بالأسلحة والتي يجب ألا تسلم إلى الأمم المتحدة. وحتى أن اللجنة ذهبت بعيدا في عملها للتحضيرات للتعامل مع فرق التفتيش، وشملت تلك التحضيرات إعادة تنظيم مخططات المرافق الحساسة لإخفاء الدليل على النشاط المحظور. وأمر عزيز بإقامة تمارين محكمة تتم بإجراء عمليات تفتيش وهميّة وذلك لتدريب المسؤولين العراقيين على كيفية التعامل مع فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة. وأخيرا وفي الثامن عشر من أبريل، سلم العراق بيانه إلى الأمم المتحدة ملخصا تفاصيل برنامج الأسلحة غير التقليدية. *مكتبة الرمحي أحمد*

والسويدي رولف اكيوس، رئيس فرق اليونسكوم، كان سريعا في ملاحظة التناقضات بين المادة التي تضمنها بيان طارق عزيز وتفاصيل البنية التحتية لأسلحة العراق غير التقليدية التي حصرتها الاستخبارات البريطانية والأمريكية. وأخطر اكيوس بغداد بأن اليونسكوم قامت بتقييم شامل لقدرات أسلحة الدمار الشامل العراقية، وستنظم عمليات تفتيش للمواقع ليس في المرافق التي أعلنها العراق فحسب، بل في المواقع التي لم يعلن عنها أيضا. ومن الواضح أن صدام قد أثارت أعصابه طبيعة الرد المتصلب لأكيوس، فأمر بتشكيل لجنة جديدة تخضع لسيطرة الابن الأكبر الثاني قصي.[٩]

إن تعيين قصي في هذا المنصب المهم لم يقابل برضى حسين كامل، صهر صدام، والذي خلال ترؤسه لهيئة التصنيع العسكري التي تشكلت بعد الحرب العراقية_الإيرانية لإعادة تسليح العراق، قد أنفق مليارات الدولارات لتعزيز قدرة الأسلحة العراقية غير التقليدية. وكان حسين كامل شخصا مغرورا وبغروره وسلوكه

المتعالي نفّر العديد من الشخصيات المهمة في النخبة الحاكمة. وعلاوة على ذلك كان يدين ببروزه المتصاعد إلى رعاية زوجة صدام المبتعدة، والتي أبدت نفورها من صدام منذ موت أخيها عدنان في حادث تحطم طائرة الهليكوبتر في عام ١٩٨٩ وفي أوقات الأزمة كان صدام يتوجه إلى أولئك الذين يثق بهم، وقد أثبت ذلك في التغييرات التي أجراها في مارس في قيادة البعث والجيش قبل أن يشن حملته لإخضاع الأكراد والشيعة. وبسبب الخطر الكبير المحدق به بات من الواضح أن صدام سيشعر بثقة أكبر إذا ما جعل من لحمه ودمه في مسؤولية حماية الترسانة الغالية للأسلحة غير التقليدية أكثر من شخص يرتبط به بعلاقة المصاهرة فقط. إن تفضيل صدام لقصي على حسين كامل خلق مرارة أكبر وسبّب لصدام المزيد من وجع القلب في السنوات التالية.

وكانت لجنة قصي الجديدة تلتقي بشكل منتظم في القصر الرئاسي لمناقشة سبل ضمان المادة الحساسة التي أُخفيت عن المفتشين. وفي ذلك الوقت العصيب ظن العراقيون بأن برنامج تفتيش الأسلحة سيستغرق أشهرا قليلة، إذا لم تكن أسابيع. وتوقعوا أن يطلعوا المفتشين على المواقع التي أعلنوا عنها للأمم المتحدة، والتي دُمّر معظمها بقصف قوات التحالف خلال الحرب. واعتمد العراقيون في توقعاتهم على خبرتهم السابقة في التعامل مع مفتشي وكالة الطاقة الذرية الدولية والذين كانوا يفتشون بانتظام مرافق البحث النووي في العراق دون أن يلاحظوا بشكل فعلي أن العراق كان يطور أسلحة نووية.

وبرهن موظفو اليونسكوم على الضمير الحي في تنفيذ واجباتهم. وفي يونيو ١٩٩١ قام فريق بقيادة ديفيد كي، كبير المفتشين، والذي يعمل في مجال مسح المرافق النووية العراقية المعلن عنها، بزيارة معسكر أبو غريب في غرب بغداد. وبالرغم من أن العراقيين قد اعترفوا بأن جزءا من المعسكر استخدم للبحث النووي، فإن جزءا آخر من المعسكر استغله قصي لإخفاء المعدات الرئيسة في برنامج البحث النووي العراقي. وجرّاء تفتيش المعسكر اكتشف «كي» بأن جنودا عراقيون حاولوا أن ينقلوا عددا من الفواصل النظائرية الكهرومغناطيسية الضخمة، المعروفة كحاسبات، والتي تنقل بشاحنات مقطورة ثقيلة. ولما حاول «كي» أن يتدخل ردّ الجنود العراقيون بإطلاق عيارات نارية فوق رأسه. بعد ذلك نقل العراقيون الحاسبات إلى موقع آخر على مرأى تام من المفتشين الذين صوروا الوقائع كاملة بأفلام.

إن حادثة أبو غريب وضعت أسلوبا لعلاقات العراق مع مفتشي الأمم المتحدة للسنوات التالية. وبعد تلك الورطة أمرت لجنة الإخفاء التابعة لقصي بإخفاء كافة

المركّبات المهمة لبرنامج الأسلحة النووية العراقية في شبكة قصور وفلل صدام بالقرب من تكريت، وتلك لم تذكر في قائمة المواقع التي أعلن عنها في العراق. وأن أية مادة لا تعتبر جوهرية ينسفها العراقيون الذين أبلغوا الأمم المتحدة بأنهم قد دمروا ومن جانب واحد أسلحتهم غير التقليدية معتقدين بأن مفتشي الأسلحة لن يعودوا. ولم يكن مفتشو الأمم المتحدة مقتنعين بأنهم قد يُوقعون بصدام ذات مرة. عاد «كي» إلى بغداد وفي منتصف شهر سبتمبر وصل فريقه إلى المراكز النووية العراقية الرئيسة في بغداد، تسلقوا السياج واقتحموا المبنى. ومما أثار دهشتهم أنهم اكتشفوا ملايين الصفحات من الوثائق التفصيلية لكافة برامج الأسلحة النووية العراقية. وبالرغم من أن أعضاء لجنة الإخفاء التابعة لقصي قد أمروا بحفظ جميع المكونات النووية الصلبة إلا أنهم قد نسوا أمر التوثيق. واندفع المسؤولون العراقيون المرتبكون إلى المجمع، وأدى ذلك إلى استراحة من العمل لأربعة أيام، احتُجز فيها فعليا المفتشون التابعون لكي في موقف السيارات.(١٠) لكن الضرر قد وقع، وقررت فرق اليونسكوم مواصلة عمليات التفتيش إلى الحد الذي تكون فيه مقتنعة بأن صدام قد نزع أسلحته تماما. وجاء رد فعل لجنة الإخفاء تجاه الكارثة الأخيرة عبر الترتيب لامتلاك الأرشيف النووي مصورا على فيلم يُحفظ في وزارة الزراعة التي لعبت في السابق دورا بارزا في إقامة برامج الأسلحة البيولوجية والكيمياوية في العراق. بيد أن المفتشين لم يخدعوا، وفي يوليو ١٩٩١ اقتحموا مبنى وزارة الزراعة. وردت قوات صدام الأمنية على ذلك بتنظيم مجموعات مدنية لمهاجمة مفتشي الأمم المتحدة عندما كانوا يحاولون تنفيذ مهمتهم. وكانت تلك آخر مرة اقترب فيها مفتشو الأسلحة من كشف الأرشيف الكامل للأسلحة النووية والذي سرعان ما تم نقله بعدئذ إلى مجمع رئاسي سري قرب تكريت.

وفي الوقت الذي كان فيه صدام يركز على إيجاد سبل لتحدي مفتشي اليونسكوم كان العراقيون عاطلين وجائعين. وكانت عقوبات الأمم المتحدة تعني بأن العراق أصبح عاجزا عن بيع نفطه للحصول على العملات الأجنبية ولذلك حُدد ما يمكن استيراده بشدة. وبذلك مُنعت عنه الأسمدة والمكننة الزراعية، والمبيدات والمواد الكيمياوية ذات الاستعمال المزدوج، إضافة إلى قطع غيار الكهرباء العراقية المدمرة وأنظمة تنقية الماء. ونتيجة لذلك سرعان ما انتشر المرض وسوء التغذية، مما تسبب بارتفاع معدلات وفيات الأطفال الرضّع إلى مستويات لم يشهدها العراق لأكثر من أربعين عاما. وارتفعت أسعار الغذاء بنسبة ٢٠٠٠٪ في غضون عام من اجتياح الكويت، ودمار الاقتصاد كان يعني أن البغداديين من الطبقة الوسطى الموسرين سابقا أصبحوا عند حافة الإفلاس.

ومع ذلك فإن معاناة الشعب العراقي تركت أثرا ضئيلا على قائد البلد. وفي عام ١٩٩٢ استجابت الأمم المتحدة للصعوبات المتزايدة التي يكابدها العراقيون البسطاء وذلك بمنح حكومة العراق فرصة بيع ما قيمته ١,٦ مليار دولار من النفط تدفع من أجل الغذاء والدواء. وقوبل ذلك بالرفض من صدام الذي احتج بقوة على إصرار الأمم المتحدة بحجة السيطرة على الأموال وأن نسبة ٣٠٪ من الفوائد ستخصم وتدفع لتعويضات الحرب. وطوال السنوات التالية أمعن صدام في إعاقته لعروض مماثلة، مفضلا أن يترك الشعب العراقي يعاني بدلا من السماح لأية قيود تفرض على دائرة الرئاسة. وفي ١٩٩٦ وافق أخيرا على شروط قرار مجلس الأمن المرقم ٩٨٦ والذي سمح للعراق ببيع ما قيمته مليارَي دولار من النفط لكل ستة أشهر لغرض شراء المؤن الأساسية.

وبالرغم من أن الحلفاء كانوا غير راغبين في دعم الانتفاضات الكردية والشيعية، إلا أنه كانت هناك رغبة قوية لرؤية صدام مطاحا به. وفي مايو ١٩٩١، ولما نجح صدام في سحق ثورتي الشمال والجنوب واستأنف وضعه كرجل بغداد القوي، وقّع الرئيس بوش قرارا «رسميا» فوض به وكالة الاستخبارات المركزية للقيام بعملية سرية «لخلق ظروف إزاحة صدام حسين عن السلطة». ولو أن القرار وُقّع قبل أشهر قليلة، لكانت وكالة الاستخبارات المركزية قد بلغت فرصة النجاح. ولكن في الوقت الذي استنتج فيه بوش في النهاية أن صدام يجب أن يُزاح عن السلطة، أصبح القائد العراقي قادرا وبنجاح على تعزيز قاعدة حكمه.

وفرانك أندرسون، مستلم القرار ورئيس شعبة الشرق الأدنى في وكالة الاستخبارات المركزية في مجلس إدارة العمليات علق فيما بعد قائلا: «ليس لدينا آلية فردية أو مجموعة من الآليات نقدر بواسطتها أن نخلق خطة للتخلص من صدام في ذلك الوقت». [١١] وبدا أن قرار بوش كان صدى لقول مأثور ابتكره ريتشارد هيلمز، مدير الاستخبارات المركزية السابق «كثيرا ما يكون العمل السري بديلا عن السياسة». وبوش نفسه سلّم بأن الفرصة الفعلية للإطاحة بصدام عقب عملية عاصفة الصحراء مباشرة قد ضاعت. وظهر دليل على أن مجموعة من الضباط العراقيين الكبار قد خططوا لانقلاب ضد صدام بعد الحرب بفترة قصيرة، بيد أنهم مُنعوا من التنفيذ بسبب انتفاضتي الشمال والجنوب. [١٢] وفي مقابلة في التلفزيون الأمريكي في عام ١٩٩٤ علق بوش قائلا: «كان لدي شعور قوي بأن الجيش العراقي الذي قاده صدام إلى مثل تلك الهزيمة الساحقة، سيثور ويتخلص منه. وكان ينتابنا القلق من أن الانتفاضات

ستصرف الانتباه عن الإطاحة بصدام وذلك بجعل الجيش العراقي يجمع قواه المتفرقة ويلتف حول صدام لمنع تصدع البلد. وذلك ما قد وقع فعلا». [١٣]

ومن خريف ١٩٩١ فصاعدا قدّمت أجهزة الاستخبارات الأمريكية والبريطانية أفكارا شتى للاطاحة بصدام. والأفضلية الأولى كانت بإيجاد شخص أو مجموعة أشخاص يقدمون بديلا مقبولا ولهذا الغرض قامت الاستخبارات المركزية بمفاتحة برزان الأخ غير الشقيق لصدام، والذي لم يزل يعيش في المنفى في جنيف[١٤]، مبعوثا غير مرغوب به نظرا لنشاطاته السابقة كمدير لجهاز الأمن العام وتورطه الشخصي في إعدامات الرفاق البعثيين والتي وقعت بعد أن استلم صدام الرئاسة في عام ١٩٧٩ (أنظر الفصل السابع). وتم تنفيذ المبادرة المهمة التالية في يونيو ١٩٩٢ عندما التقى في فيينّا، وبرعاية الاستخبارات المركزية، حوالي أربعين جماعة عراقية معارضة، بمن في ذلك الأكراد، وذلك لتشكيل تنظيم جديد سمّي بالمؤتمر الوطني العراقي التزم بإسقاط صدام. وكان الهدف المعلن هو خلق عراق ديمقراطي بحكومة ستمثل جميع الأعراق والعقائد. وكان المؤتمر الوطني أكثر بقليل من واسطة دعائية، ومعظم أعضائه الفعليين كانوا يعون تماما أن صدام لن يزاح بسهولة. والدعم الذي قُدّم للمؤتمر الوطني جاء حصرياً من الاستخبارات المركزية وبلغ ٢٣ مليون دولار في عامه الأول لوحده.

إنّ التهديد الأكثر خطورة بالنسبة لصدام لم يزل يكمن في قواته المسلحة الخاصة. وفي صيف ١٩٩٢ ارتبط اثنان من ألوية الحرس الجمهوري الآلية بمؤامرة لازاحته. والمؤامرة ـ المفترض وجودها ـ أُحبطت بواسطة قوى صدام الأمنية اليقظة دوما، وأدت إلى جولة أخرى من الإعدامات والتطهيرات. تم إعدام ستة ضباط على الفور، من ضمنهم اثنان برتبة قائد لواء، وألقي القبض على أربعمائة آخرين. [١٥] وفي السنة التالية كشف النقاب عن مؤامرة أخرى، كان هدفها قتل صدام خلال احتفالات تموز السنوية بمناسبة ثورة البعث. ومرة أخرى اشتُبه بتورط الحرس الجمهوري، ووقعت إعدامات إضافية. وبسبب ذلك فإنه حتى وحدات النخبة في الحرس الجمهوري لا يمكن الوثوق بها، وشكل صدام وحدة خاصة، من التكريتيين بصورة رئيسة، سميت بالفرقة الذهبية للحرس الجمهوري. يتقاضى منتسبوها رواتب عالية جدا ويمنحون امتيازات خاصة ويعملون بالقرب من ضباط الأمن الخاص التابعين للرئيس. وفي النهاية تم دمج المجموعتين لتشكيل جهاز الأمن الخاص.

وأجرى صدام بعض التعديلات على الحكومة، معززا بذلك وجود أقربائه في المناصب الرئيسة. فالأخ غير الشقيق وطبان حل محل علي حسن المجيد وزيرا

للداخلية، وأصبح المجيد وزيرا للدفاع. وسبعاوي الأخ غير الشقيق الآخر عيّن رئيسا للمكتب الخاص وأشرف على المخابرات. وعدي الذي كان في الثامنة والعشرين من عمره في ذلك الوقت، والذي تصالح مع أبيه، عيّن رئيسا للأمن الوطني وأشرف على صحيفة بابل، وواصل في الوقت ذاته إدارة اللجنة الأولمبية. وشقيق عدي الأصغر البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، أُعطي دورا رئيسا بترؤسه لجهاز الأمن الخاص الحديث العهد. وحاول صدام أيضا أن يُبقي على صهريه، حسين كامل وصدام كامل، سعيدين. وحسين كامل الذي أصبح غاضبا جدا بسبب ترقية صدام لولده قصي، واصل إدارته لهيئة التصنيع العسكري، وكالة تأمين أسلحة العراق الرئيسة، بينما ترأس صدام كامل، الشخصية الأقل جلافة، شعبة أمنية غير محددة في القصر الرئاسي.

وفي غياب أية خطة فعالة لإزاحة صدام سعت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إلى زيادة الضغط الدبلوماسي عليه عبر إقامة منطقة حظر الطيران فوق جنوب العراق تحت الخط الثاني والثلاثين الذي أعطى للحلفاء سيطرة فعالة على ثلث المجال الجوي في العراق. إنّ قرار فرض منطقة حظر الطيران المماثل لقرار حماية الأكراد في شمال العراق في عام ١٩٩١، اتخذ لحماية عرب الأهوار، السكان الذين يقطنون في منطقة الأهوار المحيط بالبصرة لقرون، والذين ثاروا ضد صدام في ١٩٩١ إنّ انتفاضة عرب الأهوار ليس لها علاقة بانتفاضتي الأكراد والشيعة، بل إنها استفزت بقرار صدام الذي يقضي بتأسيس قناة مائية جديدة بطول ثلاثمائة ميل_ أطلق عليها اسم نهر صدام_التي أثرت بصورة عكسية على تصريف الأهوار الطبيعي، وبذلك دمرت وبشكل اعتباطي الثقافة التي وُجدت لعدة قرون. وقد ردّ صدام بهمجيته المعروفة، وسرعان ما وصلت الغرب تقارير عن الأسلحة الكيمياوية التي استخدمت ثانية ضد السكان العُزل. ومع ذلك، فإن الدافع الأساسي لخلق منطقة حظر الطيران كان رغبة الرئيس بوش، بسبب الانتخابات الرئاسية المتوقع في نوفمبر، في التأثير على جمهور الناخبين الأمريكيين بموقفه المتصلب ضد صدام.

وبالرغم من ذلك، فشلت حيلة الرئيس بوش حيث فاز عليه كلينتون في نوفمبر ١٩٩٢ في السباق الرئاسي. وردّ صدام بالظهور على شرفة قصره بإطلاق النار من مسدسه في الهواء احتفاء بذلك. وفي الوقت الذي بقي فيه صدام زعيما لبلاده دون أدنى شك، فإن عدويّه اللدودين في أزمة الكويت، مارغريت تاتشر وجورج بوش، قد أُقصيا من مكتبيهما بصورة غير رسمية. واعتقد صدام بأن تغير الحكومة في واشنطن سيكون في صالحه، وأن الرئيس الجديد سيكون أقل اهتماما بمواصلة ثأر شخصي ضد

الزعيم العراقي. وكان خائب الظن في ذلك. وفي غضون ساعات من الفوز في الانتخابات، حذر كلينتون صدام بعدم الاستهزاء بأي من العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة. ورّد الأخير في أوائل يناير ١٩٩٣، بأيام قليلة سبقت استبدال كلينتون لبوش رسميا، بنشر بطاريات صواريخ مضادة للطائرات داخل منطقة حظر الطيران، وهو عمل استفزازي واضح صُمم لاختبار إرادة واشنطن السياسية خلال الفترة الانتقالية الحساسة. ومرة ثانية استهان صدام بالقرار الأمريكي، وقبل أن يسلّم الرئاسة إلى كلينتون بستة أيام، ردّ بوش بإعطاء أوامره لأكثر من مئة من طائرات التحالف لمهاجمة بطاريات الصواريخ العراقية.

وحتى بعد تخلّي بوش عن الرئاسة لم تسمح الغرائز القبلية لصدام بإسقاط الثأر. وفي أبريل ١٩٩٣، ولما قام بوش بعودة مثيرة إلى الكويت، أعلنت السلطات الكويتية بأنها كشفت النقاب عن مؤامرة عراقية لاغتياله. عثر الكويتيون على سيارة مفخّخة بمتفجرات تكفي لتدمير مركز مدينة الكويت، وأعدت القنبلة لتنفجر بشدة عند مرور سيارة بوش في مركز المدينة. وأرسل جيمس ووسلي، مدير الاستخبارات المركزية في عهد كلينتون، فريقا من الخبراء إلى الكويت لفحص القنبلة. واستنتج الفريق أنها كانت تحمل سمات المخابرات العراقية. ووفيق السامرائي، المدير السابق للاستخبارات العسكرية العراقية، والذي له خبرة كبيرة في تنفيذ مثل تلك العمليات، أكد أنه ليس هناك أي شك على الإطلاق في أن صدام شخصيا أصدر أمر القيام بمحاولة الاغتيال. «ليس باستطاعة أي شخص أن يفعل ذلك دون أمر مباشر من صدام حسين نفسه». وخمسة من الستة المشتبه فيهم كانوا عراقيين، تمت محاكمتهم بالتتابع وأعدموا شنقا على أيدي الكويتيين. وبعد محاولة الاغتيال الفاشلة بشهرين ردّ كلينتون بإطلاق ثلاثة وعشرين صاروخا من طراز توماهوك على مقر المخابرات في بغداد. غيرت الولايات المتحدة رئيسها لكنها لم تغير سياستها تجاه صدام حسين.

وفي الوقت الذي كان فيه العراقيون يموتون جوعا، وعاطلين ومبتلين بتفشي أمراض التيفوئيد والكوليرا، أثرت زمرة صدام الحاكمة من عائدات تهريب النفط. وفي غضون سنتين من تنفيذ أكثر العقوبات شمولية والتي فرضتها الأمم المتحدة، أقامت قوات صدام الأمنية شبكة معقدة من الشركات، والسماسرة والمهربين مكنته من بيع كميات كبيرة من النفط في السوق السوداء واستخدام العائدات لتمويل النظام. ومسالك التهريب المفضلة كانت عبر كردستان وتركيا، وعبر الأردن، حيث كان الملك حسين

يغض الطرف عن شحنات النفط اللاشرعية عبر ميناء العقبة الأردني. وفي نقطة تفتيش (H a b u r) على الحدود العراقية التركية أصبحت الشاحنات العراقية ذات الصهاريج المعدلة خصيصا والقادرة على حمل كميات كبيرة من النفط سمة مألوفة لحركة المرور يوميا. وفي عام ١٩٩٢ قدّر النفط العراقي الذي كان ينقل عبر نقطة العبور بخمسين ألف برميل يوميا. ثم يباع النفط إلى سماسرة أتراك لقاء العملات الأجنبية التي تنقل بعد ذلك إلى صناديق صدام في القصر الرئاسي. وبلا تلميح لسخرية القدر، أمر صدام في صيف ١٩٩٢ بإعدام اثنين وأربعين من تجار بغداد البارزين بتهمة الاستغلال. وبعض التجار تم ربطهم أمام الناس إلى أعمدة إلى جانب علامات تقول: «نحن مصاصو الدم». أخذوا بعد ذلك إلى وزارة الداخلية ـ التي كان يشرف عليها الأخ غير الشقيق سبعاوي ـ وأعدموا شنقا.[١٦] ورأى الشعب العراقي في الإعدامات ليس أكثر من محاولة ساخرة قام بها صدام ليحرف السخط العام باتجاه نخبته المترفة.

وسامي صالح الذي تولى لعدة سنوات مسؤولية عملية تهريب نفط صدام، قال بأنه جُند لهذا الغرض بتوصية من حسين كامل، صهر صدام. وأكد صالح أنه سبق له أن عمل مع حسين كامل في هيئة التصنيع العسكري في مشاريع الحصول على الأسلحة السرية المتنوعة. وبسبب خبرته في إدارة شركات الاستيراد والتصدير، دعي صالح إلى القصر الرئاسي بعد حرب الخليج للقاء صدام وطلب منه أن يؤسس شبكة دولية لكسر العقوبات. «وكان من المستحيل بالنسبة لي أن أرفض»، أكد ذلك. «واذا ما رفضت فإنهم لن يقتلوني فحسب، بل سيغتالون زوجتي وأطفالي وأصدقائي وأقربائي ـ وأي شخص له علاقة بي ولو من بعيد». وبموافقته على المهمة أسس صالح عددا من الشركات كواجهة ومن خلالها باع العراق نفطه واشترى أسلحته. وأكد بأن «الأمم المتحدة لا تقدر أن تفعل أي شيء لإيقافنا». وفي النهاية اتهم صالح، شأنه شأن العديد من العراقيين الذين اتصلوا بالغرب، بتهمة التجسس وتم اعتقاله.

وأول ما عرف بأنه في ورطة كان عندما وصل إلى مكتبه في بغداد فريق من ضباط الاستخبارات. «أخبروني "صدام حسين قد أمر شخصيا باعتقالك والتحقيق معك"». عُصبت عيناه ونُقل بسيارة إلى مجمع القصر الرئاسي. أُخذ إلى مكان يطلقون عليه «غرفة الممتلكات»، حيث جُرّد من ملابسه وأُعطي بيجامتين منقوعتين بالدم، ورُمي في زنزانة. وفي إحدى المرات نجح في أن ينظر من تحت عصابة عينيه فشاهد أن جدران زنزانته كانت ملطخة بالدماء ووجد عليها عددا من الكتابات المقروءة مثل «اسمي فلان وسأعدم في اليوم الفلاني». ترك صالح في الزنزانة لمدة أسبوع وكان طعامه خبزاً وماء.

وأخيرا قال بأن الحرس أخذوه إلى «غرفة العمليات». اقتيد إلى الغرفة معصوب العينين وعلى الفور سمع صيحات أناس آخرين كانوا يُعذبون. «اتهموني بالتجسس وطلبوا مني أن أكتب اعترافا كاملا»، استذكر صالح. «كنت أكثر من مستعد لأطيع، لكن لم تكن لدي أي فكرة بماذا يفترض أن أعترف». ربط الحرس قدميه مع بعضهما، وعلقوه بالمقلوب، وانهالوا على جسده ضربا بالسلاسل المعدنية والأسلاك الكهربائية، حتى أصبح مضرّجا بالدماء. «اعتقدت بأنني سأموت على الفور. بيد أنهم كانوا خبراء جدا في عملهم. بمجرد أن فقدت الوعي توقفوا وأنزلوني». أُعطي بعد ذلك عشر أوراق فارغة ليكتب عليها اعترافه. وبينما كان صالح الممدد على الأرض يسترد عافيته من محنة التعذيب، أصبح قادرا على أن ينظر من تحت عصابة العينين. وكل الذي شاهده من حوله كانوا سجناء آخرين خضعوا للتعذيب على أيدي جلادي صدام. في إحدى الزوايا شاهد رجلا عاريا مدلى ببطء في وعاء ضخم فيه ماء يغلي. وفي زاوية أخرى شاهد ضحية تعرض للتعذيب بالصدمات الكهربائية على عضوه التناسلي. وضحية أخرى كان مقيدا إلى طاولة في وسط الغرفة، حيث كان الحراس يستأصلون اصبع قدمه وأظافر أصابعه. ليس مثل أكثرية الضحايا، استفاد صالح من الاتصالات «التي كان قد طورها عندما كان شخصية بارزة في النظام، ونجح في الهروب».[١٧]

والشخص البارز الآخر في عملية التهريب هو المبعد والأخ غير الشقيق لصدام، برزان، الذي كان يعيش في رفاهية، في فلّته الشبيهة بالقلعة المطلة على بحيرة جنيف، يجمع ما بين واجباته كممثل للعراق في بعثة الأمم المتحدة والعمل كممول خاص لصدام. وفي عام ١٩٩٣ قدّر بأن برزان الذي انتهز الفرصة الكاملة لعالم الصناعة المصرفية السويسرية المغلق، فسيطر على شبكة معقدة من الاستثمارات السرية بقيمة عشرين مليار دولار.[١٨] وكرول أسوشييتس، شركة المحققين الماليين ومقرها الولايات المتحدة، أحصت بأن صدام قد شفط شخصيا حوالي ٢٠٠ مليار دولار من مبيعات النفط العراقي منذ ١٩٨١، وكان قادرا على استغلال الشبكة السرية للشركات التي تأسست قبل أزمة الكويت ليتجنب عقوبات الأمم المتحدة.

وبالرغم من تجارة التهريب المربحة، فإن القليل من الفوائد ذهب لتحسين السواد الأعظم من العراقيين البسطاء. وفي الحقيقة أن الكثير من الأموال التي تبرعت بها الأمم المتحدة لمساندة العراقيين البسطاء في الأوقات العصيبة كانت تذهب مباشرة إلى صدام وزمرته الحاكمة، والمنتفعون بحق هم قوى الأمن وأسرهم. وحتى المؤن الطبية التي كانت تشحنها الأمم المتحدة كان النظام يستغلها وتنتهي مباعة في السوق السوداء

في الأردن، والأرباح كانت ترسل إلى القصر الرئاسي في بغداد. وحصة الأسد من ذلك الدخل الحقيقي كان يحصل عليها صدام من تلك النشاطات اللاشرعية المتنوعة. وصفقات الأسلحة السرية كان يتم التفاوض عليها مع بلدان متباينة كالصين، كوريا الشمالية، روسيا والدول التابعة للسد الشرقي السابق وسيبيريا. وفي منتصف التسعينيات قُدّر بأن صدام قد استعاد ٨٠٪ من أجهزة الكمبيوتر العسكرية التي دمرت في حرب الخليج. وأنفق الباقي على الطراز الحياتي الباذخ جدا للمقربين في أسرة صدام وأعضاء آخرين بارزين في النظام.

وكان عدي الأكثر فسادا وتهتكا في أفراد العائلة الحاكمة، وإلى حد بعيد يليه صهره حسين كامل المغرور وكلاهما أساءا استعمال سلطتهما بالطريقة التي يتوقعها المرء لاثنين من رجال المافيا. بيتاهما يعجان بالسجاد الفارسي الفاخر واللوازم الذهبية والتجهيزات التي نُهب معظمها من الكويت. وكان كراج عدي مليئا بـ Ferraris والموديلات الثمينة الأخرى. وكذلك كان عدي وحسين كامل متورطين بقوة في عملية التهريب الدولي المرتبطة بكل من المافيا الروسية وعصابات تهريب العقاقير الأمريكية.[١٩]

وحسب ما ذكره عباس الجنابي، الذي عمل سكرتيرا خاصا لعدي لخمسة عشر عاما قبل التجائه إلى الغرب، بأنه في منتصف التسعينيات ودون أدنى شك أصبح عدي الرجل الأكثر ثراءً في العراق، حيث قُدّرت ثروته الخاصة بمئات الملايين من الدولارات، أخفي الكثير منها في مواقع سرية في أنحاء العراق. ولم تكن لدى عدي أية شكوك حول الطريقة التي كسب بها ثروته، مثل تورطه شخصيا في إعادة بيع المساعدات الإنسانية التي حصل عليها العراق من الأمم المتحدة في السوق السوداء. وفي إحدى المناسبات غيّر ملصقات بضاعة حليب تبرعت بها اليابان لأطفال العراق الذين تنقصهم التغذية الكافية، وباعها محتفظا بالفوائد لنفسه. وثمة معونة أخرى من اسبانيا، تم التبرع بها إلى وزارة الصحة ولاقت المصير ذاته. وفي منتصف التسعينيات وسع من عمليات تهريب النفط وذلك بعقد اتفاقية تجارية بعيدة الاحتمال مع الإيرانيين. وسيطر عدي شخصيا على أسطول بوارج مقره ميناء البصرة في جنوب العراق بدفع أموال للشريك الإيراني وذلك من أجل حماية النفط عند مروره في المياه الإيرانية. وسوق عدي الآخر للأموال الضخمة كان في تهريب السجائر، والتي أدارها خلال عدد من الجولات في أوروبا وقبرص.

وبالرغم من ثروته التي لا تصدق، كان عدي يكنّ شعورا ساديا لم يسلم منه حتى

أقرب زملائه ومرشديه. وفي إحدى المناسبات في عام ١٩٩١ أزعج الجنابي عدي لاشعوريا وذلك بكتابة مقالة عن حالة الجيش العراقي. لقد سجن وعذّب. «أرسل عدي أحد حرّاسه الشخصيين إلى السجن واستخدم البلايس_الزردية لقلع أحد أسناني. بعد ذلك طواه في ورقة كلينكس وأخذه إلى عدي ليريه بأنه قد أنجز المهمة». في مناسبة أخرى شاهد الجنابي عدي وهو يعذب رجلا كان يرعى مصالحه التجارية في الأردن، يضربه بمضرب كرة البيسبول على أخمص قدميه، بعد ذلك يعلقه في مروحة سقفية وهي تدور ويجلده بسلسلة معدنية. وخلال الخمس عشرة سنة التي قضاها يعمل لصالح عدي، سجن الجنابي في إحدى عشرة مناسبة متفرقة ومن ضمنها فترة واحدة في مكتب عدي في مقر اللجنة الأولمبية العراقية.[٢٠]

ومقر اللجنة الأولمبية العراقية الرئيسي الكائن في قلب المدينة التجاري فيه السعة الكافية لإيواء ٥٢٠ معتقلا. الزنزانات تقع في الدور السفلي، ويضم أيضا زنزانات الحرمان الحسي، وهي مختومة ومصبوغة بالأحمر وذات مصابيح حمراء، وتحتوي على شق صغير وضيق لمرور الطعام. وكان السجناء يقضون هناك ثلاثة شهور في تلك الظروف. ولسنوات عديدة بقي سجن عدي في اللجنة الأولمبية سرا لا يعلمه أبوه. والكثير من أولئك الذين أوقفوا في زنزانات عدي لم ينتهكوا القانون. وكان أكثرهم من التجار وأبناء الأسر الثرية التي يراها عدي مؤاتية للاستغلال. وبكل بساطة أفتدي بعض المعتقلين لدى عدي ـ وقيل إن معدل الفدية بلغ ١٠٠ ألف دولار في عام ١٩٩٥ وسجن آخرون لإجبارهم على المشاركة في مخطط احتيالي صممه عدي. وفي إحدى الحالات كان تاجر عراقي يرتب لاستيراد شحنه من الحديد لمشروع بناء، وأودع أجور قيمة الدفع لدى أحد البنوك في بغداد ليحوّلها إلى المورّد الأجنبي. ورتب عدي أمر اختفاء المعاملات المصرفية وألقي القبض على الرجل. بعد ذلك رتب عملية نقل الوديعة إلى حسابه الخاص، وأحضر التاجر لغرض الاستجواب في اللجنة الأولمبية. وأُعطي خيارا صعبا للغاية: إما أن يدفع مرة أخرى ثمن الحديد أو يموت.[٢١]

في الوقت الذي انتعش فيه النظام، كان الشعب يكابد كثيرا. وفي عام ١٩٩٥ لم يعد هناك ماء نظيف، والطاقة الكهربائية كانت تعطى من ثلاث إلى أربع ساعات في اليوم الواحد فقط. وكمية السعرات الحرارية لكل فرد أصبحت نصف ما كانت عليه قبل الحرب. وأصبحت الجريمة واسعة الانتشار حيث سرقت في عام ١٩٩٣ لوحده ٣٦٠٠٠ سيارة. وزعمت اليونيسيف بانه في عام ١٩٩٣ مات ما بين ٨٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ طفل بسبب العقوبات الدولية. غير أن النظام لم يفعل أي شيء لمعالجة

ذلك. وأن هذا الأمر كان مناسبا لصدام لكي يجعل الناس ضعفاء وخائفين. وكانت تعطى مساعدة طبية محدودة، ولكن إلى أعضاء الحزب المفضلين فقط. وادعى عباس الجنابي بأنه في الفترة التي قضاها يعمل لصالح عدي كان النظام قادرا على شراء أي شيء يريده، ولكنه فضل إنفاق المال على الأسلحة والسيارات الفخمة للنخبة الحاكمة. وكان رد صدام الوحيد على اليأس المتزايد للعراقيين البسطاء في إطعام أنفسهم وأسرهم هو أنه أمر بقطع اليد اليمنى لمن يسرق ومن يكرر فعل الإثم تقطع رجله اليسرى من الركبة والسرقة المسلحة تنفذ عقوبة الموت بمرتكبيها. وفي الوقت نفسه تم إعدام ثلاثة ضباط برتب عالية في الجيش بأوامر من صدام بسبب تساؤلهم عن قدرات عدي العسكرية.

والجانب الأكثر أهمية في عملية كسر العقوبات الدولية هو ذلك الذي مكن صدام من مواصلة تحديه لمطالب مفتشي اليونسكوم للأسلحة. وحتى ١٩٩٥ زادت الخطة بأضعاف على ما ابتدأ به لأول مرة. وأجهزة صدام الأمنية كانت تعمل كل شيء في وسعها من أجل إعاقة عمل المفتشين، وكانت تدلي بمزاعم كاذبة بخصوص المدى الحقيقي لبرامج الأسلحة العراقية وتنسج خططا جديدة لإخفاء المادة الأكثر حساسية. وسامي صالح الذي أمضى خمس سنوات في مقره في القصر الرئاسي حيث يدير عمليات كسر العقوبات الدولية، أكد بأن صدام لم تكن لديه أية نية للإذعان لمتطلبات فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة. «ثمة صواريخ مخفية في جميع أنحاء العراق. رأيتها تخزن تحت أحواض السباحة وفي المزارع».[٢٢] وبالرغم من جميع الاستفزازات، فإن المفتشين تحت القيادة الهادئة الأعصاب لرولف اكيوس واصلوا مهمتهم الشاقة. كانوا يقدمون للعراقيين أدلة لا تقبل الجدال ويرغمونهم على تسليم المادة المخالفة للقانون. وصارع اكيوس وبعثته خطر المغامرة المستمر لصدام، حيث هدد ذات مرة بغزو الكويت ثانية، والتهديد التالي كان وحشية جديدة ضد الأكراد. ومن حين لآخر كانت المقاتلات البريطانية والأمريكية ترد على تلك التحرشات بقصف بطاريات الصواريخ العراقية المضادة للطائرات.

وبالرغم من أن صدام امتلك القدرة على أن يسبب إزعاجات كبيرة للحلفاء، إلاّ أن المخططات المتنوعة لإزاحته لم تلق نجاحاً كبيراً. وهذا قد يعود في واقع الأمر إلى أن إدارة كلينتون من خريف ١٩٩٣ فصاعدا كانت منهمكة للغاية في جهودها لحل الصراع العربي-الإسرائيلي، والذي كان يمر في واحدة من مراحله الإيجابية في السنوات التي أعقبت توقيع اتفاقيات أوسلو. وفي الوقت الذي كان فيه صدام يشكل

ازعاجا، فإنه اعتبر في واشنطن ازعاجا يتم احتواؤه، وأن أي جهد متفق عليه لإزاحته قد يقلب الموازنة الدقيقة للمفاوضات العربية_الإسرائيلية، وخاصة لأن أكثرية الفلسطينيين كانوا متعاطفين مع العراق وسيستغلون أي هجوم على صدام كفرصة لاتهام الولايات المتحدة بتحاملها على العرب.

ويقينا أن قضية صدام كانت أقل استحواذا على كلينتون مما قد كان عليه بوش. ومنذ أبريل ١٩٩١، وعندما وقّع الرئيس بوش قراره الذي يجيز الإطاحة بصدام، ارتكزت السياسة الأمريكية على أسلوب «الطريق المزدوج»: لاحتواء صدام من خلال سلسلة من العقوبات الدولية ومناطق حظر الطيران بينما كانت وكالات الاستخبارات الغربية تعمل على الإطاحة به. وفي البدء تركت إدارة كلينتون أسلوب بوش دون أي تغيير جوهري، وجدد كلينتون قرار بوش الذي يجيز الإطاحة بصدام. ومع ذلك، كان كلينتون حريصا على تفادي المواجهات وجها لوجه مع صدام، وأراد مستشاروه أن يبعدوا صدام عن الصفحات الأمامية. والعبارة التي خاطب بها أنتوني ليك Anthony Lake، مستشار كلينتون للأمن القومي، الموظفين المعنيين بالعراق كانت: «لا تعطونا راحات أكف مبللة بالعرق» ـ بمعنى، لا تثيروا أية أزمات.[٢٣] ومع ذلك ما زالت أجهزة الاستخبارات المركزية و(M-16) في بريطانيا ملتزمة تماما بمحاولاتها لتنظيم انقلاب. وفي أواخر ١٩٩٤ تركزت معظم نشاطات الاستخبارات في الملاذ الكردي الآمن في شمال العراق. وفي سبتمبر ١٩٩٤ أقامت وكالة الاستخبارات المركزية قاعدتها في فيلا حصينة في جبل صلاح الدين في الوقت الذي خلق فيه المؤتمر الوطني العراقي دولة مصغرة لنفسه، مع محطة تلفزيونية خاصة وصحيفة. وكان المؤتمر الوطني قد صاغ خطة لمهاجمة الموصل وكركوك، المدينتين الرئيسيتين في شمال العراق، ولو كتب لها النجاح، كانت ستضعف صدام بصورة جادة. وساند خطة المؤتمر الوطني إلى حد كبير الجنرال وفيق السامرائي، المدير السابق للاستخبارات العسكرية التابعة لصدام، والذي فرّ في ديسمبر ١٩٩٤ بعد أن علم من رفاقه في القصر الرئاسي بأن صدام كان يخطط لقتله.

وكان المؤتمر الوطني العراقي والسامرائي واثقين من النجاح، مع ذلك فإن واشنطن كانت قلقة، فإذا ساندت الانتفاضة الشعبية فإنها ستجد نفسها متورطة في حرب فوضوية في العراق، الأمر الذي كانت الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة في أشد الحاجة إلى تجنبه منذ نهاية عملية عاصفة الصحراء. وفي عشية الهجوم الذي خطط له المؤتمر الوطني العراقي، بعث ليك برسالة إلى فريق الاستخبارات المركزية المتمركز

في صلاح الدين آمرا إيّاهم بإبلاغ المؤتمر الوطني العراقي أن «الولايات المتحدة لن تدعم تلك العملية عسكريا أو بأية طريقة أخرى».[٢٤] والمؤتمر الوطني العراقي، الذي كانت خططه متقدمة بشكل جيد، مضى قدما في هجومه، من غير الدعم الأمريكي، وحقق نسبة من النجاح حيث تمكن من أسر المئات من العراقيين. ولكن من دون الدعم الأمريكي فإن المؤتمر الوطني العراقي الذي دعمه الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال الطالباني، كان غير قادر على تعزيز مكتسباته، وانتهى الهجوم مخلفا المنفيين العراقيين تنتابهم الخيبة الشديدة حول صدق التزام واشنطن بإسقاط صدام.

ومع ذلك، فإن التهديد المتواصل للمؤامرات والانقلابات والاجتياحات أقلق راحة بال صدام. وقد أُعلن بأنه كان يعاني من مشاكل في القلب ونتج عن ذلك نوبات من الدوار بسبب نقص الدم الذي يصل إلى الدماغ. وما زالت هناك مؤامرة أخرى كشف النقاب عنها في صيف ١٩٩٥، وهي المؤامرة التي نظمها محمد مظلوم، قائد القوة الجوية الذي حاول أن يقوم بتمرد مسلح ضد صدام. فشلت المحاولة وأُلقي القبض على مظلوم وشركائه. تم تعذيب الجميع بتقطيع أصابعهم الواحد تلو الآخر. بعد ذلك أعدموا رميا بالرصاص.[٢٥]

وفي تلك المرحلة من سيرته الطويلة طور صدام عقلية حصارية. وكان على الدوام يقود أمنه إلى نهايات مضحكة، ولكن في منتصف التسعينيات أصبح الطاغية المتقدم مختلا وظيفيا بانشغاله بذلك تقريبا. وقضى صدام معظم وقته في القصر الرئاسي والذي أصبح في التسعينيات مجمعا واسعا بمساحة ٤٨٤٠ ياردة مربعة وحيث وفر دجلة حدا طبيعيا من أحد الجوانب، بينما كانت بقية الأراضي محمية بسياج دائري مكهرب وبوجود أبراج حراسة في كل خمسين ياردة. وطريق المدخل الرئيسي كان عبر الجسر الذي قد أُعيد بناؤه بعد قصفه في الحرب. ولم يسمح للعراقيين البسطاء بأن يقتربوا من أي مكان في المجمع، تحت طائلة عقوبة السجن إذا ما اقتربوا منه من دون إذن. وعند عبور نقاط التفتيش الرئيسة، يرسل الزائرون إلى إحدى البوابات العديدة والتي صُممت خصيصا لمجاميع مختلفة :العسكريين، السياسيين، التجار. الأصدقاء المقربين والأقارب من عائلة الرئيس. وكان يحرس البوابات والقلعة نفسها عدد كبير من القوى الأمنية المختلفة، الذين كانو كما لو أنهم يحرس أحدهم الآخر بحذر شديد فيما يحمون صدام وحاشيته. إن معظم الأعمال الأمنية الأساسية كان يؤديها أعضاء موثوق بهم في الحرس الجمهوري والإجراءات الأكثر تعقيدا، مثل المراقبة الالكترونية، كانت تناط بالحرس الجمهوري الخاص. وكانت السيطرة الشاملة على

المجمع في أيدي حرس القصر الجمهوري، بينما كانت سلامة صدام وأسرته مناطة بجهاز الأمن الخاص الذي يرأسه قصي.

وكان حراس جهاز الأمن الخاص من سلك النخبة. وجُنّد معظمهم من عشيرة صدام في تكريت، ومُنحوا امتيازات أفضل من أغلب الوزراء وذلك لضمان ولائهم. وكانوا يتميزون عن الحراس الآخرين بأزيائهم الزيتونية الخضراء والحبل الأبيض القصير والبنادق الخاصة. وكانوا يعيشون مع أسرهم داخل المجمع الرئاسي في فلل فارهة. وكان لديهم نادٍ رياضي وصحي خاص بهم، ومستشفى ومدارس لأطفالهم. وكانوا يتناولون عشاءهم في مطعم المجمع حيث يقدم العاملون لهم الوجبات الغذائية. وكانوا يستلمون سيارة جديدة، من نوع مرسيدس عادة، في كل ستة أشهر. وكان معظمهم يتقاضى ضعف راتب أي وزير عراقي، وفي إجازاتهم كان يسمح لهم بصورة عامه أن يفعلوا ما يشاؤون، ما داموا يطيعون أوامر سيدهم صدام حسين. وكما علق مسؤول سابق في القصر الرئاسي قائلا «إنهم يخشون الله وحده، وإلههم هو صدام حسين. وكانوا أقوياء جدا بحيث أن الوزراء كانوا يخاطبون الواحد منهم بكلمة «سيدي» عندما كانوا يدلفون إلى القصر الرئاسي. ليس هناك أي شخص كان يأخذ حريته معهم».[٢٦]

وفي ذلك الوقت أقام صدام واحدا من أكثر الهياكل الأمنية اتساعا في التاريخ المعاصر. ومع أنه كان نادرا ما يظهر أمام الملأ، فإنه امتلك في منتصف التسعينيات ثمانية «أشباه» والذين بإمكانهم أن ينتحلوا شخصيته في المناسبات العامة، وفي بعض الأحيان كانوا يظهرون في أحداث مختلفة في ذات الوقت، محدثين مشاكل لصحافة الدولة التي كان عليها أن تعد تقارير يومية حول تطوافات صدام. وما زال الزائرون يخضعون للروتين عندما يطوفون حول بغداد لعدة ساعات في سيارات ذات نوافذ مسوّدة عندما كانوا يدعون إلى أحد دور الضيافة الخاصة بصدام. ولأنه نفسه أصبح خبيرا ضليعا في تسميم خصومه، فإنه ليس من المستغرب أن يهتم صدام كثيرا بأن يضمن أنه لن يصبح ضحية. وقبل مقابلته لأي عضو في حكومته، كان صدام يصر عليهم بأن يغسلوا أيديهم أولا، كإجراء احترازي ضد احتمالية أن يمتلكوا سما على أصابعهم والذي يمكن أن يحكّونه بيده عند المصافحة. وفي إجراءات الأمن ليس هناك إهانة يستثنى منها ضيوف صدام. فجميعهم تؤخذ صورهم الشخصية وبصمات أصابعهم، وجهاز الأمن الخاص له الحق بأن يجرّد_لغرض التفتيش_أعضاء مجلس الوزراء من ملابسهم قبل أي اجتماع بصدام. وحتى طارق عزيز وهو أحد الملاصقين المؤتمنين لصدام، لم يستثن من مثل ذلك الاذلال. وفي مناسبات نادرة يتعرض

الضيوف لفحص طبي متطفل ليتفحصوا بأنهم لم يكونوا قد أخفوا سما أو متفجرات في مناطق خاصة من أجسادهم. وحتى تلك التدابير الاحترازية المحكمة لم تسطع أن تمنع الهفوات العرضية للأمن. وفي عام ١٩٩٦ تخلص صدام وبشق الأنفس من محاولة اغتيال عندما كان من المفترض أن تقدم له عاملة شابة في القصر الرئاسي طعاما مسموما، بيد أنها غلب عليها الخوف فاعترفت. أمر صدام بأخذها على الفور خارج قاعة العشاء وأطلقت عليها النار. وجميع شركائها عذّبوا وأعدموا.(٢٧)

وفي أوقات إجازاتهم كان الحراس يرعبون السكان المحليين، ونقلت الإشاعات عن سلوكهم المخنث والفاجر. وشوهد أحد قادة الحرس ذات أمسية في ناد ليلي وهو يحاول أن يجتذب اهتمام صديقة قديمة. ولما رفضت عروضه، سحب مسدسا وأطلق عليها خمس رصاصات في الصدر. وقيل بأنهم كانوا يجلبون النساء لغرض الزنا لصدام الذي لم يزل لديه وبالرغم من زواجه الثاني من سميرة الشابندر، ميل للنساء الشابات الشقراوات. ومثلا قد تجذب صدام امرأة شاهدها في التلفزيون. كان يأمر رجال حرسه الخاص أن يجلبوها له. وعندما ينتهي منها، كان يخبر الحرس بأن يدفعوا لها مبلغا معتبرا من المال. ولكن ولسبب ما إذا لم تعجبه تلك المرأة، فستؤخذ إلى الخارج وتطلق عليها النار.(٢٨)

بالرغم من كل تلك التدابير الأمنية، اعتمد صدام على عدد من الوسطاء في استحضار الأرواح لإنذاره من أي سوء طالع وشيك. وبلا شك أنه ورث طبيعته الخرافية من أمه التي كانت تستعمل مجموعة من محار البحر لتبيع النبوءات على فلاحي العوجة. واستفاد صدام بشكل خاص من امرأة عجوز عمياء تستحضر الأرواح وقد أولاها اهتماما خاصا في أوقات الأزمات. وقد تنبأت ذات مرة بأنه سيكون ضحية لمحاولة اغتيال ـ ليست بحد ذاتها نبوءة قابلة للمناقشة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تكرار ما تعرض له من هجومات ـ وبعد ذلك وثق صدام بحكمها.

وأولئك الذين زاروا القصر بانتظام، مثل سامي صالح، أكدوا على أنه كان هناك على الدوام أجواء توتر حول المكان الذي يتواجد فيه صدام ـ حيث لا يعرف أي شخص بذلك، ولا حتى أغلبية الحراس في جهاز الأمن الخاص. ومعظم الوقت كان يعمل في بناية صغيرة في زاوية مغلقة في المجمع الرئاسي، وعدد قليل جدا من الموظفين من كان يغامر في الدخول إلى حرمه الداخلي. والزائرون من علية القوم كانوا يستقبلون في القصر الرئاسي القديم، والذين كان صدام يثق بهم جدا يسمح لهم وحدهم بالدخول إلى مكتبه الخاص. والمدخل إلى صدام كان يسيطر عليه بقوة عبد

حمود، سكرتيره الخاص، الذي شغل بناية منفصلة مقابلة لمسكنه الخاص. وأي من المكاتب التي اعتاد صدام أن يستقبل فيها زائريه كان مجهزا بكاميرات ومسجلات. وكانت اللقاءات تأخذ شكل المقابلة الرسمية الملكية، ويفترض من الضيوف أن يتكلموا بعدما يبدأ هو بالحديث وأن يجعلوا أجوبتهم دقيقة. ومع أن صدام امتلك مسكنا للمنام في المجمع إلا أنه كان نادرا ما ينام هناك. وفي بغداد لوحدها كان هناك على الأقل خمسة قصور أخرى تتسع لبطانته وكان يتنقل من قصر إلى آخر بانتظام لكي لا يعثر عليه. وفي تلك المناسبات التي كان يغادر بها صدام القصر الرئاسي، كان يمر سريعا عدد من المواكب-الطعم، ليس أقل من خمسة، فوق الجسر الرئيس في بغداد. ولم يكن صدام في أي من تلك المواكب، ولكن من المحتمل جدا أن يكون قد غادر من مخرج آخر، أو من أحد الأنفاق السرية المرتبطة بالمخبأ الرئاسي المحصن.

ونقطة الضعف الوحيدة في ترتيبات صدام الأمنية التي تفتقر إلى الفاعلية تكمن هي في السيطرة على نشاطات أسرته. وفي منتصف التسعينيات كانت أعمال عدي، بصورة خاصة، سببا في الكثير من الخلافات. لقد حوّل اللجنة الأولمبية إلى اقطاعية شخصية تابعة له، ومن خلال السيطرة على الكثير من القدرات الإعلامية، قد أصبح لديه مدخل غير محدود إلى أحد المقومات الرئيسة للنظام، أي الماكنة الدعائية. إن تجاهل عدي الكلي لمؤسسات النظام خلق خلافا مع وطبان، عمه والأخ غير الشقيق لصدام الذي أشرف على وزارة الداخلية، ومع حسين كامل، الذي لاحظ بأن موقعه كخليفة محتمل لصدام أخذ في التآكل بواسطة كسب عدي للثروة والنفوذ، وإلى حد أقل بواسطة بروز قصي كتأثير أكثر رصانة على الدولة. وطفح الكيل في العرف التكريتي الحقيقي في ربيع ١٩٩٥ عندما أرغم عدي وطبان على الاستقالة عبر إطلاق سلسلة من مقالات الذم والقدح خص بها الأخير في صحيفته، بابل. وبعد أيام قليلة، هاجم عدي الثمل المهتاج، عمه وأطلق النار على رجله وقتل ثلاثة من أصحابه من الذين كانوا يحضرون حفلة خاصة في بغداد. ووطبان الذي خشي على حياته زعم بأن إطلاق النار قد كان حادثا، ومع ذلك فإن إصاباته تطلبت أن تبتر رجله. واعتقد حسين كامل وشقيقه الأصغر صدام كامل، بأنهما القادمان في قائمة عدي، ففرا إلى الأردن طالبين اللجوء برفقة زوجتيهما، ابنتي صدام رغد ورنا.

وربما كان ارتداد صهري صدام في أغسطس ١٩٩٥ الضربة المدمرة جدا التي وجهت له منذ استلامه للسلطة في ١٩٧٩ ولأول مرة كان قد تسرب اثنان من أعضاء الدائرة التكريتية الحاكمة من سلطة صدام وأصبحا يهددان بإفشاء أسرار النظام

الجوهرية. وحسين كامل، بوصفه رئيسا لبرنامج الحصول على الأسلحة العراقية، كان على وجه الخصوص مهيأً تماما لتزويد الاستخبارات الغربية بكنز نفيس من التفاصيل الخاصة ببرنامج صدام لأسلحة الدمار الشامل. وأخذت الاستخبارات المركزية الأمريكية و(M 16) البريطانية المعلومات كاملة من حسين كامل، وبعد ذلك من رولف اكيوس، رئيس فريق اليونسكوم. وجهز تقريرا مفصلا عن برنامج الأسلحة العراقية، بما في ذلك مصانع الأسلحة الكيمياوية المختفية حتى الآن وشركات الصدارة «الواجهة» المساهمة باستجلاب الأسلحة العراقية وبرنامج غاز الأعصاب VX التابع لصدام. وكان أبرز ما كشفه حسين كامل هو أن صدام كان على وشك اختبار القنبلة الذرية في غضون ثلاثة أشهر عند بدء عملية عاصفة الصحراء في يناير ١٩٩١

وتوقع حسين كامل كليا أنه سُيمنح حق اللجوء في الولايات المتحدة أو بريطانيا، والتي سينطلق منها بحملته لإسقاط صدام. ولهذا الهدف وافق على إجراء مقابلة شاملة مع مجلة التايم أكد فيها بأن «مصالح البلد» هي التي حفزته على الانشقاق. وقد انتقد نظام صدام بشدة. لقد أمضى البلد خمسة عشر عاما في الحرب وتراكمت عليه الديون وذلك الأمر سيأخذ «أجيالا وأجيالا» لغرض تسديدها. وحاول أيضا أن ينأى بنفسه عن وحشية النظام. «ثمة إعدامات كثيرة جدا في مجتمعنا، وهناك اعتقالات كثيرة أيضا»، طرح ذلك متذمرا. «ومهما كان عمر المنتقد [للنظام] - سواء ثمانين أو خمسة عشر عاما - فإن الكثير من الناس قد أعدموا».[٢٩]

وكان صدام حانقا للغاية بسبب انشقاق صهريه وبقي لفترة عاجزا عن الأكل وكان يرفض أن يتحدث لأي من رفاقه المقربين. وأخيرا وعندما بدأ يهدأ، دعا عدي الذي اعتقد بأنه يتحمل المسؤوليه الأساسية لتلك الارتدادات، وجرّده من كافة مناصبه. واقتحمت قوى صدام الأمنية مقر اللجنة الأولمبية العراقية وأطلقت سراح جميع المعتقلين في سجن عدي الخاص. وأصبح صدام مرغما على تجديد انصياعاته لليونسكوم، بما في ذلك تقديم معلومات جديدة عن الأسلحة البيولوجية كالجمرة الخبيثة والغازات السامة وغاز الأعصاب VX، ومعلومات جديدة عن محاولات العراق على الحصول على أسلحة نووية. وسمح لليونسكوم بدخول العراق ثانية واستأنف اكيوس عمليات التفتيش، وفي هذه المرة كان مسلحا بدليل لا غبار عليه حول البنى التحتية للأسلحة العراقية غير التقليدية.

وتحرك صدام بسرعة ليظهر أنه ما زال رجل بغداد القوي، بالرغم من إطلاق النار على أخيه غير الشقيق وطبان وارتداد صهريه. وأعلن بأن هناك استفتاء سيقام في

الخامس عشر من شهر اكتوبر، سيصوت به ثمانية ملايين عراقي بإجابتهم على السؤال: «هل توافقون بأن صدام حسين يجب أن يكون رئيسا للعراق؟» ورغم كل ذلك صبغ شعره وترك المشاكل جانبا، وما زال صدام يُقدَّم إلى الشعب العراقي كزعيم بطل وحاسم. وعلي حسن المجيد، ابن عمه ووزير دفاعه، كان رائدا لحملة المبتهجين. «أيها الجبل الشامخ! يا نصر الله!» قال المجيد ذلك في الإذاعة الرسمية. «والله نحن نجدك دائما في الملمّات كالليث الغاضب والفارس الشجاع، وواحدا من القليل من الرجال الرجال». (٣٠) وفاز صدام بالاستفتاء بنسبة ٩٩,٩٦٪ من أصوات الناخبين. وأدى المجيد خدمة أخرى لصدام وذلك بإطلاق إدانة عامة لولدي أخيه المرتدين في الأردن. «إن هذه العائلة الصغيرة في العراق تشجب ذلك الفعل الجبان»، أكد البيان الذي بُث حيّاً من على شاشة التلفزيون العراقي. «وعائلته [المجيد] قررت بالإجماع الموافقة على إهدار الدم». (٣١)

وإذا كان حسين كامل قد توقع أن يرحب به كبطل في الغرب بسبب ارتداده، فإنه أُصيب بخيبة كبيرة. وكان ضباط الاستخبارات الغربية جاهزين لاستخلاص المعلومات منه ومن أخيه، لكنهم ليس لديهم الرغبة في إدامة العلاقة. كما أنه لا يصلح كبديل فهو في نظرهم شخص مغرور ومتكبر وكان مرتبطا بقوة بنظام صدام. وبالرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يتمنون ذهاب صدام، غير أنهم كانوا لا يريدونه أن يُستبدل بنسخة طبق الأصل. (٣٢) وفي نهاية العام اقتصر وجود حسين كامل وصدام كامل وبنات صدام وحاشيتهم على أحد دور ضيافة الملك حسين في عمّان، وجميع مفاتحاتهم بالحصول على ملاذ آمن في الغرب قوبلت بصمت مجلجل.

وبإدراكه للفرصة التي ينتقم بها لنفسه من صهريه الهاربين، قام صدام بالاتصال بهما بواسطة عملائه في الأردن. وشخصيا قام باتصال هاتفي مع صهريه في ملجئهما في عمان، حيث عرض عليهما عفوا رئاسيا إذا ما رجعوا. وفضلا عن الإحراج الذي سببه كشفهما لبرنامج الأسلحة، فإن شرف صدام كأب للعائلة قد تعرض للشبهة وذلك بخطف ابنتيه كما بدا لأنظار العرب. ومنح صدام الفرصة لعدي ليبرّ بوعده بإقناع العائلتين على العودة إلى بغداد بإغرائهما بعرض العفو الرئاسي. وخاب ظنهم بالاستقبال الذي قوبلوا به، وبخيلاء اعتقدوا بأنهم قد علموا صدام درسا، وفي فبراير ١٩٩٦ وافق حسين كامل وصدام كامل على العودة إلى الوطن مع عائلتيهما. ولمرة واحدة احتج صدام كامل على قرار أخيه المتغطرس بقوله «أنت حمار. تريدنا أن نعود لنموت». وردّ حسين كامل بسحب مسدسه قائلا «سوف تعود».

وانطلق الموكب برحلة إلى بغداد في صبيحة اليوم العشرين من شهر فبراير. وحالما عبروا حدود طريبيل التقى بهم عدي وحراسه. ولم تنفذ محاولة اعتقال الأخوين كامل، لكن عدي أخذ أختيه رغد ورنا وأطفالهما في موكبه. وعند وصولهم إلى بغداد استدعي الأخوان إلى القصر الرئاسي. أُجبر الأخوان على توقيع أوراق تجيز الطلاق من زوجتيهما فورا. ومزق صدام شخصيا شارات الرتب من بذلتيهما - كان حسين كامل فريقا، بينما كان أخوه مقدّما. بعد ذلك أرسلهما ليمكثا في فيلا أبيهما في منطقة السيدية، في ضواحي بغداد لينتظرا مصيرهما. وفي وقت آخر من ذلك المساء أرسل صدام في طلب أقارب وأصحاب الرجلين اللذين جلبا العار ليحضروا في القصر الرئاسي. وسامي صالح الذي ما زال رئيسا لعملية تهريب النفط كان أحد الحاضرين. وذكر بأن صدام كان «ثملا ومحمرّ العينين ومتوحشا. كان يلوّح ببندقيته ويطلق الشتائم». وقال صدام بأن هذين الأخوين قد جلبا العار للجميع في العراق، وخاصة عائلتهما. وأبلغهم «عليكم أن تزيحوا هذا العار. عليكم أن تمسكوا بهما وتغسلوا هذه اللطخة. تخلصوا منهما». بعد ذلك غادر صدام الغرفة مترنحا وأُخذ الضيوف إلى داخل المجمع الرئاسي، حيث استقلوا ثلاث حافلات من نوع «تويوتا». واعتقد صالح ورفاقه بأنهم سيعدمون بسبب ارتباطهم بالرجلين المنشقين.

وبدلا من ذلك نُقلوا بسيارات في ضواحي بغداد قبل الفجر. وتوقفوا بعد حوالي نصف ساعة. دخل أحد الحراس الحافلة وطلب من الجميع أن يبقوا هادئين مهددا إياهم بالموت إن لم يطيعوا. وصالح الذي عمل مع حسين كامل لعدة سنوات عرف المكان، فالحافلات قد توقفت على بعد مسافة قصيرة من الفيلا العائدة لعائلة حسين كامل. وحاصر المنزل القوات العراقية الخاصة المسلحة تسليحا ثقيلا. واستطاع صالح أن يرى العلامات المميزة للمرسيدس الفضية الخاصة بعدي في شارع جانبي. وكسر حاجز الصمت في النهاية عندما توقفت سيارة مرسيدس مضادة للرصاص أمام الفيلا. ونادى جندي يستخدم مكبر صوت على من في المنزل. «عليكم أن تستسلموا، أنتم محاصرون. أنتم لستم في خطر». وردّ من في المنزل بإطلاق النار على السيارة التي أسرعت مبتعدة. والقوات الخاصة التي كان يقودها علي حسن المجيد، عم الرجلين المرتدين، فتحت النار. واستمرت المعركة حوالي ثلاث عشرة ساعة، وصور الوقائع كاملة بفيلم مصوّر القصر الرئاسي، بينما كان عدي وقصي يراقبان تلك الوقائع وهما في أمان داخل المرسيدس المضادة للرصاص. وبالرغم من أن الأخوين كامل قد خاضا معركة شجاعة، ولكن في النهاية نفذت ذخيرتهما وقتلا برفقة أبيهما وشقيقتهما وابنها.

ولما انتهى القتال ذهب المجيد ليفحص جثة حسين كامل، وضع قدمه على رقبته وأطلق رصاصة أخيرة في رأسه. حُملت الجثث في سيارة نفايات وأُلقيت في الخارج.

وفي النهاية سار أحد قادة القوات الخاصة باتجاه الحافلات، حيث حبس شاغليها المذعورين طوال أحداث اليوم. «نأمل إنكم استمتعتم بالعرض»، قال القائد. «أريد من ذلك أن يكون درسا لكل من عرف هؤلاء الناس. العراق ليس بلدا للخونة. ليس هناك من يخون الشعب العراقي ويعيش».[٣٣] رجعت الحافلات إلى بغداد بينما رجع مصوّر صدام إلى القصر الرئاسي ليسلم شريط الفيديو الذي سجل أحداث ذلك اليوم. وأقسمت الأرملتان رغد ورنا بأن لا يكلما والدهما مرة ثانية وذهبتا برفقة أطفالهما ليعيشا مع زوجة صدام المبعدة ساجدة. وأضيف الملحق النهائي إلى تلك القصة الحزينة في فبراير ٢٠٠٠ عندما قُتلت أم حسين وصدام كامل، وهي الوحيدة التي نجت من العائلة، طعنا بالسكين وقُطّع جسدها اربا اربا في بيتها في بغداد.

* * *

إنّ المهارة التي واجه بها صدام التهديد لقيادته الذي شكله ارتداد كل من صهريه الأخوين كامل تركته في موقف أقوى من الذي كان عليه في سنوات عديدة. وبإقناع عشيرة المجيد بالقيام بعمله القذر من أجله، أظهر صدام تفوّقه على أقرانه من أبناء عشيرته التكريتيين. وبإذلاله لعدي علنا، حيث جُرّد من مناصبه الرسمية وأُرغم على تصليح ما أثاره من ارتدادات في المقام الأول، فإن صدام قد أعاد تثبيت سلطته على أسرته الشرسة. وأصبح في صيف ١٩٩٦ قادرا على تعزيز نجاحه في الداخل وذلك بإلحاق هزيمتين مهينتين بمحاولات الاستخبارات الغربية المستمرة للإطاحة به.

ومنذ تداعي هجوم المؤتمر الوطني العراقي للسيطرة على الموصل وكركوك في ربيع ١٩٩٥ فإن وكالة الاستخبارات المركزية وM 16 واصلتا الكشف عن سبل لتنفيذ انقلاب في بغداد. إنّ الجهد الأمريكي للإطاحة بصدام ازداد عقب تعيين جون م. دويتش مديرا لوكالة الاستخبارات المركزية في مارس ١٩٩٥ وبعد استعراض سجل وكالة الاستخبارات المركزية الخاص بعملية العراق حتى الآن، استنتج الفريق الجديد لإدارة دويتش أن العمل يجب أن يكون أشد إحكاما وأكثر تركيزا على الهدف الوحيد لإسقاط الزعيم العراقي. وكان دويتش أيضا تحت ضغط البيت الأبيض لتسليم النتيجة قبيل الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٩٦ [٣٤]

إنّ فشل هجوم ١٩٩٥ في كردستان جعل العلاقات متوترة ما بين المؤتمر الوطني

العراقي ووكالة الاستخبارات المركزية، إلى الحد الذي منع البيت الأبيض أحمد الجلبي من زيارة مقر الاستخبارات المركزية في لانغلي في فرجينيا. وبتوصية من الاستخبارات البريطانية أصبحت وكالة الاستخبارات المركزية تتعامل الآن مع حركة منافسة للمؤتمر الوطني العراقي، أي مع الوفاق الوطني العراقي الذي يتخذ من لندن مقرا له والذي يرأسه الدكتور أياد علاوي، البعثي السابق الذي فر من العراق بعد الاختلاف مع صدام في السبعينيات. وعلى العكس من المؤتمر الوطني العراقي، الذي كان يدير عملياته بصورة رئيسية من خارج العراق، فإن حركة الوفاق الوطني العراقي امتلكت شبكة اتصالات عالية المستوى في داخل العراق إلى حد بعيد في الجيش والمستويات العليا في البعث. وكانت حركة الوفاق الوطني العراقي على ثقة بأنها تستطيع أن ترتب لانقلاب في داخل العراق الأمر الذي أعجب كلا من الحكومتين البريطانية والأمريكية.

وجزء من خطة حركة الوفاق الوطني العراقي كان مناطا بالأبناء الثلاثة لمحمد عبدالله الشاهواني، الجنرال المتقاعد من القوات العراقية الخاصة وطيار الهليكوبتر، الذين كانوا يقيمون في بغداد وذلك بالمساهمة في تنسيق انقلاب عسكري ضد صدام. وليس كخطة الاجتياح الخاصة بالمؤتمر الوطني العراقي في عام ١٩٩٥، فإن خطة حركة الوفاق الوطني اجتذبت المساندة المتحمسة لكل من الاستخبارات المركزية وM 16. وفي بداية يناير ١٩٩٦ عُقد مؤتمر لمسؤولي استخبارات رفيعي المستوى انضم إليه ضباط الاستخبارات المركزية و M 16، والسعودية والكويت والأردن، في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، حيث تم الاتفاق به على الدعم الكامل لخطة حركة الوفاق الوطني العراقي للإطاحة بصدام. وزعم سكوت ريتر Scott Ritter، كبير مفتشي اليونسكوم بأن دعم خطة حركة الوفاق الوطني العراقي حرّكه جهاز M 16 والذي كان يريد «انقلابا سريعا وبسيطا».[٣٥] وفضلا عن المال والتجهيزات فإن حركة الوفاق الوطني العراقي زُوّدت بنظام اتصالات عبر الأقمار الصناعية، مع تكنولوجيا كاملة بمواصفات عالية المستويمن أجل إحباط المتنصتين.

ولسوء طالع حركة الوفاق الوطني العراقي، تم القبض على أحد أتباع الشاهواني في بغداد من قبل أجهزة صدام الأمنية اليقظة على الدوام، مع نظام الاتصالات السرية للغاية. وكان العراقيون حريصين على أن لا يعطوا أية اشارة حول خرقهم، وبكل سهولة كانوا يراقبون حركة الوفاق الوطني العراقي عندما أتمّت خطتها الخاصة بإسقاط صدام. وأخيراً انقضّت أجهزة صدام الأمنية في السادس والعشرين من شهر يونيو.

وأُلقي القبض على مئة وعشرين ضابطا عراقيا في الاجتياح الأول بما في ذلك بعض قادة التحرّك وأولاد الشاهواني الثلاثة. وكان المتآمرون من كافة وحدات النخبة مثل الحرس الجمهوري الخاص، وقوات طوارئ الحرس الجمهوري والجيش. وعدد من الضباط الذين ألقي القبض عليهم كانوا من وحدة الاتصالات الخاصة والسرية للغاية والتي يطلق عليها «ب ٣٢»، والتي عملت بشكل مباشر مع صدام وكانت مسؤولة عن اتصالاته الأمنية مع الوحدات العسكرية في أنحاء القطر. وقُبض على ضباط كبار في المخابرات والأجهزة الأمنية الأخرى. وحتى أن اثنين من الطباخين في القصر الرئاسي أُلقي القبض عليهما واعترفا بمؤامرة لسمّ صدام وكانت تلك جزءا من الموقف الاحتياطي لحركة الوفاق الوطني العراقي. وإجمالا تم اعتقال ثمانمائة من المشتبه بهم، وتم تعذيب الأكثرية وإعدامهم. ولم يفوّت مسؤولو الاستخبارات العراقية الفرصة في التفاخر في انتصارهم على نظرائهم في وكالة الاستخبارات المركزية والذين كانوا في الأردن ينتظرون بفارغ الصبر أخبار المحاولة الانقلابية. وفي صبيحة الاعتقالات نقل جهاز الاتصالات الذي تمت السيطرة عليه رسالة من المخابرات في بغداد إلى وكالة الاستخبارات المركزية. «لقد ألقينا القبض على جماعتكم كلهم»، أكدت الرسالة. «من الأفضل أن تعودوا إلى بلادكم».(٣٦)

وكانت محاولة حركة الوفاق الوطني العراقي لإسقاط صدام من أكثر المحاولات اتساعا واختراقا لقلب النظام. وحركة الوفاق الوطني العراقي، التي ساندها الكثيرون ممن هم في مواقع مهمة، قد كان لها بعض الأمل في النجاح لو لم يكن العراقيون قد سيطروا على جهاز الاتصالات الرئيسية. والحظوة كلها في اكتشاف الانقلاب كانت من نصيب قصي، رئيس جهاز الأمن الخاص. وكافأ صدام قصي على مثابرته وذلك بتعيينه رئيسا للجنة جديدة تضم مدراء المخابرات والأمن الخاص والاستخبارات العسكرية. وبينما أضنى عدي العار، كان نجم أخيه الأصغر في صعود متميز.

وفي أغسطس وجّه صدام ضربة مهينة أخرى لوكالة الاستخبارات المركزية عندما احتلت قواته ثانية المقاطعة الكردية التي كانت قد استخدمها في السنة الماضية المؤتمر الوطني العراقي للهجوم على كركوك والموصل. والتوترات بين الجماعات الكردية المتنافسة لكل من الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتزعمه الطالباني والحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يتزعمه مسعود البارزاني كانت قد ازدادت حدة منذ أن دعم الطالباني هجوم المؤتمر الوطني العراقي. وفي صيف ١٩٩٦ اندلع قتال جديد بين الجماعتين. وفي البداية كانت السيطرة لصالح قوات الطالباني، فطلب البارزاني

العون من صدام. وقد استجاب صدام بإرساله لوحدات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص، والتي شنت هجوما مباغتا على مواقع قوات الاتحاد الوطني الكردستاني مدمرة بذلك قوات الطالباني. وكانت عودة منتصرة إلى كردستان بالنسبة لصدام وكارثة كبيرة بالنسبة لوكالة الاستخبارات المركزية والمعارضة العراقية التي تحالفت بقوة مع الاتحاد الوطني الكردستاني. وأسرت القوات العراقية العشرات من أتباع المؤتمر الوطني العراقي من الذين كانوا يعملون تحت السيطرة المباشرة لوكالة الاستخبارات المركزية وحصلت على آلاف الوثائق التي كشفت الخطط المشتركة لكلا الجانبين. وأمر صدام بإعدام جميع العراقيين العاملين مع وكالة الاستخبارات المركزية وتم سجن بقية الناجين من أتباع المؤتمر الوطني العراقي. ودُمرت بالكامل البنى التحتية للمؤتمر الوطني العراقي في منطقة كردستان، وتوجب على الولايات المتحدة أن تقوم بترتيبات مستعجلة لإخراج أكثر من ستة آلاف عراقي مع الأكراد الذين اشتركوا في عملية المؤتمر الوطني العراقي. وبالرغم من طلب الاتحاد الوطني الكردستاني لدعم عسكري لمواجهة قوات صدام، إلا أن الرئيس كلينتون أجاز فقط سلسلة أخرى من الهجمات بصواريخ سكود ضد بغداد، والتي لم يكن لها أي تأثير على القدرة العملياتية لقوات صدام في كردستان. ولخص وليم بيري، وزير الدفاع، موقف الحكومة عندما قال: «أنا أرى بأنه يجب علينا أن لا نتورط في حرب أهلية في شمال العراق». [٣٧]

إنّ نجاح صدام في كشف المحاولة الانقلابية لحركة الوفاق الوطني العراقي وتدميره الفعال للمؤتمر الوطني العراقي في كردستان أعطى مؤشرا على نهاية جهود إدارة كلينتون وحلفائها في إسقاط صدام لما تبقى من التسعينيات. وكان تدميره للمؤتمر الوطني العراقي في كردستان بشكل خاص أمرا محرجا، وفي فترة سباق الانتخابات الرئاسية في ١٩٩٦ كانت الأفضلية الأساسية في معسكر كلينتون هي ضمان عدم جذب أية شعبية معاكسة من جرّاء فشل سياسة إسقاط صدام. إنّ (٦٠٥) من العراقيين والأكراد العاملين مع المؤتمر الوطني العراقي من الناجين مع عوائلهم تم إجلاؤهم إلى جزيرة غوام Guam البعيدة في شمال الباسيفك، حيث تم حجزهم هناك حتى انتهت الانتخابات بسلام. بعد ذلك مُنحوا الجنسية الأمريكية. إنّ كوارث ١٩٩٦ أعطت كلينتون درسا قاسيا في حدود قدرة واشنطن على مواجهة صدام، وبالنسبة لما تبقى من رئاسته فقد أبدى اهتماما ضئيلا في أمر حياكة الدسائس للإطاحة به. وعلى الرغم من أن خطوط الاتصال بقيت مؤمّنة مع جماعات المعارضة العراقية، إلا أنها كانت في

الحد الأدنى. «بعد عام ١٩٩٦ وصلت إلى حد تبادل بطاقات التهنئة بمناسبة أعياد الميلاد، ليس الا»، علّق مسؤول في المؤتمر الوطني العراقي.(٣٨)

ولما قارب عام ١٩٩٦ على الانتهاء كان لدى صدام سبب وجيه للاحتفال هو قضاؤه على صهريه الخائنين وأنه قد اختبر وبنجاح حدود قوة الولايات المتحدة وعزمها ووجدهما ناقصين. وقد وجد نظامه سبيلا للالتفاف على تأثيرات عقوبات الأمم المتحدة وأن أشد ما كان يقلقه هو السلوك الغريب لابنه الأكبر عدي. وذات مساء في ديسمبر ١٩٩٦، ولما كان عائدا من إطعام كلابه المدللة أصيب عدي إصابات بالغة إثر تعرضه لمحاولة اغتيال في وسط بغداد. أطلق المسلحون عليه ثماني إطلاقات من مسافة قريبة قبل أن يتمكنوا من الفرار حيث تركوه فاقدا للوعي. وهرع صدام إلى المستشفى لرؤية ابنه المصاب وكذلك أمه ساجدة. وكانت تلك المرة الأولى التي يجتمع فيها والدا عدي في الغرفة نفسها منذ موت عدنان خير الله في ١٩٨٩ وبالرغم من إصابة عدي البالغة، إلا أن الأطباء الكوبيين الذين قاموا بمعالجته أبلغوا صدام بأن ولده سيعيش. لم تكن هناك قلة في المشتبه بهم، وفي الأيام القليلة التالية تم استجواب ٢٠٠٠ شخص بمن في ذلك عم عدي وطبان الذي كان يستعيد عافيته من الإصابات التي تعرض لها إثر إطلاق النار عليه من عدي. وبعد ذلك نسبت عملية الاغتيال إلى جماعة تطلق على نفسها اسم «النهضة» وهم من الطبقة الوسطى من العراقيين المتدربين بإتقان حيث تأسست في عام ١٩٩١ من أجل الإطاحة بصدام.
وبعد أيام قليلة من عملية إطلاق النار دعا صدام أسرته إلى اجتماع قمة طارئ بالقرب من سرير عدي. وكان قصي وأخوا صدام غير الشقيقين وطبان وسبعاوي وعلي حسن المجيد حاضرين جميعهم عندما وجّه صدام إدانة قاسية إلى سلوكهم العام. وتم توبيخ جميع الحاضرين إما بسبب عدم الكفاءة أو الفساد. وادخر صدام عتابه الأكثر قسوة لعدي. «سلوكك يا عدي سيّئ»، كان يؤنب ولده المضروب. «ليس هناك تصرف أسوأ من تصرفك. نريد أن نعرف أي صنف من الناس أنت. هل أنت سياسي، تاجر، قائد شعب أم فتى متهتك؟ عليك أن تعلم بأنك لم تعمل أي شيء لهذا الوطن أو لهذا الشعب».(٣٩)

وشهد ربيع ١٩٩٧ تركيز طاقات صدام على القضيتين المتبقيتين من حرب الخليج وهما عقوبات الأمم المتحدة وعمليات تفتيش اليونسكوم على الأسلحة. ولما فرضت العقوبات الدولية في المقام الأول في عام ١٩٩١، اعتقد العراقيون بأنها سترفع حالما يكونوا قد وفّوا بجميع متطلبات مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة. ولكن في

بداية عام ١٩٩٧ ، وعندما توطدت إدارة كليتون الثانية في الحكم، أصبح من الواضح أن واشنطن لم تعد تعتبر العقوبات الدولية ذات علاقة مع عمليات تفتيش الأسلحة. وفي مارس ١٩٩٧ قالت مادلين أولبرايت لحشد من الحاضرين في جامعة جورج تاون في واشنطن «نحن لا نتفق مع الدول التي تناقش قضية إذا ما أوفى العراق بالتزاماته المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، على العقوبات الدولية أن ترفع». وكما ينبغي لاحظ صدام هذا التحول الجوهري في السياسة. وأصبح واضحا لديه أنه ليس هناك شيء يحصل عليه من المزيد من التعاون مع مفتشي الأمم المتحدة. وكان يعي جيدا بأن هناك حدا للمدى الذي تكون عليه واشنطن مستعدة للمضي في أعمالها العسكرية لإرغامه على الإذعان إلى اليونسكوم. وفي عام ١٩٩٧ أصبح التهديد بالقوة العسكرية مضمحلا. وإذا كانت الولايات المتحدة في أسوأ الاحتمالات قادرة على أن تلقي على صدام حفنة من صواريخ كروز، فإنه حسب بأن مصالحه ستُخدم جيدا بحماية ترسانة أسلحته غير التقليدية المطلوبة من العيون المتطفلة لمفتشي الأسلحة.

وكان الاهتمام الرئيس لليونسكوم في تلك المرحلة العصيبة هو تعقّب العناصر المتبقية من برامج الأسلحة البيولوجية وغاز الأعصاب VX وأية أنظمة للصواريخ تستخدم في إطلاقها والتي ما زال صدام يخفيها. والمهمة الأخرى التي أنيطت باليونسكوم هي التحقيق في الادعاءات بأن العراق كان قد أجرى تجارب على الأسلحة البيولوجية بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥ على سجناء موقوفين في سجن أبو غريب في أطراف بغداد، وكانت هناك مواقع دفن بشرية خارج مؤسسة سلمان باك.[٤٠] ومفتشو اليونسكوم الذين تزوّدوا بمعلومات جديدة من حسين كامل ورفاقه الهاربين أصبحوا في مجابهة أشد عندما بدأوا يتحركون في عملهم، خاصة بعد أن حل محل رولف اكيوس المثابر رئيسا لليونسكوم الدبلوماسي الاسترالي الفظ ريتشارد بتلر. ومع ذلك فإن الضغط المتزايد لليونسكوم كان يقابله موقف أكثر شجاعة لصدام. وفي إحدى المناسبات وخلال عمليات تفتيش اليونسكوم انتزع مسؤول عراقي جهاز تحكم طائرة اليونسكوم المروحية، وكانت على وشك أن تتحطم، في محاولة منه لمنع المفتشين من تصوير موقع حساس. وعتّم العراقيون آلات التصوير التي كانت من المفترض أن تقوم بمراقبة المواقع الحساسة وقاموا بنقل معدات محجوزة دون إبلاغ اليونسكوم. وأعلن صدام أن الكثير من تلك المواقع الحساسة هي إما رئاسية وإما مناطق ذات سيادة وهي معفاة من عملية التفتيش. وفي يونيو، وهو يخطب في اجتماع استثنائي لمجلس قيادة الثورة، أصدر صدام بيانا أوجز به أسلوب العراق الجديد تجاه نشاطات مفتشي

الأسلحة. «لقد تجاوب العراق ونفذ جميع القرارات ذات العلاقة. لم يكن هناك أي شيء آخر على الإطلاق. نحن نطالب بوضوح لا لبس فيه بأن ينفذ مجلس الأمن التزاماته تجاه العراق. إن التعبير الواقعي لذلك هو في احترام سيادة العراق والرفع الكلي والشامل للحصار المفروض على العراق».[41]

واشتدت إعاقة صدام لنشاطات المفتشين تبعا لجدل العراقيين، وتبرير ذلك هو أنّ اليونسكوم قد تم اختراقها من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ووكالات الاستخبارات الغربية الأخرى.[42] وفي أكتوبر أعلن طارق عزيز أنه لن يسمح لمعظم الأمريكيين الدخول العراق للعمل في فرق التفتيش، وبعد أيام قليلة تم طرد ما تبقى منهم. وردّت إدارة كلينتون بالتهديد بضرب العراق، وفي تلك المناسبة قرر صدام التنازل عن مطلبه، بالرغم من أنه ليس قبل المغامرة قد بدا واضحا بأنه باستثناء بريطانيا، فإن الولايات المتحدة قد حصلت على دعم دولي ضئيل لاستئناف العمل العسكري ضد بغداد. وحتى الرئيس الروسي بوريس يلتسن زعم بأن العمل العسكري المشترك الذي تقوده الولايات المتحدة وبريطانيا ضد العراق سيسبب حربا عالمية ثالثة. وفي تلك الأثناء دعا صدام الصحافة الأجنبية إلى بغداد لنقل التقارير عن النتائج المدمرة في العراق والتي نجمت عن سبع سنوات من العقوبات الدولية التي فرضتها الأمم المتحدة. والتقارير الصادرة، حول مستشفيات بلا أدوية ومدارس بلا كتب وأمهات بلا طعام كما ينبغي، ظهرت في وسائل الإعلام الغربية وتركت تأثيرا عميقا على الرأي العام. وبالمقابل كانت هناك تغطية أقل بخصوص الطريقة التي كان النظام يجني بها مليارات الدولارات من أعمال كسر العقوبات الدولية، أو حول الطريقة التي كانت تباع بها المساعدات الغذائية والدوائية في السوق السوداء بواسطة شبكة التهريب غير الشرعية التابعة لعدي.

والجهد الأخير الذي بذل من أجل نزع فتيل أزمة اليونسكوم بالدبلوماسية كانَ عندما زار كوفي عنان بغداد لإجراء محادثات مع صدام في فبراير ١٩٩٨ والقضايا الرئيسة على جدول النقاش هي مطلب بتلر بالسماح للمفتشين بزيارة ما يسمى «بالمواقع الرئاسية» حيث علم بأن الكثير من المعدات المحرّمة كانت تُخفى هناك. وكان صدام قد عارض مثل ذلك المطلب والذي زعم بأنه يسيئ إلى شرف الرئاسة. ومن ناحية أخرى، كان العراقيون يريدون أن يعلموا تحديدا الوقت الذي تنوي فيه الأمم المتحدة رفع العقوبات الدولية. ووصل عنان إلى بغداد في العشرين من فبراير والتقى بصدام وجها لوجه بعد أيام قليلة. ومثل جميع الزائرين، لم تكن لدى عنان أية

فكرة إلى أين كان يذهب عندما استقلّ السيارة الحكومية التي أقلته إلى مكان اللقاء. وكان قد أُخذ إلى قصر جديد كان صدام قد بناه في بغداد منذ حرب الخليج، حيث وجد صدام مسترخيا وواثقا وكان يرتدي بذلة زرقاء وربطة عنق أنيقة وحذاء جلدي أسود وملمّع. وبدأ عنان يكيل المديح إلى صدام. «أنت بانٍ، أنت بنيت عراقا عصريا. لقد دمّر، وأعدت بناءه. هل تريد أن تدمره مرة أخرى؟» كان صدام يصغي باهتمام إلى ما كان يقوله عنان، وعند إحدى النقاط أظهر دفتر ملاحظات أصفر ليدون ملاحظاته حول نقاط عنان. وبعد ثلاث ساعات من المناقشات بدأ الرجلان يعملان على صيغة لحل الأزمة. واعترض صدام على المفردة الخاصة بعمليات «التفتيش» ذات العلاقة بالمواقع الرئاسية وأراد استبدالها بكلمة «زيارات». وأكد عنان أن تفضيل صدام كان غامضا جدا. وأجاب صدام «حسنا، هم يستطيعون الدخول»، وعلى هذا الأساس أعدّ عنان مسودة لصياغة فكرة «المواد المدرجة الأولى واللاحقة لتنفيذ المهام الموكلة رسميا». ووافق صدام على النص المعدّل، ومقابل ذلك فهم بأن عنان قد التزم برفع العقوبات الدولية إذا ما امتثل العراق إلى جولة جديدة من عمليات التفتيش. وعند توديعه لعنان قال صدام «أود أن أشكرك على مجيئك إلى بغداد شخصيا. عليك أن تشعر بحرية لتأتي إلى هنا. بإمكانك أن تأتي لقضاء الإجازة إذا كان هذا لا يسبّب لك إحراجاً».(٤٣)

وبالرغم من أن مهمة عنان كانت ناجحة في نزع فتيل الأزمة الحالية، فإنها على المدى البعيد أعطت مؤشرا للنهاية بالنسبة لليونسكوم. وأكد تدخّل عنان على أن اليونسكوم لم تعد المحاور الوحيد مع العراق حول قضايا الأسلحة، وكما علم صدام بأن باستطاعته أن يحتكم إلى ما هو أعلى من بتلر. وقد استحوذ عنان على سلطة بتلر والأعضاء المشاكسين في مجلس الأمن، الأمر الذي استغله صدام بسرعة. وعقب مهمة عنان، حاولت الولايات المتحدة أن تتراجع عن مواجهتها لصدام لأن إدارة كلينتون أدركت بأنه، فضلا عن ضرب بغداد، كان هناك القليل الذي تستطيع فعله لفرض قرارات الأمم المتحدة. وبدلا عن كشف عجز الموقف الغربي بما يتعلق بالعراق، فإن واشنطن ضغطت على الأمم المتحدة بأن تكون أقل مواجهة في أسلوبها حيال عمليات التفتيش. وبتلر بدوره أمر سكوت ريتر، كبير المفتشين في فريق الأمم المتحدة في بغداد، بالدعوة إلى توقف عمليات التفتيش، مما سبب أخيرا بتقديم ريتر استقالته محتجا، وشاكيا من تدخل المسؤولين في لندن وواشنطن في عمله. وقبل مغادرته، كشف ريتر أن صدام كان يمتلك ثلاثة رؤوس نووية ستكون جاهزة

للاستعمال حالما يكون صدام قد وضع يده على المادة الانشطارية الضرورية (اليورانيوم ٢٣٥ أو البلوتنيوم). وأيضا دمر ريتر مصداقية اليونسكوم بشدة لما كشف أنه قد عمل إلى حد كبير مع الاستخبارات الإسرائيلية لفترة السبع سنوات التي تولى به هذا المنصب الذي كلّف للعمل به مع فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة التي يفترض أن تكون مستقلة.

وفي أغسطس أثار صدام نزاعا آخر مع واشنطن بمطالبته بنهاية سريعة لمهمة اليونسكوم وتهديده بالرد الجاد إذا لم ترفع العقوبات. وفي أكتوبر صوّت الكونغرس الأمريكي الذي يسيطر عليه الجمهوريون، والذي كان قلقا حول إعراض الرئيس كلينتون عن مواجهة صدام، صوّت لصالح قانون تحرير العراق وذلك في الأول من أكتوبر، والذي خصص فيه ٩٧ مليون دولار لجماعات المعارضة العراقية التي تعمل على إسقاط صدام. وفي نوفمبر أعقب صدام ذلك بتعليقه كافة أشكال التعاون مع برنامج المراقبة الخاص باليونسكوم. سُحب المفتشون واستعدت كل من بريطانيا وأمريكا لضرب العراق وفي اللحظة الأخيرة سمح صدام بعودة المفتشين. واصل بتلر عمليات التفتيش بيد أن العراقيين كانوا يعيقون عمله مما اضطره إلى تقديم تقرير مفاده أن صدام لم يقم بالتزاماته تجاه الأمم المتحدة. وفي ذلك الوقت استنتج عنان أن كل من كلينتون وصدام كانا عازمين على إثارة الهجوم الذي طال انتظاره. وبشكل خاص كان التوقيت يلائم كلينتون الذي كان يبحث إلى أقصى حد عن هجوم مضلّل ليبعد الأنظار عن وقائع دعوى الاتهام الموجهة ضده والتي كانت قد بدأت في واشنطن.

وفي السابع عشر من ديسمبر شنت الطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية عملية ثعلب الصحراء. وبالمزيد من صواريخ كروز نفذت قوات التحالف ٤٠٠ مهمة وجهت ضد أهدف كان مفتشو الأسلحة قد مُنعوا من زيارتها. وترك الهجوم أثرا ضئيلا على صدام. وبشكل عام تمت مهاجمة سبعة وتسعين هدفا، ذكرت تقارير البنتاغون بأن تسعة منها فقط دمرت بالكامل، ولم يدمر أي من مرافق الأسلحة البيولوجية والكيمياوية الأحد عشر. وخرج صدام، كما كان قد تكهن بلا شك، سالما من حملة الهجوم التي استغرقت سبعا وعشرين ساعة، وأُعلن بأن العراق قد خرج منتصرا في تلك المنازلة. «الله كافأكم وأبهج قلوبكم بتاج النصر»، قال صدام في خطاب متلفز بث في كافة أرجاء العالم العربي. وزعم الرئيس كلينتون الانتصار أيضا بتقدير أكثر تشاؤما حيث قال: «أنا واثق بأننا قد أنجزنا مهمتنا».

والواقع أن ذلك الهجوم شكل انتصارا دبلوماسيا لصدام. أنهت عملية ثعلب

الصحراء عمليات اليونسكوم، وأصر المسؤولون العراقيون على أنه لن يكون هناك المزيد من التعاون مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة. وعلاوة على ذلك، فإن الأمر لا يشبه الإجماع الدولي الذي تزعمته أمريكا حول قضية الكويت، وبذلك فإن قرار كلينتون بشن عملية ثعلب الصحراء أثار إدانة دولية من فرنسا وروسيا والصين ومعظم العالم العربي. وبقنوط انقسم مجلس الأمن حول مستقبل اليونسكوم وقضية صدام. إلى جانب ذلك، فإن السياسة الوحيدة التي تركت للولايات المتحدة وبريطانيا، البلدان الوحيدان اللذان ما زالا يلتزمان بالكامل بإرغام نظام صدام على التقيد بالتزاماته الدولية، هي استمرار العقوبات الدولية. وحتى تلك السياسة أصبحت عرضة للانتقادات. وبالرغم من أن العقوبات الدولية قد تم تعديلها في ١٩٩٦ لتجيز اتفاقية «النفط مقابل الغذاء»، فإن هيئات الإغاثة واصلت نشر تقاريرها عن محنة أطفال العراق الذين تنقصهم التغذية. والمسح الذي قامت به اليونيسف في مارس ١٩٩٨، بعد سنة من إعطاء النتيجة المطلوبة من ترتيبات النفط مقابل الغذاء، أظهر بأن ربع الأطفال العراقيين كانوا يعانون من سوء التغذية لفترة طويلة، وحوالي واحد من عشرة كان يمر بسوء التغذية الحاد. ومع أن سياسات صدام هي الملامة في المقام الأول حول تلك الحالة المرعبة من الأوضاع، إلا أن الرأي العام في الغرب أدرك تماما أن العقوبات الدولية التي فرضتها الأمم المتحدة هي المسؤولة عن ذلك. وتعقدت مشاكل الحكومتين البريطانية والأمريكية في نهاية عام ١٩٩٨ عندما استقال دينيس هوليدي Denis Halliday، عضو جماعة الأصدقاء الايرلندية الذي عيّنته الأمم المتحدة للإشراف على برنامج النفط مقابل الغذاء، إدانة للسياسة التي زعم بأنها أدت «الى أن يموت وبلا أي مسوّغ من أربعة إلى خمسة آلاف طفل عراقي شهريا بسبب تأثير العقوبات الدولية».

وفي الوقت الذي بدأ فيه الرأي العام في الغرب بالتحول ضد التطبيق المستمر للعقوبات الدولية، بقيت قضية ترسانة صدام للأسلحة ذات الدمار الشامل دون حل. ولما انتهت عمليات تفتيش اليونسكوم في عام ١٩٩٨، لم يُبرر صدام لوسائل الإعلام التطوير المعقد لعشرين طنا ضرورية لإنتاج الأسلحة البيولوجية كالجمرة الخبيثة، إضافة إلى ٢٠٠ طن من المواد الكيمياوية التي يتكون منها إنتاج غاز الأعصاب لم تزل الأمم المتحدة لا تعرف المدى الكامل لقدرة العراق على إنتاج صواريخ بعيدة المدى. والشك القوي الذي تبقى هو أن صدام امتلك عددا من صواريخ سكود لم يتم الكشف عنها والتي يمكن أن تكون ملائمة لرؤوس الصواريخ المحملة بغاز الأعصاب أو

الجمرة الخبيثة.(٤٤) إضافة إلى ذلك فإن العراقيين، في أقل تقدير، احتفظوا بقدرتهم على مواكبة البحوث الفعالة وتطويرهم للأسلحة النووية وأنظمة الإطلاق الفعالة.(٤٥) وسكوت ريتر، المفتش السابق في فريق اليونسكوم، كان يعتقد بأن العراق لديه القدرة على صنع قنابل عديدة، والتي يمكن أن تنقل من مرفق تخزين سري إلى مرفق آخر في ناقلات معدّلة بشكل خاص. وقد أبدى صدام استعداده سلفا لاستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد المدنيين الأبرياء. والتحدي الذي واجهه الغرب هو كيفية منعه من استخدامها مستقبلا.

الخاتمة

الوثن

في الثامن والعشرين من أبريل ٢٠٠٢، اكتظّ الطريق الرئيسي المؤدي إلى تكريت بخطوط من الحافلات المتهاوية وسيارات المرسيدس ذات النوافذ السوداء. حشود من العاملين في الملاك العسكري بشواربهم الكثة، وشيوخ في ثياب متهدلة وفلاحون بسراويل رثة كانوا يحتشدون في ساحة العرض الواسعة في مركز المدينة استعدادا للاحتفالات بالذكرى الخامسة والستين لميلاذ صدام حسين القائد المنتصر، السليل المباشر للنبي، رئيس العراق، رئيس مجلس قيادة الثورة، القائد الميداني للجيوش، الدكتور في قوانين البلاد والعم العظيم لكل أبناء الشعب.

وتم تأسيس ساحة العرض لمناسبات تشبه هذه المناسبة، حيث يُمنح الشعب الفرصة النادرة للتعبير عن إخلاصه لرئيسه. وتضم منصّة حيث يجلس الضيوف المنتقون بشكل خاص في كراس عالية المساند. ولما كانت الحشود تنتظر بصبر وصول ضيف الشرف، كانت مجموعات من طالبات المدارس، بمن في ذلك من كنّ يرتدين ملابس الانتحاريين، تقوم بأداء سلسلة من الرقصات المهداة إلى صدام «نبض الحياة». وأعقب ذلك موكب طويل يتكون من عشرة آلاف جندي محلي ومن رجال الأمن. وكل مجموعة تمر من أمام منصة الاستعراض كانت تهزج «كل عام وأنت بخير، أيها الرئيس صدام حسين، يا من جلبت لنا النصر». وأخيرا اندفع موكب من سيارات المرسيدس الملساء المضادة للرصاص إلى ساحة الاحتفالات وتوقفت أمام منصّة الاستعراض. وسيطر الصمت على الحشد عندما قام حراس الأمن بمساعدة الضيف الذي طال انتظاره على مغادرة السيارة.

والمشكلة الوحيدة هي أنّ الرجل الذي خرج من سيارة الليموزين الرئاسية لم يكن صدام حسين، بل ابن عمه الفريق علي حسن المجيد، الرجل المعروف في كافة أنحاء

العراق باسم «علي الكيمياوي». وبعد ثلاثة وعشرين عاما كحاكم مطلق للعراق، بات من النادر في عام ٢٠٠٢ أن يظهر صدام نفسه أمام الملأ ولا حتى في مناسبات خاصة مثل ذكرى ميلاده. ولخشيته أن يستغل أحد أعدائه الفرصة ويقوم بمحاولة لاغتياله، فضلّ صدام أن يقتصر على الأمان الذي توفره له المخابئ الرئاسية المتعددة التي بناها في كافة أرجاء القطر. إن ظهور صدام كان في معظمه على شاشة التلفزيون، حيث كان يوجه رسالته إلى الشعب من موقع سري. وأحبط المهنئون بسبب غياب صدام، ومع ذلك فإن الحشد واصل الاحتفالات بالميلاد. ولما رفع المجيد ذراعه اليمنى مقلدا تحية صدام، هزج الحاضرون بشعاراتهم كما لو أنهم كانوا يخاطبون صدام نفسه. «بالروح بالدم نفديك يا صدام».

واستغرقت احتفالات عيد ميلاد صدام أسبوعا كاملا. وإجلالا لمعاناة الفلسطينيين الذين تعرضوا في ذلك الوقت لعملية الجدار الواقي الإسرائيلية لغرض استئصال الانتحاريين من الضفة الغربية طلب صدام من الفتيات اللواتي يرقصن الاحتفاء بضيوفه البالغ عددهم ٣٠٥ في مأدبة خاصة في بغداد لكي يبقى في البيت. «انّهم يدمرون القرى ويقتلون الشعب في فلسطين»، أوضح ذلك أحد رجال صدام. «هذا ليس بوقت للرقص».[(١)] ومع ذلك فإن صدام قد أباح لنفسه الإسراف في عرض إحدى مسرحياته في مسرح بغداد الجديد الممتاز. وزبيبة والملك هي مسرحية استندت إلى واحدة من روايتين كتبهما صدام منذ حرب الخليج. والمسرحية لها علاقة بقصة ملك وحيد يقع في غرام امرأة عفيفة من عامة الناس. ولسوء طالع الملك، فإن موضع أمنيته تغتصب في السابع عشر من يناير - وهو ذات اليوم الذي قادت فيه الولايات المتحدة التحالف الذي قام بعملية عاصفة الصحراء - ويقتلها زوجها الغيور. ويقرر الملك أن يثأر لشرف تلك المرأة، لكنه يموت في القتال. وبالرغم من أن صدام لم يحضر مهرجان الافتتاح، فإن المسرحية حظيت بترحيب جيد من الجمهور الذي لم يجد صعوبة في معرفة السمات المجازية للحبكة. فزبيبة مثلت الشعب العراقي الذي أدرك أن ملكه، صدام، كان يعمل من أجل مصالحه الفضلى، وأنه على أتم الاستعداد للتضحية بنفسه من أجل شعبه لو دعت الضرورة.

وفي ثلاثة أعوام ونصف منذ أن غادر مفتشو اليونسكوم بغداد ومنذ أن قام الرئيس كلينتون بشن ضربات جوية واسعة غير مجدية في عملية ثعلب الصحراء، فإن العراق كان قد مرّ بشيء من التحول. ولأن أكثرية العالم العربي كان يقاطع وبصراحة العقوبات الدولية التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق، فإن التجارة أخذت بالانتعاش.

وكانت هناك رحلات جوية منتظمة إلى مطار صدام الدولي في بغداد من الأردن وسوريا ولبنان، حيث كان الزائرون يلاقون بشعارات قانية مبهرجة نحو «فلتسقط أمريكا». وجميع أبنية العاصمة وجسورها وطرقها التي تم تدميرها في حرب ١٩٩١ قد أُعيد بناؤها. إنّ أرباح العملة الأجنبية المرخصة والتي أنعشها برنامج «النفط مقابل الغذاء» التابع للأمم المتحدة، الممتزجة مع الفوائد الضخمة لعمليات تهريب النفط غير الشرعية التابعة لصدام، كانت تعني بأن علامات الازدهار قد بدأت بالعودة إلى شوارع بغداد لأول مرة منذ أكثر من عشرين عاما. وفي منطقة المنصور الثرية في بغداد كانت المحلات تعج بآخر مبتكرات الموضة، وفي المناطق الأكثر فقرا كانت الأسواق مليئة بمؤن الطعام الوفيرة والأدوات الكهربائية الرخيصة المستوردة من الصين.

ولأكثر فترات التسعينيات، ولما كان العراق في صراع مع الأمم المتحدة حول قضايا نزع السلاح فإن صدام استغل ودون رحمة معاناة الشعب العراقي لإقناع الرأي العام الغربي بالتخلي عن العقوبات الدولية المتصلبة التي فرضتها الأمم المتحدة. والآن لم يعد مهتما لا بالملاحظات المتطفلة لمفتشي الأسلحة ولا بالنتائج الوخيمة لتلك العقوبات، فإن صدام قد قرر تسهيل القيود الاقتصادية في الدرجة الأولى وذلك لمنع الشعب الذي كابد طويلا من الانتفاضة ضده. فالأدوية أصبحت متوفرة على نطاق واسع، وأُعيدت الطاقة الكهربائية إلى وضعها الطبيعي، والعراقيون البسطاء بدأوا يفوقون من مظاهر الحرمان المرعبة التي كابدوها في معظم التسعينيات.

وفضلا عن انعاش الشعب العراقي، لم يزل صدام يمتلك الأموال الكافية التي جعلت من هاجس الخطط الفخمة يستحوذ عليه. بالاضافة إلى بناء القصور الكثيرة كرّس صدام الموارد الضخمة لبناء عدة جوامع عملاقة.

وأحد أكبر تلك الجوامع وأكثرها كلفة كان جامع أم المعارك في وسط بغداد والذي اكتمل بناؤه في فترة الاحتفالات بعيد ميلاد صدام في ٢٠٠١ في الذكرى العاشرة لحرب الخليج. وصممت المنائر بشكل يطابق صواريخ سكود وهي تستقر في منصات إطلاق. وكل واحدة من المنائر الأربعة ـ ترمز إلى صواريخ سكود التي أطلقها صدام على إسرائيل خلال حرب الخليج ـ بارتفاع ٤٣ مترا إشارة إلى ٤٣ يوما استغرقتها عملية عاصفة الصحراء. وكانت إحدى التحف الفنية الأكثر تميّزا في الجامع هي نسخة القرآن التي كانت قد كتبت بدم صدام. وجميع الصفحات البالغ عددها ٦٠٥ عرضت للأجيال القادمة في حقائب زجاجية. وكشف القيّم على الجامع ان صدام كان قد تبرع ب٢٤ لترا من الدم طوال ثلاثة أعوام. بعد ذلك مزج الدم بالحبر ومواد حافظة، منتجا

لونا أحمر وبنيا بمسحة زرقاء. والبركة التي تقع في أسفل إحدى المنائر احتوت على سائل موزائيكي بعمق ٢٤ قدماً والتي من المفترض أن تكون بصمة لصدام، وفي داخل تلك البصمة كانت هناك نسخة مكبّرة من توقيع صدام.(٢)

إنّ انشغال صدام بمشاريع البناء الضخمة، القصور منها والجوامع أو الأسلحة النووية، كان نتاجا لطفولته في تكريت، حيث لما كان فتى صغيرا لم تكن عائلته قادرة حتى أن تشتري له زوج حذاء وتوافق ذلك مع صورة الذات لدى صدام كشخص عملاق في التاريخ العربي. وعلى غرار صلاح الدين، قاهر الصليبيين الذي جاء أيضا كما تقول الأسطورة من تكريت، اعتقد صدام بأن مصيره سيُذكر ويُبجل كالقائد الذي أعاد العراق والعالم العربي إلى نصرهما الحقيقي. ووفقا لذلك فإن أعمدة آخر قصور صدام تُوّجت برأسه الذي يحمل قلنسوة صلاح الدين.(٣)

ولما تقدم صدام بالعمر أصبح يؤمن، كما فعل هتلر، بالعناية الإلهية. وكما كان هتلر يرفض أن يقبل نصيحة جنرالاته بأن الرايخ الثالث [الدولة النازية ١٩٣٣-١٩٤٥] مآلها الفشل، كذلك رفض صدام أن يواجه مفهوم الهزيمة، حتى بعدما كان قد تكبد الخسائر الكارثية التي ألمّت بالعراق من جراء عملية عاصفة الصحراء. وفي الوقت الذي أشرف فيه صدام على الستين من العمر أصبح أكثر ابتعادا عن الواقع من أي وقت آخر. وبلا شك فإن حركة انتقاله المتواصلة من قصر إلى آخر، وهو غير قادر أبدا أن يخبر أي أحد سلفا، ولا حتى عائلته الخاصة قد قرعت ناقوسها النفسي. وفي تلك المناسبات النادرة وعندما كان لديه الوقت للتفكير بعمق في المسار الذي اتخذته حياته، فإنه كانت تطارده، مثل ماكبث في مواجهته لشبح بانكو (Banquoe)، الصور الدموية للأصدقاء الذين اغتالهم مثل عبد الكريم الشيخلي وعدنان خير الله. ومن ثم هناك الدمار الشديد الذي ألحقه نجاحه بعائلته السعيدة_زوجة مبعدة وابنتين أرملتين، صهرين قتيلين، ولد أكبر مصاب بالذهان، ناهيك عن الاتجاهات الباثيولوجية (المرضية) لأقاربه الآخرين مثل علي حسن المجيد وإخوته غير الأشقاء برزان، وطبان وسبعاوي.

ومهما كان المكان الذي ينام فيه صدام قصرا أو وكرا، فإنه كان بحاجة إلى ساعات قليلة من النوم في الليل. وغالبا ما كان يستيقظ في الساعة الثالثة صباحا ويذهب للسباحة. وفي بلد صحراوي كالعراق يكون الماء رمزا للثروة والسلطة، وجميع قصور صدام كانت مليئة بالنافورات والمسابح والشلالات. وكان صدام يعاني من انزلاق في إحدى الفقرات، ووصف له أطباؤه السباحة والمشي لتساعداه في تخفيف تلك الحالة. وجميع مسابح صدام كانت تصان بدقة، وذلك للحفاظ على

درجة الحرارة المطلوبة وليضمن من أن الماء لم يكن مسموما. ولو أخذنا بنظر الاعتبار العدد الكبير جدا من أعداء النظام الذين سمّهم بالثاليوم، فإنه ليس من المستغرب أن يكون صدام قد امتلك خوفا عميقا من أن يُسمم. ونتيجة لذلك فإن الترتيبات الأمنية المحيطة بطعامه قد وصلت تقريبا إلى درجات سريالية. وبمعدل مرتين في الأسبوع كان يجلب له الطعام الطازج جوا إلى بغداد وبالدرجة الأولى الروبيان والجمبري والسمك واللحم الهبر ومنتجات الألبان. وقبل أن تؤخذ إلى المطابخ الرئاسية كانت الشحنات ترسل إلى فريق من العلماء النوويين الذين يقومون بفحصها شعاعيا ومختبريا للتأكد من خلوّها من الإشعاع والسم.[٤] وامتلك صدام حوالي عشرين قصرا بملاك كامل من العاملين وكانت تجهز له ثلاث وجبات غذائية يوميا حتى إذا كان غائبا.

وبالرغم من عمره بقي صدام رجلا مختالا، فنظام تمرينه اليومي صمم من أجل المحافظة على توازنه ولياقته وذلك لمعالجة ظهره المصاب. وكان صدام يرغب في أن يظهر بأفضل مظهر وقد عاد إلى لبس البدلات الأنيقة المفصلة لدى خياط خاص بدلا من الزي الأخضر الزيتوني لحزب البعث والذي كان يرتديه في معظم التسعينيات. وغيّر صدام بذلته المفصلة بعدما اقترح عليه السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان بأن البدلة الأنيقة ستحسن صورته كرجل دولة إلى درجة كبيرة. واستمر صدام بصبغ شعره باللون الأسود، ورفض أن يلبس نظارات القراءة علنا. وعندما كان يلقي خطابا كان معاونوه يطبعونه له بحروف كبيرة في أسطر صغيرة في كل صفحة. ولأن إصابة ظهره أرغمته على أن يمشي بعرج خفيف، فقد تجنب أن يرى أو يصوّر في فيلم وهو يمشي لبضع خطوات قليلة. وواصل صدام عمله لساعات طويلة كما كان يفعل منذ الأيام الأولى لثورة البعث ١٩٦٨ والاختلاف الوحيد في روتينه هو تعوّده على سرقة إغفاءات صغيرة خلال النهار. وكان على نحو مفاجئ يغادر الاجتماع، ويتوقف عن العمل في غرفة جانبية ويرجع نشيطا بعد نصف ساعة. وللتسلية كان يحب أن يقرأ، في المقام الأول، كتبا عن التاريخ العربي والعسكري أو يشاهد التلفزيون. وكان يستمتع بمشاهدة قنوات بث الأخبار كقناة الجزيرة وقناة (CNN) وقناة (BBC)، ويميل إلى مشاهدة الأشياء المثيرة في السينما المتضمنة للمكائد وعمليات الاغتيال والتآمر. وفيلم «يوم الثعلب» كان مفضلا لديه بشكل خاص.

وبالرغم من محاولاته لإدامة الصلات مع العالم الخارجي، فإن صدام أصبح أكثر عزلة من أي فترة أخرى في حياته. وانعكس ذلك في تصرفه في الاجتماعات مع موظفيه. ولما كان صدام في الماضي يدير الاجتماعات الرسمية بكفاءة على الدوام،

حيث كان يضع بنفسه رؤوس أقلام مناسبة عبر قراءة الصفحات المقدمة له تباعا، أصبحت الآن أمورا مشتتة وغير منظمة. فالاجتماعات تستمر لساعات دون الوصول إلى أي قرار مناسب. ولما كانت تنتهي كان صدام يقول لموظفيه «الرجاء أن تنقلوا تحياتي إلى أبناء الشعب لأنني لا أعتقد بأنني سأكون قادرا على الالتقاء بهم لبعض الوقت. أنا مشغول جدا في هذه الأيام».[٥] في أوائل عام ٢٠٠٢ لاحظ صدام أحد وزرائه ينظر إلى ساعته في اجتماع الوزراء. ولما انتهى الاجتماع طلب صدام من الوزير أن يتخلف عن الباقين، وبعد ذلك سأله ما إذا كان في عجلة من أمره. ولما أجاب الوزير بالنفي، وبخه صدام لإهانته بتلك الطريقة. بعد ذلك أمر بحبس الوزير في غرفة ولمدة يومين. جلس الوزير المرعوب حبيسا في غرفة المجلس متوقعا أن يُخرج في أية لحظة ويعدم رميا بالرصاص. وعندما أُخرج في النهاية اكتفى صدام بصرفه من الخدمة لا غير.

ولو أصبح صدام أكثر انضباطا، فإنه من المؤكد لم يكن لطيفا. وعند تحرره من القيود التي فرضتها اليونسكوم جدد جهوده من أجل إعادة بناء ترسانة أسلحة الدمار الشامل. وما كاد أن يهدأ الغبار من جراء حملات القصف لعملية ثعلب الصحراء اتضح بأن صدام قد وقّع صفقة أسلحة سرية في موسكو وذلك لإعادة نظام دفاعاته الجوية. وبعد أشهر قليلة ولما كان الغرب مستعدا للقيام بفعل يردع الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسيفتش من التطهير العرقي لسكان كوسوفو من الألبان، وقّع صدام حلفا سريا مع بلغراد لمساعدة الدكتاتور الصربي على النجاة من الضربات الجوية للحلفاء. وفي مارس طار إلى بغداد مجموعة من الخبراء الصرب في الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية حيث قاموا بجولة منظمة في مرافق الأسلحة غير التقليدية التابعة لصدام.[٦] وفضلا عن المساندة في المتطلبات الدفاعية الجوية لكل منهما، فإن الاستخبارات الغربية شككت في أن البلدين كانا يتعاونان في إنتاج الأسلحة غير التقليدية. والقلق من أن صدام وميلوسيفتش كانا يشتركان في تطوير الأسلحة النووية تكثف في صيف ٢٠٠٠ عندما كشف بأن ميلوسيفتش كان يمتلك مخزونا من اليورانيوم الخاص بالأسلحة وذلك لتصنيع العديد من القنابل الخام. وتلك بالتحديد هي المادة التي كان صدام بحاجة إليها ليكمل عمله في إنجاز أول قنبلة ذرية في العالم العربي.[٧] وأمر صدام أجهزته الأمنية باستئناف جهودها من أجل تعطيل نشاطات الجماعات العراقية في المنفى. إنّ قانون تحرير العراق الذي صادق عليه الكونغرس الأمريكي في ١٩٩٨، وفّر الأموال ليمكن جماعات المعارضة العراقية من رسم استراتيجية جديدة من أجل الإطاحة بنظام صدام. وحققت المحاولات لإقناع الجماعات المتصارعة لتعمل مع بعضها القدر القليل. ومع

ذلك فإن وكلاء أمن صدام عملوا ما بوسعهم لغرض تعطيل نشاطات المعارضة العراقية، وفي أغسطس كُشف النقاب عن أن صدام قد حاك مؤامرة في لندن لإرغام جنرال سابق في الجيش العراقي على اغتيال أياد علاوي، رئيس حركة الوفاق الوطني العراقي، الرأس المدبر لمحاولة الانقلاب الفاشلة في عام ١٩٩٦ وضغطت قوى صدام الأمنية على محمد علي غني، وهو قائد سابق في الحرس الجمهوري كان قد فرّ بعد انتفاضة الشيعة الفاشلة في عام ١٩٩١، باعتقال ابنته البالغة من العمر عشرين عاما والتي لم تزل تعيش في بغداد. وهدد وكلاء الأمن العراقي بتعذيب ابنة غني ما لم يقتل علاوي. وحاول غني أن يخلص نفسه من هذه الورطة بمحاولة الانتحار. نجا من المحاولة، بيد أن تلك المحنة أقنعته بأن لا يشترك بنفسه في حركة المعارضة العراقية.[٨]

إنّ محاولات صدام لتعزيز موقعه في بغداد كان يقوضها باستمرار عناد الابن الأكبر عدي. وأشارت التقارير في نهاية التسعينيات إلى أن عدي تماثل للشفاء تماما من إصاباته التي تعرض لها في محاولة الاغتيال في ١٩٩٦، على الرغم من أنه كان في الواقع مُقعدا في كرسي متحرك لأكثر الأوقات. وكان يبدو واقفا عند التقاط الصور الرسمية أو في التلفزيون، ومع ذلك فإنه كان يعود بعد ذلك إلى كرسيه المتحرك على الفور. وكان محبطا جدا نتيجة السرعة البطيئة في تماثله للشفاء، بحيث إنه ذات مساء كان سكرانا في أحد نوادي بغداد الليلية. فطلب من حراسه الشخصيين قائلا «اجلبوا لي رأس طبيبي الجراح». وكان الطبيب التعيس قد حُذّر من غضب عدي فلجأ إلى المملكة العربية السعودية.[٩] واستمرت الإشاعات بالانتشار حول نشاط عدي الجنسي بالذريعة المتكررة دائما على أنه كان عنينا. وعباس الجنابي الذي عمل سكرتيرا خاصا له لخمسة عشر عاما قبل أن يلجأ إلى بريطانيا، أكد بأن عدي استعاد شهيته الجنسية وغالبا ما كان يغوي أربع نساء في اليوم الواحد. وأحيانا تكون معجباته من الفتيات الصغيرات اللواتي تتراوح أعمارهن ما بين الثانية عشرة سنة أو أصغر.[١٠] وانعكس سلوك عدي الطائش في معاملته للمنتخب الوطني العراقي لكرة القدم. إذا خسر اللاعبون في أية مباراة مهمة أو لم يلعبوا جيدا، فإنهم كانوا يؤخذون إلى السجون في مقر اللجنة الأولمبية العراقية التابعة لعدي ويضربون هناك.[١١]

وشخص آخر من رفاق عدي، أبو زينب القريري، وهو لواء سابق في المخابرات فرّ في أوائل عام ٢٠٠١، كانت لديه تجربة خاصة عن وحشية عدي. وخلال حملة التطهير ضد الفساد التي ابتكرها صدام في عام ٢٠٠٠ كان القريري قد أرسل وبسذاجة إلى حد ما تقريرا سريا إلى صدام مفصلا الطريقة التي كان بها عدي يغش حكومة أبيه

بخطط كاذبة بملايين الدولارات. وعلى الرغم من أن صدام كان قد منح لموظفيه ضمانه الشخصي بأن أية معلومات يتلقاها سيتم التعامل معها بثقة قصوى، فإنه في المرة التالية التي شاهد بها القريري عدي عرف كل تفاصيل التقرير السري. «جلب عدي مهماز كهربائي للكز الماشية من مكان غير معلوم وضربني بين فخذيّ. ففقدت الوعي. وعندما صحوت كنت في زنزانة حمراء في سجن اللجنة الأولمبية.»(١٢)

وبقي عدي مسؤولا عن عملية تهريب النفط المربحة جدا، وفتح مسالك جديدة خلال سوريا. وفي أغسطس من عام ١٩٩٩ كان صدام محرجا بسبب فساد عدي عندما اكتشف بأن شحنة من حليب الأطفال والمؤن الطبية كانت مرسلة إلى أطفال العراق قد تم تهريبها إلى خارج العراق في واحدة من صفقات عدي التجارية المربحة. وكان على صدام أيضا أن يقاوم الغيرة المتصاعدة لدى عدي من أخيه الأصغر، قصي، والذي بسبب مسؤوليته وتفانيه الكبير، استلم وبسرعة دور خليفة أبيه بلا منازع. وسبق لعدي أن سبب صدعا في العائلة عندما جعل برزان التكريتي، عمه والأخ غير الشقيق لصدام، يذهب إلى سويسرا في نهاية ١٩٩٨ إن ارتداد برزان أثارته محاولات عدي للسيطرة على بلايين الدولارات من الأموال التي سيطر عليها برزان عن طريق عدد من الحسابات المصرفية السويسرية السرية. ومؤخرا قام صدام بترضية برزان، بيد أن عدي ردّ بتحويل اهتمامه إلى أخيه الأصغر. وطفح الكيل في نهاية عام ١٩٩٩ عندما تحمل عدي مسؤولية إعدام مسؤول استخبارات صدام وابن عمه، رافع التكريتي. وكان التكريتي رفيقا حميما لوطبان الأخ غير الشقيق لصدام، وكان يخوض حملة ضد عدي لأنه تسبب في ارتداد صهري صدام في عام ١٩٩٥ وردّ عدي باتهامه بتسريب تفاصيل صفقات الأسلحة السرية العراقية المبرمة مع موسكو، وأعدم التكريتي بتهمة الخيانة.(١٣)

ولأن العراق أُغلق فعلا على العالم الخارجي، فإن أكثرية التفاصيل المتعلقة بأعمال أسرة صدام الحاكمة كانت تأتي من العدد المتزايد للمرتدين الذين كانوا يشقون طريقهم نحو الغرب، العملية التي أخذت في الازدياد في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية في نيويورك وواشنطن. وأحد تلك التقارير الأكثر كشفا لمحاولات صدام السرية لإعادة بناء البنى التحتية للأسلحة غير التقليدية جاء عن طريق عدنان إحسان سعيد الحيدري، المهندس المدني الذي هرب من العراق في عام ١٩٩١ وفي المعلومات التي استخلصها منه عملاء الاستخبارات المركزية و أف. بي. آي، أكد الحيدري أنه عمل في المرافق السرية لإعادة تصنيع الأسلحة النووية والكيمياوية والبيولوجية في آبار سرية وفلل خاصة وحتى في مستشفى صدام حسين في بغداد.(١٤)

إنّ الحجج التي قدمها الحيدري أكدت شكوك خبراء السيطرة على الأسلحة التابعين للأمم المتحدة والذين كانوا يحاولون مراقبة نشاطات صدام منذ توقف نشاطات اليونسكوم. وفي ديسمبر ١٩٩٩ شكلت الأمم المتحدة هيئة جديدة لتحل محل اليونسكوم، لجنة المراقبة والتحقق والتفتيش التابعة للأمم المتحدة (UNMOVIC) وهي لا تشبه ما سبقها، حيث إنها تقدم تقاريرها مباشرة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة. وبسبب الأزمة حول مستقبل عقوبات الأمم المتحدة، قاوم العراق محاولات أونموفيك لتوجيه عمليات التفتيش في العراق. وقامت الأمم المتحدة بتخمين حول قدرة الأسلحة غير التقليدية استنادا إلى العمل المقدم من مفتشي اليونسكوم والتقارير التي قدمها الهاربون. حيث أشارت إلى أن تطوير صدام للأسلحة النووية قد أعيد مرة ثانية. وتشارلس دولفير، موظف سابق من الدرجة الثانية في اليونسكوم، أكد أن العلماء النوويين العراقيين المعروفين قد عادوا إلى خمسة من مواقع البحث النووي في القطر.[١٥] وامتلك صدام معدات لبناء الماكنة النووية ـ غماز السلاح الناري، أماكن آمنة للأسلحة. إلخ ـ وكل الذي كان ينقصه هو اليورانيوم المخصّب.

وفي يونيو اتهم العراق بتهريب مركبات لبناء أنظمة تخصيب اليورانيوم في رحلات إغاثة جوية بعدما أرسل إغاثة إلى سوريا لمساعدة القرويين الذين تأثروا بانهيار سد في شمال دمشق.[١٦] وأغلب التقديرات المقدمة من الخبراء النوويين الغربيين والاستخبارات استنتجت في صيف ٢٠٠٢ أن صدام، لو تُرك بمعداته، سيكون قادرا على إنتاج القنبلة الذرية في غضون خمس سنوات.

إن مستوى تطوير أسلحة صدام الكيمياوية والبيولوجية كان حتى من الصعوبة البالغة أن يقوّم. وخلال عمليات تفتيش اليونسكوم لم يعط العراق أي مبرر حول جميع الأسلحة الكيمياوية البالغ عددها ١٠٠,٠٠٠ والتي كان قد أنتجها إبّان الحرب العراقية-الإيرانية، وكانت هناك مخاوف من أن الآلاف من تلك الأسلحة المملوءة بغاز الأعصاب أو غاز الخردل قد تم إخفاؤها. وجورج تينيت Tenet، مدير وكالة الاستخبارات المركزية أخبر الكونغرس في فبراير: «أن بغداد توسع صناعتها الكيمياوية المدنية بطرق يمكن أن تحوّر بسرعة إلى إنتاج أسلحة كيمياوية».

ومن المؤكد من وجهة نظر واشنطن، أن هاجس صدام في ترسانة أسلحته غير التقليدية أصبح، في المشهد السياسي الذي تحول جوهريا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، الذريعة الرئيسة لتجديد الحرب على العراق. وكما أوضح الرئيس جورج دبليو بوش في خطاب دولة الاتحاد الذي وجهه في يناير ٢٠٠٢ قائلا بأن «الحرب على

الإرهاب» التي أُعلنت في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر قد توسعت لتشمل تلك البلدان، كالعراق، التي استمرت في مساندة وإيواء الإرهابيين وتطوير أسلحة الدمار الشامل. وحتى لو كان الدليل على جميع تلك الاتهامات غير حاسم، فإن بوش الابن ليس على استعداد لارتكاب الخطأ ذاته الذي ارتكبه بوش الأب حين أفلت صدام من الصّنارة. وفي بريطانيا والى حد بعيد وصل توني بلير إلى الاستنتاج ذاته، رغم التحفظات القوية التي عبر عنها أعضاء قياديين في حزبه - حزب العمل - وأكثرية الشخصيات السياسية الأخرى في الاتحاد الأوروبي. وفعلا كان قرار الرئيس بوش في الربيع لاستهداف صدام هو ذلك القرار الذي حظي بخطوة استثنائية في تفويض الاستخبارات المركزية شخصيا بتنفيذ عملية سرية لإسقاط صدام باستخدام القوة المدمرة إن دعت الحاجة. وفعلا أعطى بوش الضوء الأخضر للاستخبارات لاغتيال صدام.

إنّ عزم الرئيس بوش على الإطاحة بصدام أثار ردا جريئا من طاغية العراق على نحو مميز. وعلى الفور وبعد أن تسربت الأنباء حول قرار بوش الذي فوّض به اغتيال صدام، دعا الزعيم العراقي إلى اجتماع طارئ لأعضاء النظام البارزين وعُقد الاجتماع في الدور السفلي لأحد المخابئ المحصنة جيداً في مجمع القصر الرئاسي في بغداد. واستهل صدام وقائع الاجتماع بحديث طويل عشوائي أدان به بوش وأعلن بأن الموقف الأمريكي «لم يترك للعراق أي مجال لكي يتساهل في تلك القضية». ودعا الوزراء الآخرين لإبداء آرائهم. وأول المتحدثين كان علي حسن المجيد. واستهل تعليقاته مصرّحا بأن الأمريكيين هم «شعب ساذج ومتكبر». بعد ذلك ارتأى أن «ينقل العراق الحرب إلى عقر دارهم في أمريكا». وطه ياسين رمضان، نائب الرئيس المخضرم في خدمة صدام، والعضو الفعال في حزب البعث منذ الستينيات والذي ساهم في تأسيس الجيش الشعبي، ردّ بمزاج مماثل مدعيا بأن «أبطال العراق وهم بالآلاف يقدرون أن يكونوا قنابل بشرية، وهم مستعدون لتفجير أمريكا بشكل خاص». هز صدام رأسه موافقا على كلا المتحدثين، وبعد ذلك دعا قصي لمخاطبة المجتمعين. «نحن نعلم والإخوة هنا جميعهم يعلمون»، أكد قصي، «بأننا نمتلك-وبعون من الله - كافة القدرات والإمكانيات. وبإشارة بسيطة منك، نقدر أن نؤرق الأمريكين ونجلعهم يخشون الخروج إلى الشوارع. أنا فقط أطلب منك، يا سيدي، أن تمنحني إشارة صغيرة. أقسم برأسك، ياسيدي، إذا لم أحوّل ليلهم إلى نهار ونهارهم إلى جحيم متقد، سأطلب منك أن تقطع رأسي أمام إخواني الحاضرين». واصل قصي حديثه قائلا «إذا كان بن لادن هو من نفذ هجمات سبتمبر كما يدّعون إذن، وليشهد عليّ الله،

سنثبت لهم بأن ما وقع في سبتمبر هو نزهة إذا ما قورن بغضب صدام. هم لا يعرفون العراق، وقائد العراق، ورجال العراق وأطفال العراق». (١٧)

وفي السابع عشر من تموز ٢٠٠٢، وبمناسبة الذكرى الرابعة والثلاثين لثورة البعث، عبّر صدام عن مشاعره علنا حول التهديد الجديد من واشنطن عبر خطابه السنوي إلى الشعب العراقي. وبحديثه بلهجته الفلاحية المميزة بعربية غير نحوية [ملحونة] صرح صدام قائلا «يعود تموز ليقول إلى جميع المستبدين والجبابرة والأشرار في العالم: لن تكونوا قادرين على أن تتغلبوا عليّ هذه المرة والى الأبد، حتى لو حشدتم وجمعتم جميع الأشرار إلى جنبكم أيضا».

وفي محاولة شفافة إلى حد ما لإقناع الرأي العام الغربي بعدم مساندة الحرب المتجددة على العراق، دعا صدام في شهر أغسطس جورج غالوي عن الجناح اليساري لحزب العمال البريطاني إلى زيارته في أحد مخابئه الرئاسية في بغداد. وكتب غالوي بإثارة عن الكيفية التي نقل بها في بغداد في سيارات ذات نوافذ معتمة إلى أماكن مختلفة قبل أن يظهر أخيرا في مصعد نزل به في سرعة عالية إلى مخبأ صدام السري الغائر. (١٨) لقد أخذ غالوي إلى مكان بعيد جدا تحت الأرض جعل أذنيه تحدثان صوتا. وفي الاجتماع أبدى صدام عرضا لسياسة الترغيب والترهيب التي أصبحت السمة المميزة لرئاسته. فمن ناحية أبدى لغالوي بأنه على استعداد لأن يسمح للمسؤولين البريطانيين ـ بمن في ذلك رئيس الوزراء توني بلير ـ لتفتيش مواقع الأسلحة العراقية المزعومة، ومن ناحية أخرى، هدد بإنزال أفدح الخسائر بأية قوة أجنبية تغزو العراق. «اذا ما جاؤوا فنحن مستعدون» صرّح بذلك. «سنقاتلهم في الشوارع، من السطوح ومن بيت إلى بيت. إننا لن نستسلم». (١٩)

وبكل التظاهر بالشجاعة، كان صدام يعد نفسه وبلاده إلى أزمات جديدة كثيرة سيواجهها مستقبلا دون أدنى شك. ولكن مهما كان التحدي خطيرا والتهديد الذي شكله العدو قائلا فإنّ «من يواجه» سيرد بالطريقة نفسها التي عالج بها الاضطرابات التي كان قد واجهها خلال سنواته العديدة في الحكم. البقاء حيا سيكون دائما الرقم واحد في أولويات صدام.

الهوامش

تمهيد: طريد العدالة

(١) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٢) مصدر خاص.

(٣) مصدر خاص.

(٤) **وول ستريت جورنال**، ١٤ يونيو، ٢٠٠٢

(٥) لاوري ميلروي، **دراسة الانتقام** (واشنطن، دي. سي. :مطبعة أي اي آي، ٢٠٠١).

(٦) **وول ستريت جورنال**، ١٤ يونيو ٢٠٠٢

(٧) التلفزيون العراقي، ١٤ ديسمبر، ٢٠٠١

(٨) مصدر خاص.

(٩) مقتبس من **نيوزويك**، ٢٦ نوفمبر، ٢٠٠١

(١٠) **الديلي تلغراف** (لندن)، ٤ مارس، ٢٠٠٢

(١١) مقتبس من **وول ستريت جورنال**، ١٧ يونيو، ٢٠٠٢

الفصل الأول : اليتيم

(١) هناك سيرتان مجازتان، أو بالأحرى مقدستان، عن حياة صدام: الأولى كتبها أمير اسكندر، صدام حسين: **مناضلا ومفكرا وإنسانا** (باريس: هاشيت، ١٩٨١) والثانية كتبها فؤاد مطر، صدام حسين: **الإنسان، القضية والمستقبل** (لندن: مركز العالم الثالث، ١٩٨١). وهناك أيضا عمل سيرة ذاتية مستتر قليلا يتناول حياته المبكرة كتبه عبد الأمير معله، **الأيام الطويلة**، دون ناشر، دون تاريخ.

(٢) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢

(٣) حامد البياتي، **التاريخ الدموي لصدام التكريتي**، ص٢٣

(٤) جيف سيمونز، **من سومر إلى صدام** (لندن: ماكميلان، ١٩٩٤) ص٢٧١

(٥) **فانيتي فير**، أغسطس ١٩٩١

(٦) مطر، ص٢٢

(٧) صدام حسين، **الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع**، ص٢٠

(٨) مقابلة مع المؤلف، فبراير ٢٠٠٢

(٩) أفرايم كارش و ايناري راوتسي، **صدام حسين، سيرة سياسية** (لندن: براسي، ١٩٩١)، ص١٠

(١٠) اسكندر، ص١١

(١١) **فانيتي فير**، أغسطس ١٩٩١

(١٢) جون بلوتش وهارفي موريس، **حرب صدام** (لندن: فيبر و فيبر، ١٩٩١) ص٣١

(١٣) كارش و راوتسي، ص٩

(١٤) أندرو كوكبيرن و باتريك كوكبيرن، **خارج الرماد** (نيويورك: هاربركولنز، ١٩٩٩)، ص٦٢

(١٥) هـ. في. أف. وينستون، **جرس جيرترود** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٨)، ص٢٢٢

(١٦) ديفيد فرومكين، **سلام لإنهاء كل السلام** (نيويورك: آندر دويتش، ١٩٨٩)، ص٥٠٨.

(١٧) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢

(١٨) مطر، ص٣١

(١٩) كوكبيرن و كوكبيرن، ص٧١.

(٢٠) سعيد أبو ريش، **صدّام حسين: سياسة الانتقام** (لندن: بلومزبري، ٢٠٠٠)، ص٢٠

(٢١) اسكندر، ص٢٩

(٢٢) مطر، ص٢٩٢

(٢٣) مقتبس من سمير الخليل، **جمهورية الخوف** (بيركيلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٩) ص١٧

(٢٤) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١

(٢٥) هاني الفكيكي، **أوكار الهزيمة: تجربتي في حزب البعث العراقي** (لندن: منشورات رياض الريس، ١٩٩٣)، ص١٤٢

(٢٦) مطر، ص٣١.

(٢٧) شهادة فالح النصيري التكريتي، وقائع قاعة الشعب، نشرته وزارة الدفاع، ١٩٥٩، ص٤١٠.

(٢٨) كوكبيرن و كوكبيرن، ص٧١

(١) مطر، ص٣١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التقرير الكامل عن تورط صدام في محاولة الاغتيال، وهروبه اللاحق يذكره المصدر السابق، ص٣٢-٤٤.

(٤) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢

(٥) مقتبس من كتاب عادل درويش و غريغوري ألكاندر، **بابل اللامقدسة** (لندن: فكتور غولانتز، ١٩٩١)، ص١٩٧

(٦) **الإنديبندنت** (لندن)، ٣١ مارس، ١٩٩٨

(٧) الدكتور حامد البياتي، **التاريخ الدموي لصدام التكريتي** (لندن، ١٩٦٩)، ص٢٥

(٨) **الإنديبندنت** (لندن)، ٣١ مارس، ١٩٩٨

(٩) أديث بينروز و أي. أف بينروز، **العراق: العلاقات الدولية والتطور** (لندن: ايرنست بين، ١٩٧٨)، ص٣٦٢-٣٦٣.

(١٠) «أول ما التقيت بالرفيق صدام بعد ثورة رمضان ١٩٦٣». ميشيل عفلق، مقتبس في كتاب مطر، ص٢١١

(١١) إدوارد مورتايمر، «الص بغداد»، عرض الكتب في **نيويورك تايمز**، ٢٧ سبتمبر، ١٩٩٠، ص٨.

(١٢) اسكندر، ص٧٥.

(١٣) مقتبس من كوكبيرن و كوكبيرن، ص٧٣.

(١٤) مقابلة مع المؤلف، يونيو ٢٠٠٢

(١٥) **نيويورك تايمز**، ٢٤ اكتوبر، ١٩٩٠

(١٦) البياتي، ص٦٣

(١٧) سيمونز، ٢٧٤

(١٨) ثلاثة من أقرب الأصدقاء لصدام قتلوا فيما بعد -عبد الكريم الشيخلي (اغتيل في١٩٨٠)، مدحت إبراهيم جمعة (اغتيل في ١٩٨٦) و نعيم الأعظمي (قتل في أوائل الثمانينيات). والوحيد الذي بقي حيا من مجايليه هو فاروق النعيمي الذي يعيش في بغداد.

(١٩) مقتبس من أبو ريش، ص٥٤.

(٢٠) مطر، ص٤٤، اسكندر، ص٧٩.

(٢١) بلوتش وموريس، ص٥٤.

(٢٢) ماريون فاروق سلوغليت و بيتر سلوغليت، **العراق منذ ١٩٥٨** (لندن: كيغان باول العالمية، ١٩٨٧)، ص٢٨٣.

(٢٣) سمير الخليل، **جمهورية الخوف** (بيركيلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٩)، ص٥٩.

(٢٤) مقتبس من كوكبيرن وكوكبيرن، ص٧٤.

(٢٥) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢.

(٢٦) الدكتور علي كريم سعيد، **من حوار الأفكار إلى حوار الدم** (بيروت: دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩).

(٢٧) الخليل، ص٦

(٢٨) حنا بطاطو، **الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق** (برينستون، ن. جي مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧٨)، ص٩٨٥.

(٢٩) صدام مقتبس من مطر، ص٤٤.

(٣٠) أبو ريش، ص٦١

(٣١) جوديث ميلر و لاوري ميلروي، **صدام حسين والأزمة في الخليج** (نيويورك: دار راندوم، ١٩٩٠)ص٣١

(٣٢) مقابلة مع المؤلف، مارس ٢٠٠٢

(٣٣) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١

(٣٤) مقابلة مع المؤلف، اكتوبر ٢٠٠١

(٣٥) سيمونز، ص٢٧٥

(٣٦) اسكندر، ص٩٧.

(٣٧) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١

(٣٨) مطر، ص٤٥.

(٣٩) مقابلة مع المؤلف، يناير ٢٠٠٢

(٤٠) أنظر الفكيكي، ص٣٢٥. يزعم الفكيكي بأن صدام التقى مرارا بالرئيس عارف والبكر ليطلعهم على مؤامرات بعثية عديدة تسعى لإسقاطهم. وهذا يوضح سبب المعاملة الحسنة التي تلقاها صدام في السجن.

(٤١) مطر، ص٤٦؛ اسكندر، ص٨٠-٨١.

الفصل الثالث : الثوري

(١) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لوموند، ٩ اكتوبر، ١٩٦٨

(٤) مقتبس من اسكندر، ص١١٠

(٥) مطر، ص٤٦.

(٦) اسكندر، ص١١٦

(٧) مقتبس من مطر، ص٤٧.

(٨) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠٠

(٩) مطر، ص٤٧.

(١٠) أبو ريش، ص٧٩.

(١١) مقابلة مع المؤلف، يناير ٢٠٠٢

(١٢) مصدر خاص.

(١٣) مصدر خاص.

(١٤) مقابلة مع المؤلف، يناير ٢٠٠٢

(١٥) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) سلوغليت و سلوغليت، ص١١٠

(١٩) مقابلة مع المؤلف، فبراير ٢٠٠٢

(٢٠) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١.

(٢١) المصدر السابق.

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) مقتبس من بطاطو، ص١١٠٠

الفصل الرابع : المنتقم

(١) مقتبس من الخليل، ص٥٢.

(٢) بغداد دومستك سيرفس، ٢٠ مارس، ١٩٧١

(٣) مقتبس من الخليل، ص٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص٥١.

(٥) لغرض التحليل المفصل عن الجهاز الأمني في العراق انظر الخليل، الفصل الأول.

(٦) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٧) بطاطو، ص١٠٩٩

(٨) مقتبس من الخليل، ص٢٣١

(٩) ماجد قدوري، **العراق الاشتراكي** (واشنطن، دي. سي. :معهد الشرق الأوسط، ١٩٧٨)، ص٥٤.

(١٠) كارش و راوتسي، ص٤٤.

(١١) الخليل، ص٥٤.

(١٢) مقتبس من كارش و راوتسي، ص٧٥.

(١٣) جي. بلوتش، صنع الحرب: **الشرق الأوسط من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣** (لندن: لونغمان، ١٩٧٤)، ص١٣١

(١٤) بلوتش و موريس، ص٣١.

(١٥) المصدر السابق، ص٧١.

(١٦) الخليل، ص٢٩٢-٢٩٦

(١٧) **المجلة الشهرية أطلنتك**، مايو ٢٠٠٢

(١٨) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(١٩) المصدر السابق.

(٢٠) مصدر خاص.

(٢١) مقتبس من **الغارديان**، ٤ يوليو، ١٩٧٣

(٢٢) اسكندر، ص٨١.

(٢٣) مقابلة مع المؤلف، فبراير ٢٠٠٢

(٢٤) أبو ريش، ص٩٧

(٢٥) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٢٦) المصدر السابق.

(٢٧) قدوري، ص٦٥

(٢٨) وكذلك أمر كزار باعتقال أحد عشر من البعثيين البارزين، أكثرهم من أصدقاء وأقارب الرئيس الذين شعر بأنهم قد يتآمرون عليه في الثورة. المصدر السابق، ص٦٥

الفصل الخامس : باني الشعب

(١) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢

(٢) مقابلة نع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٣) المصدر السابق.

(٤) -Saddam Hussein ,Notre Combat et La Politique Internationale, collected writings of Saddam Hussein (Lausanne :n. p.1977), p. 57. مجموعة كتابات لصدام حسين.

(٥) مقتبس من مطر، ص٢٣٣

(٦) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٧) نيويورك تايمز، ٢٢ فبراير، ١٩٧٢

(٨) ليوموند، ٢٠ يونيو، ١٩٧٢

(٩) سانداي تلغراف (لندن)، ابريل، ١٩٧٣

(١٠) بغداد دومستك سيرفس، ١٧ اكتوبر، ١٩٧١

(١١) فيب مار، تاريخ العراق المعاصر (بولدر، كولو: مطبعة ويستفيو، ١٩٨٥)، ص٢٤٢

(١٢) Saddam Hussein, Propos sur les Problemes Actuels,
نص الثامن من نيسان، ١٩٧٤، مؤتمر صحفي، مجموعة كتابات، ص٩٨-٩٩

(١٣) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(١٤) مطر، ص٢٢٨-٢٢٩

(١٥) صدام حسين، أحداث معاصرة في العراق (لندن: لونغمان، ١٩٧٧)، ص٣٨.

(١٦) مقتبس من كارش و راوتسي، ص٨١.

(١٧) الايكونومست، ١٨ أكتوبر، ١٩٧٥

(١٨) مقتبس من مطر، ص٢٣١-٢٣٢

(١٩) المصدر السابق.

(٢٠) الايكونومست، ٢٤-٣٠ يونيو، ١٩٧٨

(٢١) إدوارد مورتايمر، «لص بغداد»، عرض الكتب في نيويورك تايمز، ٢٧ سبتمبر، ١٩٩٠

(٢٢) كارش و راوتسي، ص١٨٦

(٢٣) المصدر السابق، ص٨٨.

(٢٤) أفرايم كارش، الحرب العراقية-الإيرانية :تحليل عسكري، آدلفي بيبرز، العدد ٢٢٠ (لندن: المعهد الدولي للدراسات الستراتيجية، دون تاريخ)، ص١٠-١١

(٢٥) مطر، ص٢٢٩

الفصل السادس : الإرهابي

(١) دير شبيغل، ٦ أغسطس، ١٩٩٠

(٢) كينيث ر. تيمرمان، دهليز الموت :كيف سلح الغرب العراق (بوسطن :هاوتون ميفلين، ١٩٩١)، ص٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص٣٥.

(٤) مصدر خاص.

(٥) **واشنطن بوست**، ٢٥ مايو، ١٩٨٨

(٦) تيمرمان، ص٤٩-٥٠.

(٧) مطر، ص٢١٧

(٨) أبو ريش، ص١٤٠

(٩) المصدر السابق، ص١٣٩

(١٠) تيمرمان، ص٣١.

(١١) مقتبس من المصدر السابق، ص٣٢.

(١٢) خضر حمزة، **صانع قنبلة صدام** (نيويورك: سكربنر، ٢٠٠٠

(١٣) تيمرمان، ص٥٩-٦٠

(١٤) مقتبس من المصدر السابق، ص٩٢

(١٥) المصدر السابق، ص١١٦

(١٦) أ. بارام، «القومية والوطنية في العراق البعثي: البحث عن موازنة جديدة»، **دراسات الشرق الأوسط**، المجلد التاسع، العدد ٢ (أبريل ١٩٨٣)، ص١٨٨-٢٠٠

(١٧) قائمة مفصلة بالأعمال الإرهابية لأبي نضال يزودنا بها كتاب باتريك سيل الموسوم، **أبو نضال: بندقية للأجرة** (نيويورك: دار راندوم، ١٩٩٢)، ص٢٣٥-٢٤٢

(١٨) **فانيتي فير**، مايو ٢٠٠٢

(١٩) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢

(٢٠) **نيوزويك**، ١٧ يوليو، ١٩٧٨

(٢١) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٢٢) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ١٩٩٨

(٢٣) ناطق باسم دائرة الخارجية البريطانية يتحدث في زمن الطرد.

(٢٤) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٢٥) مقتبس من **الأخبار والتقرير العالمي الأمريكية**، ١٦ مايو، ١٩٧٧

(٢٦) مقتبس من سيل، ص١١٢

(٢٧) **نيويورك تايمز**، ١٢ أبريل، ١٩٧٥

(٢٨) **نيوزويك**، ١٧ يوليو، ١٩٧٨

(٢٩) مقابلة مع المؤلف، مارس ٢٠٠٢

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) مطر، ص٥١.

الفصل السابع : السيد الرئيس

(١) ملخص مواد إذاعية عالمية في الإذاعة البريطانية، ١٨ يوليو، ١٩٧٩ (م ي/ ٦١٧٠/أ/ ٢).

(٢) نيويورك تايمز، ٤ ديسمبر، ١٩٧٤

(٣) نيوزويك، ٩ مايو، ١٩٧٧

(٤) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٥) مجلة ألف باء (بغداد) ١٦ فبراير، ١٩٧٩

(٦) ملخص مواد إذاعية عالمية في الإذاعة البريطانية، ٢١ يونيو، ١٩٧٩ (م ي /٦١٤٧ /أ / ٣).

(٧) باتريك سيل، الأسد: **الصراع بسبب الشرق الأوسط** (لندن: آي. بي تاوريس، ١٩٨٨)، ص٣٥٥.

(٨) ميلر و ميلروي، ص٤٣.

(٩) مصدر خاص.

(١٠) مطر، ص٥٤.

(١١) مقابلة مع المؤلف، مارس ٢٠٠٢

(١٢) مقتطفات من الفيلم عرضت في بانوراما الإذاعة البريطانية، ١١فبراير، ١٩٩١

(١٣) كارش و راوتسي، ص١١٥

(١٤) ميلر و ميلروي، ص٤٥.

(١٥) أعضاء مجلس قيادة الثورة الخمسة الذي زعم تورطهم في المؤامرة هم محيي عبد الحسين المشهدي، محمد عايش، عدنان حسين الحمداني، محمد محجوب مهدي وغانم عبد الجليل سعودي.

(١٦) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١

(١٧) مصدر خاص.

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) حمزة، ص١١٤

(٢٠) بغداد دومستك سيرفس، ٨ أغسطس، ١٩٧٩

(٢١) وكالة الأنباء العراقية، ٨ أغسطس، ١٩٧٩

(٢٢) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١.

(٢٣) صحيفة الثورة (بغداد)، ٣ مايو، ١٩٨٠

(٢٤) الخليل، ص٣٧.

(٢٥) العفو الدولي، «العراق، دليل التعذيب»، ٢٩ أبريل، ١٩٨١، ص٦

(٢٦) العفو الدولي، «التعذيب في العراق ١٩٨٢-٨٤»، ص١٠-١١

(٢٧) اقتبسته ديبورا كوبيت، «النساء العراقيات»، في **عراق صدام: ثورة أم ردة فعل؟** (لندن: منشورات زد وكاردري [لجنة ضد الاضطهاد ومن أجل الحقوق الوطنية في العراق]، ١٩٨٩)، ص١٢٣

(٢٨) **حقوق الإنسان في العراق** (نيويورك: ميدل ايست ووتش، ١٩٩٠)، ص٢٣-٢٤

(٢٩) **العالم الجديد**، ٢ أبريل، ١٩٨١

(٣٠) علي حسن، «لمحة عن حياة مظفر النواب»، في **لائحة رقابة المطبوعات**، مارس ١٩٨١

(٣١) **السفير**، ٥ ديسمبر، ١٩٨٥

(٣٢) اسكندر، ص٤٠٠.

(٣٣) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٣٤) حسن علوي، الدولة المستعارة، ص٩٠.

(٣٥) ميخائيل رمضان، **في ظل صدام** (نيوزيلاندا: غرينزون، ١٩٩٩)، ص١٢

الفصل الثامن : الجنرال

(١) وزارة الخارجية العراقية، **الصراع العراقي-الإيراني : ملف وثائقي** (بغداد: يناير ١٩٨١)، ص٢٠٨-٢١٤

(٢) ميلر و ميلروي، ص١٠٩

(٣) مقتبس من أفرايم كارش، **الحرب الإيرانية-العراقية ١٩٨٠-١٩٨٨** (لندن: أوسبري، ٢٠٠٢)، ص٢٧

(٤) جون بلوتش و هارفي موريس، حرب **الخليج** (لندن: ميثوون، ١٩٨٩)، ص٤٧.

(٥) مقتبس من ميلر و ميلروي، ص١١٣

(٦) مقتبس من كارش، ص٦٢

(٧) المصدر السابق، ص١١٤

(٨) ملخص مواد إذاعية عالمية في الإذاعة البريطانية، ٢٢ يونيو، ١٩٨٢

(٩) ديليب هايرو، **الحرب الأطول** (لندن: بالادين، ١٩٩٠)، ص٣٥.

(١٠) المصدر السابق، ص٣٤.

(١١) مقتبس من **واشنطن بوست**، ١٨ أبريل، ١٩٨٠

(١٢) ميلر و ميلروي، ص١١٥

(١٣) عادل درويش و غريغوري الكسندر، **بابل اللامقدسة** (لندن :فيكتور غولانتس، ١٩٩١)، ص١٢٩

(١٤) بغداد دومستك سيرفس، ٢٢ يوليو، ١٩٨٠

(١٥) المصدر السابق، ١٧ يوليو، ١٩٨١

(١٦) تيمرمان، ص١٠٥

(١٧) المصدر السابق، ص١٠٦

(١٨) المصدر السابق، ص١١٢

(١٩) ملخص مواد إذاعية في الإذاعة البريطانية، ١٤ أبريل، ١٩٨٣

(٢٠) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢.

(٢١) بلوتش و موريس، ص٤٧-٤٨.

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) كارش، ص٦٧

(٢٤) م. س. الأزهري، محرر، **الحرب الإيرانية-العراقية** (لندن: كروم هيلم، ١٩٨٤)ص٥٤.

(٢٥) صاحب حكيم، **حقوق الإنسان في العراق** (لندن: ميدل ايست ووتش، ١٩٩٢)ص١٢٥

(٢٦) وول ستريت جورنال، ٢٧ أغسطس، ١٩٩٠

(٢٧) الخليل، ص٢٨

(٢٨) بلوتش و موريس، ص٧١.

الفصل التاسع : المنتصر

(١) تيمرمان، ص١١٦-١١٧

(٢) المصدر السابق، ص١١٨

(٣) أبو ريش، ص٢٣٦.

(٤) مقابلة مع المؤلف، سبتمبر ١٩٩٥

(٥) مقابلة مع المؤلف، أبريل ٢٠٠٢

(٦) وفيق السامرائي، **حطام البوابة الشرقية** (الكويت، ١٩٩٧)، ص١٥٣

(٧) مقابلة مع المؤلف، فبراير ٢٠٠٢

(٨) تلك الأرقام تؤخذ من أنتوني كورديسمان، «الحرب الإيرانية-العراقية في ١٩٨٤ :التهديد المتصاعد للخليج والغرب»، **صحيفة القوات المسلحة الدولية**، مارس ١٩٨٤، ص٢٤

(٩) صانداي تايمز (لندن)، ١١ مارس، ١٩٨٤

(١٠) مقابلة مع المؤلف، نوفمبر ٢٠٠١

(١١) مطر، ص٢٩٧

(١٢) مقابلة مع المؤلف، فبراير٢٠٠٢

(١٣) أبو ريش، ص١٨٧

(١٤) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(١٥) أنتوني كورديسمان، **الحرب الإيرانية-العراقية والأمن الغربي، ١٩٨٤-١٩٨٧** (لندن : دار نشر جين، ١٩٨٧)، ص٩٩.

(١٦) مقابلة مع المؤلف، يناير ٢٠٠٢

(١٧) تلك الحادث تعتبر بصورة عامة، ومن المؤلف بصورة خاصة، السبب الرئيسي للهجوم المدمر الذي استهدف رحلة طيران بان آم ١٠٣ فوق مدينة لوكربي الأسكتلندية في ديسمبر ١٩٨٨ والتي أودت بحياة ٢٧٠ راكبا.

(١٨) تيمرمان، ص٢٩٣

الفصل العاشر : الغازي

(١) **الإنديبندنت** (لندن)، ٣٠ أغسطس، ١٩٨٩

(٢) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢

(٣) مقابلة مع المؤلف، يونيو ٢٠٠٢

(٤) مقابلة مع المؤلف، سبتمبر ١٩٩٨

(٥) **سانداي تايمز** (لندن)، ٢٦ مارس، ١٩٨٩

(٦) كارش و راوتسي، ص١٨٤

(٧) سيمون هيندرسون، **امبراطورية عاجلة :طموح صدام حسين للعراق** (سان فرانسيسكو: دار ميركيوري، ١٩٩١)، ص٨٢.

(٨) كوكبيرن و كوكبيرن، ص١٥٥

(٩) **سانداي تايمز** (لندن)، ٢٦ مارس، ١٩٨٩

(١٠) مقابلة مع المؤلف، فبراير ١٩٩٩

(١١) مصدر خاص.

(١٢) مقابلة مع المؤلف، يونيو ٢٠٠٢

(١٣) **الغارديان** (لندن)، أبريل، ١٩٨٩

(١٤) **وول ستريت جورنال**، ١٥ فبراير، ص١٩٩١

(١٥) كارش و راوستي، ص٢٠٢

(١٦) تشارلس تريب، **تاريخ العراق** (كامبرج، المملكة المتحدة :مطبعة جامعة كامبرج، ٢٠٠٠)، ص٢٥١

(١٧) مجلة **أطلانتك الشهرية**، مايو ٢٠٠٢

(١٨) مقابلة مع المؤلف، يوليو ٢٠٠٢

(١٩) مقابلات مع المؤلف، ربيع ٢٠٠٢

(٢٠) مارغريت تاتشر، **أعوام الشارع المنحدر** (لندن :هاربركولنز، ١٩٩٣)، ص٨٢٤.

(٢١) **الأوبزيرفر** (لندن)، ٢١ اكتوبر، ١٩٩٠

(٢٢) بغداد دومستك سيرفس، ١٨ يوليو، ١٩٩٠

(٢٣) مقابلة مع المؤلف، فبراير ٢٠٠٢

(٢٤) مقابلة مع المؤلف، يوليو ٢٠٠٢

الفصل الحادي عشر : الخاسر

(١) تاتشر، ص١٨٧

(٢) بغداد دومستك سيرفس، ٨ أغسطس، ١٩٩٠

(٣) تاتشر، ص٨٢٧.

(٤) ديليب هايرو، **درع الصحراء إلى عاصفة الصحراء** (لندن :هاربركولولنز، ١٩٩٢)، ص٢٢٢

(٥) **صحيفة الثورة**، ٢ديسمبر، ١٩٩٠

(٦) **الايكونومست** (لندن)، ٢٢ ديسمبر، ١٩٩٠

(٧) تريب، ص٢٥٤

(٨) **الوفاق الوطني العراقي**، ١٤، ٢٠، ٢١، ١٩٩٠

(٩) **الوفاق الوطني العراقي**، ١٨يناير، ١٩٩١

(١٠) مقابلة مع المؤلف، أغسطس ٢٠٠٢

(١١) مجلة **أطلانتك الشهرية**، مايو ٢٠٠٢

(١٢) كمراسل حربي معتمد مع القوات البريطانية في عملية عاصفة الصحراء، يستطيع المؤلف أن يثبت بأن قوات التحالف كانت في حالة إنذار متواصل تحسبا لهجوم بالأسلحة الكيمياوية العراقية.

(١٣) في عام ١٩٩٨ أكد مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة من أن كميات فعلية من أسلحة الجمرة الخبيثة نشرت في الكويت وجنوب العراق إبّان حرب الخليج. أنظر **سانداي تلغراف** (لندن)، ١٥ فبراير، ١٩٩٨

(١٤) تايم، ١٨ سبتمبر، ١٩٩٥

(١٥) بغداد دومستك سيرفس، ١٨ يناير، ١٩٩١

(١٦) المصدر السابق، ٢٠ يناير، ١٩٩١

(١٧) سي أن أن، ٢٨ يناير، ١٩٩١

(١٨) بغداد دومستك سيرفس، ٣١ يناير، ١٩٩١

(١٩) لورنس فريدمان و أفرايم كارش، **صراع الخليج ١٩٩٠-١٩٩١** (لندن :فيبر و فيبر، ١٩٩٣)، ص٣٧٧

(٢٠) تايمز (لندن)، ١٦ فبراير، ١٩٩١

(٢١) المصدر السابق، ٢٣ فبراير، ١٩٩١

(٢٢) بغداد دومستك سيرفس، ٢٦ فبراير، ١٩٩١

(٢٣) الانديبندنت (لندن)، ٦ فبراير، ١٩٩١

(٢٤) المصدر السابق، ٢٨ فبراير، ١٩٩١

(٢٥) مجلة أطلانتك الشهرية، مايو ٢٠٠٢

الفصل الثاني عشر : الباقي على قيد الحياة

(١) فريدمان و كارش، ص٤١١.

(٢) هانسارد (مجلس العموم)، ١٥ يناير، ١٩٩١

(٣) نيويورك تايمز، ٢٦ يناير، ١٩٩١

(٤) راديو بي بي سي ٤ ، «حرب الصحراء-ضرب من النصر»، ١٦ فبراير، ١٩٩٢

(٥) انترناشنال هيرالد تريبيون، ٢٨ مارس، ١٩٩١

(٦) كوكبيرن و كوكبيرن، ص٢٧

(٧) سانداي تايمز (لندن)، ١٠ مارس، ١٩٩١

(٨) مصدر خاص.

(٩) مصدر خاص.

(١٠) سكوت ريتر، **نهاية اللعبة: حل مشكلة العراق-بصورة نهائية** (نيويورك :سيمون و شوستر، ١٩٩٩)، ص١١١

(١١) أي بي سي نيوز، تقرير بيتر جيننغز (نيويورك)، ٢٦ يونيو، ١٩٩٧

(١٢) كوكبيرن وكوكبيرن، ص٣٨.

(١٣) مقتبس من ميشيل ر. غوردون و بيرنارد ي. ترينور، **حرب الجنرالات** (نيويورك: منشورات باك باي، ١٩٩٥)، ص٥١٧.

(١٤) أبو ريش، ص٣١٩.
(١٥) الأوبزيرفر (لندن)، ١٢ يوليو، ١٩٩٢
(١٦) تايمز (لندن)، ٤سبتمبر، ١٩٩٢
(١٧) مقابلة مع المؤلف، سبتمبر ١٩٩٨ إنّ اسم سامي صالح هو اسم مستعار.
(١٨) ديلي تلغراف (لندن)، ٢٣ أغسطس، ١٩٩٣
(١٩) أبو ريش، ص٣٢٦.
(٢٠) مقابلة مع المؤلف، أغسطس ١٩٩٩
(٢١) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢
(٢٢) مصدر خاص.
(٢٣) نيويوركر، ٥ أبريل، ١٩٩٩
(٢٤) كوكبيرن و كوكبيرن، ص١٨٩
(٢٥) مقابلة مع المؤلف، فبراير ٢٠٠٢
(٢٦) المصدر السابق.
(٢٧) المصدر السابق.
(٢٨) المصدر السابق.
(٢٩) مقتبس من تايم، ١٨سبتمبر، ١٩٩٥
(٣٠) استطلاع عن المواد الإذاعية العالمية في الإذاعة البريطانية، ١٤ أغسطس، ١٩٩٥
(٣١) التلفزيون العراقي، ١٢ أغسطس، ١٩٩٥
(٣٢) مصدر خاص.
(٣٣) مقابلة مع المؤلف، سبتمبر ١٩٩٨
(٣٤) كوكبيرن و كوكبيرن، ص٢٢٠
(٣٥) تايمز (لندن)، ١٨ مارس، ١٩٩٠
(٣٦) المصدر السابق، ص٢٢٩
(٣٧) انترناشنال هيرالد تريبيون، ٩سبتمبر ١٩٩٦
(٣٨) مقابلة مع المؤلف، مايو ٢٠٠٢
(٣٩) الوسط، ١٢ مارس، ١٩٩٧
(٤٠) تيم تريفان، أسرار صدام: اصطياد أسلحة صدام الخفية (لندن : هاربركولنز، ١٩٩٩)، ص٣٦٥.
(٤١) التلفزيون العراقي، ٢٢ يونيو، ١٩٩٧

(٤٢) عرض مفصل لاختراق الاستخبارات المركزية لليونسكوم تضمنته كتابة سيماور هيرش الموسومة «أفضل صديق لصدام» في نيويوركر، ٥ أبريل، ١٩٩٩

(٤٣) وليم شوكروس، **خلصونا من الشر** (لندن: بلومزبيري، ٢٠٠٠)، ص٢٤٣

(٤٤) تريفان، ص٣٧٤.

(٤٥) ريتر، ص٢٢٣

(٤٦) المصدر السابق، ص٢٢٤

الخاتمة : الوثن

(١) **سانداي تلغراف** (لندن)، ٢٨ أبريل، ٢٠٠٢

(٢) **غارديان** (لندن)، ١٧ مايو، ٢٠٠٢

(٣) **تايم**، ١٣ مايو، ٢٠٠٢.

(٤) مجلة **أطلانتك الشهرية**، مايو ٢٠٠٢

(٥) مصدر خاص.

(٦) **سانداي تلغراف** (لندن)، ٢٩ مارس، ١٩٩٩

(٧) **اسكتلندا الأحد**، ٢ أبريل، ٢٠٠٠

(٨) مقابلة خاصة مع المؤلف، أغسطس ١٩٩٩

(٩) مصدر خاص.

(١٠) مقابلة مع المؤلف، أكتوبر، ١٩٩٩

(١١) **سانداي تايمز** (لندن)، ١٥ أغسطس، ١٩٩٩

(١٢) مقتبس من **فانيتي فير**، فبراير ٢٠٠٠

(١٣) مصدر خاص.

(١٤) **نيويورك تايمز**، ٢٠ ديسمبر، ٢٠٠١

(١٥) **تايم**، ١٣ مايو، ٢٠٠٢

(١٦) **تايمز** (لندن)، ١٧ يونيو، ٢٠٠٢

(١٧) **الوطن**، ٢٨ يونيو، ٢٠٠٢

(١٨) **بريد الأحد** (لندن)، ١١ أغسطس، ٢٠٠٢

(١٩) المصدر السابق.